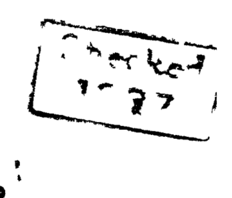
الشيخ عبدالله العلمي الغزّي الدمشقي



مؤتمر تفسير سورة يوسف

عليه السلام

الجزء الأول

دار [illegible]

بيروت

اهداء الكتاب

إلى ملوك الاسلام ورؤسائه وأمرائه وعلمائه

الأحياء منهم والذين عند ربهم يرزقون

« المؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة سماحة المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

الحمد لله الذي نور قلوب المؤمنين بنور اليقين والإيمان ، وشرفهم بكتابه العزيز فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين أشرف إنسان وعلى آله وصحبه ما تعاقب الملوان

أما بعد فلما كان أفضل ما يشتغل به المؤمن من العلوم علم الدين والقرآن ، وكان ممن عني بتفسير سورة يوسف على شكل عجيب من البيان الاستاذ العلامة النحرير الشيخ عبد الله العلمي الشهير وقد التُمس مني أن أدقق بهـذا التفسير ، فوجدته حوى من الفوائد ما فتح كل عسير وهو حري بالنشر ليفوح منه طيب العبير وأسأل الله تعالى أن يجزيه الثواب العظيم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ولنا وله ولكل المسلمين آمين

دمشق في ١٣٨١/١/٩ و ١٩٦١/٦/٢٢

المفتي العام للاقليم السوري

الدكتور محمد أبو اليسر عابدين

هذا التفسير

بقلم ابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي

لقد شغف والدي ـ تغمده الله برحمته ـ بكتاب ربه منذ نشأته العلمية والدينية وخاصة بعد تخرجه في الأزهر الشريف في عام ١٣٠٢ هـ ، فصرف كل وقته وجهده في الدرس والتمحيص عن مكنونات القرآن الكريم ، والبحث والتنقيب عن دفائنه ، ولما اختمرت آراؤه ونضجت أفكاره ، شرع في عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) في تدوين تفسير آيات القرآن التي له فيها رأي وفهم خاصين ، فجاء فيما يقارب الـ ٤٠٠ صفحة مخطوطة من القطع المتوسط ولما أتى على سورة يوسف عليه السلام ، رأى أن يضع لها تفسيراً جامعاً كاملاً من ألفها إلى يائها ، لما جاء في قصة يوسف من تصوير لشتى العواطف والنوازع الإنسانية ، وأحلام الشباب ، ونظام الأسرة ، وعلاقة الأخ بإخوته ، وطبيعة المرأة ، وأخلاق الملوك والأمراء والحكام ، وسمو الأنبياء ، كل ذلك مصور فيها تصويراً فذاً رائعاً محكماً ، كما أن فيها دروساً نفسية تعالج كثيراً مما نعانيه اليوم في حياتنا الخلقية والاجتماعية من المشاكل ومن السيئات ، كما أن بطلي القصة ، الملك ويوسف يمثلان نوعين من الحضارة والثقافة أحدهما يمثل الثقافة والحضارة الفرعونية وثانيهما يمثل الثقافة والحضارة العبرية

والأقاصيص الأخرى ، كقصص موسى وفرعون ، وموسى وهرون ، وهود وعاد ، وصالح وثمود ، وابراهيم والكلدانيين والفلسطينيين و الخ، لم تجمع من العظات والعجائب ، مثلما جمعته قصة يوسف (ع) ، ولم تضمن قصة من

القصص ، من المبكي والمضحكي ،والمدهشات والمعجبات ، والتطورات والانقلابات، ونصب الأحابيل ، والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق، والرحلات والانتصارات ، واللذة والعبرة ، والمقدمات والنتائج ،والصبر والفرج ، والحكم والعبر،والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والمماليك، وحسن السياسة وتدبير الملك وإقامة العدل ، ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائعهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين ، لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنه قصة يوسف (ع)

(وعدا ذلك فالقصة تعطينا صورة طبق الأصل لدرس حياة الشعب الاسرائيلي وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتضاء ، وحب واساءة واحسان ، وتعلمنا أن السجية أو الغاية عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطه، وهوشأنهم من القديم ، وحال سلائلهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، وقــــد قص الله علينا مفاوضة الاخوة في قتل أخيهم يوسف (اقْتُلُوا يوسفَ أو اطرَحوه أرضاً يَخلُ لكم وجْهُ أبيكم) « يوسف ٩ » لنوقفنا على بعض طبائع الاسرائيليين التي منها اجماعهم على شر الشرور لكي نعتبر ونكون دائماً على حذر من سلائلهم-أبناء العم !! - الصهيونيين الذين كأنما قانون الوراثة قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته ، ولنعلم أن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء الأجداد ،هو الدم الذي تمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية الذين يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب ، الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب موطنهم وأرضهم ، وتدمير اقتصادياتهم ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشتهم ، كما أنهم يريدون طرح أبناء عمومتهم العرب أرضــــاً لكي يكونوا أكثرية في فلسطين فيشكلوا دولتهم

الصهيونية الخيالية !! ويكونوا من بعد هذا كله (قوماً صالحين) تصلح لهم أمور دولتهم، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة) (١)

وأما السورة فقد جعلها الله تعالى سبباً من الأسباب التي يظهر فيها حكمه ، ووسيلة من الوسائل التي يرشد الناس بها للعبرة والعظة ، والرجل العاقل لا يقرأ هذه السورة لما فيها من التاريخ فحسب ، بل لما حوته من العظات ، وما اشتملت عليه من الحكم ، وما تضمنته من الأمثال وعجيب التدبير الإلـٰهي، والمسائل الاجتماعية والعبر الربانية

وقد أطلق المؤلف ـ رحمه الله ـ على هذا التفسير اسم « مؤتمر تفسير سورة يوسف » لأنه ألفه على لسان مؤتمر (٢) مفترض عُقد في المسجد الأقصى من بيت المقدس ودُعي إليه عدد كبير من علماء المسلمين والمسلمات الاعلام، من شتى البلاد والأمصار ، ومن مختلف الأجناس والألوان والهيئات والاختصاصات ، للاشتراك في تفسير هذه السورة الكريمة وافترض لأعضاء المؤتمر أسماء رمزية منسوبة إلى بلادهم أو اختصاصاتهم أو غير ذلك ، وجعل المؤلف نفسه سكرتيراً أو رئيساً للمؤتمر بحيث أنه يقرأ هو الآية على الأعضاء ، فيقوم أحدهم ويذكر لها تفسيراً ، وهذا التفسير اما أن يكون مذكوراً في كتب التفسير أو في غيرها فيُعزى عندئذ لصاحبه ، واما أن يكون غير مذكور أو يكون من مفهوم ورأي الرئيس ـ المؤلف ـ فيرمز إليه بقوله

« خذ ما آتيتك » أو « وإليك البيان وهو من مواهب الرحمن » أو « ونحن

(١) من اقوال المؤلف قبل ست وعشرين سنه
(٢) كما كان يقول المؤلف ذلك

يقول » أو « فافهم ، فافهموا » وإذا اختلف أعضاء المؤتمر في تفسير آية مّا، يفصل الرئيس في الموضوع ، إما بمشاطرة قائله ، أو بالتعليق عليه ، أو برده بالحجـــة والبرهان هذا ولم يغمط المؤلف حق المرأة في هذا المؤتمر ، بل أشركها فيـه لبيان رأيها في الآيات التي تخص بنات جنسها خاصة ، وكلي الجنسين عامة ، مراعياً بذلك مكانة المرأة المسلمة العالمة ، ومعيداً به ما كان يجري في عهد الرسول ﷺ، وعهود خلفائه الراشدين رضي الله عنهم

ولم يقتصر هذا المؤلّف على التفسير البحت لسورة يوسف (ع) بل تضمن مباحث تاريخية وأدبية ولغوية وأخلاقية واجتماعية، وتضمن تحقيقات علمية ودينية وتفسيرية شتى، وتضمن ردوداً على مفتريات دعاة النصرانية على الدين الاسلامي والقرآن الكريم.

فانظر إلى مقدمة التفسير ، تجده قد ذكر لك نبذة تاريخية عن حياة كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام

وذكر فيما بعدها تحقيقات شتى عن الناسخ والمنسوخ والمتشابهات في القرآن ، ثم جمع القرآن ، لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ، ترجمة القرآن ، اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية، مقابلة بين آيات قصة يوسف فى القرآن وفي التوراة، قصص التوراه ، الوحي ، ضرر تعدد الزوجات ، حال التاريخ قبل الإسلام وبعده غلط اليهود فى تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان فى التوراة ، الاسترقاق ، رد على زعم دعاة النصرانية بشأن تحرير الرقيق فى الإسلام ، المرأة وفضليات النساء في التاريخ ، عقيدة الإيمان الكاملة بالله ، أركان الإيمان الستة ونصوص عقيدة التوحيد في الانجيل ، التثليث عند شتى الأمم ، فرق النصارى الشهيرة ، وجود المسيح (ع) من غير أب آية على وجود القيامة ، الرد على النصارى في اعتقادهم بألوهية المسيح ، الدين والعلم أخوان ، التوسل ، الدين الإسلامي والسعي فى الدنيا ، التصوف في

الإسلام ، التوحيد والبراءة من الدياني السريعة المسيحية ، عقيدة الصلب والفداء، قدر الله،من تاب غفر الله له والمغفرة في التلمود والانجيل ،أنواع الادعية في القرآن، الإسلام دين جميع الرسل ، الأصل في دعوى المسيح وموسى التوحيد المطلق ، الدين الإسلامي قام بالحجة لا بالسيف والقوة، محمد (ص) مؤسس أمةوامبراطورية وديانة ، القرآن مصدق لما قبله من أمور التوحيد وأصول الدين وكتب التوحيد والكتب السماوية الأصلية ،شواهد من التوراة الحالية على أن فيها زيادة وأنها كتبت بعد السبي

وعلى ذلك فالكتاب والحالة هذه ، يعد أهم مرجع للعلماء والهـــداة والخطباء والوعاظ والمدرسين والأدباء والمرشدين،ويعد خير معلم لطلاب العلم والدين المشتغلين في البحث والدرس لا سيما دروس الدين وأصول التفسير والجدل الديني

وقد انتهى المؤلف ـ رحمه الله ـ من تأليفه هذا قبيل وفاته (عام ١٣٥٥ هـ و ١٩٣٦ م) بقليل ، أي قبل أربع وعشرين سنةونيّف ، ولم يكن من المتيسر لنا نشره آنذاك لأسباب عدة ، ولعل من توفيق الله أن تتهيأ الفرصة الآن لنشره في هذه الفترة من الزمن ، التي تطورت فيها الروح العربية ، واتجه فيها تفكير المثقفين إلى المباحث الدينية على أسلوب علمي ، كان المؤلف رحمه الله ، يلتزمـــه في كل مباحثه ودراساته

وأخيراً ها هو الكتاب الآن بين يديك ، ومنه تتعرف على المؤلّف ، إذ ليس من حقي أن أطري هذا الأثر الديني العلمي أكثر من ذلك ، لأنه من آثار أبي ، بل إني أقدمه للقراء وقد جاء فيه طابع مؤلفه ، وجاءت فيه قوة روحه وإيمانه ، وجاء فيه مبلغ كفاحه في إعلاء شأن كلمات ربه وكفى

تقديم الكتاب

لفضيلة علامة الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار الدمشقي
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عرفت فقيد الإسلام الكبير العلامة الجليل الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي الغزي ثم الدمشقي (رحمه الله تعالى) منذ حل ربوع دمشق في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٨ م)، فعرفت من علومه ومعارفه ، ومن مزاياه وخصائصه ، ما كان به نسيج وحده . كان رحمه الله شيخ العلم والكرم ، فلم تتفق لي أن زرته مرة خلال هذه المدة الطويلة ، إلا ورأيت علمه وكرمه تتجاريان ، وإن أدري أيهما كان يسبق الآخر ، ولكنهما كانا فرسي رهان

لفقيدنا العظيم مؤلفات مخطوطة ومطبوعة ، ولكن أجلّ ما شرفني بالاطلاع عليه من مخطوطاته هو تفسيره الكبير لسورة يوسف عليه السلام ، فقد قرأت له نحواً من خمسين كراساً في تفسير هذه السورة ، كل واحد منها بلغ نحو أربعين صفحة بالقطع المتوسط ، وهو لعمري آية من آيات إبداعه وشغفه بكتاب ربه ، وصرفه كل ما يملك من وقت وعلم في هذه السبيل ، وقد رتبه رحمه الله ترتيباً عرساً خالف فيه أسلوب المفسرين ، ذلك بأنه عقد ليوسف وأبيه واخوته عليهم السلام مؤتمراً في بيت المقدس من أرض فلسطين موطنهم وموطن المؤلف الأول ، ودعا إليه مئات العلماء من أقطار العرب والإسلام

وطريقته في التفسير أنه يورد الآية ثم يعرضها على أعضاء المؤتمر في الجلسة المعقدة لتفسيرها، وبعض ما يورده معروف في كتب التفسير، ومعزوّ إليها أو مشهور

فيها ، وبعضه مما استفاده المفسر من مطالعاته في غيرها ، ومنها ما هو من تحقيقاته وآرائه الخاصة ، فإذا اختلف مفسرو الأقطار الحاضرون في المؤتمر في تفسير آية كان للاستاذ رئيس المؤتمر القول الفصل في الموضوع ، فهو تارة ينصر بعض هذه الأقوال على بعض ، وتارة ينفرد عنهم بقول آخر ، وهو يوجه القول ويعززه بالدليل والبرهان

ولما تكلم عن امرأة العزيز ونسوة المدينة، أخذ يردد أقوال مندوبات الأقطار، وهن يذكرن من أطوار النساء وأخلاقهن ما فيه العظة والعبرة

ومن مباحثهن في تفسير الآيات المتعلقة بهن ما يعيد لك عهد المفسرات المحدثات في عصور الإسلام الذهبية،ولنورد مثالاً من هذا الحوار في معاني الآيات الكريمة، وهو يمثل لك هذا التفسير العجيب أصدق تمثيل ، ويغني عن الإطالة في وصفه

(طلب ملك مصر ليوسف عليه السلام)

سورة يوسف الآية ٥٠

« وقالَ الملكُ ائتُوني بِهِ ، فلمّا جاءَهُ الرَّسول ، قالَ ارجع إلى رَبِّكَ فاسألْهُ مابالُ النِّسْوةِ اللاّتِي قَطَّعنَ أيْدِيهُنَّ ، إنَّ ربي بكَيْدِهِنَّ عليمٌ »

افتتحت الجلسة، وتليت الآية المحسون،فقامت السيده إنصاف الدمشقيةوقالت

(القصر يطلب يوسف)

كان رئيس السقاة قد رجع من عند يوسف ، حاملاً عبارة الرؤيا ، وهو يطوي الطريق طيا ، حتى حضر بين يدي الملك ، فقص الملك منه القصة ، وكان ينتظره وهو على أحر من الجمر ، فحكاها له كما سمع ، فأعجب الملك بذلك ، وأحب يوسف « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » (وقال الملك) الريان بلهفة مرحى !! ادهبوا

حالاً ، و (ائتوني به) أي بيوسف ، فإن له رأياً سديداً وحزماً ، وإن لي منه خير مشير ، لا سيما في الشؤون الاقتصادية .

فأرسل رئيس السقاة ليوسف (فلما جاءه الرسول) مندوب الملك الذي اسمه « سو » ، أخبره بما كان من الملك ، وطلب منه أن يخرج من السجن ، فتأبى يوسف وتثبت في إجابة الملك ، و (قال) للمندوب إني سوف لا أخرج إلا بعد الطرق التحقيق عما نسب إليّ ، لذا أرجوك (ارجع) ثانية (إلى ربك) جلالة الملك الريان (فاسأله) باللعجب !! (ما بال النسوة) المصريات الخمس ، عقيلات بعض أمراء البلاط (اللاتي) كن (قطعن أيديهن) يوم ما دعين في بيت سيدي العزيز ؟ (إن ربي الله سبحانه وتعالى (بكيدهن عليم) كيدهن الذي سبق لي منهن منذ بضع من السنين ، والذي أرجو بفصل البحث والتحقيق أن يرتد في نحورهن »

« وقد قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن به ، لئلا يسلو به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك، أو يجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما مكث في السجن بضع سنين إلاّ لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ويستكشف أمره ، ولأنه لو خرج قبل أن يعلم الملك والعزيز بشأنه ، لما زالت في نفسيهما يقولان فيها هذا الذي كان راود سيدته ، فأشفق من أن يرى مسكوكاً في أمره ، فأحب أن يزول عنه كل ريب فطلب التحقيق ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها ، في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » اهـ

اكتفي بهذا القدر اليسير من تفسير هذه الآية الكريمة الذي استغرق صفحات وفيه من الفوائد الدينية والأخلاقية والأدبية والعلمية والتاريخية الشيء الكثير بهذا الأسلوب السائق قد فسر رحمه الله سورة يوسف كلها ، وهو الأسلوب القصصي الذي جرى عليه ثلة من أرقى كتاب العصر ، وسبق إليه الكتاب العزيز

كما تراه فيما قص الله علينا من محاورات الرسل عليهم السلام مع أقوامهم ، وكتاب الله يمتاز بإيراده أحسن القصص وأصدقه وأنفعه، ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾، ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ وبإجتنابه القصص الخيالي والغرامي المفسدين للآداب والأخلاق الطيبة

أنفق فقيد الإسلام الأستاذ العلمي رحمه الله في هذا التفسير شطراً كبيراً من وقته وعمره ، وأودعه خلاصة علمه وتحقيقه ، وكانت أوقاته معمورة بالتدريس والتأليف ، وقد استفادت المدارس من أفكاره الدينية وأخلاقه المحمدية ،ولا سيما مدارس الاناث ، كما استفاد الطلاب والطالبات بل المعلمون والمعلمات ، من دروسه الخاصة التي كان يلقيها في داره على الصنفين ـ كل على انفراد ـ إيماناً واحتساباً

كان رحمه الله يأخذ على دمشق الشام اشتغالها بالحديث أكثر من التفسير ، ويقول « إن كتاب الله هو الأصل الأصيل ، وإن أنظار الأمم وأفكارها متجهة إليه وحائمة حوله أكثر ، فلم لا نتوفر على دراسته والدعوة إليه ودفع المطاعن عنه، ونجعل السنة ـ كما جعلها الله تعالى ـ مبينة له ، لا مستقلة عنه ، فندرسها دراسة تطبق على كتاب الله تعالى »

إن أفضل عمل نقوم به خدمة للكتاب العزيز ، ووفاء للراحل الكريم ،رحمه الله ، هو أمران (الأول) أن يقوم رجال من ذوي الغيرة بطبع مؤلفاته المخطوطة ، (الثاني) أن نخصص عشرة من أبنائنا وعشراً من بناتنا (كل مستقل عن الآخر) لدراسة علم القرآن والحديث ، وما يحتاج إليه من سائر العلوم العربية والشرعية وغيرها ، فيجددون لنا علم الدين ، وعهد أئمته السابقين ، ويحققون رجاء فقيد الأمة الشيخ العلمي في تفسيره ، فيصبح أقطاب مؤتمره التفسيري اليوسفي أعلاماً لمفسرين ومفسرات ، هم في عالم الحس والحقيقة ، بعد أن كانوا في عالم الغيب والخيال

دمشق محمد بهجة البيطار

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المنار

مجلة ومكتبة ومطبعة

شارع الإنشا رقم ١٤ — مصر

رقم التلفون ٤٣٣٤٩

REVUE

14 Incha St — Cairo

Tel 43349

القاهرة في ١٥ ١٣٥١هـ الموافق سنة ١٩٣

حضرة الأخ في الله عز وجل الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله العلمي حفظه الله ونفع به

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد فإن أخي وأخاكم وصديقي وصديقكم الأستاذ الشيخ محمد كامل البسط[illegible]
ما زال يثني علي المرة بعد المرة بما يسرني من أخباركم وتوفيقكم لخدمة كتاب الله تعالى وقد أثار شوقي للاطلاع على ما
كتبتم في تفسير سورة يوسف عليه السلام وما فتح الله عليكم فيه مما لم يسبقكم إليه أحد من المفسرين المعروفين، وإني لا
أشك في ذلك على رويتكم وسعة اطلاعكم على كتب اليهود والنصارى وتحريكم مما تعودناه وأوسعه للاستنباط فعسى أن [illegible]
علي بإرسال هذا التفسير كله أو ما تختصون منه لاطلاعي عليه واستفادتي منه ثم أصارحكم برأيي فيه وما أراكم تكرهون
ذلك فإنه قد يكون مذكرا بما لا يخلو من فائدة. وأخص بالذكر من هذا التفسير (مسألة ما قطع أمر يوسف ومحنة يعقوب عليهما السلام لأذكر)
بالحصول من أنواع معرفته والعلم الذي خصه الله تعالى به في قوله (وإنه لذو علم لما علمناه) وكذا شعوره الروحاني الذي عبر
عنه بقوله (إني لأجد ريح يوسف) ورأيكم في شدة حرصه على يوسف مع اعتقاده بوجوده ورجائه في لقائه الخ والسلام عليكم

أخيكم

محمد رشيد

« هذه الرسالة من الأستاذ الإمام السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أرسلها

إلى صديقه الأستاذ الشيخ عبد الله العلمي في ١٥ صفر سنـــة ١٣٥١ هـ يطلب

فيها منه أن يطلعه على كل أو بعض كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف »

التعريف بمؤلف الكتاب

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد علي عمار الدمشقي

الشيخ عبدالله العلمي الغزي الدمشقي - هو الأستاذ الإمام ، المفسر الكبير لكتاب الله تعالى ، والمجتهد الخطير ، وصاحب الآراء الحرة السديدة ، والتآليف النافعة المفيدة ، الاحصائي الفريد في علم الجدل والمناظرة ، والمجدد لأفكار سلف الأمة الصالح ، ورابع المصلحين الذين ظهرت كواكبهم في سماء الاصلاح الديني ، وانبعثت منهم روح النهضة الإسلامية في مصر والشام، وفي مقدمتهم الأستاذ العلامة الحكيم الشيخ جمال الدين الأفغاني ، ثم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ثم فضيلة عالم الشام الإمام الشيخ جمال الدين القاسمي ثم فضيلة أستاذنا المعرف به رحمه الله تعالى ، فهؤلاء بلا شك ، هم عظماء الأمة الإسلامية في القرن العشرين .

ولادته ونسبه ولد رحمه الله في سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م) في بلدة غزة هاشم من أعمال فلسطين ، في بيت من بيوتات المجد والشرف ، ومن أسرة مشهورة بالعلم والصلاح

وأبوه محمد بن صلاح الدين بن مصطفى بن صلاح الدين بن مصطفى بن سعد الدين بن نور الدين من آل (العلمي) الكرام وهو نسب يرجع في الأصل إلى قبيلة عربية من قبائل المغرب منسوبة إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولذا يلقب (بالعلمي الحسني)

نشأته ودراسته بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادىء اللغة والعلوم في مدارس غزة الابتدائية ، رغب في طلب العلم فشرع يقرأ على علمائها الأعلام

كالشيخ سليم العلمي والشيخ عبد اللطيف الجاربدار والشيخ عبد الوهاب العلمي وأخيه الشيخ حسن العلمي وشيخ مشايخ غزة الشيخ راشد المطلوم .

ولما بلغ السادسة عشرة من العمر سافر إلى مصر في سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) والتحق بالأزهر الشريف ، ومكث فيه يتلقى العلم مدة سبع سنوات فاق فيها أقرانه حتى لقبوه (بالشيخ) ، قبل أن ينهي دراسته ، وحملوه علماً عليه ، وهو تلميذ بعد وقد روي عن أحد زملائه المعاصرين له خلال الدراسة في الأزهر ، وهو العالم الصوفي ، الأستاذ الشيخ عبد الخالق الشراوي المصري المتوفى سنة ١٣٥٣هـ أنه قال (كنا في كل عام قبل حلول موعد العطلة الصيفية الأزهر نتسابق إلى دعوة الشيخ العلمي ، حينما كان تلميذاً فيه ، إلى بلادنا خارج القاهرة للاستماع من علمه)

هذا وقد قرأ الاستاذ الفقيد في الأزهر على الشيخ شمس الدين الاشموني ، والشيخ شمس الدين الأسابي (شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك)، والشيخ محمد البحيرمي ، والشيخ شمس الدين البحيرمي ، والشيخ شهاب الدين أحمد الرفاعي ، والشيخ إبراهيم الظواهري ، والشيخ شمس الدين الجيزاوي (شيخ الجامع الأزهر آنئذ)

وفي عام ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) رجع إلى بلده غزة فنال حظوة عظيمة من أهلها وعد من كبار العلماء فيها ، وبدأ يقوم بنهضة علمية فيها واسعة النطاق ، فانهال عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب ، فكون أزهراً صغيراً في الجامع العمري الكبير في غزة ، وقرأ عليه كثيرون وكانت دروسه أشبه بالمجالس النيابية إذ كان يطلب من كل تلميذ أن يبدي رأيه في الموضوع بحسب الشرع والعقل ، ثم يبين ويشرح للمصيب إصابته وللمخطىء خطأه بالدليل والبرهان ، فعود بذلك تلاميذه على التفكير والاستنباط في كل مسألة ، وبذا نبغ على يده علماء فطاحل ، كان

ولا يزال الحي منهم نبراس الهداية الإسلامية وركناً من أركان الهيئة الاجتماعية وأساساً للنهضة الفكرية التحررية ، وكل ذلك دون مقابل مادي، بل إيماناً واحتساباً لوجه الله تعالى مع فقره واحتياجه ، إذ كان ينفق عليه إذ ذاك والده السيد صلاح الدين رحمه الله ، إلى أن توفاه الله فالتجأ عندها الشيخ إلى العمل الحر والاشتغال بالتجارة حيث افتتح له « دكان عطارة » فاستن بذلك سنة طيبة لعلماء غزة ، وهي سنة العمل والاشتغال والكسب الحلال بعرق الجبين للترفع عن الصدقات والتبرعات والمساعدات واستغلال العلم للمادة

تقلده المناصب لقد اسندت الحكومة إليه في غزة عدة وظائف كان له فيها أثر ظاهر من التحسين والاصلاح والاخلاص ، ثم سافر إلى بيروت حيث عين فيها استاذاً للغة العربية في إحدى مدارسها ثم مدرساً لتفسير القرآن الكريم في جامع المجيدية فيها ، وكان يحرر باب التفسير فى مجلة « الروضة » البيروتية لصاحبها السيد محمد علي القباني ، ثم عاد إلى بلده غزة حيث عين فيها في وظائف حكومية أخرى، وفى أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨م) هاجر باسرتـه إلى دمشق قبيل احتلال الانكليز إلى بلده غزة ، فعينته الحكومة مدرساً للتفسير في جامع بني أمية ومدرساً للعلوم العربية والدينية في مدارس الاناث التابعة لوزارة المعارف إلى أن دخل في سن التقاعد ، واستمر هكذا يدرس التفسير الشريف في داره أو في مجالس العلم الأخرى إلى أن توفاه الله إلى رحمته تعالى

أخلاقه ومزاياه العلمية كان رحمه الله على جانب عظيم من الأخلاق العالية والصفات السامية ، يحترم أي شخص يجيء إليه ويكرمه غاية الاكرام ، وكان وفياً جداً لا يخلف وعداً ولا يؤخر موعداً ولا ينقض عهداً ولا موثقاً ، وكان

محباً للناس عموماً لا يفرق بين عظيم وحقير ولا بين صغير وكبير ، وكان متواضعاً حتى بين تلاميذه كأنه واحد منهم لا فرق بينه وبينهم ، وكان بشوشاً حداً لا تفارقه الابتسامة عند لقاء أي انسان ، وكان رحمه الله حسن المعشر وحلو الحديث يسر بمجلسه العظماء ويستأنس به الفقراء ويستفيد من مذاكراته العلماء وتنتبه بمعاشرته عقول الجهلاء

كان رحمه الله يحث تلاميذه على البحث والاستقلال الفكري ليكون لديهم المراس الكافي للاستنباط والتفكير الصحيح ، كما كان رحمه الله متمسكاً بالاسلام الصحيح بعيداً عن البدع والأوهام ، مناهضاً للجمود بلسانه وقلمه وشعره ونثره وقد لقي من جراء ذلك العنت الكثير ممن لا خلاق لهم من مدعي العلم المتطفلين عليه فكانوا يشاغبون عليه حينما كان يلقي دروس التفسير في الجامع الأموي ، بل كانوا يشتمونه ويلقبونه بشتى الألقاب والنعوت التي منها كلمة « وهابي » مثلاً

كان بحاثاً في كل شيء دؤوباً على المطالعة والدرس والتمحيص لا يكل ولا يمل قوي الذاكرة ،وكان إذا استفتاه أحد يجيب سائله بما يناسب استعداده واستطاعته لا يتقيد بمذهب واحد تيسيراً على المسلمين إذ كان يقول « نفتيهم بالأسهل من أقوال الأئمة لئلا يقعوا في الترك ، لأن النبي ﷺ هكذا كان يفعل » وله رحمه الله آراء خاصة في التفسير خالف فيها جمهور المفسرين وله فيها دلائل وبراهين ضمنها في طيات تفسيره الكبير الذي اشتغل فيه ما ربو على العشر سنين

وقد تخصص رحمه الله في تفسير القرآن الكريم وفي مجادلة من يسمون « بالمبشرين » من الديانات الأخرى ، وقد درس لأجل ذلك التوراة والأنجيل وتفاسيرهما وشروحها على علماء اليهود والنصارى ، كما درس على المتخصصين من العلماء علوم الجغرافية والتاريخ والرياضة والفلك وعلوم المواليد الثلاثة والفلسفة

الطبيعية ليفهم القرآن حق الفهم وليفهمه للناس بلغة سهلة مسايرة للعقل والعلم والتاريخ وليبرزه أمام العالم أنه هو الكتاب الحق الواجب اتباعه

كان رحمه الله مرجعاً للعام والخاص عند حل المشكلات ودفع الشبهات عن كتاب الله تعالى وعن سنة نبيه ﷺ، وكان طيلة حياته ينشر العلم الصحيح ويحارب البدع ويستنبط من كتاب الله الكنوز الثمينة المدفونة من حين وفاة الرسول ﷺ، كما كان الحصن الحصين لكتاب الله وسنة رسوله من شبه « المبشرين » والملحدين، وقد أعطاه الله صدراً واسعاً وحكمة بليغة، ولساناً نطوقاً، وأفكاراً نيرة، أعطاه الله هذه المواهب هبة خاصة له لم نرها في غيره من العلماء المعمرين، وقد ترك من آثاره العلمية ردوداً مفحمة على « المبشرين » من رجال الأديان الأخرى، وعلى الملحدين من غيرهم، كما ترك تحقيقات وفوائد على كثير من الآيات القرآنية مما خلد ذكره، ويوجب على الأمة الإسلامية أن تدعوا إليه بالرحمة والمغفرة وأن يجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هذا عدا عما ترك لنا من العلماء الحقيقيين في غزة وفلسطين ثم في سورية، وحق علينا أن نعزي به المسلمين والإسلام أولاً وأنفسنا ثانياً

شعره للأستاذ العلمي رحمه الله تعالى، شعر رقيق ونظم رشيق يعد في الطبقة الثانية، وقد قال أكثره في العلوم والحكم والقضايا الاجتماعية والأخلاقية، فمن شعره قصيدته الاجتماعية المشهورة التي كان ألقاها في إحدى محاضراته في المجمع العلمي العربي بدمشق والتي عنوانها « الطلاق ومساوئه »، ومنه أيضاً قصيدته الأخلاقية التي عنوانها « نأوهات ابن العلمي »

مؤلفاته المطبوعة

١ـ رسالة (النصيرة على بيتي الحيرة في مذهب الإمام الشافعي) وهي

رسالة جامعة لجميع صور الحصرة مع ما يتعلق بها من الاحكام، طبعت في سنة ١٣١٣ هـ.

٢ ـ رسالة (الالماع على بيتي الرضاع في مذهب الامام الشافعي «ر ض» وهي رسالة تشرح بيتي الرضاع للامام جلال الدين القونوي ، وقد تكفلت بذكر جميع الاشخاص التي يتعلق بها حرمة الرضاع من الاصول والفروع والحواشي والقواعد المتعلقه بذلك طبعت في مصر سنة ١٣١٧ هـ

٣ ـ رسالة (البرق الوامض في شرح متن الفرائض المشهور بالرحبية) طبعت في مصر سنة ١٣١٨ هـ

٤ ـ رسالة (الحديقة في مولد خير الخليقة) وهي قصة منثورة للمولد السوى . طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٥ ـ رسالة (صبح الدجى في شواهد صور المجانس الشبيه بحروف الهجا)، وهي مقطوعات شعرية غزلية طبعت في القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

٦ ـ رسالة تشتمل على أربع منظومات الاولى تسمى (زورق البحور في علم العروض المشهور) والثانية باقة الرياض الغزلية فى مدح خير البرية ومدح الخلفاء الأربع والامام الحسين الأروع) والثالثة (الكوثرية في مدح خير البرية) والرابعة (مدح المخمور بالقدح المزمور) وهى عبارة عن قصيدة منظومة في الدنيـــا على طريقة السادة الصوفية اشارة الى ان الدنيا تظهر صورها القبيحة فى صور جميلة حتى خدعت ذويها وغرت محبيها طبعت في مصر سنة ١٣١٧ هـ

٧ ـ رسالة (النور دجة في قصة المولد الأرجة) وهي قصة المولد السوي معمولة على كيفية نظم المزدوجة بحيث جعل الناظم المصراع الثالث من كل تخميسة آية قرآنية بدون تغيير للفظها بحيث تناسب المقام ، وقد التزم ذلك من اول المولد

لآخره مع غاية المناسبة والانسجام بحيث يخيل للقاريء كأن الآية القرآنية سيقت ونزلت لافادة المعنى الذي حاوله الناظم بعد الاقتباس ، وهذا هو السحر الحلال ، ومثـاله

الحمـــد لله بليغ الحكمـــة حاد بمـــولد النبي نعمـــه
لكلٍّ شيءٍ وهدىً ورحمة) يرحم عرب خلقـــه وعجمه
بيمن نور المصطفى من مهر

وقد طبعت في القاهرة في سنة ١٣٢٥ هـ ثم اعيد طبعها في دمشق في سنة ١٣٥٠هـ بعد ان أجرى المؤلف تنقيحاً بسيطاً فيها ثم غير اسمه باسم (المورد الذي في قصة المولد المحمدي)

٨ ـ رسالة (الابهاج في قصتي الاسراء والمعراج) وهي نظم مخمس كل ثالث مصراع منه آية قرانية ، كرسالة المولد السالفة الذكر ، ومثاله

سم الذي أسرى بطـه مكرمـا ثم عليـــه بالعروج أنعمـا
(والله واسعٌ عليمٌ إنمـــا) دعاه عبـــده الى اعلا سمـــا
لأنه أدعى لمعنى الفخرِ

وقد طبعت في بيروت سنة ١٣٢٤ هـ

٩ ـ كتاب (الحرية والمبعوثان من معالم القرآن) وهو كتاب يثبت مشروعية مجالس المبعوثين (مجالس النواب) في القرآن الكريم ، كما يبين ان المساواة والحرية من معالم الكتاب الحكيم ، وان الاسلام وحد ومحاسنه سلطة مقيدة بالآيات القرآنية ، وذلك بمناسبة اعلان السلطان العثماني عبد الحميد ، دستور البلاد العثمانية إذ ذاك ، وتساؤل البعض عن شرعية مجلس المبعوثين الشوروي، وعن الحريه وهل هي موافقة للشرع ، ثم رداً على ما كان يقوله البعض الآخر بأن الحريه تنافي روح

القرآن وان الاسلام وحد وبحاســـه سلطة مطلقة والح طبع في بيروت في سنة ١٣٣٦ هـ.

مؤلفاته المخطوطة

١ ـ رسالة (الوعظ والارشاد) وتتضمن الدروس الدينية والاخلاقيـة التي كان يلقيها المؤلف رحمه الله على المستمعين لدروسه في جامع بني امية بدمشق حينما كان أستاذ دروس التفسير فيه

٢ ـ رسالة (مختارات العلمي من صحيح البخارى وصحيح مسلم « ر ض ») وتتضمن بضع مئات من الاحاديث النبوية التي اختارهـــا المؤلف من صحيحي البخاري ومسلم.

٣ ـ قصيدة (أذان المؤذن أو تأوهات ابن العلمي) وهي قصيدة تشخص الامراض الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والدينية والسياسية للمسلمين وتدعو حكامهم الى تطبيقها

٤ ـ كتاب (الشيخ والقسيس) وهو كتاب جدل ديني يتضمن نقاشا دينياً بين شيخ وقسيس يستندالشيخ في اقواله وردوده على ما جاء في التوراة والانجيل

٥ ـ رسالة (تحقيقات في حوادث تاريخية ودينيـــة) تتضمن ذكر الوقائع التاريخية والدينية للاديان الثلاثة مع ذكر سنة وقوعها منذ آدم (ع) حتى القرن التاسع عشر

٦ ـ كتاب (سوانح تفسيرية) لبعض آيات القرآن الكريم وبحث في فهم المؤلف الشخصي ورأيه الخاص في بعض آيات القرآن الكريم.

وفاته توفي رحمه الله تعالى في يوم الأحد في التاسع من شهر جمادى الاولى

سنة ١٣٥٥ هـ (٢٦ تموز سنة ١٩٣٦ م) اثر سكتة قلبية عن عمر يناهز السبعين والخمسة أعوام ودفن في مقبرة الأسرة بحي المهاجرين بدمشق .

هذا وقد اقامت له جمعية التمدن الاسلامي الدمشقية حفلة تأبين في قاعة محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق بمناسبة مرور اربعين يوماً على وفاته ، وقد القى في هذه الحفلة عدد غير قليل من العلماء والاساتذة كلمات عددوا فيها مآثره وفضله وعلمه ومزاياه ، رحم الله الفقيد رحمة واسعة واسكنه فسيح جناته ورضوانه

دمشق في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥

الموافق ٩ ايلول سنة ١٩٣٦

محمد علي عمار الدمشقي

ايضاح الرموز الواردة في التفسير

الرمز	ايضاحه
ق هـ	قبل الهجرة
ق . ن	قبل سيدنا محمد ﷺ سنة شمسية
ق م	〃 المسيح عليه السلام
ب م	بعد 〃 〃 〃
آ	آية قرآنية
ع	عدد آية قرآنية
٤ ۰ ۱۱	هذان الرقمان أو أمثالهما عند استعمالهما لكلمات من القرآن يرمز الرقم الأول منهما الى عدد السورة منه ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من تلك السورة وعند استعمالهما لكلمات من الإنجيل أو التوراة يرمز الرقم الأول منهما الى عدد الاصحاح ويرمز الرقم الثاني الى عدد الآية من ذلك الاصحاح
تك	سفر التكوين من التوراة
تث	〃 التثنية 〃 〃
٢ صم	〃 صموئيل الثاني من التوراة
مز	〃 المزامير من التوراة
أش	〃 أشعيا 〃 〃
مي	〃 ميخا 〃 〃
٢ مل	〃 الملوك الثاني من التورا

الرمز	ايضاحه
١ مل	سفر الملوك الأول من التوراة
خر	« الخروج من التوراة
لا	« اللاويين « «
يش	« يشوع « «
إر	« ارميا « «
يون	« يونان « «
عد	« العدد « «
حز	« حزقيال « «
١ أي	« الايام الاول من التوراة
٢ أي	« « الثاني « «
جا	« الجامعة من التوراة
قض	« القضاة « «
صف	« صفنيا « «
مت	« متى من الانجيل
لو	« لوقا « «
أع	« أعمال الرسل من الإنجيل
يو	« يوحنا من الانجيل
مر	« مرقص « «
رو	« رومية « «
غل	« غلاطية « «

الرمر	ايصاحه
١ ىط	سفر ىطرس الأول من الأىحيل
٢ ىط	〃 〃 الثاني 〃 〃
أف	〃 أفسس من الاىحيل
كو	〃 كولوسى 〃 〃
تي	〃 تيطس 〃 〃
رؤ	〃 رؤيا يوحنا من الإىحيل

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

وفيه مقدمة تحتوي على سبعة فصول

الفصل الأول

في دفع شبهة العجاردة على سورة يوسف عليه السلام

افتتحت الجلسة الأولى من جلسات مؤتمر التفسير فقام أول متكلم وهو الشيخ أمين البنر سعي (١) وقال

اسمحوا لي أيها السادة الأكارم أن أذكر كلمة عن شبهة وردت على هذه السورة الكريمة ، سورة يوسف ، قبل أن ندخل في تفسير آياتها

كان قوم يسمون « العَجَارِدَة » ينسبون إلى « عبد الكريم بن عَجَرَد » كانوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة ، أنكروا أن سورة يوسف من القرآن الكريم !!! قالوا « لأنها قصة حب وغرام ، ولأنها من السوَر الطويلة التي الشأن فيها نزولاً نجوماً !! »

(١) نثر سبع بلده في فلسطين

هذا هو التعبير الذي عبر به بعض المفسرين، وهو تعبير يوهم أن بعض العجاردة فرقة من الفرق الإسلامية ، وإن إنكار بعض سوَر القرآن كان مذهباً من مذاهب الإسلام ، مع أن كلمة « عجاردة » عبارة عن « حماد بن عجرد » واثنين آخرين معه ، وكانوا معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام (انظر ابن خلكان والشهرستاني وغيرهما تزدد علماً) وجوابنا عن هذه الشبهة الواهية أن الشق الأول من هذا الانتقاد منظور فيه لبداية حادثة الحب والغرام ، دون العاقبة والنتيجة ، ودون ما تخللها من الحكم والعبر والعظات ، وأما من نظر لمجموع ما وقع لامرأة العزيز والنسوة المصريات ، وما وقع على رؤوسهن ، أي من أحاط خُبْراً بمقدمات ذلك الحب ونتائجه علم أن الحب والغرام شؤم على صاحبه ، وأن الأفضل التباعد عن أسبابه ، وأما الجواب عن الشق الثاني فإن سورة «الأنعام» هي من السور الطويلة ، وآيها (١٦٥) آية ، وهي مكية ، ونزلت على النبي ﷺ جملة واحدة على الصحيح ، وكذا سورة (الكهف) هي نظير سورة يوسف في أنها مكية و(١١١) آية ، ونازلة مرة واحدة ، وثالثاً سورة (التوبة) هي (١٣٠) آية نزلت كاملة مرة واحدة بالمدينة ، وهؤلاء « العجاردة » الجهلاء لم يقولوا في هذه السوَر الثلاث « إنها ليست من القرآن » وأيضاً فالذي سنقرره سبباً لنزولها يقتضي أن تنزل على النبي ﷺ مرة واحدة ، وإليك البيان ، وهو من مواهب الرحمن

علم الله تعالى أن قريشاً ستكيد للنبي ﷺ وتناوئه ، وتعمل معه أعمال رؤساء الأسباط مع أخيهم « يوسف » ، فأنزل عليه « وهو بمكة » هذه السورة كاملة مرة واحدة ليحيط علمه بما سيقع له من قريش ، فكأن الله تعالى يقول لنبيه « أيها النبي الكريم ، ها أنا ذا أنزل عليك هذه السورة ، لتعلم ماذا صنع رؤساء الأسباط مع أخيهم يوسف ، فتقيس أحوال قريش على أحوال هؤلاء وتقيس شخصك على شخص أخيهم ، فيوسف الصديق هو كان يوسف إخوته

الأسباط، وأنت اليوم يوسف قريش، فكن يايوسف اليوم على حذر، واعتبر، فالتاريخ عبرة لمن اعتبر.

أقول والمناسبة بين نبينا ﷺ مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته من وجوه، وإليك البيان

يوسف يهود فلسطين	يوسف «محمد» قبائل قريش
(١) ـ كريم ابن كريم ابن كريم كما في الحديث الصحيح	(١) ـ خيار من خيار من خيار، كما في الحديث الصحيح
(٢) ـ اسم أبيه «اسرائيل» مركب تركيباً إضافياً، وآخره «إيل» ومعناه الله	(٢) ـ اسم أبيه «عبد الله» مركب تركيباً اضافياً، وآخره «الله» مرادف «ايل»
(٣) ـ أمه «راحيل» كانت عربية وكان ابوها «لابان» وثنياً وماتت وهي مسافرة في طريق «بيت لحم» وهي من صميم العشيرة التي منها إبراهيم، لأنها ناحورية	(٣) ـ أمه «آمنة» كانت عربية وكان أبوها «وهب» وثنياً، وماتت وهي مسافرة بين مكة والمدينة، وهي من صميم قريش لأنها زهرية
(٤) ـ ماتت أمه وهو صغير، فحضنته حاضنتها «بلهه»	(٤) ـ ماتت امه وهو صغير، فحضنته حاضنتها «بركة الحبشية» أم أيمن.
(٥) ـ رعى الغنم «تك ٣٧ ٢» أي غنم أهليه ودونه فقط	(٥) ـ رعى الغنم على قراريط لأهل مكة من أهليه ودونه فقط

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
(٦) – أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة التي جاءت كفلق الصبح وكما ثبت من القرآن الكريم	(٦) – أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، كما في البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح .
(٧) – حسده اخوته وتألبوا عليه	(٧) – حسده أقرباؤه من قريش وتألبوا عليه
(٨) – بُشر بمستقبل باهر بلسان أبيه	(٨) – بشر بمستقبل باهر بلسان « ورقة بن نوفل »
(٩) – تآمرت إخوته على قتله أو طرحه ارضاً أو إخراجه من فلسطين وكنعان	(٩) – تآمر أقرباؤه قريش وألصق الناس به من ذوي قرباه فمن مشير بقتله ومن قائل بإثباته ومن قائل بإخراجه
(١٠) – اضطرته إخوته للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته وتوفى عزيزاً في مهجره	(١٠) – اضطره أقرباؤه قريش للمهاجرة من وطنه ، فهاجر مضطراً بسبب إخوته قريش وتوفى عزيزاً في مهجره
(١١) – اتهم زوراً بعشق امرأة عبدٍ « العزيز » ثم برأه الله تعالى	(١١) – اتهم زوراً بعشق امرأة عبدٍ « زيد » ، ثم برأه الله تعالى
(١٢) – لما سُجن دخل معه في	(١٢) – لما سَجن نفسه في غار

يوسف يهود فلسطين	يوسف «محمد» قاتل قريش
سجنه فتيان، تقي وشقي، وهما الساقي والخباز	«ثور» إلجاءً وقهراً دخل معه في غاره اثنان، تقي موحد، وهو أبو بكر، وشقي مشرك، وهو دليلهما الذي كانا استأجراه بالدراهم واسمه عبد الله بن أريقط
(١٣) ـ أشاع أعداؤه أنه قتل بافتراس الذئب إياه، ثم تبين كذب ذلك	(١٣) ـ أشاع أعداؤه أنه قتل في غزوة أحد، ثم تبين كذب تلك الاشاعة .
(١٤) ـ أُلقي في الجب بيد اخوته من الأسباط	(١٤) ـ وقع في الحفرة في غزوة أحد التي حفرها له اقرباؤه من قريش
(١٥) ـ كانت إخوته يستهزىء به، ويقول «هذا صاحب الأحلام» سخرية منه	(١٥) ـ كان يوجد جماعة يستهزؤن به كثيراً حتى سموا بالمستهزئين ﴿ إنّا كفيناكَ المُستهزئين ﴾ (١٥ ٩٥)
(١٦) ـ المستهزؤن بيوسف كانوا ثمانية أنفار، وهم شمعون، لاوي، دان، نَفتالي، جاد، أشير، يَسّاكَر، زَبُولون، على عدد مواد الكيد المذكوره في هذه السوره وأما رَأوبين ويَهودا وبَنْيامين فلم يكونوا كذلك	(١٦) ـ المستهزؤن بالنبي كانوا ثمانية اشخاص، وهم أبو جهل، ابو لهب عقبة بن أبي مُعَيط، العاصي بن وائل السَّهْمي، الأسود بن المطلب الأسدي، الوليد بن المغيرة، النضر بن الحارث العَبْدَرِي .
(١٧) ـ «لَيْئَة» امرأة أبيه	(١٧) ـ «أم جميل» امرأة عمه

يوسف يهود فلسطين	يوسف « محمد » قبائل قريش
وهي من ذوي رحمه ، لانها خالته ـ كانت تكرهه وتحرص عليه	أبي لهب ، « والعم أب » وهي من ذوي رحمه ، لأنها من قريش ـ كانت تكرهه وتحرص عليه
(١٨) ـ لا تعرفه العرب نبياً تقليداً ليهود يثرب	(١٨) ـ لم تعترف العرب بنبوته
(١٩) ـ أوتي النبوة والرسالة ورآسة بيت المال ، والاحتباء والحكم والعلم .	(١٩) ـ كذلك حرفاً بحرف
(٢٠) ـ كانت عاقبة أمره الانتصار الباهر ، والعز بعد الذل والقوة عقيب الضعف	(٢٠) ـ حاز في عقباه إكليل النصر ، وخلق الله له من ضعفه قوة ، وولّد له من ذله عزّاً .
(٢١) ـ أم أبيه يعقوب غريبة	(٢١) ـ أم ابيه عبد الله غريبة .
(٢٢) ـ اعترف اخوته له بالخطاء فغفر لهم	(٢٢) ـ اعترف اقرباؤه قريش امامه بالخطاء فعفا عنهم
(٢٣) ـ اضطهد وشرد عن وطنه فلسطين لمصر ، ثم رجع اليها معززاً مكرّماً ، ثم قفل راجعاً لمصر وبها توفى	(٢٣) ـ اضطهد وشرد عن وطنه مكة للمدينة ، ثم قفل اليها متوجاً [illegible] وإكليل النصر ، ثم عاد إلى المدينة وبها توفي
(٢٤) ـ أبوه يعقوب مات غريباً	(٢٤) ـ أبوه عبد الله مات غريباً

[ايقاف النبي ﷺ على طبائع يهود المدينة]

إذا تقرر هذا فلننتقل بالقارىء العزيز من قريش مكة إلى يهود المدينة فنقول علم الله تعالى أن النبي ﷺ سيبارح مكة للمدينة المنورة وسيتخذها مهجراً له طيلة بقية عمره ، وبالتالي علم سبحانه أن النبي سيجاور اليهود الذين فيها ، ويكون بينه وبينهم تماس وتحاكك ، فأراد أن يوقفه على طبائع أسلافهم الأقدمين ، ليعرف طبائع المتأخرين لأنهم سلائلهم ، فهم طبعاً يمثلونهم ، كيف لا ودم هؤلاء من دم أولئك ، وغرائزهم موروثة من غرائزهم وأخلاقهم تمثل أخلاقهم ، فلذلك أراد الله تعالى أن يعلم نبيه أن الأكثرين في اليهود ظلمة ، مكرة ، ليسوا بأصحاب وفاء في العهود ، وليس عندهم شرف في الوعود ، بل هم أهل غدر وأصحاب خيانة ، لا يَرقُبُون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، ولا يصلح لهم من معاملة النبي إياهم إلا كمثل ما عمل معهم أخوهم يوسف ، لا تتقيد معهم بشيء إلا حسب ما تقتضيه المصلحة ، وتستدعيه الرأي ، وبالجملة فهذه السورة هي ظل حياة اليهود ، وصورة صادقة من أخلاقهم ، فمن أراد أن يقف على الكثير من ميولهم وشيمهم ! فليمعن في التدبر في مرامي هذه السورة اليوسفية وبعبارة أخرى أراد سبحانه وتعالى أن يُعلم نبيه أن نسبة الصالح منهم لغير الصالح في أولاد الأنبياء الصلْبيين إنما هي كنسبة اثنين لاثني عشر !!! فما بالك فيما إذا لم يكونوا من أصلاب الأنبياء ؟!! لعمري لا يسعك إلا أن تقول إن الأكثرية الساحقة فيهم طغاة قساة ، بؤورة كذب ، ومنابع حيل واحتيال ، وأمثلة غدر بالوعود والعهود ، ومثلوا الدعارة والخيانة ، و و . لحلح ألهم إلا قليلاً ، ويمكنك أن تفسر هذا القليل بأنه واحد في الألف !!! فلما أراد الله أن يطلع نبيه ﷺ على غوامض طبائعهم الخسة ! .. وخوافي

شمائلهم الدنيئة ؛ ليكون على بصيرة من الأمر ، وليعرفه أنه وإن تكن أسماء عم للعرب ، لكن يوجد بين الشعبين فرق كبير ، وكبير جداً ، أستغفر الله، بل يوجد بينهما فروق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين الظلمة والنور ، فلذلك قص عليه هذه القصة التي تمثل غرائز أسلافهم تمثيلاً ، وكأن الظروف الآتية هي من أمثلة فن الحفر على المعدن (ريكو غراف) ستخرج إلى الملأ صورة طبق الأصل عن تلك الخلائق « الحميدة » ! والشيم « الشريفة » ! . التي من رآها علم صحة القول المأثور « حب المؤمن في نسله » ، وصدّق كلام القائل « نعم الجدود ، ولكن بئسما نسلوا »

فكأن الله تعالى يقول انظر أيها النبي العظيم ، انظر ماذا عمل رؤساء الأسباط من الكيد والختل والغدر مع يوسف ، فإن سلائلهم يهود يثرب سوف يعملون معك ما يقاربه ، فما أن يوسف الصديق هو يوسف الأسباط قديماً ، وأنت ستكون يوسف سلائلهم الجديد ، فيهود المدينة كما سبق أن أجدادهم عملوا تلك الفظائع مع يوسفهم العتيق ، فسوف يعملون نظيرها معك أنت يا يوسفهم الجديد ، وعليه وبالنتيجة ينبغي لك أن تعاملهم بدأً وغاية ، معاملة سلفك لأسلافهم بدأً وغاية

أقول والمناسبة بين نبينا ﷺ مع اليهود ، وبين يوسف الصديق مع إخوته ظاهرة من شتى الوجوه ، وإليك البيان

يهود فلسطين	يوسف « محمد » يهود يثرب
(١) ـ حسده إخوته ﴿ إذ قالوا ليوسُفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ (٨ع)	(١) ـ حسده يهود يثرب كما قال تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على ما آتاهُمُ اللهُ من فضْلِه ﴾ (٤ ٥٣)

يوسف يهود فلسطين	يوسف «محمد» يهود يثرب
	قبل الناس سيدنا محمد، وقبل العرب، بسبب كون بعثته نبياً منهم
(٢) ـ أنكر اليهود نبوته	(٢) ـ أنكر اليهود نبوته
(٣) ـ باعترافه في أرض مصر تمكن فيها كما قال تعالى ﴿وكذلكَ مكَّنّا ليوسف في الأرضِ، يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاء﴾ (ع ٥٦)	(٣) ـ بذهابه للمدينة تمكن في أرضها وصارت الناس تدخل في دين الله أفواجاً
(٤) ـ الذين عادوا يوسف عداء، شديداً كانوا ثمانية فقط، وهم شمعون، لاوِي، دان، نفتالي، جاد، أشير، يسّاكر، زَبُولُون، وأما رأوبين ويهودا فكان عداؤهما ليوسف ضعيفاً جداً، أما بنيامين فأمره ظاهر	(٤) ـ إن طوائف اليهود الذين هاجر النبي لجهتهم وتعرف إليهم وعادوه عداءً شديداً هم ثمانية أيضاً، وهم يهود تَيْما، يهود فَدَك، يهود وادي القرى، يهود خيبر، وبنو بهدل، هذه خمس، وفي المدينة ثلاث قبائل وهم بنو النضير، بنو قينقاع، بنو قريظة.
(٥) ـ إخوته تفاوضوا في شأن قتله	(٥) ـ بنو النضير همّوا بقتله بعد المفاوضة بينهم
(٦) ـ قال إخوته ﴿وإنّا له لناصحون﴾، ﴿وإنا له لحافظون﴾، لَئِن أكلَهُ الذئبُ إنّا إذاً	(٦) ـ بنو قينقاع عقدوا عهداً مع النبي مقتضاه ترك محاربته وأذاه وأن لا يعينوا عليه أحداً، ثم عند الظفر

يوسف يهود فلسطين

لخاسرون ﴾، ثم ما عتموا أن أخلفوا الوعد ونقضوا العهد

يوسف «محمد» يهود يثرب

غدر ، نبذوا ماعاهدوا عليه المسلمين ، وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم ، فكانوا أول من غدر

وكذا بنو النضير - كانوا عاهدوا النبي بمثل معاهدة بني قينقاع ثم نكثوا العهد باجتماع سيدهم « سلام بن مشكم » واتحاده مع أبي سفيان، ثم إن عظيمهم كعب بن الأشرف ، أخلف العهد أيضاً بكونه صار يحرض قريشاً على محاربة النبي ويهجوه بالشعر ،وشبر الشقاق بين المسلمين ، وهكذا أبو عفك كان في الشر ونبذ العهد ، وكذا فعل بنو قريظة وغطفان من اليهود نقضوا العهد واشتركوا مع الأحزاب في غزوة الخندق

(٧) - يهود فلسطين قالوا . ﴿ ونحنُ عُصبة ﴾ فكانوا أقوياء أشداء وكانوا يفتخرون بذلك ثم

(٧) - يهود بني قينقاع ، كانوا أشد اليهود بأساً ، ولذلك كانوا أول من غدر ، ونبذوا الحرب النبي جهراً ،

يوسف « محمد » يهود يثرب	يوسف يهود فلسطين
ثم عفا هو عنهم بتوسط « عبد الله بن أُبَيْ »	تصدوا لحرب يوسف جهراً بإيذائه وإلقائه في الجب وتشريده ، ثم عفا هو عنهم
(٨) ـ كذلك حرفاً حرفاً	(٨) ـ كانت عقباه انه ظفر بالانتصار عليهم والعود والسطوة

إذا علمت هذا الذي قررناه عرفت وجه الحكمة الحكيمة في إنزال هذه السورة على النبي ﷺ جملة واحدة ، وفي مكة أيضاً قبل المهاجرة إلى المدينة ، ولعل هذا أحسن من كل ما قاله جميع المفسرين ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، ومع ذلك فتأمله ، فلعلك أثقب فهماً ، وأوسع علماً واطلاعاً ، فإن الخير مفرق بين العباد ، هدانا الله وإياك لسبيل الرشاد

أصوات من الجميع

(مرحى مرحى)

الفصل الثاني

فقام العلامة سليم الخاليوسي [1] وقال

في هل اخوة يوسف أنبياء

الذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال بنبوتهم ، ولا يحفظ ذلك عن أحد من

(١) خان يونس بلده في فلسطين

التابعين أيضاً ، وكذا أتباع التابعين إلا « ابن زيد » وتابعه شِرْذمة قليلة ، وأما الخلف فالمفسرون فِرَقٌ ، فمنهم من قال بقول « ابن زيد » كالبغوي ، ومنهم من بالغ في رده كالقرطبي وابن كثير ، ومنهم من حكى القولين بلا ترجيح كابن الجوزي ، ومنهم من لم يتعرض للمسألة ، ولكن ذكر مايشعر بعدم كونهم أنبياء ، كأبي الليث السمرقندي والواحدي ، وقد تمسك القائلون بنبوتهم بأدلة رأوها تشهد لهم ، وأهم تلك الأدلة أربع ، وإليك بيانها كما يلي

(١) ـ استدلوا على نبوتهم برؤية يوسف لهم « كواكب » والكواكب يُهتدى بأنوارها ، ورُدّ بأن رؤيتهم كواكب يهتدى بأنوارها بمعزل عن أن يكون دليلاً على نبوتهم ، وإنما يكون دليلاً على أن يكون مصيرهم إلى كونهم هادين للناس ، وهو مما لا يلزمه النبوة ، ولو دلت رؤيتهم كواكب على أن مصيرهم للنبوة لكانت رؤية أمّه قمراً أدل على ذلك ، ولا قائل به ، على أنه ليس كل الكواكب مضيئة ، كما أثبته علماء الهيئة ، وعلى أن نور الكواكب مستفاد من نور الشمس ، فأنوارهم ليست منهم حقيقة ولكنها من أبيهم الذي هو الشمس ، وعلى أن دلالة « الوحي » على النبوة أقوى من دلالة كلمة كواكب ، وقد قال تعالى ﴿ وإذ أوحَيْتُ إلى الحَوَارِيّين ﴾ (٥ ١١٤) ، وقال تعالى ﴿ إذ أوحينا إلى أُمِّكَ ما يُوحَى ﴾ (٢٠ ٣٨) ، وقال تعالى ﴿ وكذلِكَ جَعَلْنا لِكلّ نَبِيٍ عَدُوّاً ؛ شياطينَ الإنس والجن ، يوحي بعضُهُم إلى بعضٍ ﴾ (٦ ١١٢) وقال تعالى ﴿ وأوحَى ربُّكَ إلى النحلِ ﴾ (١٦ ٦٨) ، وقال تعالى ﴿ بأنّ ربَّكَ أوْحَى لها ﴾ (٩٩ ٥) ، ولا قائل بأن الحواريين ، أو يوحانذ ـ أم موسى ـ ، أو شياطين الإنس والجن ، أو النحل ، او الأرض ، أنبياء ، فإذا لم تدل كلمة (الوحي) من الله على أن الموحى إليه نبيّ فالأحرى كلمة « كوكب » لا تدل على النبوة ، فهذا الاستنتاج في غاية الضعف

(٢) ـ استدلوا على نبوتهم بكلمة «الأسباط» في قوله تعالى ﴿ قولوا آمنّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ الى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوب «والأسباط» وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ من ربّهم، لا نُفرّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ ١٣٦)، قالوا «فالأسباط» أولاد يعقوب، والانزال اليهم يدل على نبوتهم، ونحن نقول في مقابلة ذلك الحمد لله رب العالمين حقاً إن هذه بشرى عظيمة لنا، لأن الإنزال الى الأسباط إذا كان يقتضي نبوتهم فنحن أمة محمد جميعاً أنبياء، بحكم قوله تعالى ﴿ وما أُنزِلَ إلينا ﴾ فلنا الفخر ولنا الفرح العظيم، وظاهر أن هذا واضح البطلان، فاذا لم تدل عبارة «وما أنزل إلينا» على نبوتنا فلا تدل عبارة الإنزال الى الأسباط على نبوتهم، وإن معنى ﴿ أُنزِلَ الينا ﴾ أنزل فينا، لأن القرآن أُنزل فينا بسبب نبينا سيد الوجود (ﷺ) على أن لفظ «الأسباط» ليس معناه أولاد يعقوب لصلبه، بل ذريته، كما يقال لهم بنو إسرائيل، وكما يقال لسائر الناس بنو آدم، وقوله تعالى ﴿ وقَطَّعناهُمُ اثنتَي عَشرَةَ أسباطاً أُمَماً ﴾ (٩ ١٥٩)، صريح في أن الاسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سبط أمة، وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، فحمل الأسباط في الآية على بنيه لصلبه غلط لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ بيناً، ويكون قد أخطأ لغةً ايضاً، لأن السبط في اللغة ليس هو الابن الصلبي، بل هو ابن الابن أو ابن البنت، وأما ما قاله بعضهم من أنهم سموا أسباطاً بالنسبة لإسحاق، أي أنهم أسباط لإسحاق وأبناء يعقوب، فهذا مما لا ينبغي أن يلتفت اليه، إذ لم نسمع أحداً قط سماهم أسباط إسحاق، وإنما الناس دائماً يقولون ـ أسباط إسرائيل أو أسباط بني إسرائيل

ونطير آية البقرة السابقة آية آل عمران وهي قوله تعالى ﴿ قل آمَنَّا بالله وما أُنزِلَ علينا وما أنزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ «والأسباطِ» وما أوتِيَ موسى وعيسى والنبيونَ من ربِّهم ، لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ، ونحنُ له مسلمون ﴾ (٣ ٨٤) ، ونطيرهـــا آية النساء وهي قوله تعالى ﴿ إنّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيينَ من بعدِهِ ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ و « الأسباطِ » وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهرونَ وسليمانَ ، وآتينا داودَ زَبورا ﴾ (٤ ١٦٢) ، ونقول إن الله تعالى يريد بهذه الآيات الثلاث أن يحاجّ بني إسرائيل أعني يهود المدينة وسواهم ، وإنما يحاجهم بمـا هو معروف عندهم ، والمعروف عندهم أن كلمة « أسباط » هي إسم للقبائل الإثني عشر المتناسلين من أبنائه الإثني عشر الصلبيين ، هذا هو المعروف عند كافة اليهود ، خاصتهم وعامتهم ، المفسرين منهم والمؤرخين ، وعلماء الشريعة والفقه ، وسواهم ، وهذا أيضاً هو المعروف عند جميع علماء ومفسري النصارى بدون أدنى خلاف ، إذا تقرر ذلك فمعنى الوحي أو الإنزال للأسباط أو على الأسباط ، ان الله تعالى أوحد من بين هؤلاء الأسباط أنبياء أوحى إليهم كتباً ، وأنزل عليهم أسفاراً ، مثلاً ـ كان من سبط « اللاوِيِّين » موسى وهرون وفينحاس على قول وهو حفيد هرون و (عالي) على قول وإرميا وزكريا ويحيى عليهم السلام ، وكان من سبط « اليهوديين » إشَعْياء وصَفَنْيا وعُوبَدْيا ودانِيال وحَزِقيال وعيسى المسيـح وداود وسليمان وحَجّي عليهم السلام ، وكان من سبط « الجاديين » الياس المدعو في بعض الأسفار « إيليا » (١ مل ١٧ ١) عليهم السلام ، وكـان من سبط « الزبولِيّين » يونس المدعو في بعض الأسفار « يونان » (٢ مل ١٤ ٢٥) ، وكان من سبط « أفرايم » بن يوسف (م) يشوع بن نون عليه السلام ، وكذا

(أُ لـتْقانَة) على قول وهو أبو صموئيل ، واسه صموئيل المعي نقوله تعالى ﴿ إد قالوا لِنَبِيٍّ لَهُـــم ابْعَثْ لنا مَلِكاً ﴾ (٢ ٢٤٦) ، ولا بـد لي من التنبيه على أنبياء آخرين هم من سلائل « الأسباط » ولكني لا أعلم طريق نسبة كل واحد إلى سبطه ، وذلك مثل « أحـيــا الشّيلوني » و«ملاخِي » و « مِيخا بن يَمْلة » و« ميخا » المورشتي و«ناثان » و« ناحوم » و« عاموس » و« هوشَـع » و« ياهو » و« يوئيل » و « عِدُّو » و « نَعَدو » و « عزر ياهو » و« عُوديد » و« شَمَعْيا » و « حَنَانى » و«حَبَقّوق » و « أورِيّا » وغيرهم وغيرهم ، فهؤلاء الأنبيـــاء جميعهم من عُلِم منهم سبطه ومن لم يُعْلم ، كلهم داخلون في كلمة « أسباط » ولا يخفى أنه لو أريد ذكر أسمائهم جميعاً ، كل واحد بمفرده لطال الحال وكثر الكلام جداً ، فلذلك اقتصر كتاب الله تعالى على التصريح بأسماء المشهورين منهم ، واكتفى بالإشارة لغير المشهورين منهم ، بكلمة « أسباط »

ولنا أن نجيب بجواب ثان عن معنى الإنزال أو الوحي للأسباط أو عليهم ، بأن نقول إن معنى ذلك أن الوحي أنزل لأجلهم ، أي لأجل منفعتهم ، قال تعالى ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتغي حَـكَماً ؟ وهو الذي أنزلَ إليكم الكتابَ مُفصلاً ﴾ (٦ ١١٤) ، وهذا على إرادة القول ، أي قل أيها النبي أفغيرَ اللهِ أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم أيها المشركون ، ويفصل الحق منـــا من المبطل ، ﴿ وهو الذي أنزلَ إليكُم الكتابَ ﴾ ، أي أنزل لأجلكم القرآن (مُفَصلاً) أي مبيناً ، وفيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ، وقال تعالى ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكْرَ لتُبيِّنَ للناس مانُزِّلَ إليهم ﴾ (١٦ ٤٤) ، وقال تعالى ﴿ إتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم مِن ربِّكم ، ولا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أولياءَ ، قليلاً ماتَذَكرون ﴾ (٧ ٢) ، وقال تعالى ﴿ وقد نَزَّلَ عليكم في الكتابِ أن إذا سمعتم آياتِ اللهِ

تُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها ، فلا تَقْعُدوا مَعَهُم ، حتى يَخُوضوا في حديثٍ غيرِهِ ، إنَّكم إذاً مثلُهُم ﴾ (٤ ١٣٩)، وقال تعالى ﴿ يَسأَلُكَ أهلُ الكتاب أن تُنزِلَ عليهم كتاباً مِن السماء ﴾ (٤ ١٥٢) ، وقال تعالى ﴿ ولَن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نَقْرَأُهُ ﴾ (١٧ ٩٣) وقال تعالى ﴿ ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ ولا المشركينَ أن يُنَزَّلَ عليكم مِن خَيْرٍ مِن رَبِّكُم ﴾ (٢ ١٠٥) والخير هو الوحي ، وقال تعالى ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أن تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تُنَبِّئُهُم بما في قلوبهم ﴾ (٩ ٦٥) وقال تعالى ﴿ واذكروا نعمة اللهِ عليكم ، وما أنْزَلَ عليكم منَ الكتابِ والحِكمةِ ﴾ (٢ ٢٣١) ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي لو أتينا بها لأطلنا على القارئين والسامعين

(رجعنا لما كنا فيه)

ونظير كلمة أسباط ههنا كلمة « بني إسرائيل » في نحو قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نِعمَتِيَ التي أَنعمتُ عليكم ﴾ (٢ ٤٧) وقوله ﴿ وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدونَ إلاّ الله ﴾ (٢ ٨٣) وقوله ﴿ يا بني إسرائيلَ اعبدوا اللهَ ربي وربَّكم ﴾ (٥ ٧٥) فكما أن كلمة « بني إسرائيل » يراد منها قبائل إسرائيل فكذلك كلمة « أسباط » يراد منها القبائل التي تناسلت من أبناء يعقوب ، ولم يقع في القرآن الكريم كلمة بني أولاده الصلبيين إلا قوله : ﴿ أم كنتم شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يعقوب الموتُ إذْ قالَ لبنيه ما تعبدونَ من بعدي ؟ ﴾ (٢ ١٣٣) فهذا التعبير وأمثاله يراد منه في الدرجة الأولى الأبناء الصلبيون وقد يشمل مع ذلك أبناءهم أيضاً ، وأما لفظ « أسباط » فلا يشمل

الأبناء الصلبيين قطعياً ، لا لغة ولا شرعاً ، ولا عرفاً ، ولا فى تعبير من عبارات اليهود ولا النصارى ولا الإسلام

هذا ما اطلعت عليه نقلته إليك ، فتنبه له وإلا فالسلام عليك

(٣) ـ استدلوا على نبوة إخوة يوسف بقوله تعالى ﴿ ويُتِمُّ نِعمَتَهُ عليك وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتَمَّها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ ﴾ (١٢ ٦) قالوا النعمة هي النبوة التي كانت في إبراهيم وإسحق ، وآل يعقوب هنا هم أولاده الإثنى عشر ، وحينئذ فيجب أن يكونوا أنبياء

ونحن نقول لا دليل على أن إتمام النعمة هو بالنبوة خاصة ولادليل على أن المراد « بآل يعقوب » أبناؤه الصلبيون، والتشبيه فى قوله كما أتمها لخ لا يقتضي أن يكون المعنى الجامع بين طرفي التشبيه هو خصوص النبوة ، فهذا الدليل لا يثبت المدعى

(٤) ـ استدل بعض الطلبة على نبوتهم بقوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ وأورَثْنا بني إسرائيلَ الكتابَ (٤٠ ٥٣) ، وهو استدلال في غاية الضعف ، إذ لم يقل أحد من المفسرين أن المقصود من كلمة (بني إسرائيل) هنا أبناء يعقوب الصلبيون الإثني عشر ، بل المراد أن الكتاب كان فى سلالة يعقوب ، وقد أجمع المفسرون والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من المسلمين والنصارى واليهود أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على أبناء يعقوب الصلبيين ، حتى ولا على يوسف الذي هو نبي عندنا نحن المسلمين ، فهذه الآية لا تدل لمدعي هذا الطالب ، كيف وقد قال تعالى فى سورة فاطر ﴿ ثم أَورَثْنا الكتابَ الذين اصطَفَيْنا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسهِ، ومنهم مقتصدٌ ،ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ ، ذلك هو الفَضْلُ الكبيرُ ﴾ (٣٥ ٣٢) ، فهؤلاء الذين أورثوا الكتاب هم أمة محمد ﷺ ورثوه بعد الأمتين

قبلهم ، اليهود والنصارى ، فهذه الآية ، في فاطر ، إذا لم تقتضي نبوة كل فرد من أفراد الأمة المحمدية ، فكذلك آية سورة المؤمن لا تقتضي ذلك البتة

وأما الجمهور ، وبعبارة أصح الأكثرية الساحقة من المسلمين فإنهم لا يعترفون بنبوة واحد من آباء الأسباط هؤلاء الأحد عشر ، ولهم على ذلك عشرة أدلة ، إليك بيانها

١ — قوله تعالى ﴿ إنّ الشيطان للانسانِ عدوٌ مبينٌ ﴾ (٥٤) يفيد أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، وأنه يفعل فيهم ويؤثر عليهم ، وهذا ينتج أنهم لم يكونوا أنبياء ، لأن الأنبياء وإن لم يكونوا معصومين من الوسوسة فهم معصومون من العمل بها ، ولكن اخوة يوسف عملوا بها ، فكادوا له كيداً ؟

٢ — القول بنبوتهم لم يحكه القرآن ولا ثبت في حديث ، ولا نقل عن أحد من الصحابة ، ولا روى من أحد من التابعين وكذا لم ينقله أحد من تابعي التابعين إلا « ابن زيد » وتبعه البغوي وشرذمة قليلة ، وأما نحن فنقول لا عبرة بألف عالم مثل ، ابن زيد والبغوي ، أثبتوا لشخص نبوة بدون برهان نقلي صريح من كتاب أو سنة أو على الأقل من تاريخ معتبر ، وإن إثبات نبوة أحد بدون دليل شرعي محظور شرعاً ، بحيث لا يقل في الافتيات على الله عن إنكار نبوة أحد ممن ثبتت نبوته ، فهذا محظور وهذا محظور على حد سواء

٣ — كلمة « اسباط » التي اتخذوها دليلاً لهم على القول بنبوة هؤلاء هي بذاتها دليل لنا على عدم نبوتهم لأن لفظ سبط هو ابن الابن او ابن البنت ، وليس هو الابن الصلبي ، فلو أراد تعالى النص على نبوة أبناء يعقوب لصلبه لقال « آباء الأسباط » وقد سبق لنا بسط القول في هذه الكلمة ، وما بالعهد من قِدَم

٤ — إن الله سبحانه لما أراد أن يذكر الأنبياء من سلالة إبراهيم قال ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ، ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلاً هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ﴾ (٦ ٨٣—٨٦) فذكر يوسف ومن معه، ولم يذكر واحداً من إخوته ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبىء لذكروا كما ذكر ، خصوصاً وإن المناسبة قوية جداً ، فلما لم يذكروا مع قوة المناسبة دل على أنهم ليسوا بأنبياء ، فتخصيص يوسف بالذكر دون إخوته يدل على عدم نبوتهم .

٥— إن الله تعالى ذكر للأنبياء عليهم السلام من المحامد والثناء ما ناسب النبوة وإن كان قبلها ، وأما هم فلم يذكر لهم شيئاً من هذا القبيل ، وجاء في الحديث « أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، نبي من نبي » فلو كانت إخوته أنبياء لكانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، ولذكروا في القرآن ولو بمحمدة واحدة ، ويقول الحكماء « البدايات دليل النهايات » ويقول الشاعر

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت ان سيكون بدراً كاملاً

ويقول العامة « الديك الفصيح من البيضة يصيح » ، وقد قالت خديجة (ص) لما فجأ الوحي النبي ﷺ وخاف من ذلك « كلا والله لايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ، وأرجو كم أن لاتنسوا « هرقل » واستدلاله بما استدل به في حديث أبي سفيان المشهور ، لما سأل عن صفات النبي ﷺ

٦ــ ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضاً مات بها، لكن أوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى عليه السلام، ولم يذكر في القرآن الكريم أن أهل مصر قد جاءهم نبي قبل موسى وهرون غير يوسف، ولو كان منهم لذكر، قال تعالى ﴿ ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبيِّناتِ، فما زلتُم في شكٍ مِمّا جاءَكم به، حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يَبْعثَ اللهُ من بَعْدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ ٣٤)، نحن نعلم أنه كان لإخوة يوسف حياتان، الحياة الأولى حياة جرائم وكذب وختل وعقوق، وهذه في فلسطين، وإذن لم يكونوا أنبياء في فلسطين، والحياة الثانية حياة استقامة وطاعة وتوبة وأوبة، وهذه كانت في مصر وهم في مصر لم يكونوا أنبياء، كما نعلمه من القرآن الكريم، ولم يثبت أنهم رجعوا من مهجرهم مصر إلى فلسطين حتى ينبأوا فيها، بل ثبت تاريخياً أنهم ماتوا بمصر، وإذن لم يكونوا أنبياء أصلاً، لا في فلسطين ولا في مصر، وأما ما هو مشهور عند جهلة المسلمين من أن « راوبين » مدفون حوالي « يافا » على شاطىء البحر، وإن « شمعون » مدفون في محلة « الشاغور » من دمشق الشام وفي صيدا أيضاً، فكل ذلك نتيجة الجهل بالتاريخ، وكذا ما ذكره العلامة ابن طولون في كتابه « اللمعات البرقية » من ان « لاوي » مدفون في قرية يقال لها « قرية لاوى » و « بطن الحمار » قرية بها قبر « بنيامين » « ويازبد » أربعة من أولاد يعقوب عليه السلام وهم دان يساكر، زبولون، جاد، وفي « رومة » قبر يهودا بن يعقوب، وفي « مدين » قبر إثنين من أولاده وهما أشير ونفتالي، فكل هذا وهم لا أصل له.

٧ ــ كثرة مانسب إليهم من حسدهم ليوسف وتضليل أبيهم (ع ٨)، ومن إرادتهم قتله أو طرحه أرضاً (ع ٩)، ومن إجماعهم على إلقائه فى غيابة الجب (ع ١٠)،

ومن حتلهم لأبيهم وحلفهم إنهم ناصحون وحافظون ، ثم حلف هذا الوعد قصداً من أول الأمر (ع١١ــ١٥) ، ومن بكائهم كذباً،وإخبارهم كذباً ، ومن سلبهم أخاهم قميصه واستعمالهم التشليح،ومن تلطيخهم القميص بالدم كذباً (ع١٦-١٨) ومن أنهم شر مكاناً (ع٧٧)ومن الجهل الذي هو خلاف العلم أو خلاف الحلم ، ومن الوقوع في المعصية عمداً الذي هو معنى قولهم﴿تالله إن كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾ (ع٩١) ، الأمور المدهشة الحاوية للعقوق والجور والأقوال السافلة الى أحط دركات الخسة ، الأحوال التي تتنزه عنها مقام النبوة﴿الله أعلمُ حيث يجعلُ رِسالَتَه﴾ (٦ ١٢٤) ، وقولهم ﴿ لقد آثَرَكَ اللهُ علينا ﴾ (ع٩١) لأن الشرير لا يكون نبياً ، إنما الذي أوثر على غيره هو النبي دون الغير هذا رأيي ،فما ترون ؟ صوت من الجميع « موافق موافق

الفصل الثالث

وهنا قام الشيخ محمود الخليلي[1] وقال

في شيء عن حياة إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام

قال تعالى ﴿ واذكر عبادَنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصارِ ، إنّا أخلَصناهم بخالِصةٍ ذِكرَى الدارِ ، وإنَّهم عِندَنا لَمِنَ المصطَفَيْنَ الأخيارِ ﴾ (٣٨ ٤٥-٤٧) ، وعليه وبمناسبة ذكر هؤلاء

١) الخليل بلد في فلسطين

الأسياء الكرام في هده السورة ، ومناسبة كونهم آباءلبطل هدهالقصة ، وموضوع هده السورة ، وهو يوسف عليه السلام ـ يجدر بنا أن نأتي على شيء من تاريخ حياة هؤلاء الشيوخ الكبار الثلاثة عليهم الصلاة والسلام فنقول

(في شيء عن حياة إبراهيم عليه السلام)

ولد إبراهيم سنة (٢٦٢٠) ق هـ وأبوه هو « آزر » المدعو في سفر التكوين بلفظ « تارَح » ، الذي معناه في اللغة العبرانية « متكاسل » قلت ولعله لأجل ذلك عدل القرآن الكريم عن هذا الاسم المشعر بالكسل إلى الاسم الأول، وإبراهيم هو العاشر من نسل «سام» ولد في أور الكلدانيين[1] ، وقد كان نبياً ورسولاً من الله تعالى للكلدان، كما يعتقده كذلك سائر المسلمين ، وقد دعاه سفر التكوين نبياً (تك ٢٠ــ٧) لكن أهل الكتاب رغماً عن هذا التصريح لا يعتقدون نبوته ، ولذلك فسروا « النبي » هنا بالناسك ، وقد امتحن بأن ألقي في النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً كما في القرآن الكريم ، ولكن أسفار العهدالعتيق الذي بيد اليهودوالنصارى اليوم لا تذكر شيئاً من هده الحادثة العظيمة ولا تشير إليها ، وإنما بعض أهل التفسير عندهم مثل صاحب « مِدراش ربّاه » تعرض لها وذكرها بصراحة،وكذلك ذكرت في التلمود، وعلى كل الأحوال فالقرآن الكريم الذى نزل مهيمناً على الكتب السابقة أخبرنا عن الله تعالى بهذه الحادثة ، وهوأصدق الكتب السماوية الذي لم يطرأ عليه أدنى تحريف ولا زيادة ولا نقصان ، وأما أهل الكتاب فقد ﴿ نَسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به ﴾ (٥ ١٤و١٥) ، ولذلك فيجب علينا في مثل هده المسائل الرجوع لكلام الله المتين

(١) من اعمال العراق

وبعد حادثة إلقائه في النار ونجاته منها، إقتضت الظروف والحكمة الإلهية أن يهاجر من بلاد الكلدان، فأمره الله بالهجرة، فامتثل أمر ربه قائلاً ﴿ إني مُهاجرٌ إلى ربي ﴾ (٢٩ —٢٦)، ورحل من أور الكلدانيين إلى «حاران» وهي بلدة فيما بين النهرين (١)، ثم منها إلى فلسطين، فقد هاجر هجرتين، أو هجرة موزعة لموضعين، وربما لهذا يقال له «العبراني» الذي يمكن تأويله «بالسائح» أو «المهاجر» ولكن المشهور أن سبب تسميته بذلك عبوره نهر الفرات، ولقـــد روَى لنا التاريخ أن إبراهيم عليه السلام إجتاز سورية وفينيقية وبلاد العرب، وأنه أتى لدمشق وأقام فيها مدة نحو سبع سنوات، وأنه ذهب الى الحجاز ومصر، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه كان صديقاً نبياً، وأنه كان كريماً مطبوعاً على اكرام الضيوف يقدم لهم الحنيذ، أي اللحم المشوي بالرَضْف (٢) في الأخدود، ويختاره لهم من سمان الحيوان، وقد دعي في الحديث بأنه خليل الرحمن، وورد في القرآن ﴿ واتَّخَذَ الله ابراهيمَ خليلاً ﴾ (٤ ١٢٤)، وقد هاجر مع ابراهيم زوجته «ساراي» بنت آزر أو تَارَح، فهي أخت ابراهيم لابيه من امه فقط فليست اذن شقيقة له ولذلك جاز له ان يقترن بها عندهم، وكان معه ايضاً ابن اخيه «لوط» عليه السلام، ثم سكن لوط شرقي الأردن، الى ذلك السهل المخصب حيث كانت سدوم وعموره، وبقي عمه ابراهيم غربي نهر الأردن، يتردد بين «شكيم» التي يقال لها اليوم «نابلس» و «بيت ايل» التي يقال لها اليوم «بَيْتِّين»، و «قرية اربع» التي صارت يقال لها «حبرون»، ثم في العهد الإسلامي صارت يقال لها «خليل الرحمن»، «بئر سَبع» التي يقال لها اليوم «بئر السبع»، و «جَرَار» التي

(١) دجلة والفرات

(٢) الرضف الحجارة المحماة

يقال لها اليوم « حرة أم حرار »، و « شور » و « قادش » على تخم مصر ، ومكة المكرمة والحجاز وما بين ذلك كله من البلاد المأهولة في ذلك العصر ، ونزلت عليه عشر صحف كما قال تعالى ﴿ صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾ ، وكان محيط إبراهيم غارقاً في عبادة الأوثان ، سواء أكان في العراق أو شرقي الاردن أو « آرام » أي دمشق أو فلسطين أو مصر أو الحجاز ، ولكن الله تعالى آتاه رشده ، وعلم منه أحوالاً بديعة وصفات مرضية منذ الصغر ، كما قال سبحانه ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قبلُ ، وكنّا به عالِمين ﴾ (٢١ ٥١) ، وأما ماورد في سورة الأنعام في قوله ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفلَ ، قال لا أُحِبُّ الآفلين ، فلما رأى القمر بازِغاً ، قال هذا ربي ، فلما أفلَ ، قال لئن لم يهدِني ربي لأكونَنَّ من القومِ الضالين ، فلما رأى الشمسَ بازغةً ، قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلَت ، قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركون ﴾ (٦ ٧٦ - ٧٨) فإنما هو قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكي قوله كرجل غير متعصب لمذهبه ، وليس هو من قبيل النظر والاستدلال لنفسه ، فقد قال عليه السلام ، أثناء ذلك الحوار ﴿ لئن لم يَهدِني ربي ، لأكونَنَّ مِنَ القومِ الضالّين ﴾ (٦ ٧٧) ، وقال ﴿ ياقوم إني بريءٌ مما تشركون ﴾ (٦ ٧٧) فاعترف وصرح بان له رباً ليس هو الكواكب ، ثم أعلن البراءة من شرك قومه ، لا من شرك نفسه حاشاه ، فدل على أنه لم يكن فيه شرك ، كيف وأن الأنبياء معصومون من مثل ذلك قبل النبوة كما بعدها ، وكان اسم إبراهيم منذ الصغر « ابرام » كما سماه به أبوه ، ومعناه « أبٌ مرتفع » أو « أبو العلاء » ولكن الله فيما بعد سماه « إبراهيم » ، ومعناه « أبو جمهور عظيم » وكذلك كان اسم زوجته « ساراي » أي أميرتي فغيّره الله تعالى إلى « ساره » اي « أميرة »، وكانت

سارة عاقراً ، وكان لها أَمَة مصرية اسمها « هاَجر » فوهبتها لإبراهيم فدخل بها فرزق منها « باسماعيل » عليه السلام ، ثم لما صار عمره مئة سنة وعمر زوجته سارة تسعين سنة ولد منها « إسحق » وكان اسماعيل حين ولد إسحق ابن (١٤) سنة ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة ليسكنا هناك ، وماتت سارة ولها من العمر مئة وسبع وعشرون سنة ، وكان عمر إبراهيم إذ ذاك (١٣٧) سنة فابتاع إبراهيم « مغارة المكفيلة » وهي ما يقال لها « الغار الشريف » من بني حِثٍّ لتكون مدفناً لزوجته ومن يموت بعدها ، ثم بعد موت سارة تزوج إبراهيم زوجة اسمها « قطورة » وهذه أيضاً كانت جارية له ، فولدت له ستة أولاد ، وهم زِمْران ، يَقْشَان ، مَدان ، مَديان ، يَشْباق ، شُوحا ، وانتقل إبراهيم إلى رحمة الله وله من العمر (١٧٥) سنة ودفنه إسماعيل وإسحق في حبرون[1] ، في ذات المغارة التي دفنت فيها زوجته ساره ، وكانت أملاكه متسعة جـــداً وعديدة ، وكان زيادة على نبوته ورسالته أميراً في الأرض شجاعاً متفنناً في أساليب الحرب وحيلها ، وكان عنده عدد عديد من الحشم والعبيد ، ومنهم (٣١٨) عبداً من الذين يحملون السلاح ، وقيل الخادم يقول إن إبراهيم حصّل في عرشـه على اعتبار عظيم حيثما توجه ، واشتهر بدماثة أخلاقه حتى ورد في شأنـه قول الله ﴿ إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ منيبٌ ﴾ (١١ ٥٥) ومـــا زال ولا يزال اسمه مقروناً بالاحترام عند أهل الملل سيما اليهود والنصارى والمسلمون ، فجميعهم يحبونه ويحترمونه ويذكرون اسمه مقروناً بالإكرام والإجلال ولذلك ورد عندنا « اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم » ، وأمرنا بتكرار هذه الصيغة الدعائية في صلواتنا دائماً ، حيث معنى هذه الجملة الدعائية اللهم عظم محمداً في نبو -

[1]) اى خليل الرحمن اليوم

الطوائف وكل أصحاب الملل كما عظمت كذلك إبراهيم ، واجعل محمداً مباركاً في نطر كافة العالم كما أن إبراهيم هو مبارك في نظر العموم ، فكأننا ندعو لنبينا بأن يكون معظماً محبوباً مقبولاً عند كل أهل الملل كما كان إبراهيم كذلك ، وبالتالي كأننا نطلب من الله في صلواتنا أن يؤمن بنبينا جميع الناس ويصير الكل من أتباعه وعلى دينه ، هذا الذي نرجوه من الله تعالى في مستقبل الأيام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٩ ٣٤) ، ﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيد ؟﴾ (٤١ ٥٣) وقد ذكر إبراهيم في هذه السورة مرتين ، مرة في مقام أن الله تعالى أتم نعمته عليه (ع ٦) ، ومرة في مقام بيان أن ملة إبراهيم هي التوحيد (ع ٣٨) والواقع أن إبراهيم هو رئيس مدرسة التوحيد ، وأن التوحيد الموجود في اليهودية والنصرانية والإسلام أصل منبعه إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وتابع الشيخ محمود الحليلي قوله

فى شيء عن حياة اسحق عليه السلام

إن معنى كلمة « إسحق » الحرفي « يَضْحَك » كما فهموه من الأصل العبراني ، وعليه فهو فعل مضارع ، أو معناها « إِضْحاك » أي « ضَحِكٌ » كما سمعناه من أحد الحاخاميين ، وعليه فهو مصدر ، والسبب فى تسميته بذلك هو أن المَلَك لما جاء بالبشارة به ، ضحكت « سارة » لأنها عجوز ، إذ كانت وقت البشارة به بنت (٩٠) سنة ، وكان زوجها ابن مئة ، وكانوا في ذلك الوقت يسمون بأسماء الحوادث تذكاراً لها فلذلك سمي « إسحاق »

ولد إسحاق في مدينة من مدن فلسطين كان اسمها « حرار » واقعة الى الجنوب الشرقي من غزة ، وربما هي المكان المعروف اليوم بـ « خربة أم حرار » ، ومازال إسحق يرعى غنم أبيه فى مراعي كنعان اليانعة الخضرة الى أن بلغ الأربعين ، وكان أبوه مهتماً بزواجه بواحدة من بنات عشيرته بين النهرين ، لأنه كان يفضلهن على بنات الكنعانيين ، ولذلك أرسل عبده « عازار » الدمشقي إلى ما بين النهرين ليختار له زوجة من هناك ، (وذلك بعد أن توفيت سارة) ، فسار العبد والعناية الإلـهية تصحبه حتى جاء إلى « حاران » « فى فدان آرام » فوقـــع اختياره على « رِفْقَة » بنت « بتوئيل » بن « ناحور » أخي إبراهيم ، فتكون بنت ابن شقيق إبراهيم ، فعاد بها إلى ابن سيده فاقترن بها ، ولما كان إسحاق ابن ستين سنة رزقه الله عيسو ويعقوب في بطن واحد ، وكانت سكنى إسحاق بعد وفاة أبيـــه فى « لَحَيْ رُئِي » ويقال لها اليوم « عين مويلح » ، وتارة في « حرار » مولده وحيناً في « مَمْرا » وهى غابة بقرب حبرون ، ثم توفي وله من العمر (١٨٠) سنة ، وكانت وفاته بعد غيـــاب حفيده يوسف بمصر باثنتي عشرة سنة ، ودفنه إبناه عيسو ويعقوب في الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه ساره ، وحيث دفنت رِفقَة امرأة إسحق

وكان إسحق حليماً محباً للسلام ، امتاز بالرقة والأنس ، وأما وصف «الغيور» الذى يصفه به أهل فلسطين ، فلا يقتضي خلاف ما ذكرنا ، فقد وُصف الله تعالى في الحديث بالغيور وكذا نبينا ﷺ ، وقد كان النبى أحلم الحلماء وأرق من النسيم وكان إسحق نبياً ومرسلاً موحى إليه، قال تعالى ﴿ قولوا آمنّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ﴾ (٢ ١٣٦) وقال تعالى ﴿ وبشرناه بإسحقَ نبياً من الصالحين ﴾ (٣٧ ١١٢) ، وبارك الله على إسحق

في حوار « لَحَيْ رُئِي » وأكثر ماله ونمت فيه المعارف الآلهية ، قال تعالى ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ﴾ (٣٧ ١١٣) ، وقد ذكر إسحق في هذه السورة اليوسفية مرتين ، مرة في مقام إتمام النعمة (ع ٦) ومرة في مقام التوحيد (ع ٣٨)

هذه عقيدتنا في إسحق عليه السلام ، وأما أهل الكتاب فليس هو عندهم نبيّ ، مع أنه يوجد في أسفارهم ما يصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وأمره ونهاه وأوصاه بوصايا وبشره ببشائر حسنة ، وأعطاه مواعيد جميلة (تك ٢٦ ٢ - ٦ و ٢٨ ٣ و ٤) وكل هذا كان بدون واسطة نبي ونحوه يستدعي أنه نبيّ ، كما هو عندنا

واستمر الشيخ الخليلي يقول

في شيء عن حياة يعقوب عليه السلام

اشتق إسم « يعقوب » من الحادثة التي وقعت عند ولادته ، لأنه خرج من بطن أمه ويده قابضة بعقب أخيه « عِيسُو » لأنه توأمه الذي خرج بعده ، وقد كان يغلب أن يكون بين ولادة أحد التوأمين والآخر ساعة أو أكثر ، لكن يعقوب ولد على أثر عيسو بلا تأخر ، وهذا معنى أنه ولد ويده قابضة على عقب أخيه ، أي ولد كأنه ماسك بعقبه ، حتى لم يكن بين المولدين زمان يذكر ، فالعبارة من قبيل الكناية أو التمثيل ، وعلى كل سواء أكان هذا الكلام حقيقة أو تمثيلاً فمعنى الكلمة « يعقوب » يمسك العقب او يَعْقُبُ أو يَتَعَقَّب أو عاقب أو معقب كما أفاد ذلك كله صاحب « السنن القويم »

ويعقوب هو أحد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين ، وهو ابن إسحاق من زوجه « رِفْقة » ، وكان أبوه حين ولادته ساكناً عند بئر « لَحَي رُئي » التي يقال لها اليوم « عين مُوَيْلح » ، ولأسباب جرت من يعقوب على رأس أخيه عيسو خاف يعقوب من أخيه عيسو أن يقتله فرحل إلى « حاران » في « فدان آرام » عند خاله « لابان » أخي « رفقة » ، وهو ابن « باحور » ، وقد أراه الله عند « بيت إيل » في نومه رؤيا مجيدة ، ووعده بأن يعطيه الأرض التي هي أرض الميعاد فتكون له ولنسله ما داموا مستقيمين ، وبيت إيل هذه هي التي تدعى اليوم « بيتين » بين القدس ونابلس ، وبعدما وصل إلى خاله « لابان » زوجه بنته الكبرى « لِيئَة » ثم أعطاه أختها الصغرى « راحيل » فاجتمعتا عنده معاً ، لأن هذا الجمع كان جائزاً في شريعتهم ، وخدم يعقوب خاله لابان عشرين سنة ، ثم رحل قافلاً إلى فلسطين ، وسكن في « شكيم » حيث اشترى أرضاً هناك ، ثم أتى بإلهام النبي إلى « بيت إيل » ، وهناك ظهر الملك وغير إسمه من يعقوب الى « إسرائيل » الذي معناه كما مر « أمير الله » أو « قوي الله » أو « مجاهد الله » ، ثم أتى « إفراتة » التي دعيت « بيت لحم » فولدت راحيل بنيامين ، وماتت هناك ، ثم ارتحل إلى حبرون حيث أبوه إسحاق فيها ، ثم إلى سيلون وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف ، ثم رحل لمصر وبها توفي بعد (١٧) سنة ، ومن أغرب الصدف أن ابنه يوسف أقام عنده في فلسطين في صغره (١٧) سنة ، ثم بالمقابلة أقام أبوه يعقوب عنده بمصر (١٧) سنة ، ثم توفى عن (١٤٧) سنة ، وحنط أطباء مصر جثته وجاء بها يوسف وإخوته إلى حبرون ودفنوها في الغار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم

وكما نعلم أن إسم « عدنان » أو « قريش » مثلاً يطلق على كامل القبيلة العدنانية

أو القرشية ، فكذا إسم يعقوب وإسرائيل كان يطلق على كامل أمته (ت ٣٣ . ١٠ ، ومر ١٤ ٧ و ٢٢ ٢٣ و ١٠٥ ٦ و ١٣٥ ٤ واش ١٤ ١ و ٤٤ ٢ ومي ٧ ٢٠) وهلم جراً ومن هذا القبيل ما في قوله تعالى ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلاّ ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسِهِ مِن قبلِ أنْ تُنزَّلَ التوراةُ ﴾ (٣ ٩٣) ، فقوله « إلاّ ما حرم إسرائيل » يريد منه الشعب ، أي كانوا سبباً في التحريم كما قال تعالى ﴿ فبِظُلْمٍ مِن الذين هادوا حَرَّمْنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم ﴾ (٤ ١٥٩)

وقد كان المحيط والعصر الذي فيه يعقوب بل وأبوه إسحق وجده إبراهيم محيطاً مملوءاً بالوثن وعصراً من عصور الشرك في فلسطين وسوريه ومصر والكلدان وأشور وغيرها رغم شدة اجتهاد هؤلاء الأنبياء الكرام في تخفيف وطأة الوثن وهداية الخلق للتوحيد ، ولهذا الذي قلنا يظهر لك سر قوله تعالى ﴿ أم كنتم شُهداءَ إذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلٰهكَ وإلٰهَ آبائِك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلٰهاً واحداً ، ونحن له مسلمون ﴾ (٢ ١٣٣) وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن مُتَرجَمَنا كما سمي يعقوب ثم إسرائيل ، فقد سمي أيضاً « هِبَة » و « نافِلَة » قال تعالى ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافِلةً ﴾ (٢١ ٧٢) ، وإنما سمي هو وأبوه « هِبَة » لأنهما جاءا بعد شيخوخة وهرم إبراهيم وسارة وعقرهما ، إذ كان عمر إبراهيم (١٠٠) سنة وعمر سارة (٩٠) سنة ، وكل ما جاء على غير السن المعتادة يقال له هبة ، كأنه بلا تعب أو بلا سبب ، وإنما سمي يعقوب نافلة ، لأنه عطية تطوع من الله بلا سابقة سؤال أو لأنه تابع في الهبة لأبيه الموهوب ، كالنافلة التي تكون

بعد الفريضة ، وقد عاش الموهوب الأول وهو إسحق مع أبيه إبراهيم (٧٥) سنة ، كما أن الموهوب الثاني وهو يعقوب عاش مع جده إبراهيم (١٥) سنة ، وبذلك ظهر جلياً وجه المنة على إبراهيم بهذه النافلة المباركة ، على أن وجه المنة لا تتوقف على شيء من ذلك ، فقد امتن الله على آدم بخلق نبينا ﷺ من سلالته ، ثم بهذا الذي قررناه هنا نظهر الجواب عن سؤال قرره مبشروا البروتستانت خلاصته إن القرآن يقول ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ وكُلاً جعلنا نبياً ﴾ (١٩ ٤٩) ، ويقول ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذُريته النُّبُوَّةَ والكتابَ ﴾ (٢٩ ٢٧) ، ويقول ﴿ ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافِلةً ﴾ (٢١ ٧٢) ، فقد تعرض القرآن للابن الصلبي وابن الابن وامتن بهما على إبراهيم ولم يذكر في هذا المقام ، مقام المنّة إسماعيل مع انه ابن صلبي ، فما ذاك إلا لكونه أحَطُ في المنزلة جداً من أخيه وابن أخيه ، أو لكونه ليس أهلاً في الفضل بحيث يمتن به على أبيه ، هذه هي خلاصة جهالة مبشري البروتستانت ، وأما جوابنا على ذلك فإن هذا السؤال ناشيء عن عدم الوقوف على سائر آيات القرآن الكريم ، وإلا فقد قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَوَهبنا له إسحق ويعقوبَ ـ إلى أن قال ـ وإسماعيلَ ﴾ ، وقال إبراهيم في مقام الثناء على الله تعالى بهذه الهبة ﴿ الحمدُ للهِ الذي وهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ ، إنَّ ربي لَسميعُ الدعاءِ ﴾ (١٤ ٣٩) ، فاستدلال البروتستانت على أن إسحق بل ويعقوب في نظر القرآن أهم من إسماعيل إنما هو نتيجة جهل بآيات القرآن الكريم

ويعقوب عندنا نبي ورسول بحكم الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، وليس هو كذلك عند أهل الكتاب ، مع أن أسفارهم تصرح بأن الرب ظهر له وكلمه وبشره ووعده بمواعيد جميلة (تك ٢٨ ١٢ ـ ١٥) وكان هذا كله بدون

واسطة ، وهذا المقدار يدل على نبوته ، وقد ولد يعقوب سنة (٢٤٠٧ق ن)[١] وتوفي سنة (٢٢٦٠ق ن) فيكون عمره (١٤٧) سنة ، وهاجر لمصر هو وعائلته سنة (٢٢٧٦ ق ن)

الفصل الرابع

وقام تقي الدين المقدسي [٢] وقال

في زوجات يعقوب عليه السلام

إن يعقوب رحل من « حبرون » الى « حاران » بين نهري العراق ليعيش عند خاله « لابان » وتزوج من هناك ، فوصل حاران وكان في طريقه على طرفها بئر وهناك ثلاثة قطعان غنم رابضة عند البئر ، لأنهم كانوا يسقون القطعان من تلك البئر التي في الحقل ، وكان على فم البئر حجر كبير فكانت جميع القطعان تجتمع هناك فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون غنمهم ، ثم يردون الحجر الى مكانه ، فقال يعقوب للرعاة « يا إخوتي من أين أنتم ؟ » ـ قالوا « نحن من حاران » ، ـ فقال لهم « هل تعرفون « لابان » بن « بتوئيل » بن « ناحور » ؟ » فقالوا نعرفه ، ـ فقال لهم « هل هو سالم بخير ؟ » ـ فقالوا « هو سالم ، وهاهي « راحيل » ابنته آتية مع الغنم » ـ فقال « لماذا لا تسقون غنمكم ؟ » ـ قالوا

---

(١) ق ن أى قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة شمسية

(٢) نسبة الى بيت المقدس

« لا نقدر حتى تجتمع جميع رعاة القطعان وندحرجوا الحجر عن فم البئر ، فمتى اجتمعوا رفعوا الحجر وسقى كل منهم قطيعه في نوبته » ـ وبينا هم يتحاورون أتت « راحيل » مع غنم أبيها « لابان » ، لأنها كانت ترعاها ، ولم تزل عادة العرب ونحوهم من أهل البر الى اليوم ، وكان لما أبصر يعقوب بنت خاله لابان ، وغنم خاله لابان ، أن تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم خاله لابان ، وأعلن يعقوب لراحيل أنه ابن عمتها « رفقه » وسلم عليها ، وسر سروراً عظيماً لما لقي من التوفيق بعد طول سفره وتعبه ، وأما راحيل فركضت وأخبرت أباها ، فما كان من لابان حينما سمع بخبر مجيء ابن أخته إلا أن ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به الى بيته ، فإنه كان قد مضى عليه (٧٠) سنة لم ير في يومها أخته رفقه ، وحدث يعقوب خاله لابان بجميع أحوال الأسرة الإبراهيمية في كنعان ، وبكل ماجرى له وعليه ، فقال له خاله لابان « لاتخف ، لقد نجوت ، إنما أنت عظمي ولحمي » ، فأقام عنده شهراً من الزمان ، ثم قال لابان لابن أخته يعقوب « ألأنك قريبي تخدمني مجاناً ؟! أخبرني ما أجرتك ؟ » ، تكلم لابان بذلك لأن يعقوب في مدة ذلك الشهر كان يخدم خاله لابان خدمة نافعة ، فلم يرد أن يذهب تعبه باطلاً ، فاستعد أن يعطيه الأجرة التي يريدها ، وكان للابان ابنتان ، اسم الكبرى « لِيئَة » واسم الصغرى « راحيل » ، وكانت عينا ليئة ضعيفتين ، وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر ، وكان ضعف العينين في الشرق يُعدعيباً عظيماً ، وجمال العيون وصحتها من أحسن أنواع الكمال الخِلْقي ، وأحب يعقوب راحيل ، فقال « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » ، ـ فقال لابان « لأن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، فأقم عندي على هذا الوجه » ، ـ فخدمه يعقوب براحيل سبع سنين ، ثم قال يعقوب للابان « أعطني امرأتي لأدخل بها ،

لأن أيامي المفروصة عليّ قد كملت » ، ـ فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة حسب السنة المألوفة من قديم ، وكان في المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه ، وأعطاها جاريته من عنده لتخدمها اسمها « زِلْفه » ، وعندما عرف يعقوب أن هذه الزوجة هي ليئة وليست راحيل ، قال للابان « ما هذا الذي صنعت بي ؟ ! أليس براحيل خدمت عندك ، فلماذا خدعتني؟! » ـ فقال لابان « لا نفعل هكذا في مكاننا ، أن نُعطى الصغيرة قبل البكر ، بل العادة أن تزوج الكبرى قبل الصغرى ، وإلا كان ذلك عاراً على الكبرى ، أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني بها أيضاً وهي سبع سنين أُخر » ـ سمع يعقوب هذا الجواب من خاله فعذره ومالت نفسه لموافقته ، لأنه كان أحب راحيل ، لأنها أصغر وأجمل من أختها ، ولأنه كان رآها منذ أتى حاران ، قبل أن يرى أختها فحلت منه في المحل الأول

ففعل يعقوب ما أشار عليه خاله ، فأكمل أسبوع ليئة ، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ؟ وأعطاها جاريته « بلْهة » جارية لها لتخدمها ، فدخل على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من ليئة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر ، وبذلك يكون يعقوب قد عدد الزوجات ، جرياً على طريقة جده إبراهيم الذي كان تزوج هاجر فسارة فقاطوره ، أو على سُنة عمه عيسو الذي كان تزوج بابنتين حِثّيتين ، ثم ثالثة هي بنت عمه إسماعيل واسمها « محلَة » أو « بسمة »

الفصل الخامس

وتابع المقدسي خطابه قائلاً

في أسماء يعقوب

مما لا ريب فيه أن يعقوب لم يكن يحب «ليئة» بل كان يكرهها من حين تزوجه راحيل ولم يكن يحبها ، لكن الله تعالى أقام سبباً عادلاً لمحبة زوجها لها بأن جعلها ولوداً ، وأما راحيل فكانت في مقابلة ذلك عاقراً ، فحملت ليئة وولدت ابناً ودعت اسمه « رأوبين » ومعناه « هوذا ابن » أو «رَ ابناً » أي انظر ابناً ، تريد بذلك وترجو أن زوجها ينظر لابنها فيحبها ،

ثانياً — حملت أيضاً وولدت ابناً دعته « شَمْعون » ومعناه « المستمع » أو « سَمْعاً » او « سماع » قائلة إن الله سمع دعاءها

ثالثاً — حملت وولدت ابناً دعت اسمه « لاوِى » ومعناه « مُقترِن » أو « اقتران » راجية أن زوجها سيقترن بها بسبب هذا الولد .

رابعاً — حملت وولدت ابناً دعت اسمه « يَهُوذا » ومعناه « حَمْد » أو « أحمد الرب » ، وسمعت من بعض اليهود أن حقيقته العبرية الأصلية « يهودا » بالدال المهملة ، ومعناه « الرب مشكور » لأن « يهو » معناه رب و « دا » معناه مشكور ، قال ومنه اشتق الكلدانيون كلمة « يهود » على من كان في الأسر البابلي ثم توقفت ليئة عن الولادة وقتاً

وأما راحيل فانها لما رأت نفسها عاقراً غارت من أختها فقالت ليعقوب «هب لي بنين، وإلاّ فمن لا ابن له ميت، ومن خلّف ما مات» — فحمي غضب يعقوب على راحيل وقال «ألعلّي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن؟!!» وهاج جداً، لأنه كان يحبها، ويحب إرضاءها، ولكنه ماذا يصنع وقد سألته مالا يستطيعه غير الله؟، فقالت «هذه جاريتي «بِلْهه» أدخل عليها، فتضع ابناً أضمه على ركبتي، ويكون كأنه ابن لي»، فأعطته بلهة جاريتها زوجة له، فدخل عليها، فحبلت وولدت له ابناً، فقالت راحيل. «قد قضى لي الله وسمع صوتي وندائي وأعطاني ابناً من جاريتي»، لذلك دعت اسمه «داناً» اى «قضاءً» أو «قاضٍ»، ثم حبلت بلهة ايضاً وولدت ابنا ثانياً ليعقوب، فدعت اسمه «نفتالي» ومعناه «مُصارَعَتي»، قائلة إني صارعت أختي وغالبتها».

ونعود بالكلام الى ليئة، لما رأت ليئة نفسها أنها توقفت عن الولادة ورأت أختها راحيل َما ذا صنعت، أخذت جاريتها «زلفة» وأعطتها زوجة ليعقوب، فولدت ابناًسمته ليئة «جاداً» ومعناه «طالعَ حسَن» أو «جَدّ» أو «توفيق» أو «إقبال»، ثم ولدت زلفةُ ابناًثانياً ليعقوب، فدعته ليئه باسم «اشير» ومعناه «سعادة» أو «سعيد»

— استطراد —

أقول ومن هذا نعلم انه وجد فى ابناء يعقوب من جاريتيه أربعة بنين، وهم دان ونفتالي من الجاريه بلهه، وجاد وأشير من الجاريه زلفة، وهؤلاء الأربعة هم من آباء الأسباط الإثني عشر، وكثيراً ما نقرأ في كتب الجدل من أقلام المبشرين البروتستانت، وكثيراً ما نسمع من أفواههم حين حوارهم معنا أنهم يقولون لنا «أنتم معشر العرب الإسماعيليين من أبناء هاجر الجاريه، وأما معشر الإسرائيليين

فأساء ساراي الحرة » ، وأذكر أني مرة سمعت مبشراً كان يجادلني ويقول لي هذا القول « إن أبناء الجارية أرذل وأحط من أبناء الحرة ، وبالتالي فسلالة يعقوب أعلى وأشرف من سلالة إسماعيل » فقلت له « وهل الأسباط الأربعة أعني الدانيين والنفتاليين والجاديين والأشيريين إلا أولاد يعقوب من جاريتيه ؟ فكيف تكون هذه الأسباط الأربعة،وهم أولاد الجواري ، أعلى وأشرف من القبائل التي تفرعت عن إسماعيل؟ » ، على أن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤٩ ١٣) ، فلما سمع جوابي انقطع وبهت كأنما ألقم حجراً

— رجع واستطراد —

فلما إن ليئه إنما انقطعت عن الولادة مؤقتاً ، ولم تكن قد بلغت زمن الإياس فكانت عليها غيرة العقم،ولذلك ولدت ولداً خامساً دعته « يَسَّاكر »وتفسيره«أجرة» أو« يأتي بأجرة»أو«توجد أجرة»،ثم ولدت ولداً سادساً دعته«زبولون»وتفسيره«منزل»وقال بعضهم معناه «خَلاَص الليل أوصَداقٌ حَسَنٌ »وقال آخر معناه«صَداق ليلة أو مَهْر ليلة » وقال ثالث معناه « مَسكَن » وبهذا ظهر ان أولاد يعقوب من ليئة ستة ، ثم أن راحيل دعت ربها أن يرزقها بالذرية ، فسمع الله لها واستجاب دعاءها ، فولدت ابناً ، فدعت اسمه « يوسف » ومعناه « زيادة » أو سيزيد » ولد سنة (٢٣١٦ ق م) وتوفي سنة (٢٢٠٦ ق م) فيكون عمره (١١٠) سنين ، وكان منذ نعومة أظفاره محبوباً لأبيه ، وفي الحديث « قيل يا رسول الله من أكرم الناس ؟ — قال أتقاهم — فقالوا ليس عن هذا نسألك — قال فيوسف نبيّ الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله — قالوا ليس عن هذا نسألك— قال فعن معادن العرب تسألون ؟ — قالوا نعم — قال فخيارهم في الجاهلية،خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » ، رواه البخاري في صحيحه ، وروي أيضاً (الكريم

ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »

ويوسف هو محور هذه الحكاية اللطيفة ومرجع القصة العجيبة ، وبطل هذه الرواية اللذيذة ، وموضوع الحديث

التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف

قرىء « يُؤسَف » بالهمز وفتح السين المهملة ، وعليه فقد قيل إنه منقول من الفعل المضارع المبني للمجهول بعد تخفيفه بحذف الهمزة منه ، أي يُؤسَفُ لأجله ، وقرىء « يُؤسِف » بالهمزة وكسر السين ، وعليه فقد قيل إنه منقول من الفعل المضارع بعد حذف همزته تخفيفاً ، والعجب أن حالة يوسف كانت في بدآءتها مؤسفة جداً ، فهذا غريب الاتفاق ، وهو انطباق الحادثة في الخارج على ما يسمى به الإسم ، كما في قول الشيخ عمر بن الوردي

قـــد قلت لما مر بي   معرطق يحكى القمر
« هـــذا أبو لؤلؤة   منه خذوا ثأر عمر »

وقوله في صديق له صدّ عنه بعد توليته منصب الحكم

« يامن تولى قاضياً   هذا قضاء ام قدر »
« عذرك في هجراننا   أن القضا يعمي البصر »

وبعد ، فالصحيح ان يوسف اسم أعجمي عبراني معناه « سيرين » وليس بعربي حتى يصح القول بما سبق ، ولكننا على كل حال نقول كثيراً ما يتشاءم الناس أو يتفاءلون بالأسماء ، فقد روى أن الحسين (ص) لما انتهى الى طرف الكوفة قال لبعض أصحابه « ما تسمى هذه القرية ؟ » وأشار إلى العَقْر فقالوا له « اسمها

العَقْر » — فقال الحسين « نعوذ بالله من العَقْر » ثم قال « فما اسم هذه الأرض التي نحن فيها ؟ » — قالوا « كربلاء » — فقال « أرض كرب وبلاء » ، وأراد الخروج منها فمنع ، كما هو مذكور في قصة مقتله رضي الله عنه حتى كان ما كان .
وقال الراوي في غزوة خيبر إن الدليل انتهى برسول الله ﷺ الى موضع له طرق إلى خيبر ، فقال « يارسول الله إن لها طرقاً تؤتيَ منها كلها » — فقال ﷺ « سمّها لي » ، وكان يحب الفأل والاسم الحسن ، ويكره الاسم القبيح ، — فقال الدليل « لها طريق يقال له (حَزن) ـ قال لا نسلكها » — « قال لها طريق يقال لة (شاس[1]) ـ قال لا نسلكها » ـ « قال لها طريق يقال له (حاطب[2]) ـ قال لا نسلكها » ـ قال بعض رفقائهم ما رأيت كالليلة أسماءً أقبح من أسماءٍ سميت لرسول الله ﷺ « فقال لها طريق واحدة ولم يبق غيرها يقال لها (مرحب) ـ فقال ﷺ نعم نسلكها » ـ فقال عمر (ص) ألا سميت هذه الطريق أول مرة؟»

ثم قام نعمة الله الحبيبي[3] وقال

التشاؤم والتفاؤل من الأسماء

بمناسبة ما ذكره أخونا تقي الدين المقدسي، نريد هنا أن نذكر فلسفة في اسم (يوسف) وابيه (يعقوب) وأمه (راحيل) وشقيقه (بنيامين) وبلده (حبرون)

(١) أي فلل
(٢) أصل الحطب القطع ، والاحطب الشديد الهزال أو المشؤوم
(٣) نسبه الى حبى من أعمال فلسطين

ستخرج من مجموعها فالاً حسناً ورجاءً مستملحاً لمستقبل يوسف، ولكن لا بدان نقدم قبل ذلك نادرة عثرنا عليها في بطون التواريخ، علينا نبني كلامنا هنا فنقول ذكر صاحب (الطرق الحُكْمية) قال مالك عن يحيى بن سعيد إن عمر بن الخطاب قال لرجل « ما اسمك ؟ ـ قال جمرة ـ قال ابن من ؟ ـ قال ابن شهاب ـ قال ممّن ؟ ـ قال من الحُرقة ـ قال أين مسكنك ؟ ـ قال بَحرّة النار ـ قال أيها ؟ ـ قال بذات لظى ؟ !!! ـ فقال عمر أدرك أهلك فقد احترقوا » فكان كما قال، وقد قال الشاعر الحكيم

وقلما ابصرت عيناك من رجلٍ
إلا ومعناه في اسم منه أو لقبه

وقيل لكل اسم من مسماه نصيب، وقال الشاعر[1]

الا قد هاجني فازددت وجداً
بُكاءُ حمامتين تجاوبان

تجاوبتا بلحن أعجمي
على غصنين من غَرب وبان[2]

إلى أن قال

فكان (البان) ان بانت سليمى
وفي (الغَرب) اغتراب غير داني

إذا تمهد هذا (فيوسف) اسم بطل هذه القصة لفظ عبراني معناه (سيزيد) أو (زيادة)، و (يعقوب) اسم أبيه معناه (يمسك العقب أو (يَعْقُب) أو

(١) هو جحدر بن مالك
(٢) الغرب والبان نوعان من الشجر

(يتعقب) أو (عاقب) أو (متعقب) خلاف بين المترجمين ، و (راحيل) اسم أمه معناه (شاة) ، و (بيامين) اسم شقيقه معناه (ابن القوة) ، و (حبرون) اسم بلده وبلد أسلافه لفظ عبراني معناه (معاهدة) أو (محالفة) ، وعلى هذا فلو فرض وقدر أن يوسف سئل عما ذكر وأراد أن يجيب بألفاظ عربية لكانت الأسئلة والأجوبة هكذا

س ـ ما اسمك ؟

ج ـ سيزيد

س ـ ما اسم أبيك ؟

ج ـ عاقب

س ـ ما اسم امك ؟

ج ـ شاة (والغنم غنيمة) ؟

س ـ ما اسم شقيقك ؟

ج ـ ابن القوه

س ـ ما اسم بلدك وبلد أسلافك ؟

ج ـ معاهده أو محالفة

وعليه فيكون تعليقنا على هذه الأجوبه أن نقول له « حقاً إن لك مستقبلاً باهراً ، فستزيد وتكون عاقباً كأبيك ، ومنّاعاً كأمك ، وذا قوه كأخيك ، وحليفاً لاولياء الأمور » والعجب أن كل هذا قد صار ، بتقدير اللطيف الخبير

ثم إن يعقوب بعد ما كان ساكناً عند خاله لابان فيما بين النهرين في حاران اشتاق إلى فلسطين وأهله فيها فقام من حاران بزوجاته وأولاده الأحدعشر ، وجاء

فلسطين بعد عشرين سنة أقامها فيما بين النهرين ، وكان رجوعه لفلسطين بأمر من الله تعالى ، ثم ولد له (بنيامين) من زوجه راحيل ، وكانت ولادته قرب « بيت لحم » ، ومعنى بنيامين (ابن اليمين) أو (ابن القوة) أو (ابن يميني) وكان لطيفاً مطيعاً ومحبوباً من أبيه ومُعَزّزاً له في شيخوخته ولا سيما مدة غيبة أخيه يوسف وكل من قرأ قصة يوسف يرى محبته العربية لأخيه الصغير فإنه ألحّ على إخوته وهم لم يعرفوه بعد أن يحضره معهم إلى مصر فلما أحضروه ونظره بكى وقبّله باشتياق لا مزيد عليه ، وأما سبط بنيامين فكان من جملة نصيبه من أرض الميعاد أورشليم التي هي بيت المقدس

وبعد فلم يحدثنا التاريخ بنات ليعقوب سوى واحده من زوجته ليئة سميت « دينة » ، الأمر الذي نعلم منه أن يعقوب عليه السلام كان « مذكاراً » ولم يكن « مئناثاً »

الفصل السادس

وقال العلامة سليم الخايبوسي (١) وقال

في تقليد المفسرين بعضهم لبعض

إن هذه السورة على الأكثر هي سيرة تاريخية ، ولذلك فأكثر ما كتب عليها هو من هذا القبيل ، وبناء عليه فكل من قرأ هذه السورة مع ما علق عليها من التفاسير يكون قد حشر في دماغه لسورة يوسف وإخوته صورة مركبة ومستنبطة

(١) نسبة الى بلدة خان يونس من اعمال فلسطين

من مصدرين ، الأول كتاب الله تعالى ، والثاني كلام المفسرين ، فأما الأول فلاشيء عليه ، لأنه وحي أوحي من لدن الحق جل جلاله وأما الثاني فلنا عليه ملاحظة ، ذلك أننا نرى كل مفسر جديد يتبع في النقل المفسر الذي سبقه ، ويقتدي به في فهمه وثقافته وفيما ينقل عن غيره مما هب ودرج ،من غير أن يتفكر هو فيه شيء !!

ذلك لشدة ثقتنا العمياء ، وتقاليدنا للآباء والمشايخ ، بلا تمحيص للحقائق ، مع أن هؤلاء المفسرين قد يكونون قد كتبوا ما كتبوا تحت تأثير العاطفة ، أو التقليد البحت ، وهذا هو منبع السم الناقع لموت الحقائق ، ومصدر الجرائم القاتلة لروح التاريخ ، وعليه فإنك تراننا نقدم الآن كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تفسير هذه السورة الكريمة ، فنقول : كثير ممن اشتغلوا بسيرة يوسف وإخوته كانت عواطفهم تتحكم في حوادثها تحكماً يضيع به الفائدة من دراسة هذه السيرة اليوسفية ، فإن عاطفة التقليد تجعل من ليس سيئ سيئاً ، فتجتهد في تأويل كسائر حوادث هؤلاء بحمله على وجه ليس فيه غضاضة فى شأنهم ، حتى ولو أدّى ذلك إلى مقاومة نصوص الكتاب الكريم ، عاطفة التقليد تجعل الحسن سيئاً ، والسيء حسناً ، فأهل هذه العاطفة لا هم عقليون ، حتى يقولوا بالتحسين والتقبيح العقليين ، ولا هم نقليون حتى يقولوا بالتحسين والتقبيح النقليين ولكنهم يدينون مذهباً ثالثاً ، هو التحسين والتقبيح التقليديين ، عاطفة التقليد تجعل الكبيرة صغيرة ، وتهون أمرها جداً متى كان من صدرت منه في وهم الناس عظيماً ، وتجعل الصغيرة كبيرة ، متى كان من صدرت منه فى تقليد الناس حقيراً ، وربما لا تجد من جمهور المفسرين وجميع القصاص الذين فسروا لنا سورة يوسف ، ووصفوا لنا أخباره مع إخوته ـ مَن محصوا الحقائق وعللوا الحوادث ، سوى نفر قليل جداً وجداً قليل ، بل ربما لا يكون هذا النفر موجوداً إلا فى عالم الخيال ، فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أننا سندرس قصة يوسف وإخوته وأبيه ، وعزيز مصر وزوجه

وشاهد يوسف ، ونسوة المدينة ، ومليك مصر ، والفتيين ، وما إلى ذلك بكل دقة وتمحيص ، مع تعليل حوادثهم وفلسفة ما صدر عنهم من الأقوال ، وما اتصفوا به من الأحوال ، بحيث يكون رائدنا العقل السليم ، وعمدتنا النقل من أوثق المصادر ، غير حافلين بالعقائد التقليدية ، والمزاعم التى ليس عليها أثارة من علم ، والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبل »

(مرحى مرحى)

الفصل السابع

وقال الفهامة الريحاوي[1]

فى ابطال قصة يوسف

وان القصة صورة طبق الاصل لحياة الشعب الاسرائيلي

« هذه القصة التي فى السورة تمثل لنا حياة يوسف ويعقوب وأولاده وميولهم وعواطفهم ، تمثل لنا (المرأة المصرية العتيقة) وأحوال الحكام المصريين ، تمثل حياة عقلية قوية ليوسف ، تمثل ما لإخوته من قسوة بربرية ومعاملة وحشية ، تمثل حياة أليمة محزنة بالنسبة ليعقوب ، تمثل خضوع المرأة المصرية العتيقة لسلطان شهوتها ، تمثل حياة رقى وأناة وعقل « فوطيفار » عزيز مصر ، تمثل إنصاف

(١) نسبة الى بلدة أريحا فى فلسطين

« الريان » ملك مصر في إسناده العمل لدي الحدارة ولو عرساً ، ثم على الإجمال إن هذه القصه تعطينا صورة لدرس حياة الشعب الإسرائيلي ، وما فيه من قسوة عند اللزوم ، ورقة حين الاقتصاء و حبٌ وإساءة وإحسان ، ومع أن السورة تكفلت ببيان جميع ما أشرنا إليه ، (فيوسف) فقط هو موضوع هذه القصة التاريخية ، أو هو موضوع هذه السورة الشريفة ، ولذلك سميت باسمه ، وأما عزيز مصر « فوطيفار »وامرأته « زليخا » ، والفتيان الخبّاز « ملحب » والساقي « نبو » ، والسيدات المصريات ، وحضرات أبيه المعظم ، وإخوته الأحد عشر ، ومليك الديار المصرية « الريان » ، وغير هؤلاء – فإنما ذكروا على حسابه ، فهو البطل الوحيد لهذه السيرة الجميلة اللذيذة ولذلك فقد صرح باسمه فى هذه السوره خمس وعشرين مرة ، ولم يصرح فيها شيء من أسماء إخوته ولا مره ، نعم ذكر فيها أسماء أصوله الذكور يعقوب وإسحاق وإبراهيم ، ولكن لا أولاً وبالذات، بل ثانياً وبالعَرَض، فافهموا أسرار القرآن وإلا فالسلام عليكم »

الباب الثاني

الفصل الأول

في متعلق البسملة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت البسملة فقام المحدث مأمون الكرمي [1] وقال

إن المعنى الضمني في البسملة هو أن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ إقرأ يا نبيّ هـذه السورة على عبادي باسمي ، أي أقرأها على إنها مني ، لا منك ، وإني برحمتي بهم أنزلها عليك ، لتعلم أنت مضمونها ، وتهدي قومك بها إلى ما فيه خيرهم ، في الدنيا والآخرة

والنبي عليـه الصلاة والسلام ، كان يقصـد من متعلق البسملة « أنني أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمي ، وعلى أنها منه لا مني ، وإنما أنا مبلـغ عنه عز وجل » ، قال تعالى « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ » (٢٧ ٩١و٩٢) ، وهـكذا الواحد منا اليوم إذا قرأ السورة يقصد أنه لا يقرأها باسمه ، أي باسم نفسه ، بل باسم ربه سبحانه وتعالى ، ومثل هذا التعبير

(١) نسبة الى طول كرم من بلاد فلسطين

نحو هذا المعنى مألوف عند جميع الأمم ، ومنهم العرب ، إذا أراد الواحد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم ىعلن أنه متجرد عن نسبة هذا العمل إليه ، ومنسلخ عنه فيقول « أعمله باسم فلان » ويذكر اسم ذلك الأمير أو الحاكم ، أو الملك أو الرئيس ، ويقرب هذا استعمال ما نراه في المحاكم النظامية اليوم حيث يبتدئون الأحكام قولاً وكتابة باسم القانون الفلاني أو باسم الدستور الفلاني أو باسم الشعب الفلاني ، ثم ما نراه عندما يريدون أن يضعوا حجر الأساس في بناية مسجد أو قلعة أو مدرسة أو مستشفى ، يقول الذي يضع حجر الأساس « باسم الملك أو الرئيس أو الأمير فلان أو باسم الشعب الفلاني »

على أن كل شيء إنما يقرأ أو يقال أو يعمل ، بالاستناد إلى اسمه تعالى وحده ، أي بالارتكاز على إقداره تعالى وقوته « لأن العبد من دون الله ضعيف ، وعاجز جداً ، وهنا يجب أن نتذكر إنكار المسيح عليه السلام على القائلين له غلطاً منهم « باسمك عملنا كذا » ، « باسمك قلنا كذا » ، كما ورد عنه أنه قال « كثيرون سيقولون لي يا رب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟؟ فحينئذ اصرح لهم أني لم أعرفكم قط ، إذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (مت ٧ ٢٢ و ٢٣) فالمسيح يحارب فكرة إسناد الشيء لاسم غير اسم الله ، لأن من يزعم هذا الإسناد ، هو غير فاعل إرادة الله ، أي غير ممثل لأمر الله ، بل الأحرى به أن يكون آثماً ، لمخالفة أمره تعالى

مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف

كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

آ(١) ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

تليت الآية الأولى فقام الامام القلقيلي [1] وقال

إن من يدقق في آيات سورة يوسف عليه السلام ، التي تعدمئة وإحدى عشرة آية ، يجد أن الآيات الثلاثة الأولى هي بمثابة مقدمة للشيء المقصود الذي انعقدت له السورة ، إذ أنها تذكر أن هذا الكتاب ، وهو القرآن ، « مبين » وأنه « بلسان عربي » رجاء أن يكون مفهوماً متعقلاً ، وأنه « أحسن القصص »

ويجد أن الآية الرابعة من قوله ﴿ إذ قال يوسف لأبيه ﴾ إلى آخر الآية المتممة مئة وواحد هي الشيء المقصود ، الذي انعقدت له السورة اليوسفية ، وكذلك الآيات العشر الأخيرة من قوله ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ إلى آخر السورة ، فقد ذكرت دليلاً أو خاتمة أو نتيجة ، وهي في الحقيقة ، أهم ما في السورة لعلاقتها بأصول الدين (جيد جداً)

(الٓر)

- ١ -

وبعد أن ألقى الامام القلقيلي كلمته العابرة السابقة تابع قائلاً عن الٓر

كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب

أما رأيي في (الٓر) فيقال فيها ما قيل في تأويل سائر حروف الهجاء التي

---

(١) نسبة الى بلده قلقيلية من فلسطين

افتتح بها بعض سور القرآن ، وأحسن الأقوال فيها أنه تعالى ذكرها لتنبيه العرب إلى أن القرآن إنما ألف كلامه من جنس ما تؤلف منه كلماتهم ، أي من حروف الهجاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقاها الصبية منذ نعومة أظفارهم وصغرهم ، فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة في حروفها ، منافية للمألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وتقهقروا عن تركيب جمل كجمله

هذا بعض ما قالوه نقلته بكل تحفظ ، والعهدة على القائل لا على الناقل

(الـر)

- ٢ -

وقال الفاضل اللبناني (١)

نظائر لفظ الر في التوراة والانجيل

كنت سئلت عن هذا وأمثاله ، فقلت للسائل لا اقدر أن أجيبك عن هذا إلا بنصف العلم ، وهو «لا أعلم» ،لأن الصحاح والمصباح والقاموس والأساس والفائق والمخصص ولسان العرب وما إلى ذلك من سائر أسفار اللغة العربية كلها نقف هنا مكتوفة الأيدي ، خارسة الألسن ، ولم يرد في نحو ذلك نقل عن المعصوم ،فإذن ليس لنا إلا أن نقول هذا من قبيل المخابرات السرية المسماه بالجفر أو الشفرة التي يراد منها أن لا يفهمها أحد سوى من أرسلت إليه ، ونظيره لفظة «هَلَّلويا » التي وردت كثيراً في صدر أو ختام المزامير ، كما وردت أيضاً أربع

(١) نسبة الى بلدة لبنان في فلسطين!

مرات في (سفر الرؤيا)، فإن المعتمد عند مفسري اليهود والنصارى بعد احتمالات كثيره أنها من قبيل الألغاز والأحاجي ، وقريب من هذا (سفر الرؤيا) عند النصارى ، خصوصاً متصفة فإنه كما قال الدكتور جورج بوست « مظلم كدجى الليل ، وقال إن هذا السفر مشحون بمسائل محيرة » وهكذا يوجد من قبيل الألغاز شيء كثيره في سفري دانيال وحزقيال ، كما اعترف أهل الكتاب بذلك فمن اعترض علينا من متأخرى المسيحيين بأن لا فائدة من فواتح السور هذه لأن معناها غير مفهوم ، أجبناه بما ذكرنا من قبيل الفاظ وقعت عندهم ، بل مجمل غير مفهومة إلا لخواص عباده ، كالأنبياء الذين نزلت عليهم هذه الكلمات

هذا ما أمكنني أن أذكره هنا كمحاورة في « بلفون »

(أصوات من عدة جهات بخٍ بخٍ)

(الٓر)

ـ ٣ ـ

وقال المدقق الالدي (١)

الأساليب المتكرة في القرآن

حكمة افتتاح هذه السوره وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي تتركب منها الكلام ـ هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا تفوته منه شيء ، فهي كأداة الإفتتاح « ألا » وكأداة التنبيه « ها » ، وكلفظه « آلو » التي تستعملها أهل اليوم عند بدء

(١) نسبه الى بلده اللدمى بفلسطين

الكلام بالتلطف للانتباه والإصغاء ، إذ من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلمُ السامعَ إلى مهمات كلامه والمقاصد العليا منه ، ويحرص على أن يحيط علم المخاطب عما يريده هو منها ، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها ، ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها ، لكيلا يفوته شيء منها

قال بعض المتقدمين إن الكفار لما قالوا ﴿ لا تَسمَعُوا لهـذا القرآنِ والْغَوا فيه لَعَلَّكم تَغلِبون ﴾ (٤١ ٢٦) ، وتواصوا بالإعراض عنه جاء القرآن بهذه الحروف ، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين . « اسمعوا إلى ما يجيء به محمد » ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم ، وطريقاً إلى استماعهم ، وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه مثل (لا) و (أما) و (ها) ، لأنها من الألفاظ التي تعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن كلام لا يشبه الكلام ، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد ، ليكون أبلغ في قرع سمعه ، وإنا لا نلتزم أن يكون كل استعمال في القرآن أو في كلام البلغاء معهوداً في كلام الناس من قبل لاستلزام ذلك نفي الابتكار ، وإن كل استعمال يجب أن يكون قديماً معروفاً في الجاهلية ، وذلك باطل بالبداهة ، فكم في القرآن والحديث من أبكار الأساليب الحسان ، وما من بليـــغ إلاّ وله مخترعات في البيان ، لم يسلك فجاجها من قبله إنسان ، وإليك بعض الأمثلة على ذلك .

(١) ـ قوله تعـــالى ﴿ ولِكُلٍّ جَعَلْنا مَوَالِيَ مما تَرَكَ الوالِدان والأقْرَبونَ والذين عَقَدت أيمانُكم ﴾ (٤ ٣٣) فالمراد بقوله (والذين عقدت أيمانكم) الأزواج ، فإن كل واحد من الزوجين له حق الإرث بالعقد ،

فهذا استعمال للقرآن مبتكر ، إذ لم نعهد في كلامهم إضافة عقد النكاح لليمين ، ومأخذه أن المتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليمين

(٢) ـ قوله ﷺ (يا خيل الله اركبي)

(٣) ـ قوله تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فإن هذه البسملة من ابتكار القرآن ، فإن العرب إنما كانوا يقولون : « باسمك اللهم » ، وقد ورد في القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان أن البسمله استعملها سيدنا سليمان في كتابه إلى بلقيس بقوله تعالى ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ (٢٧ ٣١) .

(٤) ـ ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهو نوع من انواع البديع التي ابتكرها القرآن ، ومثاله ﴿ ربك فكبر ﴾ (٧٤ ٣) ، ﴿ كل في فلك ﴾ (٢١ ٣٣)

(٥) ـ قوله تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ (٢ ١٧٩) فإن أحداً من العرب لم يستعمل هذا التركيب

(٦) ـ ما في قوله تعالى ـ ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب ﴾ (٤ ٣٣) ، فالغيب هنا هو ما يستحي من إظهاره ، أي حافظات لكل ما هو خاص بالزوجية حتى ما يدور بينهن وبين أزواجهن في الخلوة ، ولا سيما حديث الرفث ، فما بالك بحفظ العرض !؟ فهذه العبارة هي من دقائق كنايات النزاهة ، وهي من استعمالات القرآن المبتكرة .

وإن كثيراً من الألفاظ العربية خُلِق في العصر الإسلامي ، قال ابن جني في الخصائص « إن العربي إذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يُسبق إليه ، فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا إليها » ، هذا ما رأيته بلفظه ، وهل أنا إلا من غُزَيَّة

« آيات »

قال الاستاذ الدمشقي الناسريحي (١)

معى آيات القرآن

ترد كلمة « آيات » في القرآن لستة معان

الأول ـ بمعنى الجمل المنزلة على النبي ﷺ المقروءة باللسان ، ويقال لها في غير القرآن فواصل وسجعات وفقر ، وفيه قولهم مثلاً « سورة يوسف مئة وإحدى عشرة آية » ، والفاتحة مثلاً « سبع آيات » وهكذا

الثاني ـ بمعنى العلامات ، قال النابغة الذبياني

توهمتُ آياتٍ لها فعرفتُها
لستةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ

ومنه العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق الدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه

الثالث ـ المعجزات الخارقة للعادة ، التي أجراها الله على ايدي رسله ، ولعله قيل لها آية ، لأنها علامة

الرابع ـ بمعنى العِبَر والذِكرَ والحِكَمَ والعظات ، التي تؤخذ مما نزله الله على نبيه ﷺ وسيأتي في هذا المعنى قوله ﴿ لقد كانَ في يوسفَ وإخوته آياتٌ

(١) نسبه الى حي باب سريجة في دمشق

للسائلين ﴾ (ع ٧) فالآية فيه بمعنى العبرة، كما سيأتي له بقول ﴿ لقد كانَ في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأُولِي الألبابِ ﴾ (ع ١١١)

الخامس ـ بمعنى جماعة الحروف، قال أبو عمرو « خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم » ولعل هذا يرجع للأول

السادس ـ بمعنى العجيبة، لأنها عجب من العجائب، ولعل هذا يرجع للثالث

وأما الكلمة (آيات) فيما نحن بصدد المحاضرة عليه فيمكن أنه من النوع الأول، ويمكن ان يكون من النوع الثالث، والله تعالى أعلم

(الكتاب)

- ١ -

وقال المحقق الشهاب الرملي (١)

اسماء القرآن

ما هو المراد من كلمة « كتاب » ؟

غير خاف على أحد ان الأمة العربيه قبل الإسلام، كانت امة أمية، بقل فيها وجود من يعرف القراءه والكتابة، معرفة جيده، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأسعارهم وغيرها، على حفظهم لها في صدورهم، ولم نعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب، في أي موضوع كان، وغاية ما كانوا يفهمونه

---

(١) نسبة الى الرملة من بلاد فلسطين

من لفظ « كتاب » أنه صحيفة مكتوب عليها،من نحو الجلود أو العظام أوالحجارة أو الجريد ، والصالح للكتابة من كل من هذه الأشياء ـ كان لديهم قليلاً ، ولذلك لم يستعملوا نوع واحد منها عن باقيها، ولم يكن عندهم « الورق » الذي نعرفه الآن، بل هذه الكلمة « ورق » ما كانت تطلق عندهم إلا على ورق الشجر ، وعلى رقاع من الجلود رقيقة ، والإطلاق الأخير مستعار من الأول

هذا وإن ما ورد في كلامهم من لفظ « كتاب » كانوا يريدون به ما نطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ « خطاب » أو جواب أورقيم أو تحرير أو مكتوب،ومنه قول سليمان عليه السلام ﴿ إذهب بكتابي هذا ، فألقه إليهم ﴾ (٢٧ ٢٨)، ومنه كتبُ النبي ﷺ إلى الملوك،يدعوهم إلى الإسلام ومثل الكتاب ـ السفر والزبور والدفتر والسجل، كما قال تعالى ﴿ يومَ نَطْوِي السماءَ كطيِّ السِّجِلِّ للكُتُب » (٢١ ١٠٤) أي كطي الدفتر للمكتوبات فيه ، فمعاني هذه الألفاظ كلها متقاربة ، ولكن ما كانوا يفهمونها ، كما نفهمها الآن ، ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي ﷺ ، اختلفت الصحابة في ماذا يسمونه به وتوقفوا ،لأنهم لم يعهدوا مثله من قبل ، ثم استقر رأيهم أخيراً على تسميته « بالمصحف » تبعاً لأهل الحبشة ، في تسمية مجموعاتهم بذلك ، والمصحف الكتاب ، بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الاطلاق ، لأنه مأخوذ من أصْحَفَ أي جمع ، وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا ، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن أنزَلَ الكتابَ الذي جاء به موسى؟﴾ (١٦ ٩١) ، وقوله ﴿ ذلك الكتابُ ، لا رَيْبَ فيه ﴾ (٢ ٢) وقوله ﴿ كتابٌ أنزلَ إليكَ ﴾ ، فالمراد « بالكتاب » في جميع هذه الآيات الوحي المكتوب بقطع النظر عن كمية كتابته ووصفه ، والقرآن حين نزول هذه الآيات لم يكن تاماً ولا مجموعاً ، وإنما المراد ما كان يوحَى في ذلك الوقت ، فيكتب ،

ولذلك ، فسور القرآن كل منها ، كتاب قائم بذاته ، كما قال تعالى ﴿ رسولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرةً ، فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (٩٨ ٢) أي ان تلك الصحائف تحتوي على خطابات أو تحارير ، أو مكاتب قيمة ، فلفظ « الكتاب » هنا يراد به السورة ، أو القطعة التي أنزلت على النبي ﷺ ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما أنزل عليه

فلفظ الكتاب كلفظ القرآن ، قد يطلق ويراد به بعضه ، كما في قوله ﴿شهرُ رمضانَ الذى أُنزِلَ فيه القرآنُ ﴾ (٢ ١٨٥) أي بعضه أو جزء منه ، كما قد يطلق ويراد به جميع ما في المصحف الشريف

وكذلك « أهل الكتاب » من العرب ، لم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة من التوراة والانجيل ، مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود ، أو نحوها ، ولذا وصفهم القرآن الشريف بقوله ﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً مِنَ الكتاب ﴾ (٣ ٢٣) وخاطبهم بقوله ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءَكم رسولُنا يُبيِّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفُونَ مِنَ الكتابِ ﴾ (٥ ١٥) وقال فيهم ﴿ ونَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّروا به ﴾ (٥ ١٣) ، وقال لهم ﴿ قُلْ مَن أنزلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نوراً وهدىً للناسِ ، تجعلونَهُ قراطيسَ تُبدُونَها وتُخفُونَ كثيراً ﴾ أي صحفاً متفرقة (٦ ٩١) ولكن لم تكن من الورق المعروف ، لأنه لم يكن حادثاً ، بل كانت من الجلود أو نحوها ، وقال أيضاً ﴿ فويلٌ للذينَ يَكتُبونَ الكتابَ بأيديهم ، ثم يقولون هذا مِن عندِ اللهِ ، ليشتَروا به ثمناً قليلاً ، فويلٌ لهم مِمَّا كَتَبَت أيديهم ﴾ (٢ ٧٩) ، فهذا كله ، يدل على أن كتبهم المقدسة ، ما كانت تامة و لا محصورة بين دفتين ، بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان ، وإنما كانت مبعثرة في رقاع منثورة ، وإن بعض صحفهم كان جفاً

والبعض الآخر كان باطلاً ، أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ وكيف يُحَكِّمونَكَ ، وعندهم التوراةُ فيها حُكْمُ اللهِ ؟ ﴾ (٥ ٣٢) فمعناه أن عندهم أجزاء من التوراة ، كسفر اللاويين أو التثنية ، فيها حكم الله ، في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ ، فهذا كما نطلق لفظ القرآن ونراد به أجزاء منه، أو جزء واحد ، كما تقدم (كذا حققه الدكتور توفيق صدقي)

ومن أسماء القرآن المذكورة فيه « القرآنُ » كما في ﴿ فلا أُقْسِم بمواقعِ النجوم ـ وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيمٌ ـ إنه لقرآنٌ كريمٌ ﴾ (٥٦ ٧٥ ـ ٧٧) وهذا أشهرها

ومنها «الفُرقان» كما في ﴿ تبارَكَ الذي نزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِهِ ليكونَ للعالَمِينَ نذيراً ﴾ (٢٥ ١)

ومنها « رُوح » كما في ﴿ وكذلكَ أوحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ﴾ (٤٢ ٥٢)

ومنها « الذِّكْرُ » كما في ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا له لَحافِظُون ﴾ (١٥ ٣)

ومنها « النور » كما في ﴿ فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ والنورِ الذي أنْزَلنا ، واللهُ بما تعملون خبيرٌ ﴾ (٦٤ ٨)

ومنها « أحسن القصص » كما فى ، ﴿ نحنُ نقُصُّ عليكَ أحْسَنَ القَصَص ﴾ (١٢ ٢)

ومنها « الحكمة » كما في قوله تعالى ﴿ ذَلكَ مِمَّا أوحَى إليكَ رَبُّكَ من الحِكْمةِ ﴾ (١٧ ٣٩)

(المبين)

- ١ -

قال المؤرخ اليماني

بيان القرآن وسهولته

امتاز كتاب الله تعالى على سائر الكتب السماوية والوضعية بالبيان والظهور وسهولة فهمه وشدة إبانته لمعانيه ومراميه ، فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته ، وجمله ، وأما أهل اليوم فإنهم لبعدهم عن العربية وإهمالهم لها تراهم تعسر عليهم بعض مفردات تعد على الأصابع ليس بينهم وبين الوقوف على معانيها سوى مراجعة قاموس لغة أو سؤال عالم من العلماء وأما الكتب عند أهل الكتاب فليست كلها مُبينة ولنضرب مثلا لذلك « كتاب دانيال » الموجود بين أيديهم اليوم فإنه ليس « مُبيناً » بل هو كالألغاز والرموز لا تفهم إلا بعناء ، وهكذا « سفر حزقيال » و « سفر الرؤيا » خصوصاً مستصعبه ، ففي ذلك كله غوامض ومشكلات وقع الاشتباه فيها وأوقعت مفسريها في حيرة شديده ، والذي نراه في شأن ما يسمونه « بالعهد الجديد » أن حواري المسيح أنفسهم ما كانوا يفهمون كل ما يخاطبهم به من المواعظ والأمثال ، ولكن لم ينقل الينا أن صحابة رسول الله ﷺ عُمِّيَ عليهم شيء من آيات القرآن الكريم فلم يفهموها ، فالقرآن ، يمتاز على سائر الكتب بأنه هو « الكتاب المبين » ، ولكن المسلمين المتأخرين لم يرضوا بأن يمتاز القرآن بالبيان الذي ليس بعده بيان ، فحاولوا تغميضه والتسليم بأنه غامض قالوا إلا أفراداً من الناس أوتوا علماً جماً ، وفاقوا سائر البشر بعقولهم وأفهامهم ،

كما فاقوهم ، بعلومهم ومعارفهم ، ثم زعموا أن هؤلاء الأفراد كانوا في بعض القرون الأولى ، كمثل من يسمونهم « بالمجتهدين » مثلاً ، وأنهم قد انقرضوا ، ولم يأت بعدهم ولن يأتي من يسهل عليه أن يفهم آيات هذا الكتاب « المبين » !!! وتجد هذا القول الناقص للقرآن الكريم والناقص له مسلماً بين جماهير المسلمين ، حتى الذين يدعون بأنهم « علماء الدين » !!!

أصوات من الجميع (مرحى مرحى)

« المبين »

– ٢ –

وقال الاستاذ المصري

الناسخ والمنسوخ في القرآن

يقول الله تعالى ﴿ الكتاب المبين ﴾ ، وسيأتي في آخر السورة أن يقول ﴿ وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ، وهذا النص وأمثاله الكثيرة جداً في القرآن ، يعلمنا أن القول بوجود النسخ في القرآن ، ضعيف جداً ، وإن يكن هو مذهب الجمهور ، والقول القوي إنه لا نسخ فيه ، كما هو مذهب أُبَي (ص) ، الذي ورد في حقه انه أقرأ الصحابة ، ومذهب أبي مسلم الخراساني ، ولعمري إن القول بأنه يوجد في القرآن ناسخ ومنسوخ ، وإن الناسخ قد يكون مكتوباً قبل المنسوخ ، كآية العدة في سورة البقرة (آ ٢٤) قالوا هي منسوخة بما في (آ ١٣٤) مع أن ذلك ينافي حسن ترتيب الآيات في سورها ، وإن القول بأن

هذه منسوخة وهذه ناسخة ، مع عدم تمييز هذه من هذه ، وإن القول بأن الله يترك عباده يتخبطون في أمور دينهم ، حتى سهل على هذا المفسر أن يقول « إن الآية الفلانية منسوخة » ذلك لما تراءى أنها معارضة بآية أخرى ، ثم يأتي مفسر آخر ، فيقول ليست منسوخة ، بل نفس المفسر الأول ، متى ظهر له عدم معارضتها لآية أخرى تراه فوراً ، يرجع عن قوله بالنسخ ـ كل هذا ينافي ما ورد من أن القرآن « كتاب مبين » ، « وأنه تفصيل لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين » ، لأنه إذا كان مذهب النسخ صحيحاً ، أفليس من الابهام وعدم البيان ، أن يكون القرآن خالياً من التنبيه على ما نسخ ، وعلى ما لم ينسخ ؟ أوليس من أعجب العجب أن لا يوجد عند القائلين به ، حديث واحد ، متفق عليه ، عن رسول الله ﷺ ، يعتبر نصاً قاطعاً صريحاً على أن الآية أو الآيات الفلانية ، نسخت بالآيات الفلانية ، وما بالهم لم يتفقوا على عدد مخصص للآيات المنسوخة ؟ ولِمَ يتركون دعواهم النسخ في آية ، متى تحققوا أن لا تعارض بينها وبين غيرها ؟ وكل ما روي في النسخ ، هو من قبيل روايات الآحاد ، وكما أن القرآن لا يثبت بروايات الآحاد ، فكذلك النسخ لا يثبت بروايات الآحاد

(هذا ما حققه الدكتور توفيق صدقي رحمه الله)

« المبين »

ـ ٣ ـ

وقال المحقق المفلوطي

المتشابهات في القرآن

لقد ذكروا سؤالاً في صدد كلمة « مبين » صورته قد وجد

في القرآن متشابهات ، أي وجد فيه آيات تشابهت وجوه دلالتها على معانيها القريبة والبعيدة ، حتى أنه ليتيسر لأصحاب الزيغ تأويلها بالباطل وصرفها إلى غير الصواب فكيف مع هذا يكون القرآن مبيناً ؟ والجواب هذا المقدار أمر لامندوحة عنه، لأنه ضروري في حد ذاته ، وذلك أن أهم ما يجيء به الوحي هو العلم بالله تعالى ، وبعالَم الغيب ، ومن المعلوم أن الناس ، وضعوا ألفاظ اللغات ، لما يعرفون من المعاني في هذا العالَم ، فيتعين على من يريد إخبارهم بشيء مما لايعرفون ، أن يستعير بعض ألفاظهم الموضوعة لما يعرفون ، وينصب القرائن لمنع الاشتباه ، ولا شك أن أفهام الناس ، تختلف في فهم القرائن ، وأن الذي يريد الفتنة ، يسهل عليه أن يتبع ما تشابه من القول ، لأن له معنى يدل على وضع له في الأصل ، ومعنى آخر تناوله بالكناية أو بالاستعارة وغيرها من ضروب التجوز ، وهو المراد ، فيحمله على غير المراد ، ويضل به الناس

مثلاً فرضاً وتقديراً إذا أطلق نبي من الأنبياء على الله تعالى لفظ « الأب »في مقام بيان الرحمة ، وعنايته بخلقه ، حمله أهل الزيغ على الأبوة الحقيقيه ، وقالوا إنه أبوه الذي ولده ، ويصرفون من يفتنونهم عن القرائن العقلية التي تحيل الأبوة الحقيقية على الله تعالى ، كما يصرفونهم عن القرائن القولية التي تطلق لفظ « الأب » على كبار أهل الدين ، كما يقولون عن البطريرك مثلاً « أبونا » ينقل النصارى أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قال « إني ذاهب إلى أبي وأبيكم » فسوّى بينه وبين حوارييه ، في أبوة الله له ولهم ، فذلك قرينة على أن هذه الأبوة مجازيه ، وعلى انها ليست خاصة بالمسيح ، وكذلك يقال في لفظ «الابن» إذا أطلقه نبيّ على نفسه، فإن أهل الزيغ يحملونه على البنوة الحقيقية مع قيام القرائن العقلية واللفظية على إحالة

ذلك ، ومن ذلك إطلاق لفظ « الأب » على صانع السلام ، فيما نقلوه عن المسيح عليه السلام « طوبى لصانعي السلام ، لأنهم أبناءُ الله يُدعَون » (مت ٥ ٩)

والخلاصة إنه لعدم اقتدار اللغة عن تعيين المراد من نحو صفات الله وعلم الغيب فلا مندوحة عن أن تستعمل فيها الالفاظ التي لها معنى مراد ، ومعنى غير مراد، ومن هنا كانت تلك الألفاظ متشابهة غامضة ، ولكنها لما كانت محفوفة بالقرينة التي تبين المعنى المراد ، كانت مبينة لذلك المعنى ، موضحة له ، وبذلك خرجت عن كونها غامضة ، وأن كل كتاب سماوي ، لا يخلو عن أمثال لذلك ، فمن أمثلة من نظر في متشابه الإنجيل ، وغفل عن القرائن الدالة على المعنى الصواب ـ فِرَقُ المثلثة ، ومن أمثلة من نظر في متشابهـه ، ولكن حكم القرائن العقلية واللفظية ، فاهتدى إلى صوابه ـ فرقة الأريوسيين الموحده، وكذا من أمثلةمن نظر فيمتشابه القرآن ، وعرف القرينة الصارفة عن الباطل الباطل ، المُعيِّنة المعنى الصحيح ـ فرق أهل السنة والجماعة والسلف الصالح ، ومن أمثلة من نظروا في متشابهـه ، وغفلوا عن القرينـــة الهادية للمعنى الصواب ـ الباطنية والمجسمه والحلوليـــة ، وما الى ذلك (مرجي)

نزول القرآن

آ(٢) ﴿ إنَّا أَنزَلناهُ قُرآناً عَرَبياً لعلكم تَعقِلون ﴾

(أنزلناه)

- ١ -

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية فقام الفهامة الريحاوي [١] وقال ·

(أنزلناه) أي باللفظ والمعنى على قلبك يا محمد ـ لأن الضمير يعود على القرآن،

(١) نسبة الى أريحا بـ بلاد فلسطين

وهو اسم للفظ والمعنى ، كما أن «القول» هو كذلك في آية ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٨١ ١٥-١٨)

ودليلنا أن القرآن نصه ومعناه نازل على قلب الرسول ﷺ قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢ ٩٧) ، وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٢٦ ١٩٢ - ١٩٥) ، فيؤخذ من هاتين الآيتين أن الوحي بالقرآن الكريم هو أن يُلقِيَ روحُ الله الأمينُ في روحِ الرسول ﷺ ما شاء من الآيات والسور ، فالعبارات القرآنية نصها وفصها المألوف اليوم كانت تلقى في قلبه دون كسب ولا اختيار ، ولكن وحياً يوحى ، ودون ان يكون النبي ﷺ هو الناسج لبردتها ، والمبدع لسبكها ، بل هو إلهام رباني يودع في عقله دون ان يكون لمقدرة النبي وفصاحته دخل في صياغتها، وتعمّل في ترتيبها، وإنما هو مخبرنا بنفس اللفظ والمعنى الذي نزل على قلبه ، دون تفسير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، ولا استعمال قريحة ، ولا استخدام لباقة، قال تعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٥٣ ٣ - ٥) هذا ما رأيته في كلام بعض المصريين العصريين ، فتأمله فلعلك احسن منه خبراً

(أنزلناه)

- ٢ -

قال الإمام القلقيلي[١]

مامعنى انزال القرآن الكريم

« أنزلناه » أوحينا إليك به ، وإنما عبر عن الوحي بذلك للاشعار بعلو مرتبة الموحي على الموحى إليه ، أو للاشعار بعلو مرتبة ذلك الشيء الموحَى ، ويصح التعبير بالإنزال عن كل عطاء منه تعالى ، كما قال ﴿ وأنزلَ لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ (٣٩ ٦) ومازؤي البعير والبقر والشاء نازلاً من السماء بالانتقال ، بل هي مخلوقة في الأرحام ، فلانزالها معنى يليق بها ، هو إعطاؤها فضلاً ومنة منه تعالى ، وقال جل شأنه ﴿ وأنزلنا الحديدَ ﴾ (٥٧ ٢٥) ، ومعلوم أن الحديد لم ينزل من السماء ، بل صعد من بطن الأرض ، ولكنه لما كان عطاءً من الله تعالى عبر عنه بالإنزال

ولما سمع الاستاذ الحبير البرقاوي[٢] **هذا الخطاب ، استأذن من الرئيس وصعد على منبر الخطابة وقال**

أيها السادة ، سمعتم ما قاله الأخ الإمام القلقيلي حفظه الله ، وإني اضم صوتي إلى صوته ، لكي أريد أن أزيد على كلامه كلمة صالحة تزيده فهماً ووضوحاً

كلمة (نزل) وما اشتق منها لم تستعمل في كلام العرب إلا فيما يأتي من الفوق

(١) نسبة الى قلقيلية من اعمال فلسطين
(٢) نسبة الى برقة من اعمال لبنة

إلى التحت ، قال تعالى ﴿ يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها وما يَنزِلُ من السماءِ وما يَعْرُجُ فيها ﴾ (٣٤ ٢) ، فالذي ينزل من السماء الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، وقال تعالى ﴿ يابَني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سَوآتكم وَريشاً ﴾ (٧ ٢٥) لأن اللباس من الأصواف والأوبار والأشعار والجلود ـ كل ذلك ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون ، وكذا القطن والكتان هما منزلان من علُ ، وهكذا « الريش » والرياش وهو لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، كالحرير ونحوه فهذا كله نازل من فوق ، لأن الحرير أصله من الدود ، وغذاء الدود من الشجر كالتوت ونحوه ، وقال تعالى ﴿ وأنزلَ الذينَ ظاهَروهُم مِن أهلِ الكتابِ مِن صَياصِيهِم ﴾ (٣٣ ٢٦) ، فالصياصي الحصون وهي مرتفعة ، وقال تعالى ﴿ وأنزَلَ لكم مِنَ الأنعام ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ (٣٩ ٦) ، والأنعام تنزل من أصلاب آبائها إلى بطون امهاتها ثم تنزل من بطون أمهاتها إلى الأرض ، وقال تعالى عن موسى ﴿ ثم تولىَّ إلى الظِّلِ فقال رَبِّ إني لِما أنزَلتَ إليَّ مِن خَيرٍ فَقيرٌ فجاءَته أحداهما ﴾ (٢٨ ٢٤ و ٢٥) ، فذلك الخير الذى أنزله الله إليه هو بنتا نبي الله شعيب ، لأنهما نزلتا من والديهما، وكان موسى عزباً ولم يلبث أن استجاب الله له فوراً ولذلك قال فجاءته إحداهما الخ، وقال تعالى ﴿ وأنزَلنا عليكم المَنَّ والسَّلوى ﴾ (٢ ٥٧) ، والمن ينزل عن الشجر والسلوى ينزل من الهواء ، وقال تعالى ﴿ وأنزَلنا الحديدَ ﴾ (٥٧ ٢٥) وهو يكون في الجبال والضيافة سميت « نُزُلاً » لأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتى إليه فيه بضيافة فسميت نزلاً لأجل نزوله ، ويقال نزل بنى فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام ﴿ رَبِّ انزِلني منزَلاً مُباركاً وأنتَ خَيرُ المُنزِلينَ ﴾ (٢٣ ٢٩) لأنه سينزل في السفينة

أو سينزل منها ، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون « منازل » لأنهم يكونون ركباناً فينزلون ، ومنه قولهم « نُزُلاً » للمحل الذي ينزل فيه الغرباء المسافرون وحين ينزلون عن دوابهم أو سفنهم أو سياراتهم أو طياراتهم ، وعليه قوله تعالى ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهار خالدينَ فيها نُزُلاً مِن عِندِ اللهِ ﴾ (٣ ١٩٨) ، وأما قوله تعالى ﴿ إنَّا أعْتَدنا جَهنمَ للكافرينَ نُزُلاً ﴾ (١٨ ١٠٣) فهو تهكم ، ونحوه ﴿ فَبَشِّرهم بعذابٍ أليمٍ ﴾ (٣ ٢١)، وقول الضَّبِّي

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافَنا

جعلنا القَنَا والمرهفات له نُزُلا

فقد تبين أن ليس في القرآن الكريم لفظ « نزول » إلا وفيه معنى النزول المعروف ، هذا هو اللائق بالقرآن الذي نزل بلغة العرب ، وكلام الله تعالى لما كان نازلاً من السماء على قلب النبي ﷺ قيل فيه ﴿ إنَّا أنزلناهُ ﴾ والله اعلم

(أنزلناه)

– ٣ –

قال السيد السمرقندي [١]

رمون بدء نزول القرآن

كان ابتداء نزول القرآن الكريم في (١٧) خلت من رمضان من السنة الأولى

(١) نسبه الى سمرقند من بلاد التركستان

من السوه ، كما أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿ إنْ كنتم آمَنْتُم بالله وماأنزَلْنا على عَبدِنا يومَ الفُرقانِ ، يومَ التقى الجَمْعانِ ﴾ (٨ ٤١) فالمراد بيوم التقاء الجمعين ، يوم بدر ، وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ، في (١٧) رمضان من السنة المذكورة ، وقد جعل الله « يوم الفرقان » عَلَماً لأول يوم نزل فيه القرآن ، وليلة نزول القرآن هي التي قال الله عنها ﴿ إنّا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ ، إنّا كنا مُنذِرينَ ، فيها يُفرَقُ كلُّ أمْرٍ حكيم ، أمراً مِن عندِنا إنّا كنّا مُرسِلينَ ، رَحمةً مِن رَبك ، إنه هو السميعُ العليمُ ﴾ (٤٤ ٣-٦)وهذا هو السر في تخصيص الإسلام شهرُ رمضان بالصوم ، لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ بغـــار حراء (جبل النور) ، ونزل عليه كلام الله فيه لأول مره ، كما قال تعالى ﴿ شهر رمضانَ الذي أُنزِل فيه القرآنُ ، هُدىً للناس وبَيّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرقان ﴾ (٢ ١٨٥) وجعلت نهاره عيداً ، تذكاراً لذلك اليوم العظيم ، ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم ، وهي المسماة بصدقة الفطر ، فالذى أنزل الله على عبده هو القرآن ـ أي ابتداء نزوله ـ ويوم الفرقان ، هو يوم (١٧) من رمضان من أول سني النبوة ، وسمي « يوم الفرقان » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، باختياره عبده « محمداً » لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته ، وهذا اليوم هو يوم التقى الجمعان في واقعة « بدر » ولكن ليس هو هو بالشخص ، وانما هو هو بالنوع ، فهذا اليوم وهو يوم (١٧) خلت من رمضان ، كان محلاً لنزول الفرقان أول مره ، ومحلا لالتقاء الجمعين ببدر وان يكن يوم الفرقان كان يوم ١٧ خلت من رمضان للسنة الأولى من النبوه ويوم التقى الجمعان هو يوم (١٧) رمضان من السنة الثانية للهجره ، فلذلك قلنا إن « يوم الفرقان » هو « يوم التقى الجمعان » بالنوع ، كما أنه مثلا هو يوم وفاه علي كرم الله وجهه ، ولكن بالنوع لا بالشخص ، لأن وفاته كانت فى (١٧)رمضان

من سنة (٤٠) هجرية ، وقد جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلًا لكثير من الوقائع ، مع انه ليس من سنة واحده كما نقولون « يوم عاشوراء» فيه هبط آدم ، وفيه نجت سفينة نوح ، وفيه نجا موسى من الغرق ، وليس هذا كله من سنة واحدة بالضروره ، وكذلك ههنا ليس «يوم الفرقان »و«يوم التقى الجمعان» و « يوم توفي علي ابن ابي طالب » (ر ض) من سنة واحدة ، هذا ما استفدناه من كلام مصري عصرى ، فتأمله فلعلك أدق نظراً وأكثر تحقيقا

(أبو لماه)

- ٤ -

قال أبو الفضل الجاروي [1]

(جمع القرآن)

نزل القرآن منجماً على رسول الله ﷺ في نحو ثلاث وعشرين سنة، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال، بالآية والآيات والسورة الكاملة كما في سورتنا هذه الى تفسيرها الآن ، ولم يجمع القرآن في عهد النبي في مصحف ، بل كان في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي ، وفي صدور الحفاظ من الصحابة ، ثم في عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد بل جمعت الصحف

[1] نسبه الى بيت جاوين من فلسطين

المحتلفة التي فيها آيات القرآن ،وسوره ، وكتب معها ما كان في صـدور الرحال ، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر ، وقد تولى حمعه هـذا « ريد ں ثاںت » ، ثم انتقلت من أبي بكر إلى عمر ، ثم إلى حفصة ںت عمر،حتى إدا تولى عثمان أحد الصحف من حفصة ، وعهد إلى حمع من الصحابة منهم «ريدں ثاںت » ، وعبد الله ں الزبير ، وسعيد ں العاص،بحمعها فى مصحف واحد ،وكتب منه نسخاً كثيرة ، ورعت على الامصار

(قرآناً عربياً)

- ١ -

قال الفهامة الحرطومي (١)

لعات كلام القرآن

إن من كلام القرآن ما هو عربي اصاله ، بدون أن يكون ترجمة عن لغـــة أخرى ، وذلك كالكلام المسند فى هذه السورة لله تعالى ابتكاراً ، وليس محكيا عن الأعاجم ، ومنه ما هو معرب للألفاظ العبرانيه ، وذلك كالمحاورات المنقولةعن لسان يعقوب واولاده ، ومنه ما هو محور من اللغة العربية العمليقية الهكسوسية إلى اللغة العربيه القرشية ، وذلك كالكلام المحكي عن مليك مصر ، « الريان ں الوليد » لأن اللغة الهكسوسية قريبة حداً من اللغة العربية أو هي العربية محرفة ،

(١) نسبه الى بلده الخرطوم فى السودان

ومنه ماهو ترجمة عن اللغةالقبطيـة المصرية ، وذلك كالكلام المعزوّ إلى النسوة فى المدينة المصرية ، والكلام المعزوّ إلى « عزيز مصر » وامرأته ، وإلى « الشاهد » من أهلها ، على أن اللغة المصرية موافقة للعربيـــة في الألوف من مفرداتها ، كما اكتشف ذلك من العاديات المصرية ، فكأن أهل اللغتين واحد ، ومنه ما هوتحوير من اللغة المديانية إلى اللغة العربية القرشية ، وذلك كالكلام المنقول عن « وارد السيارة » التي جاءت فارسلته للجب ، ويظهر مما تقدم ذكره أن الأقوال المحكية في هذه السورة إنما هي معبرة عن المعاني ، وشارحة للحقائق ، وليست نقلاً لنفس الألفاظ التي صدرت من أصحابها ، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجم . ومنهم قريبون للعرب أو عرب ، ولم تكن لغـــة العربي منهم كلغة القرآن فى فصاحتها وبلاغتها ، كما أن الحال كذلك فى أكثر ما نقل فى القرآن عن الأنبياء السابقين ، والملوك والحكماء المتقدمين	(استحسان من الجميع)

(قرآناً عربياً)

- ٢ -

وقال السيد ابو الحسن الندوي [١]

لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية

بفضل كون القرآن عربيا ، اصبحت اللغة العربية بعد الإسلام ، لغة الدين والدولة والعلم ، وما تفرع عن هذه الأصول الثلاثة ، من فروع جمة ، كالأدب والتجارة والفن

وقد رجح الإمام الشافعي في « الأم » وجوبَ تعميم اللغة العربية ، ووجوب

١) نسبة الى بلدة النجف الاشرف فى العراق

تعلمها على كل مسلم ، ليفهم القرآن الكريم ، الذي هو أصل الدين ، ولقد كان الصحابة الكرام ، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين ، يلقنون الناس الدين ، على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم ، ولذلك لم يمض على انتشار الإسلام ، في بلاد الروم والفرس وبلاد أفريقيا وغربي أوربا ، زمن يسير ، حتى غلبت اللغة العربية ، على لغات هذه الأمم ، بل نسختها كما نسخ آية النهار آية الليل ، من غير مدارس ولا معلمين ، ينصرفون إلى تعليم اللغة ، وما كان انتشار اللغة بهذه السرعة، إلا بوازع نفسي يفعل ما لا تفعل السياسة والمدارس ، وما أوقف هذا السير ، إلا ضعف الدول العربية ، ووثوب الأعاجم على عروشها ، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن وأذكار الصلاة ـ باللغات الأعجمية

ومن المسائل المفيدة في هذا المقام ، إن ما يكون به الإنسان مسلماً في الجملة ، شيء سهل بسيط ، يمكن إيصاله إلى كل عربي وعجمي في وقت قصير ، ولكن نمو الإسلام في القلب ، وفهم ما جاء به من الحكم والمعارف ، التي ترقي النوع البشري ، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة

ولقد جاء الإسلام ، لإصلاح اجتماعي ، وهو السعي في وحدة أمم الأرض بتفاهمهم في اللغة والدين ، وهذا هو الذي يوجه إليه أخيراً أنظار فلاسفة أوربا ودولها القوية ولذلك ترى كل واحدة منها ، تبذل كل مرتخص وغال ، لأجل تعميم لغتها بواسطة الفتح والاستعمار والانتداب ، ولأجل انتشار دينها من طرف خفي ، بواسطة المدارس والمستشفيات والمبشرين

انزل الله القرآن بلسان العرب ، وخاطبهم فيه بما يعرفون وبما يفهمون، فهو وحي الله إليهم مباشرة ، وإلى العالمين بواسطتهم ، وجميع ما فيه مفهوم لهم ، بدون احتياج إلى تفسير مفسر أو تأويل مؤول ، أما الأمم الأخرى التي تأخذ القرآن

عن العرب ، فلا بد لهم من معرفة اللغة العربية تدريجياً ، وكذا معرفة أحوال العرب وعاداتهم وتاريخهم واصطلاحاتهم ، حتى يتيسر لهم فهم القرآن على حقيقته ، وبعد ذلك فهم غير محتاجين لشيء آخر

أنزل القرآن بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، في أشرف بقاع الأرض ، مكة والمدينة ، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة ـ وهو رمضان ـ فكمل من كل الوجوه، وقد قال عليه الصلاة والسلام « أحبوا العرب لثلاث لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وكذا العقيلي ، ووضع السيوطي بجانبه في الجامع الصغير علامة الصحة

(قرآناً عربياً)

ـ ٣ ـ

بعث محمد ﷺ العربي للأمم كافة

وتابع السيد أبو الحسن الندوي كلامه قائلاً

إن جملة ﴿ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ لا تشير إلى أن النبي لم يبعث لغير العرب لا حاشا وكلا ولكن المراد أن العرب هم الأصل ، وهم متى عقلوا القرآن وفهموه أمكنهم أن يفهموه لغيرهم من الأمم ، ﴿ هو الذي بَعَثَ في الأميّين رَسولاً منهم، يَتلو عليهم آياتِهِ ، ويُزَكّيهم ، ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحِكمَةَ ، وإن كانوا مِن قبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾ (٦٢ ٢) ، ﴿ كما أرسلنا فيكم رَسُولاً منكُم ، يتلُو عليكم آياتنا ، ويُزَكّيكُمْ ، ويُعَلّمُكُم

الكتابَ ، والحِكْمةَ ، ويُعَلِّمُكُم ما لم تكونوا تعلَمونَ ﴾(٢ ١٥١)، فالنبي يعلم قومه العرب ويزكيهم بالقرآن ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وهم ينشرون دعوته ، وينشرون حكمته في الأمم ، فيفتح الله لهم المشرق والمغرب ، وينقل الله بهم الأمم والشعوب ، من حال إلى حال ، أعلى وأرقى ، ينقلونهم من الوثنية والعبودية والذلة والظلم ، وفساد الأخلاق والآداب والجهل ، إلى التوحيد والحرية والعزة والعدل والآداب والفضائل والعلم وثمراته

إذاً ، فالصحابة ـ وأكثرهم عرب ـ هم رسل محمد ﷺ إلى الأمم والشعوب ، التي لم تجتمع بالنبي ﷺ وأكثرهم عجم ، وهذا يذكرنا بما كان من رسل المسيح عيسى عليه السلام ، كما قال تعالى ﴿ واضرِب لهم مثلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءَها المُرسَلون ، إذ أرسَلنا إليهم اثنينِ ، فكذَّبوهما ، فعَزَّزنا بثالثٍ ، فقالوا إنّا إليكم مُرسلونَ ﴾ (٣٦ ١٣ و ١٤) ويرى بعض علماء اللغات أن كلمة « الحواريين » في القرآن ، هي معربة عن الحبشية ، ومعناها فيها « الرسل أو المرسلون » ، سماهم القرآن بذلك ، إما بحسب العرف الجاري في ذلك الزمن بين نصارى العرب ، كما يسمي الآن دعاه النصرانية « بالمبشرين » ، وإما لأن المسيح أرسلهم في حياته لدعوة اليهود إلى المسيحية ، كما في الأناجيل (راجع مت ١٠ ١ ـ ١٥ ، لو ٩ ١ ـ ٦ ، لو ١٠ ١ ـ ١٢ والحكمة في اختيار القرآن هذه الكلمة الحبشية دون مرادفها في العربية ، هي منع الالتباس ، لتكون علماً خاصاً بهؤلاء التلاميذ الممتازين من أصحاب عيسى عليه السلام

(الله أكبر)

(قرآناً عربياً)،

وقال الفضيل الحدي (١) -

ترجمة القرآن

إن مقاصد الإسلام العلمية ، جمع البشر على دين واحد ، ولغة واحدة ، لتكمل وحدتهم ، وتتحقق إخوتهم ، ولذلك منعت ترجمة القرآن الكريم ، على تقدير حسبان الترجمة قرآناً ، فيحتم تلاوته عربياً ، ويجب شروع كل مؤمن فى تعلم اللغة العربية ، كما كان الحال كذلك ، أيام صاحب الرسالة ، والخلفاء الراشدين ، بل وفي أيام دولة الأمويين والعباسيين،ولولا الصدمات السياسية التي صدمت الإسلام، لظل أهل فارس ومن يجاورهم إلى هذا الزمن ، ينطقون بالعربية « كما كانوا في القرون الأولى للاسلام ، بل لكانت بلاد الهند والأفغان والترك وجزء عظيم من بلاد الصين ، يحسنون التفاهم باللغة العربية ، كبلاد سوريا ومصر لهذا العهد ، ولكان فى ذلك للاسلام ، سياج من الوحدة لا يخرق

وهنا مسألتان ، إحداهما ترجمة القرآن إلى لغة أعجمية ، اى التعبير عن معانيه بألفاظ أعجمية، يفهمها الأعجمي دون العربي ، والثانية كتابة القرآن العربي ،بحروف غير عربية ، وكلا المسألتين غير جائز ، نعم إن المنع فيما إذا ترجم القرآن، وحسبت الترجمة قرآناً ، وأما إذا ترجم بقصد جعله وسيلة للدعوة إلى الإسلام ، أو بقصد من لم يمكنه تعلم اللغة العربية ، فلا بأس بذلك

(١) نسبه الى فاطمه جد من بلاد المملكه العربيه السعوديه

قال ابن تيمية في كتابه « العقل والنقل » (وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ، فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه ، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة ، لأن أباها كان من المهاجرين إليها ، فقال لها « يا أمَّ خالد هذا سنا » والسنا بلسان الحبشة الحسن ، لأنها كانت من أهل هذه اللغة ، ولذلك نترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ونترجم بالعربية ، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه) انتهى

قرآناً عربياً

– ٥ –

وقال مولاي أحمد المهدي

اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الإسلامية

يجب أن تكون اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العلاقات التي بين الدول المسلمة،أسوة بالقاعدة المتبعة بين دول أوروبا في استعمال اللغة الإفرنسية في المسائل السياسية ، لأن هذا يكون من أعظم دعائم الإصلاح الإسلامي الديني والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي ، إن جميع شعوب المسلمين من مراكش غرباً إلى نكين شرقاً ، لا تخلو من علاقات مشتركة بينها ، إما دينية محضة ، أو دينية واقتصادية ، وإما علاقات سياسية فيما إذا كانت هذه الدول الإسلامية مستقلة ،وإن

هذا يكون بالمفاوضة فيما بينها ، لأن لغة شطر القارة الافريقية الشمالي من الغرب إلى الشرق ، وشطر آسيا الشرقي من البحر الاحمر إلى خليج العرب — هي اللغة العربية ، وفى هذه البلاد مهد الاسلام ومهبط وحيه ، ومهوى أفئدة أهله ، وقبلة صلاتهم ، ومشاعر نسكهم ، ومثاتهم التي تؤمها مئات الألوف من جميع شعوبهم على اختلاف أقطارهم فى كل عام ، وهذه اللغة هي التي تتعبد بها جميع المسلمين ويتلقون دينهم في جميع الاقطار ، هذا هو برهان العقل

وأما برهان الدين ، فهو أن العربية هي لغة الدين الإسلامي ، إذ لا يمكن أن نعلمه علماً صحيحاً ، ولا أن نعمل به عملاً صحيحاً ، بإقامة أعظم عباداته ، إلا بهذه اللغة ، فيتعين أن تكون هي اللغة الوحيده للتعاون بين الشعوب الإسلامية ، وتفاهمهم في أمورهم المعاشية

آناً عربياً

– ٦ –

وقال ابو الفضل الفاشودي(١)

فلسفة لغة القرآن

« قرآناً عربياً » نزل بلغة العرب ، وعلى اساليب العرب فى كلامهم ، فألفاظه عربيه ، إلا ألفاظاً قليلة عُرِّبت أخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها

(١) نسبة الى فاشوده من بلاد السودان

العرب ، وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هي أساليب العرب في كلامها ، ففيه الحقيقة اللغوية ، والحقيقة العرفية والاصطلاحية ، وفيه المجاز بالاستعارة والمجاز المرسل ، وفيه المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، وفيه الكناية وفيه التمثيل ، الى غير ذلك ، فهو على نمط العرب في كل استعمالاتهم .

(تأييد من أكثرية الاصوات) .

لعلكم تعقلون

- ١ -

قال الأديب الفالوجي [١]

تعقل القرآن وفهمه

الألفاظ وحدها إنما هي هيكل عظمي ، وأما المعنى فهو اللحم والدم ، وأما فهمه فهو أكله المقصود بالذات ، فالحكمة من إنزاله لا تتم إلا بتعقل معناه ، ولا أحسبك إلا مسلِّماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط ، ﴿ فإنَّما يَسَّرناهُ بِلِسانِكَ لعلَّهُم يتذكَّرون ﴾ (٤٤ ٥٨) ، ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذِّكر ، فهل مِن مُدَّكِرٍ ؟ ﴾ (٥٤ ١٧ و ٣٢ و ٤٠) ، ﴿ إنّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعقِلون ﴾ (٤٣ ٣) ، ﴿ وما أرْسَلنا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم ﴾ (١٤ ٤) ﴿ وكذلِكَ أنزلناهُ قرآناً عربياً وصَرَّفنا فيه من الوعيد ، لعلَّهم يتَّقُون أو يُحْدِثُ لهم ذِكْراً ﴾ (٢٠ ١١٣) ﴿ وكذلك يُبَيِّن اللهُ لكُمُ الآيات ، لعلكم تَعقِلونَ ﴾ (٢٤ ٦١) ﴿ كذلك

---

(١) نسبة الى الفالوجة من اعمال فلسطين

يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ (٢ ٢٦٦) ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ (٢٤ ١)، ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ (٦ ٦٥) فنرى في هذه الآيات أن خطاب الشريعة موجه إلى العقلاء، فلهذا يجب على كل مسلم مؤمن أن يكون عاقلاً عالماً بأسرار أحكام الله لكي يستفيد منها حق الاستفادة، وفي الحديث «أفضل الناس أعقل الناس» وفيه «إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلفى على قدر عقولهم» إلى غير ذلك من النصوص التي تفيد أن الثمرة المقصودة من الكتاب هي فهمه، وقد ذم الله تعالى من لا يفهم أولا يريد أن يفهم كتابه فقال ﴿وقالوا قلوبنا غلف، بل لعنهم الله بكفرهم، فقليلاً ما يؤمنون﴾ (٢ ٨٨)، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون﴾ (٥١ ٥)، ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟﴾ (٤٧ ٢٤)، ﴿وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ (٣٥ ٣٠)، والهجر هجران هجر التركيب وهجر المعنى، ومن لم يتدبر معناه فقد هجره هجراً معنوياً، وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (٦٧ ١٠) ومدح ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ (٢٥ ٧٣)، فتح الله قلوبنا وأنار بصائرنا لفهم كتابه العزيز

لعلكم تعقلون

- ٢ -

وقال الفهامة الريحاوي[١]

تعقل القرآن وفهمه من صفات المؤمنين

إني أضم صوتي إلى صوت رفيقي الأديب الفالوجي قائلاً لا يزال كتاب الله تعالى يحث مخاطبيه على التعقل ، ويدفعهم الى التفكر ، لاجل تمحيص الحقائق ، وهكذا إن شاء الله لا نسير لنا في هذه النهضة الناريخية على غير العقل والحقيقة ، خلافاً لمن تعودوا أن ينقلوا ما سطره من قبلهم دون أن يمعنوا النظر فيه ، فتراهم ينقل ويقتبس بعضهم من بعض دون أن يحكموا العقل فيما ينقلون ويقتبسون! ، وغني عن البيان أنه إنما أنزل الكتاب الكريم ليعمل بما تضمنه من الحِكم والاحكام ، وإن سعادة الدنيا والآخرة موقوفة على هذا العمل ، ومعلوم أنه لا يمكن هذا العمل إلا إذا فهم الكتاب حق الفهم ، وتعقل التعقل الصحيح ، من هذا نعرف أن سعادة الدنيـــا والآخرة موقوفة على فهم القرآن وتعقله ، فليجعل المكلف كل همه في فهم ما يشير ربه إليه ، ثم يعمل به ، فإنه لا حياة إلا بالعلم والعمل ، وبطن الأرض خير من ظهرها لمن فقد أحدهما ! ! !

تفهم معاني الكتاب وتعقله صفة من صفات المؤمنين ، كما أن عدم ذلك من سيما سواهم ، قال تعالى ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينَكَ وبينَ الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ، وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه ، وفي آذانهم وَقْراً ﴾

(١) نسبة الى أريحا من اعمال فلسطين

(١٧ ٤٥ و ٤٦) ، الحجاب هو معاصيهم وكفرهم وكبرياؤهم ، وكلما كان المرء أكثر عصياناً وكفراً كان أبعد عن فهم كلامه تعالى ، وهذا الجَعْل المذكور تكويني ، هذا ما رأيناه في هذا المقام ، فهل من مريد أن يضم صوته لصوتنا إن كنا على صواب ؟ إنا لذلك منتظرون (تأييد من جميع الأصوات)

لعلكم تعقلون

— ٣ —

وتلاه على هذه النعمة اللطيفة أبو الفضل الخانوني (١) فقال

مزية الانسان بالعقل والادراك

إن الإنسان إنما امتاز عن سائر المخلوقات بالعقل، لأنه في تركيبه الفسيولوجي (العضوي أو النفسي) مشارك للحيوان ، وفي تركيبه الكيماوي مشارك للنبات والجماد ، ومزيته قائمة بالإدراك ، منحصرة في العقل ، فمن كان من الناس أقوى من غيره في هذا الفارق الأعظم وأظهر من سواه في ذلك المائز الأكبر ، كان الأجدر بأن يعد فيهم عظيماً ، لأنه أبعد أبناء نوعه عن الحيوانات ، ومن ثمة فهو أشرفهم وأعلاهم ، ﴿ أم تحْسَبُ أنَّ أكثرَهُم يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلونَ ؟ إنْ هُم إلاّ كالأنعامِ ، بل هُم أضَلّ سبيلاً ﴾ (٢٥ ٤٤)

لولا العقول لكان أدنى
أدنى إلى شرف من الإنسان
(مرحى)

١) نسبة الى بلدة بيت خانون من فلسطين

لعلكم تعقلون

– ٤ –

وقال ناصر السنة التل أبيبي (١)

استعمال اكثر المسلمين القرآن الكريم في غير ما هو له

مهما قلبت بصرك لا تجد القرآن « في العالم » مستعملاً فيما وضع له ، فهو عند الخاصة موضوع مناقشات لفظية ، وصناعة وفصاحة كلامية ، ومجال براعة في اختراع وجوه ، وتأويل مناحي ، وبعد عن مقاصد ، وأما عند العامة فهو دفتر تعاويذ ورقى ، وكتاب ترتيل ، وعلى رأيهم هو كلام يقال لكي لا يفهم ، حتى قال بعض الأدباء فات هؤلاء المسلمين أن يفهموه للأحياء فاستدركوا بأن صاروا يسمعونه للموتى في القبور ! ! !

إن في القرآن العظيم (٦٢٣٦) آية وآيات الفقه فيه (١٥٠) آية ، والآيات الكونية (٧٥٠) آية ، والباقي تاريخ وجدل وإلهيات وبراهين توحيد وأدلة قيامة وحجج نبوة وآيات أخلاق وأدب وغير ذلك ، فهل لأجل مئة وخمسين آية ، لا يجوز أن ينظر في باقي الآيات القرآنية ؟ اللهم إن هذا حكم جائر لا يقبله ذو دين

ان البشر ليسوا حيوانات تساق إلى حيث يريـــد من يسوقهم ، الناس ليسوا بقراً يساق إلى المذبح ، الناس ليسوا تماثيل لا حس فيها ولا عقل ولا إدراك ، تنقاد لهذا أو ذاك بدون فهم مقصده وغايته ، الناس كلهم من نوع الإنسان، والإنسان حيوان ناطق ، ونطقه هو فكره وعقله ، فإذا لم يستعمل عقله ، كان كأنه بلا عقل ، فكان كأنه ليس إنساناً

---

(١) نسبة الى بلده تل أبيب من فلسطين

إن الجحدة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذلك علم الماديات ، فإنهم نبغوا في ذلك كما هو مشاهد ، وهم عن الآخرة هم غافلون، ولذلك فهم في الروحيات ضعفاء حد الضعف ، فنحن أهل الإيمان ، إذا أهملنا الروحيات التي أهمها تفهم القرآن ، — وبالطبع نحن ضعفاء في الماديات — كما لا دنيا ولا دين ! فاللهم سلم سلم

لعلكم تعقلون

— ٥ —

وتلاه أبو الاقبال العرراوي[1] فقال

القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها

يوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح المتعقلين، وآيات كثيرة تذم الساهين الغافلين ، منها

أولاً — ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ (٧ ١٤٥)

ثانياً — لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٧ ١٧٨).

---

(١) نسبة الى بلدة ررة من فلسطين

ثالثاً ـ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا « سَمِعْنا » وهم لا يَسمعون َ، إنَّ شَرَّ الدَّوابّ عِندَ اللهِ الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يَعْقلون ﴾ (٨ ٢١ و٢٢)

رابعاً ـ ﴿ وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ ، نظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ « هل يراكم مِنْ أحدٍ ؟ » ثم انصَرَفوا ، صَرَفَ اللهُ قُلوبَهم ، بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ (٩ ١٢٨)

خامساً ـ ﴿ ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْري ، فإنّ له مَعيشَةً ضَنْكاً ، ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى ﴾ (٢٠ ٢٤)

سادساً ـ ﴿ وقال الرسولُ يارَبّ إنَّ قومي اتَّخَذوا هذا القرآنَ مهجوراً ﴾ (٢٥ ٣٠)

سابعاً ـ ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهِم لَم يَخِرّوا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾ (٢٥ ٧٣)

ثامناً ـ ﴿ وقالوا لو كُنّا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنّا في أصحابِ السّعير ﴾ (٦٧ ١٠)

تاسعاً ـ ﴿ كتابٌ أنزَلناهُ إليك مبارك ، ليدَّبَّروا آياتِه ولِيتَذَكَّرَ اولو الألبابِ ﴾ (٣٨ ٢٩)

عاشراً ـ ﴿ وطَبَعَ على قلوبهم ، فهم لا يَفقَهون ﴾ (٦٣ ٣)

حادي عشر ـ ﴿ فإنّها لا تَعْمَى الأبصارُ ، ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدُور ﴾ (٢٢ ٤٦)

ثاني عشر ـ ﴿ الذين كانت أعيُنُهم في غِطاءٍ عن ذِكري ، وكانوا لا يستطيعون سَمْعاً ﴾ (١٨ ١٠٢)

ثالث عشر - ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ (٤١ ٥)

وبناء على ما تقدم فالأصل في مشروعية تلاوة القرآن الاهتداء والاعتبار ، ولا يكون ذلك إلا بالتدبر والفهم ، نعم قد يثاب التالي للقرآن بغير فهم ، إذا كان تلاوة لغرض شرعي آخر ، كتجويد التلاوة والحفظ ، فإن توجه الذهن إلى ضبط الألفاظ ، وإتقان مخارج الحروف مثلاً ، يشغل عن تدبر المعاني ، ولكن مثل هذا يكون عرضاً عارضاً ، لا دائماً .

لعلكم تعقلون

- ٦ -

وقال الشيخ محمد العدني (١)

تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه

معنى « تعقلون » تفهمون وتفقهون ، كما في الحديث « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » فالفقه في هذا الحديث ، إنما هو بمعنى فهم مرامي الكتاب العزيز ، والسنة السوية ، ولا يصح حمل كلمة « يفقهه » في هذا الحديث ونحوه ، على المعنى الاصطلاحي للفقه ، وهو علم ظواهر الأحكام العملية ، لأن هذا لم يسم « فقهاً » إلا بعد الصدر الأول من الإسلام ، ولم يسم حملته « فقهاء » إلا بعد العصر الأول ، والفقه بالمعنى الاصطلاحي الحديث ، هو أقل ما في الدين ، ولذلك لم يحتفل به القرآن ، ولم يرد

(١) نسبة الى عدن من بلاد مقاطعة عدن في جنوب المملكة اليمنية

منه في السنة الصحيحة أيضاً ، إلا القليل ، ولكنهم اعتنوا بجمعه فكثر ، وإنما عماد الدين وقوامه ، هو الاعتقاد الصحيح ، ومعرفة مكارم الأخلاق ، والتحلي بمحاسن الآداب ، وتطهير العقول من لوث الخرافات والأوهام ، وكل هذا يكون بالوقوف على مرامي كتاب الله ، فهذا هو الفقه ، بالمعنى المعروف في عصر النبوة والخلافة

لعلكم تعقلون

- ٧ -

وقال الشيخ الطنطاوي

الحكمة من انزال القرآن

ليست الحكمة في إنزال القرآن الحكيم ، التعبد بتلاوته من غير فهم معناه أو لجعله « حانوتاً » يبيع منه « عدية يس » ولا لجعله « صيدلية » يكتب آياته في آنية ويمحوها بالماء ، ويتعاطاها لتشفى من داء كذا ، ولا ولا الخ ، بل الحكمة من انزال القرآن مبينة في نفس القرآن ، وها كم بيان بعضها

أولاً ـ الهداية ، كما قال ﴿ الم ، ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه ، هُدىً للمتَّقينَ ﴾ (٢ ١)

ثانياً ـ التعقل ، كما قال ﴿ إنَّا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تَعقِلون ﴾ (١٢ ٢)

ثالثاً ـ الخروج من الظلمة إلى النور ، كما قال ﴿ الر ، كتابٌ أنزلناهُ إليكَ

لتُخرِجَ الناسَ من الظلُماتِ إلى النورِ ، بإذنِ ربّهم ، إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾ (١٤ ١)

رابعاً ـ البشارة والنذارة ، كما قال ﴿ الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ، ولم يجعل له عِوَجاً ، قيّماً ، لِيُنذِرَ بأساً شديداً من لدُنْهُ ويُبَشّرَ المؤمنينَ الذين يعملون الصالحاتِ ، أنّ لهم أجراً حَسَناً ، ماكِثينَ فيه أبداً ﴾ (١٨ ١ ـ ٣)

خامساً ـ التذكير ، كما قال ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآنَ لتَشْقى ، إلاّ تذكِرَةً لِمَن يَخشى ﴾ (٢٠ ١ ـ ٣)

سادساً ـ التدبر كما قال ﴿ أفلا يَتَدَبّرون القرآنَ ، ام على قلوبٍ أقفالُها ؟ ﴾ (٤٧ ٢٤)

سابعاً وثامناً وتاسعاً ـ التثبيت والعظة والذكرى ، كما قال ﴿ وكُلاً نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسُل ، ما نُثبّت به فؤادَكَ ، وجاءَكَ في هذه الحقُّ وَمَوعِظةٌ وذِكْرَى للمؤمنين ﴾ (١١ ١٢٠)

عاشراً ـ الاعتبار ، كما قال ﴿ لَقَد كان في قَصَصَهِم عبرةٌ لأولي الألباب ﴾ (١٢ ١١١)

الحادي عشر ـ قانون عدلية او محله أحكام ، كما قال ﴿ وكذلكَ أنزلناهُ حُكْماً عربياً ﴾ (١٣ ٣٩)

الثاني عشر ـ التفكر كما قال ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للناسِ ، لعلّهم يَتَفكّرونَ ﴾ (٥٩ ٢١)

الثالث عشر ـ شفاء ما في صدور الناس ، من أمراض الجهل بالله ، وبما له على عباده من الحقوق ، وما لبعضهم من ذلك على بعض ، وأمراض الأخلاق السيئة ، والعادات الضارة ، كما قال ﴿ يا أيها الناسُ قد جاءَتكم مَوعِظةٌ مِنْ ربِّكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ (١٠ ٥٧)

إلى غير ذلك مما يزيد على ضعفه

الفصل الثاني

القرآن وعلم التاريخ

نحنُ نقُصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَص ، بما أوحينا إليكَ

هذا القرآنَ ؛ وإنْ كنتَ منْ قبله لَمنَ الغافلين

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة فقام الشيخ أمين البرسعي[1] وقال

(نحن نقص عليك) يامحمد (أحسن القصص) أي الاقتصاص أو المقصوص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) بحيث نطير به كل ما عشش من الأباطيل في الكتب المحرفة (وإن) هي المخففة من الثقيلة (كنت من قبله) من قبل ما أوحينا (لمن الغافلين) الجاهلين به ، ما كان لك فيه علم قط ، ولا طرق سمعك منه طرف ،

(١) نسبه الى بئر السبع من بلاد فلسطين

نتعلم من هذه الآية الكريمة وأخواتها الكثيرة في القرآن أن علم التاريخ هو علم يهم كل إنسان الإطلاع عليه ودرسه وتعلمه، خصوصاً التاريخ الديني وإليك بعض الآيات التي نتعلم منها ذلك ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ (٧ ١٠٠)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (١١ ١٢٠)، ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (٢٠ ٩٩)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٢ ١١١)، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ الخ (١٩ ١٥ ـ ٣٤)، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ الخ (١٩ ٤١ ـ ٥٠)، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ الخ (٣٨ ١٧ـ٤٠) أعني مجموع قصتي داود وابنه سليمان ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الخ (٤٦ ٢١ ـ ٢٦)، ﴿كهيعص ، ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ الخ (١٩ ١ ـ١٤)، ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ الخ (١٨ ٩ ـ ٢٦)، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ الخ (١٨ ٦١ ـ ٨٣)، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ الخ (١٨ ٨٤ ـ ١٠٠)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ الخ (١٤ ٥) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ الخ (٥ ٣٠ ـ ٣٤) ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ الخ (٤٦ ٤) وهذه الأثارة هي بقية من بقايا علم الأولين وما ذلك الا علم التاريخ

سور القرآن التي سميت باسماء حوادث تاريخية

وأنتم أيها السادة تعلمون أنه يوجد في القرآن الكريم سور كثيرة سميت بأسماء حوادث تاريخية اشتملت تلك السور عليها ، بل وعلى غيرها من الأنباء الهامة ، أنباء الأنبياء وأقوامهم والملوك ورعاياهم ، والصلحاء والأشقياء ، والأمم الدائرة ، والممالك العامرة ، والرجال والنساء وما إلى هذا القبيل ، وإليك بعض الأمثلة

سورة البقرة، آل عمران ، المائدة ، يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم،الحجر، الكهف ، مريم الأنبياء ، النمل ، القصص ، الروم ، لقمان ، الأحزاب ، سبأ ، المؤمن ، الأحقاف ، الفتح ، الحجرات ، المجادلة ، الحشر ، المنافقون، نوح ،الجن، الأعمى ، الفيل ، قريش ، أبي لهب ـ فهذه ثلاثون سورة سميت بأسماء حوادث تاريخية ذكرت فيها ، عناية بتلك الحوادث ، وإعلاءً من شأنها ، وتشويقاً للقارئين في فهمها،وأنت إذا أمعنت النظر ، ودققت في سبع القرآن الكريم ، وجدت في كل سورة من سوره المئة والأربعة عشر نموذجاً من التاريخ الإنساني أو الحيواني أو النباتي أو الجمادى ـ الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي ـ الخاص أو العام ـ أو الديني أو الدنيوي ، وهكذا تجده محتوياً على تاريخ اليهود والمصريين والعراقيين وأهالي جزيرة العرب واليمن والنصارى ، وما إلى ذلك مما يعثر عليه المنقبون ، ويقف عليه العارفون ، والحقُ والحقَّ أقول ، أنه لو حذف التاريخ من القرآن لما بقي منه نحو عشره وبحسب التاريخ فخراً إن معظم كتاب الله من نوعه ، ولله المثل الأعلى ﴿ أفلا يَتَدَبَّرون القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالُها ؟ ﴾ (٤٧ ـ ٣٤)

صراح من الجميع أصبت أصبت

(نقص)

- ٢ -

وقال الحاج احمد العري [١]

الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن

لو قال قائل « إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بها عن الوحي ، فلماذا كثر سرد الأخبار التاريخية في القرآن ، وكانت في التوراة أكثر ؟ » فالجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو تاريخ وأخبار وقصص ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها في القرآن ، سوى قصة يوسف ، فإنها نزلت مرة واحدة مرتبة مفصلة ، لما ذكرناه في تفسير (ع ١) ، وكل ما نرى في هذه التوراة التي عند القوم من القصص المسهبة والتاريخ المتصل من ذكر آدم وما بعدها ، فهي مما ألحق بالتوراة ، بعد موسى بقرون ، بل إن أكثر تواريخ العهد القديم ، إنما كتب بعد السبي ورجوع بني إسرائيل من بابل .

صراخ من الجميع حسن حسن !

---

(١) نسبه الى غزه من اعمال فلسطين

نحن نقص

- ٣ -

وقال السيد محمود الجلوي (١) :

جبريل (ع) هو واسطة نقل كلام الله الى النبي

أي نقصه عليك جبريل نقلا عنا ، قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً ، فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ (٤٢ ٥١) ، فالله تعالى إذا أرسل رسولاً من الملائكة أو من البشر برسالة ، كان مكلماً لعباده بواسطة رسوله ، بما أرسل به رسوله ، وكان مبيناً لهم ذلك ، كما قال النبي للمنافقين ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ (٩ ٩٥) أي بواسطة جبريل ، وقال تعالى ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (٧٥ ١٨) وقال ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ﴾ (٢٨ ٣) وقد كانت القراءة والتلاوة بواسطة جبريل ، فكذا القصص هنا فانه سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ، فيوحي بإذنه ما يشاء ، ولهذا جاء بلفظ الجمع ، فان ما فعله المطاع بجنده ، يقال فيه نحن نفعل كذا ، والملائكة رسل الله فيما يفعله ويأمر به ، فما فعله وأمر به بواسطة رسله من الملائكة ، قال فيه نحن فعلناه ، ومن هذا القبيل ما في الحديث « فإذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا ربنا ولك الحمد » فان الله قال على لسان نبيه « سمع الله لمن حمده » ، معناه ان الله

(١) نسبة الى جزيرة جاوة الواقعة فى جنوب الهند

بلعكم هذا الكلام على لسان رسوله ، وأخبركم أنه سمع دعاء من حمده ، فأحمدوه أنتم وقولوا له ربنا ولك الحمد ، حتى يسمع دعاءكم ، فإن الحمد قبل الدعاء سبب لاستجابة الدعاء ، كذا قاله في « منهاج السنة » والله أعلم

حمد

أحسن القصص

- ١ -

وقال المهتدي للاسلام السيد اسماعيل الملقب سابقاً بصموئيل

لماذا عبر بأن قصص القرآن هو أحسن القصص

إنما قال (أحسن القصص) إشارة إلى أنه يوجد في قصص يوسف وإخوته في سفر التكوين (من التوراة) ما هو ليس بالحسن ، والمراد بأحسنه ، أثبته وأحقه كما قال بعد ما ذكر شيئاً من تاريخ المسيح عليه السلام ﴿ إنّ هذا لَهُوَ القصصُ الحقُّ ﴾ (٣ ـ ٦٢) إشارة إلى ما وقع في تاريخه من الباطل، وكما قالت « زليخا » امرأة العزيز ﴿ آلآن حَصْحَصَ الحقّ ﴾ (آ ٥١) إشاره إلى أن ما قالته فيه سابقاً باطل ، وقال تعالى ﴿ واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَي آدمَ بالحقّ ﴾ (٥ ٣٠) إشارة إلى ما كان يزيده بعض الناس في قصتها من الباطل ، وقال ﴿ نحن نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُم بالحقّ ﴾ (١٨ ٣١) إشارة إلى أن ما كتبه النصارى في تاريخ أهل الكهف ليس من الحق

وبعد فها كم مقابلة بين الآيات الواردة في سورة يوسف في القرآن الكريم

والواردة في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة ، وهي خير شاهد لكم على أن ما ورد في القرآن هو أحسن القصص وأثبته وأحقه ·

القرآن الكريم	التوراة
١ ـ لا يوجد شيء في مقابلة ذلك	١ ـ (وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم) (تك ٣٧ ٢)
٢ ـ ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ (١٢ . ٨) أعني إنهم ذكروا بنيامين في مقام الغيرة من أكثرية الحب .	٢ ـ (فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه) (تك ٣٧ · ٤) فلم يذكر بنيامين وغيرتهم منه)
٣ ـ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ (١٢ ٨)	٣ ـ لا يوجد شيء في مقابلة ذلك.
٤ ـ لا يوجد شيء في مقابلة ذلك	٤ ـ (وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له ، فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فها نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت ، فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ، فقال له إخوته . ألعلك تملك علينا ملكاً ؟ أم تتسلط علينا تسلطاً ؟ وازدادوا أيضاً بغضاً له ، من أجل أحلامه

في القرآن الكريم	في التوراة
	أحلامه ومن أجل كلامه) (تك ٣٧ ٧ و ٨)
٥ ـ في القرآن أن حلمه الثاني لم يقصه على إخوته بل على أبيه فقط ، وأبوه حذره أن يذكره لإخوته ﴿ قال يا بني ، لا تقصص رؤياك إلخ ﴾ (١٢ ٥)	٥ — في التوراة إن يوسف قص حلمه الثاني على كل من أبيه وإخوته في آن واحد إذ قالت (فقصه على أبيه وإخوته) (تك ٣٧ ١٠)
٦ ـ في القرآن أن أباه بعد ما سمع منه حلمه الثاني قبله منه بكل فرح وعطف عليه أن بشره ببشائر تتلاءم مع هذا المنام (١٢ ٦)	٦ — في التوراة أن أباه بعد ما سمع حلمه الثاني انتهره وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض ؟ (تك ٣٧ ١٠)
٧ ـ ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته الخ ﴾ (١٢ ٧)	٧ — لا يوجد له مقابل
٨ ـ إخوته تآمروا على قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في الجب وقر قرارهم أخيراً على هذا الرأي الأخير وهذا كان قبل ذهابهم لأبيهم ليطلبوه منه ، ثم ذهبوا لأبيهم واحتالوا عليه بأخذه ، وبعد أخذٍ وردٍ سمح لهم فيه (١٢ ٨ - ١٤)	٨— لم يذكر في التوراة أنهم تفاوضوا في شيء عنه قتلاً ولكن صادف أن يوسف مضى إليهم في مرعاهم حيث أرسله أبوه إليهم ، ليبصر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر ، فذهب إليهم ، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه (تك ٣٧ ١٢ — ٢٠) فهم

في القرآن الكريم	في التوراة
	لم يذهبوا لأبيهم ليطلبوه منه ويعملوا عليه تلك الحيلة
٩ ـ مؤآمرة إخوته في شأنه كانت ثلاثية بين قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه في غيابة الجب (١٢ ٩و١٠)	٩ ـ إنما ذكروا أولاً قتله ثم طرحه بعد القتل في إحدى الآبار ، فسمع راوبين وقال لا نقتله ، بل اطرحوه في البئر التي في البرية (تك ٣٧ ٢٠ ـ ٢٢)
١٠ ـ الذي أشار بإلقائه في الجب هو الذي قال يلتقطه بعض السيارة (١٢ ١٠)	١٠ ـ أشار رأوبين بطرحه في البئر لا لكي يلتقطه بعض السيارة بل لينقذه من أيديهم ويرده فيما بعد لأبيه (تك ٣٧ ٢٣)
١١ ـ ﴿ قالوا يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ـ إلى قوله ـ لخاسرون ﴾ (١٢ ١١ ـ ١٤)	١١ ـ لا يوجد في مقابلته شيء لأن التوراة إنما تذكر أن يوسف ذهب لإخوته في المرعى بأمر أبيه بدون أن يكون لإخوته شعور بذلك (تك ٣٧ ١٢ ـ ٢٠)
١٢ ـ لا يوجد شيء في مقابلته	١٢ ـ خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه وأما البئر فكانت فارغة ليس فيهـا ماء وبعد ما طرحوه فيهـا

في القرآن الكريم	في التوراة
	جلسوا ليأكلوا طعاماً (تك ٣٧ ٢٣ — ٢٥)
١٣ ـ إخوة يوسف انفسهم جاءوا إلى أبيهم عشاء يبكون (١٢ ١٦)	١٣ — هم لم يجيئوا لأبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه (تك ٣٧ ٣١ و ٣٢)
١٤ ـ لم يكن من يعقوب بعد ما أخبر بافتراس الذئب لابنه ورأى على قميصه الدم ـ لم يكن منه إلا أنه قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل (١٢ ١٧ و ١٨)	١٤ — فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى ، وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه (تك ٣٧ ٣٤ و ٣٥)
١٥ ـ ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة . ا ـ (١٢ ١٩) هذا هو نص القرآن فليس فيه ان الذين أخرجوه من البئر هم إخوته وليس فيه ان إخوته باعوه للسيارة ، بل السيارة أخرجته وأخذته مجاناً	١٥ — جاءت قافلة فسحبه إخوته من البئر وباعوه للقافلة (تك ٣٧ ٢٦ — ٢٨)
١٦ ـ لا شيء في مقابلته	١٦ — فيها أن راويين لم يكن

في القرآن الكريم	في التوراة
	معهم حينما باعوه فرجع إلى البئر ولم يجد أخاه فيها فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ، (تك ٣٧ ٢٨و٢٩)
١٧ ـ لا يوجد شيء في مقابلته ، وكأنه والله أعلم لهذا قال الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يشير إلى أنه لم يذكر هذه الحكاية المدرجة في التوراة أثناء قصة يوسف لأنها من أقبح القصص فلذلك نزه عنها القرآن الكريم أن يذكرها	١٧ — تذكر التوراة هنا في وسط سيرة يوسف ذكراً اقتضابياً لا تتطلبه ما قبله ولا ما بعده ما ملخصه أن يهوذا أحد الأسباط زنى بثامار كنته التي مات عنها زوجاها ، ابنه عير ثم ابنه أونان ، فقعدت مترملة في بيت أبيها ، ثم كانت جلست في الطريق التي يمر منها يهوذا ، وكانت قد غطت وجهها ، فلم يعرفها أنها كنته فزنى بها بأجرة هي جدي من غنمه ، يرسله إليها ، فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله ، فأعطاها خاتمه وعكازته وعمامته ، ولما كان نحو ثلاثة أشهر ، أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كنتك، وها هي حبلى أيضاً من الزنى، فقال يهوذا أخرجوها فتحرق ، أما

في القرآن الكريم	في التوراة
	هي فلما اخرجت أرسلت إلى حميها يهودا قائلة أنا حبلى من الرجل الذي هذه الأشياء له وهي هذه العصابة والعصا والخاتم ، فقال يهودا هي أبرّ مني (تك ٣٨ ١ — ٢٦)
١٨ ـ ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً إلى قوله ولنعلمه من تأويل الأحاديث .. الخ (١٢ ٢١)	١٨ — لا يوجد في مقابلته شيء
١٩ ـ ﴿ ولما بلغ أشده . الخ الآية ﴾ (١٢ ٢٢)	١٩ — لا يوجد في مقابلته شيء
٢٠ ـ ﴿ وراودته التي هو في بيتها . ﴾ الخ الآية (١٢ ٢٣)	٢٠ — في التوراة امرأة العزيز فلما دخل يوسف بيتها الخاص بها كان رفعت عينيها إليه وقالت اضطجع معي (تك ٣٩ ٧ و ٨) فهذه مراودة أولى سابقة على المراودة التي وقعت منها وقتما دخل قصرها ليقوم بما كان عليه من الاعمال باعتبار أنه وكيل البيت

في القرآن الكريم	في التوراة
٢١ — ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ (١٢ ٢٣)	١١ — لا يوجد شيء في مقابلته
٢٢ — ﴿ ولقد همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه — إلى قوله — إنك كنت من الخاطئين (١٢ ٢٤-٢٨)	٢٢ — لا يوجد لذلك ذكر ما إلا أنه ذكر بدل ﴿ واستبقا الباب ﴾ أن يوسف هرب وحده وهي لم تلحقه وذكر بدل ﴿ وقدت قميصه . الخ ﴾ أنها أمسكته بثوبه ، فترك ثوبه في يدها وهرب ، ولكن هي لم تلحقه ، وإنما قعدت ووضعت ثوبه بجانبها، حتى جاء سيده إلى بيته ، فكلمته في هذا الموضوع (تك ٣٩ ١١ — ٢٠)
٢٣ ـ ﴿ قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ (١٢ ٢٨و٢٩)	٢٣ ـ وكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي (تك ٣٩ ١٥)
٢٤ ـ ﴿ وقال نسوة في المدينة ـ إلى قوله ـ السميع العليم ﴾ (١٢ ٣٠ ـ ٣٤)	٢٤ — لا يوجد لذلك ذكر ما
٢٥ ـ ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ (١٢ ٣٦)	٢٥ — فأخذ يوسفَ سيدُه ووضعه في بيت السجن

في القرآن الكريم	في التوراة
	هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخبار أذنبا إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصييه ، رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط ، في بيت السجن ، المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه (تك ٣٩ و ٤٠) فهذا يفيد أن الفتيين لم يدخلا السجن مع دخول يوسف ولكن بعد حين ، فيكون يوسف سبقهما إليه وهما لحقاه
٢٦ ـ ﴿ قال احدهما إني اراني اعصر خمراً ـ إلى قوله ـ من المحسنين ﴾ (١٢ ٣٦) يفيد أنه هما اللذان بدآه بالسؤال وأنهما كانا احسا منه المقدرة على التعبير	٢٦ ـ (وحلما كلاهما حلماً ودخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مغتمان ، فسأل لماذا وجهاكما مكمدان اليوم ؟ فقالا له حلمنا حلماً ، وليس من يعبره ، فقال لهما يوسف ، أليست لله التعابير ؟ قصا علي) (تك ٤٠ ٥ ـ ٨) يفيد أن يوسف هو الذي بدأهما بالكلام وطلب إليهما أن يقصا عليه ، وانهما لم يحسا سابقا بمقدرته على التعبير

في القرآن الكريم	في التوراة
٢٧ ـ ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ـ إلى قوله ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ ٣٧ ـ ٤٠)	٢٧ ـ لا يقابله شيء
٢٨ ـ ﴿ أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ (١٢ ٤١) .	٢٨ ـ (في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ، ويردك إلى مقامك فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه) (تك ٤٠ ١٣)
٢٩ ـ ﴿ وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ (١٢ ٤١)	٢٩ ـ (يرفع فرعون رأسك عنك ، ويعلقك على خشبة ، وتأكل الطيور لحمك عنك) (تك ٤٠ ١٩)
٣٠ ـ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما ، اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ (١٢ ٤٢)	٣٠ ـ (وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنع إلي إحساناً وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ ١٤)
٣١ ـ ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ، وقال الملك إني أرى ﴾ إلخ (١٢ ٤٢ و ٤٣)	٣١ ـ (وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً الخ) (تك ٤١ ١)
٣٢ ـ ﴿ وقال الملك إني أرى ﴾ (آ ٤٢)	٣٢ ـ كبير مصر الذي كان

في القرآن الكريم	في التوراه
﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ (آ ٥٠ و ٥٤) ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ (آ ٧٢) ﴿ في دين الملك ﴾ (آ ٧٦) فلاحظ أنه يذكر دائماً كلمة « ملك » ولا يذكر كلمة « فرعون » لأن كلمة فرعون لقب لملوك مصر من الحكام الأقباط الوطنيين الأصليين إذ ذاك ، وأما الرعاة الهكسوس فليسوا من الوطنيين ، فلم يلقبوا بلقب فرعون	من الرعاه الهكسوس دعي في التوارة (فرعون) كما قال (فسخط فرعون على خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين) (تك ٤٠ ٢) وقال (فسأل خصيي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده) (تك ٤٠ ٤) وقال (في ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك) (تك ٤٠ ٣) وقال (وتذكرني لفرعون) (تك ٤٠ ٥) وقال (وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون) (تك ٤٠ ١٧) إلى غير ذلك من المواضع
٣٣ ـ دعي يوسف في القرآن « بالصديق » (آ ٤٦) وبالعزيز (آ ٨٨)	٣٣ — دعي يوسف في التوراه (صفنات فعنيح) (تك ٤١ ٤٤) أي « طعام الحياة » أو «قوت الأحياء» أو « مخلص العالم »
٣٤ ـ في القرآن أن الملك أرسل رئيس السقاة إلى يوسف ليقص عليه الحلم فذهب إليه رئيس السقاة ، وقص عليه الحلم ، وهو في السجن ، فعبره له	٣٤ — في التوراه أن فرعون أرسل فأخرج يوسف من السجن ، فلما صار بين يديه ، قص عليه حلمه ، فعبره له (تك ٤١ ١٤ — ٣١)

في القرآن الكريم	في التوراة
ثم رجع فأخبر الملك ، فطلب الملك الإتيان به إليه فامتنع يوسف من خروجه من السجن إلا بعد التحقيق عن الشيء ، فأجري التحقيق عن ذلك وظهرت براءته جلياً ، فلما تأكد الملك ذلك زاد فيه حباً فطلبه ثانياً فحضر بين يديه (آ ٤٥ ـ ٥٤)	
٣٥ ـ ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (آ ٥٥) ففيه أن يوسف هو الذي طلب من الملك جعله على خزائن الأرض	٢٥ ـ (فقال فرعون لعبيده ، هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله ، ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبّل جميع شعبي ، إلا ان الكرسي أكون فيه أعظم منك ، ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر) (تك ٤١ ٣٨ ـ ٤١) ففيه أن فرعون هو الذي جعل يوسف على كل الأرض بدون أن يكون من يوسف طلب لذلك
٣٦ ـ لا يوجد في مقابلته شيء	٣٦ ـ (وأعطاه أسنات بنت

في القرآن الكريم	فى التور
	فوطى فارع كاهن أون زوجة له وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع ، ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون ، ودعى يوسف اسم البكر منسى ، قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبى ، ودعا اسم الثانى أفرايم قائلًا لأن الله جعلني مثمراً فى أرض مذلتى) (تك ٤١ ٤٥ــ٥١)
٣٧ ـ نعلم من القرآن ان يوسف كان على خزائن الأرض وكان عزيز مصر (آ ٥٥ و ٨٨)	٣٧ ــ نعلم من التوراة أن يوسف صار ثاني الملك بمصر ، أي كرئيس وزراء أو كصدر أعظم أو كوكيل عن الملك ، وأن الملك سلمه خاتمه (تك ٤١ ٤٠ ــ ٤٤)
٣٨ ـ ﴿ وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون ﴾ (آ ٥٨)	٣٨ ــ يذكر فى التوراة أن إخوة يوسف لما أتوا إليه فى السفرة الأولى يمتارون سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، (تك ٤٢ ٦)
٣٩ ـ ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ، قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفى الكيل ، وأنا خير المنزلين ،	٣٩ ــ وأما فى التوراة فإن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيهم مسلك إزعاج وإعنات حيث

في القرآن الكريم	في التوراة
فإن لم تأتوني به ، فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾(آ ٥٩ و ٦٠)ونفهم منه أن يوسف سلك مع إخوته في سبيل إتيانهم بأخيه مسلك ترغيب لا مسلك إزعاج وإرهاب	(تكلم معهم بجفاء وقال لهم جواسيس أنتم ، لتروا عورة الأرض جئتم بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا ، أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم ، وأنتم تحبسون فيمتحن كلامكم ، هل عندكم صدق ، وإلا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس ، فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ، ثم قال لهم يوسف في اليوم الثالث ، افعلوا هذا واحيوا ، أنا خائف الله إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم ، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم ، وأحضروا أخاكم الصغير إليّ ، فيتحقق كلامكم ولا تموتوا ، ففعلوا هكذا وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم) (تك ٤٢ ٧–٢٤)
٤٠ ـ ﴿ ولما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت	٤٠ — (وإذ كانوا يفرغون عدالهم إذا صرة فضة كل واحد في عدله فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوهم

في القرآن الكريم	في التوراة
إليا ﴾ (١٢ ٦٥) فيه أنهم لم يتخوفوا من رؤيتهم القصة مردودة في عدالهم، بل استبشروا بذلك وجرؤوا أن يكلموا أباهم ثانياً في إرسال أخيهم معهم	خافوا) (تك ٤٢ ٣٥) لظنهم أن ذلك وسيلة إلى تخطئتهم وسجنهم هناك متى رجعوا إلى مصر بأخيهم بنيامين (السنن القويم)
٤١ ـ ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون ـ إلى قوله ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٢ ٦٦-٦٨)	٤١ ـ لا يوجد في مقابلته شيء ما
٤٢ ـ لا يوجد في مقابلته شيء	٤٢ ـ (فقال لهم إسرائيل أبوهم، إن كان هكذا فافعلوا هذا خذوا من أفخر جني الأرض في أوعيتكم، وأنزلوا للرجل هدية، قليلاً من البلسان وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذنا وفستقاً ولوزاً) (تك ٤٣ ١١)
٤٣ ـ لا يوجد شيء ما القرآن لم يذكر الرؤيا الأولى و يذكر تأويلها	٤٣ ـ في التوراة أن إخوة يوسف الأحد عشر عندما جاءوا إليه في سفرتهم الثانية، خروا وسجدوا (تك ٤٣ ٢٨) ، وهذا كان تمام الحلم الأول وهو أن حزمهم الاحدى عشرة سجدت لحزمته (السنن القويم)
٤٤ ـ ﴿ ولما دخلوا على يوسف	٤٤ ـ (فرفع عينيه ونظر بنيامين .

في القرآن الكريم	في التوراة
آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ (١٢: ٦٩) وعلى هذا يكون يوسف تعارف مع بنيامين ، ويكون طبعاً تواطأ معه على وضع الطاس في عدله، وهذا أقبل للعقل	أخاه ابن أمه ، وقال أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ؟ ثم قال الله ينعم عليك يا ابني) (تك ٤٣ ٢٩) وعلى هذا يكون بنيامين لم يعرف يوسف وطبعاً يكون قد وضع الطاس في عدله بدون تواطؤ بينهما وهذا ما يستبعده العقل
٤٥ — ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ، جعل السقاية — إلى قوله — والله أعلم بما يصفون ﴾ (١٢ ٧٠ — ٧٧)	٤٥ — لا شيء في مقابلته
٤٦ — ﴿ قالوا • يا أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذاً لظالمون ﴾ (١٢ • ٧٨ و ٧٩)	٤٦ — يذكر التوراه هذا عن لسان يهودا حيث يقول ليوسف (فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، ويصعد الغلام مع إخوته ، لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي ، لئلا أنظر الشر الذي يصيب أبي) (تك ٤٤ ٣٣ و ٣٤)
٤٧ — ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً — إلى قوله — سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ، (١٢ • ٨٠-٩٨)	٤٧ — لا يوجد في مقابلته شيء
٤٨ — يوجد في القرآن الكريم ن إخوة يوسف سافروا إليه ثلاث	٤٨ — المذكور في التوراه ان إخوة يوسف إنما سافروا إليه سفرتين

في القرآن الكريم	في التوراة
سفرات وأنه إنمـا أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثالثة وبعدأن كانوا رجعوا إلى الشام لأبيهم وأخبروه بسرقة بنيامين ، وقبل الختام نقول على حسب القرآن الكريم تكون سفراتهم لمصر أربع مرات	فقط وأنه أظهر نفسه لهم بعد سفرتهم الثانية على أثر تسريق أخيه بنيامين ، وعليه فهم لم يرجعوا إلى أبيهم للشـام إلا وهم مخبروه بظهور يوسف واكتشافه لهم ، وقبل الختام نقول على حسب التوراه تكون سفراتهم لمصر ثلاث فقط
٤٩ ـ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ـ إلى أن قال ـ ورفع أبويه على العرش ﴾(١٢ ٩٩و١٠٠)	٤٩ ـ لا يوجد في مقابلته شيء
٥٠ ـ ﴿ وخروا له سجداً ﴾ (١٢ ١٠٠) ففيه أن خرورهم له سجداً كان على أثر دخولهم مصر ، وطبعاً كان قبل موت أبيهم ، وفيه أن الخارين له سجداً ، ليس الاخوة فقط ، بل هم وأبواه ، إن أرجع ضمير الفاعل للاخوة والأبوين ، وأما إن أرجـــع للاخوة فقط دون الأبوين كما هو ظاهر الآية الكريمة لم يكن هناك تخالف من هذه الجهة الثانية	٥٠ ـ قال بعد قصة موت يعقوب ودفنه (وأتى إخوته أيضاً ووقعوا امامه) (تك ٥٠ ١٨) ففيه أن هذا السجود من إخوته له كان بعد موت أبيهم ودفنه ، وفيه أن الساجدين هم الاخوة فقط ، دون الأبوين طبعاً

في القرآن الكريم	في التوراة
٥١ ـ ﴿ وقال يا أبت ، هذا تأويل رؤياي من قبل – إلى قوله – إنه هو العليم الحكيم ﴾ (١٢ ١٠٠)	٥١ ـ لا يقابله شيء
٥٢ ـ ﴿ وتوفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ (١٢ ١٠١)	٥٢ ـ (وقال يوسف لإخوته : أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا . ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر) (تك ٥٠ ٢٥ و ٢٦) (هتاف وتصفيق حاد من الجميع)

أحسن القصص

- ٢ -

قال الشيخ محمود الخليلي (١)

قصص التوراة

أحسنه أكثره فوائد وعبره وذكرى وعظة ، وأصدقه وأشده موافقة للعقل والشرف والدين ، بخلاف الكتب التي بين أيدي اليهود مثلاً فإن فيها ما لا يوافق

(١) نسبه الى بلده خليل الرحمن من فلسطين

العقل ولا النقل ، وليس فيها شيء من الفائدة التي تعود على القارىء بتطهير الروح وامتلاء القلب من مخافة الله ، وإني مع حرصي ـ والله ـ على عدم مساس إحساس إخواننا أهل الكتاب بجرح عواطفهم ـ ذاكراً قليلاً من الشيء الكثير الذي عثرت عليه فيما يسمونه (بالتوراة) ، فإليك البيان

(غلط التوراة في قولها أنه يوجد ليل ونهار قبل خلق الشمس)

(١) قال في سفر التكوين « وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة ليلاً ، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » (تك ١ ٣ ـ ٥) ثم قال « وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات واوقات وأيام وسنين ، وتكون انواراً في جلد السماء لتنير على الارض ، وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الارض ، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً » (تك ١ ١٤ ـ ١٩) فهذا النص يفهم منه ان الشمس خلقت في اليوم الرابع ، ولكنه ذكر قبل خلقها انه كان نهار وليل وأيام ، ومن المعلوم لكل إنسان أن لا نهار بلا شمس ، لأن النهار هو الوقت الذي بين طلوع الشمس وبين غروبها ، بدليل قوله في أول ذلك الإصحاح (ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً) فذكره وجود النهار والليل قبل خلق الشمس غلط ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى الينا هذا القرآن

مخالفة التوراة لعلم النشوء والرقى

(٢) ـ قال في سفر التكوين « فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم ، فأخذ واحده من اضلاعه وملأ مكانها لحماً ، وبنى الإله الضلع التي اخذها من آدم امرأةً وأحضرها الى آدم ، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأه ، لأنهـا من امرئ خلقت » (تك ٢ ٢١ ـ ٢٣) وفيه تصريح ونص بأن حواء خلقت من جسد آدم ، وهو مخالف للعلم الحديث ، (علم النشوء والترقى) ، ونحن المسلمون لا نكاد نصدق بتاريخ اليهود وإن عزوه الى موسى عليه السلام ، فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وأنه بقي كما جاء به موسى ، ولا نحتج على ما وراء مدركات الحس والعقل إلا بالوحي الذى جاء به نبينا ، وإنما نقف عند هذا الوحي ، لا نزيد ولا ننقص ، كما أننا لا نتأكد ولا نجزم بصحة (علم النشوء والترقي) ولكن إذا ثبت هذا العلم كان غير معارض لكتابنا كما يعارض كتاب اليهود ، نحن لا نقول إن القرآن نفي الاعتقاد المنصوص فى التوراة وإنما نقول إنه لا نثبته إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ، وعليه فإذا صح ما تقوله التوراة وبطل ما تقوله علم النشوء والترقى وبطل ما تقوله التوراة أمكن أيضاً حمل القرآن عليه ، قال تعالى ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ (٤ ١) فمعناه كما قاله أبو مسلم خلقه من جنسها فكان مثلها ، فهو كقوله تعـــالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ﴾ (١٦ ٧١) ، وقوله تعالى ﴿ فاطرُ السموات والارض جعل لكم من أنفسكم ازواجاً ﴾ (٤٢ ١١) ، وقوله تعالى ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم ﴾ (٩ ١٢٨) ، وقوله تعـالى ﴿ لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ (٣ ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا احسن القصص بما أوحى الينا هذا القرآن

قول التوراة بأن الله نهى عن العلم وأسبابه

(٣) قال فى سفر التكوين « وأوصى الرب الإلهُ آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكُلُ أكلاً، وأما شجرةُ معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢ ١٦ و ١٧) ـ الى أن يقول ـ (فقالت الحيةُ للمرأةِ لن تموتا ، بل اللهُ عالمٌ أنه يومَ تأكلان منه تنفتح أعينُكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأةُ أن الشجرةَ جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهيةٌ للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلَها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان » (تك ٣ ٤ ـ ٧) الى ان يقول ـ « من أعلمك إنك عريان ؟ ، هل أكلتَ من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم المرأةُ التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت ، ـ فقال الرب الإله للمرأة ماهذا الذي فعلتِ ؟ ـ فقالت المرأةُ الحيةُ غرتني فأكلتُ ، فقال الرب الإله للحية لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ، ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعَين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضعُ عداوة بينك وبينَ المرأةِ وبين نسلِك ونسلِها ، هو يسحقُ رأسَك ، وأنتِ تسحقين عقبه ، وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حَبَلِكِ ، بالوجع تلدينَ أولاداً ، وإلى رجُلكِ يكون اشتياقُكِ ، وهو يسود عليكِ ، وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذْتَ منها لأنك تراب ، وإلى تراب تعود) (تك ٣ ١١ ـ ١٩) ، فهذا النص يصرح بأن الله تعالى نهى

عن العلم وعن أسبابه ، ولا يريد للانسان أن يعرف الخير من الشر، ولا أن يفرق بينها ، بل يحب أن يبقى جاهلاً ، ونعلم من هذا الكلام أيضاً أن الحية كانت على العكس من هذا الذي أراد الله للانسان ، فهي أرادت للانسان ، أن يعرف الخير والشر ، وأن يأخذ فى أسباب الفرق بينها ، وأن يكون له بصيرة نيرة ، وهكذا المرأه تبعت الحية في هذه الفكرة وهذا العمل ، ومع الأسف نرى الله ـ حاشاه ـ عاقب كلاً من آدم وحواءوالحية على مساعيهم للعلم وأسبابه ، وخروج الإنسان من دائره الجهل والغباوة ، نرى كل هذا في سفر التكوين ، ولكن القرآن الكريم لم يقل أن هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر ، كيف وأنه في مواضع كثيرة يحُثّ على العلم وأسبابه، ويحض على معرفة الخير والشر، وعلى كل الأسباب التي توصّل لذلك ، ولكن الشجرة التي نُهي عنها في القرآن لا شك إنها شجرة خبيثة من شأنها ضياع العلم والإدراك وتهلك الإنسان وتكسفه « وربما كانت هي شجرة الخشخاش أو الحشيش ونحو ذلك كما ارتآه بعض إخواننا العصريين المصريين ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن الكريم

علط التوراة بقولها إن الحية تعتدي بالتراب

(٤) ـ قال فى سفر التكوين خطابا للحية (وترابا تأكلين كل أيام حياتك) (تك ٣ ١٤) ، وقد ثبت عند علماء الحيوان أن الحية لا تأكل التراب ، ولكنها قد تأكل كباقي الحيوانات من حشرات الأرض أو من الطيور وغيرها ، والقرآن الكريم لم يعرض لهذه القصة التي تنافي الفن ، والواقع ، فسبحان من قصص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن العظيم

نسبة التوراة السكر لنوح وانه لعن من لم يسيء

(٥) ـ قال في سفر التكوين (وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر فسكر ، وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً ـ إلى أن تقول فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) (تك ١٠ ـ ٢٥) فيه نسبة شرب الخمر والسكر لنوح عليه السلام ، وفيه لعن من لم يسيء وهو كنعان ، والسكوت عن المسيء وهو حام ، ولكن القرآن الكريم يذكر نوحاً بالنبوة والرسالة والهدى ، ويقول ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (٦ ١٦٤) ، فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى إلينا هذا القرآن

نسبة التوراة الدياثة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك

(٦) ـ قال في سفر التكوين (وحدث جوع في الأرض ، فانحدر أبرام إلى مصر ، ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت إنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذ رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلوني ويستبقونك ، قولي إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ، فضرب

الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة ، بسبب ساراي امرأة أبرام ، فدعى فرعون أبرام ، وقال ما هذا الذي صنعت بي ؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هي أختي ؟ حتى أخذتُها لي لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب فأوصى فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له ، فصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له » (تك ١٢ ١٠ - ٢٠) ولنا أدلة على ضعف وركاكة هذه القصة

الدليل الاول - انه قد ذكر شارح التوراة في شرحه المسمى (السنن القويم) أن السيدة ساره كانت حينئذ ابنة أكثر من ستين سنة ، فقطعاً كانت في سن الشيخوخة ، فليس فيها ما يخلب فؤاد المصريين وفرعون مصر

الدليل الثاني - هذا القصص يفيد أن سيدنا إبراهيم - حاشاه - جعل زوجته حِباله يصيد بها أموال الناس بالباطل ، ويخدع بها قلوبهم ، كما يعلمنا أن سيدنا ابراهيم سمح أن ينام هو في إحدى الخانات مثلا وزوجه في قصر فرعون محتلياً بها ، وكل هذا منتهى الانحطاط ، ومن أعظم أمثله السقوط ، وكل ذلك لا يجوز في شأن الأنبياء الذين منهم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالإجماع من طوائف المسلمين ، وأيضاً قوله « انها أختي » - ولو مع إرادة أنها أخته في الدين أو أخته من أبيه لا من أمه - لا يخرج الكلام عن دائرة الكذب ، لأنه بمنزلة نص صريح على أنها ليست زوجة له مطلقا ، فالقول بأنه تعريض لهو في غاية الضعف

الدليل الثالث - روى لنا التوراة أنه كان لإبراهيم عليه السلام اتباع وعشيرة وعبيد ، حتى إنه كان عنده من الغلمان المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر (تك ١٤ ١٤) ، فاذا كان كذلك يبعد كل البعد أن يذهب سيدنا

إبراهيم بنفسه لجلب الطعام من مصر ، إذا كان يمكنه أن يرسل من أتباعه وغلمانه من يريد

الدليل الرابع إذا أمكننا فهم أن ابراهيم عليه السلام رحل بنفسه الى مصر أيام الجوع لأجل جلب الطعام ـ فلا يمكننا أن نفهم حكمة سفر زوجه معه ، إذ كان يمكنه أن يبقيها في قريتها محاطة بعبيده وعشيرته وابن أخيه لوط عليه السلام ، فقصة أخذه في سفرته هذه زوجته ساراي ركيكة وضعيفة جداً

الدليل الخامس ـ هذه القصة تعلمنا تفضيل فرعون الوثني على سيدنا إبراهيم ـ والعياذ بالله ـ في كراهة الكذب والخداع والغش والتغرير والحيلة ـ في الخوف من الله تعالى ومراقبته ـ في المروءة والحمية والنخوة ، وتبرهن لنا هذه القصة أن فرعون مصيب وبار أكثر من سيدنا إبراهم عليه السلام ـ حاشاه ـ وأنه يخاف الله أكثر ، وكل هذا باطل ، فالقصة إذاً باطلة من أصلها ، على أنه ماذا كان إثم فرعون وقد أخذ ساراي برضى سيدنا إبراهيم ـ على زعمهم ـ حسب ما ظهر له وأنه أحسن مهرها ، ولقد كان يعتقد أنها أخت ابراهيم لا امرأته ، فلماذا يضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب أخذه ساراي ؟

(٧) ـ قال في سفر التكوين (وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادِش وشور ، وتغرب في جَرار ، وقال إبراهم عن سارة امرأته هي أختي ، فأرسل أبيمالك ملك جَرار وأخذ ساره ، فجاء الله الى أبيمالك في حُلم الليل ، وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها ، فقال يا سيد ، أأمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هو لي إنهـــا أختي ، وهي أيضاً نفسها قالت هو أخي ؟ ، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلتُ هـذا ـ فقال له الله في الحُلم أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت

هـذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إليّ ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي ، فيصلي لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت ، أنت وكل من لك ، فبكر أبيمالك في الغد ، ودعا جميع عبيده ، وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم ، فخاف الرجال جداً ، ثم دعا إبراهيم وقال له ماذا فعلت بنا ؟ وبمـــاذا أخطأت اليك ؟ حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة ، أعمالاً لا تُعمَـلُ عمِـلتَ ، وقال أبيمالك لإبراهيم . ماذا رأيت حتى عملتَ الشيء؟ فقال إبراهيم إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلونني لأجل امرأتي ، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إليّ ، في كل مكان نأتي اليه قولي عني هو أخي ، فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ، وردّ اليه سارة امرأته » (تك ٢٠ ١ – ٤) فالتوراة الـتي بين أيدي اليهود تصور إبراهيم عليه السلام بصورة رجل عديم مروءة اتخذ زوجته حبالة تتصيد بها أموال الناس بالباطل ، الأمر الذي لا يرضاه لنفسه أخس الناس وأحقر بل أسفل العـالم ، وكل عاقل لا يرتاب أن ليس لهذه الحادثة مع أبيمالك ، ولا لتلك الحـــادثة مع فرعون مصر نصيب من الصحة ، إلا اذا كان مصاباً في عقـــله وشرفه

نسبة التوراة السكر لإبراهيم حاشاه

(٨) — نعلم من سفر التكوين أن إبراهيم بينما كان راجعاً من شرقي الأردن إلى فلسطين مرّ بغلمانه على أورشليم ، فخرج له ملكها « مَلْكِي صادق » وأخرج له خبزاً وخمراً ، لإنعاشه وإنعاش جنوده الذين معه (انظر تك ١٤ ١٨) ولكن القرآن الكريم يقول عن الخمر في سورة البقرة ﴿ يسألونكَ عن الخمرِ

والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٢ ٢١٩) ، ويقول في سورة المائدة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، وإنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ (٥ ٩٣ و ٩٤) ، فقصص التوراة التي بين أيدي اليهود هو من أقبح القصص بالنسبة للخمر ، ولكن قصص القرآن الكريم فيها كغيرها هو أحسن القصص

غلط التوراة بقولها أن الملائكة يأكلون

(٩) — قال في سفر التكوين عن إبراهيم لما جاءته الملائكة بالبشرى (ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ، ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا) (تك ١٨ ٨) ، وقال أيضاً (فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً ، وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض ، وقال يا سيديّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما ، ـ فقالا له بل في الساحة نبيت ، ـ فألحّ عليهما جداً ، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة ، وخبز فطيراً ، فأكلا) (تك ١٩ ١ ـ ٣) ، نعلم من هذين النصين أن الملائكة أكلت عند إبراهيم ولوط عليهما السلام وهو خلاف ما أجمعت عليه أصحاب الملل والنحل من أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، وهو الذي نتعلمه من القرآن الكريم الذي نقص أحسن القصص ،وهو أيضاً الذي نتعلمه من سفر القضاة ، حيث قال (فقال منوح لملاك الرب دعنا نعوّقك ، ونعمل لك جدياً من المعزى ، فقال الرب منوح ولو عوقتني لا آكل من خبزك، وإن عملت محرقة فللرب أصعدها ، لأن منوح لم يعلم أنه ملاك الرب) (قض ١٣ ١٥ و ١٦)

نسبة التوراة السكر والزنى الى لوط حاشاه

(١٠) ـ قال فى سفر التكوين (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه ، فنُحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً الليلة ، فادخلي اضطجعي معه ، فنُحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه،ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب) وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بن عمّي) وهو أبو بني عمّون إلى اليوم)(تك ١٩ ٣٠ ـ ٣٨)ولسنا نريد أن نقول إن هذه القصة باطلة لأنها تنافي عصمة لوط النبي، فإننا نعلم ان أهل الكتاب لا يقولون بنبوة لوط ، ولكننا ننتقد على هذه القصة بأنها تعلم قراءها من رجال ونساء الرذيلة وأعمال الفحش ، وتبث فيهم روح الدعارة وانحطاط الأخلاق ، الأمر المضاد لما هو المقصود من الوحي السماوي ، وليس من فائدة لقراء هذه القصة سوى فساد الأخلاق ، فتبارك الله الكريم الذي يقول ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

دعوى التوراة أن اسحاق ديوث كأبيه حاشاهما

(١١) ـ قال في سفر التكوين (وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم ، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار إلى ان يقول فأقام إسحق في جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته ، فقال هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي ، لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته، فدعا أبيمالك إسحق ، وقال إنما هي امرأتك ، فكيف قلت هي أختي ؟ ـ فقال له إسحق لأني قلت لعلّي أموت بسببها ، ـ فقال أبيمالك ما هذا الذي صنعتَ بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحَدُ الشعب مع امرأتك ، فجلبت علينا ذنباً ، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت) (تك ٢٦ ١-١١)

قال في شرح التوراه المسمى بالسنن القويم (جرى إسحق في هذا على سنن أبيه (ص ٢٢٠) ، وكانت علته علة أبيه عينها ، ولكن ملك جرار لم يأخذ هنا رفقة ، كما أخذ الذي قبله سارة ، ولم يُعطِ هذا إسحق ، كما أعطى ذاك إبراهيم وعرف هذا بعد ذلك أن رفقة إمرأة إسحق، وأخيراً طرده من أرضه فبعد عنه ـ ثم قال ـ في هذه الآيات دليل قاطع على حسن أخلاق أبيمالك وعظيم مروءته ، وبيان أن علة كذب إسحاق كانت كعلة كذب إبراهيم أبيه)هذا كلام الشارح بالحرف، وأما نحن فنقول لعل هذا التعليم الفاسد هو الذي أفسد أخلاق اليهود وجعلهم يفادون بنسائهم وذواتهم في سبيل الحصول على سلامة الحياة والمنفعة المادية ، ولا يبالون بهذا الأمر البتة ، كما هو معروف في يهود بلاد الشام والعراق وفلسطين ونحوهم

تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد

(١٢) ـ قال في سفر التكوين « وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر ، وقال له يا ابني ـ فقال له ، ها أنا ذا ـ فقال ، إني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي ، فالآن خذ عُدّتك ، جعبتك وقوسك ، واخرج إلى البرية ، وتصيد لي صيداً ، واصنع لي أطعمة كما أحب ، وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي ، قبل أن أموت ، وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ، ليأتي به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا آمرك به ، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل ، حتى يباركك قبل وفاته ، ـ فقال يعقوب لرفقة أمّه هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون ، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة ـ فقالت له أمه لعنتك عليّ يا ابني ، اسمع لقولي فقط ، واذهب وخذ لي ، فذهب وأخذ وأحضر لأمه ، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت ، وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديَي المعزى ، وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها ، فدخل إلى أبيه وقال يا أبي ـ فقال ها أنا ذا ، من أنت يا ابني ؟ ـ فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك قد فعلتُ كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي ، لكي تباركني نفسك ـ فقال إسحق لابنه ، ما هذا الذي أسرعت لتجدَ يا ابني ؟ ـ فقال إن الرب إلهك قد يسّر لي ـ فقال إسحق

ليعقوب تقدم لأحسك يا ابي ، أأنت هو ابني عيسو أم لا ، فتقدم يعقوب إلى إسحق ابيه ، فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو أخيه فباركه وقال هل أنت هو ابني عيسو ؟ - فقال أنا هو - فقال قدّم لي لآكل من صيد ابني ، حتى تباركك نفسي ، فقدم له فأكل ، وأحضر له خمراً فشرب ، فقال له إسحق أبوه تقدم وقبّلني يا ابني »، فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال انظر رائحة ابني كرائحة حقل ، قد باركه الرب ، فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ، وكثرةَ حنطة وخمر ، ليُستَعبَد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمّك ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين » وحدث عندما فرغ إسحق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده ، فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه ، وقال لأبيه «ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك » - فقال له إسحق أبوه مَن أنت ؟ - قال « انا ابنك بكرك عيسو » ، فارتعد إسحق ارتعاداً عظيماً جداً ، وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ ؟ فأكلت من الكلّ قبل أن تجيء وباركته ، نعم ويكون مباركاً » فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرّة جداً ، وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي » - فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » - فقال «ألا إن اسمه دعي يعقوب ، فقد تعقبني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتي » ، ثم قال « اما أبقيت لي بركة ؟ » - فأجاب إسحق وقال لعيسو إني قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر فماذا أصنع إليك يا ابني ؟ » - فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبي ؟ ، باركني أنا أيضاً يا أبي » ، ورفع عيسو صوته وبكى ، فأجاب إسحق أبوه وقال له هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك

تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك!!!»
(تك ٢٧ ١ - ٤٠)

فهذا القصص يعلم الكذب والمكر ومحبة الخمرة وحب الذات والحسد، كما يعلم أن الله قد تخفى عليه سرائر القلوب لأنه لا ينظر إلا إلى الألفاظ، دون النوايا، كما يعلم أن الأب يحب ابنه المادي دون ابنه الروحي، وهذا كله بخلاف ما في كتاب الله العزيز، فأما الكذب فقد حرمه في مثل قوله تعالى ﴿ إنما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله ﴾ (١٦ ١٠٥) وقوله تعالى ﴿ ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون ﴾ (٢ - ١٠)

وأما المكر فقد ذمه الله تعالى في قوله ﴿ ولا يحيقُ المكرُ السيئ إلا بأهلِهِ ﴾ (٣٥ ٤٣) وقوله ﴿ سيُصيبُ الذين أجرموا صغارٌ عندَ اللهِ وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ (٦ ١٢٤)

وأما الخمرة فقد قال الله تعالى ﴿ إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكم تفلحون ﴾ (٥ ٩٣)

وأما حب الذات فقد ذمه الله تعالى ومدح نقيضه في قوله ﴿ ويؤثرونَ على أنفسِهِم ولو كان بهم خصاصةٌ ﴾ (٥٩ ٩)

وأما الحسدُ فقد ذمه الله تعالى في قوله ﴿ ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ ﴾ (١١٣ ٥) وأنكره في قوله ﴿ أم يحسدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضلِهِ ﴾ (٤ ٥٣)

وأما أن الله لا يخفى عليه شيء من طوايا القلوب، فقد قال تعالى ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصدور ﴾ (٤٠ ١٩) وقال تعالى ﴿ فإنهُ يعلمُ السرَّ وأخفى ﴾ (٢٠ ٧) وسبحان من قال ﴿ نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ﴾

وما أن انتهى الشيخ الخليلي من كلامه حتى قام الفاضل الخدلي[١] ثم صعد على المنبر وقال -

إني مسرور جداً مما استشهد به أخونا الشيخ الخليلي من الاثنى عشر موضعاً التي نقلها من توراة اليهود الموجودة اليوم بين أيديهم ، وبما أن هناك في الكتاب المذكور شواهد كثيرة أخرى ، فإني أريد أن آتي باثني عشر شاهداً أيضاً ، يستدل منها القارىء أن قصص القرآن الكريم هو أحسن القصص ، فأقول عطفاً على ما سبق للأخ المحترم

تعليم التوراة الخداع وخلف الوعد والربا

(١) ـ قال في سفر التكوين : « وأحب يعقوب راحيل ، فقال أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى ـ فقال لابان أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر ، أقم عندي ـ فخدم يعقوب براحيل سبع سنين ، وكانت في عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها ثم قال يعقوب للابان أعطني امرأتي ، لأن أيامي قد كملت ، فأدخل عليها ، فجمع لابان جميع أهل المكان ، وصنع وليمة ، وكان في المساء أنه أخذ « ليئة » ابنته ، وأتى بهـا اليه ، وأعطى لابان « زلفة » جاريته لليئة ابنته جارية ، وفي الصباح إذا هي ليئة ، فقال للابان ما هذا الذى صنعتَ بي؟ أليس براحيل خدمتُ عندك ، فلماذا خدعتني ؟ ـ فقـال لابان لا يُفعَل هكذا في مكاننا أن نُعطَى الصغيرةُ قبل البكر » (تك ٢٩ ١٨ ـ ٢٦) ، فهذا القصص يعلم الخداع حتى فيما يتعلق بالعرض ، ويعلم نكث العهد وخلف الوعد ، كما يفيدنا أن سيدنا يعقوب اضطجع أول ليلة مع ليئة بالزنا ـ حاشاه ـ لأنها ليست هي المخطوبة له ، وليئة هذه هي جدّة المسيح كما في شرح التوراة المسمى بالسنن القويم ، ولكن

---

(١) نسبة الى الخدل من بلدان فلسطين

القرآن الكريم يقول في المخادعين • ﴿ يُخادِعونَ اللهَ والذينَ آمَنُوا ، وما يَخْدَعونَ إلاّ أنفُسَهم وما يَشعُرون ﴾ (٢ ٩) ويقول في العهد • ﴿ وأوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتم ﴾ (١٦ ١٩) ويجعل حلف الوعد من شأن الشيطان فيقول عن لسانه ﴿ وَوَعَدتُكم فأخلَفْتُكم ﴾ (١٤ : ٢٢) ويقول . ﴿ فمن نَكَثَ فإنما يَنكُثُ على نفسِه ﴾ (٤٧ ١٠) ويقول في الزنا ﴿ والذين لا يَدعون مع اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يَقتُلون النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحقِ ولا يَزنون ، ومن يَفعل ذلك يلقَ أثاماً يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيمةِ ويَخلُدْ فيه مُهاناً ﴾ (٢٥ ٦٨ و ٦٩)، ويقول ﴿ ولا يَسْرِقنَ ولا يَزنينَ ﴾ (٦٠ ١٢) ويقول « ولا تقربوا الزِّنى إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا »(١٧ ٢٢) فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما أوحى اليه هذا القرآن

تعليم التوراة ان الإنسان قد يكون اقوى من الملك

(٢) ـ قال في سفر التكوين « فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه ، فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر ـ فقال لا أطلقك إن لم تباركني ـ فقال له ما اسمك ؟ ـ فقال يعقوب ـ فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدتَ مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوبُ وقال أخبرني باسمك ـ فقال لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك ، فدعى يعقوب اسم المكان « فنيئيل » ، قائلا لأني نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسي » (تك ٣٢ ٢٤ ـ ٣٠) واسرائيل معناه الأمير مع الله ، أو المجاهد مع الله ، أو أمير الله ، أو قوي مع الله ، وفنئيل ـ معناه وجه الله ، فهذه القصة تعلم

القارىء أن الآدمي أقوى من المَلَك ، إن قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو مَلَك ، ولكن لا ريب أن الملائكة أقوى من الآدميين بكثير ، فان قلنا إن هذا الذي صارع يعقوب هو الله كما هو مرمى الكلام كان الأمر أدهى وأمر ، لاسيما وأن الله يقول « لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ ، وهو اللطيفُ الخبيرُ » (٦ ١٣) ، فسبحان من قال نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن

غلطة تاريخية في التوراة

(٣) ـ قال في سفر التكوين (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم ، قبلما مَلَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل ، لا يصلح أن يكون من قلم موسى الذى يقولون إنه هو كاتب سفر التكوين ، لأن ملوك بني إسرائيل إنما كانوا بعد مدة القضاة الذين وجدوا بعد موسى وكانت مدة القضاة (٤٥٠) سنة على ما في قاموس بوست ، فهذه الجملة مزيدة على التوراة من قلم بعض علماء اليهود ، فَجلّ الله تعالى الذي ليس في قصص كتابه الكريم زيادة من أحد علماء الاسلام ، ولهذا قال « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » كان أحسن القصص لنزاهته عن زيادات الزائدين

تعليم التوراة الزنا والمحاباة

(٤) ـ قال في سفر التكوين في أثناء قصة يوسف ، ولا ندري ما هي المناسبة؟ (وحَدَثَ في ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ، ومال إلى رجل عدُلاّمِيّ اسمه « حِيرة » ، ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه « شُوع » ، فأخذها

ودخل عليها ، فحبلت وولدت ابناً ، ودعا اسمه « عيراً » ثم حبلت أيضاً وولدت ابناً ودعت اسمه « أونان » ، ثم عادت فولدت أيضاً ابناً ودعت اسمه « شيلة » وكان في كزيب حين ولدته ، وأخذ يهوذا زوجة « لعير » بكره ، اسمها « ثامار » ، وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب ، فأماته الرب ،فقال يهوذا لأونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها ، وأقم نسلاً لأخيك ـ فعلم أونان أن النسل لا يكون له ، فكان إذ دخل على امرأة أخيه إنـــه أفسد على الأرض ، لكيلا يعطي نسلاً لأخيه ، فقبح في عيني الرب ما فعله ، فأماته أيضاً ، فقال يهوذا لثامار كنّته . اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني ، لأنه قال لعله يموت هو أيضاً كأخويه ، فمضت ثامار وقعدت في بيت أبيها ، ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا ، فصعد إلى جُزّار غنمه إلى « تِمْنَةَ » هو وحيرة العَدُلاّميّ ، فأخبرت ثامار وقيل لها هو ذا حموكِ صاعد إلى تِمنة ليجزّ غنمه ـ فخلعت عنها ثياب ترملها ، وتغطت ببرقع وتلفّفت وجلست في مدخل «عينايم» التي على طريق تِمنة ، لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تُعطَ له زوجة ،فنظرها وحسبها زانية ، لأنها كانت قد غطت وجهها ، فمال إليها على الطريق وقال هاتي أدخل عليك ـ لأنه لم يعلم أنها كنّته ، ـ فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ ـ فقال إني أرسل جدي معزى من الغنم ، ـ فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ ـ فقال ما الرهن الذي أعطيك ؟ ـ فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك ، فأعطاها ودخل عليها ، فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ، ولبست ثياب ترملها ، فأرسل يهوذا جدي المعزى بيد صاحبه العدلامي ، ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلاً أين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق ؟ ـ فقالوا لم تكن هنا زانية ، ـ فقال يهوذا لتأخذلنفسها لئلا نصير اهانة ، إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها ، ولما كان نحو ثلاثة

أشهر أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كنتك ، وها هي حبلى أيضاً من الزنا ـ فقال يهوذا أخرجوها فتحرق ، أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة من الرجل الذي هذه له أنا حبلى ، وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ، فتحققها يهوذا ، وقال هي أبر مني ، لأني لم أعطها لشيلة ابني ، فلم يعد يعرفها أيضاً ، وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان ، وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يداً ، فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزاً قائلة . هذا خرج أولاً ، ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج ، فقالت لماذا اقتحمت؟ عليك اقتحام ، فدعى اسمه « فارص » ، وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز ، فدعى اسمه « زارح ») (تك ٣٨ ١ ـ ٣٠) وهذه السيرة تعلّم الجرأة على الزنا وعلى المحاباة وتفيد أن فارص ابن زنا ، وهو جدّ للمسيح من جهة أمه مريم ، كما هو جدّ له من جهة يوسف النجار رجل مريم إن جاز أن نعد يوسف أباً للمسيح كما تخيله بعض النصارى ، فهذا القصص من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله إنما قص علينا حرمة الزنا ودناءته وهذا سر قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

تعليم التوراة اغتصاب الأموال

(٥) ـ قال في سفر الخروج (فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) (خر ٣ ٢١ و ٢٢) ، ثم قال في خطاب الله لموسى (تكلّم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب) (خر ١١ ٢) ، ثم قال (وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) (خر ١٢ ٣٦) ، فهذا

التعليم هو جرثومة اغتصاب أموال الناس ، ومسخ نهبها وسلبها ، ومصدر سرقتها ، إلى آخر ما في القواميس من الألفاظ التي ترمي لمعنى التعدي على الأموال بالباطل وهو مصداق قوله تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادُوا حَرَّمْنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّت لهم ، وبصَدِّهِمْ عن سبيلِ الله كثيراً ، وأخذِهِم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأكلِهِم أموالَ الناسِ بالباطل ﴾ (٤ ١٦٠) ، وقوله تعالى ﴿ وترى كثيراً منهم يُسارِعون في الإثم والعُدوانِ وأكلِهم السُّحْتَ ، لَبِئسَ ما كانوا يعملون ﴾ (٥ ٦٥) وأمـا قول شارح التوراة (إن هذا قضاء الله ، وإن له كل ما كان للمصريين ، فأخذ بعضَ ما لِه منهم وأعطاه لشعبه) فهو قول باطل ، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، وأكل أموال الناس بغير حق من أفحش الفواحش ، وليس هذا مما تختلف فيه الشرائع ، لأنه من الكليات الخمس التي اتفقت عليها الأديان جميعها ، وليس يعتريها نسخ ولا تبديل ، والله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ (٣ ٢٨) وأمـا قوله ﴿ ولكِنَّا حُمِّلنا أوزاراً مِن زينةِ القومِ فقذفناها ﴾ (٢٠ ٨٧) فله تأويل حسن نقله الرازي عن الراغب فانظره ، وبهذا تعلم سر قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

تعليم التوراة تقديم القربان للشيطان وسيب السوائب

(٦) قال في سفر اللاويين (ومن جماعة بني إسرائيل يأخذ تيسين من المعز لذبيحة خطية ويأخذ التيسين ويوقفهما أمام الرب ، لدى باب خيمة الاجتماع ، ويلقي هرون على التيسين قرعتين ، قرعة للرب ، وقرعة لعزازيل ، ويقرب هرونُ التيسَ الذي خرجت عليه القرعة للرب ، ويعمله ذبيحة خطية ، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ، ليكفّر

عنه ليرسله إلى عزازيل إلى البرية . ثم يذبح تيس الخطيئة الذي للشعب . فيكفّر عن نفسه وعن بيته وعن كل جماعة إسرائيل .. ومتى فرغ من التكفير يُقَدِم التيسَ الحيّ ، ويضع هرون يديه على رأس التيس الحيّ ويُقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية ، ليحمل التيسُ عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفرة ، فيطلق التيس إلى البرية) (لا ١٦ ٥ - ١٠)

وهذا الذي يُعمل فيه هذا العمل هو يوم صوم واتضاع ، وكان يقع في العاشر من شهر تِشْرِي وهو يوم «عاشورا» عندنا ونعلم من مجموع كلام التوراة وقاموس جورج بوست للكتاب المقدس وتلخيص صاحب شرح التوراة المسمى بالسنن القويم أنه يوجد عند اليهود شريعة تقديم قربان الخطية للشيطان الذي هو عزازيل ، غير أنهم لا يذبحونه ، بل يجعلونه سائبة حسبما نتعلّمه من قول التوراة (ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية) كما نتعلمه من كلام الشارح ، وهو حرام في شريعة كتاب الله الذي ما جعَل من سائبة ، وهذا سرّ من أسرار قوله جلّ من قائل (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن)

تعليم التوراة استئصال الشيوخ والأطفال والنساء في الحرب

(٧) ـ قال في التوراة (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ) (يش ٦ ٢١) والمحرّم والمحروم عندهم هو المسلّم للهلاك الممنوع فداؤه ، وعليه ففي هذا القصص تشريع استئصال الشيوخ والأطفال والنساء قتلاً وحرقاً !!! وفي التوراة أيضاً (فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي) (يش ٨ ٢٥) هذا قليل جداً

من كثير مما تقصه علينا التوراة ، ولكن الشريعة الإسلامية تقص علينا أحسن من هذا القصص ، فتنهى عن قتل جميع من ذكر ، كما يعلم من مراجعة سيرة الغزوات الإسلامية أيام النبي (ص) والخلفاء الراشدين عملاً بروح القرآن الكريم

تعليم التوراة قتل غير المسيء

(٨) ـ قالت التوراة في شأن « عخان » الذي ثبت عليه بإقراره أنه عمل خيانة بأخذه بعض أمتعة من الغنيمة :

(فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله ، وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادي « عخور » فقال يشوع « كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم » فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة ، وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة ، وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم) (يش ٧ ـ ٢٤ ـ ٢٦) فالتوراة تقص علينا أقبح القصص ، وهو إن المذنب هو عخان وحده ، ولكن يشوع أحرق عخان وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه !!

والقرآن يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١٧ ـ ١٥) وتبارك الله الذي قال (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن)

تعليم التوراة اللهو واللعب

(٩) قال في التوراة (وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب) (٢ صم ٦ ١٤) فيه تعليم الناس الرقص ، وهو من اللهو واللعب المنهي عنها شرعاً كما يقول الكتاب ﴿ قل ما عندَ اللهِ خيرٌ مِنَ اللَّهْوِ ﴾ (٦٢ ١١) ويقول ﴿ وَذَرْ الذين اتَّخَذُوا دِينَهم لَعِباً وَلَهواً ﴾ (٦ ـ ٧٠) فهذا الفرق العظيم هو من أسرار قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾

التوراة تنسب الزنا لداود حاشاه

(١٠) قال في التوراة (وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميعَ إسرائيل فأخربوا بني عَمّون ، وحاصروا « رَبَّةَ » ، وأما داود فأقام في أورشليم ، وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحِمّ ،وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود وسأل عن المراة ، فقال واحد أليست هذه «بَتْشَبَعَ» بنت اليعام امرأة أُورِيا الحِثِّي ؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها ، وهي مُطَهَّرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إليّ أوريّا الحثّي ، فأرسل يوآب أوريّا إلى داود ، فأتى أوريّا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريّا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريّا من بيت الملك ، وخرجت وراءه

حِصَّةٌ من عند الملك ، ونام أوريّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين • لم ينزل أوريّا إلى بيته فقال داود لأوريّا أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ ـ فقال أوريّا لداود إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتي ؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ، ـ فقال داود لأوريّا أقم عندنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك ـ فأقام أوريّا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود ، فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريّا، وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فُيضرَب ويموت ـ وكان في محاصرة يوآب المدينة أن جعل أوريّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة ، وحاربوا يوآب ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أوريّا الحثي أيضاً ، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلاً عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ، أما علمتم انهم يرمون من على السور ، مَن قَتَلَ أبيمالك بن يَر بوشت ، الم ترمِهِ امرأة بقطعة رحى مِن على السور ، فمات في «تاباص»، لماذا دنوتم من السور ؟ ـ فقل له قد مات عبدك أوريّا الحثي أيضاً

فذهب الرسول فدخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود قد تجبّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، ورمى الرماة عبيدك مِن على السور ، فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريّا الحثي أيضا ، ـ فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب لا يَسُؤْ

في عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدّد قتالك على المدينة ، واخربها وشدّده ، فلما سمعت امرأة أوريّا أنه قد مات أوريّا رجُلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب) (٢ صم ١١ ١ - ٢٧)

وقال أيضاً في التوراة (فأرسل الرب ناثانَ إلى داود . فجاء إليه وقال له كان رجلان في مدينة واحدة ، واحد منهما غنيّ ، والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاها ، وكبرت معه ومع بنيه جميعا ، تأكل من لقمته ، وتشرب من كأسه ، وتنام في حضنه ، وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغنيّ فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير ، وهيّأ للرجل الذي جاء إليه ـ فحمي غضب داود على الرجل جداً، وقال لناثان حيّ هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعلُ ذلك ، ويردُ النعجة أربعة أضعاف ، لأنه فعل هذا الأمر ، ولأنه لم يشفق ـ فقال ناثان لداود أنت هو الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل، أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتكَ بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك ،وأعطيتك بيت إسرائيل ويهودا وإن كان ذلك قليلا كنت أزيد لك كذا وكذا ، ـ لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلتَ اوريّا الحثي بالسيف، وأخذت امرأته لك امرأة وإياهُ قتلتَ بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارقُ السيف بيتكَ إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة اوريّا الحثي لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب ها أنا ذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس،فقال داود لناثان قد اخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غيرَ أنه من

أجل أنك قد جعلتَ بهذا الأمر أعداءَ الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت ، وذهب ناثان إلى بيته

وضرب الربُّ الولدَ الذي ولدته امرأة أوريّا لداود فثقل، فسأل داود اللهَ من أجل الصبي ، وصام داود صوماً ، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض ، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزاً ، وكان في اليوم السابع أن الولد مات ، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات، لأنهم قالوا هو ذا لما كان الولد حيّاً كلمناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له قد مات الولد ؟ ، يعمل أشرَّ ، ـ ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده هل مات الولد ؟ ـ فقالوا مات ، فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدّل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته وطلب ، فوضعوا له خبزاً فأكل ، فقال له عبيده ما هذا الأمرُ الذي فعلتَ ؟ لما كان الولد حياً صمتَ وبكيتَ ، ولما مات الولد قمتَ وأكلت خبزاً ـ فقال لما كان الولد حياً صمتُ وبكيتُ لأني قلت مَن يَعلمُ ؟ ربما يرحمني الرب ويحيا الولد ، والآن قد مات فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أردَّه بعد ؟ أنا ذاهب إليه ، وأما هو فلا يرجع إليَّ

وعزّى داود بثشبعَ امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابناً فدعا اسمه « سليمان » ، والرب أحبه ، وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه « يديديا » من أجل الرب)(٢ صم ١٢ ١ ـ ٢٥)

في هذا شغف داود بالمرأة الأجنبية شغفاً حمله على مصاحبتها أولاً بالزنى حتى حبلت منه ، ثم فيه الاحتيال على زوجها أوريّا الذي هو أحد الضباط في الجيش، فوضعه موضع الخطر في الحرب وهكذا أماته، ثم استمر على محبتها فتزوجها وهو يعلم أنها زانية ، وفيه موت الولد بجناية أبيه ، وفيه ولادة سليمان من تلك الزانية وفيه أن الله سمى سليمان ابن تلك المرأة « يديديا » الذي

معناه « محبوب يهوه » وفيه أن داود أراد ستر خيانته بتحميل أن الحمل كان من أوريا ، ولكنه لم يتوفق ، وفيه أن داود شرب الخمر على مائدته ويسكر الناس وفيه أن الله توعد داود على زناه وعاقبه بزنا نسائه جميعهن ، وفيه أن عقاب خطية داود نزل على ولده من الزنا ، وفيه أن داود إنما كان يصوم لغير الآخرة ، وفيه مما لا يحصى ويطول شرحه من قبيح القصص الذي لا ثمرة فيه ، وبعد فلا يخفى أن سليمان ابن هذه الزانية كان هو وارث ملك أبيه بجهود ومساع كثيرة من أبيه ، هذا قصص التوراة ، وإنا نبرأ منه إلى الله ، كيف والقرآن الكريم يقص علينا الثناء العظيم على داود عليه السلام فيقول ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوابٌ ، إنا سخرنا الجبالَ معه يُسبّحنَ بالعشيِّ والإشراقِ ، والطيرَ محشورةً ، كلٌّ له أوابٌ ، وشددنا مُلكهُ وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخطاب ﴾ (٣٨ ١٧ ــ ٢٠) ويقول ﴿ وإنَّ له عندنا لزُلفى وحُسنَ مآب ﴾ (٣٨ ٢٥) ، ويقول ﴿ وقتل داودُ جالوتَ ، وآتاهُ اللهُ الملكَ والحكمة وعلّمهُ مما يشاء ﴾ (٢ ٢٥١) ويقول ﴿ ومِن ذُرِّيتهِ داودَ وسليمان وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرون ، وكذلك نجزي المُحسنين ﴾ (٦ ٨٤) فترى كتاب الله يصف داود بأنه ذو قوة في الدين ، وأنه أواب ، وأن الله سخر الجبال والطير حين تسبح معه ، وأنه أوتي الحكمة ، وأن له عند ربه زلفى وحسن مآب ، وأنه علمه مما يشاء وأنه من المحسنين ، وهذا كله بخلاف التوراة التي نعتته بضد هذه النعوت ، وستعلم من نص التوراة المتقدم أن الولد مات بخيانة أبيه ، ولكن القرآن يقول ﴿ ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾ (٦ ١٦٤) والنصوص الاسلامية تمنع أن يتزوج نبيٌّ من الأنبياء إلا بالمرأة العفيفة الحصان ، وتمنع أن يكون نبيٌّ متولداً من غير عفيفة حصان ، فلهذه الأمور وأشباهها يقول الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

التوراة تنسب القساوة والبربرية الى داود

(١١) ـ قال فى التوراة تحكى عن أعمال داود الحربية مع اهالي « ربّة » بنى عمّون (وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد ، وأمرّهم في أتون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون ، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم) (٢ صم ١٢ ٣١ و ١١ ي ٢٠ ٣) هذا قصص التوراة عن الأعمال الحربية التي عملها داود ، ولكن القرآن يقول عن داود عليه السلام ، إنه كان من المحسنين وإن له عند ربه زلفى وحسن مآب وإنه أواب وإنه أوتي الحكمة ، وكل هذه النصوص القرآنية تمنع أن نعتقد أن داود نعمل تلك الأعمال التي تحكيها عنه التوراة ، لأنها تنافي الإحسان وتنافر الحكمة ، ولا تصدر عن أقسى برابرة العالم ، ولهذا وأمثاله يقول الله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾

التوراة تجاري على الزنا بالزنا

(١٢) ـ قال فى التوراة خطاباً لداود (لماذا احتقرت كلام الرب ، لتعمل الشر في عينيه ؟ قد قتلت أوريّا الحِثّي بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة واياه قتلت بسيف بني عمّون ، والآن لا يفارق السيف بيتك الى الأبد ، لأنك احتقرتني وأخذتَ امرأة أوريّا الحثي لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب ها أنا ذا اقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك ، وأعطيهن لقريبك ، فيضطجع مع نسائك ، في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع اسرائيل ، وقدام الشمس) (٢ صم ١٢ ١٩ - ١٢) ، وهذا الذي توعده

الله به قد وقع فعلاً (على دمة التوراة) ، فقد حكي في التوراه أن أشالوم بن داود بعدما حارب أباه وكسره ودخل عاصمة ملكه أورشليم اصطجع مع سرارى أبيه برأى من الشعب ، حيث قالت التوراه هكذا (وقال أشالوم لأحيتوفل اعطوا مشوره ماذا نفعل ؟ ـ فقال أحيتوفل لأشالوم أدخل الي سراري أبيك اللواتي تركهن لحفظ البيت ، فيسمع كل اسرائيل انك قد صرت مكروهاً من أبيك فتتشدد أيدي جميع الذين معك ـ فنصبوا لأشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أشالوم الى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل) (٢ صم ١٦ ٢٠ ـ ٢١) قال علماء اهل الكتاب « والإثم فى هذا مضاعف لكون السراري أقرباءه ، ولكونهن نساء لرجل آخر ، ولم يكن ذلك زيجة محرمه ، بل كان زنا ، لحياة أبيه والسراري غير مطلقات » ، فنتعلم من هذه النصوص التوراتية أن الله تعالى يعلن زنا الزاني في واحده سراً ، بأن يزني قريبه بجمع من نسائه جهراً ، وأنه يجازى على الزنا بزنا ، وهذا من أقبح القصص ، والقرآن الكريم لايجعل جزاء الزاني بامرأة الغير أن يزني ولده بنسائه ، بل يجعل جزاءه الجلد كما قال تعالى ﴿ الزانيـــةُ والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مئةَ جلدةٍ ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دينِ اللهِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ ، وليشهدْ عذابهُما طائفةٌ من المؤمنين ﴾ (٢٤ ٢) وقد أمر بحضور جمع من المسلمين حين جلد الزاني ، وكل هذا معقول ، وأما التوراة فتقول ان الله توعد داود بأن يزنى قريبه بنسائه حال حضور بنى إسرائيل ومشاهدتهم لهذا الفعل الشنيع ، وهو أمر غير معقول ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾

ولما أتم الفاضل الجدلي خطابه عاد الى مكانه وقام على الاثر الهمام الياني وسار نحو منبر الخطابة وشرع يقول

ايها السادة إني على ما بي من قصر الاطلاع على كتب القوم أريد أن أذكر لكم

اثني عشر موضعاً من التوراة هي من أقبح القصص أيضاً ، نظير ما فعل أحواي الخليلي والمجدلي عاطفاً ما سأذكره على ما ذكراه فأقول

التوراة تقص أقاصيص الزنا

(١) ـ قال في التوراة (وجرى بعد ذلك انه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة ، اسمها « ثامار » فأحبها « أمنون » بن داود ، وأحْصِرَ أمنون للسقم من أجل ثامار أخته ، لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً ، وكان لأمنون صاحب اسمه « يوناداب » ابن شِمعَى أخي داود ، وكان يوناداب رجلا حكيما جداً ، فقال له لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح الى صباح ، أما تخبرني ؟ فقال له أمنون إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي ـ فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها ، ـ فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك ، دع ثامار اختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها ، ـ فأرسل داود الى ثامار الى البيت قائلا اذهبي الى بيت أمنون أخيكِ واعملي له طعاماً ، فذهبت ثامار الى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكا أمامه وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل وقال أمنون أخرجوا كل إنسان عني ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار إئتي بالطعام الى المخدع فآكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخاها الى المخدع ، وقدّمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا اختي ، ـ فقالت له لا ياأخي لا تذلني ، لأنه لا يُفعل هكذا في إسرائيل ، لا تعمل هذه القباحة ، أما أنا فأين أذهب بعاري ، واما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل ، والآن

كلم الملك لأنه لا يمنعني منك ، ـ فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها (٢ صم ١٣ ١ ـ ١٤) ، في هذا النص حكاية زنا أمنون بأخته ثامار ، ولا ندري ماهي العبرة أو الذكرى في هـذا القصص القبيح ، سيما وانه يشير الى شيء غير حقيقي ، وهـو تزوج الأخ بأخته من أبيه ، فانه حرام على كل حال ، كما قـال في التوراة (عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها) (لا ١٨ ٦) وقال (وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ، ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار ، يقطعان أمام أعين بني شعبهما ، قد كشف عورة أخته يحمل ذنبه) (لا ٢٠ ١٧) ، والقرآن الكريم يقول ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أُمهاتُكم وبناتُكم وأخواتُكم ﴾ (٤ ٢٢).

التوراة تنسب الشرك لسليمان وانه تزوج بالوثنيات حاشاه

(٢) ـ قـال في التوراة (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميّـات وصيدونيّات وحثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون اليهم ولا يدخلون اليكم ، لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، ـ فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمـائة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب آلهه كقلب داود أبيـــه ، فذهب سليمان وراء « عشتورث » إلـهة الصيدونيين ، و « ملكوم » رجس العمّونيين وعمل سليمان الشر في عين الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة « لكموش » رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ، و « لمولك » رجس بني عمّون ، وهكذا فعـل لجميع نسائه

الغريبات اللواتي كن يوقدنَ ويذبحنَ لآلهتهن " ، فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب ، فقال الرب لسليمان من اجل ان ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك ، إلا إني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها ، على اني لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطي سبطاً واحداً لابنك ، لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها) (٢ مل ١١ ١ ـ ١٣) وفي هذا القول ما فيه من تزوج سليمان بالوثنيات ، مع إن ذلك محرم عليه في شريعته كما هو محرم في شريعتنا ، وفيه إمالتهن قلبه للشرك ، وإنه زاغ عن عبادة الله وحده الى عبادة الأوثان التي هي الآلهة الأربعة المذكورة ، وهي من آلهة الوثنيين ، وفيه مجازاة الله له على ذلك بتمزيق الملك عنه ، لكن ليس في زمنه ، بل في زمن ابنه « رحبعام » ، فالجرم صدر من شخص ، والعقاب انصب على رأس شخص آخر ، وكل هذا من أقبح القصص ، ولكن كتاب الله تعالى يقص علينا أحسن القصص في شأن سليمان ، قال تعالى ﴿ وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كَفَروا ﴾ (٢ ١٠٢) ، وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داودَ وسليمانَ عِلْماً ، وقالا الحمدُ لله الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنين ، ووَرِثَ سليمانُ داودَ وقال يا أيها الناسُ ، عُلِّمنا منطقَ الطيرِ وأُوتينا من كلِ شيءٍ ، إنَّ هذا لَهُوَ الفضلُ المبينُ (٢٧ ١٥و١٦) وذكر في القرآن الكريم في قصة سليمان مع ملكة سبأ انها كانت وثنية من عبّاد الشمس وإن سليمان لذلك أرسل إليها يدعوها للتوحيد ، وانها تزلفت إليه بالهدايا المادية وهو لم يقنع بذلك ، لأنه لا يريد الاديات ، بل هو داع روحاني لا يرضى منها سوى الإِسلام ، وإنها أخيراً أسلمت ، (انظر سورة النمل ٢٧ ٢٣ ـ ٤٥)

وذكر في سورة الأنعام (ع ٨٤) إنه كان من المحسنين ، وقال تعالى ﴿ ووهبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ إنه أوّابٌ ﴾ (٣٨ ٣٠) ثم قال ﴿ وإنّ له عندنا لزلفَى وحُسْنَ مآبٍ ﴾ (٣٨ ٤٠) ، فهذا من بعض وجوه وسكات قول الله جلّ جلاله (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليه هذا القرآن)

التوراة تنسب لبعض الانبياء الكذب في البلاغ

(٣) ــ ذكر في التوراه ان نبياً من أنبياء يهودا امره الرب ان يسافر الى يربعام ملك إسرائيل لإنذاره وتخويفه بسبب شركه ، وأمر الرب أمر ذلك النبي أن يرجع بعد إبلاغ رسالته ، وان لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماء داخل حدود مملكة إسرائيل ، وأنه جاءه نبي آخر فقال له سر معي الى البيت ، وكلْ خبزاً ــ فقال لا أقدر ان ارجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزاً ، ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لي بكلام الرب لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء ــ فقال له أنا أيضاً نبي مثلك ، وقد كلمني ملاك بكلام الرب قائلاً ارجع به إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماءً ، ــ كذب عليه فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب ماء (امل ١٣ ١ ــ ١٩) ، وذكر في التوراة (ان ملك إسرائيل جمع نحو أربعمائة نبي قد أخبروه بالكذب بسبب أن الرب قال مَن يغوي آخاب ؟ خرج الروح ووقف أمام الرب وقال انا أغويه ! ــ فقال له الرب بماذا ؟ ــ قال أخرجُ وأكون روح كذب في أفواه جميع انبيائه ! ــ فقال إنك تغويه وتقدر ، فأخرج وافعل هكذا ، والآن هو ذا قد جعل الرب روحَ كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء !) (امل ٢٢ ٦ ــ ٢٣) ، وردد في التوراه أيضاً هكذا (صار في الارض دهش وقشعريره ، الأنبياء يتنبأون بالكذب ،والكهنة

تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب ، وماذا تعملون في آخرتها ؟) (أره ٠ ٣٠ و ٣١) وفي سفر إرميا أيضاً قال (فقال إرميا النبي لحَنَنْيا النبي ـ اسمع يا حننيا إن الرب لم يرسلك ـ أي في خصوص هذه المسألة وإلا فهو عندهم نبي ورسول ـ وأنت قد جعلت هذا الشعب تتكل على الكذب ، لذلك هكذا قال الرب ها أنذا طاردك عن وجه الأرض ، هذه السنة تموت ، لأنك تكلمتَ بعصيان على الرب ، فمات حَنَنيا النبي في تلك السنة) (أر ٢٨ ١٥ ـ ١٧) واقرأ الاصحاح المذكور جميعه تتضح لك الحقيقة تمام الوضوح وتعلم منها أن حننيا النبي كذب في البلاغ عن الله فالتوراة التي بين أيدي اليهود تجوز الكذب من الأنبياء جوازاً ووقوعاً حتى في البلاغ ، ولكن القرآن الكريم يقول عن الوحي ﴿ قولُه الحقُ ﴾ (٦ ٧٣) ، ويقول ﴿ ما نُنَزّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ ﴾ (١٥ ٨) ويقول ﴿ قل إنّ رَبي يَقذِفُ بالحقِ ﴾ (٣٤ ٤٨) ويقول ﴿ هذا ما وعَدَ الرحمنُ وصَدقَ المُرسَلون ﴾ (٣٦ ٥٢) ويقول ﴿ إنما يَفتَري الكَذِبَ الذين لا يُؤمنون ﴾ (١٦ ١٠٥) ويقول ﴿ ما كان حديثاً يُفترَى ﴾ (١٢ ١١١) ويقول ﴿ إنّ الذين يَفترون على الله الكذبَ لا يُفلحون ، متاعٌ قليلٌ ، ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ (١٦ ١١٦ و ١١٧) فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾

التوراة تثبت ان الوحي ينزل بسبب آلات الطرب

(٤) ـ قال في التوراة (وأفرَزَ داودُ ورؤساءُ الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج) (أأي ٢٥ ١) وفيه ان الأنبياء كانوا يتنبؤن بضربهم على آلات الطرب ، وفي التوراة أيضاً « والآن فأتوني بعوّاد » ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب ، فقال هكذا قال

الرب احملوا هذا الوادي حباباً حباباً الخ ما في (٢ مل ٣ ١٥ و ١٦ ، صرّح في التوراه إن هذا الكلام قاله النبي اليشع عليه السلام حينما رغب اليه « يهورام »ملك اسرائيل واستشاره في محاربة ملك موآب » وطلب منه أن يخبره بحسب الوحي ، وهذا من أقبح القصص ، لأنه تُعلم القُراءَ استعمال الآلات المطربة ، والألحان الموسيقية وقت العبادات وتصرح بأن الضرب على العود يسبب نزول وحي الله من السماء على أنبيائه ، والحال إن الأنبياء عند نزول الوحي عليهم يتجردون عن الدنيا وأسبابها ، وعن كل المـــاديات الأرضية ، وتنحصر قواهم وحواسهم في السماء ، ويغيبون عن كل شيء عدا العالم السماوي ، كما ورد في كيفية نزول الوحي الشريف على نبينا (ص) ، فالحمد لله إذ لم نكن من « الذين اتخذُوا دينَهم لَهْواً ولَعِباً » (٧ ٥٠) والحمد لله الذي قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾

التوراة تثبت لله التعب

(٥) ــ قـال في سفر التكوين عن الله (فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (تك ٢ ٢) وقال في سفر الخروج (وفي اليوم السابع استراح وتنفس) (خر ٣١ ١٧) ، فالاستراحة لا تكون إلا بعد تعب ، والله تعـالى منزه عن ذلك ، ولذلك تقـول القرآن الكريم ﴿ ولقد خلَقنـــا السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيامٍ ، وما مَسّنا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ (٥٠ ٣٨)واللغوب الإعياء والتعب ، فسبحان من قال ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾

التوراة تثبت حياة أحوح

(٦) ـ قال في سفر التكوين (وسار أحوح مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه (تك ٥ ٢٤) قالوا نقله حياً الى السماء لكيلا يرى الموت ، ولكن القرآن يقول ﴿ كلُّ مَن عليها فانٍ ويَبقَى وجهُ رَبِّك ذُوا الجلالِ والإكرامِ ﴾ (٥٥ ٢٥ و ٢٦) وبناء على هذا التفسير يتوجه الاعتراض على التوراة

التوراة تعلل القصاص بالموت

(٧) ـ قال في سفر التكوين (سافِكُ دم الإنسان يُسفَك دمُهُ ، لأن الله على صورته عمل الإنسان) تك ٩ ٦) ولكنه في القرآن علل القصاص بحفظ الحياة قال تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ (٢ ١٧٩) وغير خاف أن العلة المذكورة في القرآن أحسن من العلة المذكورة في التوراة فسبحان من قص علينا أحسن القصص بما اوحى إلينا هذا القرآن

التوراة تثبت أن الأصل في الإنسان الشر

(٨) ـ قال في سفر التكوين (لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته) (تك ٨ ٢١) فالتوراة تعلمنا إن الأصل في الإنسان الشر ، وليس الأمر هكذا عند علماء الطبيعة ، بل قالوا الأصل في الإنسان الخير بدليل احوال الأولاد الأطفال ، وعليه قوله تعالى ﴿ فأقِم وجهَكَ للدينِ حنيفاً ، فِطرة اللهِ التي فطَرَ الناس عليها ، لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ، ذلك الدينُ القَيِّمُ ، ولكن أكثرَ

الناس لا يعلمون ﴾ (٣٠ ـ ٣٠) فقلب الإنسان خير منذ حداثته ، ولكن أهل الشر يعلمونه الشر تدريجاً ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

غلط التوراة في التاريخ

(٩) ـ قال في سفر التكوين (فقال لإبرام أعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُستَعْبَدون لهم ، فيذلونهم أربعمئة سنة ثم الأمـــة التي يُستَعْبَدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة) (تك ١٥ ١٣و١٤) وقال في سفر الخروج (وأما إقامة بني إسرائيل التي اقاموهـا في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة) (خر ١٢ ٤٠) وظاهر أن العبادتين متناقضتان ، على أن كلا منهما ليس بصحيح ، والذي صححه علماء التاريخ حتى النصارى أن مدة غربتهم بمصر إنما كانت (٢١٥) سنة فقط (انظر قطف الزهور ليوحنا أبكاريوس)

تكرار ذكر حوادث الزنا في التوراة

(١٠) ـ قال في سفر التكوين (وخرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض ، فرآها شكيم ابن حمّور الحوّي رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها واذلها) (تك ٣٤ ١و٢) قال في السنن القويم جاء في التقاليد اليهودية إن « دينة » المذكورة حملت من شكيم المذكور فولدت ابنا اسمه «شاؤل» وقال أيضاً (وحَدَثَ إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض ان رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية ابيه وسمع اسرائيل) (تك ٣٥ ٢٢) فما هي الفائدة يا ترى من ذكر التوراة زنا شكيم ببنت يعقوب ؟ وما الفائدة من ذكر أن رأوبين زنا بامرأة أبيه وأم أخويه دان ونفتالي ، بل من ثمرة لذلك سوى فضيحة دينة

وبلهة ، لأن الإكراه الحقيقي على الفعل الشنيع لا يتصور أبداً ، إذ يمكن كلا منها أن تدافع عن نفسها ، وذكر الزنا بها يرمي إلى أن لهما إرادة فيه ، ويا لها من فضيحة !!! خصوصاً إذا تصورنا إن « دنة » ست نبي ، وبلهة زوجة نبي ، فلا حول ولا قوة إلا بالله

التوراة تقول بحراء خارج عن المعقول

(١١) قال في سفر اللاويين (وأخذ ابنا هرون « ناداب » و « أبيهو » كل منهما مجمرته ، وجعلا فيهما ناراً ، ووضعا عليها بخوراً وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها ، فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما ، فماتا أمام الرب ، فقال موسى لهرون ، هذا ما تكلم به الرب قائلاً في القريبين مني أتقدس ، وأمام جميع الشعب أتمجد ، فصمت هرون) (لا ١٠ ١ ـ ٣) فيه إن الله قتل بالنار ولدي هرون الأكبرين ، وكل ذنبهما أنهما وضعا البخور على نار غريبة غير نار المذبح ، فعند ذلك سقطت السماء على الأرض ، وأحاط بها أشد عقاب الله ، وذلك لكي يطهر الله مجده بعقاب أوليائه ، ولعمري إن هذا الحكم لا يصدر عن أظلم الحكام الظالمين ، الذين فقدوا الحكمة والعدالة ، حتى لا يمكن صدوره عن الحجاج ولا عن هيرودس ولا عن نيرون وأمثالهم من الملوك الظلمة

التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة

(١٢) ـ قال في سفر اللاويين (وكلم الرب موسى قائلاً أوص بني إسرائيل أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقياً ، للضوء لإيقاد السرج دائماً ، خارج

حجاب الشهادة في خيمة الاجتماع يرتبها هرون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائماً، فريضة دهرية في أجيالكم) (لا ٢٤ . ١ - ٣) ، فيه إن الله يأمر بإيقاد السرج كل ليلة من أول الليل لآخره بين القدس وقدس الأقداس من غير أن ينتفع به أحد من الناس ، ولا ريب أن هذا من أقبح القصص ، لأنه تضييع مال بلا فائدة . وهو أصل البدعة السائغة اليوم في مثل سورية ومصر من شعل الشموع أو الزيت في أضرحة الصالحين فهذه البدعة القبيحة سرت لجهلة المسلمين من مثل هكذا عبارات رائقة ،

أخيراً هذا ما وعدت بيانه وكل ما ذكرته أنا وغيري هو في الحقيقة نغبة[1] من دأماء ومن أراد أن يطلع على الفضائح الغريبة فليرجع إلى أسفار العهد العتيق والسلام عليكم ورحمة الله

(أحسن القصص)

- ٣ -

قال تقي الدين المقدسي

مميزات قصة يوسف عن القصص الأخرى

لم تجمع قصة موسى وفرعون ، ولا قصة موسى وهرون ، ولا قصة هود وعاد، وصالح وثمود ، وإبراهيم مع الكلدانيين والفلسطينيين ، ولوط مع أهالي سدوم وعمورة ، وشعيب مع مدين ، وداود مع شاؤل حميه ثم مع أولاده ، وسليمان مع

(١) نغبة حسوة طائر ، دأماء بحر

معاصريه من الملوك ، ويونس وأهالي نينوى ، ويحيى والمسيح مع اليهود ، ولا قصة أصحاب الكهف ، ولا قصة ذي القرنين ـ كورش ملك ليديا وفارس ـ وسطوته ـ لم تجمع هذه الأقاصيص من العظات والعجائب ما جمعته قصة يوسف ، ولم تتضمن قصة من القصص من المكي والمدني،والمدهشات والمعشات والتطورات والانقلابات ونصب الأحابيل والحب والعفة ، والاسترقاق والملك ، والذل والعز ، والتلاقي والفراق ، والرحلات والانتصارات ، والشدة والعسرة ، والمقدمات والنتائج،والصبر والفرح ، والحكم والعبر ، والفوائد النافعة في الدين والدنيا ، كسير الملوك والممالك وحسن السياسة ، وتدبير الممالك وإقامة العدل ونظام الدولة ، ومكر النساء وتمثيل طبائعهن ، والاصطبار على الأذى ، والعفو عن المجرمين

نعم لم تتضمن هذه الأمور قصة كمثل ما تضمنته قصة يوسف ، وأكبر شاهد على ما نقول أنك ترى القراء يقرؤونها والسامعين يسمعونها باندفاع وشوق ولذة، في المساجد والتكايا والأسواق ، والنوادي والطرقات ، حتى أن بعض الناس نظموها شعراً وصاروا ينشدونه في الطرقات ، وكثير رتبوها « روايه » وصاروا يمثلونها في مسارح التمثيل

(أوحينا)

– ١ –

قال الإمام القفيلي [١]

الوحي الاصطلاحي

بن إعلام الله أنبياءه المختارين ، وهو الوحي الاصطلاحي المختص بهم في عرف

(١) ـ ... [illegible]

الشرع ، فهو معنى تضييق العبارة العلمية عن تحديد كنهه ، وغاية ما يمكن الإنسان، هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الأنبياء أنفسهم مما نزل على ألسنتهم ، ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني

(أوحينا)

- ٢ -

وقال الشيخ ميساني (١) -

الفرق بين الوحي والالهام

وحي الله إلى انبيائه هو ما يلقيه إليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون اعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالمَلَك ، أو بغير واسطه ، ونفرق بينه وبين الإلهام، بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يُطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور

(أوحينا)

- ٣ -

وقال المدقق اللذي (٢)

الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني

الوحي نوع من انواع الكلام الذي لا نعلم معناه على التفصيل إلا هو سبحانه

(١) نسبه إلى بلده نابلس من فلسطين
(٢) نسبه الى بلده اللد في فلسطين

و بعالى ، فقد كان النشر مند البدء لا يعلمون من طرق التعبير عن الكلام النفسي سوى النطق باللسان ، ثم لمـــا قُدّ ر أن حرس بعض الناس صاروا يعبرون عن كلامهم النفسي بالإشارات اليدوية مع استعانتها بالحاجب والعين والشفة ، ثم تعـــلم الناس طريقاً ثالثاً للتعبير عما في النفس وهو الكتابة بالقلم ، ثم بالبرق (التلغراف) ثم بالحاكي (الفونوغراف) ثم بالهاتف (التلفون) ثم بالراديو فهذه سبعة طرق بها يقدر الإنسان أن يعبر عما يختلج في ضميره من المعاني وكلها طرق معروفة ، ولكن طريقة كلام الوحي هي من باب الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى

(هذا القرآن)

– ١ –

وتابع المدقق اللذي كلامه قائلاً

سبب احياء القرآن

لقد أوحى الله الى نبيه (ص) هذا القرآن لمـا فيه من الحث على مـــكارم الأخلاق ، من إقامة العدل ، والحث على التعاون ، والأمر بالاتحاد ، والدعوة الى أمهـــات الفضائل ، كالصدق وعـلو الهمة ، وترك الكذب والغش والتدليس ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي والأمر بالإحسان الى الفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل ، والأمر ببر الوالدين ، وإيتاء ذي القربى حقه ، وإكرام الجـــار والضيف ، الى غير ذلك مما لا تتم الإنسانية بدونه ، كذلك ما فيه من الدعوة الى تكوين أمة قوية مهيأة للسيادة على الأرض بعيشة عامـة اقتصادية وحربية وعقلية ، كذلك ما فيه من التشريع الحكم الذي روعيت فيه مصالح الشعب وكان موجهاً الى إقامة العدل وتقرير المساواة وتطهير المجتمع من الرذائل

(لمن القائلين)

- ١ -

وقال الوحيد النُّوَيري (١)

محمد ﷺ في طفولته وشبابه

كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم شيئاً من الكتب قط ، ولم يعن في طفولته ولا في شبابه ، بشيء مما كان يسمى علماً عند الأميين ، كالشعر والنسب وأيام العرب ، ولم يترب على يد عالم ولا حكيم ولا سياسي ، وكان وهـو في سن التعليم وتكوين الأخلاق والملكات ـ يرعى الغنم نهاراً ، وينام من أول الليل ، فلا يحضر سمّار قومه ، وهي مواضع السمر في الليـل ، ولا يجتمع بهم في معاهد لهوهم ، واتجر قليلاً في شبابه ، مع قومه من أبناء الجاهلية وأترابه ، فهو لم يصادف من التربية المنزلية والأدب الاجتماعي في أول نشأته ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته ، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية ولكنه مع ذلك قام بهذه التربية أكمل قيام

وأتى من علم الحقوق والجزاء والتاريخ ما يعجز عن مثله أكبر رجل دارس في الجامعات العالية ، فكان هـذا حجة كبرى على صحة نبوته ، وبرهاناً عظيماً على عناية الله به ، وتأييده إياه بوحيه ، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَـذَا ﴾ (١١ ٤٩) ، ومن العجب أنه يوجد في هـذا العصر ، عصر النور والأفكار الحرة المطلقة ، من لا يفكر في إتيان الأمي الناشيء بين الأميين بخلاصة أخبـار أشهر الرسل مع أهليهم وأقوامهم

(١) نسبه الى بلده نوير من اعمال فلسطين

رجل أمّي يتيم فقير في بيئة ممحلة ، وفي وسط جاهل ، لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ ، بل كان من « الغافلين » في غير عقيدته ، ومع كل ذلك أتى من العلوم مالم يأته قبله نبيّ ولا حكيم

كفاك بالعلم في الأمّي معجزة في الجاهلية والتأدب في اليتم

(لمن الغافلين)

– ٢ –

قال الشهاب الرملي [١]

القرآن معلم النبي (ﷺ)

لأن الإنسان أي إنسان كان لا يعلم ما لم يعلم ، قال تعالى ﴿ وكذلكَ أوحينا إليكَ رُوحاً مِن أمرِنا ، ما كنتَ تَدرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناهُ نوراً نَهْدي به مَن نَشا مِن عبادِنا ، وإنك لَتَهْدي الى صِراط مُستقيمٍ ﴾ (٤٢ ٥٢) وقال تعالى ﴿ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ ، وعلَّمكَ ما لم تكن تَعْلَمُ ، وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً ﴾ (٤ ١١٢) وقال تعالى ﴿ ووَجَدَكَ ضالاً فَهَدَى ﴾ (٩٣ ٧) ، هذه نصوص القرآن الكريم ، وهي ظاهرة المعنى ، فلا تعلو عليها شيء ، سوى أن نقول كلمة واحدة تبارك الله ، والله لو كان هذا القرآن من عند (محمد) لما وردت فيه هذه الآيات الكريمة (انظر تفسير آية ١٠٩)

---

(١) نسبة الى الرملة من اعمال فلسطين

(لمن الغافلين)

— ٣ —

وقال الاديب الغالوحي(1)

غفلة النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به

الغفلة قسمان ، غفلة يذم بها الانسان ، وهى فيما إذا كان قد بُلِّغَ شيئاً وعُلِّمَهُ ثم غفل عنه ، وغفلة يعذر بها الانسان ، وليست مذمومة قط ، وهي فيما إذا غفل عن شيء لم يُبَلَّغْهُ ولم يُعَلَّمْهُ ، فقوله هنا ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، لا يقصد منه الذم والعتاب ، ولكن يقصد منه بيان الواقع ، لأن الغفلة هنا قريبة من معنى الجهل الذى هو ضد العلم ، قال تعالى في الفقراء المتعففين ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجاهلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (٢ ٢٧٣) فوصف الجهل هنا ليس فيه ذم ، لأنه بوصف لبيان الواقع ، هذا وان عدم علمه ﷺ بالكتابة كان من أركان آياته ، وعدم علمه بالشعر من ادلة الوحي وبيناته ، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الالٰهي لا تكون غفلة الرسول عنه قبل نزوله عليه عيباً يذم به إذ لا يذم الانسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه ، وقد امر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم ، وكان يزيده كل يوم علماً وكمالاً ، بتنزيل القرآن وتفهيمه ، وغير ذلك من العلم والحكمة ، وهذا لا يقتضى الذم قبل هذه الزيادة ، هذا ما ظهر لي هنا ، والسلام عليكم ورحمة الله

(1) نسبة الى الغالوحة من بلاد فلسطين

الفصل الثالث

بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة

آ(٤) ﴿ إِذْ قَالَ يوسُفُ لِأَبِيهِ « يا أَبَتِ ، إِنِّي رأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كوكَباً والشمسَ والقمرَ » ـ رأَيتُهُم لي ساجِدِينَ (١) » ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة ، فقام أبو الفضل الخانوتي(١) وقال

من هذه الآية بدأ الأمر المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف ، كما بين ذلك أخونا الامام الغوي الفضيلي حينما تكلم عن الآيه الأولى ، وبانتهاء الآية المتممة مئة وواحد ينتهي هذا المقصود

وأما بيان مجمل تفسير الآية التي نحن بصددها فهو

(إذ قال يوسف) الابن الحادي عشر من ابنـــاء يعقوب ، الذي رزقه من زوجه « راحيل » في العراق ، (لأبيه) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بلسان الإخبار او بلسان الاستفهام عن المآل ، (ياأبت ، إني رأيت) في منـامي (أحد عشر كوكباً) نجماً وهي إخوته (والشمس) أبوه (والقمر) مربيته بلهة ، لأن أمه راحـيل كانت قد ماتت (رأيتهم لي ساجدين) خاضعين ، ويحتمل أن أباه لم يأول له هذه الرؤيا ، لأن يوسف نعامه من قبل ، وإنمـا قصها عليه ليخبره ويسره

---

(١) نسبة الى نبت خانوت بـ فلسطين

بذلك ، والأقرب أنه أولها له ، ولكن القرآن الكريم حذف ذلك اختصاراً
منذ شرع الناس يؤولون الأحلام ، عرفوا أن في الحلم رموزاً ، ومنذ شرع الإنسان يؤلف اللغات اعتمد على الرموز في تأليف الالفاظ ، فعرف المجاز والاستعارة ، وهما من الرموز ، وهما قوام اللغات كلها ، فلذلك فإنه يمكننا أن نفسر الرموز التي نجدها في الاحلام برموز اللغات ، أي بمجازاتها واستعاراتها ، ولذلك فسرنا الشمس بعقوب ، والقمر بلبهة ، والكواكب بإخوته الأحد عشر

(يا أبَتِ)

- ١ -

قال العلامة الصعدي (١)

استعطاف الأبوة والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم لأبيه

كأن هذه الكلمة ﴿ يا أبَتِ ﴾ من الابن الى الأب استعطاف واسترحام ، وتذكير بالأبوة وواجباتها ، نحو الشفقة والعناية بالأبناء وما بين الابن والأب من الحقوق التي تجب مراعاتها ، والقيام على الوفاء بها من الطرفين ، ونظيره قول جد يوسف الأعلى وهو سيدنا إبراهيم لأبيه ﴿ إذ قالَ لأبيه يا أبَتِ ، إنّي قد جاءَني مِنَ العِلْمِ مالم يأتكَ ، فاتَّبِعْني أهدِكَ صِراطاً سوياً ، يا أبَتِ لا تَعبُدِ الشيطانَ ، إنّ الشيطانَ كان للرحمن عَصيّاً ، يا أبَتِ ، إنّي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ من الرحمن ، فتكونَ للشيطان ولياً ﴾ (١٩ ٤٢-٤٥) ،

(١) نسبة الى صفد من بلاد فلسطين

ولكن يوجد فروق كثيرة بين الخطابين ، فالخطاب الأول ، وهو خطاب يوسف لأبيه ، خطاب متعلم لمعلم ، بخلاف الخطاب الثاني ، وهو خطاب إبراهيم لأبيه ، فهو بالعكس خطاب معلّم لمتعلم

ثانياً — الخطاب الأول خطاب مؤمنٍ لمؤمنٍ ، بخلاف الخطاب الثاني فمن مؤمن لكافر

ثالثاً — الخطاب الأول كان بين المتخاطبين وهما في فلسطين ، بخلاف الخطاب الثاني ، فإنه كان بين المخاطبين وهما في الكلدان (العراق)

رابعاً — الخطاب الأول كان من قبيل أخذ الرأي ، بخلاف الخطاب الثاني فكان من قبيل إعطاء الرأي

خامساً — مضمون الخطاب الأول كان مما يرفع الرأس ويوجب الفخار بخلاف مضمون الخطاب الثاني ، فكان مما ينكس الرأس ويوجب الخجل بالنسبة للمخاطب

سادساً — الخطاب الأول كان من باب التحلية ، بخلاف الخطاب الثاني كان من نوع التخلية

(يا أنت)

— ٢ —

وقال السيد جميل الناصري (١)

إعراب يا أ

لي هنا كلمة موجزة في إعراب (يا أنت) فأقول (أنتَ) منادى مضاف

(١) نسبة الى الناصرة — اعمال فلسطين

منصوب بالفتحة الظاهرة على الباء الموحدة ، وأبَ مضاف والتاء (التي هي تاء التأنيث ، والتي هي عوض عن ياء المتكلم) مضاف إليه ، مبني على الكسر في محل جر بالإضافة ، ولكون المنادى ههنا مضافاً لياء المتكلم أي للتاء التي هي نائبة عنها ، أُعربَ بالحركات ، ولم يُعربْ بالحروف ، إذ شرط إعراب الأسماء الخمسة بالحروف أن تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم

(يا أنت)

– ٣ –

قال الامام الدمشقي القيموري (١)

أدب الخطاب

هذه صورة خطاب يوسف لوالده ، وسيأتي لإخوته أن يقولوا ﴿ يا أبانا ما لَكَ لا تأمَنّا على يوسفَ ﴾ ، وسيأتي قول يوسف لرئيس السقاه والخباز ﴿ يا صاحبَيِ السجن ﴾ وقول الملك الريان ﴿ يا أيها الملأ ، أفتوني في رُؤيايَ ﴾ وقول رئيس السقاه ﴿ يوسف أيها الصِّدِّيقُ ﴾ ، وقول إخوة يوسف ﴿ يا أيها العزيزُ إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهلَنا الضُرُّ ﴾ وقول يعقوب لأولاده التسعة ﴿ يا بَنيَّ اذهبوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه ﴾ ولا يخفى ما في كل هذه النداآت من التشريف والتكريم المنادى ، وتعليم الأدب للقارئين ، ولذلك لم يرد في القرآن المجيد نداء النبي ﷺ باسمه فحسب ، ولكن بصيغة ﴿ يا أيها الرسولُ ﴾ ، ﴿ يا أيها النبيُ ﴾ ، وشريعة

١) نسبه الى حي القيمرية في دمشق (سوريه)

الأدب هذه عند الخطاب نتعلمها من هـذه السورة كسائر القرآن المجيد ، علـمّنا الله إياها بالعمل وبالأمثلة ، كما علـّمنا إياها بالقول في آية ﴿لا تجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاءِ بَعْضِكُم بعضاً﴾ (٢٤ ٦٣) على قول ، ولذلك حرموا نداء النبي ﷺ باسمه إلا إذا اقترن بكلمـة تعظيم كـَ (يا محمد النبي) أو (يا محمد المختار) ومثله ﴿ يوسفُ أيها الصِّدِّيق ﴾ فيجوز حينئذ

(رأيت)

- ١ -

وقال العلامة الدمشقي الميداني (١)

يوسف في رؤياه

نامت الطبيعة في خدر الليل الحريري ، لا حركة ولا نَأْمَة ، وأرسل الله نعمـة السبات على عباده ، وأراحهم من مشقات النهار ونصبه ، وكان يوسف مضطجعاً بين طيات الظلام وثنايا العتمة، فحكم عليه سلطان الكرى ، وبدأ يستولي على رأسه ، فنام بملء جفونه ، وأطلق لجسمه العنان في الرقاد ، غير أن قلبه كان في يقظة ، رغم نوم جميع جوارحـه وحواسه ، وما هي إلا برهة هادئة ، وإذا بكواكب أحد عشر تنزل من علوها ، ومعها النيران العظيمان ، الشمس والقمر ، واصطفت أمامه بانتظام ، سمع صوتاً عظيما يقصف كالرعد قائلاً (لتسجد هـذه الكواكب السماوية ليوسف ، وتخر لوجوهها أمامـه بخشوع واحترام) فخشت

---

(١) نسبة الى حي الميدان في دمشق (سورية)

وخرت ساجدة أمامه ، وأدهشته هذا المطر الرهيب ، وبعته وهاله ، وهاله جداً ، ثم فتح عينيه فإذا هو مصطجع في مرقده ، وقد بدأت خيوط الليل تقشع عن عن وجه الصباح ، فهزّ جسده وقال (إنه لحلم عجيب)

(رأيتُ)

- ٢ -

وقال الأستاذ العكّاري [١]

يوسف يقص رؤياه على أبيه

شاءت العناية الإلهية أن تستدىء يوسف بالمبشرات التي تبين مجمل حاله ، وتكشف عن مستقبله ، فرأى وهو وليد ، لم يبلغ السادسة عشر من عمره ـ رأى ذات ليلة من الليالي رؤيا غريبة التوى عليه تأويلها ، فقام وانتجع أباه ، فدخل عليه في خيمته صباحاً ، وقد كان له عليه دالة ، ووقف قبالة أبيه بكل أدب وتعظيم فقال له أبوه (مَهْيَمْ ؟)ـ فقال (ألا أعرِضْ على مسمعك ما رأيته الليلة في نومي؟)ـ قال (هات) ؛ـ قال (يا أبتاه ، حقاً وصدقاً لقد رأيت الليلة فيما يرى النائم، رؤيا هالتني جداً وهي من الغرابة بمكان ، رأيت أحد عشر نجماً سماوياً والشمس والقمر ، خرت من عليائها واصطفت وسجدت أمامي ، معفرة وجوهها بين يدي، فما رأيك وما هو قولك ؟)ـ فدهش يعقوب لهذا المنام ، وكان مما أدهشته نوع

(١) نسبة الى عكار من بلاد الشام (لبنان)

خاص ، سجود الشمس والقمر لولده ، وعلم أن هذا المنام ذو بال ، فقال له أبوه (كل المنى دون هذا يا ولدي)وصار وكأن لسان حاله يردد في نفسه هذين البيتين

وكم للنجم قد سجدت أناسٌ
لما قد شمته حسناً ونورا
ولكن فلذة الكبد المفدّى
بحوله الكواكب ساجدينا[1]

دهش يعقوب جداً لهذه الرؤيا وصار يقول في نفسه (فهما ، أن الأحد عشر كوكباً هي إخوة يوسف الأحد عشر ، ولكن هل تأتي إخوته لسجدله إلى الأرض ؟ ولئن سلمنا ذلك فهل يأتي ابوه وأمه أيضاً ليسجدا له أو على الأقل ليحضرا هذا المشهد ، مشهد السجود ؟ لا مانع ، إن الله على كل شيء قدير)

وهنا صفق أعضاء المؤتمر كثيراً وقالوا بأعلى صوتهم « انتعش أيها الأستاذ »

(رأيتُ)

- ٣ -

وقال الحاج سعدي العكي

الرؤيا والشرع

من الواضح الذي نستحي أن نعزوه إلى كتاب ، أو نقيم عليه شاهداً ، أن

الرؤى المامية معتبرة شرعاً ومسطورة في كثير من الكتب السماوية ، بل معتبرة فناً أيضاً ، فان علماء الطبيعة ، وعلماء النفس ، أثبتوها ، قال تعالى ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (١٧ ٦٠) وقال تعالى ﴿ فلمّا بلغ معه السّعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ ـ قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، ـ فلمّا أسلما وتله للجبين ـ إلى أن يقول ـ وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدّقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين . إنّ هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٣٧ ١٠٢-١١٧) وقال تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام « إن شاء الله آمنين ، محلّقين رؤوسكم ومقصّرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٤٨ ٢٦) ، وروى البخاري ومسلم عن أبي قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول (الرؤيا الصالحة من الله ، والرؤيا السوء من الشيطان ، فاذا رأى أحدكم ما يحب ، فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى أحدكم ما يكره ، فليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها ، فانها لن تضره) ، وعن أبي رزين العقيلي قال قال رسول الله ﷺ (رؤيا المؤمن جزء من أربعين ، ـ وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، قال وأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً) ، أخرجه الترمذي ، لأبي داود نحوه ووجه كونها جزءاً من ستة واربعين جزءاً من النبوة ـ أنه (صلى الله عليه وسلم) بقي حسبما أشارت عائشة (رضي الله عنها) ستة أشهر يرى الوحي مناما ، ثم جاءه الملك يقظة ، وستة أشهر بالنسبة الى ثلاث وعشرين سنة جزء من ست وأربعين جزءاً ، ولا تنس أن كون الرؤيا الصادقة جزءاً مما ذكر إنما هو باعتبار صدقها لا غير ، وإلا لساغ لصاحبها ،

أن يسمى نبياً ، وليس كذلك ، هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني رحمه الله ، وعليه فلا تكون الرؤيا مبدأ للنبوة ، ولكن تعد من مقدماتها ، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة ، أي قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظة ، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل فهي وحي صريح كما تعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح ، والخلاصة أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي ، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير ، تعد من نوع المبشرات لا من قبيل الوحي ، قال تعالى ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون ، الذينَ آمنوا وكانوا يتَّقون ، لهم البُشْرَى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ، لا تَبديلَ لكلماتِ اللهِ ، ذلك الفوزُ العظيم ﴾ (١٠ ٦٢ - ٦٤)وقد ورد في الحديث ان البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له

(رأيتُ)

- ٤ -

وقال بدر الدين الحيفاوي[1] لي هاهنا ثلاث كلمات

رؤيا الانبياء ورؤيا الناس

الكلمة الأولى - إن الرؤيا المنامية معتبرة ، خصوصاً إذا كانت للأنبياء ، لأنها لهم وحي إذا كان بعد النبوة ، أو إرهاص إذا كانت قبلها ، وهنا ربما

(١) نسبة الى حيفا من اعمال فلسطين

ستقدنا بعضهم بأن قوله تعالى ﴿ وإذْ يريكَهُمُ اللهُ في منامِكَ قليلا ، ولو أراكَهُمْ كثيراً لفَشِلْتُم ﴾ (٨ ٤٤) يفيد أن الرؤيا المنامية للأنبياء قد تكون غير موافقة للواقع لبعض الأسباب اللازمة ، كما ترى من هذه الآية ، فإن المشركين في بدر كانوا كثيرين ، وقد أراهم الله لنبيه (ﷺ) في منامه قليلين ، فأخبر بذلك أصحابه ، فاعتقدوه كذلك ، ولكن بعد اللقاء في الهيجاء رآهم النبي وأصحابه كثيرين ، أي ألفاً ، وكان المسلمون (٣١٣) نفراً ، فكيف مع هذا يقال إن الرؤيا حق ، وإن رؤيا الأنبياء وحي صادق موافق للواقع ؟

وجوابنا عن هذا السؤال ، أن الله تعالى قد يوحي إلى أنبيائه ورسله في المنام ما هو في حُلَل المجازات والاستعارات والتمثيلات ، ونظائره كثيرة ، وشواهده متوفرة ، منها ما جاء في حديث أنس قال ، قال رسول الله (ﷺ) « رأيت ذات ليلة فيما يراه النائم كأنا في دار عُقبة بن رافع ، فأُتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت أن الرفعة لنا في الدنيا ، والعاقبة في الآخرة ، وأن ديننا قد طاب » ، وعليه فالقلة هنا مجاز عن ضعف المعنويات ، أي قلة الكم مجاز عن قلة الكيف ، كما يرى الإنسان في منامه حية وهي كناية عن العدو ، ويرى أن فلاناً مات ، وهو كناية عن قلة دينه ، وهلم جرا ، ولو سبرنا كتب تفسير الأحلام لوجدنا جميع المنامات التي يراها الناس هي من هذا القبيل ، نعم وربما وقعت الرؤيا للأنبياء صريحة وربما وقعت لهم من باب التمثيل ، والخلاصة أن مدار اعتقاد المنتقد السابق على تحتم أن تكون رؤيا الأنبياء صريحة دائماً ، ومدار جوابنا على جواز أن تكون رؤياهم في بعض الأحيان من قبيل التمثيل ، وعلى كل حال ، ففرق عظيم بين رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورؤيا غيرهم من الناس ، ومن لم يفرق بين الرؤيين ، فهو كمن لم يفرق بين النَّوم والتُّوم (١)

(١) (النوم جمع نومة وهي اللؤلؤة والنوم معروف) قوس

الرؤيا عند النصارى

الكلمة الثانية ـ أحوج الناس الى اعتبار المرائي المنامية وتصديقها هم النصارى، وذلك لأنهم يقولون إن يوسف النجار خطيب السيدة مريم اتهمها لما رآها حبلى وأراد تخليتها سراً، ولكنه عدل عن ذلك بما رآه في النوم من الرؤيا المنامية التي نفت عنها الفاحشة والتهمة الكاذبة، فهذه الرؤيا التي رآها في نومه هي الكائة الكبرى والدعامة الوحيدة التي استند اليها يوسف النجار في براءة السيدة مريم مما اتهمها به، مع أن يوسف عندهم ليس نبي يوحى اليه، وغايته أنه رجل صالح من صالحي بني إسرائيل، وهذه الحكاية عندهم مسطورة في سفر متى هكذا (لما كانت مريم أُمّهُ مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلُها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبِل به فيها هو من الروح القدس) (مت ١ ١٨ ـ ٢٠) فهذا المنام الذي دفع التهمة عن السيدة مريم معتبر عند النصارى، وبناء عليه فجميع المرائي المنامية يجب أن تكون عندهم في محل الاعتبار، وأما قول شراح الإنجيل وغيرهم من المسيحيين لم يبق بعد المسيح لزوم لإعلان الله إرادته للناس في النوم وليس من احتياج لذلك، فهو دعوى مجردة عن البرهان ولا تؤيدها العقل، بل إن صدق الوف الألوف من المرائي المنامية التي رآها ويراها الناس بعد المسيح انقض هذه الدعوى

الرؤيا المنامية لا تحرم حلالا ولا تحل حراما

الكلمة الثالثة ــ الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً ، فهي لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً ولا يترتب عليها حكم شرعي ، وقد حكي ان رجلا صالحاً فقيراً رأى رؤيا أن النبي ﷺ جاءه في نومه وقال له (إن في موضع كذا ركازاً ، احفر وخذه ، ولا تؤد خمسه) فقام من نومه صباحا ، وأخذ ما يقتضي لحفر الأرض ، فاطلع على الركاز ، فذهب إلى الشيخ عزالدين بن عبدالسلام يستفتيه في عدم إعطاء خمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبي مناماً ، فقال له الشيخ عزالدين يجب عليك أن تؤدى خمسه لبيت المال ، كما أفتانا النبي ﷺ يقظة ، وفتواه في اليقظة ، مقدمة على فتواه في المنام ، نعم إن رؤيا النبي حق ، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تماما ، فلعله قال لك (واد خمسه لبيت المال) وأنت سمعته يقول (ولا تؤد خمسه) وهكذا قال الفقهاء لو اختلف المسلمون فى آخر يوم من شعبان ، هل غداً من رمضان أم لا ، ثم رأى رجل النبيّ فى نومه ، وسمعه يقول له (إن غداً اول يوم من رمضان ، فصمه وأمر الناس بصيامه) ، لا يجب عليه صيامه ، ذلك لأن الرؤيا التي فى المنام ، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية ، ولو كانت حقاً وصحيحة ، هذا اذا كانت لغير الانبياء أنفسهم ، وأما رؤى الأنبياء انفسهم ، فهي وحي ، كما فى اليقظة ، يترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف

سمعني مرة القسيس الدكتور سارابع المنشر البروتستانتي في بلدة عزة أقول نحو هذا الكلام فقال لى (ومن هذا القبيل ما رووه فى سفر أعمال الرسل أن القديس بطرس رأى رؤيا وهو يصلي على السطح ، رأى أنه جاع كثيراً واشتهى

أن يأكل ، وبينما هم يهيئون له ، وقعت عليه غيبة ، فرأى السماء مفتوحة ، ورأى ملحفة نازلة عليه، عظيمة مربوطة بأربعة اطراف ، ومدلاة على الأرض مرسلة بحبال منوطة بأطرافها ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش ، والزحافات وطيور السماء ، وصار إليه صوت (قم يا بطرس اذبح وكل) ـ فقال بطرس (كلا يا رب ، لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً) فصار إليـه أيضاً صوت ثانية (ما طهره الله لا تدنسه انت) ، قال القسيس المبشر وبهذا ألغي التمييز بين الطاهر والنجس من المأكولات الحيوانية ، المذكورة في التوراة ، وكانت هذه الرؤيا في مدينة يافا ، (راجع أع ١٠ و ١١) تجد صحة ما قلت لك)

فقلت للمبشر (إن الرؤيا التي يترتب عليها حكم التحليل والتحريم ، إنما هي رؤيا الأنبياء المعصومين ، لأنها وحي ، وأما القديس بطرس فلا هو نبي ولا هو معصوم عندنا) ـ فأجابني (لكن هو عندنا رسول من رسل المسيح ، ومعصوم لأنه لا يتكلم إلا بالهام الروح القدس) ـ فقلت له (لو كان معصوماً ولا تتكلم إلاّ بالهام الروح القدس ، لما خاصمه في ذلك ونحوه قسم من النصارى ، ولكن المخاصمة وقعت كما ذكره في (أع ١١ ـ ٢) ، وتجد مخاصمات كثيرة بين التلاميذ في أحكام كثيرة ، تعسر الإحاطة بها ، ولكن أنت تعلمها من ملحقات الإنجيل)

(رأيتُ)

ـ ٥ ـ

قال العلامة المصري

لماذا لم ير يوسف (ع) رؤيا تدل على ما سيصيبه من شر

كانت وقدرت اشياء على يوسف لا بد منها ، وذلك مثل امتحانه بمراودة

امرأة العزيز إياه ، ثم نسبة المراودة إليه زوراً ، ثم اختياره ثانياً بالنسوة المصريات ثم سجنه ظلماً ، ولم يدر بشيء من هذه الأشياء ، ولم يَرَ عنها في منامه ، ولكنه قُدرت له أشياء أخرى ، وذلك مثل سجود إخوته له ، واجتباء ربه إياه،وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه ، وهذا النوع قد بشر بعضه مناماً،وبشر بعضه الآخر بلسان أبيه يقظة ، ولماذا هذه التفرقة يا ترى ؟ أعني أنه لم يدر بما سيصب عليه ، ولكنه بُشر بما سيصير له ، وجوابا على ذلك أن الأفضل فيما كان من قبيل الخير أن يبشر به الإنسان ويوعد به قبل حصوله له بالفعل ، وذلك لكي يتلذذ بالأمل بحصوله قبل أن يحصل له بالفعل ، وأما ما كان من قبيل الشر فالأولى أن لا يشعر به أولاً لئلا يتنغص به قبل وقوعه ، وقد قيل (الوقوع في الشر ولا انتظاره)

(رأيت)

قال عبد الملك الكردي (١)

رؤيا يوسف الحرم

كان يوسف قبل ذلك رأى حلماً وهو ابن سبع سنين ، رأى نفسه وإخوته في حقل وقد حزموا حُزُماً ، وإذا حزمته قامت وانتصبت فاحاطتها حُزُمهم، فكانت حُزمهم حوالي حُزمته كأعضاء مجلس حوالي رئيسهم ، أو كالدارة

١) نسبة الى قوم الأكراد

حول الشمس أو الهالة حول القمر ، وحينئذ سجدت حرمتهم لحرمته ، وقد كان يوسف قص هذه الرؤيا على إخوته ، فلما سمعوها منه أحسوا كأنه صب ماء عالياً على ظهورهم وقالوا له (ألعلك تملك علينا ملكاً ، أم تتسلط علينا تسلطاً ؟) (تك ٣٧ ٨) وازدادوا بغضاً له من أجل حلمه ومن أجل كلامه

(أحد عشر كوكباً)

قال الحاج أحمد اللادقاني [٢]

علو الرؤيا بعلو النفس

إن للنفوس الانسانية خصائص تتجلى في أعمال الإنسان وأقواله وقلمه ودرسه وأحلامه ، وحركاته وسكناته ، فلكل إنسان رؤيا تناسبه ، وأحلام توافقه ، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائين ، فلذلك ولكون يوسف حُرّ النفس كبير المقام عالى التصور ، رأى النجوم وجمالها وسجودها له وخضوعها ، ثم لذلك ولكون (الريان بن الوليد مليك مصر) كان مهتماً بالشعب والرعية محباً لخير الأمة المصرية ، رأى فى نومه البقر التى تكون عليها الحرث وتكون منها الدر ، ورأى سنابل الزرع التى تتوقف عليها نظام الحياة ، إذاً فالنفس ليست تتصور فى المنام إلا ما تهتم به فى اليقظة ومن هنا قيل العلة الأصلية للأحلام هى همّ قديم أو حدث ، ومعظم الأحلام تتعلق بالهموم الحاضرة التي يفكر فيها صاحبها بالنهار ،

---

(٢) نسبة إلى اللادقية بلاد الشام

أو التي يمتنع عن التفكير فيها ، لأنه يكره عواقب الفكرة بها ، وقبل الختام فان كلمة (أحد عشر) لم تنزل في كتاب الله إلا مرة واحده ، وهي التي ذكرت في مقام السجود ليوسف ، إكراماً له ، عليه الصلاة والسلام

(أحد عشر)

– ٢ –

قال العلامة البيروتي [١] .

قداسة عدد ١٢

وبيوسف تكون أولاد يعقوب اثنى عشر ولدا ، وهذا العدد من الأعداد المقدسة ، التي تكررت في الأمور المهمة مراراً ، واليك بعض الشواهد

١ - كون رسل المسيح عليه السلام الذين عينهم كانوا اثنى عشر رسولاً وهم بُطْرُس ، أندراوُس أخوه ، يعقوب الكبير بن زَبَدي ، أخوه يوحنا الانجيلي ابن زبدى ، فيلُبّس ، برثُولماوس ، توما ، متّى العشّار ، يعقوب الصغير بن حِلْفِي ، أخوه لبّاوس ، سمعان الغيور ، يهُوذا الاسخَرْيُوطي الذي كفر بسيده فربدّ ومات مرتدا ، كما في (مت ١٠ ٢ - ٤) وخلفه متّياس

٢ - كون أولاد اسماعيل اثنى عشر وهم نَبايُوت ، قيْدار ، أدَبْئيل ، مبسام ، مِشْماع ، دُومه ، مسّا ، حداد ، تيْما ، يطّور ، نافيس ، وقَدْمة (تك ٢٥ ١٣ - ١٥) وكما صارت أولاد يعقوب اثنى عشر سبطاً فكذا صار هؤلاء اثني عشر قبيلة

(١) نسبه الى بيروت من بلاد الشام (ا ب ا)

٣ ـ كون كتبة الوحي القرآني ، اثني عشر وهم عثمان بن عفان ، علي بن أبي طالب ، خالد بن سعيد ، أبان بن سعيد ، العلاء بن الحضرمي ، أُبيّ بن كعب ، زيد بن ثابت ، مُعاذ بن جبل ، معاوية بن أبي سفيان ، حنظلة الأُسَيْدي ، عبدالله ابن الأرقم وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وهذا الثاني عشر ارتد كما ارتد حواري عيسى الثاني عشر ، ولكن ابن أبي سرح عاد للاسلام وأما الحواري فبقي على ردته حتى مات

٤ ـ كون عدد النقباء الذين ارسلهم موسى من قادش ليتجسّسُوا أرض كنعان ، وهي فلسطين ـ اثني عشر كما قال تعالى ﴿ وبعثنا منهم اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ (٥ ١٣) ، وهم شمّوع ، شافاط ، كالُب بن يَفُنَّه يَجْآل ، هُوشَع بن نون ، فَلْطي ، جَدّيئيل ، جَدّي ، عَمِيّئيل ، ستور ، نحْبي وجَأوئيل (عدد ١٣ ٤ ـ ١٥)

٥ ـ كون أئمة آل البيت على راي الشيعية الامامية اثني عشر ، وهم محمد المهدي الحجة ، بن الحسن العسكري ، بن علي الهادي ، بن محمد الجواد ، بن علي الرضا ، بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ابن السبط الحسين ، ثم أخوه السبط الحسن ، ثم أبوهما علي بن أبي طالب زوج الزهراء رضي الله عنهم

٦ ـ كون البروج اثني عشر وهي الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السَرَطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو والحوت

٧ ـ كون أشهر السنة اثني عشر كما قال تعالى ﴿ إنّ عِدَّةَ الشُهورِ عندَ اللهِ اثنا عشَرَ شَهراً في كتابِ اللهِ ﴾(٩ ٣٧)وهي المحرم، صفر ، ربيع الاول ربيع الثاني ، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعده وذو الحجة

٨ ـ كون العيون التي تفجرت لموسى والأسباط اثني عشرة عيناً ،ليكون لكل سبط عين يشرب منها - وذلك بضرب موسى الحجر حينما كانوا في قادش (عد ص ٢٠)

٩ ـ كون عدد الاحجار التي حملها الاثنا عشر رجلاً من الاسباط الإسرائيلية ـ اثني عشر حجراً ، حملوها على أكتافهم من وسط نهر الأردن علامة على أن هذا النهر قد انفلق لهم ، وهم تحت قيادة يشوع بن نون ، كما انفلق لهم البحر بمصر وهم تحت قيادة موسى عليه السلام (راجع يش ٤ ١ ـ ٩) .

١٠ ـ كون أقل عدد تصح به الجمعة عند مالك بن أنس (ض) هو اثني عشر رجلاً .

١١ ـ كون ولادة النبي (ﷺ) كانت ليلة اثني عشر من ربيع الأول ، حسبما هو مشهور

١٢ ـ كون عدد الرجال الذين اجتمع معهم النبي (ﷺ) في العقبة لأول مرة فأسلموا ، وارسلهم ليبلغوا أهل المدينة ـ كانوا اثني عشر رجلاً،وذلك في ابتداء سنةاثني عشرة من النبوة ، ثم كون عدد النقباء في الاجتماع عند العقبة لثاني مرة ـ اثني عشر نقيباً أيضاً ، وكان هذا آخر سنة اثنتي عشرة من النبوة !!!

١٣ ـ كون الإسراء والمعراج كان بعد النبوة باثني عشرة سنة، لأنه (ﷺ) نبيء وعمره أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ـ على ما حققه عصرنا الاستاذ الخضري في محاضراته ــ وكان الإسراء والمعراج حين بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ونصفاً

١٤ ـ كونه (ﷺ) خرج في هجرته من قباء الى المدينة المنورة يوم ١٢ خلت من ربيع الأول سنة ٦٢٢ ب م

١٥ ـ كون نقباء الدعوة العباسية أيام محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ـ اثني عشر نقيباً ، وهم سليمان بن كثير الخزاعي ، مالك بن الهيثم الخزاعي ، طلحة بن رزيق الخزاعي ، عمر بن أعين الخزاعي ، عيسى بن أعين الخزاعي ، قحطبة بن شبيب الطائي ، لاهز بن قريظ التميمي ، موسى بن كعب التميمي ، القاسم بن مجاشع التميمي ، أبو داود خالد الشيباني ، أبو علي الهروي الحنفي ، وعمران بن إسماعيل المعيطي ، كما في محاضرات عصرنا الخضري

١٦ ـ كذلك الذين بقوا ثابتين مع النبي (ﷺ) في غزوة أحد ، كانوا (١٢) رجلاً،وقد فر من عداهم من المسلمين

١٧ ـ كذلك لم يبق مع النبي (ﷺ) حال خطبة يوم الجمعة حين جاء العير من الشام سوى (١٢) رجلاً

١٨ ـ كانت مدة مرض المرأة التي استغاثت بالمسيح بنزف الدم ـ اثنى عشرة سنة ، (وذلك أن المسيح عليه السلام بينما كان ماراً في الطريق إذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشره سنة ، قد جاءت من ورائه ومست هُدب ثوبه ، لأنها قالت في نفسها إن مسست ثوبه فقط شُفيتُ ، فالتفت المسيح وأبصرها فقال ثقِي يا ابنة ، إيمانك قد شفاكِ ، فشفيت المرأة من تلك الساعة) (مت ٩ ٢٠ ـ ٢٢) وكانت قد أنفقت كل مالها على الأطباء فلم تستفد شيئاً ، بل زادت مرضاً

١٩ ـ كون ساعات النهار اثنتي عشره ساعة ، هكذا أحد اليهود قسمة النهار إلى اثني عشر جزءاً عن البابليين أيام سبيهم إياهم إلى بابل ، وظلوا على ذلك إلى يومنا هذا

٢٠ ـ لما جاء الإسلام المدينة المنوره كان الذين يكتبون من الأوس والخزرج اثني عشر رجلاً فقط كما ذكره في فتوح البلدان

٢١ ـ أتى القرآن الكريم على ذكر النجيل اثنتي عشرة مرة كما نعلم ذلك بالمراجعة

٢٢ ـ سورة يوسف نفسها هي السور الثانية عشرة في ترتيب المصحف الشريف وهي السورة المذكورة فيها قصة الإخوة الاثني عشر

٢٣ ـ كون الخلفاء في الإسلام اثني عشر خليفة ، ففي الصحيحين عن جابر ابن سمرة أن النبي ﷺ قال (لا يزال هذا الأمر عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ولفظ البخاري اثني عشر أميراً ، وفي لفظ (لا يزال أمر الناس ماضياً ، ولهم اثنا عشر رجلاً)، وفي لفظ (لا يزال الإسلام عزيزاً ، إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش) ، وهكذا كان ، فكان الخلفاء هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ، ثم تولى من اجتمع الناس عليه ، وصار عز ومنعة ، وهو معاوية ، ثم عبدالملك وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبدالعزيز ، فهؤلاء هم الإثنا عشر خليفة ، على ما فهمه جمع من العلماء ، وبعض العلماء لم يعد السبط الحسن (ض) لأن مدته كانت قليلة جداً ، لا يزيد عن ستة أشهر ، وكانت في اضطراب شديد ، ولم تكن له ولاية عامة ، وعد بدله (المهدي) من العباسيين ، الذي كان تتبع أهل البدع والزنادقة يقتلهم ، حتى اندفع بذلك شر كبير ، وكان فيه من تعظيم العلم والجهاد، ما كانت به دولته أحسن دولة العباسيين من جهة الدين ، حتى إن بعض العلماء حمل حديث المهدي ـ لو صح ـ عليه ، والله أعلم .

قال بعضهم وهؤلاء الاثنا عشرة خليفة هم المذكورون في التوراة حيث قال في بشارته بإسماعيل (وسيلد اثنى عشر عظيما) أصوات من المستمعين

(مرحى) لله درك من واسع الاطلاع يا علامة بيروت !

(كوكباً)

قال ترجمان الحق الحموي (١) لي هاهنا كلمتان

لماذا عبر عن اخوة يوسف بالكواكب

الكلمة الأولى ـ تقدم للأخ العلامة سليم الجابوسي في الفصل الثاني من المقدمة أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وأنه أخذ موافقة جميع الأصوات على ذلك ، وعليه وإنما عُبر بها عنهم (بالكواكب) ١ ـ لأنهم صاروا رؤساء الأسباط ، حيث صار كل سبط ينتسب إلى جده ، فيقال سبط رأوبين ، سبط شمعون ، وهكذا إلخ ، ويقولون الرأوبيون ، الشمعونيون ، اللاويون ، الخ فبذلك حصل لهم شهرة صاروا بها كالكواكب

٢ ـ لأنهم في آخرة أمرهم اعترفوا بذنوبهم وتابوا إلى أخيهم وأبيهم وإلى الله فقُبلت توبتهم وصاروا من الصالحين حتى استأهلوا أن يكنى عنهم بالكواكب

٣ ـ ليس كل كوكب مضيئا كما بينه علماء الهيئة وأشار إليه أبو العلاء المعري بقوله

وعلى الرجال معالِم ومجاهِل ومن النجوم غوامض ودراري

٤ ـ لو قلنا إنهم شبهوا بالكواكب المضيئة لجاز لنا أن نقول إن ضوءهم إنما هو مكتسب من

نسبه الى حماه من بلاد الشام

نسبتهم لأبيهم الشمس ومن أخيهم يوسف المسجود له من الشمس ، كما إن نور النجوم مستفـاد من نور الشمس ، هذا ما يجب ان يقال في هذا المقام ، لا أقل ولا أكثر

ولو كان التعبير بالكواكب يقتضي النبوة لكانت راحيل أم يوسف نبيـة حيث عُبر عنها بالقمر ، فالاستدلال على نبوتهم بمثل هذه اللفظـة هو من قبيل التشنيع للمذاهب والآراء ، فالإنسان إذا خامره التشيع لرأي أو نحلة ، استدل عليه بما لا يفيـد إلا العناء ، وتعلق بحبال الهوى أو الهواء

الكلمة الثانية ـ انه يغلب على ظننا أن هذه الكواكب كانت (سياره) ، وهكذا كان حال إخوة يوسف الأحد عشر ، فإنهم سيارون ، كانوا ساروا مع أبيهم من العراق إلى سورية ، ثم إلى فلسطين ، ثم للديار المصريه ، رحلوا إليها اربع رحلات ، هذا ما ظهر لي الآن والسلام عليكم

(والشمس والقمر)

- ١ -

قال شيخنا العلامة الحلي (١)

التعبير عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر

الشمس أبوه ، والقمر أمه ، كذا أولوه ، وعندي إنه وجيه من وجوه

١ ـ إن القمر مقتطع ومقتبس من الشمس ، بواسطة اقتطاعه من الأرض

---

(١) نسبه الى الحله من بلاد العراق

المقتطعة من الشمس ، كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كَفَروا أنَّ السموات والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ﴾ (٢١ ٣٠) وقال تعالى ﴿ وانشَقَّ القمرُ ﴾ (٥٤ ١) أي من الأرض ، فالآية ترمز لهذا المعنى ، زيادة عن المعنى الأصلي ، وهو انشقاقه معجزة لخاتم الأنبياء ﷺ ، فهذا الوجه يناسب ما شاع من أن المرأة الأولى مخلوقة من الإنسان الأول

٢ ـ ثبت فناً أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، كما أن عيشة المرأة وقوام حياتها عائدة عليها من سعي الرجل وإنفاقه

٣ ـ إن كلمة (قمر) تشعر بالمقامرة ، وهي الملاعبة والتحيل والمراوغة ، وهذه هي أخص صفات المرأة وأما كلمة شمس فهي تشعر بالشموس وهو المنع والقوة ، يقال شمس الفرس يَشْمُسُ ، فهو شموس ، ورجل شموس أي صعب الخلق وهذه المعاني تناسب الرجل

٤ ـ سلطان القمر بالليل، وسلطان الشمس بالنهار ، وذلك في مقابله أن سلطان المرأة يكون ليلاً وسلطان الرجل يكون نهاراً بالأتعاب والعمل وتحصيل الفوائد

٥ ـ من أسباب تأويل الشمس بيعقوب أنه رئيس العائلة التي تحف به وتعتمد عليه ، كما أن الشمس هي مركز النظام الشمسي، وأن السيارات السابحة في سمواتها ومداراتها تحف بالشمس وتدور حولها من كل جانب ، ومن جملة تلك السيارات القمر نفسه ، فهو معتمد على الشمس ، كما من أسباب تأويل القمر بالمرأة أن المرأة تعتمد في قوام حياتها وأسباب معيشتها وراحتها على رجلها بما فضله الله به ،وبما ينفقه عليها من أتعابه وعرق جبينه

٦ ـ إن القمر أضعف نوراً من الشمس ، كما إن المرأة أضعف من الرجل ، وإشارة إلى هذا الضعف فيها وتلك القوة في الرجل يقول الله تعالى ﴿ وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ﴾ (٧١ ١٦) ، عبر عن الشمس بالسراج ، ولفظ السراج يحصر في النفس شعاعه المتقد ، فكأنه نور منبعث من نار ، وأيضاً فإن القمر نور محض يكاد أن يكون بارداً ، بخلاف الشمس فإنها تجمع إلى النور الحرارة ، فلهذا عبر عن الرجل بالشمس ، وعن المرأة بالقمر

٧ ـ إن بعض الأمم العتيقة كانت تعتقد أن الشمس ذكر والقمر أنثى والنجوم تولدت من زواجها　　　　نج ، نج

(والشمس والقمر)

ـ ٢

قال الامام الرقاريقي

من هو المقصود بالقمر في رؤيا يوسف

قيل إن هذا القمر هي أمه الحقيقية راحيل ، وإنها كانت حية بدليل ﴿ آوى إليه أبويه ﴾ (ع٩٩) ﴿ ورَفَعَ أبَوَيهِ على العرشِ ﴾ ، (ع ١٠٠) واللفظ متى أطلق انصرف لمعناه الحقيقي ، واستدرك عليه بأن التاريخ يستصرحاً أن أمه راحيل كانت ماتت وعمره عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ، وقد أجمع أهل التاريخ على أن والدته راحيل لم تسافر لمصر ولم تسجد له ، بل

١) نسبة الى الرقاريق من بلاد القطر المصرى

اتفقوا على انها لم تكن موجودة حينما رأى يوسف هذه الرؤيا ، فلذلك يجب تأويل « القمر » بخالته « ليئة » شقيقة أمه ، واستدرك عليه بأن خالته ليئة ماتت ودفنت في مغارة المكفيلة (تك ٤٩ ٣١) أي الغار الشريف في حبرون قبلما رحلوا لمصر وهذا أيضاً مجمع عليه بين المؤرخين ، ولذلك قيل إنّ القمر أمه الجارية التي هي « بلهة » جارية والدته وهي أيضاً كافلته ومربيته بعد موت أمّه ، حيث انتقل لخيمتها وصار هو وأخوه بنيامين ساكنان فيها تحت نظر تلك الجارية ، وكانت تعطف عليه وعلى أخيه بنيامين عطف الأم الرؤوم على ولدها ، وهذا القول الثالث هو المنصور ، وقد سمى النبي (ﷺ) حاضنته « بركة الحبشية » أماً ، إذ قال يوماً للصحابة « هذه أمي بعد أمي » ، وأما القول الأول فهو في غاية الضعف ، والدليل على ذلك زيادة عما قاله المؤرخون أنها لم تذكر في تضاعيف القصة ، ولعمري لو كانت حية لذكرت في بعض المواضع ، لا سيما عند استئذانهم أباهم في أخذه معهم ليرتع ويلعب ، أو عند نعيهم يوسف لأبيهم ، أو عند طلبهم إرسال بنيامين لمصر ، أو عند رجوعهم من مصر وقولهم لأبيهم ﴿ إنّ ابنَكَ سَرَقَ ﴾ (ع ٨١) — ولعمرى لو كانت حية لكان يوسف اجتهد على مجيئها لمصر أكثر جداً من اجتهاده على مجيء بنيامين ، ولكان يوسف يقول هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأمه ؟ ، لأنها تتأثر أكثر مما تأثر ابنها بنيامين ، وأخيراً لعمري لو كانت حية تقيد الحياة لنقل عنها أنها قالت « يا أسفاً على يوسف » ، ولكانت أرسلت بدل الدمع دماً ، فحقاً إن عدم ذكر أمه في هذه المواضع وأشباهها لهو دليل ناصع على موتها قبل هذه الحوادث

هذه هي كلماتي الهادئة في هذا الموضوع (مرحى)

(والشمس والقمر)

- ٣ -

قال الحاج سميح المكي :

هل سجد أبوا يوسف له

يجوز أن تكون الواو عاطفة فى « والشمس والقمر » ، وعليه فالشمس والقمر من جملة الساجدين ، وهذا هو المشهور المتبادر ، ويجوز أن تكون بمعنى « مع » وهي واو المعية ، فهو منصوب على إنه مفعول معه ، وعليه فالشمس والقمر لم يكونا ساجدين ، بل كانا مصاحبين للمسجود له أو للساجدين ، حين السجود ، أي كانا حاضرين وقت سجود الأحد عشر كوكباً ، والمعنى « كنت مصاحباً للشمس والقمر وقت رؤياي الأحد عشر كوكباً ساجدة لي ، أو كانت الكواكب الأحد عشر مصاحبة للشمس والقمر حين سجودها لي »

ونظيره قولك أبصرت ثلاثة فرسانٍ والجمَلَ مسرعِينَ فى العَدوِ ، فليس الجمل مشاركاً للفرسان فى العدو ، وانما هو مصاحب لها حين عَدْوها

وقد يتصور هذا الاحتمال الثانى بأن مقام الأبوة كالأمومة أرفع من أن يناط به السجود للابن ، لأن الشرائع جميعها ترفع شأن الأب لدرجة سامية جداً ، بحيث يكاد أن تساويه بالله تعالى ، الذي يجل عن المساوى والمُدانِي ، انظروا قوله تعالى ﴿ أنِ اشكُر لي ولوالِدَيْكَ ﴾ (٣١ ١٤) وقوله تعالى ﴿ وقَضَى ربُّكَ ألا تَعْبُدوا إلاَّ إيّاهُ وبالوالدَيْنِ إحساناً ﴾ (١٧ ١٦) ،

﴿ واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدَيْن إحساناً ﴾ (٤ ٣٥)،
﴿ واخفِض لهما جَنَاحَ الذلِّ ﴾ (١٧ ٢٤)

وفي سفر اللاويين (من جدَّف على اسم الرب فانه يُقتل) (لا ٢٤ ١٦)
و (كل إنسان سب أباه أو أمّه فإنه يقتل) (لا ٢٠ ٩)

ثم إنه في آخر القصة يفيد أن أبويه لم يسجدا له ، قال تعالى ﴿ورفَعَ أبويه على العَرشِ وَخَرّوا له سُجَّداً ﴾ (ع ١٠٠) فهكذا يكاد يكون صريحاً في أن الساجدين هم الإخوة فقط ، وأما أبواه فعوضاً عن أن يسجدا له رُفِعا على العرش

ثم إن يوسف في رؤياه الأولى وهي سجود الحزم الأحد عشر التي نقلها المفسرون والمؤرخون عن وهب بن منبّه ، وهي مذكورة بالصراحة في سفر التكوين (تك ٣٧ ٥ ـ ٨) ، ـ هذه الحادثة لم يذكر فيها سجود أبويه ، ولكن إخوته فقط ، والأصل اتحاد مضمون الرؤيين ، كما اتحد مضمون رؤيي ملك مصر وهي البقرات والسنابل ، فإن مآلهما واحد ، لا تزيد رؤيا عن رؤيا شيئاً ، ولذلك لما ورد في سفر التكوين أن الإخوة الأحد عشر سجدوا ليوسف مرتين (تك ٤٣ ٢٦ و ٤٤ ١٤) لم يذكر سجود أبويه معهم ، لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية

والحاصل أن رؤيا يوسف الأولى تأولت حين لم يكن ابوهم وأمهم حاضرين معهم ، فلذلك لم يذكرا ، وأما رؤيا يوسف الثانية فأولت وقد كان ابواه حاضرين مع الإخوة فلذلك ذكرا ، هذا هو تحقيق المقام

(تصفيق حاد متواصل)

(رأيتهم لي ساجدين)

— ١ —

قال الاستاذ المدني [1]

التطرية في القرآن

قوله « رأيت » في أول الآية و « رأيتهم » في آخرها أعيد على سبيل التطرية، للطول بالمفاعيل ، وهذه الطريقة معهودة ومألوفة في كلام العرب ، وفي كتاب الله تعالى ، فمن ذلك

(١) ـ ما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ ، وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ـ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢ ١٥٣)

(٢) ـ ما في قوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ، وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ـ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ (٣ ١٨٨)

(٣) ـ ما في قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ـ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢٠ ٤٢ و ٤٣)

(٤) ـ ما في قوله تعالى ، ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا ـ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ؟ ﴾ (٢٣ ٣٥) .

---

(١) نسبة الى بلده المدينة المنورة

(٥) ـ ما في قوله تعالى ﴿ قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ، ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ، فتلقى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتابَ عليه إنه هُوَ التوابُ الرحيمُ ـ قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإمّا يأتينّكمْ منّي هُدىً ، فمن تَبِعَ هُدايَ الخ ﴾ (٢ ٣٦ – ٦٨)

(٦) ـ ما في قوله تعالى ﴿ أم اتّخذُوا آلِهةً مِنَ الأرضِ ، هُمْ يُنشِرون ؟ لو كان فيهما آلِهةٌ إلاّ اللهُ لفسدَتا ، فسبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عما يَصِفُون ، لا يُسألُ عمّا يَفعَلُ وهم يُسألون، ـ أم اتّخذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهةً ؟ قل هَاتُوا بُرهانَكم، هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلي ، بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمونَ الحقَّ ، فهُم مُعرِضونَ ﴾ (٢١ ٢١ – ٢٤)

(٧) ـ ما في قوله ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ، ولا على الأعرجِ حَرَجٌ ، ولا على المريضِ حرجٌ ، ولا على أنفُسِكُم أن تأكُلوا مِن بيوتِكم ، أو بيوتِ آبائِكم ، أو بيوتِ أمّهاتِكم ، أو بيوتِ إخوانِكم ، أو بيوتِ أخَواتِكم ، أو بيوتِ أعمامِكم أو بيوت عمّاتكم ، أو بيوتِ أخوالِكم ، أو بيوتِ خالاتِكم ، أو ما ملكتُم مَفاتِحَهُ ، أو صَديقِكم ـ ليس عليكم جناحٌ أنْ تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ (٢٤ ٦١)

الى غير ذلك من الشواهد القرآنيه التي تربو على خمسة عشر موضعاً فيما يراه العبد الحقير ، وقد نبه على بعضها صاحبا الكشاف والانصاف

وبعد فأختم هذا المقال بالإعراب عن أسمى احتراماتي للاخوان الحاضرين وتقديمي لهم تحياتي والسلام

(ورأيتهم لي ساجدين)

– ٢ –

وقال الشيخ محمد بن صالح من علماء الطائف .

اعتراض ثم تسليم

سمع أبوه ذلك منه ، فأعظم هذه الرؤيا مبدئياً ، وأكبر هذا المنام ، فانتهره وقال له (ماهذا الحُلم الذى حلُمتَ ، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك نسجد لك الى الأرض ؟) (تك ٣٧ ١٠) ، ما أنت ودالة ياغلام ! ثم سكت هنيهة يفتكر ، فثاب الى صوابه ورأى أن لا مانع من ذلك ﴿ قُلِ اللهُمَّ مالِكَ المُلكِ ، تُؤتِي المُلكَ مَنْ تشاءُ وتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّن تشاءُ ، وتُعِزُّ مَن تشاءُ وتُذِلُّ مَن تَشاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنك على كلِ شيءٍ قديرٌ ﴾ (٣ ٢٦) ﴿ ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم ﴾ (٥ ٥٧) فاعتقد صدق كلام ولده وإمكانه ، وتوسّم فيه الخير وسلّمَ له ، وتهلل وجهه سروراً ، لا تهلل به إلا وجه أب لابنه حينما يسمع منـــــه ما يعود على ولده بالخير فحفظ الأمرَ حفظَ تسليم وإذعان ، وصار له مِنَ المنتظرين

(رأيتهم لي ساجدين)

– ٣ –

وقال الشيخ ابن نصيف من علماء جدة

معنى السجود

السجود التطامن ، وكل شيء ذل فقد سجد ، وسجد البعير خفض رأسه

عند ركوعه ، وسجد الرجل وضع جبهته بالأرض ، وسجد انتصب في لغة طيىء، لأن انتصاب رجل أمام آخر خضوع له منه ؛ وكل هذه المعاني لغوية يجوز حمل الكلمة الشريفة ههنا على أيٍ منها ، وأما السجود فى الشرع فهو عبارة عن هيئة مخصوصة ، هذا مانعلمه من معاجم اللغة

لا تقص الرؤيا على العدو

آ(٥) ﴿ قالَ يا بُنَيَّ ، لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ على إخْوَتِكَ فَيَكيدُوا لَكَ كَيْداً ، إنَّ الشَّيْطانَ للإنْسان عَدُوٌّ مُبينٌ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة فقام عبدالعظيم التركي وقال

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف سيبلغه الله مبلغاً عالياً ، وكان يعلم كراهة إخوته العشرة له، فخاف عليه حسدهم وبغيهم ، فلذلك نصحه و (قال) له بلسان النصيحة ممزوجاً بالفرح والسرور ﴿يا بني لا تقصص رؤياك﴾ هذه ﴿ على ﴾ أحد من ﴿ إخوتك ﴾ العشرة ﴿ فيكيدوا ﴾ ـ منصوب بإضمار ﴿ إن ﴾ والمعنى إن قصصتها عليهم نصبوا ـ ﴿ لك كيداً ﴾ أي مكراً ، بسبب تسويل الشيطان لهم ، وإن واحداً من إخوتك أعرفه جيداً لهو شديد العداء لك فلا يحتاج في كيدك إلى أكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذ إبليس المبتدئين فى صنعة الفساد ﴿ إن الشيطان ﴾ من قديم الزمان ﴿ للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة ، لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله ﴿ لأقعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيم ﴾ (٧ ١٥) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ، ليورط

من يحمله ـ ولا نؤمن أن يحملهم ـ على مثله ، ومن هذه الوصية نعلم أن يوسف لم يكن ابناً فقط ليعقوب بل وتلميذاً أيضاً

(قال يا بني .) الخ

- ١ -

وقال سيدي أبو العباس من طرابلس الغرب

نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لا يقص رؤياه على اخوته

كان يوسف رأى فلاً في منامه الجرم العشرة فقصها على إخوته ، فحسدوه واغتاظوا منه ، وهو لو يعلم إنهم يغتاظون منه ما حكاها لهم ، ولكنه لصغر سنه، إذ كان ابن (١٢) سنة قصها عليهم ، والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهه ، وسلامة النية وطهارة القلب بادئتان على لسانه ، وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الأطفال بالملائكة ، فإنهم مثال الطهارة ، وعنوان صدق اللهجة ، ومرآة سلامة الضمير ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكتمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم ، حتى لقد اعتبر بعض الفقهاء شهادة الصبيان كقرينة على صدق الدعوى ، وإمارة على صحتها

لذلك لما سمع يعقوب هذه الرؤيا ما عتّم أن نصحه قائلاً : (يا بنيّ ، ليست رؤياك هذه مما لا يؤبه له ، بل هي ذات شأن ذي بال ، وأن الأمر جلل ، وأنا شيخ عركني الدهر وعركته ، وعلمني التجارب)، ثم ظهرت على وجهه علامات الاهتمام بجارحها التكلم فقال بصوت متحمس (أذكر يا بنيّ إنك كنت رأيت الرؤيا الأولى ، فقصصتها على إخوتك بساطة وسلامـــة قلب ، فحقدوا عليك

وحسدوك من حيث لا تسعر ، وكأني بك لعصاصة فتوتك ، وحداثة سنك ، لم تعلم من حسد إخوتك ما علمته هذه الشيبة ، ولم تعرف من حقدهم عليك ما عرفه أبوك الشيخ ، فالمرة الأولى انقضت ، وقد سبق السيف العدل ، فأما في هذه المرة وقد بلغت سن (١٧) سنة ،وحيث أن المؤمن لا ينبغي أن يجعل مجالاً لأن يلدغ من جحر مرتين ، فأرغب إليك أن لا تكاشف إخوتك بهذه الرؤيا ، بل ولا لغيرهم ، فإن السر متى تجاوز الاثنين شاع ، فلاتجعل هذا السر تتجاوز شفتيك هاتين بل احمله تحت طي الكتمان)

تحرز من صديقك كل يوم وبالأسرار لاتركن اليه

سلمتُ من العدو بما دهاني سوى من كان معتمدي عليه

(يا بنيّ ، رؤياك هذه خير من حُمْر النَّعَم ، فاسعى على تحقيقها بكتمانها ، لاسيما عن إخوتك ، لأني لست آمن عليك من سورتهم ، ومبادرتهم إياك بسوء إذ أبدت الحوادث السابقة ، وعلمت التجارب السالفة ، أنهم لايريدون لك الخير ، فهم ولاريب يعملون الحيلة ، ويدبرون المكيدة ، ويبسطون الخدعة ، ويقدمون على الايقاع بك ، ويسرعون في بوارك ، هذه وصيتي اليك فلا تُهملْها ، أقول ذلك والأسف ملء فوادي ، لأنه كان يجب أن لا يكون بين الإخوة أدنى عداء ، ولكن هكذا اقتضت الظروف ، لأمر يعلمه الله تعالى ، وإنه والله ليعزّ عليّ تحذيرك من إخوتك ، لولا أن الخوف منهم أمر واقع ، ولولا إن حسدهم لك أمر محسوس ، يكاد يلمس باليد ، ولولا أنه يجب على العاقل الاحتراس والأخذ في أسباب الحيطة والتوقي من المكروه ، ما كنت لمطت أمامك من هذا القبيل بنت شفة)

هذا مرمى كلام يعقوب لولده ، وهنا نتذكر قول أبي العلاء المعري

حَفْ من تودّ كما تخاف معاديا وتمارَ فيمن ليس فيه تماري

فالرّزءُ يبعثه القريبُ ومادرى مُضرٌ عما تجني يدا أنمار [1]

« مرحى »

(يابُنَيَّ)

– ٢ –

قال العلامة الحلبي [2]

التصغير في اللغة وأنواعه

من سنن العرب تصغير الشيء على وجوه فمنها تصغير تحقير كقولهم رُجَيْل ودوَيْره ، ومنها تصغير تكبير كقول الأنصاري أنا جُذَيْلُها المُحكّك ، وعُذَيْقُها المُرَجّب ، ومنها تصغير تقليل كقولهم لم يبق من بني فلان إلا بُنَيْت ، ومنها تصغير تقريب كقولك جاءني فلان قُبَيْل الظهر ، ومنها تصغير استعذاب كما قال

ما قلتُ حُيَيّبي من التحقير بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

ومنها تصغير إكرام ورحمة كقولهم يا أخيّ ويا أخيّة ، ويابُنَيّ ويابُنَيّة ، وماقي الآية من هذا القبيل ، ربما يقال صغره هنا ليبين له أنه صغير فمن جهة يستحق أن يشفق عليه ويرحم ومن جهة أخرى ينبغي له أن يسمع ما سيلقى عليه من الوصية الأبوية الصادرة من فم شيخ مجرّب مُحنّك

(١) أغار فقأ عين أخيه مضر وهرب

(٢) نسبة الى بلدة حلب من بلاد الشام (سوريا)

(يابي)

- ٣ -

قال الفاضل المقدسي [١]

الحكم المقتبسة من الآية

نتعلم من هذه الآية الأمور الآتية

١ - انه ينبغي للأب أن يدلي بالنصح لابنه ، ويحذره ممن يظن أنهم ربما يؤذونه ولو كانوا أقاربه

٢ - انه يجب لذوي الفضل ان لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شراً

٣ - ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على إيذاء أخ واحد من بينهم فيجب للانسان أن يكون على حذر من كل الناس

٤ - ان للشيطان سلطة على كل الناس حتى أولاد الأنبياء ، حاشا الأنبياء أنفسهم

٥ - إن تعدد الزوجات ربما أثار عداءً ينتشر من الضرائر الى أولادهن

٦ - ان أهل الفضل والنبل مُحَسَّدون من قديم الزمان

٧ - ان الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هو في سن الفتيان الصغار ، لأن سن رأوبين مثلاً كان عند هذه الحادثة على أقل تقدير (٣٦) سنة ، وهكذا يقال في شمعون ولاوى ويهودا وسواهم بما هو المناسب ، ولكن يوسف كان عمره على أكثر الروايات (١٧) سنة

---

(١) نسبة الى بيت المقدس في فلسطين

(بابي)

- ٤ -

قال المحقق الملبيسي [1]

خطاب الاستعطاف بين الأقرباء

خاطب يعقوب يوسف بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً برابطة النبوة وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب ، ونظيره مافي قول لقمان لابنه ﴿ يابُنيّ لاتُشْرك بالله ، إنّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ - الى أن يقول - يابُنيّ إنها إن تكُ مثقالَ حبّةٍ من خردلٍ فتكُن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها اللهُ ، إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يابُني أقم الصلاةَ وأْمرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر ، واصبرْ على ماأصابكَ ، إنذلكَ من عزم الأمور﴾ (٣١ ١٣ - ١٧)

ثم مافي قول ابراهيم لولده الذبيح اسماعيل ﴿ يابُنيّ إني أرى فى المنام أني أذبَحُكَ ، فانظُرْ ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تُؤْمر ، ستجدُني إن شاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ (٣٧ ١٠٢)

ثم مافي قول يعقوب لأولاده وهو فى شرفةمصر إذحضرته الوفاه ﴿ يابُنىّ إنّ اللهَ اصطفى لكم الدّينَ ، فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلمونَ ﴾ (٢ ١٣٢)

ثم مافي قول إبراهيم لوالده آزرَ ﴿ يا أبتِ ، لِمَ تعبُـــدُ مالا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغنى عنكَ شيئـاً الخ ﴾ (١٩ ٤٥) وبالعكس ماصدر من

[1] نسبه الى بلبيس من بلاد مصر

آزرَ لابنه إذ ﴿ قال : أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم ؟! لئن لم تنته لأرجمنّكَ واهجرني مليّاً ﴾ (١٩ ٤٦) .

ثم ما في قول هرون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إذ ﴿ قال ابنَ أُمَّ ، إنّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بيَ الأعداءَ ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ (٧ ١٤٩) وبعكسه خطاب أخيه موسى له إذ ﴿ قال يا هرونُ ما منعكَ إذ رأيتَهم ضلّوا أن لا تتّبعَنِ ، أفعصيتَ أمري ؟ ﴾ (٢٠ ٩٢ و ٩٣) ، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ، ولم يرد أن يخاطبه باسم « الأخ » مع إن هرون أكبر منه بأربع سنين ، لأنه متكدر منه أيمّا كدر ، وأما هرون فخاطب موسى باس أمه ، ليذكره رابطة الأخوة ، ويحرك منه سلسلة انسانه اليه ، كي يتحنن ويعطف عليه

(لا تقصص)

— ١ —

قال الشمس التبريزي [١]

بعض البداءات التاريخية التي تشبه بداء اخوة يوسف له

كأني بسيدنا يعقوب كان في تلك الساعة يمشط لحيته الشريفة بأصابعه ، ويفكر في مصداق هذه الرؤيا وخاتمتها وقد صار بين عاملين ، الأول ترك تحذير يوسف لئلا يكون ذلك حاملاً له على كرههم ، في الوقت الذي هو فيه خالي الذهن

١) نسبة الى تبريز من بلاد فارس (ايران

من كل كراهة ، والعامل الثاني الرمز اليه بعداء إخوته له ليحذرهم ، ويتحفظ من غوائلهم ، والنصيحة من الإيمان ، وبعد التفكير العميق فَصّلَ الخزي مع العامل الثاني ، لا سيما وقد يكون يوسف عرف شيئاً من حسد إخوته له من قبل، وإن أباه كان أحبه أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصاً ملوناً ، فلما رأى إخوته أن أباه أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، لا سيما وقد حَلِم حلماً وأخبر به إخوته ، فازدادوا بغضاً له ، وصاروا ينظرون اليه نظرات الحقد الموحدة ، ويسمونه مرة « الولد المغرور » ويدعونه مرة « صاحب الأحلام » يذكرون ذلك استهانة به على سبيل التهكم ، وكانوا يرقبونه ليوقعوا به ، وكم كان حكى معهم أبوهم ووعظهم بأنه فتى صغير لا ينبغي لإخوة مثلهم كبار أن يجمعوا كيدهم ، ويتفقوا على إغاظته ، ولكن ــ مع الأسف ــ لم ينجع فيهم كلامه ووعظه ، ولم يقع في نفوسهم

إنما تنجح المقالة في المر ء إذا صادفت هوى في الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يُحَلّم تقدمُ الميلاد

(ابو العلاء المعري)

وهذا ما حدا بأبيه أن ينصح له بحمل هذا الهام الثاني تحت طي الكتمان

ثم نحن نعلم من التاريخ

١ ــ حادثة قابين(١) وهابيل ولدي آدم من حواء ، فهما رغماً عن كونهما اخوين شقيقين ، ابني أول نبي على وجه الأرض ، (فيما هو المشهور وعلى رأي الجمهور) ، فقد قتل اولهما ثانيهما

٢ ــ نعلم العداء والخلاف الذي ظهر من ابن نوح ومن امرأة نوح له عليه السلام ، فإنه كان عملاً غير صالح ، ولم يحفظ لأبيه حق الأبوة ، وامرأته كانت

(١) ويسميه البعض هابيل

منافقة خائنة ، كما أن زوجة لوط كتلك نفاقاً وخيانة (٦٦ ١٠) ولم يحفظا لزوجهما حق الزوجية

٣ ـ نعلم إن آزر كان العدو الألد لولده إبراهيم عليه السلام .

٤ ـ نعلم من التاريخ ما حَدَثَ من غيرة ساراي من هاجر وولدها إسماعيل حتى الجأت إبراهيم عليه السلام لنقلها الى جزيرة الحجاز

٥ ـ نعلم من التاريخ ماذا صار من عيسو مع أخيه يعقوب من العداء الشديد ، حتى هرب يعقوب من وجهه للعراق ، فهذه الحوادث وأشباهها تجعل عداء اخوة يوسف له ليس بالأمر الغريب

والخلاصة ، إننا نعلم يقيناً ان يعقوب ويوسف عليهما السلام كتما أمر هذه الرؤيا تماماً ، وبعد ذلك فهل بلغ خبرها مسامع إخوته أم لا ؟ لنا أن نقول يحتمل أنه لم يبلغهم خبرها بالمرة ، وإنما كرهوه واحتووه وألقوه في غيابة الجب ، لداعي الحسد والغيرة من جراء محبة أبيه له أكثر منهم ، ويجوز أن يكون بلغهم خبر هذه الرؤيا من بعض الخدم الذين سمعوا المحاورة التي جرت بين وأبيه حينما قص عليه رؤياه ، سمعوا ذلك ، ولم يكن يعقوب ولا يوسف يشعران بوجود أحد من الخدم ، فحمل هذا الخادم خبر رؤيا يوسف لإخوته ، فزادوا له بعضاً على بعض

(لا تقصص الخ)

ـ ٢ ـ

قال استاذنا سعيد الدمشقي العماري [1]

وجوب اطاعة الابن للأب ـ الوصايا العشر في التوراة والقرآن

لجأ يوسف لأبيه ورجع اليه ليستطلع فكره ، ويعلم بما سيشير اليه ، فأوصاه

١) نسبه الى حي العمارة في دمشق (

أن لا يطلع إخوته على رؤياه ، فصدع بأمر أبيه وعمل على إطاعته ، لأن إطاعة الابن للأب من أوكد الفرائض المقرونة بفرائض الله تعالى ، وقد جعلت من الوصايا العشر التي جاءت في التوراة وهي (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الارض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ، ولا تعبدهنّ ، لأني أنا الرب آلهك اله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني وأصنع إحساناً الى ألوف من محبيّ ، وحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا ، احفظ يوم السبت لتقدسه اكرم أباك وأمك ، كما أوصاك الرب آلهك لكي تطول أيامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب الهك ، لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل مالقريبك) (تث ٥ ٧-٢١) وقريب منه ما في (خر ٢٠ ٣-١٧) ونظيره عندنا الوصايا العشر المدرجة في قوله تعالى ﴿ واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، وبذي القُربى واليتامَى والمساكينِ ، والجارِ ذي القُربَى ، والجارِ الجُنُبِ [1] والصاحبِ بالجَنبِ ، وابنِ السبيلِ ، وما ملكت أيمانُكم ، إنّ اللهَ لا يحبّ مَن كان مختالاً فخوراً ﴾ (٤ ٣٥) والوصايا العشر المنتظمة في قوله تعالى ﴿ وإذ قال لقمانُ لابنِه (وهو يَعِظُه) يا بُنَيَّ ، لا تُشرك باللهِ ، إنّ الشِّركَ لَظلمٌ عظيم ، ووصّينا الإنسانَ بوالِدَيهِ ، حَمَلتْه أمُّه وَهْنًا على وَهْنٍ ، وفِصالُهُ في عامَيْن ان اشكُر لي ولوالِدَيْكَ ، اليَّ المصيرُ ، وإنْ جاهَــــدالَ على أن تُشرِكَ بي ، ما ليسَ لكَ به عِلمٌ ، فلا تُطِعْهُما ،

(١) وهو الجار الذي جاورك من قوم آخرين ، ليس من اهل الدار ولا من اهل النسب (اساس

وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إليّ ، ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بنيّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة ، أو في السموات ، أو في الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ، يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ ((٣١ ١٣ - ١٩

(اخوتك)

- ١ -

قال الشهاب احمد من علماء سنغافورة (١) .

المناوئون ليوسف من اخوته - التنافس بينهم

لو قال قائل أراد من كلمة « اخوتك » الاخوة المناوئين له المتألبين عليه الذين كان رأسهم شمعون ، فليس منهم بنيامين قطعاً كما هو واضح ، بل ولا راوبين ولا يهوذا على الراجح ، ولكن الظاهر انه أراد عموم الإخوة العشرة إجمالاً ، سداً لباب الفساد بالمرة ، وطرداً للكلام على وتيرة واحدة ، لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تصريح

هذا وانا نعلم من التاريخ ، ومن قرائن الأحوال انه كان يوجد شيء من

(١) سنغافورة احدى مدن شبه جزيرة ملايا في الهند الصينية

التنافس والتناظر بين إخوة يوسف العشرة الكبار ، وانه لم يكن بعضهم مخلصا لبعض ، كيف وليسوا كلهم من أم واحدة ، بل كان رأوبين وشمعون ولاوي ويهودا ويساكر وزبولون من أمّ وهي « ليئة » وكان دان ونفتالى من أمّ اخرى هي « بلهة » وكان جاد واشير من أم ثالثة هي « زلفة » كما كان يوسف وبنيامين من أم هي « راحيل » ، فالعشرة الأولى الكبار لم يكونوا من أم واحــــدة ، ولم تكن ميولهم وعواطفهم واحدة ، وبالتالى لم يكونوا متفقي الكلمة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولا على قلب واحد ، ولكن جرت العادة ان الأعداء يتصالحون إذا أصيبوا جميعــــاً بمصيبة نزلت على رؤوسهم ، وهؤلاء الإخوة العشرة اجتمعوا في مصيبة واحدة ، هي أن أباهم قد جعلهم في حبه إياهم فى الدرجة الثانية ، وأحب يوسف وبنيامين في الدرجة الأولى ، فهذا ما جمع كلمتهم وألف نوعا بينهم ، وجعلهم يشعرون بلزوم مصافاة بعضهم لبعض ، وذلك طبيعي فى جسم العمران ، فالناس لا يزالون في خصام ونفار ، أو فى تنافس وتناظر ، حتى يصيبهم سوء على السواء- ويقعوا جميعاً تحت ردم واحد ، فتراهم قد تآلفت قلوبهم ، وأغضوا عن المساوىء

(فيكيدوا لك كيداً)

- ١ -

قال الشيخ مصيوف الخانوني (١)

تعريف الكيد

أى يتكلمون معك بكلام حسن ، وهم في طيه يضمرون لك السوء ، ويفعلون

١) نسبة الى بني خانون من أعمال فلسطين

طاهراً الفعل الجميل ، وهم يرصدون لك الانتقام ، وهم أحرياء بذلك كله وأكثر

فلو حدرتهم الحوراء حدري لما طلعت مخافة أن تُكادا

« والكيد » بهذا المعنى من صفات الساحر الذي يحتال على عدوّ له قويّ لا يقدر على مصارحته بالبطش ، ولا مصارعته بالانتقام ، فيظهر له رفقاً ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب له حبائل الشر حتى يرتطم فيها ، وربما استعمل « الكيد » في الضرر والإيذاء ولو علناً ظاهراً

وبالحقيقة إن عمل اخوته معه كان بحسب مبدئه سرياً تحت طي الكتمان ، ولكنه بحسب غايته صار جهرياً ، فوق رؤوس الأشهاد

و « الكيد » في اللغة يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، قال تعالى ﴿ وأنَّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائِنينَ ﴾ (ع ٥٢) فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ، وقال تعالى ﴿ أم يُريدونَ كَيْداً ، فالذين كفروا هُمُ المكيدُون ﴾ (٥٢ ٤٢) وسميت الحرب كيداً ، لما فيها من الاحتيال والاجتهاد ، ومنه حديث ابن عمر « ان رسول الله (ﷺ) غزا غزوة كذا ، فرجع ولم يلق كيداً » أي حرباً ، بذلك لما فيها من الختل والخديعة ، قال أبو العلاء المعري

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله أقرب

(ان الشيطان .. الخ)

- ١ -

قال الدراكة الدمشقي (١)

الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان

عداوة الشيطان للانسان قديمة العهد ، فقد كانت منذ الانسان الأول ، كما قال تعالى ﴿ وقُلنا يا آدمُ إنَّ هذا عدُوٌّ لكَ ولِزَوجكَ ﴾ (٢٠ ١١٧) فلا يألوا الشيطان جهداً في مناصبته للانسان وحمله على ما لا خير له فيه ، بل على ما فيه ضرر الانسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله

وقد ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خَلْقاً اسمه «الشيطان» أرغمَ اللهُ أنفَه ، لا يدركه حواسنا ، له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها و يقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي « وِسواساً ونَزغاً ومسّاً وتحريشاً » ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وما أشبه هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير السم الخفية المادية — المسماة بالجراثيم (الميكروبات) — في الأجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا ربّ العالمين ، والناس يجهلون هذه السم الخفية ، ويجهلون فعلها ، لعجز الأبصار عن إدراكهـا نفسها ، وعن رؤية فعلها ، لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر الماهر النظارات المكبرة التي تريك الجسم أضعاف أضعاف حجمه ، فيها رؤوس ، وعُلم ما

(١) نسبه الى دمشق من بلاد الشام (سوريه

يحدث بسببها ـ في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة ـ من التحول والتغير ، كالاختمار والفساد وغيرهما ، ومن الأمراض المُعْدية في الانسان والحيوان

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسيم الأمراض بأجسادنا ـ أنْ نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال ، فنبادر الى علاجه ، فمتى فطنّا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بالالتجاء الى الله سبحانه وتعالى

(ان الشيطان الجن)

– ٢ –

قال السيد البصري [1]

المراد لفظ الشيطان على العدو وبعض الاشخاص والجن والانس

المتبادر ان « الشيطان » هنا بالمعنى المشهور المعروف ، وهو إبليس وأعوانه ، وقد يكون لفظ « الشيطان » هنا عبارة عن أحد الأعداء ، وإطلاق الشيطان على العدو معهود وكثير في كتب الدين وإليك بعض الشواهد

(١) ـ قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ ﴾ (٦ ١١٢)

(٢) قال تعالى ﴿ وإذ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعْمالَهم ،وقال لاغالبَ لكم

(١) نسبة الى بلدة البصرة من القطر العراقي

اليومَ مِنَ الناسِ ، وإني جارٌ لكم ، فلما تراءت الفئتانِ نكصَ على عقبيه ، وقال إني بريءٌ منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخافُ اللهَ ، واللهُ شديدُ العقاب ﴾ (٨ ٤٩) فالشيطان ههنا قال فريق إنه « سُراقة » بن مالك الكناني الذي كان من أشرافهم

(٣) ـ قال تعالى ﴿ وإذا لقُوا الذينَ آمنوا قالوا آمنّا ، وإذا خلوْا الى شياطينِهم قالوا إنّا معكم ، إنما نحن مستهزِئون ﴾ (٢ ١٤) فشياطينهم هم الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم من رؤساء العرب وكبرائهم

(٤) قال تعالى ﴿ ويُريد الشيطانُ أن يُضِلّهم ضلالاً بعيداً ﴾ (٤ ٥٩) قيل هو « كعب » بن الأشرف ، كما اطلق عليه طاغوت في قوله تعالى ﴿ ألم ترَ الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزلَ اليك ، وما أُنزلَ من قبلك ، يُريدون أن يتحاكموا الى الطاغوتِ ، وقد أُمِروا أن يَكفُروا به ﴾ (٤ ٥٩) ، قيل إن هذا الطاغوت هو كعب بن الاشرف

(٥) قال تعالى ﴿ الذي يُوَسوِسُ في صدورِ الناسِ ، من الجنةِ والناس ﴾ (١١٤ ٥ و ٦) فقوله من ﴿ الجِنّةِ والناسِ ﴾ بيان للذى يوسوس ، أو بيان للوسواس الخناس ، فالموسوس قسمان قسم الجن وقسم الناس ، ولا ريب إنه يطلق على كل منهما إذا وسوس « شيطانٌ »

(٦) قوله ﷺ « المسافرُ شيطانٌ والمسافران شيطانان ، والثلاثة ركبٌ »

(٧) قال (ﷺ) « إنّ الابلَ مخلوقةٌ من الشياطين » (١) هذا ما تيسر

(١) رواه سعيد بن منصور فى سننه بلفظ « خلقت » وزيادة « وان وراء كل بعير شيطاناً » وهو ضعيف كما رمز له السيوطي لانه من رواية خالد بن معدان مرفوعاً فهو منقطع مرسل لان خالداً هذا تابعى

للعبد الحقير أن يمليه على أسماعكم – ايهـــا السادة – فأملوه فإني مستعد لإصلاح ما عسى أن يكون فيه وسلفاً أشكركم

(ان الشيطان الخ)

– ٣ –

وقال العلامة الحليلي [1]

الشيطان قوة عصبية او قوة دميمة في الانسان

لقد ذهب « الغزالي » الى أن الشيطان القوة العصبيـة التي في الإنسان ، وقال الراغب « كل قوة دميمة للانسان شيطان » ، ومنه قولهم « ركب شيطانه » إذا غضب ، « ونزع شيطانه » أي كبره ، أو الشيطان كما قاله الجمهور « هو من العوامل الخفية ، التي لا تحس » فعلى مـا قاله الغزالي والراغب ، هو من قبيـــل الداعية الداخليـة ، وعلى ما قاله الجمهور ، يكون الشيطان داعيه خارجيـــة ، وهو الظاهر

وقد ورد النهي عن خروج الصبيان في الليل ، لأنه وقت انتشار الشياطين ، فالشياطين هنا الأشرار من الناس ، الخبيثون من أهل الوسواس، وذلك كشياطين الأزبكية بمصر ، وشياطين شارع بغداد في دمشق وشياطين شـارع الرشيد في بغداد الخ ، فهؤلاء ينتشرون من بعـد الغروب وقبيل الغروب ، يفسد بعضهم بعضاً ، فيحث من يهمهم تربيـة أولادهم ، على منعهم من الخروج ، لئلا يفسدهم هؤلاء الشياطين

(١) نسبه الى خليل الرحمن من بلاد فلسطين

وأما عداء الشيطان المبين للانسان ، فلا يتعدى الإغراء والوسوسة ، وليس للشيطان من سلطان ، على الانسان بغير ذلك ، وتوضيح المقام يحتاج الى بسط في الكلام ، فمن كان له أذنان للسمع فليسمع

أتى الاسلام ، والناس جميعاً ، واهمون في مسألة تأثير الشياطين ، ورسخ في عقول الامم كافة ، أن الأرواح الخبيثة ، مسلطة على الانسان بالاذى ، فإذا رأوا مفلوجاً أو مسلولا أو مجنوناً أو أبكم أو أصم ، أو مصاباً بأي مرض آخر — نسبوا ذلك للشياطين ، ولذلك امتلأت قلوبهم رعباً منهم ، وخافوا من الاماكن القديمة ، أو الخالية ، أو المظلمة ، أو من كب شيء على الأرض ، أو من دخول محال الغوط ، الى غير ذلك من الأوهام ، التي لا يزال أثرها في النساء ، خصوصاً نساء أهل مصر الى اليوم ، ويا ليت الأمر كان قاصراً على ما ذكر ، بل ظهرت نتيجة ذلك في أعمالهم ، وكانت سبباً في ضررهم ، ضرراً بليغاً ، فاذا أصيب أحدهم بمرض ما ، تداووا بالطلاسم ، وإيقاد البخور ، أو زيارة بعض القبور ، أو تعليق أوراق ، أو الاستنجاد براقٍ ، حتى يتمكن الداء وتستفحل العلة ، فلا يقوى الطبيب على استئصالها ، أو ايقاف سيرها ، ويموت الشخص ضحية الجهل والوهم ، هذا كان شأن الأمم ، في هذه المسألة ، وهذه كانت أفكارهم ، وكانت الأديان تأبهم ، ولا تزيل عنهم هذه الخزعبلات ، المميتة للنفوس والأجسام بل نسب الى رجال بعض الأديان ، أنهم اعترفوا بها ، وأيدوها تأييداً ، وأنهم نصوا على صحتها صريحاً ، فتجد أن كل صحيفة من كتبهم ، التي كتبوها كما يشاؤون وحسبما هو شائع في تلك العصور ، يدل على ان الشياطين ، هي علة هذه الأمراض ، كالصرع وأنواع التشنج ، والبكم والصمم ، وأنواع الجنون والعتاهة ، وغير ذلك ، مما عرفت أسباب أكثره العلوم الطبية الحديثة ، وما لم يعرفه قاسته على غيره ،

لوجود التشابه العظيم بينها ، ولشفاء بعضه باستعمال العلاجات المادية المحضة ، كالمواد الكيماوية ونحوها ،

أبى الإسلام والناس على تلك الحالة التوهمية ، فلم يشأ أن يتركهم وشأنهم ، يخبطون خبط العشواء ، في الليلة الدهماء ، بل أصلح هذه المسألة، كما أصلح غيرها، مما يمس النفس والجسم معـــاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وذلك بالإفصاح أن ليس للشيطان ، سبيل على الانسان ، إلا بالإغراء والوسوسة فقط ، قال تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ وما كانَ لي عليكم مِن سُلطانٍ ، إلاّ أنْ دَعَوتُكُم ، فاستَجَبتُم لي ، فلا تلوموني ، ولوموا أنفُسَكم ﴾ (١٤ ٢٢) وقال تعالى في خطابه للشيطان ﴿ إنّ عبادي ليسَ لَكَ عليهم سلطانٌ ، إلاّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوين ﴾ (١٥ ٤٢) الى غير ذلك من الآيات القرآنية ، التي تحصر سلطته في الوسوسة ، وتنفي عنه كل ما عداها ، وأما ماورد من قوله تعالى في حق المرابين ﴿ لا يقومون الا كما يقوم الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ مِنَ المَسّ ﴾ (٢ ٢٧٥) فهو على سبيل التمثيل والتشبيه ، الذي ورد مثله في كل لغة ، مهما كان اعتقاد قائله ، فهو على حد قوله تعالى في مقام آخر ﴿ طَلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطينِ ﴾ (٣٧ ٣٥) ، وتلك عبارة واحدة ، لم يَرِد غيرها ، فليطالع القارىء « العهد العتيق » بل ليطالع « العهد الجديد » ، ليعلم الفرق بين ذينك الكتابين ، وبين القرآن المجيد

بمثل هذه الحقائق التي قررها القرآن ، صار المسلم الحق ، لا يعبأ بالشيطان ، ولا يخشى منه أذى او ضرراً ، إلا ما كان دعوة لشهوة أو نحوها ، مما يجب عليه فيه الاحتراس ، فلذلك إذا أصابه مرض ما ، لا يستشفي بقديس أو قسيس ، كما يفعل غيره ، بل يطلب الطب والدواء ، ويأتي البيوتَ من أبوابها ، فأعْظِمْ بدين

الاسلام من دين، لم يذكر مما يُعتَقَدُ الا أرجحه، وأكبر بالقرآن من كتاب، لم يهمل شيئاً فاسداً إلا أصلحه

الله أكبر إن دين محمـــد
وكتابـه أقوى وأقوم قيـــلا

لا يذكروا الكتب السوالف عنده
طلـــع الصباح فأطفأ القنديلا

وهنا أتذكر، والشيء بالشيء يذكر، أن المبشر موسى القبطي، قال لي إنـه ورد عن نبيكم في بعض الأحاديث الصحيحة مامعناه «أن ليس للشيطان على المسيح من سبيل، حتى ولا بالنخس» ـ فقلت له هذا صحيح، ولكنه ورد لاجل الرد على من يقول منكم إن الشيطان كان له سلطة على المسيح ان يُصعِدَهُ الى البرية ليجرب، ثم يأخذه الى المدينة المقدسة، ويوقِفَهُ على جناح الهيكل، ثم يأخذه الى جبل عال (مت ٤ ١ ـ ١٢) ولاجل المحاماة عن شرف السيد المسيح، عليه السلام، ورد في حقه ذلك القول، على انه لاخصوصية للسيد المسيح في ذلك، فقد ورد مثله في حق بعض صحابة نبينا ﷺ، وذلك مارواه الطبراني في الكبير وهو قوله عليه الصلاة والسلام «ان الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم الا خر لوجهه» «وعن سعد بن ابي وقاص (رض) قال رسول الله ﷺ لعمر والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك»[1]

١) من سيرة عمر بن الخطاب (رض) لابن الجوزى

(ان الشيطان . الخ)

- ٤ -

قال الشيخ الموصلي .

معاهدة سيلان

نعلم من هذا ان للشيطان سلطاناً على هؤلاء الإخوة ، وبالتالي والنتيجة نعلم منه انهم ليسوا بأنبياء ، وقد قص الله تعالى علينا صورة « معاهدة سيلان » عاصمة آدم التي أجريت فيها تلك المعاهدة العتيقة بين المندوب السامي عن الله تعالى وهو بعضُ ملائكته من جهة ، وبين إبليس أرغم الله أنفه ، من جهة أخرى ، وهي كما يلي

المادة الاولى - إعطاء إبليس سلطة واسعة وكبيرة جداً ، وهي سلطانه العظيم على جمهور الناس ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى ﴿ قال أرأيْتَكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليّ ؟ لإن أخَّرتَنِ الى يوم القيمة لأحْتَنِكَنَّ ذُريتَهُ إلاّ قليلا . قالَ اذهب فمن تَبِعكَ منهم فان جهنمَ جزاؤُكم جزاءً موفوراً واستفْزِز مَن استَطعتَ منهم بصوْتِكَ وأجْلِب عليهم بخَيْلِكَ ورَجلِك وشارِكْهم فى الأموالِ والأولادِ وعِدْهم ، وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلاّ غُروراً ﴾ (١٧ ٦٢ - ٦٤)

المادة الثانية - عدم سلطة إبليس على عباد الله الصالحين ، أى عدم نفاذها لقلوبهم وعدم تأثيرها فيهم ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى ﴿ كذلك لنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفَحشاءَ إنَّه مِنْ عبادِنا المخلَصينَ ﴾ (١٢ ٢٤) وقوله ﴿ إلاّ

عبادَكَ منهم المخلَصِينَ ، قال هذا صِراطٌ عليّ مُستَقيمٌ ، إنّ عبادِي ليس لكَ عليهم سلطانٌ ، إلا مَن اتّبَعَكَ من الغاوِينَ ﴾ (١٥ ٤٠ - ٤٢) وقوله ﴿ إنّ عبادى ليسَ لك عليهم سلطانٌ ، وكفى بِربّكَ وكيلا ﴾ (١٧ ٦٥)

المادة الثالثة ـ إجابة طلب إبليس الإنظار الى يوم القيامة، والدليل على هذه المادة قوله تعالى ﴿ قالَ ربّ فأنظِرْنِي الى يَوم يُبْعَثونَ ، قالَ فإنّك مِنَ المُنظَرِين الى يومِ الوقتِ المعلومِ ﴾ (١٥ ٣٦ - ٣٨) و (٣٨ ٧٩ - ٨١)،

المادة الرابعة ـ أن يبقى إبليس ملعوناً الى يوم القيمة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى ﴿ وإن عليك اللعنةَ الى يومِ الدّين ﴾ (١٥ ٣٥) وفي آية اخرى ﴿ وإنّ عليكَ لَعْنَتى الى يوم الدين ﴾ (٣٨ ٧٨)

المادة الخامسة ـ هذه المعاهدة معمول بها وموضوعـــة موضع الإجراء الى آخر الدوران

المادة السادسة ـ تسمية هذه المعاهدة « معاهدة سيلان » لأن في « سيلان » عصمة آدم ، جرى هذا الاتفاق

توقيع الفريق الثاني	توقيع الفريق الأول
« إبليس »	« الملَك »

(رجع وانعطاف

سلطان الشيطان على اخوة يوسف

فلهذا ولكون إخوة يوسف ليسوا بأنبيـــاء كما حققه أخونا العلامة سليم الجابيوسي في الفصل الثاني من المقدمة ـــ كان للشيطان عليهم سلطان وتأثير ،

فصدر منهم الحسد والحيلة والخدعة وخلف الوعد والكذب والهم بقتل أخيهم أو طرحه أرضاً ، ثم إعطاء القرار النهائي بإلقائه في غياهب الجب كي يلتقطه بعض التجار المسافرين ، فيكون بعيداً عن وجه أبيه ، وأضف الى ذلك قطع الرحم وعقوق الوالد وظلم الأخ البرىء بلا موجب من جانبه ، وكل هذه المنكرات منهي عنها نهياً جازماً ، محظورة مخالفة للشريعة

نعم لا ننسى أن الله تعالى قال ﴿ لكلٍ جعلنا منكم شِرعَةً ومِنهاجاً ﴾ (٥ ٥١) وليس كل ممنوع في الشريعة المحمدية يجب أن يكون ممنوعاً في الشرائع السالفة ، لكن هذه المحظورات هي ممنوعة ومحرمة في كل شريعة وملة ، عند سائر أهل الأديان ، من لدن آدم الى خاتم الأنبياء ، فهي من الشرائع العامة التي أجمعت عليها الكتب والرسل ، هي من الشرائع الكلية التي لا يعتريها نسخ ولا تبديل ولا تحوير ، ولا هوادة ، لأن النسخ إنما يكون في الأعمال الفرعية ، أما الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة فلا يعتريها نسخ ما ، كالعقائد الأصولية ، والأقاصيص التاريخية فلا يدخل شيئاً من ذلك نسخ ولا تحوير ، فالأخلاق المذمومة محرمة في كل دين، كما أن الأخلاق الفاضلة والأدبيات واجبة في كل ملة

سعادة الدين تكون باقامته

وبالنتيجة فلتلك الأعمال السيئة على اختلاف أنواعها التي عملتها إخوة يوسف الصديق لم يسبق أهلوا أن يكونوا أنبياء ﴿الله أعلمُ حيثُ يجعَل رسالتَهُ﴾(٦ ١٢٤) بل ولا نقدر أن نقول إنهم كانوا قبل توبتهم أتقياء ، مع أن البيت بيت نبوة فأخوهم نبي، وأبوهم نبي وجدهم الأقرب نبي وأخوه نبي وجدهم الأعلى نبي، وابن أخيه نبي ، ولكن هم لم يكونوا أنبياء ، لأنهم بأعمالهم ومسلكهم وأخلاقهم لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الجليلة

العظمى ، بل الأمر أعظم من ذلك ، وهو أن سعادة الدين لا تحصل إلا باقامته ، كما قال تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبُدون إلاّ اللهَ ، وبالوالدين إحساناً ، وذي القُربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسْناً ، وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ، ثم تولّيتُمْ الا قليلاً منكم ، وأنتم مُعرِضون ، وإذْ أخذنا ميثاقكم ، لا تَسفِكُون دماءَكم ، ولا تُخرِجون أنفسَكم من ديارِكم ، ثمّ أقررتُم وأنتم تَشهَدون ، ثم أنتم هؤلاءِ تقتُلون أنفُسَكُم ، وتُخرِجون فريقاً منكم من ديارِهم ، تَظاهَرون عليهم بالإثمِ والعُدوانِ ـ وإن يأتوكم أُسارىٰ تُفادوهم ـ وهو مُحَرّمٌ عليكم إخراجُهم ، أفتؤمِنُون ببعضِ الكتابِ وتكفُرون ببعضٍ ، فما جزاءُ مَن يفعلُ ذلك منكم إلاّ خِزْيٌ في الحياةِ الدنيا ، ويومَ القيٰمةِ يُرَدُّونَ الى أشدِ العذاب ، وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون ، اولئك الذين اشْتَرَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا يُخَفّفُ عنهم العذابُ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢ ٨٣ — ٨٦) ، فاخوة يوسف لم يعملوا مع أبيهم إحساناً ، ولا مع ذي قرباهم وهو أخوهم ، ولا مع ... من الأمم ، ولم يقولوا لأخيهم حسناً ، ثم تفاوضوا في قتله وأخيراً أخرجوه من دياره ، وتظ... عليه بالإثم والعدوان ، وهو محرم عليهم إخراجه فاذّا وابّا ولا ولا.

سعادة الدين بهذا إنما تحصل باقامته ، وإذا لم يقمه الإنسان لم يكن سعيداً به ، فكيف يجوز للذي لم يقمه ان يكون نبياً ؟!! ولعمري لولا أن إخوة يوسف قد لطف الله بهم بأن وفقوا للتوبة لكانت عاقبتهم من أردأ العواقب ، ولكن الله سلم ، هذا ما تيسر لنا هنا والسلام عليكم

أصوات من الجميع لا فض فوك ، لا فض فوك .

غير أن استاداً واحداً من أعضاء المؤتمر ، وهو الشيخ البغدادي(١) ، قام وصعد على المنبر وقال

انتقاد عقد معاهدة سيلان والرد عليه

إخواني إني انتقد على الأخ الشيخ الموصلي ، حفظه الله أموراً

أولها — تصوره انعقاد معاهدة بين إبليس وبين الملك المندوب عن الله ، لأن محصل هذا وخلاصته أن معاهدة عقدت بين إبليس وبين الله ، ولا يخفى ما في هذا من توقير لإبليس وعدم احترام لجانب الله تعالى

ثانيها — تعبيره « بالمنـــدوب » الذي لم يرد استعماله في لسان الشرع ، دون التعبير الوارد في اللسان الشرعي ؟ وهو كلمة « رسول » بدلاً من مندوب

ثالثها — قول الأخ الموصلي إن الله أعطى إبليس سلطة واسعة وسلطاناً عظيماً على جمهور الناس ، وأما أنا فلا أظن شيئاً من ذلك سوى أن الله ترك إبليس وشأنه يعمل ما يشاء مع غير عباد الله المخلَصين ، حكمه كحـــكم باقي المخلوقات ، الذين أعطاهم الله جزءاً اختيارياً ، وحرية في العمل ضمن نفوذ مشيئة الله تعالى ، هذا ما عرض لي أن الاحظ به على الأخ

قال ذلك ونزل عن المنبر ، فعاد اليه الشيخ الموصلي يدافع عن نفسه قائلا

سادتي أرى أخي وصديقي الشيخ البغدادي ، لاحظ عليّ ثلاثة أمور ، وإني أريد أن أجيب عنها واحداً بعد واحد

فأما الجواب عن الانتقاد الأول فهو أن الله تعالى عمل معاهدة مع اليهود

(١) نسبة الى بغداد عاصمة العراق

كما حاء في القرآن الكريم على لسانهم ﴿ إنَّ اللهَ عَهِد اليها أن لا نُؤمِنَ لِرَسُولٍ حتى نأتِيَنا بقُربانٍ تأكلُهُ النارُ الخ ﴾ (٣ ١٨٢) والنبي (ﷺ) عاهد اليهود وعاهدوه ، كما قال الله في كتابه العزيز ﴿ أوَكلّما عاهَدوا عَهْداً نَبَذَهُ فريقٌ منهم ؟ بل اكثرهم لا يؤمنون ﴾ (٢ ١٠٠) ، ووقعت المعاهدة بين النبي (ﷺ) والمشركين كما نعلمه من قوله ﴿ إلاّ الذينَ عاهدتُم مِنَ المُشرِكِينَ ﴾ (٩ ٥) ، ولا ريب أن مآل المعاهدة بين النبي واليهود وبين اليهود والمشركين أن يكون هذه المعاهده بين من ذكروا وبين الله تعالى ، ذلك لأن النبي سفير عن الله ، كما أن المَلَك الذى سميناه «مندوباً» هو سفير عن الله فكما جاز هذا التعبير فليجز تعبيرنا

وأما الجواب عن الانتقاد الثاني فلسان الشرع لا يمنع تسمية الملَك المرسل من قبل الله ، « مندوباً سامياً » لأن العلماء لم ينصوا على أن اسماء الملائكة توقيفية وإنما التوقيفية هي أسماء الله تعالى وصفاته ، والذي حدا بي الى هذا التعبير بهذا الاسم ، هو سرعة فهم المراد منه عند القراء من أهل العصر الحاضر

وأما الجواب عن الانتقاد الثالث فهو أن الله تعالى ذكر تلك المحاورة في عدة مواضع من كتابه الكريم ، فمنها آيه ﴿ قال ربِّ فَأنْظِرني الى يوم يُبْعَثونَ ، قال فَإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين ، الى يومِ الوقتِ المعلوم ، قال ربِّ بما أغويْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ، ولأُغوِيَنَّهُمْ أجمعينَ ، إلا عبادَكَ منهم المخلَصين ، قال هذا صِراطٌ عليَّ مستقيمٌ إنَّ عبادِي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ، إلاّ مَن اتبعَكَ مِنَ الغاوين ، وإنَّ جهنَّمَ لمَوعِدُهُم أجمعينَ ﴾ (١٥ ٣٧ — ٤٣)

وأثبت هنا أن لإبليس سلطاناً على الغاوين ، كما قال في آية اخرى ﴿ إنه ليسَ له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون ، إنما سلطانُهُ على الذين يتولَّونَهُ ،

والذينَ هم بهمُشرِكون ﴾ (١٦ ٩٩ و ١٠٠) ، ومنها آية ﴿قال ربِ فأنظِرني الى يوم يُبعَثون ، — قال فإنك من المُنظرين ، إلى يوم الوقتِ المعلومِ — قال فَبِعِزَّتِكَ لأُغوِيَنَّهُم أجمعينَ ، إلاّ عبادَك منهم المُخلَصين ، — قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ لأملأنَّ جهنمَ منكَ ومِمّن تَبِعكَ منهم أجمعين ﴾ (٣٨ ٧٩ — ٨٥) وغيرخافٍ أن هذه الآيات الكريمة تفيد أن الله تعالى سلط إبليس على الناس، قال في القاموس والتسليط التغليب وإطلاق القهر والقدرة وهذا المقدار ، جائز على الله ومن الله كما قال تعالى ﴿ ولو شاءَ اللهُ ، لَسَلّطهم عليكم فلقَاتلوكم ﴾ (٤ ٤٩) أي لو أراد الله تعالى لسلط هؤلاء القومالمشركين على المؤمنين ، فاذا كان يجوز على الله ومن الله ، أن يسلط بعض المشركين على المؤمنين ليقاتلوهم ، جاز عليه ان يسلط ابليس على الناس ، والله تعالى اعلم

آمال يعقوب في يوسف

آ(٦) « وكذلكَ يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ، ويُعلِّمُك مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، ويُتِمُّ نِعمَتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتمَّها على أبويْكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ ، إنَّ ربّكَ عليمٌ حكيمٌ »

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة فقام السيد النجفي [١] وقال

(وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) يعني كما اجتبال لمثل

١) نسبة الى النجف الاشرف من بلاد العراق

هده الرؤيا العطيمة الدالة على شرف وعز وعلو شأن ، كدلك يحتبيك ربك لأمور عظام ، والاحتباء الاصطفاء ، من حبيت الشيء إدا حصلته لنفسك ، وحبيت الماء في الحوص ، جمعته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وهي الرؤى ، لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان ، ويأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها ، ويحور أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أعراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها على الله ورسله ، فيقال قال الله وقال الرسول كدا وكدا، ألا ترى الى قوله تعالى ﴿فبأيّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمنون﴾ (٧　١٨٤) وقوله ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديث﴾ (٣٩　٢٣) ولفط « أحاديث » مرن ، اسم أن تصيغه وأن توسعه ، وهو اسم جمع للحديث ،(ويتم نعمته عليك) بالترقي في الدرجات الدنيوية ، كمصيره وزير مالية وعزيزاً بمصر ووكيلاً عن مليكها الريان وإحرازه لقب صديق ، وفي أمور الآخرة كمصيره نبياً ورسولاً (وعلى آل) ذرية (يعقوب) وسلالته بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً (كما أتمها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ) فكان ابراهيم نبيـــاً ورسولاً وخليلاً وأميراً ، وكان ولده إسحق نبيـاً ورسولاً ، (إن ربك عليم)، يعلم من يحق له الاحتباء (حكيم) لا يتم نعمه إلا على من يستحقها

هدا ما أظهره لك ودع ما أضمره والله على كل شيء قدير

و كذلك . الخ

قال السيد الكربلائي :

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة

أخذ يعقوب يعد ولده ويبشره بالسعادة الكبرى المستقبلة فقال بما معناه الروحي إن الأمر لأعظم مما تفيده رؤياك يا ولدي ، فإني على مثل اليقين أنك لا تلبث إلا قليلا ، حتى ترى في مستقبلك بثلاثة أمور عظمى الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ، فانتظر ما سيجيء به الغد ، ورؤياك التي ذكرتها لي هي عربون من الله على صحة وتحقيق ما قلته لك ، وبشر بك به الآن ، وإني أرى مستقبلك أمامي رأي العين ، فلا بد أن يقع ذلك ، إن عاجلاً وإن آجلا ، وليست المسألة مسألة تعيين لك مني أو من غيري من المخلوقين ، ولكنها مسألة انتخاب لك من رب العالمين فانتخبك الله لهذه الأمور الثلاث ، من بين إخوتك وسائر أنسبائك

★ ★ ★

إن تصورات يعقوب في أحوال يوسف المستقبلة هي من نوع أو قرينة من رؤيا يوسف نفسه ، نعم إن مرمى بشارة يوسف المنامية مختلف بالشخص مع مرمى بشارة يعقوب اليقظية ، ولكن النوع واحد ، وهو الحصول على رقي تام وامتيازات تامة ، وبالنتيجة فبشارتاهما ترميان لشيء واحدٍ هو علو مكانة يوسف فيما يأتي من الزمان ، فكأن يعقوب سكب ملهمه في قلب يوسف ، حتى استحالا الى قلب واحد ،

يشعر بشعور واحد، ويحس باحساس واحد، ويفكر فكراً واحداً وكأنهما روحان حلا في بدن، او بدنان بروح واحدة، هذا ما يشف عنه المطشعوف الكأس الصافية عن الشراب، وقد يؤلما وايم الحق ما كتبه المفسرون هنا مما يخالف هذا الذي قررناه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

صراح من الجميع
« لله ابت »

« وكذلك »

- ٢ -

قال الشيخ امين المئر سعي [١]

فرح يوسف ببشارة ابيه له ووقوعها حرفاً بحرف

عنا أن يوسف يقص لأبيه جملة ما أوحى اليه مناماً، رأى أبوه من المناسب أن يقص لابنه جملة ما اوحي اليه بشأنه يقظة، فأبدى له تلك البشرى المثلثة، وما كان أعظم فرح يوسف عندما سمع هذه البشرى من أبيه؟ وانك لو سبرت غور قلبه وقتئذ لرأيته يكاد يطير من شدة السرور والغبطة، كأن الله تعالى بشر يوسف في المنام بواسطة ملك من ملائكته ـ وهو جبريل ـ بسجود الكواكب له مع الشمس والقمر، والآن بشره في اليقظة بواسطة نبي من أنبيائه ـ وهو يعقوب ـ باجتباء الله له، وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه، ويمكن أن يقول إن البشرى الثانية انت ليعقوب من الفرس في مستقبل ابنه، لأنه كان إذا رآه،

١) نسبه الى ثر السبع وهي بلده في فلسطين

بتوسم مناقبه مصورة في محياه وفي حديث ابن عمر (ص) « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل » ، رواه البخاري في تاريخه ، وعلى كل فغني عن البيان أن البشارة الثانية أعلى حداً ، وحداً أعلى من البشارة الأولى ، ولذلك فلا يرتاب في أن يوسف كما كان طرب واندهش من مرمى رؤياه المنامية ، فقد طرب ودهش أكثر وأكثر من بشارة أبيه اليقظية ، وقد وقع كل ما أخبر به يعقوب ولده ، حرفاً بحرف ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه ، يقرأ منه ما يشاء وعلى الأقل كأنه كان يقرأ ذلك في وجه ولده السعيد ، فلذلك وعـده أبوه ومنّـاه ، كأنما هو عن وحي وإلهام

(يجتبيك)

– ١ –

قال العلامة الدمشقي السوقسار وحي [١]

الاجتباء في اللغة واجتباء الله ليوسف والانبياء والاسلام

يقال جباه الله واجتباه ، جمعه اليه وأدناه منه واختاره دون سواه ، فهو مجتبي ، مجتول ، مختار ، مصطفى متقاربة ، والجابية تجمع الماء وجمعها جوابي ، قال تعالى ﴿ وجِفانٍ كالجوابِ ﴾ (٣٤ ١٣) وقال سبحانه ﴿ أوَ لَم نمكن لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليهِ ثَمَرَاتُ كلِّ شيءٍ ﴾ (٢٨ ٥٧) ، أي يجمع ، وجبى الخراج يجبي جباية ، جمعه وكلمة (جبى) تشارك (جابَ) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع ، وفيه قوله تعالى ﴿ جابُوا

(١) نسبة الى جي سوق ساروجه في بلده دمشق

الصَّخْرَ بالوادِ ﴾ (٨٩ ٩) أي قطعوه ، وجاب البلاد ، قطعهـــا بالاسفار ، واجتبيتها قطعتها ، ووجه المقاربة بينهما في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه ، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها

فمعنى (يجتبيك) في الآية ، يختارك ويصطفيك ويدنيك منه ، ويجمعك اليه ، ويقتطعك من دون العالم الى حضرته ، تبارك المعطي الوهاب ، فالله اجتبى يوسف ، وملك مصر استخلصه لنفسه ، وما الثانية الا مظهراً من مظاهر الأولى ، فدرة من درات الاجتباء السماوى تجعل العبد محتبى لجميع من يعقل من أهل الأرض

الله اجتبى يوسف وانتحله على اخوته ، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة ، واصطفاه على سائر أهل عصره ، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرهما ، لأنه أصفاهم جوهراً ، وأروحهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع (يجتبيك) باعتبار ماسيكون ليوسف آنذاك ، في القريب العاجل ، وكل آت قريب ، وما أبعد المسافات ؟ وما أقرب ماهو آت ؟ فيوسف احتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ اجْتَبَاه رَبهُ فتابَ عليه وهَدَى ﴾ (٢٠ ١٢٢) وكجده إبراهيم الذي . ﴿ اجْتَبَاهُ وهَدَاه الى صِراطٍ مستقيـــمٍ ﴾ (١٦ ١٢) ، وكعموم الخمسة وعشرين نبياً الذين ﴿ اجْتَبَيناهُم وهَدَيناهُم الى صِراطٍ مستقيم ﴾ (٦ ٨٧) نعم ، قال الله تعالى في كل العالم الاسلامي ﴿ هُو اجتباكم ﴾ (٢٢ ٧٨) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتباءين ، فاجتباء الله لأهل الاسلام هو بمعنى أعم وأحط من اجتبائه تعالى ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء ، فهو أخص وأعلى من الأول

(لتعش يا أستاذ)

(يجتبيك . . الخ)

– ٢ –

قال الاستاذ الباب مريحي (١)

نبوة يوسف والانبياء قبله وبعده

اجتبى الله يوسف وأتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة للمصريين ، كما قال مؤمن آل فرعون خطاباً للمصريين ﴿ وَلَقَد جاءَكُم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ ، فمازلتُم في شكٍ مِمّا جاءَكُم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يَبعثَ اللهُ من بعدِهِ رسولاً ﴾ (٤٠ ٣٤) وقبله أرسل أبوه يعقوب ـ لأهل فلسطين ، وإسماعيل للعرب ، وأخوه إسحاق ـ للفلسطينيين ، وإبراهيم ـ للكلدان ، ولوط ـ اشرقي الأردن والمؤتفكات ، وهي (قريات الملح) الخمس ، وصالح لثمود الذين في الحجر بين الشام والحجاز الى وادي القرى ، أو بين معان والعقبة ، وذلك هو (بترا) ، وهود ـ لعاد ، مابين عُمان وحضرموت

وأما بعد يوسف فقد أرسل الله شعيباً ـ الى مَدْيَن ، وهي تمتد من العقبة الى طور سينـــاء ، أو من شبه جزيرة سينا الى الفرات كما أرسله الله أيضاً الى أصحاب الأيكة ، كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الاحمر الى مَدين ، وأيوب ـ الى أهالي نجد على القول بأنه نجدي ، أو الى حوران على القول بأنه حوراني ، وموسى وأخوه هارون ـ الى القبط وبني اسرائيل بمصر ، وداودوابنه سليمان ـ الى بني اسرائيل بفلسطين ، وهكذا زكريا وابنه يحيى ، وأما يونس فالى

(١) نسبه الى حي باب سريجه في دمشق

نينوى عاصمة الآشوريين ـ قرب الموصل

وما أن نزل الأستاذ الدمشقي الشاب سريحي عن منبر الخطابة حتى نهض على أثره الأستاذ البرامكي(١) وقال

سمعتم أيها السادة ما فصل به صديقنا المحترم ، والآن تذييلاً لما ذكره أذكركم بالنبي (صموئيل بن ألقانه) المرموز اليه في القرآن بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ الى الملأ مِن بني إسرائيلَ مِن بعدِ موسى إذ قالوا لنبيٍ لهم ـ وهو صموئيل ـ ابعَثْ لنا مَلِكاً نقاتلْ في سبيلِ اللهِ ؟ ـ قال هل عَسَيتُم إن كُتِبَ عليكُمُ القتالُ أن لا تقاتلوا ؟ ـ قالوا وما لنا أن نقاتلَ في سبيل اللهِ وقد أُخرِجنا مِن ديارِنا وأبنائنا ؟ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تولّوا إلاّ قليلاً منهم ، واللهُ عليمٌ بالظالمين ـ وقال لهم نبيُّهُم إن الله قد بعثَ لكم طالوتَ مَلِكاً ، ـ قالوا أنّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملكِ منه ، ولم يُؤتَ سَعَةً من المال ؟ ـ قالَ إنّ اللهَ اصطفاهُ عليكم ، وزادَه بسطةً في العلم والجسم ، والله يؤتي مُلكَهُ من يشاء ، والله واسعٌ عليمٌ ـ وقال لهم نبيّهم إن آية مُلكِه ، أن يأتيَكم التابوتُ فيه سكينةٌ مِن ربّكم ، وبقيةٌ مما ترَكَ آلُ موسى وآلُ هرونَ ، تَحمِلُه الملائكةُ ، إنّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢ ٢٤٦-٢٤٨)

فهذا النبي هو (صموئيل) الذي يسميه مؤرخو العرب على سبيل التعريب (صموئيل أو شموئيل) وهذا النبي الكريم هو آخر قضاة بني اسرائيل الخمسة عشر ، مكث قاضياً عليهم مدة « ١٢ » سنة ، وكانت مدة حكم هؤلاء القضاة نحو « ٤٥٠ » سنة من موت يشوع بن نون ، فتى موسى ، الى أيام النبي صموئيل المذكور ، وبهذه المناسبة نتذكر النبي (يشوع) المرموز له في قوله تعالى ﴿ وإذ قالَ موسى لفتاه

(١) نسبة الى حي البرامكة في دمشق (سوريه)

لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمعَ البحرين أو أمضيَ حُقُباً ﴾ (١٨ ٦١) فهذا الفتى هو يشوع بن نون تلميذ موسى الذى صار نبياً بعده وخليفة عنه على بني اسرائيل والقائد الأعظم فى حربهم مع الفلسطينيين ، وهو أحد الاثني عشر رجلاً الذين أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، كما هو أحد الرجلين الاثنين في قوله تعالى ﴿ قال رجلانِ منَ الذينَ يخافونَ ، أنعمَ اللهُ عليهما ادخلُوا عليهِمُ البابَ ، فاذا دخلتمُوهُ فإنكم غالبونَ ﴾ (٥ ٢٥) والرجل الثالث هو «كالب ابن يَفُنَّة » والخلاصة إن من الأنبياء هذين الكريمين وهما صموئيل ويسوع ، ويهمنا معرفتها بصورة خاصة ، لأنهما مذكوران في القرآن الكريم ، ولذلك اقتصرت فى خطابي على ذكرهما فقط (حيد)

(ويُعلمك)

- ١ -

قال الفاضل اسماعيل من علماء غزة

تعليم يوسف

(ويعلمك) كما علم قبلك الملائكة حتى قالوا ﴿سبحانَكَ لا علمَ لنا إلا ما علّمتنا ﴾ (٢ ٣٢) وكما ﴿علّمَ آدمَ الأسماءَ كلّها ﴾ (٢ ٣١) وقال في أبيك يعقوب ﴿ وإنّه لذو علمٍ لِمَا علّمناهُ ﴾ (آ ٦٨) وقال عن الخضر ﴿ وعلّمناهُ من لدُنّا عِلْماً ﴾ (٨٨ ٦٦) كانت هذه البشارة ليوسف من أبيه كما كانت رؤياه المنامية وهو في (سيلون) من أعمال فلسطين ، وقد تحقق مضمونها وهو في (صوعن) عاصمة مصر، أي عاصمة المملكة الهكسوسية

في دلك العصر ـ و كما تسمى صوعن فتسمى (تانيس) و (طاس) و (صان) ، وتسمى اليوم (صان الحجر) ـ ، وقد كان الزمن بين الشرى المامية وبين تحقيق مصمونها نحو « ٢٢ » سنة ، فعلى العاقل إذا وعد شيء أن ينتظر ولا يستبطىء ما وعد به ، فقد دعا موسى وهرون على فرعون وملائه ، فالباري تعالى قال ﴿ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (١٠ ٨٩) قيل مكث موسى بعد الدعاء قريباً من أربعين سنة

(تأويل الاحاديث)

ـ ٣ ـ

قال الشيخ مضيوف اليافي (١)

مقومات الحديث وتأويله

لكل حديث معنى افرادي ، ومعنى تركيبي ، وغاية ينتهي اليها ، وإن شئت قلت مصداق بعم فيكون هو جزء الخبر

فأما القسم الأول ، وهو المعنى الإفرادي ، فهو ما يذكر في كتب الصرف واللغة كالنساء والمقصود والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفرده

وأما القسم الثاني وهو المعنى التركيبي ، فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني

---

(١) نسبة الى يافا من بلاد فلسطين

والبيان ، من معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ، والفهم في هذين الصربين قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً ، وإنه لَيَستوي فيه كل إنسان عاقل لبيب ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، مؤمناً أو كافراً ، وهو أمر كسبي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وحده ، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك ،

وأما القسم الثالث وهو الغاية التي ينتهي اليها الحديث وان شئت فلت مصداق الحديث الذي يقع فيكون هو خُبْر الخَبَر ـ فهذا لا يكون بكسب وحدٍ ولا يستوي فيه سائر الناس ، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه ولا يمكن أن يستقل به المرء ، ولكنه مَوهبة من الله تعالى ، وإلهام يلهمه عباده الصالحين ، من أنبيائه وأوليائه وعلمائه ، وهـذه الغاية التى تنتهي إليهـا الأحاديث ـ وبعبارة أخرى ـ هذا المصداق الذى هو ذات ما أخبِرَ به هي التي يعبر عنها تارة بالمصائر وحيناً بالعواقب والمراجع وطوراً بالمصاديق وأخيراً وبتعبير مختصر . إذا قلنا « تأويل الأحاديث » نعني المحكي عنه في تلك الحكاية التي هي الحديث ، فالحديث حكاية ، وتأويله هوالمحكي عنه ، فالتأويل تفعيل من آلَ إذا رجع ،وهو ما يؤول اليه الشيء ، وبالمثال يتضح المعنى وتظهر صحة المقال

١ ـ قال تعالى ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردُوه الى اللهِ والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ (٤ ٥٨) أي عاقبةً ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي

٢ ـ قال تعالى ﴿ ولا تَقربوا مالَ اليتيمِ إلا بالتى هي أحسن حتى يَبلغَ أشدَّه ، وأوفُوا بالعهدِ ، إن العهدَ كان مسئولاً ، وأوفُوا الكيلَ إذا كِلتُم ، وزِنوا بالقسطاسِ المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاَ ﴾(١٧ ٣٤ و ٣٥)أي أحسن عاقبةً ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي

٣ ـ قال تعالى ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ ، قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (٧ ٥٢) فتأويله هنا عاقبة أمره وما يؤول اليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (كشاف) فهو تأويل فعلي

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب تفسيره وبيانه ، لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة ، فلا يحتاج الى التفسير والبيان ، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ما جاء به من شؤون الآخرة كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جرا ، وذلك واضح لا غبار عليه ، وهل يفهم غير هذا من قوله تعالى ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق الخ ﴾ فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية ، ولا جرم أنه لا يعلم حقائق شؤون الآخرة مثلا ، ولا كيف تقع ، ولا متى تكون سوى السميع العليم ، فالمؤمنون يؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة ، فان ذلك من موضوعات علم الله وحده ، دون سواه إلا من ارتضى من رسول ، وأما الذين كفروا ، فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله

٤ ـ قال تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ (١٠ ٣٩) أي مصيره ومصداقه وذات ما أخبر به مما سينزل بهم من عقاب الدنيا والآخرة ، وسائر نذره وبشائره ، فهو تأويل فعلي وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه ، والكلام عن الله

وداته وصفاته والساعة وأشراطها وشؤون الآخرة والوعدوالوعيد ، وكيف تقع ومتى تقع ، فكل هده الاشياء ومااليها لا يعلمها إلا الله ولكنه ربما علّم شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول ، ومن كان على قدمه من الصالحين ، وكل هده الأشياء ونحوها كدبوا بها لأنهم لم يحيطوا بعلمها ولما يروا ويشاهدوا تأويلها أي مصائرها ودانها ، فالتأويل هو كل مابعد به الكتاب السماوي من المثوبة والعقوبة أي مايؤول اليه الأمر في الوعد والوعيد والاخبار

٥ ـ في حديث عائشة (ص) كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده (سبحانك اللهم وبحمدك) يتأول القرآن ، يعني إنه مأخود من قوله تعالى ﴿ فسبحْ بحمدِ ربِّكَ واستَغفِره ﴾ (١١٠ ٣) أي يعني أن النبي يرجع بدلك الى القرآن ويصير الى هده الآية ، فهو تأويل فعلي

٦ ـ روي عن رسول الله (ﷺ) أنه تلا آية ﴿ قُلْ هو القادرُ على أنْ يَبْعَثَ عليكم عداباً مِن فوقِكم أو من تحتِ أرجلِكُم أو يَلبِسَكُم شيَعاً ويُديقَ بَعضَكُم بأسَ بعضٍ ﴾ (٦ ٦٥) فقال (إنها كائنة ، ولمّا يأتِ تأويلها بعدُ) فالتأويل هنا أيضاً فعلي بمعنى تحقق وجود الخبر

ولا بد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهدا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان

١ ـ التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته ، وهدا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل ، ومنه الشواهد السبعة التي تلوناها على أسماعكم ، بل منه أيضاً ما في قول يوسف الصديق (يا أبتِ هدا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ) أي هـدا الفعل مصداقها ومصيرها ، فهو تأويل فعلي

٢ ـ التأويل بمعنى تفسير المشابه ، وهذا تأويل قولي علمي ، وله أمثلة في القرآن والحديث كثيرة، ليس هذا موضع بيانها

٣ ـ التأويل بمعنى بيان السبب والعلة ، كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى ﴿ سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة الخ ﴾ (١٨ ٨٠)

(الاحاديث)

- ١ -

قال استاذنا الحضرموتي (١)

الحديث لغة واصطلاحاً

الأحاديث اسم جمع لحديث ، على ماظن الزمخشري في كشافه ، أوجمع تكسير له على غير قياس ، على ماظن الزمخشري ايضاً ، في (المفصل) ، كما قالوا باطل وأباطيل وإذا كانوا يقولون في عبابيد إنه جمع تكسير ولم يلفظوا له بمفرد ، فكيف لا يكون أحاديث وأباطيل جمع تكسير وقد لفظوا بمفرده ؟ هذا ويطلق لفظ (الحديث) على أربعة أمور

١ ـ على القرآن الكريم كما قال تعالى ﴿ فبأيّ حديثٍ بعدَه يؤمنون ﴾ (٧ ١٨٤ و ٧٧ ١٥) وقال تعالى ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين ﴾ (٥٢ ٣٤)

(١) نسبة الى حضرموت احدى البلاد العربية في جنوبي جزيرة العرب

٢ ـ على كلام النبي (ﷺ) كقولهم (حدث النبي وأحادث النبي) أي ما كان النبي (ﷺ) يحدثهم به ومنه أحاديث البخاري ، أحاديث مسلم ، أحاديث الموطأ وهكذا

٣ ـ على الأقاصيص التاريخية ومنه ﴿ هل أتاكَ حديثُ موسى ﴾(٧٩ ١٥)، ﴿ وجعلناهُم أحاديثَ ، وَبُعداً لقومٍ لا يُؤمِنُون ﴾ (٢٣ ٤٤) ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ، ومَزَّقناهُم كلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (٣٣ ١٩) غير أنه وقع الاصطلاح على أن الأحاديث التي يتحدث بها الناس على وجه الذكرى والاستفادة هي اسم جمع لحديث ، وذلك كما في المثال الأول، وأما الاحاديث التي يتحدث بهـا الناس تلهياً وتعجباً ، فهو عندهم جمع أحدوثة مثل أضحوكة وألعوبة وأعجوبة ، وذلك كما في المثالين الأخيرين

٤ ـ على أحاديث النفس يقظة أو مناماً ، ثم أحاديث النفس في اليقظة هي درجة بين الخواطر والهموم ، وأما أحاديث المنام ، فإن كانت من الله قيل لها (رؤيا)، وان كانت من الشيطان قيل لها (حُلم)

وكل هذه المعاني الأربعة وما ألحق بها داخل تحت عموم كلمـة (أحاديث) فالمعنى ان يعقوب بشر ولده النجيب بأن الله تعالى سيوجد فيه أهلية وقدرة على فهم مرامي ومقاصد الكتب السماوية وأحاديث النفس وإلهام الملك في المنام وغير ذلك من كتب العلم والتاريخ وكلام الناس واسفار الحكمة والآداب ، وعلى العموم فعلى مقاصد الكتب السماوية ، والشرائع الوضعية ، والقوانين والنظامات الحكومية ، والأسفار الاجتماعيـة ، ومرامي أحاديث الناس ، وما يقرأ ومايسمع ، وما يقول وما الى ذلك ، فيكون صاحب رأي في عاقبة كل هذه المذكورات ، وذا بصيرة في مرجع كل ما يقوله ويقال له

هذا ما ألهمنيه الملك العلام ، في هذا المقام ، نعمته اليكم والسلام عليكم
(لا يفضض الله فاك)

(ويتم نعمته الخ)

- ١ -

قال العلامة الهندي

اتمام النعمة على يوسف

نعني ثم نعمتــه عليك بإسباغ نوافل خيراته ، ونوامي بركاته ، وقد فعل ، و (يتم) في مستقبل الأيام (نعمه عليك) بصورة خاصة لا تَعْدوكَ (وعلى آل يعقوب) بصورة عامة شاملة تسع الجميع منهم (كما) كان فيما مضى من الزمان قد (أتمها على أبويك) تتم نعمته عليك كما يجب ، وعلى آل يعقوب كما يجبون

تتم نعمته عليك سلبياً وإيجابياً ، بالتخلية وبالتحلية ، بالسلامة من الشر وحصول الخير ، بالإنجاء من المهالك ، والترقي والعز والسؤدد

وقد أتم الله نعمته على يوسف بنجاته من الموت بيـــد إخوته ، ثم نجاته من الجب سالماً ، ثم بظهور سلامة عرضه ، ثم بخروجه من السجن بصورة تكفل شرفه وناموسه ، ثم بجلوسه على عرش مصر عزيزاً ، كما أتمها بأفضل من ذلك كله وهو النبوة والرسالة وإيتاء الحكم والعلم

ومن إتمام نعمته تعالى على يوسف أيضاً انتصاره على الأضداد

١ - الانتصار على الشيطان والهوى والميول النفسانية (ع ٢٣ و ٢٤)

٢ - الانتصار على زليخا امرأة العزيز بظهور براءته مما اتهمته به (ع ٢٦ - ٣٢) و (ع ٥١ - ٥٣

٣ ـ انتصر على عزيز مصر قوطيفار ، الذي سجنه سجناً إدارياً ظلماً ، فخرج من سجنه وجلس محله على العرش ، وصار (عزيزاً لمصر) بدلاً منه(ع٥٤-٥٦)

٤ ـ انتصر على إخوته العشرة برجوعهم اليـه ثالث سفرة ، وخضوعهم بين يديه واعترافهم بخطئهم، وسكناهم وأهلهم بمعيته وتحت نظره (ع ٨٨ - ٩١)

(آل يعقوب)

- ١ -

قال صدر الدين الدمشقي الباب سريجي (١)

من هم آل يعقوب

(آل يعقوب) أسباطه ، والسبط ولد الولد ، والفرق من اليهود ، ويقال للعرب قبائل ولليهود أسباط كما فى المصباح

وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت فى كتاب الله تعالى بمعنى واحد ، والثاني بنو إسرائيل كما فى ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيلَ البحرَ ﴾ (١٠ ٩٠) والثالث ذرية إسرائيل كما فى ﴿ وَمِن ذريةِ إبراهيـمَ وإسرائيلَ ﴾ (١٩ ٥٨) والرابع والخامس الأسباط والأمم كما فى ﴿ وقَطّعناهم اثنتَي عَشْرةَ أسباطاً أمَماً ﴾ (٩ ١٥٩)

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، ويطلق على جميع أتباع الرجل ، فمن الأول قوله تعالى ﴿ فالتقَطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً ﴾ (٢٨ ٨) إذا قلنا إنّ الملتقط هو شخص من افراد الاسرة المالكه ، وإن قلنا أن الملتقط هو إحدى الجواري او الخادمات كان من

(١) نسبة الى حي باب السريجة فى دمشق (سوريه

قيل إطلاقه على الأتباع كما في ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ (٢ ٥٠) ، ومن أمثلة إطلاقه على الذرية ما في قوله سبحانه ﴿ إنّ اللهَ اصطفى آلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمينَ ، ذريّةً بعضُها مِن بعضٍ واللهُ سميعٌ عليم ﴾ (٣ ٣٣و٣٤)، فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلائله من اسماعيل بن (هاجر) وإسحاق بن (ساراي) وأبنائه الستة من زوجه (قطورة) ، وهم زِمْران ويَقْشان ومَدان ومِدْيان ويَشْباق وشُوحا (تك ٢٥ ١ و ٢) ، فأولاد إبراهيم لصلبه ثمانية من ثلاث زوجات ، ثنتان عربيتان وواحدة عبرانية ، وكان من المديانيين (شعيب) عليه السلام ، كما كان من اسحاق جميع أنبياء بني اسرائيل ، وكما كان من اسماعيل خاتم الأنبياء (ﷺ) و (عمران) هيهنا تعريب (عمرام) ، ومعنى عمرام (شعب عالي) وهو المدعو في الانجيل (هالي) أي عالي ، لأنهم يبادلون بين العين والهاء ، متصرف فيه بحذف صدره والاكتفاء بعجزه ، وهو أبو مريم أم المسيح (فآل عمران) إذن عبارة عن المسيح فقط ، وبهذا التحقيق الذي ذكرناه بالمناسبة ندفع اعتراض البروتستانت على القرآن المجيد بأن أبا مريم لا يدعى (عمران)، كما يقول القرآن ، ولكن يدعى (هالي) كما يقول الانجيل ، فحمد ما أتيتك وكن من الشاكرين

(شكراً وحمداً يااستاذ)

((آل يعقوب))

- ٣ -

قال علام الدين الدمشقي العماري (١)

النعم التي اتمها الله على آل يعقوب

لم يكتب المفسرون على هذه الكلمة ما يجب أن يكتبوه ، وأنا الحقير مع عجزي وقلة بضاعتي لا أصمم أن ألقي على هذه الكلمة مايشاء الله أن ألقيه ، فاستمعوا لما يُلقى.

أيها السادة

اتم الله نعمته على آل يعقوب ، وسلالتــه ولو بَعُدوا ، وهم بنو إسرائيل ، أعني القبائل الاسرائيلية ، نجاتهم من عبودية مصر وسخرتهم فيهـا ، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، ثم نجاتهم من الوثنية التي اعتنقوها عصر أيام الفراعنة لمدة نحو مئتي سنة تقريباً ، والإيذاء الذي كانوا يلاقونه من الفراعنة من قبل أن يأتيهم موسى ، وعلى أثر مجيئـــه ، فخلصوا من كل ذلك . وخرجوا من مصر منصورين تحت قيادة موسى وظللوا بالغمام وانزل عليهـم المن والسلوى وفلق لهم البحر ، وأغرق فيه عدوهم ، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً ، ثم ملكوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، واقاموا فيها قضاة وحكاماً لهم ، ثم شكلوا فيها مملكة ، ولا ننس أن الله جعل فيهم النبوة والكتاب وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين

فإن قلتَ ، إن هذه النعم التي عددتها لآل يعقوب أي سلالته إنما صارت بعد

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

عهد طويل أي بعد ٤٣٠ سنة ، تغربوا فيها بمصر ، على كلام التوراة ، أو بعد ٢١٥ سنة أقاموها بمصر على ما حققه العلماء من مؤرخي النصارى والمسلمين ، وإنه ليبعد أن يكون يعقوب أراد من بشارته تلك النعم ، التي ما حصلت لآله المعاصرين له ، ولكنها إنما حصلت لآله البعيدين عنه ، الى ما بعد تلك المدة الطويلة ، سيما وقد سبق هذه النعم ما ذكرته من اضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر ، وإذلالهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وإيذائهم بأنواع الأذى ، لمدة ٤٣٠ سنة أو لمدة ٢١٥ سنة ، فيبعد ان يكون يعقوب أراد البشارة بتلك النعم التي لم تقع إلا بعد اكثر من جيلين

قلتُ أما ما ذكرتَ من سبق تلك النعم باضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر وتذبيح الذكور واستحياء النساء ، فلا يضر في جوهر البشارة ، فهذا يوسف لم يحصل له ما حصل مما بُشّر به من اتمام النعمة عليه إلا بعد أن أهين من جانب إخوته ، وألقي في الجب ثم استرق وشرد عن وطنه ، وبيع عبداً لعزيز مصر ، وخدم في بيته أحدى عشرة سنة ، وقذف بالفحشاء وسجن مع المجرمين ولبث في السجن بضع سنين ، فكما أن هذه الأمور لم تمنع أباه أن يبشره باتمام النعمة عليه بما سيجد له في مصر من صيرورته بها « عزيزاً » وناظر ماليه ونبياً ورسولاً ، فكذلك تلك المصائب التي كانت نزلت فوق رؤوس بني اسرائيل بمصر ، لا تمنع يعقوب أن يبشرهم باتمام النعمة عليهم فيما بعد ، لأن العبرة بالخواتيم

وأما ما ذكرت من طول المدة ، وأن بني إسرائيل لم يحصلوا على تلك النعم إلا بعد جيلين ، فقريب من حالهم حال يوسف ، فانه لم يحصل على إتمام النعمة عليه إلا بعد أن صار عمره قريباً من أربعين سنة اي بعد ٢٣ سنة من بشارة ابيه له

وأخيراً نقول إن الرجل ليس كالنملة التي لا تنظر إلا ما بين عينيها ، بل الرجل ينظر إلى الأمد البعيد جداً ، سيما إذا كان من الأنبياء الملهمين ، كسيدنا

يعقوب عليه السلام ، وإنا نسمع عن الساسة الانكليز وغيرهم أنهم ينظرون الى ما سيحدث بعد أجيال ، ويخبرون عنه ويقع حسبما أخبروا ، فكيف بالأنبياء الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وكما ان الله يقول ﴿ وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ مما تَعُدّون ﴾ (٢٢ ٤٧) ، ﴿ وأنتم تَرَوْنه بعيـــداً ونراهُ قريباً ﴾ (٧٠ ٦ و ٧) ، فكذلك الأنبياء الذين تتكلمون عن ربهم ، يخبرون بالاشياء التي سوف تحدث بعد حين مهما طال زمنه

هذا كلامنا عن اتمام النعمة على آل يعقوب مجملاً ، وأما تفصيلاً فكان من سبط (لاوي) موسى وهرون وزكريا ويحيى ومريم أخت موسى ، وكان هذا السبط هو المتعين للخدمة في الهيكل ، وأما سبط (شمعون) فقد ألحق باللاويين في مهنه التعليم (كما في قاموس بوست)

وأما سبط (يهودا) فكان بيده صولجان الملك وكان من سلالة الأنبياء الكرام مثل اشعياء وصَفَنْيا ودانيال وحزقيال وعيسى وداود وسليمان وحجّي ويوحنا بن احتيار ومريم أم المسيح والمسيح عليهم السلام ، كما أن من سلالتـه ملوك يهودا التسعة عشر ، والقاضي « عثنيئل » والقاضي « عالي » وجميع الكهنة،وكل من كانوا يمارسون الأعمال الدينية في هيكل بيت المقدس

واما سبط (دان) فكان منه جنود أصحاب شأن ، وخرج منه القاضي «شمشون» الشهير

وأما سبط (نفتالي) فكان منه القاضي (باراق) الشهير

وأما سبط (جاد) فكان منه ذلك النبي الشهاب (إيليا) ، وهو « اليـــاس » عليه السلام

وأما سبط (أشير) فكان وجد منه امرأة اسمها (حنّه) وهي من المتعبدات الصالحات الصائمات المصليات حتى اعتبرت في نظر المسيحيين الأقدمين كنبيّة

وأما سبط (يسّاكر) فقد كان منه القاضي (تُولَع) الذي حكم بني اسرائيل ثم كان منه اثنان من ملوك اسرائيل وهما (بِعْشَا) و (أَيْلَه)

وأما سبط (زبولون) فكان منه قاضيان حكما بني اسرائيل وهما (أبصان) و (أيلون) وكان منه (يونس بن متى) عليه السلام

وأما سبط (يوسف) فكان قد انقسم إلى قسمين ، القسم الأول (مِنَسّى) الولد البكر ليوسف ، وكان منه ثلاثة قضاة حكموا بني إسرائيل ، وهم(جدعون) و (يائير) و (يفتاح) ، والقسم الثاني (أفرايِم) ثاني ولدي يوسف ، وكان منه (يشوع) بن نون عليه السلام ، والقاضي (عبدون) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم النبي (صموئيل) ، كأكثر ملوك إسرائيل فى المملكة الشمالية التي عاصمتها (نابلس) ومن إتمام النعمة على سبط (أفرايم) أن التابوت كان فى إحدى مدنه وهي (سيلون) ، فقد بقيت فيها الخيمة (٣٠٠) سنه

وأما سبط (بنيامين) فكان منهم القاضي (أهُود) الذى حكم بني إسرائيل، ثم كان منهم طالوت (شاؤل) أول ملك لبني اسرائيل

وكل ما ذكرته لكم حكم مقتبس من (العهد العتيق)و (السنن القويم)وقاموس (بوست) و (معجم البلدان)

وقبل أن أختم مقالي هذا أرجوكم أن تسمحوا لي بكلمتين خطرتا على فكري الآن فوق هذا المنبر

أما الكلمة الأولى فهي أنه تبين مما قدمنا أن نعمة الله تمت على شخص يوسف

وعلى سلالته المِـسّيين والأفراميين وأما إخوته الأحد عشر فالنعمة إتمامها على سلائلهم ، لا على أشخاصهم ، وهـذه هي الحـكمـة فيما يظهر لنا في أن يعقوب قال ليوسف ﴿ ويُتمُّ نعمَتَـهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ﴾ فالنعمة تمت على شخص يوسف ثم تمت على سلائل يعقوب ومنهم سلالتا يوسف

والكلمة الثانية — هي أنه لم يقل (وعلى يعقوب) بل أقحم لفظ (آل) ، مع أن الله تعالى كما أتم نعمته على شخص ابراهيم وإسحاق فقد أتمها كذلك على شخص يعقوب ، نعم أتمها عليه بالنبوة والرسالة والبركة والسيرة الحسنة — لكنه لم يقل ذلك تنزلاً وتواضعاً وهضماً لشخصه ، وتقَصّياً عن تزكية النفس بالقول ، كما قال تعالى ﴿ ولا تُزَكُّوا أنفُسَكُم ، هو أعلمُ بِمَن اتَّقَى ﴾ (٥٣ ٣٢) ، وقال تعالى ﴿ ألمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّون أنفُسَهُمْ ؟ . بلْ الله يُزَكِّي مَنْ يشاء ، ولا يُظلمونَ فتيلا ﴾ (٤ ٤٨) هـذا ما أردت أن أختم به خطابي ، والله أعلم (مرحبى)

(كما اتمها الخ)

- ١ -

قال الفاضل النابلسي

النعم التي أتمها الله على ابراهيم واسحاق

تعلمون أن الله أتم نعمته على « ابراهيم » بنجاته من نار الكلدانيين ،وخروجه من دائرة الذل والاضطهاد أرض العراق،الى بلاد الشام بلادالعزوالحريةوالاحترام — الى آخر مالاقاه في سوريا وفلسطين من الراحة والاطمئنان هذا كله بعد أن

كان نبياً ورسولاً وخليلاً للرحمن ، وبذلك صار مقدساً بلسان الموديين والزردشتيين ووثني العرب وطبعاً عند اليهود فالنصارى فالاسلام ، لا يذكر عند كل هؤلاء الا " ويشكر ، وأكثر الأنبياء من سلالته ، وبذلك صار مباركاً عليه في العالمين حتى صرنا نقول — نحن الاسلام — ولا نزال نقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » نكرر هذه الصلاة الابراهيمية في صلواتنا في اليوم والليلة ربما أكثر من أربعين مرة، نكررها كذلك نحو أربعمائة مليون مسلم بكل ضراعة وحرارة

وتعلمون أن الله أتم نعمته على (إسحاق) بكونه ابن ساراي السيدة المحبوبة ، ثم بالنبوة والرسالة ، وكفى .

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلا ذا شأن ، وكان على بينة من أنه سيربى رقياً محسوساً باهراً ، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصديق ولآل يعقوب ذكراً حسناً ، كما سجل ذلك لإبراهيم واسحاق ، وان اسمه سيكون جليلا ، وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام

(ان ربك عليم حكيم)

- ١ -

وقال العلامة الدوماني (١)

علم الله وحكمته

إن الله سبحانه وتعالى « عليم » بذات الصدور ، وبمن هو أهل لإتمام النعمة

(١) نسبة الى بلدة دوما قصبة قرب دمشق (سوريه)

عليه ، كما هو عليم بكل شيء وكل دقيق وجليل ، حتى لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة فإنها تثقلها وتميلها حقيقة ، والله يعلم ذلك تماماً ، وإن لم تدرك ذلك مشاعرنا ، فسبحان من يعلم ويسمع دبيب النملة السوداء ، في الليلةالظلماء ، على الصخرة الصماء ، ورحم الله الإمام الزمخشري حيث يقول

يامن يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخّ في تلك العظام النُّحَّلِ (١)
امنن عليّ بتوبة تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

وإنه تعالى « حكيم » يضع كل شيء في موضعه ، وإن دائرة فضله مرنة تسع كل من أهّل نفسه للفضيلة

الفصل الرابع

الحكم والعبر في قصة يوسف

(٧) ﴿ لقدْ كانَ في يُوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة فقام مولانا الناصر التونسي وقال

يقول الله تبارك وتعالى جلت ذاتي (لقد كان في يوسف) عليه السلام وهو الحرف

(١) البهيم الأليل الشديد السواد ، المناط المربط ، النحر الرقبة ، النحل الضعيفة

الراق ، (وإخوته) أصلحهم الله ، وهم الحرب المعارض ، أي لقد كان لمن تتبع حوادثهم معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها ونتائجها ، (آيات) أي حِكم وعظات وعجائب وعبر ، كما سيقول « لقد كانَ في قَصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألباب » (ع ١١١) وذلك من حين أن رأى أحلامه وحسدوه ، إلى أن سكنوا في شرقية مصر تحت رعايته ، وما تخلل ما بين هذين الطرفين من الماجريات النادرة المثال ، والمراد من لفظ (إخوته) عموم الاخوة المناوئين له المتألبين عليه، والمحبين له الذابين عنه

وفي الحقيقة إن الآيات كانت في يوسف وإخوته وأبيه والسيارة وعزيز مصر وامرأة العزيز ، وفي الشاهد من أهلها ، والسيدات المصريات ، والفتيين الساقي والخباز ، ومليك مصر الريان ، والملأ الذين استفتاهم فلم يفتوه ، وفي أحفاد يعقوب، وفي خدمة يوسف لأرباب الحكومة في تلك العصور ، و و الخ ، ولكن الله سبحانه اقتصر على « يوسف وإخوته » لأنهم موضوع القصة ، ومحور السيرة، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرض ، فقصـــة يوسف كتاب مفتوح ، ذو أبواب وفصول وذيول وحواش، ولكن اهم ما في هذا الكتاب «يوسف واخوته»

جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من العلل ، التي تُظهِر فيها حِكَمه ووسيلة من الوسائل ، التي يرشد الناس بها للعبرة والعِظة فعلى الرجل الرشيـــد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب بل لمـــا حوته من العظات والعبر ، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها ، أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ، ويتعلم رموز الحكم التي رُمِزت فيها ، والغاية التي أراد الله تعالى

من سرد مواضيعها ، ولعمري إن القاريء لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يجتنى منها ، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة ، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ الى آخرها ، دون تفهم ما يقرأ منها ، وبلا تفكر في عبرها وحِكَمها ، فلا ريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع اليه نفعه في تأديبه وتكميله ، ووقوفه على عجائب التدابير والألطاف الإلهية ، وباهر الحكم الربانية ويكون مثله كمثل رجل قدّم له لوز صحيح فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه ، لكي ينتفع منه النفع العظيم ، وإلاّ لم ينتفع إلا بالتمتع برؤية قشره الذي هو طرف للبّه

ينبغي لقارىء هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط ، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب ، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقَطْ ، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها ، لكن هناك ما هو أهم منها جداً ، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ما تضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الإجتماعية ، والعِبَر الربانية ، فيقف القارىء عند كل مثل وجملة وكلمة وحرف من حروف المعاني ، ومقدمة ونتيجة ، وتأصيل وتفريع ، وقاعدة كونية ، وتطور مدهش ، وانقلاب سريع

يجب على قاريء هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها ، ويلتمس درر مراميها ومغازيها ، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه ، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله ، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصواع ، أو غير ذلك ، فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مَثَل الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة ، ورأى في عقيق الماء سمكة ، فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين ،

وقذف نفسه فى اللجة التي فيها السمكة ، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر ، كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوى أموالاً كثيرة ، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند ألفاظ هذه السورة وظواهرها ويغفلون أمر التفكير فيما شملته من الحِكَم والعِبَر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث، وأسرار ذلك وأسبابه.

(حسن)

(لقد كان الخ)

– ٢ –

قال أخونا التقي البخاري (١)

التفكر والاعتبار حال قراءة القرآن

وهكذا سائر قصص الأنبياء التي اقتصها علينا القرآن الكريم كسائر ما فيه من حوادث الصالحين والطالحين ، والمصلحين والمفسدين ، والجبابرة والمستكبرين ، وما الى ذلك مما أملاه الله علينا في كتابه المجيد ، فكم في ذلك من عبر وذِكَرٍ ، وكم فيها من فوائد وعوائد ، ولقد كنا فيما مضى نأسف حد الأسف للجمهور من أهل الاسلام الذين كانوا لا يعنون بالتفكير والاعتبار ، حال قراءة القرآن ، ولا يتأملون في مراميه ومواعظه ، حتى يقيسوا حاضرهم على ماضي غيرهم ، ولكنا اليوم نرى — والحمد لله — أنه قد نفحت روح جديـــده فى جمهور العصريين ، وطفقوا يقرأون كتاب الله بتدبر وإمعان ، جديرين بالثناء والشكران ، مما يبشرنا بحسن مستقبل الاسلام ، وسيرهم الى الأمام .

١) نسبة الى بخارى من بلاد التركستان

وإذا كان في المسلمين اليوم قوم لا يعبأون بالتفكر والتدبر حال قراءة القرآن الكريم ، وقوم يعنون بذلك ويهتمون له كثيراً — فليس ذلك إلا لأن فينا رجالاً قد اهتدوا الى سواء الصراط ،وآخرين لم يظفروا من ذلك الا بحظ قليل وانتشار العلم الصحيح في أهل الاسلام في هذا العصر ، وازدياد انتشاره من يوم لآخر ، واتجاه الجهود الفردية والجماعية الى التنور والتفكير — كل ذلك سيقضي غداًأو بعد غدٍ بأن يكون المستقبل للقرآن وأهل القرآن ، وما ذلك على الله بعزيز .

(اطال الله بقاءك)

(واخوته ..)

- ١ -

قال الفاضل الاستانبولي [1]

القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية

لي ههنا كلمة وهي ربما يقول قائل إنا نرى كتب اليهود التي يسمون مجموعتها « العهد العتيق » بذكر أسماء الرجال والنساء والروحات والصبيان والبنات ، وتأتي على أسماء المواضع التي حدثت فيها الحوادث ، وربما تعرضت لذكر زمانها ،فما بالنا نرى القرآن الكريم لا يأتي على مثل هذه التفصيلات أو على ما يقرب منها ؟ هـذا سؤال طالما شغف بذكره دعاة النصرانية في الانتقاد على كتابنا الحكيم

وأما نحن فنجيب عنه بجوابين

الجواب الأول — إن حوادث الأسباط الأقدمين ، وما جريات الآباء الأولين

١) نسبه الى اسلامبول من بلاد الترك

— إنما تهم بالدرجة الأولى سلائلهم اليهود ، فلذلك عني في توراتهم بذكر كل جزئية من جزئيات أخبارهم ، فذلك يهمهم كثيراً ، ويلذ لهم جداً ، ويشتاقون اليه أيما اشتياق ، بخلاف العرب وما إليهم من العناصر ممن لم يكونوا يهوداً ، فلا يهمهم من هذه الحوادث إلا ما كان جوهرياً منها ، هو الروح،وهو محل الاستشهاد وأما ما عدا ذلك فلا لزوم للتطويل بذكره ، سيما وقد طال عليه الأمد ، وانهم من عنصر غير عنصر العرب ، فالتوراة تضع تواريخ الآباء ليقرأها أبناؤهم اليهود ، وهؤلاء الأبناء متشوقون متشوقون الى سيرة أسلافهم ، حتى لمعرفة أسمائهم وأسماء أولادهم ، فهذا النوع من البيان ربما كان فيه شيء من الأهمية بالنسبة لليهود،ولكنه بالنسبة للعرب وباقي العناصر فليس مهما ، إنما المهم الوقوف على ما فيه من الجوهر والروح ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم

الجواب الثاني — إن السفر الذي بيد اليهود اليوم المدعو «توراة» أو «عهداً عتيقاً» هو تاريخ كباقي تواريخ العالم يجمع الغث ، والسمين ، ويذكر المهم وغير المهم ، ويأتي على ما فيه فائدة روحية وعلى ما ليس فيه ذلك ، بل يذكر ما يعود بالضرر على القارىء — على شرفه ودينه ومروءته وعرضه — حتى أنه ليذكر حوادث زنا الأنبياء (حاشاهم) وزنا أبناء الأنبياء وبناتهم — على قوله — وحتى انه ليذكر سكرهم وكذبهم وحيلهم ، وحتى انه ليذكر ، انهم قوادون على نسائهم الى آخر ما تقشعر منه الجلود ، وتبرأ منه الانسانية!!! كأنها يفعل هذا كباقي المؤرخين الذين يذكرون في أسفارهم كل ما هب ودرج ، ومن كل ما بين السماء والماء ، وأما القرآن المجيد فليس تاريخاً يبغي أن يذكر فيه جميع أسماء الأزمنة والأمكنة والأشخاص الذين لهم تعلق بالسيرة التاريخية ، أعني ان القرآن إذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب عليه أن يلتزم ذكر هذه الأشياء

تفصيلا ، وإنما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس كما سيأتي قوله « لقد كانَ في قَصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألباب » (١٢ ١١١) ، أو بيان سنن الاجتماع كما قال ﴿ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا في الأرضِ ، فانظروا كيف كانَ عاقِبَةُ المكذِّبين ﴾ (٣ ١٣٧) ، أو للهداية والعظة كما قال ﴿ هـــذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتقين ﴾ (٣ ١٣٨) ، أو للتذكر كما قال ﴿ إنْ هو إلاَّ ذِكرَى للذاكرين ﴾ (٦ ٩٠) ، الى غير ذلك من المقاصد الدينية ، فالقرآن لا يذكر شيئاً من التاريخ إلا لذلك ونحوه ، فلا يذكر قصة لبيان حدوثها ولا لأجل التفكه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها وجزئياتها ، وربما اكتفى القرآن بموضع العبرة ومحل الذكرى ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة ، بل ربما تشغل عنها

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية ، وهي الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات ، لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قراءتها من الاسراف في الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحـد يؤبه به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا

إن محاولة جعل قَصَص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها — هي مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونُعْمِل أفكارنا في استخراج العِبَر منـــه ونَزَعَ نفوسنا عما ذمّه وقبّحه ، ونحملها على التحلّي بما استحسنه ومدحه

وجملة القول ان طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة التي اهتدى اليها المؤرخون الراقون، وما كان لمحمد الأمي الناشيء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي اليها بفكره، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره، ولكن ذلك وحي يوحى، ونعلم من الله نقتفي (مرجى)

(واخوته .)

- ٢ -

قال السيد المصري

سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهن

نعلم من التاريخ أنه كان ليعقوب بنت اسمها «دينه» من زوجته «ليئة» ولدت بعد إخوتها الأشقاء الستة، فهي أخت يوسف لأبيه، ولكن ليس لهذه الأخت مشاركة في حسد يوسف والكيد له، ولم يذكر عنها أقل انتقاد على أبيها من هذا القبيل

ونعلم أيضاً من التاريخ أن ليعقوب من الحفدة الإناث «سارَح» وهي بنت ابن «أشير» ولكن هذه أيضاً لم يخبرنا التاريخ أن لها دخلًا في الانتقاد على جدها مع أحفاده الذكور حينما قالوا له «تاللهِ إنَّك لفي ضَلالِك القديم» — الأمر الذي نستنتج منه سلامة قلب الإناث مطلقاً من أخوات وبنات أخ، وشدة بعدهن عن حسد وعداء اقاربهن على كل حال، شأن النساء عموماً في ميلهن للعطف والحب ورقة العاطفة، هذه كلمتي المختصرة والسلام عليكم

(آيات)

— ١ —

قال مولانا النجفي (١)

العبر المتضمنة قصة يوسف

في قصة يوسف وإخوته عِبَرٌ وعِظاتٌ تقطع أعناق الإبل للوقوف عليها ، وإليكم بعضها

١ ـ إنه قد تقع بين الإخوة من العداء مثل ما تقع بين الأجانب بل أشد وأشد

٢ ـ تعدد الزوجات قد يفضي للنزاع والتحاسد بين الضرّات فتسري عدوى ذلك لأبنائهم

٣ ـ إنه قد تجتمع الجماعة الحمقاء العفيرة ولو أقارب على الحاق الضرر والكيد لدى قرناهم ولو أخاً صغيراً !!

٤ ـ إن الحسد قـــد يكون على مجرد الحب ، وهو غريب (حتى على الحب لا اخلو من الحسد) فكيف لو كان متبوعاً بمساعدات مادية وتخصيصات مالية ؟!

٥ ـ إن الأب مهما احتاط في حفظ ولده من الحسدة فمن الممكن مع الاحتياط أن تناله الحاسدون وتضره الضارون

٦ ـ إنه كما تقع العداوات والأضرار بين أولاد غير الأنبياء فكذا تقع بين أولاد الأنبياء وسلائل الأولياء ودراري ذوي البيوتات الماجدة

---

(١) نسبه إلى النجف الاشرف من بلاد العراق

٧ ـ إن المحسود وإن لحقه فى البدء ضرر وأذى وربما ستكون العاقبة فى مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومقاوميه .

٨ ـ إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط بل يحسن منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، والحرمان بالعطاء

٩ ـ إنه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذب شوكة كائديه خوفاً من إعادة الكرة ثاني مرة

١٠ ـ إن من اتقى ارتقى، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كاقيل (كن معَ اللهِ ولا تبالى)

١١ ـ إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حرباً وحرباً على من ليس من مسلكهم ، فهؤلاء الأخوة العشره لما اتفقوا في الصفات اتفقوا على كراهة يوسف الذي هو (أمّة وحده) فضلاً ولطفاً وادباً وكمالاً

١٢ ـ إن العاقل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب من أولاده !

١٣ ـ إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذى ينتسبون إليه واتحاد الخؤولة والبيئة البيتيه والوطنية

ابوك أبي والأصل لا شك واحدٌ
ولكننا صنوان ورد وخروع

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب

تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النّجار (١)

(١) النجار الاصل

١٤ ـ الإنسان الكامل مهما اعتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات فلا بد أن يتغلب عليها بكماله وعفافه كما وقع ليوسف الصديق مع امرأة العزيز ثم النسوة المصريات

١٥ ـ إنه متى كان الله مع الإنسان ، ارتفع من عقر البئر إلى رأس المأذنة وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقاً للعادة

١٦ ـ إن أعمال يوسف تصدق القول بإن يوسف نبي ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم ، خلافاً للعوام

١٧ ـ إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً ، بل ولا يقتضي أن يكون ابن التقي تقياً ، ولكنه قد يتفق اتفاقاً

١٨ ـ إن العبرة بالأواخر ، ولذلك سمّي إخوة يوسف « كواكب » — مع العلم بما سيقع منهم — نظراً لعاقبة أمرهم وتوبتهم أخيراً وصلاحهم آخر أيامهم

١٩ ـ عاقبة التقوى والصبر الفرج ﴿ إنّه من يَتّقِ ويَصْبِر فإنّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسِنِين ﴾ (١٢ ٩٠)

٢٠ ـ كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شرة ، وأناة بعد طيش ، وحلماً بعد نزق ، وفناء جماعة في فرد هو « يوسف »

(آيات)

– ٢ –

قال الشيخ الموصلي (١)

العبرة بعاقبة يوسف وإخوته

لا أحد يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد ، وما دبروا من ختل وحيلة ،

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق

وكيف نصبوا له الحبائل، وجاءوا على قميصه بدم كذب، وسولت لهم أنفسهم أمراً، وألقوه في غيابة الجب، فما كان عاقبته ألا أنه تربى في مصر، وترعرع وبلغ أشده، ثم كان لإخوته من المحسنين

هذه كانت قصة يوسف، وذلك نبأ إخوته، كان منهم الإساءة ومنه الاحسان ومنهم الشر ومنه الخير، وكان أول أمره عناء وآخره هناء، ومبدأه ذل، ونهايته عز، وعلى العكس كان حال إخوته، كان مبدأهم الاستقلال وأخيراً صاروا تحت سيطرته، ذلك عبرة للمعتبرين، وفيه آيات للسائلين

تنبئك قصة يوسف مع إخوته بما يلاقيه ذوو الفضل من بعدى الجاهلين، فما فى الأرض من فاضل إلا ّكان في أول أمره مطارداً محسوداً من الأعداء، تسطوا عليه الأقرباء، وتحط من قدره الأصدقاء، وتهينه الأوليـاء، استغراباً لقوله، واستهجاناً لعمله، وحطاً من شأنه، وحسداً على ما آتاه الله من فضله، وإحباطاً لأمله، وتشنيعاً عليه، واستهزاءً بما لديه، فان صبر فاز، وإن جزع باد، تعجب كيف كان حال يوسف الصديق، بيع للمصريين، وترعرع فى بيت العزيز، ثم حاقت به الفتنة، وصبر على الظلم والسجن، ولم يدر ظالموه أن السعد سيخدمه، وأن راية العز ستخفق فوق رأسه، وانه سيقبض على ناصية البلاد، وتدين له العباد، ويساعده الزمان، وينسخ على ما قاساه عنا كف النسيان

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة، فليُبشر اولئك الذين صدقت نياتهم، وحسنت أعمالهم، وأخلصوا لأمتهم، فسوف تُبدل شقاؤهم راحة، وذلهم عزاً وسعادة، هذا هو ناموس الوجود، لم يشذ منه نبى مرسل، ولا عالم فاضل، وكانت العاقبة للمتقين، ولقد كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة فلقد أودى كما أودي يوسف الصديق، وما آذاه إلا أقرباؤه الأدنَون، وما تألب عليه سوى قريش، ثم نصره الله كما نصر يوسف، وآوى اليه من كان يؤذيه

كأبي سفيـــان وروحه هند ، وغيرهمـا من عِلـْيَةِ القوم وسراتهم وعظمائهم ، فأصبحوا له خاضعين ، كما خرّ إخـوة يوسف له ساجدين ، آمنـــا بناموس الله وكتابه الكريم

(للسائلين)

- ١ -

قال الاستاذ الحلبي

تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها

للسائلين — أى لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ودُعي بغرائب الأعمال ونتائجها

للسائلين — الذين يستخبرون الأخبـــار ، ويستطلعون الوقائع ، ويتطلبون الوقوف على الحوادث

للسائلين — الذين يسألون الرواة ، وأهـل الذِّكْر ، ويسألون التاريخ الذى سجّل سيرتهم ، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم

للسائلين — الذين يهمهم الوقوف على العِبَر والعظات ، ويهمهم الاستفادة من القَصص والمَثُلات

للسائلين — الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها ، والوقوف على القواعد الاجتماعية ، والفوائد التاريخية

للسائلين — الذين يحرصون على العلم والتعلم ويبحثون عما يجهلونه حبًا منهم فى العلم والمعرفة ، فهم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التى تدل عليها أوائلها ومقدماتها

وأما الذين لايسألون عما يجهلون ، ولا يجتهدون أن يقفوا على ما يجب الوقوف عليه، بل يستوي عندهم العلم بالشيء وجهله ، من كسلهم انهم إن جاءهم شيء عرفوه ، وإن لم يسمعوا شيئاً لم يسألوا عنه ، ولم يأبهوا به ، فالعلم بالشيء والجهل به سيان عندهم ،فهؤلاء الكسالى لا يعتبرون بما يسمعون من الحوادث ، ولا يحفلون بالآيات التي يجب أن يستفيدوها من التاريخ وحوادث الدهر ، فلهذا كلـه خص استفادة الآيات « بالسائلين » عنها ، دون سواهم

مقدمة المؤامرة

آ (٨) ﴿ إِذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوهُ أَحَبُّ الى أبينا مِنّا ، ونحنُ عُصْبَةٌ ''' ، إنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ '' ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة فقام الأستاذ الحمصي وقال

(إذ قالوا)قولاًمنطاًبالرواية بأخويهما والنقد على أبيهما(ليوسف) بالتأكيد(وأخوه) بنيامين ، وهما اثنان صغيران ، (أحب الى أبينا منا) فانه يحبهما من أخمص قدمه الى فرع رأسه (و) الحال اننا (نحن عصبة) جماعة ، عشرة رجال ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (إن ابانا) يعقوب الشيخ الهرم (لفي ضلال مبين) أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك ، وحقاً إننا نحتج عليه بهذا العمل ، وصدق من قال (الحب أعمى) (وحبك الشيء يعمي ويصم)

فمنشأ هـذا الحسد هو تفضيل يعقوب يوسف وأخاه في الحب ولكن لايجوز أن ننسى أن للامهات الضرائر هنا دخلاً في هذا الحسد وهذه الحركات ، فاهن مثار حركات أولادهن

(إذ قالوا الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ الصيداوي

مفاوضة الاخوة في شأن يوسف

لقد تم الكلام أيها السادة على يوسف وحلمه ، ويعقوب وبشارته لابنه ، والآن نشرع في المفاوضة التي تبودلت بين إخوة يوسف في شأنه

اجتمع إخوة يوسف العشرة ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الاهتمام يمازجها الانتقاد المر على أبيهم الكريم ، تذاكروا في حال والدهم مع عموم أولاده واضطراب جو معاملته لهم ، وعدم مساواته بينهم في التوجه والمِقَة ، فاستشاطوا غيظاً ، وأضغَنَ بعضهم بعضاً على أبيهم ، عقدوا مجلساً ائتمروا فيه وتشاوروا متذمرين من أبيهم ، محرقين أسنانهم ، قائلين لنتحدث هنا بهدوء وسكينة عن هذا العطف الأبوي لأخوينا الصغيرين خاصة ، إن يوسف وبنيامين أقرب الى قلب أبينا منا ، وأفضل عنده من جميعنا ، فلا نرى فيه شيئاً من روح المساواة بين الأولاد ، نقول ذلك ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه يجب على كل أب أن يساوي بين أولاده في المحبة ، في الأعمال ، في التوجه ، في الالتفات ، في التمليك ، في التعليم ، في الراحة ، وفي كل موجبات السرور ، فأبونا ـ مع احترامنا لشخصه ـ هو «غلطان»، ولذلك لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا الأمر الإدّ ، كيف وهو يحمل بين جنبيه قلباً خلواً من الانصاف والعدالة التي تبتغي للأولاد من والديهم قالوا ذلك

على طريق المسارّة بصوت منخفض ، لئـــــلا يسمعهم أحد من الرعاة الذين كانوا معهم ، وهنا نتذكر قول أبي الأسود الدؤلي

حسدوا الفتى إذْ لم ينالوا سعيه	فالكل أعداء لــــه وخصوم
وترى اللبيب مُحَسّداً لم يجترم	شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذلك من عظمت عليه نعمة	حُسّاده سيف عليــــه صروم

(إذ قالوا الخ)

- ٢ -

وقال الفاضل الطرابلسي :

سبب عداء اخوة يوسف له ولأخيه بنيامين

كان يوسف نعربه ليعقوب في أواخر أيامه ، سيما بعدموت راحيل ، سيما وأبوه يعلم أنه سيصير له مستقبل ذو شأن ، وكان بنيامين صغيراً لطيفاً ابن عشر سنين ، فبالطبع كان محبوباً جداً لأبيه ، ولهذا كان يوسف ايضاً يحبه حباً جماً ، وكان يعقوب يحب يوسف حباً زائداً لهذا الوجه أيضاً كما قيل (حبيب الى قلبي حبيب حبيبي) ، فلو فتشت قلب يعقوب لم تجد فيه بعـــد خالقه سوى يوسف ، وكان آثر عنده من إخوته ، وكان يظهر من أبيه أنه هو موضع الآمال ووجهة الأماني ، وانه أنيس وحشته ، وسمير وحدته ، وعمـــاد حياته ، وانه هو كل أمله ورجائه في هذا العالم ، وأنه الزهرة اليانعة في روض أولاده ، والابتسامة اللامعة في ثغر آماله ، والفجر المشرق في سمـــاء عيشته ، وكانت أعمـــال يعقوب وأقواله مظهراً لذلك كله ، هذا هو حب يعقوب ليوسف ، وليس هو مجرد أنه كان بصمه-

ويشمه ، كما اقتصر بعض المفسرين ، فما أضعف الحب اذا كان كله عبارة عن مجرد الضم والشم ، كما أنه ليس هو مجرد أن يعقوب عمل لابنه قميصاً ملوناً ، كما اقتصر عليه آخرون ، ولكن حب يعقوب لابنه حباً كثيراً لامزيد عليه ظهر في مظاهر عديدة مما أتينا عليه ونحوه ، وأما حب يعقوب لبنيامين فلأنه أصغر أبنائه جميعاً ولأنه ابن زوجه راحيل المحبوبة ، فلذلك كان يوسف وبنيامين تحت جناح أبيهما وكانا كريمين عليه ، ولذا هاج اخوتهما عليهما وماجوا ، وقالوا ماهو المبرر لهذا الانعطاف الخصوصي نحو هذين الولدين ؟ فهل هذا انصاف وعدالة بين الأولاد ؟ وهل هو جار مجرى المساواة المطلوبة ؟ اللهم كلا فاذاً ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ لأنه فضل المفضول علينا نحن الفاضلين على الأقوياء ، وخص بعطفه الاثنين دون الجماعة هذا مرمى مقالتهم ، وهكذا نحتوا أثلة أبيهم ، ولعمري لقد أصبحوا بهذا الحكم الجائر في ضلال أبين من مبين ، وأظهر من الشمس في رائعة النهار

ولقد كنا نتوقع من هؤلاء الاخوة أن ينسجوا على منوال أبيهم في شدة المحبة منهم لأخويهم ، اقتداء بذلك الوالد الكريم ، الذي ماعمل إلا مارضي الله والضمير ، ولكنا رأينا منهم عكس ذلك ، وكنا نتوقع أن يكون بين هؤلاء الاخوة وفاق ، يكون من ورائه راحة عيشه لأبيهم ، ولكن رأينا عكس ذلك . وكنا نتوقع من هؤلاء الاخوة العشرة أن يربأوا بأنفسهم عن حسد يوسف وأخيه لأنهما صغيران ، وهم كبار السن ، ربما كان للواحد منهم في ذلك الوقت ، ولد أكبر من يوسف أو بنيامين فكان ينبغي أن يكون حالهم أرفع من هذا الحال ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء « العصبة » أن يكونوا متواضعين وديعين ، وإذا افتخروا ولا بد افتخروا بآدابهم وكمالهم ، لا بالقوة والشدة ورحم الله أبا نواس يقول :

للانسان في كبره وهو غداً في قبره يقبر

ماىال من أوله نطفــــة وجيفـــة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

ولله فى ذلك حكمة ، وله فى خلقه شؤون . ﴿ وكذلكَ فتنّا بعضهم ببعضٍ ، ليقولوا أهؤلاءِ منّ اللهُ عليهم من بيننا ؟ ، أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين ؟ ﴾ (٦ ٥٣) .

(إذ قالوا الخ)

— ٣ —

وقال الشيخ محمود الخليلي (١) .

اسباب عداء الاخوة المهمة ليوسف

كانت إخوة يوسف على جانب عظيم من بغضه والنفور منه وعدائه ، ويرجع ذلك لأسباب شتى نجملها فيما يلي

١ ـ زيادة محبة أبيه له وتفضيله إياه .

٢ ـ كونه ابن راحيل الجميلة المحبوبة الحظية عند زوجها

٣ ـ اختلاف الطباع بينهم وبين أخيهم ، فيوسف كان روحياً ميالاً للمعنويات ، وهم كانوا جسديين ميالين للماديات ، فلم تأتلف طبيعة الطرفين بل كانت مختلفة أيما اختلاف

---

(١) نسبة إلى الخليل من فلسطين

٤ ـ إنه كان لا يكلف عملاً ما ، بخلافهم فقد كانوا يعانون رعي الأغنام

٥ ـ العداء الذي كان بين ليئة وضرتها أختها راحيل ، فكانت الأولى مغلوبة مكسورة الجناح لمرض في عينيها ، بخلاف الثانية فكانت منتصرة عليها لجمالها ولأنها الصغرى ولأنها هي التي أول ما لحظها سيدنا يعقوب عليه السلام عند البئر

أتى حبها من قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خـاليــاً فتمكنا

ولأنها هي التي كان يعقوب خطبها أولاً من أبيها ، ولكنه أدخله على ليئة بدلاً منها ـــ على ذمة التوراة ـــ فالخلاصة إنه لأسباب نسائية انعقدت العداوة بين الأختين الضرتين ، فانتقلت بطريق الوراثة والعدوى إلى الأولاد

٦ ـ كانوا يتخيلون إن يوسف يترفع عليهم ، فكانوا يظنون إنه يستمد هذه القوة من محبة أبيه إياه .

٧ ـ أحلام يوسف التي كانت تزعجهم وتدس لفائف قلوبهم ، إذ كان يوسف رأى رؤياه الأولى فذكرها لإخوته ، فقال له إخوته « ألـعلّـكَ تصير علينـا ملكاً ، أو على الأقل يكون لك علينا سلطة » وازدادوا بغضاً له من اجل حلمه هذا ومن أجل كلامه ، ثم رأى رؤياه الثانية التي هي أبلغ من أختها فذكرهـا لأبيه فقط ، ولكن الرؤيا فيما بعد بلغت أسماعهم ، ثم لا بد أيضاً أن يكون قـــد نُمِيَ اليهم ماقاله أبوهم لأخيهم من البشائر المستقبله ، فلهذا مع ما كان يبدو من إمارات ظاهرة ودلائل ناطقة ، على كثرة حبه له ، تفاقم الأمر لديهم ،واستشرى عداؤهم ليوسف ، وبلغ السيل الزُبى واعتقدوا أن اباهم التَهَم حقوقهم السوية ، فقالوا عن يوسف وشقيقه إنهذين الولدين لا يزالان عثرةفيطريقنا الى اكتساب

توجه أبينا الينا ، وسوء حاص يوسف ، فانه هو العلة الوحيدة لرغبة أبينا عنا ، وحقا إن يوسف هو الجدير بالمجاراة ، لأنه السبب الوحيد في ذلك ، وهو أيضاً الذي لا يزال يكاثرنا باحلامه ، وباهينا بأوهامه

وتابع الشيخ الخليلي كلامه قائلا

تفنيد عداء اخوة يوسف له

هذه هي أهم الأسباب التي حدت بهم الى كره أخيهم ، ثم انتقاد أبيهم ، ولعمري إنهم يخطئون في ذلك ، لأن أخاهم كان في سن لا يسعى معها توجيه الكراهة اليه ، ولأن أباهم في الحقيقة لم يحب شخص يوسف فقط لأنه يوسف ولأنه مركب من لحم وعظم ، ولكنه أحب من ستسجد له الكواكب الأحدعشر والشمس والقمر ، أحب من سجدت الحزم الأحد عشر لحزمه في الحقل ، أحب الذي سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أحب من سيتم الله نعمته عليه ، كما أتمها على ابراهيم وإسحق ، ، فيعقوب أحب هذه المعاني السامية والمواعيد المجيدة ، التي سيكون يوسف مَظهَراً لها ، فحبه إنما هو ليوسف في تلك المواعيد ، أو لتلك المواعيد في يوسف نعم نعم يوجد في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما يوجد بين الغرباء ، ويشتد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما من نيلها ، أو تشابهت أسبابها إليهما ، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة ، وإخوة يوسف هنا وقع التحاسد والتزاحم بينهم على نعمة هي اكتساب توجيه أبيهم ، وكل منهم يعتقد أنه قادر على نيل هذه النعمة ، لأن السبب الذي حصل عليه يوسف (فيما يعتقدون) حاصل عندهم أيضاً وما هذا السبب في اعتقادهم سوى البنوة ، بل هم يظنون أنهم حاصلون على شيء آخر يقوي هذا السبب ويدعمه ،

وهو أبهم رحال أ كفاء أهل عمل ودفاع ، ولدلك تحيلوا أن أباهم عالط في أبـه كان أشد احتفاظاً بيوسف ، حتى كان أ كرم ولده عليه ، كأنه واحد أبيــــه ، ليس له ولد عيره ، وإن هدا الأمر يقصي بالعحب العحاب هده شبهتهم التي اتكأوا عليها ،وما دروا ان ماتصوره لس هو السب التام بل السب التام هو المزايا والخصائص التي كان في شحص يوسف ، فهم عالطون أو معالطون في قياس أنفسهم على أحيهم فهو قياس مع الفارق أو مع الفوارق ، هدا ما يحصرني الآن ، فتأملوه يرحمكم الله ، والسلام عليكم

(اد قالوا ليوسف واحوه الح)

- ٤ -

قال تقي الدين المقدسي

صرر تعدد الروحات

من أعظم أسباب عـــداء إحوه يوسف العشرة ليوسف وبنيامين احتلاف الأمهات (كما سبق أن اشار اليه بعض المحاصرين الأفاضل)مع صميمة ان سيدنـا يعقوب كان يحب راحيل أ كثر من كل من سواها ، مع صميمة أنه قد كان يوحدبين راحيل وبين صرائرها الثلاثة لا سيما ليئة الحُرّة من الحسد والعيره ما هو معهود اليوم بين سائر الصرات ، والتاريح يعيد نفسه وليس تحت الشمس من حديد وما أشبه الليلة بالبارحة ، فلدلك انتقل العداء الدي بين راحيل وسواهـــا ، وسرى للابناء طبعاً ، وهـدا المرض هو بعض مايقـاسيه الرحل الدي يتروح أ كثر من واحدهٍ ، وهدا من بعض اسرار قوله تعالى ﴿ فإن خِفْتُم أن لا تَعدِلوا

فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ ٣) ، ثم قال ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أن تَعْدِلوا بيْنَ النساءِ ولَو حَرَصْتُم ﴾ (٤ ١٢٨) فالبيت الدي فيـــه روحتان مثلاً لروح واحد لا تستقيم له حال ، ولا تقوم فيه نظام ، وقـد ينتقل الصرر من كل صرة الى ولدها — الى والده — الى سائر أقاربه ، فهى تعري سهم العداوة والعصاء الى مالا نهاية له ولعبد العرير الديريني

تروحت اثنتين لفرط جهلى	وقد حار البلى روح اثنتين
فقلت أعيشُ بينهما حروفاً	أنعَّمُ بينَ أكرمِ نعجتين
فجاء الأمر عكس الحال دوماً	عـداباً دائمـــاً سليتين
رصا هدي يحرك سخط هدى	فما أخلو من احدى السخطتين
لهـدي ليلة ولتلك أخرى	نقـــار دائم فى الليلتين
إدا ما شئتَ ان تحيا سعيداً	من الخيرات مملوء اليـدين
فعش عربا فإن لم تستطعه	فواحدة تكا في عسكرين

وبعد فلا بد — كما أشار اليه أحونا الشيخ محمود الحليلي فيما مر — أن يكون لتعدد الروحات دحل فى هدا الحسد ، فقد كان يوجد كره بين « راحيل » أمّ يوسف الصديق ، وبين شقيقتها « ليئه » حيث الاولى كانت جميله وصعيرة ومحبوبة أكبر ، وكانت الثانية حاسده لها حاقده عليها — الامر الدي اوقد نار الحقـد والعداء فى صدر الأختين ، فاستطارت منها شراره الى صدر أبنائها ، وبعـارة أصح استطارت شرارة من صدر « ليئة » الى صدور أبنائهـا الستة ، ثم بالتبعية من صدر جارتها « رلفة » لصدر ولدها

سبحان الله ! أرواح تتخاصم على التافه ، ويُكبرن من شأن الشيء الحقير ،

وأساء تزرع فيهم أمهاتهم بغض الإخوة ، وربما وشيئاً من كراهة الآباء ،وكل هذا من نتائج تعدد الزوجات لغير حاجة

نعم ، وإن ديننا نص على جواز تعدد الزوجات ولكنه نص محوط بالقيود والأغلال ، نعم ، أباحت لنا شريعتنا التعدد المحدود ، لكن الله تعالى قال لنا في أثر ذلك ﴿ فإن خِفتُم أن لا تعدِلوا فوَاحِدَة ﴾ (٤ ٣) ، غير أننا نحن ما نقيدنا بهذا القيد المتين ، بل أهملناه فانفسح لنا مجال الإجرام ، فاللوم ليس على شريعتنا ، بل علينا نحن لنس إلا

لم يسند الله الحسد لجماعة معينين الا لليهود

قلت لكم إن ما قاله إخوة يوسف ناشيء عن الحسد الذى ملأ صدورهم ، وإن نعجبوا ، فعجب أن الله تعالى لم يسند الحسد لجماعة مُعيّنين إلا لليهود وذلك في موضعين الأول قوله تعالى ﴿ أم يَحسُدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضْله ﴾ (٤ ٥٣) والثاني قوله تعالى ﴿ وَدَّ كثيرٌ منْ أهلِ الكتابِ لوْ يَرُدُّونكُم من بعْدِ إيمانِكم كُفّاراً ، حسَداً من عندِ أنفُسِهم ﴾ (٢ ١٠٩) فليعلم ذلك أهالي فلسطين خاصة والعرب عامة وليأخذوا حذرهم من الصهيونيين

الحكم من ذكر الاعمال السيئة لاقرباء الانبياء فى القرآن

وههنا أمور مدهشة ستلفت الأنظار ، كلا ، بل هى من الغرابة بمكان

١ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف أبناء يعقوب العشرة بأنهم حسدوا

أخاهم ، وضللوا أباهم ، وتواصوا في قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، ثم رجعوا للعمل على إلقائه في غيابة الجب ليلتقطه بعض التجار ، ثم توصلاً لذلك احتالوا على أبيهم بأنهم ناصحون لأخيهم ، والحال انهم غاشون ، ثم وعدوه إن أرسله معهم أن يحفظوه ، ثم أخلفوا وعدهم ، بل كانوا عند إعطاء الوعد مصممين على عدم الوفاء به ، ثم كانت النتيجة أن ذهبوا به وأهانوه وألقوه في غيابة الجب ، فقطعوا بذلك الرحم وعقّوا أباهم وآذوه ثم رجعوا لأبيهم داعين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، فحب عاجب وامر غريب !!!

٢ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يحكي عن « قابيل[1] » أنه حسد أخاه « هابيل » فقتله ، فأصبح من الخاسرين(٥ ٣٠ ـ ٣٣)فالعبرة في هذا القَصَص أن حادثة ابن آدم هي أقدم قصة تدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار ـ إلى اجتماع القبيلة ـ إلى اجتماع الأمة والدولة ـ فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الحسن أو الدين ، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها ، فيسعى على أخيه ولو بما فيه شقاء الأبد .

٣ ـ نقرأ في كتاب الله فنجده يحكي أن ابن نوح عليه السلام أبى أن يدخل في سفينته فكان من المغرقين ، وأنه كان عملاً غير صالح ، حتى أنه لعدم صلاحه خرج من عمود النسب (١١ ٤٢ ـ ٤٧)

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول ﴿ ضَرَبَ اللّهُ مثلاً للذينَ كَفَروا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ ، كانتا تحتَ عبدَيْنِ مِن عبادِنا صالحَيْنِ فخانتاهما فلم يُغْنيا عنهما مِنَ اللهِ شيئًا ، وقيلَ ادخلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ ١٠)

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف آزر أبا سيدنا إبراهيم بأنه كان

---

(١) ويسميه بعضهم قابيل

من عبدة الأوثان ، ولياً للشيطان ، (١٩ . ٤٢ - ٤٦) وأنه كان عدواً لله (٩ ١١٤)

٦ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن قارون (قورح) بغى على موسى ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين (٢٨ ٧٦ و ٨١) مع أن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه « قارون بن يصهار بن قهات » ، وأما موسى فهو « موسى بن عمران (عمرام) بن قهات » ، فلم تنفعه القرابة القربى

٧ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول ﴿ ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ الخ (٢٨ ٣٤ - ٤٠) وذلك حينما كان سليمان ولي عهد أبيه ، فتعدى عليه أخوه « أدونيا » واغتصب منه الملك وكان هذا في حال شيخوخة أبيهما داود ، ولما سمع داود أمر بمسح ابنه سليمان ملكاً بالفعل ، فهبت ريح سليمان بملك عظيم ، إلى آخر ما هو مذكور في القرآن والتاريخ ، وهذه الحركة كانت من ابن نبي على ابن نبي في حالة حياة أبيهما

٨ - نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن « أبا لهب » وامرأته « ام جميل » من التبابين ، ومن صالي النار ، مع أن أبا لهب جار النبي اللصيق ، وعمه الفرس ، وكان قد أعتق « ثويبة » حينما بشرته بولادته ، وكان أبو لهب وزوجه من سنام قريش وواسطة العقد ودرة تاج العرب في ذلك العصر

ثم نحن إنما نقرأ كل هذه الحوادث في القرآن ، ونروي حوادث أخرى من هذا القبيل في الأحاديث ، ونرى امثلة كثيرة من هذه الحوادث في الأسفار التاريخية العتيقة ، فما هي الحكمة والفائدة من ذكر هذه الأخبار والأقاصيص في القرآن المجيد ونحوه يا ترى ؟

هذا سؤال كان وجهه علينا بعض طلبة العلم ، وقد أجبناه عنه في ذلك الحين بما خلاصته

إن الحكمة والفائدة من ذكر هذه الحوادث وأشباهها هي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله ، وما هو لرسله ، تصويراً لحالة الرسل الحقيقية ، وهي أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضرّاً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يَهْدون من أحبوا ، ولا يُغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إليهم في النسب ، والمعاملة الدنيوية

وأما قاعدة وثنية العرب ، ونحوهم فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده ، في شؤون الأشقياء والإسعاد ، والسلب والإمداد فجعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم فجاء القرآن بذكر هذه الحوادث ، حوادث أقارب الأنبياء هادماً لتلك القاعدة الوثنية ، معلّماً الناس أن مدار النجاة على الإيمان والأعمال ، ولا نأمر للأقربين والنبيين (مرحى)

(إذ قالوا الخ)

قال المدقق الذي

الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين

لي ههنا كلمة أقولها تمهيداً للدفاع عن سيدنا يعقوب عليه السلام في حبه لولديه يوسف وبنيامين وإليكموها

لمحبة الولد طوران « طور الصغر » ، وهو حب ذاتي لهم ، لا علة له ولا

فكرة فيه ولا تدبير ، بل هو أمر طبيعيّ فطريّ داخل في عموم الرحمة الربانية العامة لجميع الحيوانات ، لا فرق فيها بين الإنسان والهرة ، و « الطور الثاني » حب معلول ، معه فكر ، وهو حب الأمل والرجاء بالولد، ودرجات هذا النوع من الحب على قدر درجات الأمل

إذا تقرر هذا فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول لأنه كان إذ ذاك ابن سبع سنين ، وأما حبه الزائد لولده يوسف فكان تقريباً من قبيل النوعين ، لأنه كان صغيراً ابن سبع عشرة سنة أو أقل « وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيمان ، لما كان يتفرس فيه من إمارات النجابة ، ولما سمعه من رؤيته المناميين ولما أوحي إليه فيه من الاجتباء والتعلم وإتمام النعمة ، وأنتم تعلمون أن وجوه المحبة إذا تعددت عدى بعضها بعضاً ، وعلى هذا فيعقوب معذور طبعاً وشرعا على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل ، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غير محله ، والسلام عليكم ورحمة الله (حيالك الله)

(إذ قالوا الخ)

— ٦ —

قال الوحيد الاسكندري

اسناد القول الى الاخوة العشرة جميعا

أضاف القول الى الاخوة العشرة جميعا في قوله « إذ قالوا » مع أنه لا بد أن يكون القائل هو البعض فقط ، والباقي ساكت مستمع ، وإنما صح ذلك لأن الجماعة متكافلة في الأمور العامة ، ولذلك وجب على الأمة

الإنكار على قائل أو فاعل المنكر من أفرادها ، لئلا ينشئوا فيها فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة من عاداتها، وتستحق عقوبته في الدنيا كالذل وسوء السمعة كما تستحق عقوبته في الآخرة بما دنَّس نفوسها ، ولذلك لعن الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا وكانوا يعتدون ، وبين سبب ذلك بقوله ﴿ كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكَرٍ فعلوه ﴾ (٦ ٨٢) ، ذلك بأن من أقر قائل أو فاعل المنكر ، فلم ينهه ولم يسخط عليه ، تكون نفسه مشاكلة لنفسه ، تأنس بما تأنس به ، ثم لا تلبث أن تقول أو تفعل المنكر ولو بعد حين ، إذا لم تعجز عن ذلك بسبب من الأسباب الحسية

الساكت عن المنكر يكون شريكاً فى الاثم لفاعله

وثم وجه آخر يجعل إسناد المنكر إلى قائله والراضي به إسناداً قريباً من الحقيقة ، وهو ان عدم النهي عن المنكر هو السبب في انتشاره وشيوعه ، لأن المائلين إلى المنكر لو علموا أن باقي الجماعة يمقتونهم ويؤاخذونهم عليه لما فعلوه ، إلا ما يكون من الخلس الخفية ، ولذلك كان الساكت على المنكر شريكاً فى الاثم للفاعل

ومثل هؤلاء مثل راكب مع جماعة فى سفينة ، ذهب ينقر فيها ، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جميعاً، ففشو المنكرات مهلكة للأمة ﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا منكم خاصةً ﴾ (٨ ٢٥) فلابد للمرء فى حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش ، فهذا ليس من فروض الكفاية التي تتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة إذ لا يجب على كل من علم

أن هنا ميتاً أن ينتظر غسله ليصلي عليه ، بل يكفي أن نعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره

(أحسنت أحسنت)

(ونحن عصبة)

— ١ —

قال الاستاذ الجزائري (١)

وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه

تقول إخوة يوسف العشرة إن أبانا يفضل علينا في المحبة يوسف وشوعه(٢)، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، بل لا في العير ولا في النفير ، وأما نحن فرجال عشرة كفاة ، ملتفون حول أبينا نقوم بمرافقه من رعي الغنم وغيرها ، أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، لا نُستذلّ ولا نُستقَلّ ، فما لأبينا يعبث بنا ويستصغر أمرنا ؟ هما ولدان صغيران ، لا يرجيان لدفع أو نفع ، ولا نؤمل منهما عائدة ، فما هي هذه المحبة الزائدة ؟ ولماذا يُعوّل أبونا على غُصْنَيْن غَضَّيْن ، ويترك الجذوع القوية ؟ وهل يلتقط الخردل دون الجندل ؟ وأين الحسام من المنجل ؟

هذه خلاصة شبهتهم التي تمسكوا بها للانتقاد على أبيهم ، ذكرها الله تعالى ولم يذكر الجواب عنها ، لأنها شبهة ضعيفة واهية ، والجواب عنهـــا ظاهر لائح ،

(١) نسبة إلى الجزائر من بلاد المغرب العربي في شمال افريقيه

(٢) هذا شوع هذا وشوعه كلاهما في الذكر والانثى ولد بعده ولم يولد بينهما (القاموس)

وخلاصته إن صغر سنيامين وتيتمه من أمه ، هو الذي أوجب تفضيل أبيه له في المحبة كما هو معروف في كل عصر ومصر ، وأما يوسف فإن صغر سنه ، وعدم المنفعة الجسمانية منه ، لا يصح أن يكون أقل منهم فضلاً ، بل هو أفضل منهم ، لأنه أحيا قلباً ، وأذكى فؤاداً ، وفضل الإنسان في حياة قلبه ، وذكاء لبه ، وحسن مستقبله ، ونفع يوسف — بحسب ما علم أبوه فيه — أعلى وأجل وأبقى ، وأما القوة البدنية ، والخدمة الجسمانية ، فعاريّة تغدو وترتحل ، وتمر عيناً ثم تنتقل

تقول أنا الكبير فعظموني ألا هلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً فما فضل الكبير على الصغير

يوسف إنسان بنفسه ، حي بطبعه ، دائم الحياة بعقله وفضله ، وهؤلاء معدومون بذواتهم إذا كانوا منفردين ، موجودون إذا كانوا مجتمعين ، مفتخرون بطولهم (وبُطُولتهم) وعرضهم (وعراضتهم) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يَسْخَر قومٌ من قومٍ عسىٰ أن يكونوا خيراً منهم ﴾ (٤٩ ١١) فلا ينبغي للانسان أن يعجب بالكثرة فإنها لا تغني من المعنويات شيئاً ، وليست الفضيلة بقوة الاجساد ولكن بالعقل والفؤاد

العصبة في الشعر

واسمحوا لي قبل أن أغادر هذا المنبر أيها السادة بقص النادرة التالية (قيل لأبي عبد الملك عَنَاق بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري » أفضل من « سلام أبي المنذر » ؟ » — قال لأنه لما مات « سلام أبو المنذر » مشى « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يمش « سلام » في جنازته !) وما أشبه حال إخوة

يوسف بهذه الحكاية ؟ فإنهم ادعوا أنهم أحق بالأحبية من يوسف وأخيه ، ولماذا يا ترى ؟ لأنهم عصبة ـ والعصبة العشرة فصاعداً كما في (الكشاف) أو الجماعة المتعصبة المتعاضدة ، كما في (مفردات الراغب) أو من العشرة إلى الأربعين ، كما في (النهاية لابن الأثير) ، وأما الإثنان فلا يستحقان (اسم العصبة) ، لكونهما اثنين فقط ـ فكأنهم قالوا نحن أحق بالأحبية لأننا عشرة بخلاف أخوينا الإثنين ، لأنهما ليسا بعشرة ، فهذه القضية شبيهة بتلك ، كمشابهة الليلة بالبارحة

(إِنَّ أبانا لفي ضلال مبين)

— ١ —

قال أبو الفضل المدني (١)

تضليل اخوة يوسف لأبيهم جهلا منهم وسفاهة

ضللوا أباهم ، لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه ، ولكن أبوهم سيأتي يقول لهم « وأعلَمُ مِنَ اللهِ مالا تعلَمون » ، كيف لا ؟ وقد تأكد صحة منامي ولده ، وعلم فيه من الله ما علم ، من اجتبائه وتعليمه وإتمام نعمته عليه ، وشيء من هذا لم تصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

(١) نسبة إلى المدينة المنورة في الحجاز

قيل « العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان قبل علمه جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم ، إذ لم يكن قبل جهله عالماً » ، ولرئيس المؤتمر .

واحذر الناسَ أن يرولَ مُحِبَّاً أو حبيباً واذكر بني يعقوبا
ضلّلوا مَنْ أحبَّ وهو أبوهم ثم ظلماً قد شرّدوا المحبوبا

(إن أبانا لفي ضلال الخ) ،

— ٢ —

قال الاستاذ العكاري :

شرح كلمة الضلال

لقد اختصر المفسرون في شرح كلمة « الضلال » اختصاراً ، ولكني أنا الحقير لن أقف عند هذا الاختصار ، لأني لم أقف عنده فيما بيني وبين نفسي ، بل حاورته ، وأريد أن أحاوره مع القراء الكرام ، إلى ما يقتضيه المقـــام ، من بسط في الكلام ، فأقول

الضلال في الشيء فقدان الهدى فيه ، سواء أكان كبيراً أم يسيراً ، وسواء أكان عمداً ، أم سهواً ، أم تأويلاً ، وسواء أكان في الأمور الدنيوية ، أم في الأمور الدينية ، وسواء أكان في الفروع أم في الأصول ، ولذلك وصف بـــه الكفار تارة ووصف به كبراء أهل الإيمان تارة أخرى ، فمن الضلال الذي هو فقدان الفروع الشرعية التفصيلية ، أو فقدان أفضل طريق لإرشاد البشر — قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ (٩٣ ٧) ، أي رآك ضالاً عن فروع

الشريعة التفصيلية فهداك إليها بالوحي ، أو رآك ضالاً عن الطريقة المثلى التي تسعى لإرشاد الناس ، فهداك إليها بالرسالة

ومن الضلال الناشيء عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى ﴿ فَعَلْتُها إذن وأنا من الضالّين ﴾ (٢٦ ٢٠) ومن إطلاقه على النسيان ﴿ أنْ تضِلَّ إحداهُما فتُذَكِّرَ إحداهُما الأخرى ﴾ (٢ ٢٨٢) ، ومن الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون تعمد الغلط ﴿ ولا الضّالّينَ ﴾ (١ ٧) قيل هم النصارى لأنهم لم يتعمدوا الكفر ، بل وقعوا فيه بسبب الجهل والتأويل ، بخلاف المغضوب عليهم اليهود فإن رؤساءهم وقعوا في الكفر عن عمد ، ومن الضلال في الأمور الدنيوية ما هو في الآية التي نحن بصدد التعليق عليها ، لأن الضلال الذي نسبوه لأبيهم إنما هو في معاملة أولاده ، ومثله ما في قول أحفاده ﴿ تاللهِ إنك لفي ضَلالِك القديم ﴾ (آ ٩٥) وقول النسوة المدنيات ﴿ إنّا لنَراها في ضلالٍ مبينٍ ﴾ (آ ٣٠)

وبعد فهذه الأنواع من الضلال هي أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً ، لا عن تأويل ، وذلك كما في قوله تعالى ﴿ وَوَيْلٌ للكافرينَ مِنْ عذابٍ شديدٍ ، الذينَ يَسْتَحِبُّون الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ، ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ، ويَبْغُونَها عِوَجاً ، أولئكَ في ضلالٍ بعيد ﴾ (١٤ ٣) وقوله تعالى ﴿ فكذَّبْنا وقلنا ما نَزَّلَ اللهُ مِن شيءٍ ، إن أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير ﴾ (٦٧ ٩) ، وقوله تعالى ﴿ لقد منَّ اللهُ على المؤمنينَ ، إذ بَعَثَ فيها رَسُولاً مِن أنفُسِهم ، يتلو عليهم آياته ويُزَكّيهم ، ويُعَلِّمُهُم الكتابَ والحِكمةَ ، وإن كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾ (٣ ١٦٤) ، فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي ، الذي ليس شيء أكبر منه ، وعلامته أن يوصف

بوصف بعيد أو كبير أو مبين ، وما يشبه دلك مما يشير إلى عطمه في باب الكفر

وإنما وصف أبناء يعقوب صلال أبيهم بأنه (مبين)تشدداً في البداءة ، وعلواً في السفاهة على جاب والدهم عليه السلام

استعار احوة يوسف على تصليلهم ابيهم

أمر عجيب والله ، جماعة ليسوا بأولاد صغار ، ولكنهم رجال كبار ، وجماعة ليسوا عبارة عن ثلاثة أو أربعة ، ولكنهم عشرة ، كلهم يتفقون على حسد ولدين صغيرين لطيمين ، يتفقون على حسدهما ليس على شيء جوهري مهم ، ولكن على القبله والبسمة والجلسة على الركبة ، يتفقون على انتقاد أبيهم وهم يعلمون أنه نبي معصوم، لا يحب إلا ما يحب الله ولا يكرم إلا من أكرمه الله ولا يخالف في حبه وكرهه شريعة الله ، كلهم يتفقون على الحكم عليه بأنه في صلال ، وياليتهم اقتصروا على كلمة « صلال » التي يوصف بها (بمجردها) كل من وقع في غلط مطلقاً ، بل وصفوا هذا الصلال بأنه « مبين » ، والصلال المبين أو الكبير أو البعيد ، لا يوصف به إلا الكافر المتعمد الكفر كما قدمنا ، ثم بعد هدا كله يأتي بعض المفسرين ويوجه عليهم لقب « النبوة » ، كأنه هو الذي يملك هده الرتب ، وكأن بيده تصريف هده الألقاب ، فيتفصل بإعطاء النبوة لأناس ، لم يقل الله أنهم أنبياء ولا قال دلك رسوله ، ولا روي دلك عن الخلفاء الراشدين ، ولا عن الأئمة المجتهدين ، وبالله ماذا نعمل من يقول بدلك في الآية (٨)؟ هل نسقط هدا العدد من السورة ؟ فبعد ما كانت أعدادها (١١١) نصير أعدادها (١١٠) ؟ وهل يقدر أن يجتمع بجبرائيل أمين الوحي ليرجع اليه هده الآيه الثامنة ، بل الآيات الكثيره من الثامنة الى الثامنة عشر ، وأصف الى دلك الآية (٧٧) فهل يمكننا أن نطمسها من المصحف ، حتى

يمكننا أن نقول إن هؤلاء القوم أنبياء ؟ أو هل النبوة رتبة رسمية توجه لمن هو أهل لها ومن ليس لها بأهل ؟

الدخول الجدّي في المؤامرة

آ (٩) ﴿ اقتُلُوا يُوسفَ ، أو اطرَحُوهُ أرْضاً ، يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكُمْ !!! وتكونوا من بعده قَوْماً صالحينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة فقام الحاج سعدي العكي (١) وقال :

﴿اقتلوا يوسف﴾ ، كأنهم أطبقوا على ذلك ، إلا من قال «لا تقتلوا يوسف» وقيل الآمر بالقتل شمعون ، والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين ﴿ او اطرحوه أرضاً ﴾ منكورة مجهولة بعيدة من العمران ﴿يخل لكم وجه أبيكم ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد من الوجه الذات كما قال تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (٥٥ ٢٧) وقيل يخل لكم يفرغ لكم من الشغل بيوسف ، ﴿وتكونوا من بعده﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب - أو يرجع الضمير الى مصدر « اقتلوا أو اطرحوا » - ، ﴿قوماً صالحين﴾ تائبين الى الله مما جنيتم عليه ، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه ، أو يصلح دنياكم

١ نسبة الى عكا من أعمال فلسطين

وينتظم أموركم بعده ، بخلو وجه أبيكم ، وبعد ثمـا دبّ أخيهم حتى يقتـل او يطرح أرضاً ، والمجرم — على رأيهم — هو أبوهم ؟ ولكن صدق من قال

لـكل داء دواء يستطب بـه إلا الحماقـة أعيت من يداويهـا

وإنا لنعجب من هؤلاء الأذكياء المصفين !! ، يريدون أن يحلموا العصيلة ، وصيلة بوجه أبيهم عليهم ، من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى !!! .

(اقتلوا يوسف . الخ)

- ١ -

ثم تابع الحاج سعدي العكي كلامه قائلا :

الاقتراح بقتل يوسف أو ابعاده

كان الاخوة قد نقموا على أبيهم ، في تفضيله يوسف عليهم في الحب ، وضللوه بسبب ذلك ، ولم ينقموا على يوسف شيئاً ما فما بالهم الآن يأتمرون على قتله وسفك دمه المحرم بلا جريمة ولا جريرة ؟ إن هذا إلا أمر عجاب

أصبح يوسف شغلهم الشاغل ، وصاروا يتقلبون منه على جمر الغضا ، فاجتمعوا واقترحوا إهلاكه ! فيا للجريمة ! يا للفظاعة ! من يسمع هذا الحديث ولا يسخط على هذه الطريقة الشنعاء التي يريدون أن يستخدموها بقتله أو إبعاده أو اسقاطه في غياهب الجباب ؟ ثم ما الحيلة وما العمل ؟ والنافذ القوى لم يكن غير هؤلاء الإخوة الذين استبد بهم الحسد استبداداً وأما يعقوب فكان شيخاً وحيداً ، ليس له بأولاده قوة ، بل هم قوة عليه ولم يكن له ركن شديد من عشيرته سوى أولئك المقاوبين

لو بغير المـــاء حلقي شرق ... كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

هم اتفقوا على حسد يوسف ، لسبب تفضيل أبيه له عليهم في المحبة ، ذلك التفضيل الذي حجب أباهم عنهم ، وشغله بيوسف ، فلهذا اتفقوا على إزالته من الوسط ، ولم يختلفوا في ذلك ابداً — اللهم إلا رأوبين ويهودا — نعم اختلفوا في شكل إزالته من وسطهم ، هل يقتلونه او يبعدونه ؟ كما هو راي الأكثرية الساحقة مبدئياً ، او يلقونه في غيابة الجب ، الذي تمر عليه التجار السائرون ، فيأخذوه معهم ، كما هو رأي يهودا ، وقد تابعته الأكثرية الساحقة أخيراً ، فصار إجماعاً من الجميع ، وكأنهم تصوروا أن لهم حلماً لا يعيشون إلا به ، وهذا الحلم هو محبة يعقوب إياهم ، وتوجه أنظاره عليهم ، وتفرغه لهم ، وكأن يوسف حسكة في ذلك الحلق فعزموا على إزالته والإبعاد به ، ويجب أن لا ننسى ما نقله المفسرون عن « وهبة ابن منبه » ، ونقله صاحب (السنن القويم) عن مفسري التوراة أن الساعي في قتل يوسف هو « شمعون » ، فهو زعيم الثورة الذي يحمل على رأسه تاج العداء ليوسف

مؤامرة قريش على قتل أو ابعاد أو حبس النبي (ﷺ)

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة !! وما أشبه هذه المفاوضة بالمفاوضة التي صارت في دار الندوة من قريش ، في شأن النبي (ﷺ) ، فقريش أقرباء النبي كانوا بمنزلة إخوة يوسف ، ولكن ليس في كل شيء ، لأن إخوة يوسف مؤمنون وأما قريش فكافرون ، وإنما هو مثلهم في الســـألب على الأخيار ، وعقد جلسة المؤامرة على الناس الطيبين ، إذ كان النبي (ﷺ) هو موضوع مؤامرة قريش ، ويوسف موضوع مؤامرة إخوته ، وكذلك إخوة يوسف تمنوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ، وقريش تمنـوا أن يخلو لهم الجوّ في مكة فتصلح بذلك أمورهم ، وكان الحـــال في مؤامرة قريش على النبي (ﷺ) دائراً بين

حبسه في بيت وإبعاده من بين أظهرهم ، وقتله ، وأخيراً قرّ رأيهم على قتله ، قال تعالى ﴿وإذ يَمْكُرُ بكَ الذينَ كفروا ليُثْبِتوكَ ،أو يقتلوكَ،أو يُخْرِجوكَ﴾ (٨ ٣٠) وهكذا كانت مؤامرة إخوة يوسف عليه ، وأخيراً قر رأيهم على حبسه في الجب ، هذا ما حضرني الآن فتأملوه رحمكم الله

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)

- ٢ -

وقال الحاج أسعد اللاذقاني

الطرح أرضا كالقتل

أوعز لهم شمعون بقتل يوسف أو إبعاده ، فتابعه جمهورهم على ذلك ، فهم أرادوا (بطرحه أرضاً) التغريب ، فإن الغربة كربة ، يقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول الشاعر

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقْتِراً
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد قُرن الإبعاد عن الديار بقتل النفس في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أنّا كَتَبْنا عليهم أن اقتُلوا أنفسكُم ، أوِ اخرُجوا مِنْ ديارِكم ما فَعَلُوه إلاّ قليلٌ منهم﴾ (٤ ٦٥) ، وقوله تعالى ﴿ قالوا وَمَا لَنا أن لا نُقاتِل في سبيلِ اللهِ ؟ وقد أُخرِجْنا مِنْ ديارِنا وأبنائِنا ﴾ (٢ ٢٤٦) ، وقوله تعالى ﴿ لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذينَ لم يقاتِلُوكُم في الدينِ ، ولم يُخْرِجُوكم مِنْ دِيارِكم ﴾ (٦٠ ٨) وقوله تعالى ﴿ وإذْ أخذنا ميثاقكم لا تَسْفِكون

دِماءَكم ، ولا تُخرِجُون أنفُسَكُم مِنْ دِيارِكم ﴾ (٢ ٨٤) ، وهذه شريعة عامة في كل ملة ، ورغماً عن ذلك فجد هؤلاء الأشبال العشرة الكرام !! قد تعاوصوا في إبعاد أخيهم عن فلسطين ، عن أبيه وسوعه وجده إسحق وباقي أسرته !!

الفوائد المستنبطة من الآية

نعلم من هذه المفاوضة أن الانسان قد يضعف عن احتمال سلطان الحسد وسيطرته عليه ، فيقدم على المخاطر المهلكة ، وهو لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها ، حتى يتردى في مهواتها

ونعلم أن الأفراد التي تشكل جماعة قد يتواطؤون على عظائم الامور القبيحة

ونعلم انه ينبغي للانسان ان يحترس ويتحفظ من الناس حتى من أقاربه وانه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره ونعلم ، وهو المدهش ، انه ربما يوجد أخوة كهول وشيوخ ، يغارون من أخ لهم صغير في سن الحُلُم ربما يكون لهم أولاد اكبر منه ، لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه !!

تعليل الاخوة الايقاع بيوسف

عللوا الإيقاع بيوسف بخلوّ وجه ابيهم لهم ، يريدون أن وجود يوسف في الوسط ، مانع من تفرغ أبيهم اليهم ، وتوجهه عليهم ، وأنهم حريصون على ذلك ، ويهمهم كثيراً ، فوصلا لهذا الغرض الهام ، لا بد حة لهم من أن يزيلوا هذه العقبة ، التي تحول بينهم وبين أبيهم ، هذا ما تظاهروا به ، وهذا ما عبر كروا عنه ، توصلاً الايقاع بأخيهم ، وهو علة مخالفة للعقل والمنطق والواقع ، وإنما

العلة الحقيقية الحسد والبغضاء والعداء الناجم من مجموعة أشياء ، هي مزايا يوسف وفضائله ، أخلاقه العالية ، كونه ابن (راحيل) الحظية عند والدهم ، التي كانت مترفعة جداً عن ضرتها (ليئة) ، وبالطبع عن (بلهة) و (زلفة) الجاريتين ، فهؤلاء كنّ حزباً ، وهي كانت وحدها حزباً آخر ، فلا بد أن يكون عداء هذا الفريق الأول قد سرى من النساء لأولادهن ، ولا ننس خرائيه المنامية وبسائر أبيه اليه ، التي بلغتهم فاستاؤا منها

لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم

وبعد فإنا لم نرهم حين المفاوضة أدخلوا في دائرة القتل أو الإبعاد (بنيامين) مع أنهم كانوا أظهروا التذمر من الأخوين معاً فلماذا هذا ياترى ؟ والجواب إن تذمرهم أولاً وبالذات إنما هو من يوسف ، وأما من بنيامين فثانياً وبالعرض ، ولهذا سمعناهم يقولون « ليوسف وأخوه » فلم يذكروه باسمه ، إشعاراً بأن محبة يعقوب له إنما هي لأجل عيون يوسف ، وأيضاً إنما كان بنيامين وقت هذه المفاوضة ابن سبع سنين ، فالدواعي لا تعرضه بالضرر غير متوفرة ، بخلاف يوسف فإنه كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان هو الشغل الشاغل لقلب أبيه فلذلك اقتصروا في مفاوضتهم على الإيقاع بيوسف فحسب

(اقتلوا يوسف. الخ)

– ٣ –

وقال السيد جميل الناصري [١]

أيها السادة لي هاهنا أربع كلمات .

من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف او ابعاده

الكلمة الاولى — ربما كان البادىء باقتراح قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً منهم هو (شمعون) على ما قاله مفسرو اليهود ، أو اثنين هما (شمعون ولاوى) على ما أظن أنا العبد الحقير ، لأني أقرأ في التاريخ فأرى طبيعة الاثنين واحدة ، وأنها متشابهان في الحركات القاسية (تك ٣٤ ٢٥ و ٤٩ ٥ – ٧) والباقي ردد هذا الصوت ترديداً ، أو قلد هذه الحركة تقليداً ، أو سكت عليها سكوت إقرار ورضى ، أو ضم صوته الى صوت المقترح مؤيداً له ، ولذلك نسب هذا الاقتراح الى مجموع الاخوة ، لأنهم متكافلون متضامنون ، فمهما وقع من بعضهم وسكت عليه الباقي فهو منسوب لجميعهم ، ألا ترى الى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اتَّخذتُم العِجْلَ مِن بعدِه وأنتم ظالِمون ﴾ (٢ ٥١) وقوله جل ثناؤه ﴿ وإذْ قلتم ياموسى لن نُؤمِنَ لَكَ حتى نرى اللهَ جهْرَةً ، فأخذَتكُمُ الصاعقة وأنتم تنظُرون ، ثم بعثناكم مِنْ بعدِ موتِكم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ (٢ ٥٥ و ٥٦) وقوله جل ذكره ﴿ وإذ قلتم ياموسى لنْ نصبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ ٦١) وقوله سبحانه ﴿ وإذْ قتلْتُم نَفْساً فادّارأتُم

(١) نسبة الى الناصرة من بلاد فلسطين

فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ (٢ ٧٢) وقال تعالى ﴿ فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ (٩١ ١٤ و ٥) وما إلى ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية والأشعار العربية

الحسد هو الدافع الحقيقي لاخوة يوسف على إرادة قتله

الكلمة الثانية — ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب لأبيهم منهم مما لا نقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، وعليه فلا مندوحة لنا من أن نلاحظ ان الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي — والحاسد غضبان على من لا ذنب له — مع العداء العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر ، والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية ، وهي ان الجماعة أقل مبالاة من الفرد ، لانحلال المسؤولية بكثرة الكافل ، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك كان مثال الحكم أقرب من تطبيق حالهم على قاعدة من قواعد العقل

انواع الأمزجة البشرية وتطبيقها على اخوة يوسف

الكلمة الثالثة — صدق من قال (الأقارب أعداء الحياة ، أحباب ساعة قبل الوفاة) ، فهؤلاء الاخوة حسدوا يوسف ، فصارت نفوسهم تسارعهم الى الايقاع به ، وجعلوا يتفاوضون ويتبادلون في كيفية إهلاكه ، ونظهر أنهم كانوا من أصحاب المزاج العصبي ، فإنهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يستطيعون الكظم ، فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة ، حتى يخرجوا عن الصواب ، فربما ندرت من احدهم كلمة نقولها عن غير روية وتدبر ، بخلاف أصحاب المزاج الدموي الذين لا تستحوذ عليهم الحدة ، ونظن أن كلاً من رأوبين ويهوذا من أهل هذا المزاج ،

وبعبارة اخرى — يوجد أناس يخرجهم الغضب عن طور التعقل فاذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم وألسنتهم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره ، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية ، ولعل إخوة يوسف الذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيـــل ، ويوجد نوع هم من أقدر الناس على الكظم وكتمان ما تكنه ضمائرهم فهم لذلك يصبرون على الضيم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل ، وذلك يساعدهم على كتمان عواطفهم ، فهؤلاء هم الذين غلب عليهم المزاج الدموي ، وربما كان كل من رأوبين ويهودا من هذا النوع

عرابة مشايعة دان ونفتالي لاخوتهم في المؤامرة

الكلمة الرابعة — إنا لا نعجب من هؤلاء الاخوة غير متسامحين أخويه ولدى (بلهة) جارية أمه ، وهما (دان) و (نفتالي) ، فيوسف بعدما ماتت أمه راحيل، وقد كان عمره تسع سنين ، انتقل هو وشقيقه بنيامين إلى خيمة جارية أمها هذه وهي (بلهة) وحضنته وأخاه المذكور ، فتربيا عندها مع ولديها المربورين ، فكان مقتضى العادة والواجب أن لا تتفق أخواه هذان مع باقي إخوته على قتله أو طرحه أرضاً ، مع ان ظاهر الكتاب الكريم انهما ممن شايع وتابع مع الجميع على يوسف ، وهو أمر من الغرابة بمكان !

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه … الخ)

— ٤ —

وقال العلامة البيروتي

نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ

رب سائل يسأل كيف جاز لهؤلاء الاخوة أن يتنكروا في حسد يوسف وطرده في الصغر، ويبغضوه ويتفاوضوا في قتله أو ابعاده في بيداء مجهل، ثم أخيرا يتفق كلهم على القائه في غيهب الغيابة، لكي تكون النتيجة بعده عن محبيه ومعاديه لوطن آخر يعيش فيه غريباً مشرداً؟ — كيف جاز أن يقع هذا مع انهم أبناء نبي مرسل، بل من بيت نبوات، وكان يجب أن تكون الأخلاق عالية، والضمائر حساسة، والقلوب رقيقة غير متحجرة، لأن الانسان ابن التربية أو ابن أبيه، والعرق دساس، فإن نظرنا لنسبهم، فالأب فحل كريم، والبيت عريق في المجد وكرم الغرائز، وإن نظرنا لتربيتهم فكان يجب أن تكون قد أثرت عليهم التربية الدينية أو الأبوية فتراهم رحماء ودعاء متسامحين حساسين، ذوى عطف وجنان ووجدان طاهر

فكيف نقدر أن نجمع في أذهاننا ما حكاه القرآن الكريم من نبوة يعقوب ورسالته وهدايته للبشر وإرشاده للناس قربهم وبعيدهم من الاعتقاد بهذا الذي حكاه القرآن عنهم من هذه الأقوال والأعمال التي لا تصدر إلا عن عديمي الأخلاق فاسدي الطباع، ناقصي التربية، خبيثي النوايا؟

وإذا كان يعقوب (ع) قد ثقّف عقول أمته وهديها ، وأصلح طباع قومه وقومها ، وجب بالأولى أن يكون لأولاده من ذلك الحظ الأوفر ؟

وإذا لاحظنا أن جدهم إسحاق (ع) كان إذ ذاك موجوداً بين اظهرهم —لأنه عاش نحو عشر سنين بعد غياب يوسف — وكانوا قريبي العهد بسيرة الجد الأعلى إبراهيم (ع) زاد الاشكال وزادت الحيرة والاعتلال

هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا من السؤال والاستشكال ، وأما الجواب عنه فنقول إن كلا من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يمدّ بالألطاف الإلهيه ، والتوفيقات الربانية ، والدين لا ينظر إلى هذه الأشياء التي ينظر إليها الناس ، ولكنه يقول في الكتاب الكريم ﴿ إنّ أكرمَكُم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾ (٤٩ ١٣) ويقول في الحديث الشريف « اليومَ أرفع نَسَبي وأضعُ أنسابَكُم ، أينَ المُتَّقُونَ ؟ » ، ويقول الشاعر

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام (سلمان) فارس
كما وضع الكفرُ الشريفَ (أبا لهب)

فما نرى من أبناء يعقوب ليس ببدع في التاريخ بل له نظائر وشواهد بداية ونهاية وإنما نجتزىء بالبعض منها فنقول

١ — انظر لآدم (ع) مع كونه نبياً ورسولاً لم يؤثر على ولده (قابيل) ، فكان شريراً فاسداً ، حتى قتل شقيقه (هابيل) ؛ ولماذا يا ترى ؟ لا لشيء سوى أن (هابيل) رجل صالح تقي قد تقبل الله منه تقدمته ، وان (قابيل) رجل عاص طاغ ، فلم يتقبل الله منه التقدمة ، قال تعالى ﴿ واتْلُ عَلَيهِم نَبَأَ ابني آدمَ

بالحقِ، إذ قرّبا قرباناً، فتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهما، ولم يُتَقبَّلْ مِنَ الآخر، قال لأقتُلَنَّكَ، — قال إنما يتقبّلُ اللهُ مِنَ المُتّقِينَ، لئِنْ بَسَطْتَ يدكَ إليّ لِتقتُلَني، ما أنا بِباسِطٍ يَدي إليكَ لأقتُلَكَ، إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمِينَ، إنّي أُريدُ أن تَبُوءَ بإثْمي وإثمِكَ، فتكونَ من أصحابِ النارِ، وذلك جزاءُ الظالمين، — فطوّعت له نفسُهُ قَتْلَ أخيهِ فقتَلَهُ، فأصبحَ مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (٥ ٣٠ ـ ٣٣)

٢ — انظر إلى نوح (ع) فهو مع كونه نبياً مرسلاً، لم تؤثر على ابنه كنعان، ولا على امرأته أم أولاده، فكانا كافرين به، مخالفين له، كامرأة لوط (ع) قال تعالى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلَّذينَ كَفَرُوا — امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ، كانَتَا تحتَ عَبْدَيْنِ مِن عبادِنا صالِحَيْنِ، فخانَتَاهُما فلم يُغنِيَا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً، وقيلَ ادخُلا النارَ مَعَ الداخلين ﴾ (٦٦ ١٠)

٣ — انظر إلى ابراهيم (ع) نبي الله ورسوله وخليله، لم تؤثر على أبيه آزر (تارح) وكان عدواً لله (٥ ١١٥)

٤ — انظر لاسحق (ع) نبي الله ورسوله، لم تؤثر على ولده (عيسو) الذي كان حقد على أخيه يعقوب (ع) وسخط وغضب عليه، ونوى متى توفى أبوه إسحاق أن يقتله، كما نعلم هذا كله من التاريخ، ونعلم منه أيضاً أن المقاومة والمناوأة كانت على أشدها بينه وبين شقيقه يعقوب، فكان عدواً له، مخالفا له في المسلك والأخلاق ومنحطاً جداً أمام ارتقاء أخيه، ولذلك لم تقع به البشارة في قوله تعالى ﴿ فبشّرناها بإسحقَ، ومِن وَرَاءِ إسحاقَ يعقوب ﴾ (١١ ٧١)، ولم يمتن الله بهبته لأبيه في قوله ﴿ ووَهَبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافِلةً، وكلاً جعلنا صالِحِينَ ﴾ (٢١ ٧٢)

٥ ـ انظر إلى يعقوب (ع) لم يؤثر على حاله (لابان) إذ بقي في وثنيته رغماً عن كونه خاله وحماه ، ورغماً عن انه قد صحبه نحو (٢٠) سنة

٦ ـ انظر إلى داود نبي الله ورسوله والخليفة في الأرض بعد حميه الملك (طالوت) فهو لم يؤثر على ولده (أمنون) الذي ذكر التاريخ انه اغتصب أخته (ثامار) ـ والعهدة في ذلك على مؤرخي التوراة ـ وكذا لم يؤثر على ولده (أبسالوم) الذي قيل أنه أمرَ غلمانه بقتل أخيه (أمنون) في وليمة دعاه إليها ، انتقاماً منه لشقيقته (ثامار) فقتلوه ، وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) أيضاً في حادثة أخرى ، وهي أنه كان أفسد الشعب على أبيه ، ليكون بدله في المُلك ، حسداً لأخيه (سليمان) إذ كان أبوه يميل إليه ، وكان حق الملك بحسب السن إلى (أبشالوم) ، لأنه كبير إخوته حينئذ ، فقام على أبيه وتملك في حياته ، وحارب أباه حتى دخل عاصمة ملكه (أورشليم) ، وألجأ أباه للهرب منها ، وفيما بعد قتل (أبشالوم) في ميدان الحرب ، كما ذكر ذلك المؤرخون

٧ ـ انظر إلى سليمان (ع) وهو نبي مرسل ، وملك قوي ، وكان ابنه (رَحُبْعَام) تربى بين يديه ، وتحت نظره ، ثم تولى الملك بعده ، فأثار روح الغضب في الشعب بسوء إدارته ، فسبب انقسام المملكة لاثنتين ، إذ خرج عليه عشرة اسباط وشكلوا المملكة الشمالية ، ولم يبق معه سوى سبطين ، هما يهوذا وبنيامين ، الأمر الذي سبب الضعف والانحلال والمحاربات الداخلية والخارجية ، حتى فنيت المملكتان ، ولم نر أن تربية سليمان لولده رحُبْعام أثر في حسن حاله واستقامة إدارته شيئاً

٨ ـ قد تخاصم أخَوَانِ من بني إسرائيل وتحاكما إلى نبي الله داود (ع) وليس على امر ذي بال ، ولكن على نعجة من الغنم كما قال تعالى ﴿ وهل أتاكَ نبأُ

الخَصْمِ إذْ تَسَوَّروا المحراب ، إذْ دخلوا على داودَ ، فَفَزِعَ منهم . قالوا : لا تَخَفْ ، خصمانِ بَغَى بعضُنا على بعضٍ ، فاحكمْ بيننا بالحقِ ولا تُشْطِطْ ، واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراط ، إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعْجةً ، ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ ، فقال أكْفِلْنيها وعَزَّني في الخِطَابِ ، — قال لقد ظَلَمَكَ بسؤال نعجَتِكَ إلى نِعاجِه ، وإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغي بعضُهُم على بعضٍ ، إلاّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، وقليلٌ ما هُم ﴾ (٣٨ ٢١ – ٢٤) فهذان الأخَوَان هما من الشعب الإسرائيلي من رعايا داود بصفته ملكاً ، ومن مريديه بصفته خليفة ، ومن أمته بصفته نبياً ورسولاً ، ومع ذلك فلم تؤثر تربيته لهما على المتعدي منهما أن لا يكون قد تعدى على أخيه الفقير المسكين

٩ – قد تعدى (أدُونيّا) بن داود (ع) من زوجته (حجّيث) ، على أخيه (سليمان) بن داود من زوجته (بتشبع) فجلس (أدونيا) المغتصب على عرش مملكة أورشليم المعهود به من داود لسليمان ، والمبايع عليه من الشعب ، ثم رجعت المياه لمجاريها ، ورُدَّ المُلْكُ المُغتَصَب لصاحبه الشرعي ، كما قال تعالى ﴿ولقد فَتَنَّا سليمانَ ، وألقَيْنا على كرسِيِّه جَسَداً ، ثم أنابَ ، قال ربِّ اغفر لي ، وهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي ، إنكَ أنتَ الوهابُ ﴾ (٣٨ ٣٤ و ٣٥)

١٠ – وهذا أبو العباس السفاح قتل نحو (٩٠) رجلاً من بني أميّة ، كانوا جلوساً على مائدته يأكلون ، فأمَرَ بهم ، فضُربوا بالعُمُد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، كما في ابن الأثير

وتتبع بنو العباس من كان بالشام من أولاد الأمويين الخلفاء وغيرهم فأخذوهم

وقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد ، سوى رضيع أو من هرب منهم إلى الأندلس ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى قبور بني أميـة فنبشوها ، توصلاً لمحو آثارهم ، وأخرجوا جثة هشام فضربوها بالسياط وصلبوها ، وحرقوها وذروها في الهواء

١١ ـ وهذا أبو جعفر المنصور أمر بقتل بضعة عشر رجلاً من آل الحسن رضي‌الله عنه فقتلوا جميعاً بعد نقلهم من المدينة الى العراق

١٢ ـ وهؤلاء هم سلاطين آل عثمان فمنهم من قتل أولاده ومنهم من قتل اخوته ومنهم من حارب أباه ومنهم من قتل نساء أبيه

١٣ ـ وأخيراً هذا أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه زوجه (أم جميل) القرشية كانا على أشد العداء والمقاومة للنبي ﷺ ، رجل يفسد عليـه الرجال ، وامرأة تفسد عليه النساء

وعلى الجملة فإيذاء الأقارب بعضهم لبعض معهود في التاريخ ، تمشياً مع قاعده (الأقارب كالعقارب) و (الأقارب لا تقارب) ، و (امرأة الأب نقمة من الرب ، لا تحِب ولا تُحَبّ) و (العم عمى ، والخال خالٍ من النفعة) و (صِلوا اقرابَاتِكُم ولا تجاوروهم ، فإن الجوار يورث بينكم الضغائن) ، و (رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك)

إن كل ما ذكرناه من الأمثلة التاريخية لا تشابه ولا تداني حادثه هؤلاء أبناء الأسباط الكرام !! لأن تلك الحوادث جرائم فردية لا أهمية لها باعتبار أنها صدرت من فرد سقط في هوة الغلط ، واما أن إخوة عشرة كبـــار ، كهول وشيوخ أزمعوا على قتل أخ لهم هو أصغرهم فهي جريمة صدرت من جمع ، وهي من الأهمية والغرابه بمكان !! لا سيما إذا تصورنا أنهم أبناء نبي ورسول ، ثم لا سيما إذا تصورنا ان حاله تشبه حالة من قال « غيري جنى وأنا المعذب فيكم » ، ثم لا سيما إذا تصورنا

أنهم أخذوه من أبيه تحت العهود والأيمان أن يحفظوه ويكلأوه ، ثم وأخيراً إذا تصورنا أنهم بذلك العمل يكونون قد أعصوا أباهم عليهم وأحزنوه ومرّروا عيشته !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نقول في شأن هؤلاء الناس أبناء الصهيونيين إلا ما يرضي الشريعة ، فاللهم أدم ضرب الذلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين

أصوات من المستعين

(آمين)

(اقتلوا يوسف الخ)

وقال الامام الدمشقي القيموري [1]

لي هنا على هذه الآية الكريمة الكلمات التالية

التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية

الكلمة الأولى — في تلك الجلسة المشؤومة، جلسة المؤامرة القاسية على يوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم ، إصغاء لنداء الحسد والغيرة والأثرة ، ومع الأسف لم يصغوا لنداء ضمائرهم ، وإلا لما افتكروا هذا الفكر الرديء

ورغماً عن أن قلوبهم كانت ناجيهم بأن هذا الفكر سيء ، فقد تعاهدوا عليه وتواطؤوا ، وصمموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل ! ، — لولا أن قال قائل منهم بغير مقالتهم ، ورأى رأياً غير رأيهم — وقد احتجوا على الإقدام على هذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم ، وتفرغه لهم

(١) نسبة الى حي القيمرية بدمشق (سورية)

وما أشبه هذه المؤآمرة بالمؤامرة التي صارت بين « البرك » بن عبد الله التميمي و « عمرو » بن بكر التميمي ، و « عبد الرحمن بن ملجم » المرادي ، لأجل قتل الأول « لمعاوية » بن أبي سفيان ، وقتل الثاني « لعمرو بن العاص » وقتل الثالث « لعلي » بن أبي طالب رضي الله عنه ، تذاكروا واتفقوا على قتلهم ، دفعاً للفتنة وإراحة المسلمين منهم — في زعمهم — ، هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت ، كما أن شبهة إخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس ، ومع ذلك فيوجد فرق كبير ، أو فروق كبيرة ، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى

واعجباه لعمري إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم ، هاجت فيهم عوامل الغيرة ، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأنيهم غرضاً وهو لا يعلم ولا يقصد ، وما أقدر الشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلطف وتعلل بهذه العلة الدنية ، علة أن أباهم لم يردهم حباً عن يوسف لأنهم انفع منه ، بل لم يساو بينه وبينهم في الحب كما هو الواجب ، عللوا بذلك — وهم يعلمون فساده — توصلاً للقضاء على أخيهم ! كمنوا وراء أكمة الدين ، ليُصْمُوا إنساناً هو من أهل الدين باسم الدين، يسترون بذلك تعقيلاً للجاهلين ، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداء والبغض ، وثورة القوة وشهوتها

عجباً لهؤلاء الإخوة الأكارم أحفاد الصهيونيين الرحماء !! أثاروا ابها به الشهوة السوآى، وألبسوها لباساً دينيا ، ليستمروها ويستخدموها لغرضهم الشخصي النفساني فوا أسفاه !

نحمدُ الله تعالى على أنهم لم يكونوا قضاة إذ لو كانوا كذلك لحكموا بالموت على كل إنسان أجمل منهم أو أعلم أو أثرى أو أكمل ، ولماذا ! لأنه يشغل الناس عنهم، ولكانوا حكموا على كل من كان أفضل منهم بالموت ، فتأملوا واعجبوا

الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر

الكلمة الثانية — نرى من قولهم ﴿ يَخلُ لكم وَجْهُ أبيكم ﴾ انهم لم يأتوا على ذكر القتل أو الإبعاد ، إلا مشفوعاً بذكر خلوّ أبيهم إليهم ، فالنتيجة التي توخوها من الإيقاع بأخيهم صالحة وحسنة جداً ، ولكن مقدمتهـا ثقيلة جـداً ، وغير جائزة ، فهم كمن يريد أن يسرق المال ، ليتصدق منه أو الماء ليتوضأ به ، على مذهب من يقول (النتيجة تبرر الواسطة) وهو غلط فاحش ولذلك نراهم أخيراً عدلوا عن هذه المقدمة الى مقدمة اخرى ، هي وان تكن ايضاً غير جائزة ، لكنها أخف من سابقتها ، « وبعض الشر أهون من بعض » فالايقاع بأخيهم ليس عندهم مقصوداً لذاته ، بل هو يراد كواسطة للوصول الى أمر مطلوب لذاته ، هو توجه أبيهم اليهم ، وحنانه وعطفه عليهم ، وكذريعة لحصولهم على خلوة يجدونها في قلب أبيهم يسكنون فيها ، ولكن هذا كله بحسب ظاهر كلامهم ، والحقيقة أن العامل الوحيد الذي دفعهم لذلك هو الحسد ، لا غير

إن كان محبة الأب لأولاده ، وتوجه نظره إليهم ، لا تكون الا بقتل ابنه المحبوب الوديع ، فرحمة الله على الفضيلة ، والويل للناكبين عنها ، وعلى مصيرهـ المحزن الأليم ، عجباً لهؤلاء الأبناء الأذكياء !! الذين يريدون أن يحبهم أبوهم ، ويخلص لهم ، على حساب ظلم ابنه المحبوب وقتله !

ومع ذلك ، فغني عن البيان ان عملهم هـذا الذي افتكروا فيه مبدئياً ، يزيد الطين بلة ، والقلب علة ، ويوجب زيادة عدم عناية أبيهم بهم ، فيؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة لهم ، ولكن عوامل الغيرة ، وبواعث الحسد والعـداء هوّنت عليهم هذا الأمر العسير ، وصورت لهم المحال ممكناً وجعلتهم يتخيلون

المانع سبباً موجباً ، حتى أقاموا على أخيهم حرباً أهلية ، وتآمروا على صرف محجة ما أنزل الله بها من سلطان

النتيجة عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت مسخطة

الكلمة الثالثة — قالوا ﴿ يخل لكم وجه أبيكم الخ ﴾ فتمنوا أن يكون حالهم بحيث يصدق عليها قول القائل

يالكِ مِن قُبَّرَةٍ بمَعمَرِ ... خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقري[1]

منّوا أنفسهم بهذه الأمنية التي هي بعيدة عنهم بعد السماء عن الأرض ، ووعدوا أطماعهم بما هو ضرب من المحال ، لأنهم بالاقدام على هذا الجرم الكبير شيرون حفيظة أبيهم عليهم بعكس ماتخيلوا

وأما قولهم﴿وتكونوا مِن بعدهِ قَوماً صالحين﴾ فشبكة أرسلوها ليصيدوا بها ثلاثة أشياء « ١ ـ صالحين أي تائبين الى ربكم مما جنيتم على أخيكم ، ٢ ـ صالحين أي تصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه له ، ٣ ـ صالحين أي تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم لكم ، وتصيروا مسرورين فرحين ، فهذه ثلاثة معان ، ضربت برمية واحدة ، وهذا هو شأن اليهود من القديم ، وهذا هو حال سلالتهم الصهيونيين اليوم فى فلسطين ، النتيجة تبرر الواسطة ، فمهما كانت مسخطة وسافلة !!!

١) المعمر المنزل الكثير الماء والكلاء او هو اسم لموضع بعينه
نقر (بتشديد وفتح القاف) فى الموضع حفراً سهلة لتبيض فيه ونقر (بتشديد القاف) ضرب (بتشديد الواو

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

الكلمة الرابعة ـــ تبين من إرادتهم قتل أخيهم طلماً أنه ليس يكفي الانسان حتى يكف عن الأذى الوخيم أن يكون ابن نبي الله،أومن سلالة بيت كريم بل يجب قبل كل شيء ان يكون ابن تربية كاملة ، صاحب أخلاق فاضلة ، ونفس كريمة ، تمنعه من ارتكاب ما لا يجوز فى ملة من الملل ، ولعمري إنه كان يكفيهم أن تفاهموا مع أبيهم فى تفضيله يوسف في الحب عليهم ، قبل أن يفتكروا في قتله ، والكي لا يكون إلا آخر الدواء

بعض طبائع الاسرائيليين

الكلمة الخامسة ـ قص الله تعالى مفاوضة هؤلاء الاخوة فى قتل أخيهم ليوقفنا على بعض طبائع الإسرائيليين التي منها أنهم قد يجتمعون على شر الشرور،ولا يخجل بعضهم من بعض ولا يبالي بضميره ، وإذا وجد فيهم واحد هو احسن منهم،اشار عليهم بأخف الشرين ، ذلك لكي يعتبر ، ويكون دائماً على حذر ، من سلائلهم اليهود (أبناء العم) المحترمين الا خاصة الصهيونيين ، الذين كأنما « قانون الوراثة » قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته

ما هى افكار الصهيونيين اليوم مع ابناء اسماعيل

الكلمة السادسة ـــ يظهر من مذكراتهم فى موضوع القتل ، أنه كان قسم منهم من ذوي العزم والشرس ، وكان في قسم آخر رق الشباب ، فعَلت في قلوبهم مراجل العِداء والتهبت فى صدورهم نار البغضاء فلفظوا بهذا القول ، وقد أخذ

الحماس منهم مأخذاً عظيماً، هذه أفكارهم مع أساءة حلدتهم فماعسى تكون أفكارهم مع أساء اسماعيل؟ وماهو الفكر اليوم عند سلائلهم الصهيونيين، هل يقولون إلا كما قالت أجدادهم في الجريرة « لَيسَ عَلينا في الأُمِيِّينَ سَبيل »(٣ ٧٥)

الطرح أرضاً فى اللغة

الكلمة السابقة — قولهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ يقال بلد طروح ومكان سحيق ، ومحلة نازحة ، والمعنى أبْعِدُوه لغير أرض ، أبعدوه لأرض منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، اجتهدوا في ذلك ، فإن لهذا العمل ما بعده ، أتيهوه في تَنْداء مَجْهَل ، وعلى الدنيا السلام

كلمة اطرحوه فى القرآن

الكلمة الثامنة — راجعنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد لفظة ـ اطرحوه ـ قد ندرت من فم جبار من الجبابرة ، أو ظالم من الظلمة ، ولكن إنما رأيناها تلوح كالزهرة اليانعة على فم هؤلاء الأنسال الكرام ؟؟ في أخيهم المعذور ، فلا ولا وإنّا وإنّا

الصلاح وأقسامه

الكلمة التاسعة — قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) يطلق الصلاح على الصلاح الدنيوى ، وعلى الصلاح الديني ، والآية التي ههنا تحتمل الوجهين ، كما احتملهما ما فى قوله تعالى ﴿ وأنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين مِن عبادِكم وإمَائِكم ﴾ (٢٤ ٣٢) أى من كان نقياً غير مفسد، أو أريد بالصلاح القيام بحقوق

النساء ، وقوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٢١ ١٠٥) أي المتقون ، أو الذين فيهم أهلية لخدمتها وعمرانها وحراستها والمحافظة عليها وإقامة العدل فيها ، ومن اطلاقه على الصلاح الدنيوي خاصة ما فى قوله تعالى ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ (٢١ ٩٠) أى جعلناها صالحة للولادة بعد عقرها ، وقوله تعالى ﴿ سيهديهم ويصلح بالهم ﴾ (٤٧ ٥) أي يحسن أحوالهم الدنيوية ، وأما شواهد إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ، فهي فى كتاب الله أكثر من أن تحصر

الحسد والغبطة والمنافسة

الكلمة العاشرة — تعلمون ان الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، بأن يتمنى الإنسان أن يغرق مال فلان أو يحرق ،أو أن يزول عنه الأرباح فى تجارته أو تتبدل محبة الناس له بكراهتهم إياه ، وعلى الأقل تزول تلك المحبة ، أو أن تتحول عافيته إلى مرض ، أو يموت أولاده ، أو يعزل فى منصبه،وهكذالافرق فى ذلك بين الحسد على الأمور المادية ، والأحوال المعنوية ، كما لا فرق بين أن يتمنى تحول هذه النعمة إليه أو إلى غيره ، ولا فرق فى هذا التمني بين أن يكون تمنياً قلبياً فقط بحيث لا يتعدى الفكر ، أو تمنيا يترتب عليه السعي بالمكر ، بأن يسعى لإزالة الربح أو الحب عن المحسود ، وأن يبذل جهده فى إحباط عمل المحسود ، وعدم معاملة الناس له أو عدم إسناد المنصب لعهدته ، إلى غير ذلك ، وهذا النوع حرام ممقوت يمقته الله وملائكته ، وأهل المروءة من الناس ، وهو معدود من الكبائر ، وهو ينبئ عن سوء النية ، وخبث الطوية

وأما تمني مثل نعمة الغير من غير ان تزول عنه تلك النعمة فهو حسد محمود ،

ويسمى بالحقيقة « غبطة » ولا يسمى حسداً إلا مجازاً ، وصورة ذلك أن يجاري الرجل غيره ويسابقه مسابقة ، ويجتهد اجتهاده ويحصل الأسباب التي اقتضت ثروة غيره مثلاً ، ويسلك المسلك الذي سلكه غيره من الناس المحبوبين حتى يصير محبوباً مثله

وهذا النوع من الحسد ، وبعبارة أصح من الغبطة ، إنما وجد في الإنسان لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسانُ غيرَه في المفاخر والفضائل والمجد والثروة ، فتربو المساعي ، وتكثر الأعمال ، ويزداد العمران ، وترقى نوع الإنسان ، وهذا النوع من الحسد ، كما يسمى (غبطة) فهو حقيق أيضاً بأن يسمى (منافسة)

واعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المشاركين في حال ، كالجار والصهر والقريب ، وكالمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو امارة أو علم أو سن ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع أو بلد ، وأكثر ما يكون الحسد بين الجيران والأقارب ، مع المعاصرة في الزمن ، والمقارنة في السن ، والمشاركة في المسلك ، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، وزاد الحسد كلما ازداد الصيت وحَسُنَ الذِكر ، وكلما زادت ثروة المحسود ، وكثرت نعماله وأعماله

عمل اخوة يوسف مع يوسف من الحسد الممقوت المشؤوم

إذا تقرر هذا فعمل إخوة يوسف مع يوسف ، هو ليس من قبيل الحسد المحمود ، الذي هو حسد الغبطة أو المنافسة ، لأنهم لو أرادوا هذا المعنى لبحثوا عن الأسباب التي اقتضت زيادة محبة أبيه إليه ، واتصفوا بها وسلكوا المسالك الذى

سلكه يوسف ، لكي يحصلوا على مثل تلك الدرجة من الحب ، فكان يجب عليهم ، بدلاً من أن يفتكروا في الإيقاع بيوسف أن يجتمعوا ويتفاوضوا فيما يعود عليهم بمحبة أبيهم إليهم ، وعطفه عليهم بمثل درجة محبته وميوله ليوسف ، ثم ليس هو من قبيل الحسد الممقوت فقط ، لأنهم لم يتمنوا زوال نعمة الحب فحسب ، بل تمنوا وافتكروا في إزالة شخص أخيهم من الوجود ، أو على الأقل من فلسطين وهذا النوع من الحسد نادر المثل ، وهو أرذل وأفحش أنواع الحسد المشؤومة

سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده

الكلمة الحادية عشرة — نعلم أنهم كانوا أولاً ذكروا يوسف وأخاه بنيامين ولكنا نراهم الآن لم يتفاوضوا إلا على يوسف فقط ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب لائح وهو أن يوسف في نظرهم هو علة العلل ، هو العلة الوحيدة ، هو أساس كل علة هو العدو الأزرق ، هو العقبة الكؤود التي إذا زالت زالت كل اتعابهم ، وأما بنيامين فليس مهماً كثيراً في نظرهم ، لأنهم لم يسمعوا منه يوماً أن الكواكب خرت من السماء وسجدت بين رجليه،فلم يكن قد أخذ من قلب أبيه عشر معشار ما أخذه يوسف

ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين

الكلمة الثانية عشرة — أنتم تسمعون الآن أن هؤلاء الأشبال يقولون « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » وأما نحن فنعلق عليه بأن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء

الأجداد هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية وما أشبه الليلة بالبارحة ، فالصهيونيين اليوم ـ حيث طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب!!! الواقفين أمامهم في جهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب أراضيهم ، والهجوم على اقتصادياتهم ، ومرافق حياتهم ، وكل أسباب عيشهم من مناصب حكومة ، إلى فلاحة إلى تجارة ، إلى كل منابع العز والثروة كما أنهم بالتالي والنتيجة يريدون طرح إخوانهم العرب أرضاً ، بإلجائهم للبعد عن فلسطين ، والتغرب لتناول القوت في شتى البلاد ، وقسرهم لذلك قسراً وذلك حرصاً منهم على أن يكونوا أكثرية في فلسطين ، بل أن لا يكون غيرهم فيها ، فيتشكلوا تلك الدولة الصهيونية الخيالية بهمة زعمائهم !! ويكونوا من بعد هذا كله ﴿قوماً صالحين﴾ (ع ٩) تصلح لهم أمور دولتهم ، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا «محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة» (يش ٩ ٢١) فيا أيها العرب والمسلمون إن موعد اليقظة والحذر قد اقترب ، فاحتاطوا لأنفسكم ، قبل أن يحاط بكم ، وإياكم أن تستبعدوا ما أقول ، لأنه إذا كان أجدادهم أبناء الأسباط ابتكروا هذه الفكرة في حق بعضهم ، فهل من البعيد أن يبتكروا نفس هذه الفكرة أو أسوأ منها في بني عمهم العرب ؟ هذا وليس صهيونيو اليوم بأفضل من آبائهم ، كما أن عرب اليوم ليسوا بأحسن من يوسف (١)

شواهد من التوراة على صلابة اليهود وقساوتهم ووحشيتهم

حقاً إن اليهود حجر عثرة ، وعظمة ناشبة في حلق كل العالم الذي على وجه المسكونة

(١) لقد كتب المؤلف هذا الكلام قبل سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

وعيباً إنهم سبب كل اضطراب ، وعلة كل تشويش وجد ويوجد فوق الكرة الأرضية ، فقديماً أتعبوا يعقوب وأحزنوه ، كما تراه في هذه السورة ، وأتعبوا موسى وآذوه ، حتى قيل في شأنهم « وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم » (خر ٣٢ ٩ و ١٠) وعن النبي حزقيال « وقال لي يا ابن آدم ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل ، إلى أمة متمردة ، قد تمردت علي ، هم وآباؤهم عصوا علي إلى ذات هذا اليوم ، والبنون القُساة الوجوه والصُّلاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم هكذا قال السيد الرب ، وهم إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد ، فإنهم يعلمون أن نبياً كان بينهم ، أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف ، لأنهم قريس وسلاء لديك ، وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لا تخف ، ومن وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرد ، وتتكلم معهم بكلامي ، إن سمعوا وإن امتنعوا ، لأنهم متمردون » (حز ٢ ٣ - ٧) ، وقال الرب « لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك ، لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي ، لأن كل بيت إسرائيل صلاب الوجوه وقساة القلوب » (حز ٣ ٧) ، وقال الرب « فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم ، كأقفية آبائهم » (٢ مل ١٧ ١٤) وقال « صلبوا وجوههم أكثر من الصخر » (إر ٥ ٣) وقال « فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنهم ، بل صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم » (إر ٧ ٢٦) وهكذا هم لم يزالوا على هذا الحال إلى أيام مملكتي الكلدان والآشوريين ثم أيام مملكتي اليونان والرومان ، فأزعجوا الكل وأتعبوا الجميع ثم في الأيام الأخيرة أخرجهم الروس والألمان من بلادهم ، واليوم بعد الحرب العالمية انصب أذاهم فوق رؤوس العرب في بلاد فلسطين ، نسأل الله السلامة من كيدهم آمين

يهود اليوم متحرجون على مدرسة اليهود القدماء

الكلمة الثالثة عشر ــ إنْ كان من الممكن فهم نظرية إخوة يوسف السابقة وهي قولهم إن أباهم لم يساو بين الاخوة في المحبة ، فليس من الممكن مطلقاً فهم النظرية الحاضرة ، وهي معاقبة من لم يذنب معهم شيئاً ، ويالت هذه المعاقبة لطيفة، لا ولكنها تدور بين إرهاق الروح والنفي من الوطن ، وعلى كل فإن هـــذه الأفكار السامية " لا تصدر إلاّ من المتحرجين على (المدارس القديمة) ، بل لا تصدر إلا من قوم لم يتذوقوا طعم الانتساب لأي مدرسة ، ولو ابتدائية ، مع أنهم تحت نظر معلم يصلح أن يكون استاذاً من الدرجة الأولى في أكبر مدرسة أخلاقية دينية ، بل هم لم يكونوا تحت نظر استاذ واحد فقط ، ولكنهم كانوا تلاميذ لمعلمين اثنين كبيرين ، هما يعقوب وإسحاق ، إنما تأثير الإنسان ، أي إنسان كان، مع تلك الظروف والبيئات ، وفي ذلك المحيط المحط ــ على كل حال ضعيف ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَن أَحبَبْتَ ، ولكنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ ﴾(٢٨ ٥٦) و ﴿ ليس لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ ﴾ (٣ ١٢٨) آمنت بالرب الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما آمنت انه لا إلـه إلا هو .

عيري حي وأنا المعذب فيكم

الكلمة الرابعة عشر والأخيرة ــ فلما إن المذنب ـ في نظر الاخوة ـ أبوهم يعقوب ـ حاشاه عليه الصلاة والسلام ـ وأما أخوهم ، فما ذنبه يا ترى ؟ حتى يستحق هذا العقاب " ، إنه والحق يقال ينطبق عليهم قول القائل « عيري حي وانا المعذب فيكم " » ، وغني عن البيان أن فعلهم هذا إنما يوجب اعتزار أبيهم

وانكماشه عنهم ، دون توجهه إليهم ، فما وجه هذا الاستنتاج الذي استنتجوه ؟ الجواب هو أن ضغط الحسد والغيرة أثر على أعصابهم ، فصاروا في حالة غير عادية فقالوا ما قالوا ، ثم فعلوا ما فعلوا ، مما كان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم

(صدقت ، صدقت ، ولا فض فوك)

تعديل الحكم

آ(١٠) ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية العاشرة ، فقام العلامة المصري وقال

﴿ قال قائل ﴾منهم وهو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً﴿لا تقتلوا يوسف ﴾ فالقتل عظيم ،﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ـ وهي ما غاب منه عن عين الناظر وكان في ناحية منه ـ ﴿يلتقطه﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع﴿ بعض السيارة ﴾أي بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق﴿إن كنتم فاعلين ﴾أي ان كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأى

(قال قائل منهم الخ)

— ١ —

ثم تابع العلامة المصري كلامه قائلاً

طلب تعديل الحكم على يوسف

نعم أيها السادة كأني بهذا القائل وهو يهودا قد أفاق من غفلته ورجع إلى نفسه ثم وقف على مرتفع وأخذ يخطب في إخوته قائلاً يا إخوتي ، إن أخاكم إنما يرفع أمام أعينكم عصا والده ، وإنما يحاربكم بسيف أبيه ، وهو لا يترفع عليكم إلا بإسناده لولي نعمته ، هذا إذا سلمت لكم أنه يوجد منه ما يمسك عليه ،والواقع أنه لم يصدر منه شيء ما ، وإنما المسئول عن هذه الحالة ومغبتها هو أبوكم ،فيوسف لا لوم عليه ، ولكن اللوم كل اللوم على أبيكم ، أنتم تنقمون عليه حب أبيه له بكثرة ، وهذا ليس من فعله ، بل من فعل والده ، فهو لم يعمل عملاً قط يستحق عليه القتل ، حتى ولا أقل من ذلك

يا إخوتي ، إن ما ذكرتم من كون يوسف أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة يهمني جداً كما يهمكم ، ويسوءني تماماً كما يسوؤكم،إنما يمكن مداواة هذا المرض بدواء ألطف مما ذكرتم

يا إخوتي ، لا تفعلوا ، لا تدهموا شرفكم بصحة عواطفكم ، لا تستحوذ عليكم ميولكم ، أنا أرى أن لا تفعلوا مع أخيكم شيئاً ما ، لأنه هو لم يعمل معكم سيئاً قط ، ولم يرتكب جرماً ، افكروا ملياً في هذا الموضوع ، فقد قال العلماء « أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد »

يا إخوتي ، لا تطلقوا لعواطفكم العنان ، لئلا تزيدوا الخرق اتساعاً ، بحيث نكون في شر فنقع في شر أعظم منه ،

يا إخوتي ، يجب أن نحسب لقتله ألف حساب ، أولها وأكبرها حساب «الإلوه»[1] وثانيها حساب الوجدان الطاهر ، والضمير الحيّ ، وثالثها حساب الكدر الشديد من والدنا علينا ، ورابعها حساب سوء سمعتنا وانحطاط منزلتنا عند من يعرف ذلك من الناس ،

يا إخوتي ، إن قلبي لم يطاوعني على قتله ، وإن عقلي لم يساعدني على إزهاق روحه ، فإني أستكبر قتل نفس بريئة بدون سبب ما

يا إخوتي ، أنتم تريدون أن تفعلوا به أكثر مما يستحق ، فإن كنتم فاعلين شيئاً ولا بد ، فيكفيكم أن تلقوه في الجب ليأخذه بعض المارة من المسافرين إلى حيث لا لقاء ، إنه لا يستحق أكثر من هذا ، بل إنه في نظر العدالة لا يستحق أيضاً شيئاً من ذلك ، وإن أبيتم إلاّ عمل شيء معه ، فعليكم بأخف الأمرين ، وأهون الضررين ، وهو إلقاؤه في الجب ، كما قلت لكم ،

يا إخوتي ، إني لأكبر ما أسمع منكم ، وأخشى إن فعلتموه أن لا تحمدوا عيبّ رأيكم ، وشر الأعمال أسوأها مغبّة ، على أني لا أرى علاقة بين ما تقولون من أنّ والدكم يحب أخاكم أكثر منكم ، وأنه في ضلال من هذا الفعل ، وبين ما تطلبونه وتريدون أن تفعلوه بأخيكم ، بينوا لي ما هي العلاقة بين انتقادكم على شخص وإراقتكم دم شخص آخر ، وإن قلتم أنه يستحق القتل لأنه استأثر بمحبة والده ، فإني أقول لكم إنه هو لم يستأثر ، لأن الفعل ليس منه ، ولكن الذي اختصه بأكثرية المحبة هو والدكم ، وإن قلتم إن أخانا هو العقبة الوحيدة الحائلة بيننا وبين قلب أبينا فنحن نريد إزالة تلك العقبة ، فنقول إن الوصول إلى قلب

(١) لفظة عبرية معناها الإله

أبيكم لا يتوقف على خصوص إهلاك أخيكم ، بل يمكن التوصل لذلك بعمل طريقة لإبعاده من فلسطين ، كما قلت لكم ، هذا هو الرأي القصد الذي أراه لكم الآن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بح ، بح

(قال قائل منهم الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ المصوري[1]

لي ههنا ثماني كلمات ، كل كلمة مستقلة بنفسها منفردة عن أخوتها

من هو « القائل » بعدل الحكم على يوسف

الكلمة الأولى — آنفاً كان الإخوة قالوا ما قالوا ، وفي صوتهم نغمة استفهام كأنهم يستفهم بعضهم بعضاً ، أنفعل ذلك ؟ أنقدم عليه ؟ ماذا ترون ؟ أشيروا علينا ، ليبين كل منكم رأيه

وعليه فانتدب « يهوذا » نفسه لنصيحة إخوته بالعدول عن قتل يوسف ، وشرح لهم مضارّ هذا العمل وسيئاته ، وهكذا صار ، أنّ خلاف شخص بحور المؤامرة وعدّلها ، وأثر في المسألة أثراً جديداً ، وما أحسن هذا الخلاف ؟ ولعمري إذا كان الاختلاف « رحمة » كما يقولون ، فهذا الاختلاف من مظاهر هذه الرحمة ، لأن الإلقاء في غيابة الجب ، وإن كان في نفسه نقمة ، لكنه رحمـــة بالنسبة الى إزهاق الروح والقضاء على الحياة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض »

[1] نسبة إلى المنصورة من البلاد المصرية

فلذلك وعلى كل حال نحن لا يسعنا إلا شكر هذا « القائل » ، ولعمري إنه حقيق بأن يمنح « نوط » الشرف الإسرائيلي من الدرجة الثانية ، لأنه قدر أن يؤثر على هؤلاء المتآمرين ، ويخفف شيئاً من ويل أخيه ؛

وههنا سؤال يذكره بعض المفسرين ، وهو لِمَ لَمْ يُذكر هذا « القائل » باسمه يا تُرى ؟ وجوابا عن ذلك أنه لأجل أن يكون كل واحد منهم محتملاً أن يكون هو قائل هذا القول ، كما أنه في صدد المؤامرة بالقتل أو الطرح أرضاً لم يصرح باسم المؤامر الاول رئيس الحركة ستراً عليـــه ، ولا يقال إنه على هذا التوجيه ، لا ينبغي ان يعين أحدٌ منهم باسمه ، تأسياً بالكتاب، لأن ذلك مقام تفسير أو مقام تاريخ وهو فيه أمر مطلوب، ولهذا ولكون سفر التكوين تاريخاً محضاً ، تراه يذكر الأسماء بكل دقـــة ، وأما القرآن الكريم فإنه إنما يقصد منه العبرة والذكرى والعظة ، وشيء من ذلك لا يتوقف على تعيين القائل ، سواء أكان مشيراً بخير أو بشر

وعلى ذلك وحيث نحن الآن نلقي هذه المحاضرات كمفسرين او كمؤرخين ينبغي لنا أن نبحث عن هذا « القائل » من هو يا ترى ؟

إن سفر التكوين حكى أن هذا « القائل » هو « رأوبين » (تك ٣٧ ٢١) وينقله مفسرونا عن « قتادة » ويقول السفر المذكور إنّ « يهودا » نفسه أخيراً على هذا الرأي ، (تك ٣٧ ٢٦) ، وكلا القولين قريب من الصواب ، لأن النزعة الحربية ضد يوسف كانت في هذين الأخوين ضعيفة جداً ، فهما لم يكونا حاقدين عليه تمام الحقد كغيرهما ، سيما وأن كلاً منهما كان في ذلك الوقت متزوجاً وذا أولاد ، فقياساً على نفسيهما سهل عليهما تصـــور عواطف والدهما يعقوب على يوسف ، وكيف تكون الشفقة على الصغير ، لأن الحنو لا يصح ولا يبلغ أشده

إلا في قلب الوالد ، والوالد لا يقتصر حنوه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد ، ورد على ذلك ان « رأوبين » كان أكبرهم لأنه البكر ، فلا بد أن يكون إذ ذاك قد اكتهل وتجاوز سن الشباب والنزق ، ولا ننس أن « يهودا » كان كبيراً أيضاً ، لأنه رابع أولاد أبيه،وكان عاقلاً محنكاً وخطيباً مفوّهاً ، هذه هي الاحوال التي تقرب صوابية القول بأن هذا « القائل » هو رأوبين أو يهودا ، بحيث كان كرسي رهان في الحرص على تلطيف المصيبة التي يراد انزالها على رأس أخيهما يوسف

وأما لبيان الأرجح من هذين النقلين ، فقد قلت لكم أيها السادة إن سفر التكوين يقول إن هذا « القائل » ابتداءً هو « رأوبين » ، وأما « يهودا » فإنه هو في الآخر انعطف وضم صوته لأخيه رأوبين ، وعندي أن تفسير هذا«القائل» بهودا هو الأرجح ، بدليل أنه المتكلم الوحيد بين إخوته ، والخطيب المليغ ، وصاحب القول الشائق ، كما ذكر ذلك المؤرخون ، ولذلك وحيث عبّر عنه بعنوان « القائل » كان هو يهودا ، لأنه هو القوال الخطيب المفوّه ، وأما«رأوبين» فإنما نُعبّر عنه بالكبر ، كما سيأتي في قول الكتاب الكريم ﴿قال كبيرهم﴾ (ع ٨٠)والواقع أنه كان أكبرهم سناً ، فاختلاف العنوان دليل على اختلاف المُعنون عنه ، فان القرآن بمكان من الدقة التي لا تليق بالبليغ أن تغفل عنها عند كل كلمة

القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة

الكلمة الثانية — هم كانوا قالوا ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾، ولكن هذا « القائل» الآن إنما نراه نهاهم عن الخصلة الأولى ، إذ يقول﴿لا تقتلوا يوسف﴾

ولم يصرح بنهيه عن الخصلة الثـــانية ، وهي طرحه أرضاً ، ولماذا هذا يا ترى ؟ والجواب عن ذلك بأن مآل الخصلة الأخرى هـو الموت أيضاً ، لأنه من ألقي في أرض بعيدة عن العمران مجهولة للنــاس كان مآله الموت ، إما جوعاً أو عطشاً أو من البرد أو بافتراس أحد السباع ، أو نحــو ذلك مما يعرض للانسان الوحيد ، في البر البعيد ، ونظير قولهم هنا « اقتلوا يوسفَ أو اطـْرحُوهُ أرضاً » قول مواطنيهم أهل العراق في حده سيدنا إبراهيم ﴿ اقتـلوه أو حَرِّقُوه ﴾ في قوله تعالى ﴿ فما كانَ جوابَ قومِهِ إلاّ أن قالوا اقتُلوهُ أو حَرِّقُوهُ ، فأنجاه اللهُ من النـــارِ ﴾ (٢٩ ٢٤) ، فكما أن مآل قتل إبراهيم وتحريقه واحداً ، وإن اختلف شكل الإرهاق ، فكذا هنا مآل قتـل يوسف أو طرحه أرضاً واحد ، وإن اختلف شكل الإرهاق ، وكما أن إبراهيم عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة ويسراً ، فكذلك يوسف عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة ويسراً ، وقريب منه أيضاً ما في قوله تعالى ﴿ قـُل لـن يَنْفَعَكـُم الفِرارُ إنْ فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القَتْلِ ﴾ (٣٣ ١٦) فطرحـه أرضاً هو الموت حتف الأنف المذكور هنـا

ابتعاد يهودا عن الانتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة اخوته

الكلمة الثالثة ـ إن سأل سائل لماذا قال يهودا ﴿لا تقتلوا يوسف﴾؟ فعبّر عنه بعبارة ترمي الى أن يوسف كأنه أجنبي عن أخيه يهودا ، ولم يقل لا تقتلوا أخانا ، فالجواب عن ذلك أن يهودا بهـذا التعبير يفهم إخوته أنه لا يريد الالتصاق بيوسف ولا الانتساب اليه ، لأنه مغبون منه ، ولا يدافع عن شخصه لأنه أخوهم ولكنه إنما قال يدافع عن مصلحة إخوته ، متناسياً من جهة يوسف كل نسب وأخوة.

عيابة البئر

الكلمة الرابعة ـ قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان عيابة البئر شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر ، وقال الهروى العيابة في الجب شبه كهف أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون (آلوسي) ، وقال ابن جرير في تفسيره عيابة الجب بعض نواحيها ، وفي صحيح البخاري في تفسيره كل شيء غيّب عنك شيئاً فهو عيابة

الجب وهل هو جب معرود

الكلمه الخامسة ـ الجب البئر التي لم تطو ، لأن الأرض تجب جباً لا غير ، وكما سمى جبـاً تسمى « قلبـاً » ، كانوا ولا يزالون في فلسطين يأتون للأرض الصخرية ويجبونها بالفؤوس والمعـاول ، وكلما نزلوا في الأرض توسعوا ، فيصير الجب أرضه وحوائطه الأربع وسقفه قطعة واحـدة من الصخر ، ومما يقرب في الهيئة من الجباب الدحال ، جمع دحل ، وهو ثقب فمه ضيق وأسفله واسع ، وأقرب شيء يمثل الجب للقارىء هو الخيمة التي تكون من اسفل واسعة جداً ، مع كون أعلاها ضيقا جداً ، كانوا يجبون هذه الجباب في البراري ، كالبرية المحيطة بوادي دوثان ، وكان يجف في بعض أيام الصيف ، ولا يبقى فيها ماء ، إلا في وهدة في وسط الجب على أسفله ، يحاذي بابه من اعلاه ، يبقى فيها بقايا الماء ، فتكون دوائر أرض الجب عديمة المـاء في بعض أيام الصيف ، إلا في الجوره الـتي في وسطه ، وهذه الجباب هي لجمـع ماء المطر وادّخاره الى حين الحاجة ، ينزل فيهـا ماء المطر بواسطه قنوات على سطح الأرض مسلطة على تلك الجباب وإنما ذكرت العيـابة مع الجب دلالة على ان هذا « القـائل » أشار عليهم بإلقائه في موضع ناحية الجب

في إحدى أطرافه السفلى ، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهُوّة ، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره ، فهذه المشورة خطة ثالثـــة ، هي غير القتـل وغير الطرح أرضاً ، فلا بـد أن تكون هذه الخطة الثالثة تحتوي سلامة يوسف ، وتضمن حياته ، وتكفل بقاءه ، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصوّرنا ، فالمراد أن يلقوه في ناحية من نواحيه ، لا في وسطه ، ذلك لكي يكون يوسف بعيداً (نوعاً) عن البقية الباقية من الماء في قعره ووسطه، إن كان قد بقي فيه وَشَلٌ من آثار الماء ، بل قال المؤرخون إن هذه البئر كانت نزحاً ليس فيهـــا ماء ، ذلك لأنهم اتفقوا أخيراً على عـدم إهلاكه ، وهذا لا يتحقق إلا بهـــذه الصورة ، وأما لو كانوا يريدون القاءه في جب ممـــلوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه ، وهو خلاف ما وقع عليه اتفـاقهم أخيراً ، وأما القول بأن الجب كان ملآنا ماء فهو قول هُرَاء ناقض روح الكلام الذى اتفقوا عليه أخيراً ، هـذا تحقيق القول هنا ، وإن لم تصدقوني فتأملوا جيداً في الآية الكريمة وما ترمي اليه ثم سلموا معي-على طول الخط-سطرتي

وبعـــد فيظهر أنه أراد من قوله « غيابة الجب » جباً معيناً معهوداً معروفاً لهم في دوثان ، وإنما عيّن ذلك الجب للعلة التي ذكرها ، وهي قوله﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ ، لأن ذاك الجب كان معروفاً في دوثان ، وكانوا يردون عليه كثيراً ، وكان ذلك « القـائل » يعلم أنه إذا طرح فيه أخوه ، يكون الى السلامه أقرب ، أى يكون سالمـاً في التيه بنسبة وتسعين ، لأن السيارة تحور دائمـاً وترد على هذا الجب ، ومتى وردت اليه التقت بذلك الغلام ، فتخرجه وتذهب به الى حيث تريد من البلاد القاصية كمصر مثلاً ، حسبما هو مألوف ومعروف في تلك العصور من التقاط بعض الأولاد واغتصاب بعض البنات واسترقاقهم طلماً ، كما هو معمول به في تلك العصور المظلمة ، وبالتالي وبالنتيجة يكون القاؤه في غيابة الجب أبعد عن الهلاك

التحقيق في تفسير الغيابة

هذا وأما تفسير « الغيابة » بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله ، فهو بعيد والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي شبه كهف أو طـاق في البئر ، ودليلنا على ذلك قراءة « غيابات » بالجمع ، لأن الأسفل واحد ، وأما الكهوف والطاقات التي في الجباب فيمكن أن تتعدد ، والمراد « ألقوه في إحدى غيابات الجب » ، ويدل على ذلك أيضاً قول الشاعر

فإن أنا يوما غيَّبَتْني غَيَابتي

فسيروا بسيري في العشيرة والأهلِ

أراد بغيابته لحده ، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبر عند أسفله .

هذا ما أراه في هذا المقام وهذا ما نظهر ، ولا أعلم هل أُرضي الجامدين فيما قلت لكم أيها السادة أو أغضبهم وإنما أعلم أني قد أرضيت ضميري وخاطري ، وأرضيتكم أيضا أيها الإخوان ، وحسبي ذلك وكفى

إخوة يوسف لم يبيعوا يوسف

الكلمة السادسة ـــ قوله ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ يدل على أن إخوته لم يبيعوه للسيارة ، بل إن السيارة التقطته فهو دليل على أن ضمير الجمع في (شروه) فيما سيأتي يعود على السيارة ، لأن السيارة بمعنى القوم والرهط ، وأن (شروه) بمعنى باعوه ، كما هـــو المعنى اللغوي الكثير ، ولذلك قال على أثره ﴿وقال الذي اشتراه﴾ أي ابتاعه ، أقول قولي هذا مخالفاً لجمهور المفسرين الذين قالوا بأن إخوته باعوه للسيارة ، وسبب هذا القول منهم ـــ مع أن فهمه من الآية الآتية بعيـــد

حذراً — أنه هو المذكور في التوراة ، فجمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن عباس (فيما يدّعون) قلّدوا التوراة وقالوا بذلك ، وأما نحن فلا يهمنا سوى متابعة ما يتبادر من كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم (وتمامه في المحاضرة على الآية العشرين)

لماذا لم يبت « القائل » رأيه

الكلمة السابعة وهي الأخيرة — قوله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي عازمين ومصرين على أن تفعلوا به ما يفرّق بينه وبين أبيه ، فهو لم يبت القول لهم ، بل عرض عليهم ذلك عرضاً ، تأليفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من سوء ظنهم به ، ثم وبعد ذلك كله لا بد أن يكون هذا الرأي الذي رآه (يهوذا) قد سرّ (رأوبين) كثيراً ، وساء (شمعون) كثيراً ، وكان الباقي من الإخوة على شيء من الرضى بهذا الرأي الأخير المذكور ، لأنهم لم يكونوا في الحب ليوسف كيهوذا ورأوبين ، كما لم يكونوا في عداوته كشمعون ، فكانت حالهم معه وسطى أو كانوا للغيرة والكره أميل ، والله تعالى وحده بالحقائق أعلم ، وإنا لنعجب لهذه الاختلافات في العواطف ، مع أن الدم واحد ، رأوبين وشمعون ويهوذا هم أولاد يعقوب من ليئة ، ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل ، والأُمّان أختان ، أبوهما (لابان) خال يعقوب ، فالجرثومة واحدة ، ولكن الفروع مختلفون في العواطف ، ولله تعالى في خلقه شؤون

قالوا بقانون الوراثة وهو في نظري مقال ما عليه دليل

ماأنجبَ النجباءُ قط وان تجد ولداً نجيباً منهمُ فقليـــــلُ

صلح « القائل » مع يوسف

الكلمة الثامنة ــ لا بد أنه كان لهذا « القائل » مع يوسف صلح (نوعاً) وحسبنا دليلاً على ذلك أنه أقنعهم برجوعهم لأخف الضررين ، وانه قال ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ إذ فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا يفعلوا شيئاً من ذلك ، وإن كان ولا بد فاقتصروا على هذا القدر ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وإن عاقبْتُم فَعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتُم به ﴾ (١٦ ١٢٦) يعني الأفضل أن لا تعاقبوا

وبعد فكل ما فتح به الرحمن فى هذا المكان ، قد سقته إليك ، وإن لم تقنع به فالباقي عليك (مرحى)

تدبير الحيلة لتمهيد المؤآمرة

ا (١١) ﴿ قالوا يا أبانا ، مالَكَ لا تَأْمَنَّا على يُوسفَ ، وإنّا لَهُ لَنَاصِحونَ ! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية عشرة فقام سيدي حسام آغا الفيومي (١) وقال

دخل إخوة يوسف العشرة على ابيهم فى خيمته و قالوا له ﴿ يا أبانا ﴾ المحترم ﴿ مالك لا تأمنا على ﴾ أخينا ﴿ يوسف ﴾ المحبوب ! ، أي لِمَ تخافنا عليه ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ ؟ أي ونحن نريد له الخير ، ونحبه ونشفق عليه ، وما وجدنا فى بابه

(١) نسبه الى بلد الفيوم فى القطر المصري

ما يدل على خلاف النصيحة والمقة ـــ وهذه السياسة تدعى سياسة «جس النبض» إذ أرادوا بذلك ، لما عزموا على كيد يوسف ، استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم ، وفيه دليل على انه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ـــ

(قالوا يا أبانا الخ)

— ١ —

وتابع السيدالفيومي كلامه قائلاً ـــ

التمهيد لتنفيذ المؤامرة على يوسف

كان الاخوة قضوا ساعة بعض الساعة في تدبير المؤآمرة المشئومة السابقة ، ثم اتفقت كلمتهم على رأي أخيهم (يهودا) واستحسنوه ، فأرادوا انتهاج طريقة تسني لهم الجري على مقتضاه ، فشرعوا يمهدون الأسباب الموصلة لذلك ، وابتدأوا يذللون العقبات التي تحول بينهم وبين أخيهم ، لم يدخروا وسعاً في استنباط العلل لأخذه ، فلم يجدوا لذلك سبيلاً إلا التزلف لأبيهم وتعليل أخذهم له بما يحبه أبوه له ، رتبوا برنامج الحيلة والدسيسة ، بأن يطلبوه من والده ، بعلة النزه والرياضة ، وترويح النفس ، فيأخذوه للأرض التي هم فيها ، يرعون حوالهم أغنامهم في «دوثان» ونظراً لما يعلمونه من حال أبيهم بالنسبة لأخيهم ـ من قرب محبة ومحبة قرب ـ لم يكونوا يرجون أخذه بسهولة ، ورأوا ان الأمر يحتاج الى سعي وروية لأنه صعب ومشكل ، كما أنهم لم يكونوا قانطين من أخذه حيث لا يعدمون وسيلة لحل هذه الصعوبة ، فرتبوا فيما بينهم ما رتبوا من أخذ ورد ، وسلب وجلب ، واسعفوا من

مكانهم فولوا وجوههم شطر فسطاط أبيهم فى «سيلون» وذهبوا حثيثاً ، وما عتموا أن دخلوا عليه ، وهم مقنعوا رؤوسهم،وخافضوا أصواتهم ، احتراماً لمقام الأبوة، وجلال السن والرئاسة الدينيـــة ، ليعجموا عوده ، ويسبروا قناته ، يواربونه ويحادقونه ، وعيونهم تميل بلفتاتها الى الجانبين ، رآهم أبوهم فعجب لهم ، إذ كانوا مجتمعين حين دخولهم عليه ، فقال لهم «مَهْيَم» ما حالكم وما شأنكم ؟ اذكروا حاجتكم ، — فقالوا يا ابانا المحترم ، إنا نتقدم اليك بسؤال نرجوا أن لا نثقل عليك ، سؤال بسيط نعرضه على وجه الاستفهام ، — قال هاتوا — قالوا إنا نعجب ولا نعلم الأسباب ، مالك لا تأمنا على أخينا المحبوب يوسف ؟ وماذا تنقم منا في معاملتنا معه ؟ يا أبانا ، نحن لا نستطيع أن ننكر عليك شدة محبتك له ، وفرط رأفتك به ، وحنوك عليه ، لأنك تحمل بين جنبيك قلب الأب العطوف على ولده الصغير ، ذلك القلب الذي يخفق بالرحمة والحنان ، ولكن الذى نعجب منه ونعتب فيه أشد العتب هو خوفك منا عليه ، وعدم ثقتك بنا فى كلاءته ، ونقسم بالرب (إيل شَدّاي) إنّا لمخلصون له قولاً وفعلاً ، وإنّا لنعجب من هذه المعاملة ، كما إنّا لنهول هذا القول ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه لا يليق بالوالد أن يكون فى حال تحفظ من أولاده الكبار ، بالنسبة لأخ لهم صغير ، يغارون عليه من ظله ، ويحنون عليه من مس الريحان —

هذا وقد خاطبوه بعنوان « الأب » تحريكا لسلسلة النسب ، وتذكيراً برابطة الاخوة التى سببتها الابوة ، كى يزاوه عن رأيه في حفظه منهم — أى أى شيء تتهمه منه لا تجعلنا نتمنه امناء على يوسف ؟ مع إنك أبونا وهو أخونا ، بل وإن جانبناولماذا نسعى ونتهم ؟ ولماذا لاتسكن الينا ؟

وقد حضرنى الآن عدة فوائد ، أريد أن أعرضها على اسماع الاخوان الحاضرين ، ليروا فيها رأيهم -

الاخوة بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من أبيهم

الفائدة الاولى — قالوا هذا القول لأنهم وهم بين عاملين ، عامل الخوف من أن يخيبهم بالسلب ، فتحبط تدابيرهم ، وعامل الرجاء أن يلبي طلبهم ، فيفوزوا بغرضهم ، وقد تصوروا عند ذلك أن حياة وموت يوسف بين شفتي يعقوب وهو لا يشعر

طريقة طلب الاخوة ليوسف من أبيهم تدل على سوء نيتهم

الفائدة الثانية — كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له ، وكانت تظهر منه أمارات على ذلك في أعماله وأقواله ، فلذلك خاطبوه بهذا الخطاب

دفع ونفع

الفائده الثالثة — إنما قالوا له ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنهم كانوا متهمين عند والدهم بكره اخيهم ، ولأنهم كانوا يعلمون أن أباهم يرغب كل الرغبة في النصح لولده يوسف ، ويحرص جد الحرص على صحة جسمه ونموه ورياضته ، ويعنى أعظم العناية بحفظه وكلاءته ، فدخلوا عليه من هذا الباب ، ولا يقدرون ان يدخلوا عليه من باب آخر سواه ، فكانت هذه الجملة منهم « للدفع والنفع »

وثيقة الاعتماد

الفائده الرابعة — هم قالوا الآن ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ وسيأتي على الأثر قولهم أيضا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ، ووالدهم يعقوب اعتبر هذين الكلامين كوثيقة اعتمد عليها ، وسمح بذهاب ابنه يوسف معهم

النصح لغة ومعنى

الفائدة الخامسة ــ قولهم ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ هو من نصحتُ له الود أخلصته ، وناصح العسل خالصه ، ونظيره في القرآن الكريم ﴿ إذا نَصَحُوا للهِ ورسولِهِ ﴾(٩ ٩٢)﴿ونَصَحْتُ لكمْ﴾ (٧ ٧٨) ﴿وهمْ لهناصحون﴾ (٢٨ ١٢) ومنه حديث البخاري (الدينُ النصيحةُ للهِ ورسولِهِ) وفيه عن جرير (بايَعتُ رسولَ اللهِ (ﷺ) على شهـــادةِ أنَّ لا إلـه إلاَّ الله ، وأنَّ محمداً رسول اللهِ ، وإقام الصلاةِ ، وإيتاء الزكاةِ والسَّمع والطاعةِ ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مسلمٍ) ومنه ما في قول أبي العلاء المعري

إذا قوما لم يعبدوا الله وحده نصحنا فإنّا منهـــمُ بُرَآء

فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلوص الفعل والقول من شائبة الفساد ، وفرق في المعنى بين نصحته ونصحت له ، لأن معنى نصحتــه تحريت أن أقول له ما فيه صلاحه ، ومعنى نصحت له أخلصت له العمــل او القول ، ونصحه ضد غشه ، وأما نصح له فهو ضد خلط

لسان اخوة يوسف هو ترجمان اهوائهم

الفائدة السادسة ــ عهدنا باللسان انه ترجمـــان الجَنان ، ولكنا نراه الآن ترجمــان الأهواء ، لأن هؤلاء الإخوة يتكلمون عمــا لا ينطوون عليه ، وغنيٌّ عن البيان أن الوفاء بالوعد من مهمات الدين ، ومن الأخلاق الاجتماعيــة الفاضلة ، ومع هذا فإننــــا نرى هؤلاء المتكلمين مع أنهم لم يفوا بالوعد ، ولم يقفوا عند حدود هـــــذا العهد

المتكلم يطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة

الفائدة السابعة — سأل سائل هل تكلم جمعهم جميعاً مع أبيهم، أو كان المتكلم واحــــداً منهم عنهم؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا عقدوا اجتماعاً سرياً تداولوا فيه عمادا يصنعون في أخيهم، ثم قر رأيهم على أحده من والدهم، فالقائه في غيابة القليب، وأحالوا تنفيذ هذا القرار على واحــد منهم تكلم مع والده باسم جميعهم بحضورهم بحيث يترجم عن أفكارهم، ويحكي مقاصدهم

واحتمال آخر وهو أنهم توا كلوا الكلام، ثم تكلم أحدهم بلسان الجميع

السم في الدسم

١٢) ﴿ ارْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ ويَلْعَبْ، وإِنّا لهُ لَحَافِظُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية عشرة فقام عبد الملك الكردي وقال

﴿أرسله معنا غداً﴾ من « سيلون » الى « دوثان »، ﴿ يرتع ﴾ يتسع في أكل الفواكه وغيرها، (ويلعب) يستبق ويتصل، كانوا يفعــــلون ذلك ليُضْرُوا أنفسهم بما يُحتاج اليه لقتال العدو، لا للهو، بدليل قولهم ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته، هم وعدوه بذلك، ولكن وعدهم راح أدراج الرياح، وإن « الرتع » كان بعيداً عن فمه، و « اللعب » كان نائيــــاً عن رجليه، وأما « الحفظ » فلم يكن إلا لقميصه، فلم يرجعــوا إلا به، كما لم يرجع حُنين إلا بخفيه، وبعبارة أخرى

هم يقولون « لناصحون » «يرتع» « يلعب » ، « لحافظون » ونحن نقول هذه وعود ساحرة ، خلابة ، مختلفة ، منقوصة من حين التكلم !!

(يرتع ويلعب)

— ١ —

وقال الملاّ صديق الاربيلي (١)

اخوة يوسف يصرون على الوتر الذي يحبه ابوهم لأخيهم يوسف

لقد رأى إخوة يوسف الأكارم !! شاقّ رأيهم وواسع تفكيرهم !! أن يضربوا على الوتر الحساس الذي يحبه ابوهم لابنه المحبوب يوسف في هذه السن ، سن الصبا وشرخ الشباب فيطلبوه منه ليذهب معهم ليسرح ويمرح ويأكل ويلعب فيدخل السرور إلى قلبه والانشراح والنشاط الى صدره وبدنه ، فتوجهوا اليه قائلين له (ياأبانا غيِّر أنشودة الخوف بأنشودة الأمن ، وبدل نغمة هذا التحفظ نغمة الثقة ، ولا تكن كمحافظ عتيق !! ، أنفِذه معنا غداً باسم التنزه والتريض وتبديل المناخ ، واستنشاق الهواء النقي ، بتأمل في مناظر الطبيعة البسيطة ، الخالية عن صنع المتصنعين ، الدالة على وحدانية رب العالمين ، وإذا أعوزه شيء من أمور هذا العالم المادية (رَتَعَ) وتبسط في الأكل والشرب و وإذا أعوزه اللهو تشاغل و (لعِبَ) بالقفز والجري والركوب والسباق ، وما الى ذلك ، (فيرتع) بمعنى يكثر في الأكل ويتنعم ويتوسع ، و (يلعب) بمعنى يشتغل بالرمي والثِقاف (الخصام والجلاد) والصراع والكر والفر ويتأثر طرائد الصيد في مسارحها ومسارهـا ،

(١) نسبة إلى إربيل من بلاد العراق

(يلعب) في ذلك المرج المخصب كثير الكلأ بين تلك الآجام فيشرح صدره ، ويستقبل أشعة الشمس ، ويتمتع بمناظر الطبيعة ويبسط نفسه ، ويرى خطه ، ويبكر صبيحة كل يوم بكر الطير ليتمتع بمناظر الطبيعة ، ويمتع نظره فيما أوجد الله فيها من بهاء وجمال ، ويعمل رياضة جسمية ، ويتنسم رائحة الهواء البليل العليل ، هواء البر الصافي الطلق ، فيميناً لو يعلم أحدنا ما في البادية من طهارة الهواء ، وطيب الماء ، لخرج إليها ولو حبواً »

معنى الرتع واللعب

هذا معنى كلامهم الروحي ، ولعلكم وقفتم من هذا التقرير على معنى الرتع واللعب ، ومع ذلك فإني أشرح كل لفظ منهما على حدة بشيء من التوضيح فأقول (الرَّتْع) في الأصل الاتساع في الخِصب ، ثم أريد منه الاتساع في الأكل ، ومنه حديث أمّ زرع (في شِبَعٍ ورِيٍّ ورَتْعٍ) أي نعيم ، وحديث عمر (إني والله أُرتِعُ فأُشْبِعُ) يريد حسن رعايته للرعية ، وأنه يَدَعُهُم حتى يشبعوا في المرتع ، وفي حديث الغضبان الشيباني (قال له الحجاج سَمِنْتَ — قال أسمني القَيْدُ والرَّتَعَة) أي الاتساع في الأكل ، قال الزمخشري (وأصل الرتعة الخِصب والسعة ، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها) ، وقال في القاموس (رَتَعَ أكلَ وشرب ما شاء في خصب وسعة ، أو هو الأكل والشرب رغداً في الريف أو شرّه)

هذا وقد أخروا لفظ اللعب عن الرتع في قولهم لأنهم ، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح ، بعد تناول لقيمات تسيره ، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء ، وفي كلام الناس

« تَعَشَّ وتَمَشَّ ولو خطوتين »

(يرتع ويلعب .)

— ٢ —

قال نادر الزمان الافغاني

فوائد اللعب

١ — نفهم من مضمون الآية الكريمة ان يوسف كان على الأغلب ملازماً لجلوسه بجانب أبيه ، وربما لايبرح سحابة نهاره ، فهو لاحركة ولا عمل ، ولذلك فاللعب الرياضي ناسبه كثيراً ، فإخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتعقل وإظهار نصح ، ولكن النية منهم لم تكن صالحة .

٢ — من المقرر أن الأوفق في الأعمال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة ، حيث الهواء نقي طهور ، والماء رقراق ، ولذلك زعموا أن يخرج معهم الى البر

٣ — قال علماء الصحة . إن الرياضة البدنية وعمل العضلات يدعوان الى دوران الدم وسيره فى سائر الأعضاء ، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وإن عدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الأمراض ، وتضعف أعضاء التحليل ، وبذلك يجد الانسان من نفسه ميلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركه

٤ — إن الرياضه البدنيه تهيء الأجهزة المختلفة لإفراز الفضلات ، عرقا أو بولاً أو مع زفير الرئتين ، وتقوي العضلات والمفاصل ، وتحفظ الدوره الدمويه فى حالة صحية ، فللعب الجسماني مكانة كبرى وأهميه عظمى ، فلذلك وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب

اللعب عند العرب

٥ — كان العرب كثيري الرياضة والألعاب ، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث، وما إلى ذلك، وإننا لنرى في كلام أولاد يعقوب(ع) ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك

انواع اللعب عند العرب

٦ — من يعود إلى قانون الشيخ الرئيس (ابن سينا) ، يرى بحثاً مسهباً في الرياضة البدنية ، والألعاب الجسمانية يدل على أن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها ، فقد عرفوا منها المبارعة ، والجري والقفز ورمي الحديد ، والصيد ، وتسنم الجبال ، وحمل الاثقال والرمي إلى الهدف ، ولعب الكرة ، والسباحة ، وأعمال الفلاحة والصناعة ، وحركات الجمار ، والملاكزة ، وسرعة المشي ، والرمي عن القوس ، والقفز إلى شيء ليتعلق به ، والحجل على إحدى الرجلين ، والمثاقفة بالسيف والرمح . وركوب الخيل والسباق عليها ، والحبو باليدين ، وركوب الجمال ، والطفر ، واللعب بالصولجان ، واللعب بالطبطاب ، والمصارعة ، وإشالة الحجر

لعب النبي ﷺ والصحابة

٧ — هذا النوع من اللعب ، اعني الرياضة البدنيـــة بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه ، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة (ض) فمرةً غلبته ، وذلك لما كان خفيفة اللحم ، ومرةً ثانية غلبها ، وهذا حينما صارت بدنة ، وقد

ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً ، وورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العَضْباء ، وكانت إذا سوبق بها لم تُسْبَق ، فعظمت في صدور المتسابقين ، ولكن مرة سُبِقَت ، فقال ﷺ « ما رفع العبادُ من شيء إلاّ وضع الله منه » ، وكان عليّ كرم الله وجهه « تِلْعابة » أي كثير اللعب ، كقولهم (تِلْعَامة) لكثير اللَّقم ، كذا في فائق الزمخشري، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصطادون ويتسابقون على الخيل والإبل، ولا ننسوا ما قاله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري لما تزوج ثيباً « هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك » ، وقالوا « لا بأس بملاعبة الرجل لفرسه وترسه وعرسه » ، وروى ابن عدي في الكامل عن ابن عمر « أحبُ اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي » وهما السباق والرمي عن القوس ، وقال ابن أبي مُلَيْكة قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرميَ والثِّقَاف (الخصام والجلاد) والصِراع وسائر ما يدربهم على حمل السلاح والضرب والكرّ والفرّ وتصلبة أعصابهم وتعليمهم البطش والحميّة والأنفة من العار والفرار (قاله في الطرق الحُكْمية)

حوار اللعب للكبار كما للصغار

وكان هرون الرشيد هو ووزيره جعفر البرمكي وسائر وزرائه - يلعبون بالكُرة والصولجان ، فالصولجان عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ، وأما (الكرة) فهي كتلة مستديرة من الجلد ونحوه ، فإذا ضربت الكرة لا يلبث الفارس أن يلتقطها من الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى يطير في الهواء ، فيستحث الآخرون أفراسهم في إثرها يبغون ملاقاتها بصوالجتهم [1] ، وكم سمعنا

١) وهي لعبة تشبه اللعبة المسماة اليوم بلعبة « البولو »

وسمع وسنسمع إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز ، وهكذا الجنود في الثكنات العسكرية ، والأهالي في الحقول ، والتلاميذ في المدارس ، بلا نكير ودون استهجان ،

إذا تقرر ذلك فلا مانع عندنا أن يراد (باللعب) المذكور في هذه الآية أيّ قسم من أقسام الرياضة المذكورة ، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناداللعب بالمعنى المذكور ليوسف ، لا سيما إذا لاحظنا أنه لم يكن في ذلك الوقت داخلاً في عداد الرجال ، بل في عداد الغلمان الذين لا بأس لهم بذلك ،

« إذا ذكر المحاصرون فحيهلاً بالأخ نادر الزمان الأفغاني »

(الحافظون)

— ١ —

قال عبد العظيم التركي

خديعة اخوة يوسف لأبيهم

يقول إخوة يوسف لأبيهم والله لأن نسره ، أحب إلينا من أن نضره ، إنه سيكون تحت جناحنا ، ذاهباً ومقيماً وآيباً ، كل واحد منا هو (شُرطي) عليه ، نحفظه من كل ما يسوؤه ، وندفع عنه عاديات الدهر ، بما أوتينا من قوة وعقل ، نموت دونه ـ لا سمح الله ـ ونحيا بحياته ، إن شاء الله ، فلا نلبث أن نعود إليك بالصحة والعافية ، ونرجو أن تذكرنا بالرضا والدعاء في خلواتك وجلواتك ، كما نحن نذكرك في (دوثان) وصحرائها ، بالشكر والارتياح ، لحسن صنيعك معنا

نعم ، نعم ، نعماً بالرب « أ ا و هيم » إنه سيكون في حفارنا وحمايتنا نذُبّ

عنه ودَنْود ، وعنع عنه بأنفسنا وأرواحنا ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، بل نقوم بحفظه من أن نُسْتَطار أو يُغتال، أو نُفتَرس أو يتيه ، أو أن لا يَرجع ، إلى نحو ذلك ، فهو المطم والالحم ، ونحن الجُنَّة والرِّداء .

قالوا ذلك ، وجعلوا يرفرفون بأجفانهم ، ويرددون أبصارهم ، وينظرون الى وجه أبيهم خلسة ، ليتبينوا عواطفه ، شأن كل من كان يتكلم عما ليس فى قلبه ، ﴿ أقْسَموا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِم ﴾ على هذا كله، وهم قد دخلوا على أبيهم بالخديعة، وهم قد خرجوا بها ، هم يقولون (يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) الفاظ ثلاثة صدرت منهم ثم ذهبت قبض الريح ولم تلبث أن أقامت إلا بمقدار ما خرجت من شفاههم ثم تلقفها الهواء فاندمجت في طياتـــه ، وإلاّ فقل لي أين الرتع ؟ وأين اللعب ؟ وأين الحفظ ؟

الجواب عند علام الغيوب ! فهذه وعود خرجت من لسان لم يتصل بقلب، وأماني لم تنبعث من أقصى النفس وإنما من الحنجرة فقط

ولنا ههنا ملحوظة وهي أنّ هذه المعاهدة والمواعدة تذكرنا اليوم بمعاهدات دول الاستعمار مع أهالي الأقطار التى نصبع نصب أعينها ، الاستيلاء عليها ، فإن تلك المعاهدات فى العالم مَحَاطّ استراحة بين الحمله والحملة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لاغير ، بحيث لدى توفر القوة لا تَعْدَمُ ،عذراً في نقض تلك المعاهداب التى لم تبرمها منذ البداية إلاّ على نية النقض ،

فإخوة يوسف هنا عندما دخلوا على أبيهم تدلوا بجلود النمور أصواف النعاج ، ثم لما أخذوا يوسف قلبوا المجن ونكثوا ماقالوا ، فهم استعملوا الأيمان والعهود وسيلة لا ستنزال أبيهم ورضاه بما طلبوا ، ثم غدروا به ، الأمر الذي لا يليق بذوي النبوات المحترمة ،

وهذا يذكرنا بما كان « المنصور العباسي » يفعله ، يحلف كاذباً ، ويعاهد ويخالف ، ويواثق ويغدر ، كما فعل مع « ابن هبيرة » بعد أن أعطاه الأمان ، فإخوة يوسف هنا وعدوا وتلطفوا ولكن حادثة القائه في غيب القليب شهدت عليهم انهم لم يبروا بوعدهم العرقوبي

إحذر الأقرباءَ ما استَطعتَ وانظرْ ... فِعلَ إخوانِ يوسفَ المحسودِ
وَعدوه بالنُّصْحِ والحفظِ لكن ... لم يَرسُوا أن أخلَفوا بالوعودِ (١)

ورحم الله من قال

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل
إن كان سحع شيء فى ثباتهم ... على العهود فسوْ السيف للعدل

وقد اعتد الناس على « عبد الملك بن مروان » فَعْلـتَه التى فعلها مع « سعيد بن العاص » ، حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياتـه ، وقالوا إنها أول غدرة فى الإسلام ، وقد اتفق أن سأل عبد الملك احد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد ، فقال ﴿ حسَنٌ لو قَتلتَهُ وحَييتَ ﴾ — فقال عبدالملك « أولَستُ بحيّ ؟ » — فقال الشيخ العربي « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد » !

« رجعاً وانعطافاً »

خلف الوعد والوفاء به

وخلف الوعد طبيعة الشيطان كما ورد ﴿ وقال الشيطان لما قُضي الأمرُ إنَّ اللهَ وَعَدكُم وَعْدَ الحَقّ ووَعدتُكُم فأخلَفتُكُمْ ﴾ (١٤

(١) النظم لرئيس المؤتمر

٢٢) وهو قنطره النفاق كما قال تعالى ﴿ وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللهَ لئِنْ آتانا مِن فضلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ، فلمّا آتاهُمْ مِن فضلِه بَخِلوا به وتَوَلَّوْا وهم مُعرِضون ، فأعقَبَهُمْ نِفَاقاً في قلوبِهم الى يوم يَلْقَوْنَه ، بما أخلَفوا اللهَ ما وَعَدُوهُ ، وبما كانوا يَكذِبُون ﴾ (٩ ٧٦ ٧٨)

قال

حذا الوعدَ لكن مِن يميني فأعطي | فلستُ أُرَى يوماً كذوباً وأخلِفا
ولا مخيّل أنّي لِــــكَ مُخلِفٌ | فلستُ بأهلٍ للنفاقِ فأحلِفا (١)

والوفاء بالعهد من سمات المؤمنين إيماناً كاملاً وهولهم عنوان شرفهم ، وملاك مروءتهم ، قال تعالى ﴿ والذين هم لأَماناتِهم وَعَهــــدهم راعُون ﴾ (٢٣ ٨)

وقال تعالى ﴿ وأوفوا بالعَهْدِ ، إنّ العهدَ كان مَسؤُولاً ﴾ (١٧ ٢٤)

ولا يوجد شيء اشرف من تقييد الإنسان بقوله ، «والوعد أملك ، عليك أم لك»

تخوف يعقوب من طلب اولاده

آ(١٣) قالَ إِنّي لَيحزُنُني أنْ تَذهَبُوا بهِ ، وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذِّئبُ ، وأنتم عنه غافِلون

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة عشرة فقام السيد العلكي (٢) وقال

(قال) لهم أبوهم معتذراً اليهم بشيئين، الأول ما في قوله ﴿ اني ليحزنني أن

(١) النظم لرئيس الوعر

(٢) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (١ ان)

تذهبوا به ﴾ ومفارقتي إياه ، لأني ما تعودت الصبر عنه ، (و) الثاني إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخاف عليه من عـدوة الذئب الموجود بكثرة في « دوثان » ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ برعيكم ولعبكم ، أو إذا قلّ به اهتمامكم ولم تصدق بحفظه عنايتكم

نعم أيها السادة ، لقد سمع يعقوب مقالة أولاده ، فتبسم تبسماً يمازجه القلق ، وأخذ يتعجب لهذا الاحتفاء غير الاعتيادى ، قائلاً في نفسه إن المركب خشن ، وأشد الحزن ما يحزن الرجال

سكت هنيهة وهو يمسط لحيته الشريفة بأصابعه ، كأنه يفتكر عاذا يجيب أولاده على اقتراحهم ، لأنه قد خامره منهم ريبة فقال أواه لعمري إن هم الفراق ، ولوعة النوى ، ولو قليلا ليملآن قلبي

افتكر يعقوب في حال أولاده مع يوسف ، وأنهم يحسدونه ، وأنهم له بالرصاد ، فقال في ضميره إن سباحة الغزال في الماء مع التماسيح تغرير ، ومن سمح أن يطفر به الأسود عند غابها لم يأمن من وثباتها

رابه أسلوب كلامهم ، وهاله طريقتهم في خطابهم ، فتخوفهم قائلاً بينه وبين نفسه لعمرى إن هذه الكلمة الصادرة منكم الآن تطن الآن على أذني لهى أدلّ على ما تتخوف منه من اسم المحالّ على نصاعه . سمع أبوهم كلمتهم وفيها عدّة المكر ، فوقع في نفسه من الذعر مالا يعلمه إلا الله وهو ، وأوجس خيفة من هذا الطلب ، وعلت عليه الانقباض ، وحدثته نفسه بخطر قريب ، وحصر صدره مما قالوا ، وأحس بمكر منهم بحاسة الإسماع السماوى المودعة في قلبه

طلبوا هذا الطلب من أبيهم ، وانثنوا ينتظرون جوابه بكل حرارة ، كأنهم على

مقالي الحمر ، فقال أبوهم لا أحوي عليكم إنكم طلبتم أمراً صعب المرام ، بعيد المتناول أنا لا أريد أن أركب الغرر ، ولا يهون عليّ مفارقة هدا القمر ، إني أحب أن يكون يوسف مني دائماً بمرأى ومسمع ، وإنه ليشجيني أن تبعدوا به عني ويؤلم قلبي أن تفرقوا بينه وبيني ، وينقص مصحعي أن تحرموني رؤيته ، لأن ذلك يجعلني حائرّ النفس ، صائق الصدر ، بكل ما تحت هده الكلمة من المعاني

استغرب أبوهم ما تجدد فيهم من محبة أخيهم ، وعهده بهم ـ وما بالعهد من قدم ـ أنهم لا يحرصون على مسرته ، لما عندهم له من الحسد والضغينة فقال إني انا الآن بين خطرين عظيمين الحزن على فراقه ، والخوف على حياته ، ولئن سلمت من أحدهما لا أسلم من الآخر

سمع أبوهم كلامهم فرابه منه ما رب (راعي الشاة) من استسامة « الدئب » فاعتراه امتعاض وابتئاس ، فقال (إني ليحزنني أن) وسكت ، ـ فقالوا (أن مادا) ؟ ـ قال (أن تذهبوا به) ، فإني أخيل أن قلبي يذوب يومَ بعد ولدي عني وأتصور أن لن نطير شعاعاً عند فراقه لي

هـذه مرامي جواب أبيهم لهم ، وأنتم ترون أن هـذا الكلام ليّن والعبارة لطيفة ، ولكن المعنى جارح ، ولذلك نرى أولاده ـ رغماً عن انهم في مقام الرجاء أجابوه بجواب ملؤه الشدة والصراحه كما سيأتي

وبعد ،ومع كل ذلك فنحن نصمصونا لصوت يعقوب (ع) ، ونساطره في هذا الحزن وذاك الخوف ، كما صدقه الواقع وليس في الواقع من حيلة

(ليحزنني أن تذهبوا به)

قال عبدالعظيم الشركسي

عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات

يحتمل أن المعنى يحزنني ذهاب يوسف عني ومفارقته إياي ، أي يحزنني ذهابه عني ، ومفارقته إياي مطلقاً ، إما وحده وإما مع غيره كائناً من كان ، ويحتمل أن المعنى يحزنني ذهابكم أنتم أيها الحسدةَ المبغضة ،لا سواكم من ذوي الحب والرفق والإخلاص،فعلة الحزن هي كون أولاده هم مناط الذهاب بيوسف أي إنه يحزن لكونهم هم الذاهبين به ، لا غيرهم من ذوي الود والمحبة ، فمجرد الذهاب بيوسف لا يحزن أباه ، وإنما الذي يحزنه هو كون الذاهبين به إخوته الذين يكرهونه ، ويناوئونه دائماً ، هذا ما ظهر لي فتأملوه ، فربما أكون واهماً مخدوعاً،وإذا صح هذا المعنى يكون أبوهم رمى حجراً فأصاب اثنين حَمَلَ ذهابه عنه مطلقاً من أسباب حزنه ، كما جعل ذهابهم هم به خصيصاً كذلك ، بل عندنا أن الكلام يحمل معنى ثالثاً ، وهو هكذا يحزنني أن تفوزوا ـ أيها المبغضة ـ بأخذه ، وتستبدوا ـ أيها الحسدة ـ باستصحابه معكم ـ لأنه وإن يكن أصل معنى هذا التركيب ـ تستصحبونه وتمضون به معكم ، فقد يكون لهذا التركيب في بعض المواضع معنى زائداً على المعنى الأصلي ، وهو الفوز بالشيء ، وذلك كما في قوله تعالى ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ﴾ (٢٣ ٩٢)،

أي لعارّ به واستبد بأحده ، دون الآلهة الأحرى ، وقوله تعالى ﴿ لِتَذهَبوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (٤ ١٨)، أي لتمروروا شيء من المهر (الراغب) وعليه فأصل المعى هيها ، مع رعايه المعى الأصلي ، يحربي أن تمروروا وتطفروا به من بين يديّ ، سيما وأبي أعرف عداءكم له ومناوأتكم إياه «مرحى»

(وأحاف أن يأكله الذئب الح .)

— ١ —

قال مولاي برهان الدين من علماء كراتشي في الهند

حوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب

يقول يعقوب لأولاده العشرة « إن الصحراء التي أنتم فيها « مَسْبَعَة » أو « مَذأبة » فلا أريد أن يكون ابني الصغير عرضة لافتراس « أبي جعدة » (١) الموجود العدد الكثير منه ، في تلك المفارة التي ترعون فيها أغنامكم ، ، فإني خبير وعث تلك الأصقاع ونحوها ، سيما وأن الذئاب منها عادية ضارية ، فلا تكونوا سبباً في الوقوع فيما أفرقُ وبطير قلبي شعاعا منه ، لا تكونوا سبباً في حرماني ولدي ، والتفريق بيني وبينه ، فإنكم إن فعلتم ابعستموني ورحمتي ، وملأتم حياتي هماً وكمداً »

قال لهم ابوهم ذلك علماً بسماع كل منهم ، ثم قال في نفسه سراً « وإني لست اخاف من الموت على شخصه فقط ، بل أخاف على تلك الآمال التي آملها فيه أن تموت بموته ، أخاف على مَرجُوّاتي فيه التي أمله أن تدفن معه ، فإن لي في هذا الصبي آمالاً كباراً ، ولي فيه رجاء أن سيكون له شأن في الدهر ، وأترقب أن

له شأن دو بال ، فتحو في لبس على صياغ شخصه فقط ، بل على صياغ تلك الآمال المجيدة »

هذا هو المعنى الروحي لكلام يعقوب (ع) فكأن قلبه دلّه على ما قال ، ولا عرو فقلب المؤمن دليله ، وقد روي « استفت قلبك ولو افتاك المفتون » ، وهذا النوع من كل ما يحكى فيقع تسميه العرب « ألمعية » قال أوس

والألمعي الذي يظن بك الظن ـــ كأن قد رأى وقد سمعا

ويقال له إذا صدر من الرجل الصالح « فراسة » كما قيل « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن الرجل الأصلح « تحدثاً » كما ورد عنه (ﷺ) « إن يكن في أمتي محدَّثون فمنهم عمر » أي يحدِّثهم الملائكة عما تلهمهم إياه

او يقال إن يعقوب (ع) كان يتخيل ان « ذئباً » سيغتال ابنه ، فكان لهذا الخيال يحتاط في صونه ، ثم إن الحادث الذي وقع فسّر هذا الذئب بأنه ذئب خيالي اخترعته أفكار اولاده ، وقلما ترى حادثاً قطعاً لم تتقدمه الهواجس والخيالات التي تحوم حوله ، وتشير الى وقوعه ، وهذا سر من أسرار الكون التي لم يوقف لها حتى اليوم على سبب ، نعم ، إنا نرى بعض المحبين لا يكاد يطمئن باله على من يحب ، حتى إذا جاء احد يطلبه ، فلا يتبادر الى ذهنه إلا الاحتمال السيء ، ولذلك قال بعضهم

من سر اسرار اعرام سعور من يهود السلاح بكل شر قادم

وههنا دقيقة بلاغية لا بأس من الإشارة اليها ، وهي ان كلمة « ذئب » لم تذكر قط في القرآن الكريم إلا في هذه السورة بلا اعراب ، كأنه لما كان « موضوع » هذه القصة هو « يوسف الغزال » ناسب ان يذكر في مقابله « الذئب »

(وأخاف أن يأكله الذئب)

— ٢ —

وقال فخر الدين الخوارزمي (١)

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يو.

سأل سائل كيف يقع هذا التخوف من يعقوب ، مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى اليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره ﴿ وكذلك يجتبيك ربك الخ ﴾ ولا ريب أن هذا لم يكن منه على وجه التكهن والتفرس أو الألمعية أو حسن الرجاء ، بل كان على وجه أنه أوحي اليه به لأنه نبيّ ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوىٰ ، إن هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحىٰ ﴾ (٥٣ ٣ و ٤) ، ولذلك رأيناه بعد حادثة الذئب (المزعومة) لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال ﴿بل سَوَّلَتْ لكم أنفُسُكُم أمراً﴾ (ع٨٣) ثم قال ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴾ (ع٨٣)، ثم قال ﴿واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ثم قال ﴿اذهبوا فتَحَسَّسُوا من يُوسفَ وأخيه، ولا تيأسُوا مِن رَوحِ اللهِ، إنَّهُ لا ييأس مِن رَوحِ اللهِ إلا القومُ الكافرون ﴾ (ع ٨٧) ، ثم قال ﴿إني لأجدُ رِيحَ يوسفَ ﴾ (ع ٩٤) فمجموع هذه الأقوال الخمسة يرشدنا الى أنه كان على اليقين من ان ولده موجود بقيد الحياة ، وما ذلك إلا استناداً على الوحي الذي أوحيَ به ليوسف في رؤياه المجيدة ، وعلى الوحي الذي أوحيَ به إليه نفسه

١) نسبة الى خوارزم احدى المدن التركستانية

حتى أحــــبر ولده عستقبل له باهر ، كمن سطر الى العيب ويحبر عنه بأحـــــار راهنة أكيدة

وإدا تقرر هدا فكيف سوع لىفسه التحوف على ولده من « الدئب »؟ .

ونحن نجيب عن هدا السؤال بما يلي

حوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري

١ — إن الحوف من شيء ما هو أمر طبيعي ، يطرأ على الانسان قسراً ، مع اعتقاده بعدم وقوع مصمونه ، وعدم حصول ما يخافه ، انظر الى « يوكابد » أم موسى (ع) ، فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليم ، حسبما نفهمه من قوله تعالى ﴿ وأصبَحَ فؤادُ أُمِّ موسى فارغاً ، إن كادَت لتُبْدِي به ، لولا أن ربَطْنا على قلبها ، لتكونَ مِنَ المؤمنين ﴾ (٢٨ ١٠) كان هدا منها بعد أن طمأنها الله تعالى وقال لها ﴿ فألقيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تَحزَني ، إنّا رادّوهُ اليكِ وجاعلوهُ مِنَ المُرسَلِينَ ﴾ (٢٨ ٧) وقال تعالى ﴿ فرَجَعناكَ الى أمّكَ كيْ تقرَّ عينُها ولا تَحزَنَ ﴾ (٢٠ ٤٠) ، فنرى من أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الحوف والحزن ، وطمأنها بكلامه ، خافت وحزنت ، ودلك لأن كلاً من الحوف والحزن امر طبيعي يطرأ على الانسان قسراً ، من حيث لا يشعر ، ولا يكون له فيه اختيار — وقال تعالى ﴿ ويُسبِّحُ الرَّعْدُ بحمْدِهِ والملائكةُ من خيفَتِهِ ﴾ (١٣ ١٤) فالملائكة عباد مكرمون ﴿ لا يعْصونَ اللهَ ما أمرَهُم ، ويَفْعلونَ ما يُؤمرونَ ﴾ (٦٦ ٦) وهم معصومون ومن العذاب قطعاً آمنون ، لدخولهم دخولاً أولياً في قوله تعالى ﴿ الذينَ آمنوا ولم يلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْمٍ أولئكَ لهم الأمْنُ ﴾ (٦ ٨٢)

ومع كل هذا فهم ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ (١٦ ٥٠) — وقال تعالى ﴿ وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ، ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف ، إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ (٢٧ ١٠) ، فموسى بعد أن رأى عصاه قد قلبت حية خاف ، وهو يحضره الله ، وإنما ألقاهـا بأمر الله ، فهرب ممتلئاً ذعراً ، فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده بعدم تأثير ما يخافه ، فالاعتقـاد شيء ، وطبع المخلوق شيء آخر ، وقال لموسى ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً ، فلا يصلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٢٨ ٣٥) ، ثم قال عن السحرة لما قالوا ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى — الى قوله — فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ (٢٠ ٦٥)) فهذا موسى رسول الله وكليمه ، كان قد أخبره الله عز وجل بأن فرعون وملأه لا يصلون إليهما ، وأنه هو الغالب ، وبعد ذلك فهو قد أوجس في نفسه خيفة ، وقال تعالى خطاباً للنبي (ﷺ) ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ (١٦ ١٢٧) وقال ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ (٣٦ ٧٦) وقال ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (٣٥ ٨) ، ثم سماه تعـالى بقول ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ (٦ ٣٣) ونهاه عن ذلك ، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً وكذلك الخوف في قوله ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ (ع ١٣)

جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده سالي جوفه عليه

٢ — يجوز أن لا يكون عند يعقوب اعتقاد جازم في ولده بأني جوفه عليه

من افتراس « الحَوْلَع (١) » إياه ، وأما رؤيا يوسف فيجوز ليعقوب أن يحملها على رؤية الهِمّة فلا يكون لها تعبير ، وكذلك قوله له « وكذلك يجتبيك ربك الخ » يجوز أن يكون قاله لا عن وحي ، بل عن تفرس ورجاء وعليه فلا يكون خوفه على حياة ولده مستغرباً

جواز عدم قطع يعقوب بأنه رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرباه

٣ — لعل يعقوب (ع) لا يقطع بأن هذه الرؤيا التي رآها ولده يوسف ، هي لشخص يوسف نفسه ، بل لغيره من ذوي قرباه ، لأن الرؤيا التي يراها الانسان في منامه ، قد يكون لبعض أقاربه أو أصدقائه ، كما هو مذكور في كتب تعبير الرؤيا (راجع ابن سيرين وابن شاهين ، وتعطير الأنام في تفسير المنام للنابلسي ، تجد الأمر كما نقول) ، وفي حديث « بينا أنا نائم ، أتيت بمفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت في يدي » ، قال أبو هريرة ، « فذهب رسول الله (ﷺ) ، وأنتم تنتثلونها » فلا شك أن المراد من يد النبي يد أتباعه ، من الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين وما إليهم

جواز قصد يعقوب بالذئب وأكله إضرار شمعون بيوسف

٤ — لعله لم يعن بالذئب وأكله سوى إضرار (شمعون) له ، وهذا الجواب الرابع وجيه وقوي جداً ، ولكن ليس هذا موضع توضيحه ، بل موضعه المحاضرة الآتية على آية (١٧) فانتظر

(١) الحولع أحد أسماء الذئب

هدا ما طهر لي الآن ، فى الحواب عن سؤال السائل فتأمله فإني لست بالقائل

ولا تقف صوتاً غير صوتي فاني

أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدي

ولكني أقول ربما أكون واهماً مخدوعاً ، فان أصاب حـوابي الحر فذاك ، وإلا فدعه ، ولا تسعه ، فكلنا نصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء

(هاف من الجميع ـت مصيب يا أستاذ)

(وأنتم عنه غافلون)

— ١ —

قال الحاج اسماعيل السيامي (١)

يعقوب يكشف ما يحول في دهن أولاده بالسمة ليوسف ليعلم ماذا يحيون

يريد يعقوب أن يقول إن ولدي نحيـل ضعيف العضل ، لم يجرب الكفاح ، ولم يحمل بعـد السلاح ، فأخشى عليه عادية « العَمَلَّس » (٢) حال اشتغالكم عنه ببعض الأشغال وربما تهاونتم فى حفظه ، وفرطتم في الدفاع عنه وإنما ضَنّ بالصبيِّ ، ولا أكتم عنكم انبي قد تشاءمت من قولكم (مالكَ لا تأمنا) ، والمكتوب يعرف من عنوانه ، وإن صوت قلبي هو أصدق من تلك الأمنيـات التي تُمَنّوني بها وبالله !! ما أحوج يعقوب ليوسف ؟ لما يعلمه فيه ، وما أحوج يوسف ليعقوب لأنه غلام صغير

(١) نسبة الى سيام احدى مدن اهند الصينية

(٢) العملس احد اسماء الذئب

هذا مرمى جواب يعقوب لأولاده ، وقد كانوا قبلما دخلوا على أبيهم تصوروا أن الأمر بالنسبة إليه جلل ، وأنه يشق عليه فراق ولده المحبوب ، لاسيما إذا كان قد ذهب معهم ، وإن ذلك الأمر يحزنه كثيراً ، وكانوا أضمروا أنهم بعد أن يأخذوه ويسقطوه في الجب ، يرجعون له بدونه ، متعللين بأن « الجو لتع » أكله ، حال غفلتهم عنه ، — فكانت هذه المعاني حاضرة في ذهنهم ، وكانت هذه الصور مرسومة في مخيلتهم ، فحينما دخلوا على والدهم انكشف له ما في قلوبهم من تلك الصور ، وقرأ أفكارهم ، وما أصدق ما قيل (من القلب الى القلب دليل) فنطق بما يختلج في قلوب أولاده ، فكأنه ناب عنهم أو تكلم بلسانهم ، أو عبر عما في ضمائرهم واحساساتهم ، ليسمع ماذا يقولون في جوابهم ؟

يعقوب يصف غفلة أبنائه عن حفظ يوسف بأنها أمر ثابت لهم في نفسه

لقد قال يعقوب (وأنتم عنه غافلون) ولم يقل (وأنتم غافلين عنه) إذ يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى (وانتم عنه غافلون) حال جملة ، ومعناها إن غفلتهم عن حفظ يوسف وصف ثابت لهم في نفس أبيهم يعقوب ، إذ ربما أكله الذئب في حال تلبسهم بتلك الغفلة ، ثم هم غافلون عن حفظه أيضاً قبل هذا الحال وبعده

وأما إذا قال (وانتم غافلين عنه) فتكون حال مفرده ، ويكون معناها ، إن الغفلة إنما يكون وصفاً لهم حال أكل الذئب إياه ، فالغفلة تابعة لأكل الذئب ، مقدره بقدره ، وهكذا يقال في أمثاله كما سيأتي

حوار المحائلة والمكر

آ(١٤) ﴿قالوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذئبُ ، ونحنُ عُصْبَةٌ ، إنّا إذاً لخاسِرونَ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الاية الرابعة عشرة فقــام الشيخ مضيوف السعادوري [1] وقال

(قالوا) بلسان الرد والانكار ، (لئن أكله) أى عدا عليه (الذئب) السبع (و) الحال أننا (نحن عصبه) جماعة متعصبة متعاضده ، (إنّا اذاً لـ) قوم (خاسرون)، أى لمستحقون أن نخسر ونهلك ، أو معناه إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها

حلفوا لأبيهم لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم ، وحالهم انهم عشره رجال انهم خاسرون ، ولما رأوا أن أباهم قد تشاءم ، طلبوا منه سحب تشاؤمه ، مبينين له سبب التفاؤل ، وهم كونهم عصبة ، وإن قلت قد اعتذر لهم بعذرين ، فأجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت إن العذر الذى حذفوه وتغافلوا عنه هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمَرّين ، فأعاروه آذاناً صماء ، ولم يعبأوا به وأيضاً كان أشغل العذرين لقلبه هو الثـــاني وهو خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه ، واما حزنه لمفارقته ربما يرتع ويلعب ويعود سالماً اليه عما قليل فأمر سهل فكأنهم لم يجعلوا إلا تأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه .

[1] سعادوره بلد فى الهند الصينيه

(قالوا لئن أكله الذئب الخ)

— ١ —

وقال السيد محي الدين الحضرمي [١]

اصرار الابناء على اخذ يوسف من ابيه

لم يلبث والدهم طلبهم ، ولما كان (أحب شيء الى الانسان ما منعا) ولما رددوا في ذاكرتهم ما كانوا قد آنسوه من كثرة مِقتَه به ، ولما راجعوا صورة المنام الذي كان قد رآه ، لما اجتمعت عندهم كل هذه الأشياء — ازدادوا شعوراً بلزوم أخذهم اخاهم مهما كلفهم الأمر ، فراجعوا والدهم ثانياً ، وقالوا له — وهم يتظاهرون بالدهشة والاستغراب — أيّ الذئاب تعني بتّاً علينا ، هل يقدر أن يفترسه « العَمَلّس » ؟ إنه لأضعف من أن يقدم على هذا الأمر ونحن حوالي أخينا ، وإن كبد السماء أقرب الى « العملّس » من ان يصل الى أخينا ، هب ان صحراء دوقان مسبعة كما تقول ، وان كثيراً ما افترس فيها ولدان صغار كما سمع ولكن كيف يمكن « لأبي جَعْدَة » ان يفترس أخانا المحبوب ، ونحن حواليه نحوطه ، ونقوم بالمحافظة عليه ؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ابن سبع عشرة سنة ؟ ما هذه الظنون أيها الوالد العظيم ؟ تالله لئن أكله « الحولع » — لا سمح الله — ونحن جمع شديد ، بمثلما نُغصب الأمور وتلقى الخطوب ، إنا إذاً لهالكون ، ضعفاً وخَوَراً وعجزاً ، — أو على الأقل — لمستحقون ان نهلك ، لأنا نكون لا غناء عندنا ولا جدوى في حياتنا ، نكون لسنا شيء ، لسنا رجالاً ، لا نستحق الحياة ، ليس لنا فِطٌ من المطولة ، حتى لسنا بأهل لأن نكون رعاة اغنام !! حقاً إنه لسوؤنا أن لا يكون لنا نصيب من الهمة شيئا ، حتى ولا في نفس والدنا ! فتبدلنا

---

(١) نسبة الى حضرموت بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب

اللهَ ياوالدنا أن لا تكسر معنويانا بمثل هذا الجواب ، ولا تتخوف عليه ، فإننا مع احترامنا لشخصك الكريم ، لا نرى محلاً لهذا الخوف والحذر ، وإنّا نستغرب ما تقول من (الحزن) حدّ الاستغراب ، ونعجب له حد العجب

يا أبانا تأكد تماماً أن هذا الذي تقول لا يكون دون أن ينقّض القبار ، ويجتمع الليل والنهار ! يا أبانا لا تنس أننا عصبة أولوا صهيل وصليل ، يشد بعضنا أزر بعض ، لا نستذل ولا نستغفل ، وإن صح ما تظن ، خسرنا حسن سمعتنا بين الرجال بالفتوة والمنعة ، وشاع انه ليس لنا حمية ولا قوة دفاع ، يا أبانا ، أفضل أعمالنا في غنمنا ، وعمدة شرفنا ذود السباع عنها ، فاذا كنا نذود السباع عن غنمنا أفلا نذودها عن أخينا الصبي !

هذا هو المعنى الروحي الذي يؤول اليه كلامهم في جوابهم لأبيهم ، ونفهم أنهم لما سمعوا جواب أبيهم السلبي ، ثارت فيهم الحمية ، وأوغلوا في إشارات الاستغراب ، وقد تلونت وجوههم بلون التعجب ، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه ، واستنكروه واستكبروه واستعظموه ، فاستمروا واجلمَدهم وقوتهم ، ذاهبين الى أن (السكوت عند رد الجواب بدعة) مقيمين على فكرتهم ، مصرّين على مخالفة أبيهم ، متغلبين على ذهنه ، متسلطين على إرادته ، وهكذا ما زالوا يحتالون عليه بكلام يثقب الخردل ، ويحط الجندل ، وما برحوا يجادلونه جدال هجوم ، وأبوهم يجادلهم جدال مدافعة ، حتى وقع قولهم في نفسه ، وغلب أخيراً على أمره ، بغلبوا عليه ، وهو واحد ، وقد قيل « ضعيفان يغلبان قوياً » ، فكيف إذا كانوا جماعة اقوياء ؟ فلذلك ولكونهم أمنوه ووعدوه — كانت النتيجة أن سمح لهم بأخذه ، ورضي بذهابه معهم ، وسلم لهم تسليماً ، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً

وبعد هذا كله ، فلنا ثلاث كلمات.

تهربهم من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له

١ ــ لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين فالملاحظة الأولى أن قولهم﴿ لئن أكله الذئب الخ﴾ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المعذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم ، وهو قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب ﴾،وأما الشق الأول من المعذرة وهو قوله ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ فقد ثقل على طبعهم سماعه ، فضاقوا به ذرعاً ، ومروا عنه مرور الكرام ، وجعلوه دَبْرَ آذانهم ، ولماذا ؟ لأنه سبب حسدهم له ، وهو الذي كان يغيظهم ، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به ، بل سكتوا عنه كأنهم لم يسمعوه وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم « التهرب السياسي »

والملاحظة الثانية ــ أبوهم إنما قال﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾، وفي هذه الحال يمكن « للذئب » أن يأكله ولو كانوا مئة عصبة وعصبة ، إذ ربما الجيش الكبير بتمامه في حال الغفلة لا يدفع عادية الهاجمين ، كما انه بالعكس في حال اليقظة والحيطة ربما إنسان واحد يقدر أن يدفع ذلك ، هكذا اراد ابوهم ، وهكذا يقتضي المنطق والعقل ، ولكن أولاده أدخلوا عليه « المغالطة الجدلية » في جوابهم

القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف

٢ ــ لا نزال نرى هؤلاء الإخوة العشرة يقولون « نحن عصبة » سمعناها منهم أولاً وثانياً ، فهم يفتخرون بقواهم الجسمانية ، ويتكلون على جمعيتهم ، كأنهم نسوا أن لكثير من الحيوانات العجم في هذه القُدَر حظاً أكمل من حظ الإنسان والقوة وحدها لا تكفي لحفظ يوسف ، ولكن القوة مع المحبة والاخلاص .

اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية

٣ — مما يجب التنبيه عليه انه يوجد في هـــذه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المدرجة في سفر التكوين المتـداول بين أيدي اليهود ، فالسورة هنا تحكي ان إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورغبوا اليه أن يرسل أخاهم معهم ، وان حواراً دار بينهم وبين والدهم ، انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إياه ، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئاً من هذا القبيل ، إنما يذكر ان إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريباً من نابلس ، وفي غيبتهم قال له أبوه (إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس فاذهب اليهم لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم، وترجع الي بالتطمين) فسمع لأبيه فأرسله من شمـــالي (حبرون) أو من (سيلون) الى نابلس ، فوجدهم قد ارتحلوا منها الى (دوثان) ، وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلاً ، فذهب وراءهم فوجدهم في (دوثان) ، هذا هو الذي نؤخذ من سفر التكوين وشروحه ، ولكن يجب علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه خاتم الأنبياء (ﷺ) وبلغه الينا بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق وما خالفه هو الباطل ، وناقـــله مخطئ أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف انفسنا الجواب عنه

حال التاريخ قبل الاسلام وبعده

إن حـــالة التاريخ قبل الاسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بهـا للمعرفة التامة بسيرة رجال سندهـا ، ولا تواتر يعتدّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم من حال الى حال بعد نزول القرآن ومجيء نبيّ الإِسلام ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم — لو أنصفوا — أن يؤرخوا به أجمعين،

مما كان من شؤون الأمم وسير العالم بعد الإسلام لم يطمس ولم تذهب الثقة به ولم ينقطع سند رواته ، كما كان الحال هكذا في الأمم السالفة

عناية المسلمين في اول الاسلام بالرواية والرواة

وبيان ذلك بالإجمال — أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة ، كانوا قد استعدوا للاهتداء بها بالتدريج ، الذي هو سنة الله تعالى فيهم ، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العناية التامة بالرواية ، ما يعمل منها وما لا يعمل، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة ، لتعرف سيرتهم ، وتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ، وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد ، فبهذه العناية لم ينقطع سند لنوع من أنواع العلم ، التي وجدت في المسلمين ، على أن العناية بعلوم الدين أصولها وفروعها كانت أتم ، ثم كان شأن من وفّق على آثارهم في العلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو شأنهم في التصنيف ، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها ، والأمانة فيها ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الإسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئيات من تاريخ الإسلام وغيره ، يسهل تمحيصه واخذ الصحيح منه ، لأجل الاعتبار به ، وعرفان سنن الاجتماع منه ، جريا على هدى القرآن فيه

ضياع اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة

وقد علم ونحقق ان اليهود خلطوا في تاريخهم ، وان أكثره لا يعرف كاتبه ،

ومن ذلك (التوراه) التي منها (سفر التكوين) المسطور فيه قصة يوسف ، فقد قيل إن كاتبها موسى ، وقيل وهو الأصح عندهم عزرا الكاهن ، المسمى عند العرب (بالعزير) ولذلك يسمى أيضاً عندهم (عزرا الكاتب) ، وقيل غير ذلك مما هو مذكور في تفاسيرهم ، وتواريخهم الدينية ، ويكفينا شاهداً على أن الأسفار الخمسة (التوراة) كتبت بيد غير يد موسى ، أولاً ذكر وفاة موسى فيها (تث ٣٤ ١ — ١٢) ، ثانيـاً قول سفر التكوين « قبْلَ ما مَلَكَ مَلِكٌ لبني إسرائيل » (تك ٣٧ ٣١) ، فهذه العبارة لا يمكن أن تكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو الكاتب لسفر التكوين ، لأن ملوك بني اسرائيل إنما كانوا بعد موسى بنحو (٤٥٠) سنة ، على ما في قاموس بوست وشروح التوراة وتواريخ اليهود والنصارى جميعاً ، الى غير ذلك من الدلائل التي ترشدنا الى الجزم بأن (سفر التكوين) كباقي الأسفار الخمسة قد وقع فيه من الزيادة والنقصان ومخالفة الواقع ما لا يحصى ، وليس الوقت وقت بيان هذه الأدلة

وكان بنو إسرائيل يحررون الوقائع بالحوادث فقد فاتهم ما فيها من العبر والحكم فأين ما يذكره (سفر التكوين) في قصة يوسف مما تجده في عبارة القرآن من صنوف العبرة والموعظة ، ثم بالنتيجة والعطف على ما سبق فالحق ما قاله الله تعالى من مجيء إخوة يوسف لأبيهم ، وطلبهم منـه أن يرسل معهم أخاهم ، ولا نعتبر ما خالفـه من أقوال سائر الكتب معارضاً له ، فيحتاج الى التوفيق او الجواب ،

والله وليّ المؤمنين

الفصل الخامس

تصير المؤامرة

آ (١٥) ﴿ فلمَّا ذَهَبوا بِهِ ، وَأَجْمَعُوا أنْ يَجْعَلوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِليهِ لَتُنَبِّئَنَّهمْ بأمْرِهِمْ هذا ، وهُمْ لا يَشْعُرونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة عشرة فقام أستاذنا سعيد الحوراني [١] وقال

أذن يعقوب لابنائه أن يأخذوا اخاهم يوسف (فلما ذهبوا به) أي بأخيهم من « سيلون » الى « دوثان » ، وأبوهم واضع يده على قلبه (وأجمعوا) أزمعوا (أن يجعلوه في غيابة الجب) بدوثان ، ففعلوا معه ما تقصر عنه العبارة ، أو تشمئز منه المسامع ، وتهتز منه الركب ، أي ألقوه في غيابة الجب ، قائلين له « جدها يا صاحب الأحلام ، انزل فيما يصنع فيه آمالك ، ويطيش أحلامك ، فنحن إنما فعلنا بك هذا ، لتعلم أن أحلامك دخان من غير نار » (و) عند ذلك (أوحينا اليه) أي ألهمناه أو قلنا له بواسطة المَلَك ، (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أي لتخبرن إخوتك عما فعلوا بك وأنت بمصر وهم ماثلون أمامك ، (وهم لا يشعرون) أنك

(١) نسبة الى اقليم حوران في سورية

يوسف لعلو شأنك ، ولطول العهـد المدل للهيئآت والأشكال ، ودلك قول يوسه لهم في السفرة الثالثة ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأحيـه إد أنتم حاهلون ؟﴾، فلا تحزن منهم ولا تك في صيق مما يمكرون ، فلما أوحى الله اليه دلك اطمأن قلبه وسكن روعه وهدأ باله

ولـكنه لا بدحة من أنه كان نعجب من عمل إحوته حد العحب ، فيردد في صميره معى قول القائل

أ لا إن احـوابي الدين عهدتهم
أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي
طست بهـم حـيراً فلمـــا بلوتهم
رلت بواد منهم عـــير دي ررع

ولا بدحة انه دهمـه من الحزن ما دهمه ، وانه كان يحيط به حو من الاستسلام والصبر

(فلما دهبوا به . الح)

— ١ —

وقال السيد أبو يَعْلَـى العدني [١]

الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب

لم يزالوا براحعـــون أباهم ، ولم يألوا حهداً في استنزاله عى إرادتهم ، حتى أحرحوه فانصاع اليهم ، وانساق لمشيئتهم ، ونزل على حكمهم ، طناً منه ان طواهرهم مرآه لبواطنهم ، فاسترسل اليهم استرسالاً ، وأرسل يوسف معهم إرسالاً

(١) نسبه الى عدن من بلاد الساحل الحنوبي لجزيرة العرب .

جرت حيلتهم هذه عليه مع فضله وعلمه ، كما جرت حيلة « عمرو بن العاص » على « أبي موسى الأشعري » في التحكيم ، مع أن أبا موسى عليم بدهاء عمرو ، ولكن إذا وقع القدر عمي البصر

مشت حيلتهم على أبيهم ، وحاق عليه كيدهم ، لأن الأنبيـاء ليسوا معصومين من تصديق الكاذبين ، فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً وقد ثبت أن النبيّ (ﷺ) كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون ، حتى يخبره الله بما كان من المصلحة إخباره به منه ، كما وقع في غزوة تبوك وغيرها ، وصدّق بعض أزواجه في القصة المشار اليها في سورة التحريم حتى أخبره الله تعالى به وبأن من أسر اليها الحديث أفشته ، وتردد في حديث أهل الإفك ، وضاق صدره به زمنـــاً ، حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور وفي صحيح البخـاري « إنكم تختصمون اليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحوٍ مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له من النار »

نعم الأنبياء معصومون من الغرر على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، على أن هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض ، حتى يوصف بالكذب ، وإنمـــا هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيهم وحفظه ، وعداً مبنياً على الرجاء والأمـل ، وإذاً فلا يوصف بالكذب ، ولكن بخلف الوعد فقط ، هذا ما حضرني الآن ولتنه بعدمة للدخول على آية (١٥) فتأمله

(فلما ذهبوا به الخ)

— ٢ —

وقال مولانا مظهر احمد خان الهندي

يوسف مع اخوته في طريقهم الى دوثان

ما فتيء الإخوة يلحفون على أبيهم ، ويفتلونه في الذروة والغارب ، حتى آنس منهم الإخلاص ، وارتاح الى مواعيدهم ، وبعد اللتيا والتي أعطاهم طلبتهم ، وقال لهم « حسناً فليكن كما تريدون » فقاموا فرحين بقناعة أبيهم بعد أن كان رضاه ضرباً من المحال ، فأعدوا معدات السفر ، ورحلوا فوراً ، وهم لا يلوون على شيء ، ساروا مدة صامتين ، لا يفوه أحد الطرفين الآخر بكلمة ، وكان كل من الطرفين مملوء بالغبطة والسرور ، فيوسف مملوء سروراً ، لأنه خارج للنزهـــة ، وإخوته مملوؤون غبطة ، لأنهم فازوا بمقصيدهم ، ثم يوسف يفكر في أمر نشاطه في هذه السياحة ونزهته وفرحه في هذه السفرة ، وأما إخوته فيفكرون في إلقائه في الجب ساروا وأوغلوا في البرية ، وهم على ما ذكرنا من الأفكار المتناقضة ، كأنما هم في واد واخوهم في واد

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ذهبوا به وهو خالي الذهن سادج ، لا يظن في إخوته إلا خيراً ، لصغر سنه من جهة ، وحسن ظنه بهم من جهة أخرى ، وأما هم فقد كانوا مملوئين من الحب والختل ذهب يوسف معهم بوجـه مشرق ، قد تجلت فيه الطهارة وسلامة القلب ، لا يعرف من الدنيا غير أسباب المسرات ، ولا يفتكر حال هذه الرحلة بغير اسباب الفرح ، رغماً عما كان سمعه من إخوته يوم ما قص عليهم رؤياه الأولى ،

ورغماً عما كان سمعه من أبيه من الاشارة الى أنهم له بالمرصاد لكيده ، فنسي هذا كله وأغفله ، وذهب معهم قرير العين مشروح الصدر ، فتوحى من وراء ذلك أسباب البسط والهناء ولم يكن يفتكر قطعاً ان إخوته يريدون به غائلة من الغوائل، وعظيمة من العظائم ، يريدون أن يفعلوها معه وقد فعلوها ،وفي طهارة الصبيان والأطفال روبى للناظر ، وهيبة للمتأمل وعظة للعاقل ، فيستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل الى الخير ، وانه إنما نساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع ، أو يمارسه من اختلاف المشارب ، وإذا أتى شراً فإنما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله ، وقد يظهر فى بعض الأحوال انه مهاجم متعد ، ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه ، فالاطفال والصبيان مثال الفطرة البشرية الساذجة ، لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع ، يقولون ما يعتقدون ، لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما إذا رُبّوا كما رُبّي يوسف على يدي يعقوب ، وقد تعلم من أبيه ما يسمح به سنه أن يتعلمه ، سيما طهارة القلب وسلامة النية والاتكال على الله تعالى

هذا هو الجواب عن يوسف وتسليمه بذهابه مع إخوته مع ما سبق أنه رأى وسمع منهم

كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاخوته رغم تخوفه عليه منهم

وههنا قدم إلى بعضهم سؤالا مبنياً على سماح يعقوب بذهاب ولده المحبوب معهم، فقال إذا كان يعقوب يظن الظنون بأولاده ويتخوف منهم على يوسف ، وإذا كان يعلم أن يوسف ، قص على إخوته رؤياه الأولى ، وهي (رؤيا الحزم) ازدادوا بغضا له قائلين « ألعلك تملك علينا ملكاً ، أم تتسلط علينا تسلطاً » (تك ٣٧ ٨) ، وإذا كان قد نهاه عن قص رؤياه الثانية عليهم ، لئلا يكيدوا له كيداً

وإذا كان يعرف أن اولاده قد احتملوا على أبيهم ضِغْناً بمحبته ليوسف أكثر منهم ، وإذا كان قد استروح من قولهم (مالك لا تأمنا على يوسف) انهم قد احتملوا مكراً وضِغناً على أخيهم ، وإذا كان أعلن حزنه بسبب ذهاب إخوته به إذ قال (إني ليحزنني أن تذهبوا به) ، — إذا كان قد وقع كل هذا فليس يعقوب بخليق أن يعجل في الاسترسال إلى أولاده والثقة بهم ، والائتمان لهم ، ويسمح بأخذهم إياه ، دون شرط ولا قيد هذا سؤاله سمعته فأجبته بقولي

المؤمن إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدّق ، وقد تكلم أولاده معه وأمنوه عليه ، ووعدوه خيراً ، إذ قالوا (وإنّا له لناصحون ، وإنّا له لحافظون) ، وقد قيل « ومن خدعنا في الله انخدعنا له » ، فلذلك استرسل معهم أبوهم وسلمه إليهم ، ولا ننس ان المواعيد التي وعدها يوسف في رؤييه ، ثم ما أوحي لأبيه فيه ، كل ذلك سهل على أبيه استسلامه لأولاده ، إذ هو بحكم ما سمع من المواعيد الإلهية في شخص ولده يوسف ، كأنما قد أخذ من ربه تأميناً على حياة هذا الابن الحبيب ، وأنت إذا لم تقبل مني هذا الجواب الدقيق ، خشيت عليك أن تهوي بك ريح الضلال في مكان سحيق

(فلما ذهبوا به الخ)

— ٣ —

وقال السيد الحضرمي

إن عندي على هذه الآية البحوث التالية

حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه

البحث الأول — إن جواب «لمّا» في قوله (ولمّا ذهبوا به) محذوف ، ومعناه فعلوا به

ما فعلوا ، مما لا تحيط به العبارة ، ولا تكفي فيه الاشارة ، فعلوا به ما فعلوا مما لو لفظ به ، لثقل على السامعين واضطربت له قلوبهم ، فعلوا ما فعلوا مما لا يليق ذكره بسبب هؤلاء المحترمين !! آباء الأسباط !! ، فعلوا ما فعلوا مما يذرف العيون ويدمي القلوب ويسيء بأه السامع والقارىء ، ولذلك حسن منا أن لا نصرح له به ، بل وكلناه لفهمه ، وذوقه الحاذق

ولقد رأينا بعض المفسرين هنا كتب ما لا يليق بتركيب الآية الكريمة قائلاً إنّ جواب « لمّا » هو قوله « وأوحينا » بتقدير زيادة الواو ، وهذا ما لا يقوله عاقل يحترم كتاب الله ويقدره قدره ، ولا يجيزه عالم بأسرار كتاب ربه الكريم، ولا أخفي عنكم أيها السادة اني لما نظرت هذا القول أصابتني نوبة ذهول شديدة صدعتني أكثر من ساعة ، ولذلك كان حقاً علينا أن نذكر بعض المواضيع التي حذف فيها جواب الشرط للعلة السابقة فنقول

١ — قال تعالى ﴿ وَلَوْ يَرَى الذينَ ظَلَمُوا — إذ يرونَ العذابَ — أنّ القوةَ للهِ جميعاً ، وأنّ اللهَ شديدُ العذابِ ﴾ (٢ ١٦٥)

٢ — قال تعالى ﴿ قالَ يا قَوْمِ أرأيتُم إن كنتُ على بَيِّنَةٍ مِن رَبّي ، ورَزَقَني منه رِزقاً حَسَناً ﴾ (١١ ٨٨)

٣ — قال تعالى ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورَحمَتُهُ ، وأنّ اللهَ توابٌ حكيمٌ ﴾ (٢٤ ١٠)

٤ — قال تعالى ﴿ أفَمَن زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ ، فرآهُ حَسَناً ﴾ (٣٥ ٨)

٥ — قال تعالى ﴿ قالوا طائِرُكُم معَكُم ، أئِنْ ذُكِّرْتُم ﴾ (٣٦ ١٩)

٦ ــ قال تعالى ﴿ وإذا قيلَ لهم اتّقُوا ما بَيْن أيديكُم وماخَلْفَكُم لَعَلّكُم تُرحَمُون. ﴾ (٣٦ ٤٥)

٧ ــ قال تعالى ﴿ والنازِعاتِ غرقاً، والناشِطاتِ نَشطاً، والسابحاتِ سبْحاً، فالسابقاتِ سبْقاً، فالمُدَبّراتِ أمْراً ﴾ (٧٩ ١ ــ ٥)

٨ ــ قال تعالى ﴿ فإن استطعْتَ أن تَبْتَغِي نَفَقاً في الأرضِ، أو سُلَّماً في السماءِ فتأتِيَهُم بآيةٍ. ﴾ (٦ ٢٥)

٩ ــ قال تعالى ﴿ قال لَو أنّ لي بكم قُوةً، أوْ آوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ ﴾ (١١ ١٠) يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت

١٠ ــ قال تعالى ﴿ ولَقَد هَمَّتْ بهِ وهَمَّ بها، لولا أن رآى برهانَ ربّهِ. ﴾ (١٢ ٢٤) فجواب «لولا» محذوف تقديره لولا أن رآى برهان ربه لقتلها، لأن قوله «وهم بها» يدل عليه، كقولك هممت به (أي بقتله)، وقولك لولا ابي خفتُ الله أو خفت الحكومة، معناه لولا أن خفت ما ذكر لقتلته

١١ ــ قال تعالى ﴿ وسِيقَ الذينَ اتّقَوْا ربَّهُم إلى الجنةِ زُمَراً، حتى إذا جاءوها، وفُتِحَتْ أبوابُها، وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم، طِبْتُم، فادخلوها خالدين ﴾ (٣٩ ٧٣)

١٢ ــ قال تعالى ﴿ وَلَو تَرَى إذ وُقِفُوا على النارِ فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ، ولا نكذّبَ بآياتِ ربّنا، ونكونَ مِن المؤمنينَ ﴾ (٦ ٢٧)

١٣ ــ قال تعالى ﴿ وَلَو تَرَى إذ وقِفُوا على ربّهم، قال أليسَ هذا بالحقّ؟ ـ قالوا بلى وربّنا ـ قال فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفُرون ﴾ (٦ ٣٠)

١٤ ــ قال تعالى ﴿ ولو تَرَى إذِ الظالِمونَ في غمَراتِ الموتِ والملائكةُ

باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (٦ ٩٣)

ولنا عدا ذلك من شواهد الحذوف في القرآن الكريم ما لو تتبع لزاد على المئة ، ولعل فيما استشهدنا به كفاية للمتأملين

يوسف في الجب

البحث الثاني ـ لما وصل إخوة يوسف إلى «دوثان» نزلوا عن عانة حميرهم وأرادوا أن يجهزوا تلك الدمة ، فقالوا ليوسف ـــ بعمة الطاهر ـــ أأنت صاحب الأحلام السياسية ؟ أأنت صاحب المنامات الملوكية ؟ هلتك أمك ـــ وما عتموا أن خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه ، ثم أخذوه وألقوه في غياهب « الجب [1] » ! ! !

وأما هو فبهت وتعب واصفر لونـــه وادقع ، للهفته وتأثره ، وجلس في الغيابة وحيـداً ، تتقاذفه الهواجس والبلابل ، وقد أخذ منه القلق مأخذاً عظيماً ، وهو مقطب الوجه ، غارق في بحار التأمل ، وقد هــاله ما به من الوحشة والوحدة ، مع الغربة والنأي عن الأهل والوطن ، وليس عنده ما يأكله ، ولا ما يتدفأ به ، ولا ما يقيه من البرودة والرطوبـة ، فترقرقت عيناه بالدموع الحارة ، ثم افتكر في صنيع إخوته معه ، وجعل يردد قولهم لأبيهم ﴿ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ،

(١) الجب بضم الجيم وفتحها بئر واسعة محفورة لم تطو

وإنا له لحافظون ﴾ ردده مراراً ، وتعنى به تكراراً ، وهو عند كل كلمة يهز رأسه مستغرباً متعجباً ، ويقول (يرتع ويلعب !) أين الرتع ؟ وليس لي الآن ما أسد به الجوع ، وليس حوالي إلا الطحلب ، وأين اللعب ؟ وأنا الآن في حفر صخري ذي أربع حوائط ، هي وسقفه وأرضه قطعة واحدة ، وأين الحفظ ؟ وليس عندي ما يقيني من البرد والرطوبة ، ولا ما يؤنس وحدتي ، فلو أن هؤلاء الإخوة (الكرام) قالوا (فأرسله معنا غداً يجُع ويتقيد وإنا له لحاسدون) لكانوا أقرب إلى الصدق

هذا ما نظن أن يوسف أخطره في قلبه حينما صار في جبه

كيف اتفق اخوة يوسف على القائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم

البحث الثالث ـ سألني سائل كيف أمكن لهؤلاء الإخوة العشرة أن يتفقوا ويتحدوا على الإصرار بيوسف وإلقائه في « الجب » مع انهم عدد غير قليل ، ومع كونهم من أمهات ثلاث ضرائر ، هن ليئة ، وبِلْهة ، وزلفة ، فهؤلاء الإخوة العشرة لا بد أن يكونوا مختلفي المشرب والميول ، لا سيما رأوبين ويهودا ، فقد كانا غير حاقدين على يوسف كثيراً ، بعكس شمعون العظيم الحقد عليه ، وبخلاف كل من دان ونفتالي اللذين كانا إلى محبة يوسف أقرب من كرهه ، حيث هما ولدا جارية أمه وقد تربى هو وشقيقه بيامين في خيمتها بصحبة ولديها المذكورين ، وبخلاف الخمسة الباقين ، فقد كانوا متوسطين في كرههم ليوسف ، فكيف مع هذا الاختلاف العظيم ، ومع كثرة عددهم اتفقوا وأجمعوا على الإصرار العظيم بيوسف ، وقد توفقوا أن فعلوا ما أجمعوا عليه ؟!!

فأجبته بجواب مختصر ولعل فيه الكفاية ، وهو أني كنت افتكرت نفس هذا

السؤال ولم أتمكن حتى الآن أن أعرف سبب اتحاد هؤلاء العشرة واتفاقهم غير القاعدة القائلة « المصائب تجمع »

خيبة آمال اخوة يوسف

البحث الرابع – نرى ان الأمور التي أجراها إخوة يوسف بيوسف، هي من الأمور التي لم يلاحظ فيها العواقب البعيده وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجله التي لا تثمر إلا شوكاً وحنظلاً، ولذلك فأخيراً خابت آمالهم، ودخلوا في كنف أخيهم صاغرين، وإيضاح ذلك

أولاً – لقد أخرجوه وأحرجوه، وفي غيابة الجب أسقطوه، ظناً منهم أنه سيسقط من عين أبيه وأنهم سيحلوا من قلب أبيهم منزلة أعلى من منزلتهم الأولى، والحقيقة عكس ذلك فيوسف لم يسقط من عين أبيه ولا هم حلوا من قلبه منزلة أعلى من منزلتهم الأولى بل لم يستفيدوا من كل ما دبروا وعملوا شيئاً ما، سوى أنهم ظلموا أخاهم وباءوا بإثمه، وغموا أباهم، وأدخلوا عليه القلق والاضطراب

ثانياً – لقد رجوا إن فعلوا بيوسف فعلتهم أن يخلوا لهم وجه أبيهم، وهل خلا يا ترى؟ نقرأ في القرآن الكريم فنرى يعقوب بعد حادثة يوسف، قد حصر كل محبته وعنايته في بنيامين، الابن الأصغر شقيق يوسف، فقد سمعناه يقول ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ ثم سمعناه يقول ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾، ثم سمعناه يقول ﴿ يا بني لا تدخلوا من باب واحد،

وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقةٍ ﴾ ، وقد طلب منهم هذا التحفظ عند سفرتهم الثانية ، حين كان بنيامين معهم ، ولكن عند سفرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء ، ثم عطفاً على ما سبق ـ سمعناه يقول ﴿ يا بَنِيَّ اذهبوا فتحَسَّسُوا مِن يوسف وأخيهِ ﴾ يريد بأخيه « بنيامين » طبعاً ، مع أن رأوبين كان متخلفاً بمصر ، ولكنه لم يشر إليه بشيء ، ثم رأيناهم سلكوا مسلك أبيهم في المحافظة على بنيامين ، حيث صاروا يترصون أمام بسهرهم عليه وحراستهم له . إذ قالوا : ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ ، و ﴿ نحفظ أخانا ﴾ ، ثم سمعناهم يقولون ﴿ يا أيها العزيزُ إنّ له أباً شيخاً كبيراً ، فخذْ أحَدَنا مكانَهُ ﴾ وسمعنا كبيرهم يقول ﴿ ألم تَعْلَموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم مَوثِقاً من الله ﴾ يريد موثقاً في شأن (بنيامين) خاصة .

فنتعلم من مجموع هذه الآيات الكريمة وما إليها ، أن وجه أبيهم بعد غياب أخيهم لم يخل لهم ، ولكنه خلا (لبنيامين) شقيقه ، فنرى من ذلك أن آمالهم خابت وأنهم لم يستفيدوا شيئاً بعد أن فعلوا ما فعلوا ، بل خدموا بذلك (بنيامين) إذ نقلوا له حصة الحب والعناية التي كانت ليوسف ، فانحصرت فيه محبة وعناية أبيه خلاف ما كانوا يرجون وعكس ما كانوا يأملون

سيلون ودوثان والجب

البحث الخامس ـ علمنا أن اخوة يوسف ذهبوا بأخيهم يوسف من «سيلون» محط رحالهم والدهم ذلك الحين ، وهي بجوار نابلس قرب « سنجل » ، وما زالوا سائرين حتى أتوا « دوثان » . وهي اليوم « خربة » معروفة بهذا الاسم تبعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من « جنين » بجوار « عَرّابه » وبعبارة أخرى هي بين سنجل ونابلس ،

تبعد عن « خليل الرحمن » ـ قرية أربع ـ إحدى وثلاثين ساعة لجهة الشمال ، هذا بيان المحل الذي ذهبوا منه والمحل الذى ذهبوا إليه ، وأما غيابة الجب ، فمعناه ما غاب من أسفل الجب من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه ، هذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فهو ان الجب كان فيه بقية قليلة من الماء راكدة في وسط الحورة المتوسطة في قعره ، والفرق بين كلمة جب وبئر ، ان الجب هو البئر التي لم تطو ، أي لم تبن بالحجارة ونحوها بل جبت جبأ ، أى قطعت قطعاً بالمعاول والفؤوس ، أو الدساميس والبارود ، ويقال للجب أيضاً « جُفْر » وأما ما كان مطوياً بالحجارة فيقال له « طَوِيّ » وجمعه أطواء ، وبئر وجمعه آبار ، قال الشاعر

فإن الماء ماء أبي وجدي

وبئرى ذو حفرت وذو طويت

والحقيقة ان آبار صحراء دوثان وصحارى ما حوالها من سنجل ونابلس ونحوها ، هي جباب صخرية ، ومنه نعلم عدم صحة تعبير التوراة عن جب يوسف « بالبئر » وان الصواب التعبير بالجب كما في القرآن الكريم

(وأوحينا إليه الخ)

— ١ —

قال الميرزا حسين الكاشاني (١)

الايحاء ليوسف وهو في الجب

ألقوه في الجب ، ورجعوا لشأنهم ، وتركوه وحيداً يحرّق أسنانه ، ويساور

(١) نسبة إلى كاشان إحدى مدن إيران

نفسه هم وقلق شديدان ، ويبكي ويقول « واشقا آه ، يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً » وما هي إلا ساعة أو قرب منها ، إذ رأى أنه قد تجدد فيه شيء من الأمن واطمئنان القلب ، وانه لكذلك ، إذا بالملَك قد نزل عليه يطمئنه ، ويقول له يوسف يوسف لا تخف ﴿قل يَجْمعُ بيننا ربُّنا ، ثم يفتحُ بيننا بالحق وهو الفتاح العليمُ﴾ (٣٤ ٢٦) فباح له وكاشفه بالسر المصون ، والغيب المكنون ، وصارحه بما سيكون ، وقال له ستخرج من هذا الجب بصحتك وعافيتك ، وتعلو لمنصب ذي شأن ،وسيأتونك محتاجين لفضلك ، واقفين بين يديك وعند ذلك تقول لهم ﴿هل علِمْتُم ما فعلتم بيوسفَ وأخيه إذْ أنتم جاهِلون؟﴾ ولكن الأمر يحتاج إلى صبر ، لأنك الآن في أول الطريق،وهذا الاجتماع والعتاب إنما سيكون بعد ٢٣ سنة . ﴿واصبرْ على ما أصابَكَ ، إنَّ ذلك مِن عَزمِ الأمورِ﴾ (٣١ ١٧) هذا حديث يحدثك به اليوم ، وسترى مصداقه بعد اليوم

سمع يوسف ذلك ، فانبثق له ـ وهو في ظلمة الجب ـ نور تلك المواعيد فخفف شيئاً من الويلات التي كانت حاقت به ، فكأنما نشط من عقال ، فاستراح قلبه ، لأن الله كان معه وقد طمأنه ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ﴾ (١٤ ٢٧) وقال في نفسه (لتكن إخوتي كما يشاؤون ، وليعيشوا كما يريدون ، وليعملوا ما يحبون فستمضي أيام برق شبابهم ، وستبلى منهم تلك الجدة ، وسيعطيني الله ما وعدني في رؤياي ،وعلى لسان أبي،وهنالك ينزلون من سمائهم إلى أرضي ، ويكون ما سيكون ، فنتعارف بعد التناكر ،ونتواصل بعد التقاطع ونلتقي كما كنا ، ونعيش جميعاً تحت نظر الأب الكريم ، وإن الذي غرس في قلبي هذه الآمال الحسان ، لا يعجز عن أن يتعهدها بلطفه وعنايته ، حتى تخرج

ثمارها ، وتتلألأ أزهارها ، إنه جواد كريم ، على أني لم أكن بادئاً بالطلب ، ولا مقترحاً ولا مستبداً ، إذ كل ما أرجوه قد سبق فيه الوعد ، ممن لا يخلف الميعاد ، فلست أريد أن أموت باليأس ، بل أريد أن أحيا بالأمل

سبحان المنعم كن مع الله ولا تبالي ، فكم وكم من الناس يدخلون القصور وهم أعزاء ، ولكن يغادرونها في حالة الذل ، وأما يوسف فنزل في الجب ، وهو بحالة الذل ، ولم يغادره إلا وهو موحًى إليه ، كما سيأتي أنه دخل السجن عبداً فغادره وهو ناظر مالية !!!

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالمخاوف كلهن أمان

هذا حال يوسف في جبه ، وأما إخوته فهل يظن ظان أنهم بعد ما فعلوا فعلتهم أنهم كانوا مستريحين في قلوبهم ؟ كلا بل لا ارتياب في أن ضمائرهم كانت تجرحهم ، ونفوسهم كانت تلومهم على هذا الصنيع الرديء

الوحي لغة واصطلاحاً

وبعد فقبل الختام اسمحوا لي أن أتكلم كلمة في شرح « الوحي » بمناسبة قوله تعالى هنا ﴿ واوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾

قال أحد العصريين ـ « الوحي في لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاه لا تكون نتيجة لمقدمات تبنى عليها تلك النتيجة ، بل هي اشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال » ،

وقال عصري آخر ـ « الوحي في اللغة يطلق على الأمور الآتية

١ ـ على الاشارة والايماء والكتابة ومنه قوله تعالى ﴿ فأوحى إليهم أن

سبّحوا بُكْرَةً وعَشِيّاً ﴾ (١٩ ١٠) فان الذي وقع من زكريا لقومه إنما هو الاشارة وقيل الكتابة على الأرض

٢ ـ على الإلهام الذي يقع فى النفس ، أو يلقى فى الروع ، وهو أخفى من الايحاء ، ومنـــه قوله تعالى ﴿ وَأوحَيْنا إلى أمّ موسَى أن أرضعيهِ ، فاذا خِفْتِ عليه فألْقيهِ في اليَمّ ، ولا تخافى ، ولا تحزني ، إنّا رادّوهُ إليكِ ، وجاعِلُوهُ مِنَ المُرسَلِينَ ﴾ (٢٨ ٧) ، وهذا من قبيل ما يقع في نفوس الصالحين ، من المعاني والأفكار الصحيحة ، فيعد من الإلهام ، الذى قـــد يعبر عنه بالوحي

٣ ـــ يطلق على ما يكون غريزة دائمة ، ومنه قوله تعالى ﴿ وأوحَى ربُّك الى النحل ، أن اتّخذي مِنَ الجبالِ بيوتاً ، ومِن الشجرِ ، ومما يَعْرِشُون ، ثم كُلِي منْ كلّ الثمراتِ ، فاسْلُكِي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلاً ﴾ (١٦ ٦٨)

٤ ـــ ويطلق على الإعلام فى الخفـاء ، وهو أن تُعلِم إنساناً بأمر تخفيه عن غيره ومنه قوله تعالى ﴿ شياطينَ الإنسِ والجن ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ﴾ (٦ ١١٣)

وقال مصري ثالث ثبت ان الروح الانسانيـة إذا تجردت عن الاشتغـــال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، فيوسف الصديق لما رآى نفسه وحيداً في الغيابة تملص عن كل شيء من عالم المادة ، وتقلص عما عدا الروحيات ، فانكشف له أنه سوف ينبئ إخوته عمـــا عملوه معه ، غير شاعرين انه أخوهم

وأما الرسل فينكشف لهم عالم الأرواح العليا باستعداد فطرتهم ، وتخصيص الله تعـــالى إياهم لذلك ، فلا جرم إذا كانوا يعرفون من عالم التقدس ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وقال عصرى رابع ـ معنى الوحي او الالهام في اللغة الإلقاء في الروع ، أي الإخطار على البال ، ويكون على ثلاثة انواع ، يختلف تعريفه اصطلاحاً بحسبها

النوع الأول عام ، وهو ما يكون به هدايه كل نوع لما يصلح له ودوامه ، وذلك كالذي نراه في فطره الحيوانات آكلة العشب ، من اجتناب التي لا تلائمها من غير معلم ، ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والأنعام ، وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الأنواع المتعادية ، اسبابَ الدفاع والهجوم من صياصي وخدائع ، اعتبر ذلك من صغار الحشرات ، الى كبار السباع ، وكالذى نشاهده من استسقاء البعض منها ، ببعض الأعشاب ، كالسنانير والكلاب ، وكالذي نراه من نظام الحيوانات ، المنقاده لرئيس منها ، كالنحل والنمل ، وكالذي نعلمه كل منا من اندفاع الرضيع لالتقام حلمة ثدى امه، ومصه إياه حتى يكتفي ، وشاهد هذا النوع من القرآن ﴿ وأوحَى ربُّك الى النحلِ ﴾ (١٦ ٦٨)

النوع الثاني خاص ، وهو ما تكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعيــــه ، وشؤونه الخصوصية ، متى وصــــل لسن التمييز والشاهد لهذا ﴿ وأوحَيْنَا الى أمّ موسى أن أرضِعيهِ ، فإذا خِفْتِ عليه ، فألْقِيهِ في اليَمّ ، ولا تخـــافى ولا تَحزَني ، إنّا رادُّوهُ اليـكِ ، وجاعِلوهُ مِنَ المرسَلينَ ﴾ (٢٨ ٧)

النوع الثالث أخص ، وهو ما يكون به هــدايه بعض الأفراد لمعرفة شيء من عالم الغيب ، وهذا ما يقع للأنبيـــاء ، وشاهده ﴿ إنّا أوحينا اليكَ ، كما أوحَيْنا الى نُوحٍ والنَّبيّينَ مِن بعدِهِ ﴾ (٤ ١٦٢)

ويقابل النوعين الأخيرين ، إضلالات ، تأتي من جانب الناس والشيطان ،

وشاهده ﴿ وكذلكَ جَعلنا لكلِ نبيٍّ عدُوّاً ، شياطين الجنّ والإنسِ ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ، زخرُفَ القَولِ غُروراً ﴾ (٦ ١١٢)

وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام ، فهو من المعنى الثانى من المعاني الآنفة الذكر ، والله تعالى أعلم ، وأما نحن فلا نعلم إلا ما لا نعلم

وأما وحي الله لأنبيائه فقد شرحه إخواننا الامـام القلقيلي والشيخ البيساني والمدقق اللدي فى جلسة الائتمار على الآية الثالثة ، فمن أراد فليرجع اليه

دموع التماسيح

(١٦) ﴿ وجاءوا أباهُم عِشَاءً يَبْكُونَ ١١ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة عشرة فقـام ابو الفضل البحراني[1] وقال

(وجاءوا) اي جاء فريق من اخوة يوسف العشرة وبقي فريق آخر منهم فى حراسة يوسف وهـو فى جبه ، حيث السيارة لم تجيء بعد كما هو مقتضى نظم الآيات الكريمة (أباهم) يعقوب (عشاء) فى امسية احد الأيام (يبكون) وقد عبر بهذه الكلمة مع أن الذى صدر منهم هو التباكي ، لأن الانسان إذا تباكى انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقى ، وبيان ذلك أن الأفكار والخواطر الـتى تمر بأذهاننا تتأثر بها جسمنا ، كما بالعكس ، أن عقلنا تتأثر من جسمنا ، وكل عواطفنا تؤثر فى أجسامنا ، وقديماً استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها ، فاذا

١) نسبة الى البحرين احدى مقاطعات الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربى

تصاحككما مثلاً وليس هناك ما يضحككما ، فإن هذا التضاحك يحدث سروراً عندنا وينتهي بنا الى الضحك الحقيقي ، وإذا تباكينا انتهى التباكي المصنوع ببكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن ، ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل ، هـــذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون

(وجاءوا أباهم الخ)

— ١ —

وقال الشيخ دخيل الكويتي [1]

حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع اخوته وحال اخوته بعد القائه في الجب

اترك يوسف في جبه ، ونأتي على ما جرى ودار بين يعقوب وأولاده حينما رجعوا اليه بدون يوسف

بعدما فعلوا فعلتهم ، اجتمعوا وتذاكروا في امر يتخلصون به من أبيهم ، بحيث يتفقون جميعا عليه ، لئلا يظهر له دخيلتهم ، فاتفقوا على ما سيأتي ذكره

هذا ما كان من جهتهم ، وأما ما كان من جهة والدهم ، فانه كان في آخر يوم من غياب ولده الحبيب يذكره ويذكر بعده عنه، فانتابته الهواجس ، ورأى نفسه في وحشة عليه ، وكأني به قد شرع يقول بينه وبين نفسه « كم يوما أنت غائب عني يا يوسف ؟ وكم يوما بقي لك حتى ترجع ، وأرى نور وجهك ؟ آه ، أين يا ولدي في سرائك وانا في ضرائي ، أنت مشغول القلب بالمنتزهـــات الجميلة الرائعة والمناظر الطبيعية ، وانا مشغول الفؤاد بفقدك عني ! »

---

(١) نسبة الى بلدة الكويت في امارة الكويت العربية على ساحل الخليج العربي

مل ّ يعقوب الانتظـار ، وقد كان يتوقع أن يرى يوسف حاضراً بالسلامة ، ممتلئاً سِمَناً ، متفقئاً شحماً ، مترعرع البدن بسبب وجوده في الصحراء ، يرتع ويلعب فيها ويستنشق هواءهـا النقي ، وكان يعدّ مدة غياب ابنه يوسف بالأيام ، بل بالساعات

بينا يعقوب ، وهو في ظلمة البعـاد يتطلع لرؤيه وجه ولده الساطع ، كما يتطلع الملاح في ظلمة البحر الى نجمة القطب ،

بينا يعقوب ، قد هاجت بلابله ، وتحركت أشجانه ، وقد جعل يتلفت كأنما يبحث عن ضائع ، ويُصيخ بسمعه ، كأنما يسمع لأنين طفل يبكي ،

بينا يعقوب ، يتقلب على مثل الجمر من الانتظار ، يقضي بانتظاره كل ليل بطيء الكواكب ، وكل نهار أطول من فقر أهل الكسل ،

نعم بينا هو كذلك ، إذ في ذات ليلة ، في الهزيع الأول من الليل ، بعد أن سحبت الغزالة ذيلها الأحمر ، وتكاثف العتمة ، وجثم الغسق ، وسدل الليل نقابه وانغمست جذوة النهار في حمأة الليل ، جلس يعقوب وهو يفكر في أمر وحشته من يوسف ، وانه لكذلك ، إذ حضر أبناؤه (لسيلون) وقربوا من باب فسطاط أبيهم وقد علتهم الأحزان ، واحمرت عيونهم ، وكلل العرق أصداغهم وجباههم ، وتحول في محاجرهم دموع التماسيح ، يبكون بكاء مر أبكل عين قويه ، وقد شرقوا بدموعهم وهم يجهشون في بكائهم وقد خنقتهم العبرات ، ولكن دموع بكائهم لم تكن سجية ، بل بارده

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

فبعث أبوهم ، وصاح مَهْيَم ؟ ما وراءكم ما خبركم . ؟ ما خطبكم ؟ تكلموا قولوا

فأجابوه بما سيأتي في الآية (١٧)

(وجاءوا اباهم .)

— ٢ —

وقال ابو عاصم الاربدي [١]

اختلاف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد القائه في الجب

إذا قرأنا من هنا الى قوله تعالى ﴿ وَجاءَتْ سَيَّارةٌ ، فأرسَلُوا وارِدَهُم . الخ ﴾ وتأملنا فيه قليلًا نعلم من نظام ترتيب الآيات أن إخوة يوسف رموه في الجب وفي الحال قبلما تأتي السيارة المذكورة قاموا ورجعوا الى أبيهم ، ونعوا له يوسف وهو أخاهم عما أجابهم ، وبعد ذلك ، وفي حال غيابهم ، جاءت السيارة المذكورة فالتقطت يوسف ونشلته من جبه ، هذا ما نعلمه من الآيات المذكورة فإنه وإن تكن «الواو» لا تفيد ترتيباً لكن المتبادر من نظام الآيات هو ما فهمناه، وانما نقرأ في «سفر التكوين» فنفهم ان «السيارة» جاءت وأخذت يوسف وذهبت به لمصر بحضور إخوته ، بل هم الذين باعوه لها ، ثم بعد أن أتموا ذلك كله، وصاروا آمنين أرسلوا بعضهم بالقميص نعي يوسف لأبيه ورأينا في هذا الاختلاف هو انه يمكن الجمع بأن فريقاً منهم ذهبوا بالقميص والنعي لأبيهم ، وفريقاً آخر بقي في دوثان لأجل حفظ يوسف في الجب ، ومراقبة ما سيطرأ عليه ، خوفاً من نقله بإحدى الوسائط ، فهروبه منه ، فرجوعه لأبيه ، فتبين كذبهم صريحاً ، وعليه فالضمير في قوله تعالى « وجاءوا » ليس هو ضمير الجميع، بل ضمير المجموع ، أي للبعض منهم ، فيصدق بواحد أو اثنين او ثلاثة مثلاً وإنما نسب المجيء بضميرهم

(١) نسبه الى اربد من بلاد الشام (شرق الاردن)

كلهم ، لأن مجيء البعض كان بمعرفة ورأي الكل ؛ فلذلك جاءت نسبته للكل ، عملاً بقاعدة التضامن والتكافل التي هي معتبرة شرعاً وعليها جرى القرآن الكريم على طول الخط ، كما في قوله تعالى ﴿ ثمَّ اتخذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بعدِهِ وأنتم ظالِمُون ﴾ (٢ ٥١) وقوله ﴿ وإذ قُلتم يا موسى لن نُؤْمِنَ لكَ حتى نَرَى اللهَ جهرةً ، فأخذَتْكُمُ الصاعِقةُ ، وأنتم تَنْظُرون ، ثم بَعَثْنا كُمْ مِن بعدِ موتِكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ (٢ ٥٥ و ٥٦) وقوله ﴿ وإذ قلتم يا موسى لَن نصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ ٦١)، وقوله ﴿ وإذْ قتَلْتُمْ نفساً فادّارَأْتُم فيها ، واللهُ مُخرِجٌ ما كنتم تكْتُمون ﴾ (٢ ٧٢) وقال تعالى ﴿ فكَذَّبُوهُ فعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهُم بذَنبِهِم ﴾ (٩١ ١٤ و ١٥) وما الى ذلك مما لا يُحصى في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية والأشعار العربية

وأما القول بأن مجيء « السيارة » وأخذهم إياه لمصر كان قبل مجيء إخوته لأبيهم عشاء يبكون ، وأن الواو في قوله « وجاءوا » لا تفيد ترتيباً — فهو قول أدخلَ في باب الهراء منه في باب الكلام المعقول ، وما يسع رجلاً يحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والمشاعر أن يقول هذا القول

عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) ﴿ قالوا يا أبانا ، إنا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ ، وتركنا يوسفَ عندَ مَتَاعِنا ، فأكَلَهُ الذئبُ . وما أنت بمؤمنٍ لنا ، ولوْ كُنَّا صادقينَ

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة عشرة فقام الفاضل الغزي وقال

روى أن يعقوب لما سمع صوت أولاده وهم قادمون عليه ، فزع وقال مالكم يا بنى هل أصابكم فى غنمكم شيء ؟ قالوا لا ـ قال فما لكم وأين يوسف ؟ ـ قالوا بلسان الغم والكآبة (يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق فى العدو أو في الرمى ـ ومعنى نستبق نتفاضل ـ (وتركنا) أخانا (يوسف) المحبوب فى الخيمة (عند متاعنا) حوائجنا (فأكله) فاختطفه (الذئب) الخبيث (وما أنت بمؤمن) بمصدق (لنا) في هذا النبأ (ولو كنا صادقين) أى ولو كنا عندك من اهل الصدق والثقة لشده محبتك ليوسف،فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا؟ أو ولو كنا صادقين فى الواقع ونفس الأمر

(قالوا يا أبانا ، إنا ذهبنا الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ الباقي

اخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف

جمع أبناء يعقوب ـ سامحهم الله ـ شتات أمرهم ، وقالوا بصوت مرتجف

مضطرب أخش متقطع ، وهم يتلعثمون في كلامهم ، وعيونهم تترقرق بدموعهم يا أبانا المحترم لا تكذّبنا ، قال خيراً لنا شراً لأعدائنا ، تكلموا ، فإني أرا كم بحالة على غير ما أعهد ، أعرف منها وأنكر ، قالوا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف أخانا المحبوب عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين فيما قلناه ، فقال أبوهم ما هذا الذي تقولون ؟ فوقف ابن آخر وقال ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، وتناضل ، ونشتد ونعدو ، وأوغلنا في الكر والفر ، وتركنا أخانا المحبوب يوسف - ولما وصل في حديثه إلى هذا الحد - امتقع لون أبيه الشيخ ، وشخص بصره لسماع تتمة الحديث قائلاً ثم ماذا ؟ ؟ قال يا ليتنا متنا قبل أن ننقل إليك هذا الخبر السيء ، قال أبوهم ثم ماذا ؟ أسرع في الكلام - قال فما غبنا أن بعدنا عنه ، وشسعت بيننا وبينه المسافة ، فما لبث أن جاء الذئب وتناوله وذبحه ، وهكذا أسلمه حظه إلى أنيابه ، أكله (وا أسفاه) ذلك الحيوان الأشرس الضاري ، واستل حياته من بين يدي أهله ، ولعله تعرض له في الصبح في أول ما خرجنا للانتشار ، عند فترة كلابنا ونومها ، لأن الذئاب أكثر ما تتعرض لافتراس الغنم في أول ذلك الوقت ، كما هو معروف - ولعل أخانا خافه فهرب منه ، فطمع فيه فأدركه وقتله

وربما كان أخونا نائماً، فجاءه فخدشه بأنيابه في عنقه، أو أثقله وأثخنه بالجراح حتى سال نفسه فقضى نحبه ، وأما نحن فبعد ما أسفنا وبكينا عليه بكاءاً مراً فقد حفرناه ، ووارينا جثمانه التراب ولم نشأ ان نأتي به أو بقية جسده، لئلا تتضاعف حزنك عليه ، وإنا لا نكذب الله فيما نقول ، ولكن ما العمل والإنسان هدف للنوائب ، وإنه ليعرض لنا أنك غير مصدق لنا بقلبك على صحة هذه الحقيقة ، وإن كانت كفلق الصبح، ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، ولماذا يا ترى؟ أشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟!!!

(قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا الخ)

— ٢ —

قال الشيخ السلفي العُنيري (١)

ليسمح لي السادة المستمعون أن أبين في هذا الصدد ثاني نقاط هي من الأهمية بمكان

المعذرة المصطنعة

— لقد تمركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم، لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، وإن كانت كالثوب الشفاف نم عما وراءه، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة، فهي في ظهور فسادها، كحيلة الفقهاء في « الربا » التي يسمونها « العينة » وقد قيل « إياك والعينة فإنها لعينة » نعم لقد انتحلوا هذا العذر، وصمموا على حكايته لأبيهم، سواء أصادفوا منه إصغاء وقبولاً أم لا، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذراً، ضعيف في العقل جداً، ولكن ماذا يعملون ؟ وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواه، « ولا بد للكذاب من بارد العذر »

الاستباق

ثانيها — يرددون قولهم « نستبق » يسابق بعضنا بعضاً في الرمي، بأن يرمي اثنان مثلاً، ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ؟، فمعنى « نستبق » نتنصل ونترامى، فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض (قاله الزجاج)، وقد روى

(١) نسبة إلى العنيزة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية

مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي » وهو سنة، ولكن يحرم اتخاد الحيوان الحيّ غرضاً ، فقد روى مسلم في صحيحه أن ابن عمر مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر من فعل هذا ؟، لعن الله من فعل هذا، « إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً »

وقيل معنى « نستبق » نسرع ونعدو على أرجلنا ، ليتبين أينا أسرع عدواً ، وقد روي أن النبي ﷺ كان يسابق عائشة (ض) وذلك على نوع من أنواع فن الرياضة البدنية المستحب طباً وشرعاً

وقيل معنى « نستبق » نتسابق على دوابنا ، وفي البخاري « أن النبي ﷺ سابق بالخيل التي أضمرت ، وسابق بين الخيول التي لم تضمر » وزاد مسلم «وكان ابن عمر فيمن سابق بها »

المتاع

ثالثها - قولهم « متاعنا » جمعه أمتعة ، ويرادفه « الثّقَلُ » كما في ﴿ وتحمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ ﴾ (١٦ ٧) أي أمتعتكم الثقيلة ، وكلمة « متاعنا » مفرد مضاف فيعم جميع الأمتعة المعتادة لأمثالهم في البر ، المؤلفة من خيام وعدول واصواف وسمن وزبد وألبان ولحوم مقدده ، وجرار ماء ووسائد للجلوس وأغطية نوم ، واقط وجبن وجلود ونعال ، وما إلى ذلك

وههنا لنا عليهم ملاحظة ، كما لا بد أن يكون قد لاحظها عليهم أبوهم (ع) وهي أنهم كانوا قالوا ﴿ ما لَكَ لا تأمَنّا على يُوسفَ ، وإنّا له لناصِحُونَ

أرسِلْهُ معنا غَداً يَرتَع ويَلْعَب ، وإنّا له لحافِظُون ﴾ ، وإنا نراهم الآن لم يفوا بهذا الوعد ولم يقوموا بما قالوا ، فإنهم بدّلوا يوسف عن « الرتع واللعب » بالحراسة ، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم ، وتركوه وحده ، ولم يكونوا له من الحافظين ، وهكذا يكونوا قد تناقضوا ، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره

ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه

رابعها — قالوا (فأكله الذئب) فسمع أبوهم ذلك النعي السيء ، فأثر فيه تأثيراً كلياً ، فاختلج قلبه أيما اختلاج ، بل شعر كأن صوت هذا النعي احترق صدره ، حتى وقعت سهامه في قلبه ، ولكنه رجع إلى أمله في ولده ، وصبر صبر الكرام

وروي انه لما سمع صوتهم فزع ، وقال « مالكم يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ — قالوا لا — قال فما لكم ؟ وأين يوسف ؟ — قالوا أكله الذئب» — فاتهمهم ، وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب (ع) هلاك ولده بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم (وأخاف أن يأكله الذئب) أعني أن يكونوا التقطوا منه تلك الكلمة، فتمركروا عليها هنا ، ولا غرو ، فإن الجملة الاعتذارية التي نطق بها أبوهم لهي كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال، وكثيراً ما تُتلقف الأعذار الباطلة من كلام المخاطب المعتذر إليه ، فهم غنموا هذه التكأة ، ودبروا هذه الحيلة من يوم ان غَرّوا أباهم لاستلاب يوسف

اطلاق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً

خامسها — للعرب إقدام على التجوز في الكلام ثقةً منهم بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم كما جوزوا قولهم « أكلَه الأَسْوَد » وإنما يذهبون إلى النهش واللدغ والعض ، كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، وهكذا الحال هنا فمعنى « أكله الذئب » خدشه وأثخنه بالجراح ، حتى أسلم روحه لربه .

تعدي الايمان بالباء وباللام وبعلى

سادسها — قولهم (وما أنت بمُؤمِنٍ لنا) معناه وما أنت بقابلٍ لكلامنا ، مصدق لنا ، بل أنت من المرتابين في اخبارنا،ونظيره ﴿ قُل أُذُنُ خَيْرٍ لكم ، يُؤمِنُ بالله ، ويُؤمِنُ للمؤمنينَ ﴾ (٩ ٦٢) أي يصـــدق بالله ويقبل كلام المؤمنين الخلّص ، وقوله ﴿ فآمَنَ له لوطٌ ﴾ (٢٩ ٢٦) أي أن لوطاً صدق كلام عمه إبراهيم وقبله ، وقوله تعالى ﴿ فما آمَنَ لموسى إلاّ ذُرِّيّةٌ مِن قومِهِ ﴾ (١٠ ٨٣) ، أي صدقوا كلامه ، وقبلوا إخباره ، والخلاصة ، أن الايمان تاره تتعدى بالباء مثل آمنت بالله ، فيكون بمعنى التصديق بالذات ، وتارة تتعدى باللام، مثل آمنت لك ، بمعنى قبلت كلامك ، وتارة تتعدى بعلى ، مثل (هَلْ آمنُكُمْ عليهِ) فيكون بمعنى الائتمان

الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة

سابعها — يقولون (ولو كنا صادقين) ؛ يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط ، فإنهم ما كانوا صادقين ، في بكائهم ، ولا في قولهم إنهم ذهبوا يستبقون وقـــد تركوا يوسف عند متاعهم ، ولا في قولهم إن الذئب أكله ، فكل ذلك كذب ،

كما أن الدم الذي جاءوا به على قميصه كان كذباً ، فرواتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع

الصادق عند الإطلاق ، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة فلا ينطوي قلبه على كذب ، ولا ينطق لسانه بكذب ، ولا تتحرك جارحة من جوارحه في شيء كذب ، ولا يعمل أعمال كذب ، بل يكون في كل أفعاله وأقواله ظاهراً وباطناً على حق ، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هـــذا ، فالقلب واللسان ليسا بصادقين ، وعمل جارحة اليد وهو تلوث القميص بالدم ، ليس بصادق ، وعمل جارحة العين وهو البكاء ، ليس بصادق

هم يقولون لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، وهم إنما يعبرون بذلك عن إحساس أبيهم بحث لهم ، يعلمون أن ما قالوه كذب سحاق ، وافتراء حنتر يت ، ويدعون الصدق !! كما قال الشاعر

ومن البلية أن يسمى صادقاً من وصفه الأولى كذوبٌ باري
غفران ربك قلما فَعَل الفتى ما ليس يحوجه إلى استغفار

الخير مؤجل والشر معجل

ثامنها ـ وعد يوسف بالخير ماماً في رؤيته ، ثم نقطة بلسان أبيه ، وهـذه الوعود تأخر تحقق مضمونها ، ولم يصل إلا بعد مدة طويلة ، ولكن المصائب التي صبت فوق رأس الصديق (رض) لم يحصل له فيها وعيد ، وإنما استلمها فوراً ، يداً بيد

عرفت سجايا الدهر أما شروره
فنقد ، وأمـا خيره فوعود !!!

الا إنما الدنيا نحوس لأهلها
فما في زمان نحن فيه سعودُ
(مرحى مرحى)

(فأكله الذئب)

— ١ —

قال النجم الروسي القازاني (١)

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤيي يوسف وبشائره

سادتي

تقدم في محاورات المؤتمر على الآية (١٣) شرحاً لقول يعقوب (ع) ﴿ وأخافُ أن يأكُلَهُ الذئب ﴾ ـ سؤال، صورته كيف يقع هذا التخوف من يعقوب (ع) مع انه كان سمع رؤيا ولده، واعتقد صحتها وعرف مرماها، وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته، ثم فسره بقوله (وكذلكَ يجتَبيكَ ربُّكَ الخ) ولا ريب ان هذا لم يكن منه على وجه التكهن أو التفرس أو الأمنية أو حسن الرجاء، بل كان كما هو الظاهر على وجه انه أوحي إليه به، لأنه نبيّ ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوَى ، إن هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحَى ﴾ (٥٣ ٣)، ولذلك ألفيناه عند حادثة الذئب التي زعموها ـ لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته، كيف لا وقد قال ﴿ بل سوّلت لكم أنفُسُكم امْراً ﴾ وقال ﴿ عسى الله ان يأتِيَنِي بهم جميعاً ﴾ وقال ﴿ وأعلم مِنَ اللهِ ما لا تعلمُون ﴾

(١) نسبة إلى قازان إحدى مدن بلاد الروس

وقال ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ وقال ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ فمجموع هذه الأقوال الخمسة عطفاً على ما سبق من الرؤيين والبشائر يرشدنا إلى أن يعقوب(ع) كان على يقين أن ولده موجود بقيد الحياه ، وإلا فكيف كان يخبر عن ولده بمستقبل له كمن ينظر إلى الغيب ، أو إلى اللوح المحفوظ ، ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة ، ثم يتخوف عليه من افتراس الوحش إياه ؟ هذا مالا يكون ولا يتفق ولا يعقل قطعا ، وأما قوله (وأخاف ان يأكله الذئب)فيحتمل انه إنما قاله دفعاً لطلب أولاده وحجة يحتج بها عليهم ليصرفهم عن أخذه ، هذه هي صورة السؤال الذي تقدم طبق الأصل ، وقد كنت أجبت عنه بثلاثة أجوبة ذكرتها هناك في محاورة آية (١٣) ، كما تعلمون ذلك ، وتعلمون اني انعطفت فأجبت بجواب رابع عرضته على اسماعكم بصورة مختصرة جداً ، بل رمزاً وإشارة فقط ، وقلت لكم أيها السادة الكرام إن هذا الجواب الرابع وجيه وقوي جد القوة ، ولكن ليس هذا الموضع محل توضيحه وبسطه

استعمال الذئب والاكل مجازاً

والآن أيها الأحباء المحترمين أريد ان أبين لكم من هو هذا « الذئب » ، ومنه يعلم الجواب الشافي عن السؤال الآنف الذكر ، وعليه فأرجوكم أن تصيخوا لما اقول هم يقولون (فأكله الذئب) ونحن نقول يجوز ان كلمة « الذئب » مجاز عن « شمعون » الذي ناصب يوسف العداء اكثر من سائر إخوته ، وكلمة « الأكل » مجاز عن الإضرار اللاحق بيوسف

استعار « الذئب » كثيراً للانسان المفترس ، وهو مجاز سائغ مشهور في اللغتين العربيه والعبرانية ، فأما شواهده في اللغة العربيه فأكثر من أن تحصر ، وهي

معروفة لكل أديب ، وأما شواهده بالنسبة للعبرانيين ففي سفر اشعيا « ويسكن الذئب مع الخروف» (أش ١١ ٦) ، كناية عن اجتماع الأممي مع الاسرائيلي ، على ما قالوه ، أو كناية عن شدة الأمن والراحة والسلام ، أو اجتماع الطالح مع الصالح واتحاد القوىّ مع الضعيف ، ومن هذا القبيل « الذئب والحمل يرعيان معاً » (أش ٦٥ ٢٥) ، وفي سفر صَفَنْيا يصف بيوي • « قضاتها ذئاب » (صف ٣ ٣) ، وفي سفر إرميا سوءة عن أهل أورشليم : « ذئب المساء يهلكهم» (إر ٥ ٦) ، يراد من الذئب نبو خذنصر ، أو اسكندر المكدوني ، وفي سفر حزقيال سوءه عن أورشليم « رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطفة » (حز ٢٢ ٢٧)

الذئب مجاز عن « شمعون »

فأنتم ترون أنه بحسب اصطلاح إسرائيل وبني إسرائيل كثيراً ما يطلق «الذئب» ويراد به الإنسان المفترس ، الهاجم المعتدى ، فلا غرابة إذا قلنا إن « الذئب » فى كلام يعقوب ههنا يجوز ان يراد به أحد أولاده المتألبين على يوسف ، وهو «شمعون» على ما ذكره مفسرو التوراة انه كان هو المتصدي لعداء أخيه ، وعهدنا فى شمعون انه صاحب نزقٍ وثورة فوق اللزوم زيادة عن المعتاد (انظر تك ٣٤ ٢٥ـ ٣٠) وقد قالوا إن طبع الذئب الشراسة وإنه عديم الأمن ، وقد كان شمعون كذلك ، كما يستفاد من سيرته في كتب تاريخ قومه ، (انظر تك ٣٤ ٢٥ و ٢٦ و ٤٩ ٥ ـ ٧) ، ولا بدع في نحو قولنا إن الذئب مجاز ، فكتاب الله تعالى هو أجمع الكتب لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة ، والأمثال الرشيقة ، والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرفة ، وما إلى ذلك من ابلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس ، وآخذه بالألباب ، وأملكه للعواطف والمشاعر ، وأمثال تلك مما لا ينطق به الناطق فى أكثر مناحيه ومنازعه ، إلا عند ذهابه مذهب الخيال

الشعري ، وهذا ما دعى العرب إلى ان يسموا النبي ﷺ الذي بعثه الله إليهم « شاعراً » ، وما أتى به من الله تعالى « شعراً » شبّه لهم ، عُمّ عليهم ، فزعموا ما زعموا ، وما هو بشاعر ، بل هو نبيّ يوحى إليه ، وما كتابه بشعر ، وإنما هو وحي يوحى

الاكل مجاز عن النهش والعض والاضرار

ويستعار « الأكل » للنهش والعض واللدغ تجوزاً من العرب في كلامهم نقله منهم بعض المخاطب كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، ولذلك يقال للسكين « آكلةُ اللحم» وهي إنما تجرح أو تقطع فقط ، ومنه في القرآن ﴿ وما أكلَ السبُعُ ﴾ (٥ ـ ٤) أي جرح ، بدليل قوله : ﴿ إلاّ ما ذكّيتُم ﴾ (٥ ـ ٤) ويطلق الأكل في كلام العرب على أوسع من ذلك ، فيقولون « مأكول حِمْيَرَ خيرٌ من آكِلها » ، اي رعيتها خير من واليها ، وقال الممزّق للنعمان

وإن كنت مأكولاً فكن خيرَ آكل ... وإلاّ فأدركني ولما أمزّقِ

فقال النعمان «لا آكُلُك ولا أوَكّلكَ غيري»، وقال الخليل « الواو في مَرْئي أكلتها الياء لأن أصله مرؤى » وعهدتُ لفلان عهداً فسلم ولم يؤكل ، ومن هذا القبيل ما نُقل عن عليٍ كرم الله وجهه انه قال « إنما أكلتُ يوم أُكلَ الثور الأبيض » ومنه « تأكّلَ الرعية ، واستأكلتهم » إذا ظلمهم وصادرهم ، وقال الشاعر

لعمري لنعم الحي يدعو صريخُهمُ ... إذا الجار والمأكول أرهقه الأكل

تفسير كلمة « يأكله » بكلمة « يتولى أمره ويتصرف فيه »

وبكل هذا ونحوه يصحح لنا أن نفسر كلمة « يأكله الذئب » وهو « شمعون » ، يتولى أمره ويتصرف فيه ، ويفعل فيه ما يشاء وما يريد ، على نحو ما تقدم من الأمثلة السبعة

وقبل الختام لا بد لي أن أنبه حضراتكم بأن ما قلته لا يعبر إلا عن رأيي الخاص الذي يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته والله أعلم

وما أن انتهى النجم الرومي الفارابي من خطابه ونزل عن منبر الخطابة حتى عقبه الشيخ الزيدي الصنعاني وقال

تسبيك القول بأن « الأكل » هو الاستيلاء والإضرار وبأن « الذئب » هو شمعون في المجاز

بينما أخي النجم الروسي الفارابي يخطب مبينا ماهو «الأكل» ، ومن هو «الذئب» في هذه الآية ، سمعت رنة صوت من خلفي من بعض الاخوان الحاضرين يقول إن هذا البيان عما هو الآكل ومن هو الذئب ، بيان « مسلوق » يحتاج «للتسبيك» ولذلك ترون اني قمت بين أيديكم لتسبيكه قائلا إن « الأكل » كثيراً ما يطلق في الكلام على معنى مجازي ، كما في قوله تعالى ﴿ ولا تأكُلُوا أمْوالَهم إلى أموالِكم ﴾ (٤ ٢) ، و ﴿ لَيَأكلون أموالَ الناسِ بالباطِلِ ﴾ (٩ ٣٤) ، وقول بعض العرب « اكلوني البراغيثُ » فهذا وأشباهه لم يقصد به حقيقة الأكل ، وإنما قصد منه الاستيلاء والإضرار والأذى

ثم « الذئب » مجاز عن « شمعون » ، وشمعون معناه « سمعان » ، حتى أن العرب

ينطقون به كذلك ، وسمعان صفة مبالغة ومعناه كثير السمع ، ولا يوجد في الانسان من سمع مثل الذئب ، فقد قالوا « إن الحيوان أرقى منا حاسيات حيوانية ، فالإنسان لا يشم مثل الكلب، ولا يسمع كالذئب ، ولا ينظر كالنسر والهدهد » فإذن يجوز أن يكون معنى « بأكله الذئب » ينطوي بلنبه « الحمار المرقع » ونصره الحيوان اللابس لباس الإنسان ، وقد يوجد اليوم في بعض أفراد الإنسان ما يشبه بعض أفراد إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، وقد قيل « من شأن الذئب أكله أخاه » ، وقال أبو العلاء المعري

يعدو على خله الإنسان يظلمه كالذئب يأكل عند الغرة الذئبا

فسمعون ا جمع مع إخوته امره على إلقاء أخيه في غيابة الجب ، ثم كان هو القائم بهذا الأمر ، وبظني ان ابا العلاء المعري يشير لذلك في قوله

ولكن من اعطاهم اجمر افترى وا لقي مثل السيد أحمع وافترا

فالسيد الذئب ، واجمع اتفق مع إخوته على الإلقاء وافترا أبدى أسنانه

رد القول أن الأرض التي كانوا يرعون فيها مدأبة

قالوا « إن الأرض التي رعى فيها إخوة يوسف كانت مذابة » ، وهو بعيد مخالف للعادة ، لأن العادة ان الرعاة يبعدون عن الأرض التي تكون مدأبة لعمرها « وأرض الله واسعة فلاها »

ومما قرره علماء التاريخ المحققون كابن الأثير وسواه ، ان سن يوسف كانت إذ ذاك (١٧) سنة ، وصدر به الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن الحسين ، وظاهر أن من كان كذلك لا يخاف عليه من الذئب الحقيقي ، ولكن من الذئب المجازي، وهو الرجل القوي الشرس ، فتكون معرفة المخاطبين بعمر يوسف قرينة على

هذا التحور ، كيف لا والذئب ضعيف في نفسه على حسب ما نتعلمه من قول الشاعر ، يصف ضعف نفسه ، وما آل إليه كبر سنه وهرمه

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي، وأخشى الرياح والمطرا

خص الذئب بالذكر ، لأنه

رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مدأبة

ولكن « الطبرسي » في (مجمع البيان) أجاب عن هاتين الملاحظتين بقوله « قيل كانت أرضهم مدأبة ، وكانت الذئاب ضارية ، في ذلك الوقت » وقد علمت أننا بما حققنا في غنية عن هذه التخرصات ، « وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » هذا وكثيراً ما يطلقون لفظ الذئب على الرجل الذي يخطف أو يسلب الشيء ، قال سيف الدولة بن حمدان في « الحدوثاني » وهو أحد وجوه المعرة وأعيانها ، وكان سلاّبا نهاباً

ذئب رآه مصلياً فإذا تمثّل لي ركع
يدعو وجلّ دعائه ما للفريسة لا تقع

على ان معنى قول العلماء « الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز أو الكناية إلا بدليل وقرينة » ، هذا القول لا يريدون به ان كل ما أمكن أن يراد به الحقيقة ، يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه ، انه مجاز أو كناية ، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي

هذا هو رأيي عطفاً على رأي أخي النجم الروسي القارابي حفظه الله ، فان

أصاب الحر فيها ونعمت ، وإلا فما أنا أول سار غره قمر ، وكم من مثلي يخطىء ، ويرحم الله أبي آدم

من أنكر على مفسر رأياً فكأنه أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم

على أني أنا « لم اخترع البارود » ـ وهو مثل يقال لمن يأتي أمراً مسبوقاً إليه ـ بل إني كنت رأيت قريباً مما ذكرت في تفاسير السيد « الألوسي » والسيد «حسن صديق » و « الطبرسي » في (مجمع البيان) ،وعلى كل حال فإني لا أريد أن أحملكم أيها السادة على رأيي ، كما اني أرجوكم أن لا تحملوني جبراً على رأي غيري من المفسرين ، فإن أنكر عليّ منكر ، لأني خالفت المفسرين ، فليعلم انه يجب عليه أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ، لأنه ما من مفسر متأخر ، إلا قد خالف في مواضع كثيرة رأي جميع المفسرين قبله ، فالمخالفة امر مشترك بيني وبين كل مفسر قبلي دون استثناء ، فالتسليم لهم لمجرد انهم أموات ، دون التسليم لي لمجرد كوني حياً أرزق ، ليس من الإنصاف في شيء ، على أنكم أيها السادة سمعتم أن الأخ النجم الروسي القاراني ، قد سبقني إلى هذه الفكرة ، وأنا لست إلا مؤيداً له فيها ، والله تعالى يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، والسلام عليكم

ثم نزل الشيخ الصفاني عن المنبر ، فقام إليه النجم الروسي وصافحه، وشكره على مناصرته لرأيه

وتكلم بعد ذلك العلامة التدمري [١] فقال

جواز كون الذئب ذئباً معهوداً عائشاً أو حاضراً

كما سمعنا يعقوب (ع) يقول (وأخاف ان يأكله الذئبُ)، فيجوز أن

(١) نسبة الى بلدة تدمر من بلاد الشام (سوريا)

يكون أراد من « الذئب » ذئباً معهوداً عهداً ذهنياً بينه وبين مخاطبيه ، فالألف واللام فيه نظيرها في (إذْ هُمَا في الغارِ) (٩ ٤١) ، أو معهوداً عهداً حضورياً فالألف واللام فيه نظيرها في قوله تعالى ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾ (٥ ٤) ويجوز أن المعهود على كل هو «شمعون» المتجوز إليه بلفظ الذئب ، فان كان شمعون غائباً وقت مكالمة إخوته لأبيه ، فالعهد ذهنيّ ، وان كان حاضراً في الجلسة ، فالعهد حضوري ، تقول ﴿ واخاف أن يأكله الذئب ﴾ ، ولكنه ليس من ذئاب العالم الباطن ، ولا من الذئاب الساكنة في الآجام ، وانما هو من سكان الخيام وكأني بلسان حال يعقوب (ع) تقول (وأخاف ان يأكله الذئب) الذي تقمص صورة الإنسان ، وتمثل في جسم طويل القامة يمشي على رجلين فقط ، وأي غرابة في أن أحيل ذلك التقمص ما دام ذلك الابن والذئب سواء في حب الشر والميل الى الأذى ؟ وما دامت الصوره الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية ، والصفات المقومة الماهية ؟ إن العشرات من الذئاب ، لا تريق في عشرات من السنين من دم الانسان مقدار ماأراق هذا الابن من دم أهالي مدينة شكيم على ذمة التوراة(تك ٣٤ ١ — ٣١) ، قد يكون الذئب الحقيقي في قتله الانسان والشاة، أجل مقصداً من الانسان الذي له روح الذئب ، لأن الأول يطلب عيشه ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، وأما الثاني فانه يريق دماء الناس للتشفي والحسد وكبرياء النفس !

هذا هو المعنى المجازي لكلمة « وأخاف أن يأكله الذئب » ، ولقد كان كامناً في نفسي منذ القديم ، الى أن ذاكرت فيه بعض الناس ، فصادفت منهم جموداً أعقبوه جحوداً فاصطدمتُ بمعارضات شديدة من جراء جمودهم وجحودهم ،

فسكت ، وبقيت هذه الفكرة مستترة في ضميري الى هذا اليوم الذي اتحفني فيه الدهر بالتشرف بكم ايها السادة ، وتذكرت قول القائل

وقد وجدتُ مجالَ القولِ ذا سَعةٍ   فإن وجدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ

فأبرزت ذلك الضمير المستتر لحيز الوجود ، لا سيما واني أرى روح التفاهم سائداً بيننا ، وقد راب بعض الاخوان المحققين سمعي ونطق بما تلبث به عليهما ، وصممت به صوتي لصوتهما

كيف فات المفسرين الذهاب للمعنى المجازي في الاكل والذئب وشواهد على ذلك

وأتذكر ههنا أن سائلي سائلاً قائلاً إن جميع المفسرين أو أكثريتهم الساحقة لم يفهموا من كلمتي « الذئب » و « أكله » سوى المعنى الحقيقي ، وأما المعنى المجازي فلم يخطر لهم على بال ، فلو كان المعنى المجازي مراداً لاقترن بقرينة معينة ، وعلى الأقل مانعة ، وكان المفسرون اهتدوا اليه ، فكيف يقال بجواز الذهاب للمعنى المجازي ؟ فاجبته بأن هذا ليس بدعاً في نوعه :

فأولاً — حكى المؤرخون ان ليلى الأخيلية دخلت على الحجاج ، فمدحته بأبيات بليغة ، وقعت لديه موقع الاستحسان ، وسُرّ بها أيّما سرور ، حتى قال « قاتلها الله ! ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلتُ العراقَ غيرها » ثم قال « يا غلام ، اذهب الى فلان — يريد وكيل خرجه — فقل له اقطع لسانها » ، قال فأمر باحضار الحجام ، فالتفتت إليه وقالت « ثكلتك امك ! أما سمعت ما قال ؟ ! إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة » — فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، إذ همّ بقطع لسانه ، وقال « ارددها » ، فلما دخلت عليه قالت « كاد — وأمانة الله — يقطع مقولي » ، فأعطاها الحجاج مئة ناقة ، (كذا في مصارع العشاق الجزء التاسع)

ثانياً — ورد في الحديث « أسرعكنّ لحاقاً بي أطولكنّ يداً » ، فصار الأرواح الشريفات يقسن أذرعهن ، ليعلمن من ستموت بعد النبي ﷺ ، فحيث جاز على نساء النبي ﷺ أن لا يفهمن المعنى المجازي ، وهو طول اليد بالصدقة إلا بعد موت صفية (ص) ، وحيث وكيل الحجاج العربي الصميم لم يفهم المعنى المجازي من كلام الحجاج يجوز للمفسرين أن لا يتنبهوا للمعنى المجازي الذي قلما تجوز إرادته من لفظ (يأكله الذئب) ، لاسيما والقرينة ليست لفظية ، بل حالية، وهي من الخفاء بمكان

ثالثاً — هذا « عديّ » بن حاتم الطائي من صميم العرب في عصر تنزل القرآن لم يفهم المراد من « الخيط الابيض والخيط الأسود » فحملها على المعنى الحقيقي لا المعنى المجازي، وهو الليل والنهار ، وفي البخاري في صحيحه انه أخذ عقالاً أبيض، وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال « يارسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين ، ـ قال إن وسادك إذاً لعريض ، أن كان الخيط الأبيضُ والخيط الأسودُ تحت وسادك »

رابعاً — لم يفهم بعض الصحابة كيفية التيمم من آيتـه ، فمسح جميع بدنه بالتراب ، كما حكاه البخاري أيضاً ، فاذا كانت الصحابة ـ وهم من العرب الأولى ـ لم يفهموا بعض ما فى الكتاب الكريم ، فهل نستغرب على المفسرين أن لا يفهموا المعنى المجازى من الذئب وأكله ،

وسيأتي فى المحاورات على الآية (٩٣) مايزيد هذا الموضع وضوحاً وتأييداً ، هذا ما أفهمه نا موافقة للأخوين الفاضلين النجم الروسي القازاني والشيخ الصنعاني، ومما هو جدير بالسرور ان كثـــيراً من شبّان بلدنا « تدمر » الكرام استحسن هذا المسير استحساناً عظيماً ، وعدّه من المواهب الربانية ، التي تُحدِّثُ بها علماء هذه

الأمة المحمدية ، فالحمد لله على دلك، على انكم أيها السادة ، قد سمعتم هدا المعى اللطيف من أحويّ الكريمين ، فأنا لست بأبي عدرته :

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا　　بكاها فقلت الفصل للمتقـــدم

وهنا نزل العلامة التدمري عن المنبر في وسط عاصفة من التصفيق التشديد ، وكلمات الاستحسان والاعجاب

ثم علق رئيس المؤتمر على حطاب العلماء الثلاثة قائلا « أنا لا أريد أن أثبت هدا القول أو أنفيه، وللقارىء أن يميز بين الغث والسمين ، وله وحده الرأي الأخير»

قميص العلامة

آ (١٨) ﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً !! فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة عشرة فقام العلامة البيروتي وقال

(وجاءوا على قميصه) أي فوق قميصه (بدم كذب) اي ذي كذب ، ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ونحوه « فهنّ من حودٍ وأنتم من بُخلٍ » ، (قال) أبوهم بلسان الرد والإنكار إن الدئب لم يأكله ، (بل سولت) من السول ، وهو الاسترخاء أي سهلت (لكم أنفسكم أمراً) عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونتموه في أعينكم ولقد أعتقد ان تحت الرماد شيئاً هـــدا دخانه ، فأنتم قد عملتم معي ومع

ولدي عملاً سرياً بأبد حفية يلعب من وراء الستار ، وترمي الى عاية بعيدة ، ولأمر ما حدع قصير أبعه

لي حيلة فيمن ىىم ولىس في الكداب حيلة
من كان يخلق مايقول فحيلتي فيه قليلة

(فصبر جميل) وهو الذي لا شكوى فيه الى الخلق ، وقيل أراد لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ، (والله المستعان على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه ، أو والله المستعان على كشف حقيقة ما تصفون واتضاح حلية الحال في المستقبل ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من روح حزينة كئيبة ، وحتى ليستطيع القارىء أن يلمس إحساس يعقوب

هذا وقد استدل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم له ، ومما قواه على اتهامهم انهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فكأنه لقنهم العلة ، والبلاء موكل بالمنطق ، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد تذكر هنا وعدهم له بحفظ يوسف فردد في ضميره معنى قول القائل

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عيناً ولا أثرا
فمن يعصم في الدنيا أخا ثقة فإنه بشر لا يعرف البشرا

(وجاءوا على قميصه الخ)

— ١ —

وقال العلامة الطرابلسي

القميص والدم

كان اخوة يوسف نزعوا عنه قميصه الموشى الذي عليه ، وأخذوه وطرحوه في

البئر وذبحوا تيساً من المعزى ، وغمسوا القميص في الدم ، وقد صنعوا كل هذا في « دوثان » ثم قاموا منها الى « سيلون » حيث أبوهم ، وقالوا له ما ندم من معذرتهم الملفقة ، وختموها بقولهم مع إننا نتكلم معك يا أبانا بحقيقة وثيقتُها معنا ، وتلك الوثيقة هي هذا الذي تراه ـــ قالوا ذلك ، وأبرزوا قميص يوسف ملوثاً بالدم ، وقلوبهم تخفق لما يتوقعونه من عدم تصديق أبيهم لهم ، وهم يفتكرون ماذا عسى يكون وراء هذا العمل الرهيب ـــ وأما أبوهم فلما رأى ذلك حزن حزناً لا يحزنه إلا أب على ابن له يتفرس في مستقبله كل رقي ونجابة ، وصار كأنما صب فوق رأسه ماء غالياً

وهنا لا بد لي ان أسمعكم بعض الحواشي المتعلقة بهذا البحث

القميص

الحاشية الاولى ـــ إن هذا القميص الذي كان على يوسف هو قميص ملون قد صنعه له أبوه خصيصاً لأنه أحبه أكثر من سائر بنيه ، إذ كان ابن شيخوخته ، وقد قصد يعقوب أيضاً بذلك « الثوب » ان يوسف سيكون رئيس آله ، وانه سيكون كاهنهم بدلاً من البكر « رأوبين » فضلاً عن معنى الإكرام ، لأن الثياب الملونة كانت من ملبوسات المكرمين من الفلسطينيين ، كما ظهر ذلك من الرسوم على قبور بني حسان

دم القميص

الحاشية الثانية ـــ هذا الدم الذي كان على قميص يوسف كذب ، فليس هو كالدم الذي جاء به « معاويه » لأهل الشام على قميص « عثمان » (ض) بل كان ذلك الدم ، دم عثمان حقيقة ، وقد قتل بيد أثيمة حقيقة ، ولكن في حادثة

ادّعي زوراً أن يوسف افترس ، افترسه سبع ، وأراق دمه على قميصه ، وأن هذا الدم الذي على القميص دمه ، وكل ذلك لم يكن "

لسان حال يعقوب عندما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم

الحاشية الثالثة — كأني بكلام اساء يعقوب قد وقع على أذن أبيهم كوقع النار على سويداء القلب ، وكأني به قد أخذ القميص وجعل يقلبه وينظر اليه ، ولسان حاله يردد معنى قول الشاعر

ليت السباع لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن السباع لتهدا عن فرائسها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا

وكأن هذا القميص هو الذي عناه بعضهم يهجو بخيلاً بقوله

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب

حجة القميص التي لهم صارت عليهم

الحاشية الرابعة — قيل إن يعقوب (ع) أغرق في التأمل ، فرأى القميص غير ممزق ، فقال « يا للعجب ! هل يمكن للذئب أن يأكل ولدي بدون ان يمزق شيئاً ما في القميص ؟ » فهم اعتبروا ان هذا القميص الملوث بالدم ، هو كوثيقة بيدهم ، يعتمدون عليها في صحة دعواهم ، ويتمركزون عليها في دفع الشبهة عنهم ، ولكنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، إذ لم يمزقوا القميص ، فبعدما حسبوه حجة لهم ، صار حجة عليهم ،

اذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يقضي عليه اجتهاده

البرهان الباطل

الحاشية الخامسة ــ جاءوا على قميصه بدم كذب « كشاهد » يثبتون به زعمهم ، ولكنه شاهد زور ، و « كبرهان » يصححون به دعواهم ، ولكنه برهان باطل ، و « كوثيقة » يعتمدون عليها ولكنها وثيقة مزيفة .

حقاً إن هذا العمل مما يضحك الانسان فى ساعــــة يجب فيها البكاء ، لأنهم بابقائهم على القميص وعدم تمزيقهم له ، لم يحسبوا حساب هذه الأكذوبة ، فكان فعلهم هذا أوجب للحجة عليهم من الحجة لهم

مباحاة يعقوب الذئب الحقيقى والمجازى

الحاشية السادسة ــ كأن من يحملون « الذئب وأكله » على معناه الحقيقي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرح بهذه المباحاة

مسكين أنت أيها « الذئب » ، يلصق بك بنو الانسان ما أنت منه بريء ، يتهمونك وهم المتهمون ، نعم إنك حيوان أعجم ، ولكن تلك العجمة خير من النطق الكاذب ، ما أصدق عجمتك ! وما أكذب نطق الناس ! نعم ان الله تكفل بأنه ما من دابة في الأرض إلا عليه تعالى رزقها ، لكن هل كتب الله التضحية بولدي فى سبيل رزقك ؟! كلا وحوادث الزمان المستقبلة ستكشف لنا عن جلية الأمر ، فان الزمان كشاف ، ثم لكأنه خاطب نفسه بقوله

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبــار من لم تزود

ثم لكأن من يحملون « الذئب وأكله » على المعنى المجازي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرح بهذه المباحاة

أيها الذئب المستأنس ، قطعت الرحم ، أسأت إلى نفسك وسيرتك ، ووضعت في تاريخك نقطـــة سوداء ، أسأت للأب والأخ ، وللحالة في قبرها ، فهي لذلك تتوجع عند « إفراتة » ، وتصرخ وتولول عند « بيت لحم » ، أيها الذئب الضاري ، الذي تستره الصورة البشرية ، لماذا تفترس هذا الحمل الوديع ؟ لماذا أيهـا الذئب « الأصفر » تنقض على هذا الحمام « الأبيض » ؟ ـ لأيٍّ هذه الشراسة والإحلال بأمن المستأمن ؟ أما يكفيك افتراسك كل ذكر من أهل شكيم (تك ٣٤ ٢٥) آه ، صدق من قال من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر تترقرق فيها ، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا يسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه ، رأيت حجراً صلداً من أحجار الصوان ، لا ينض بقطرة من الرحمة ؟ فهؤلاء الناس سباع مفترسة ، وذئاب ضارية ، يأكلون من دنا منهم ، أو وقف في طريقهم غير حافلين به ، ولا آسفين عليه ، أصلح الله حالهم ، وحمانا من أن يتم علينا محالهم ، آه إلى الماء يغص من بعض بلقمة ، إلى أين يغص من بعض بماء ؟

الدم نفس أو جسد

الحاشية السابعة — يقال للدم « نَفْسٌ » ويقال لليابس منه « جَسَد » ، ومنه قول الفقهاء « ويُعفى عمّا لا نَفْسَ له سائلة » أي دم ، وقول بعضهم وهو من هذا الصدد الذي نحن فيه

يا قولهم لقد رموني بالذي انا في	سبيل إبطاله أصبحتُ مسموناً
برئ منهم وممــا قد رميت به	براءة الذئب من نفْس ابن يعقوبا (١)

١) اي بدمه والنظم لرئيس المؤلف

السجع والترسل فى القرآن

الحاشية الثامنة — جملة « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (تذييل مرسل) للآية السابقة المسجوعة ، وهذا أسلوب لطيف كثير الوقوع في كتاب الله ، كأنه تعالى يُخيّر القارىء بين أن يراعي طريقة السجع ، فيقف على رأس الفقره المسجوعة وبين أن يراعي طريقة الترسل ، فيقف حيث تم الكلام ، ولو لم يكن سجع

وفى القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك ، إذ علم سبحانه وتعالى أن قوماً يحبون طريقة السجع ، وآخرين يميلون لطريقة الترسل ، فأنزل كتابه بصورة تحتمل الطريقين ، وتكفل كلا المذهبين لختار القارىء لنفسه ما يحلو فى ذوقه ، ومن هذه الشواهد ما يلى

١ — ما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كُتِبَ عليكم الصيام ، كما كُتِبَ على الذين مِن قبلِكم ، لعلكم تتقون ، أياماً معدودات ﴾ (٢ ١٨٣ و ١٨٤)

٢ — ما في قوله تعالى ﴿ كذلك يُبَيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ ٢١٩ و ٢٢٠)

٣ — ما في قوله تعالى ﴿ ألم تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفّوا أيديكم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَون الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً ، وقالوا ربّنا لِمَ كتبتَ علينا القتالَ ، لولا أخّرتنا إلى أجلٍ قريبٍ ، قل متاعُ الدنيا قليلٌ ، والآخرة خيرٌ لِمَن اتقى ، ولا تُظلمون فتيلًا ، أينما تكونوا يُدرككُمُ الموتُ ، ولو كنتم فى بروجٍ مشيّدةٍ ، وإن تُصِبهم حسنةٌ يقولوا هذه

مِن عند اللهِ ، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هذه مِنْ عِندِكَ ، قُلْ كلٌّ مِنْ عنـــدِ اللهِ ، فما لِهَؤلاءِ القومِ لا يكادون يَفْقَهون حديثاً ؟ ﴾ (٤ ٧٦ و ٧٧) فقوله ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ هو من ذيول ما قبله ، فهو مرتبط به ، فمن شاء مراعاة المعنى والجري على مذهب الترسل وقف عنده ، ومن شاء مراعاة السجع وقف عند رأس الآية « فتيلاً »

٤ ـ ما في قوله تعالى ﴿ وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ إلى الناسِ يومَ الحجِ الأكبرِ أنّ اللهَ بريءٌ من المشركين ، وَرَسُولُهُ ، فإن تُبْتُم فهوَ خيرٌ لكم الخ ﴾ (٩ ٣ و ٤) فقوله ﴿ ورسولُهُ ﴾ هو ذيل للآية الثالثة المسجوعة ، ولكنه مكتوب مع الآية الرابعة ، فإذا نظرنا للمعنى ، ألحقناه بما بعده وكنا ساجعين

٥ ـ هكذا كلمة « من دونه » في قوله تعالى ﴿ قال إني أُشهِدُ اللهَ ، واشهدُوا أني بريءٌ مما تُشرِكون ، مِن دونه ، فكيدوني جميعاً ، ثم لا تُنظِرون ﴾ (١١ ٥٣ و ٥٥)

٦ ـ ومثله كلمة ﴿ كأنْ لم يَغنَوا فيها ﴾ من قوله تعالى ﴿ وأخذَ الذينَ ظلَموا الصَّيْحَةُ ، فأصبحوا في دِيارِهم جاثمين ، كأنْ لم يَغنَوا فيها ، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا ربَّهم ، ألا بُعْداً لثمود ﴾ (١١ ٦٧ و ٦٨) .

٧ ـ ومثله كلمة ﴿ مَن يأتيهِ عذابٌ يخزيه ومن هو كاذبٌ ﴾ من قوله تعالى ﴿ ويا قومِ اعمَلُوا على مكانتِكُم ، إني عاملٌ سوفَ تعلمون ، من يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ ومَن هُوَ كاذبٌ ، وارتقبُوا إني معَكم رقيبٌ ﴾ (١١ ٩٣ و ٩٤)

٨ ـ كلمة « زُخْرُفاً » في قوله تعالى ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أبواباً وسُرُراً عليها يتَّكِئُونَ ، وزُخْرُفاً، وإنْ كلُّ ذلك لمَّا مَتَاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عند ربِّك للمتقين ﴾ (٤٣ ـ ٣٤ و ٣٥)

٩ ـ كلمة « وبالليلِ » في قوله تعالى ﴿ وإنَّكُم لَتَمُرُّونَ عليهم مُصبِحين، وبالليل ، أفلا تعقلون ؟ » (٣٧ ـ ١٣٧ و ١٣٨)

إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله الكريم ، فارجع إليه إن شئت المزيد

القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف

الحاشية التاسعة ـ قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من الحيل على أبيهم ، وبعضهم على بعض ، لنكون على بصيرة من أعمالهم معنا ، وعلى حذر من حيلهم علينا ، لأنهم إذا كانوا يعملون هذه الأعمال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم ؟!! وأقرب الشواهد على حيلهم ، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز ، بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية، حتى كان ما كان بكيدهم وحيلهم من هدم صروح الباباوات والملوك المستعبدين لهم في أوربا ، وإزالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة ، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم بقية الدولة النصرانية من دول أوربا ، باسم الحرية والمدنية ، كما أن بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية كالكرة اللعب في أيديهم ، إذ أخذوا يسعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها ، وحملها على عقوقها ، بعد ما كانت فرنسة تدعى « بنت الكنيسة البكر » ثم

حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر ؛ مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني ، وتداخلوا كثيراً مع « الاتحاديين » من العثمانيين ، ثم أيام « الحرب العالمية » تداخلوا مع الحكومة الانكليزية وساعدوها بالمال ، ليكون لهم « وطن قومي » في « بيت المقدس » ويقيموا فيه « ملك إسرائيل » ويجعلوا « المسجد الأقصى » معبداً خاصاً لهم ، والخلاصة إن شأن هؤلاء الناس الدهاء والختل والمحَال دائماً وأينما وجدوا ، وعلى كل من عاداهم !!!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع أبناء العم " الصهيونيين في فلسطين " وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الاخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيهم ، بل إذا لم يسلم أبوهم وأخوهم من شرورهم ، فكيف نرجو أن نسلم نحن (العرب) اليوم من كيدهم ؟!

يميناً — ولا حاجة لليمين — إن من فسدت فطرته ، حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه ، لا يرجى منه خير للبعداء والأبعدين ، ويميناً إن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين ، فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين .

انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا نبوة يعقوب والرد عليهم

وإلى هذه المناسبة — والشيء بالشيء يذكر — نذكر للقراء الكرام انتقاداً كان ورد عليّ من بعض « دعاة النصرانية » وهو قوله (إذا نحن المسيحيين كاليهود جميعاً لا نقول نبوة يعقوب ، ولعمرنا لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أيها المسلمين الأعزاء لكان على الأقل أثّر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده العشرة الصليبيين)

هذه ملاحظة ذلك البروتستاني ، وأما الفقير فإني أحتج بأن الرسل (ع) لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحـــد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هدايه التعليم والحجة ، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ، ولا من كان من أقاربهم ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس إليهم فى النسب ، وأحبهم إليهم في المعاملة ، الدنيوية ، فالأنبياء هداة لا جبارون ، وأدلة خير لا قاهرون هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية ، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله ، وأما قاعده المسيحيين ـ بعد ابتداعهم فى الدين اعساراً من تاريخ مقررات رنطية ـ فهي كقاعدة وثنية العرب من اتخاذ أولياء من العباد كالمسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين ، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد ، والاشقاء والإسعاد ، والسلب والإمـداد ، لا في مجرد التبليـغ والإرشاد ، قياساً على ما يعهـدون من الأعوانين والمقربين عنـد الملوك

محاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم

الحاشية العاشرة ـــ كأني بيعقوب (ع) بعد ما سمـع الخبر السوء عن ولده المحبوب شعر برعشة مـلأته من قمة رأسه إلى اخمص قدميه ، ثم سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف له فيه عين ، ولا ينبض له عرق ، ولا يخفق له فيه قلب ولا يتحرك له فيه خاطر ، ثم لكأني به قد التفت لأولاده وقال آه لقد آلمتموني في أعز شيء لدى إني لأعجب لـكم ، بأخـذون ابني في غمره النهار ، وتأتون بنعونه إليّ فى ظلمة الليل ، ، واعجب من هذا أنـكم تبكون، كأن عبرات العيون

ملك إرادتكم ، وأعجب من هذا وهذا أنكم أخذتموه بحجة أنه « يرتع ويلعب » وما أرى ذلك إلا قد صار وقفاً عليكم ، وأما هو فقد استخدمتموه عندكم كحارس ، يكون قعيد خيمتكم ، وحِلْسَ فسطاطكم لا يفارقه ، شأن كل من تسنده هذه الوظيفة الفائقة !! وأعجب من هذا كله جئتكم بثوبه ملطخاً بالدم ، تدعمون بذلك صحة دعواكم ، كأن الله القدير لم يخلق دماً سوى دم يوسف ، وكأنكم تظنون ان البلاهة قد بلغ ممن تخاطبونه مبلغه من الناس ، حتى أردتم تتاجرون بعقول العقلاء !! غريب والله أمركم ، تحملون على عاتقكم حفظه قائلين « إنّا له لحافِظون » ثم توجهون عليه وظيفة « محافِظٍ » لكم ، لا محافَظاً عليه من حاسكم

غريب والله ، تسجلون على أنفسكم الخسران إنْ أكله الذئب وأنتم عصبة ثم اليوم تقولون « أكله الذئب » ، فكيف رضيتم لأنفسكم هذا التسجيل ؟!

لفظ القميص في القرآن

الحاشية الحادية عشرة — لم يذكر لفظ القميص في كتاب الله تعالى إلا في هذه السورة ، والغريب أنه ذكر فيها في ستة مواضع ، من مواضع القصة المهمة ، الأمر الذي يحيل إلينا أن « القميص » ركن من أركان هذه السيرة

هل حقق يعقوب صحة افتراس الذئب ليوسف

الحاشية الثانية عشرة — إذا قيل لماذا لم يطلب يعقوب من أولاده ما بقي من يوسف عند قولهم له « فأكله الذئب » ؟ فالجواب يحتمل أنه لم يرد ان يشدد عليهم بهذا الطلب خوفاً أن يذهبوا ويقتلوه فعلاً

هذه هي محاضرة العلامة الطرابلسي ، وكان الحاضرون يصرحون عند كل حاشية من هذه الحواشي بكلمة « موافق » ، وكانت علامات القبول والاستحسان بادية على وجوههم

(قال بل سوّلت لكم الخ)

— ١ —

قال نور الهدى الصيداوي

حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف

كانوا حملوا لأبيهم نعي ولده ، وبأنطوا شراً بذاك الخبر السيء ، فما أتوا على تمام حديثهم (الموضوع) حتى انقبضت نفسه واتّقد حزنه ، وتمعّر وجهه ، وتولاه الكدر ، وأخذ الذهول منه مأخذه . فلبث صامتاً هنيهة ، كأنه أصيب بصدمة ، وأطرق إلى الأرض وسكن في إطراقه سكوناً عميقاً ، لا تتخلله حركة ولا نأمة ، ثم صار يصعّد نظره فيهم ويصوّبه ، وأخيراً نظر إليهم نظرة كشف بها أسرار قلوبهم ، كما يكشف الإشعاعي (١) بأشعة « رونتكن » ما وراء الجوامد ، نظر إليهم نظرة وقد ادرك أن في الأمر سراً ، جعله يقف تجاه أخبارهم موقف المرتاب ، نظر إليهم نظرة وهو يتنفس الصعداء وينظر إلى وجوههم ويراعي حركاتهم . نظر إليهم نظرة وقال سواء عليّ أجئتم بهذا الثوب الملطخ بالدم ، أم لم تجيئوا به فلا اصدقكم ، إذ ليس لكلامكم نصيب من الصحة ، بل هو خارج من مصنع التزوير ، وقصتكم كلها في وجوهكم ، وليس أدل على كذبكم من هذا القميص

١) الاشعاعي العالم الاخصائي في الأشعة

غير المفرق ، ألم اقل لكم إني « ليحزنني أن تذهبوا به ؟ » فها أنا ذا وقعت فيما تخوفت منه ، تتركون الناقة بحملها، وترجعون إليّ بخفي حنين ، « بئس العِوضُ مِن جَمَلٍ قيْدُه »

(قال بل سولت لكم الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الرشيدي (١)

عدم انطلاء الكذبة على يعقوب

لم يصدقهم أبوهم لأنه يعرف رؤيا ابنه وتأويلها ويعلم أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق وشيء من هذا لم يحصل بعد ولكنه يحتاج إلى وقت مديد وعمر طويل ، ولذلك حيلتهم لم تنطل عليه ، بل قال لهم إنه يلوح إلى أن أنفسكم سهلت لكم أمراً ، أزلتموه بيوسف ضحية حبي له ، ولولاي ولولا حبي إياه ما رأى هذا البلاء الذي أحاق به

صبر يعقوب الجميل

لقد صبر يعقوب (ع) صبراً جميلاً على تلك المصيبة ، فلم يَصِح ، ولم يمزق ثوبه ، ولم يَشْكُ أمره لمخلوق ، ولم يجزع ، ولم يملأ الدنيا بكاء وعويلاً ، كما طبع حشويوا المصريين ، لأن ذلك كله ينافي ما أخــــذه على عاتقه من «الصبر الجميل» وناقض ما حكاه الله عنه في قوله تعالى « فهو كظيم »

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية

لقي يعقوب من الهم والحزن ما لا يستطيع أن يحتمله غيره ، ولكنه استطاع أن يفي بوعده الذي أخذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ، لأنه نبيّ حليم ، ومن كان مثل يعقوب نبياً وصفياً ، فهو أهل لهـذا الصبر الجميل ، والله تعالى أرحم من أن يبعد عنه ابنه المحبوب ، ويبعد عنه العزاء

يعقوب يتهم بنيه فيما ذكروه عن يوسف

يقول يعقوب عليه السلام : ﴿ والله المستعان على ما تصفون﴾ يريد بذلك عمل قتلتهم ، ثم يحتمل ان معناه على كشف حقيقة ما تصفون ، أهو صدق أم كذب فإنى فى ريب من صحة ما تزعمون ، ولست أتبين الحقيقة إلا من حوادث الدهر التي يحدثها الله تعالى، والمستقبل كشاف ، ولذلك سأنتظر ما يجيء به الغـــد ﴿ وهو اللهُ فى السمواتِ وفى الأرضِ ، يَعلمُ سِرَّكُم وجَهْرَكُم ، وَيعلَمُ ما تَكسِبُونَ﴾ (٦ ٣) ، ﴿ لكُلِّ نبإ مُستَقَر ، وسوفَ تَعلَمُونَ﴾ ، (٦ ٦٧) ، وقد استجاب الله دعاءه هذا ، فإنه تعالى كشف حقيقة الحال وبين الواقع ، بحيث ظهر ان كلامهم الآن كذب ، وليس من الصدق فى شيء ، ولكن هذا كان بعد نحو (٢٣) سنة

ويحتمل أن المعنى والله المستعان على تحمل أو احتمال ما تصفون ، وقـــد استجاب الله له هـذا النوع من الدعاء أيضاً ، حيث ثبت على صبره احتمل ثبوت الكرام ، ولم يبد منه كلمة ولا فعلة تنافى ذلك

ويحتمل أن المعنى أيضاً والله المستعان على كفاية شر أو تعـديل ما تصفون

فهذا كل ما أملك اليوم ، ولا تنسوا أنكم كنتم قلتم لي « وإنّا له لحافظون » ، فأنا الآن لا أنسى أن أقول لكم ﴿ وإنّ عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾

وقد اقتصر يعقوب (ع) على هذه الكلمة وهي قوله (والله المستعان على ما تصفون) اختصاراً وإيجازاً لأن حال الحزن تتطلب ذلك ، أو إشارة إلى أنه غير عابىء بالخبر المصنوع الذي أتاه به أولاده .

مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه

رأى يعقوب (ع) نفسه وقع في شبه مصيبة ، فالتمس لنفسه تعليلاً يريح باله على ولده ، والمرء ميال إلى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك ، فبعضهم إذا وقع في مصيبة ، هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة ، فيجعل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ، ومنهم من يزيده الافتكار قلقاً ولكنه لا يلبث وإن طال قلقه أن يصل إلى حلّ يتوكأ عليه ، ربما يرى ما يأتي به القدر ، ومن هذا القبيل يعقوب (ع) ، سيما ومعرفته بمواعيد الله له في ولده ومرمى رؤياه ، قد خفف عليه وطأة تلك النازلة .

انتظار يعقوب على تفريط يوسف والرد عليه

كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، بعد ما قال لأولاده ما قال ، اعتزلهم ، وخلا في خيمته وحده ، فتخيل له أن هاتفاً يقول « بذاك أوكتا وفوك نفخ » ذلك لأنك أنت السبب الأول فيما جرى ، أنت الذي نزلت مختاراً على إرادة أولادك أنت الذي انساق لمشيئتهم وانصاع لميولهم ، رغماً عن كونك تعرف درجة العداء الذي يضمرونه لأخيهم ، كيف لا . وقد كنت قلت له (لا تقصص رؤياك

رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » ؟ وقد كنت تعرف أن البرية التي فيها أولادك مدأبة ، وكيف لا وقد قلت أيضاً (وأخاف أن يأكله الذئب) ثم كنت لا تأمن من إخوته عليه ، بل تخافهم ، كما يرمي لذلك قولهم (ما لك لا تأمنا على يوسف ؟) وكنت متهماً لأولادك في أمره كما تشعر به قولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) هذا ما كان يعقوب (ع) سمعه بأذني قلبه من فم الهاتف ، وكأني به قد أجابه بقوله :

أيها الروح الطاهر ، اسمع معذرتي التي أتلو عليك إني استرسلت لأولادي لأنهم حلفوا لي مرتين ، إذ قالوا (وإنا له لناصحون ـ وإنا له لحافظون) والمؤمن السليم القلب إذا سمع صدّق ، فلذلك هان عليّ الاسترسال معهم ، وأيضاً مما خفف عني وطأة الخوف عليه ما أعلمه فيه من المواعيد المستقبلة ، فلهذا جرى ما جرى ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

حال اخوة يوسف عندما عرّض ابوهم بهم بأنهم كاذبون

حينما سمع أولاد يعقوب قول أبيهم لهم (والله المستعان على ما تصفون) فهموا ما وراءه من الاشارة لتكذيبهم ، وعرفوا عنه ، وهم سكوت صامتون لا يبدو حراكاً ، ولا ينبون ببنت شفة ، سمعوا كلام أبيهم فسكتوا عليه ، ولم يتراجعوا عما أشار إليه ، فتحقق انهم غير صادقين في نبأهم ، وردد في نفسه عندئذ معنى قول القائل

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

العمر من قناة شمعون

لو كنت محل يعقوب (ع) لكنت أعطيت ذلك القميص للمقدام «شمعون»!؟ القائد الكبير في تلك المعركة عملاً بشريعة «من قتل قتيلاً فله سلبه»، لأن الأحوال تحملني أظن أن ذلك «الذئب» هو هذا البطل !!

انتقاد يعقوب (ع) على عدم بحثه عن ولده يوسف والرد عليه

وكأني بيعقوب (ع) قد شبه له أنه سمع صوتاً يقول يا يعقوب، ما هو هذا «الصبر الجميل»؟ أتصبر على ظلم الظالمين، وتسكت عن مكر الماكرين وتسمى ذلك صبراً جميلاً؟ مع إن إزالته واجبة عليك، لا سيما في الضرر العائد إلى الغير، ولِمَ تصبر على ذلك؟! وكيف يجوز لك أن تصبر؟! وأنت تعتقد كذب أولادك ولِمَ لا توغل في التفتيش، وتبالغ في البحث، سعياً منك في تخليص يوسف من البلية والشدة، إن كان في الأحياء على ما تعتقد، أو في إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه، ولِمَ لم تطلب منهم جثمانه، أو بقيته ـ على الأقل ـ حتى تصل إلى جلية الواقع وتقف على شخصية ما عملوا؟! هاهي المسافة بين «سيلون» وبين «دوثان» قرية، لا تزيد عن بضعة أميال، وأنت رحل رحالة، متعود على الأسفار، فلم لا تعمل لأجل تمحيص هذا الحادث الجلل ما هو اللازم؟! وعلى كل لعمرنا إن الصبر في هذا المقام مذموم، بل هو صبر قبيح، هو صبر مبني على عدم العناية، ومؤسس على القسوة فكيف تسميه «صبراً جميلاً» وكيف تسمى نفسك محباً لولدك المظلوم الذي ضاع حقه بين ظلم الأعداء وكسل المحبين؟!.

أنت لم تنس رؤيي ولدك، ولم تنس أن الله أوحى إليك فيه، أن الله سيجتبيه

ويعلّمه ويتم نعمته عليه ، وليس مطلق إتمام ، بل كما أتمّها على الإمامين الكبيرين إبراهيم ، وإسحاق ، فبحكم هذه البشائر السماوية، أنت ترى أنه حي يرزق ، فلذلك وبالنتيجة كان يجب عليك أن تسعى في طلبه ، لا سيما أن مكانتك الشخصية ، ومكانة آبائك وبيتك ، مما يساعدك على ذلك الفحص ، فأهل العالم يعرفونك ويكبرونك ويعظمونك ، فلو بالغ في الطلب والفحص ليظهر لك أمره ، وينحل فيه اللغز والأشكال ، ويزول وجه التلبس ، فكيف سكت عن كل هذا ، وأنه غير جائز ، والغريب أنك تسميه « صبراً جميلاً » ؟! يا يعقوب ، أنت تعلم أن كثرة البحث عن الأمور تحق الحق وتبطل الباطل ، ولذلك فالحقيقة بنت البحث وأن النار أخفيت في الحجارة ، فلا تستخرج منها إلا بالمعالجة والقدح ،وان طلبك لولدك من الواجبات ، فالصبر عنه ذميم ، عقلاً وشرعاً وعادة وشهامة ، فكيف تدعو سكوتك هذا « صبراً جميلاً » ؟!

أين ذكاؤك الذي كنت تعامل به أباك إسحاق وأخاك عيسو ، ثم خالك لابان ؟! هلا استعملت جانباً منه في هذه الحادثة ، حتى تتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وحتى تكون قد تمت بعض الواجب في البحث عن ابنك ؟!

هذا ما كأني بيعقوب (ع) كان يسمعه بأذني قلبه ، وكان يحدّث به من حين لآخر

وكأني به بعدما سمع هذا السؤال ، سكت هنيهة ، ثم قال بينه وبين نفسه ، أو على قدر ما يسمع الهاتف

أولاً « إن أولادي أقوياء ، فلا يمكنوني من الطلب والتفحص ، وأني لو أبحث وأفتش لربما يقدمون على إيذاء يوسف وقتله ، تحقيقاً لدعواهم ، فنقع فيما هو أشد وأفسد

ثانياً — إني أعلم وأتأكد أن الله يصون ولدي عن الهلاك ، وأن أمره أخيراً سيعظم ، وسيكون له شأنٌ ذو بال .

ثالثاً — إني لا أريد هتك أسرار أولادي ، ولا أرضى بالقائهم في ألسنة الناس تلوكهم الأفواه كأنهم مضغة .

رابعاً — قريباً — وكل آت قريب — تتغير الوضعية ، ويظهر من الغيب لطف

خامساً — ماذا أصنع ؟ والجرح في الكف ، ومصيبة الجراء كمصيبة الجرم كلاهما فوق رأسي ، آه وأواه ! أنا اليوم في حيرة ، لأن أولادي تعدّوا على أخيهم وأنا ولي الجميع ، و « لانان » حالٌ للجميع ، وبذلك وقعت في حيصَ بيصَ ، فإن لم أنتقم احترق قلبي على ولدي المظلوم ، وإن انتقمت احترق قلبي على هؤلاء الأولاد فماذا أصنع وجرحي في كفي ؟ والضربة على كل حال في رأسي ، وصدق قول الشاعر

قومي هموا قتلوا أُمَيْمَ أخي فاذا رميت يصيبني سهمي
ولإنْ عفوت لأعفون جللًا ولإنْ سطوت لأوهننْ عظمي

وأخيراً لما وقع هــذا الحادث تفكرت ملياً ، فرأيت أن الأصوب الصبر والسكوت ، لا أقل ولا أكثر ، لأني لا أقدر على أكثر من الصبر ، الذي هو ملجأ الضعيف ، ولهذا يحق لي أن أدعو صبري « صبراً جميلاً »

المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف

لم يكن يعقوب (م) هو الذي حزن على فقد يوسف فقط ، بل شاركه في ذلك « إسحاق » لأن يوسف كان حفيده المنظور ، وموضع رجائه في مستقبل الأيام والحازم من صبر على مضض الحياة

وحرىت عليـه أيصاً « ىلهة » حارية أمه ، وكافلتـه ىعدهـا ، وحاصته في حيمتهـا

وىكاه محق أحوه الأكىر « رأوبيں » الدي كاں يرىد أں يرده لأىيه ، وكاں عائناً حيىما أحرحته « السيارة » مں الحب وسـافروا ىه لمصر ، ورحع إلى الحب ، وإدا يوسف ليس فيه، فمرق ثياىه ثم رحع إلى إحوىه وقال «الولد ليس موحوداً وأنا إلى أں أدهب ؟ » (تك ٣٧ ٣٠)

وىكاه أحوه الأصعر « ىيامیں » لأىه شقيقه ، وىعرىته الوحيدة ىعد موت أمه، وأنيسه الوحيد فى حدمة الحاريه ىلهة

وىكاه كل مں عرف أدىه مں أهـــالي فلسطيں ، ولا سىما مں كاىوا اعتنقوا « دیں التوحيد » ىدعوة أىيه وحده عليهما السلام وعلى دلك فقد وحد مشاطروں لأىيه في حرىه وهمه ، ولكں كاں يعقوب قد أحد مں دلك ىالسهم الوافر

(قال ىل سولت الح)

وقال اللودعى الدمياطي

السول والأمر والصىر

أيها السادة الأحىة لى على هده الآية ىصع كلمات راحياً سماعها :

معىى السول

الكلمة الأولى — إں لفطه « سوّلت » لطيفة لىية ، ولكں المعى الدي فيهـا

خارج فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره « الكلام أنثى والمعنى ذَكَرٌ »، يقال سوّلت له نفسه كذا : زينت وسهلت ، وسوّل له الشيطان أغواه ، من « السَّوَل » محركة ، وهو الاسترخاء ، وقد سَوِلَ كفرح ، والأسول من في أسفله استرخاء وسَوّل له سهّل له ركوب العظائم ، ومن غرائب الاتفاق أن هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة

١ — للسامري الوثني ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وكذلك سَوّلَت لي نفسِي ﴾ (٢٠ ٩٦)

٢ — لأخوة يوسف العشرة ، وذلك في قول يعقوب لهم ﴿ بل سَوّلت لكم أنفسُكم امراً ﴾ (١٨ و ٨٣)

٣ — للشيطان « في قوله تعالى ﴿ الشيطانُ سوّل لهم وأملَى لهم ﴾ ، (٤٧ ٢٥) .

احساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالا

الكلمة الثانية — يرى أباهم قال لهم (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فكأنه كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بد ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً ، لأنها لم تتعين عنده صورتها ، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط ، وعمّ عليه أمرها واستعجم

التنكير في لفظ « أمرا »

الكلمة الثالثة — التنكير في « أمراً » إما للتعظيم والتفخيم ، كأنه يقول أمرا عظيما ارتكبتموه من يوسف ، وهونته عليكم نفوسكم ، أمراً ذا بال ، أمراً من نوع الدهاء والخبّ ، أمراً فيه دسيسة ومكر

أو للاىهام ، فكأنه نقول أمراً من الأمور المستورة، أمراً تحت طي الكتمان أمراً لا نعلمه ألا أنتم ونو

معنى الصبر والصبر الجميل

الكلمة الرابعه — معنى « الصبر» تلقي المكروه بالاحتمال ، وكظم النفس عليه مع الروية فى دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين ، دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة اثره حتى لا نغلب على النفس ، وإنما نكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا نسمى صابراً ، وإنما هو فاقد للاحساس فيسمى بليداً ، وفرق بين الصبر والبلاده ، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ، وهو من أهم الفضائل . إذ يحمل الانسان ثابتاً لا نتململ ، فيسليه عن الهم ويخفف المصيبــــه وندني منه بعيد الأمل ، قال تعالى ﴿ والمُوفُونَ بِعهدِهِم إذا عاهدوا ، والصابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ ١٧٦) وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم خمساً وسبعين مرة ، ولم تذكر فى القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد ، الأمر الذي يدلنا على عظمة الصبر ، ومعنى كون الصبر « جميلا » أنه لائق ، أدب ، محسن ، لائق ، أو هو الذي لا جزع فيه ولا فزع،وليس منه شكاية لمخلوق

الباب الثالث

الفصل الأول

خروج يوسف من الجب

آ (١٩) ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ « يَا بُشْرَى ! هذا غُلامٌ » ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، واللهُ عليمٌ بما يَعْمَلُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة عشرة ، وقام الشيخ الكرملي [1] وقال

(وجاءت) من قبل المشرق (سيارة) ، رفقة تسير لمصر في سبيل التجارة نزلوا قريباً من « دوثان » (فأرسلوا واردهم) وهو رجل يقال له « مالك بن دعر الخزاعي » ليطلب لهم الماء ـ والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم ـ جاء للجب (فأدلى) أرسل بواسطة ارشاء (دلوه) فتعلق يوسف ، فلما خرج (قال)الوارد بلسان الفرح والسرور (يابشرى) ، نادى البشرى كأنه يقول تعالي فهذا اوانك، رآه جميلا كأحسن مايكون فقال يابشراى (هذا غلام)ـ والغلام الطـــارّ اي

(١) نسبة الى الكرمل قرب مدينة حيفا (فلسطين)

النابت الشارب، والكهل ضد، أو من حين يولد إلى أن يشب، وعلِمَ كفرح علَمًا وعُلمة بالضم واغتلم غُلِبَ شهوة، والغُلمة شهوة الضراب، واغتلم هاج من ذلك «القاموس» ـ ثم ذهب به لأصحابه (و) تقمصهم شيطان الطمع والمساوة حيث (أسروه) أي الوارد وأصحابه، أخفوه عن الرفقة، حال كونه (بضاعة) أي متاعا للتجارة (والله عليم بما يعملون) لم تخف عليه أسرارهم ـ وهو وعيد لهم حيث استعملوا ما ليس لهم على حسب عوائد الهمج في استرقاق الأحرار ـ

وسافر معهم يوسف عليه السلام إلى مصر ولسان حاله يردد قول القائل

وما بعض الاقامة فى ديار　يهان بها الفتى الا بلاء
وكل شديدة نزلت بحي　سيأتي بعد شدتها رخاء
ولم أر كامرىء يدنو لخسف　له فى الأرض سير والتواء

(وجاءت سيارة　الخ)

— ١ —

ثم قام الشيخ القلقيلي وقال

القافلة تخرج يوسف من الجب وتقوده معها الى مصر

لا يظن القارىء أنا نسينا أحزان يوسف وهمومه، ولم نبال بما يقاسيه وهو فى جبه من الوحشة والخوف، فإنا لم نتركه إلا موقتا، ولذلك ننتقل الآن من يعقوب ومَن عنده من أولاده فى «سيلون»، وليعد إلى «دوثان» إلى الجب الذي فيها، لنرى ماذا تم ليوسف بعد القائه فى الجب، وسفر فريق من إخوته عنه، ورجوعهم لأبيهم

كانت القوافل التى تأتي من الشام لمصر قديماً تجتاز «الأردن» جنوب بحيرة

طبرية ، فإلى « بيسان » الى « جنين » الى « دوثان » الى « السامرة » وهي سبسطية الى « جلجولية » إلى « يافا » إلى « غزة » وقد لا تأتي إلى يافا ، بل تذهب من جلجولية إلى « اللد » إلى غزة إلى « العريش » إلى صحراء « التيه » إلى أن تصل « لمصر »

وبعد بيان ما تقدم نقول إن إخوة يوسف بعد أن طرحوه في الجب ، ذهب فريق منهم إلى « سيلون » يحملون نبأ أكل الذئب إياه وقميصه الملوث بالدم إلى أبيهم وبقي فريق في « دوثان » يراقبون حركاته ، وماذا عسى أن يطرأ عليه ، وهؤلاء جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فلم يمض غير قليل من الساعات ، حتى رفعوا عيونهم ، فبصُروا بقافلة من العرب أو المديانيين أو الكنعانيين ، وقد أقبلت تلك القافلة تقطع الصحراء من وجه المشرق من « جلعاد [1] » ، وجمالهم حاملة صمغاً وبلساناً ولاذناً ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فنزلت تلك السيارة قريباً من ذلك الجب ، ليستريحوا ويستريح دوابهم ، ولم يمض إلاّ دقائق بعدد الأنامل حتى أرادت العناية الإلهية أن ترفه عن يوسف ، فسخرت له من ينتشله من غرقه، فأرسلوا من انتدبوه للسقيا ليرد على الجب ويأتي لهم بالماء لشربهم وشرب دوابهم ، فأدلى الوارد دلوه فتعلق به يوسف ، فسحبه وأصعده من الجب، ولما نظره رأى فتى كعمود الصبح فقال (يا بشرى هذا غلام) لعمري قد صدق يجلي ظبياً ، جانبي غفواً ، فرجع أدراجه ، وأتى رفقاءه ، وهو مشرق الوجه، إشارة إلى فوزه بالعثور عليه (وأسروه بضاعة) إذ لم يكونوا ـ طبعاً ـ يعرفونه ، ولم يسألوه من أين ؟ وهو ـ طبعاً ـ لم يكن رآهم من قبل ، ولم يخبرهم من هو ، فشأنه معهم شأن كل شخص غريب يُعثر عليه أو يخطف أو يغتصب ويدعى انه عبد ويباع كما هو الشائع الكثير في تلك العصور المظلمة ، ثم رحلوا به وساروا

[1]) جلعاد موضع شرقي الأردن

يطوون البيداء ، ويتيممون العراء ، ووجهتهم مصر ، وقد حصل كل ذلك بين سمع وبصر إخوته الذين بقوا في « دوثان » قريباً من الجب ، كما كان ذلك كله بين سمع الله وبصره ، فقد كان سبحانه مراقباً لسلسلة أعمالهم من مصادرته - إلى جعله كسلعة - إلى استرقاقه - إلى بيعه كأي عبد زنجي غامض النسب ، فكان كل ذلك بمعرفته وعلمه وسماحه ، لحكمة قدرها وأرادها

وأما يوسف فارتضى ان يسير معهم ، بدون أدنى مقاومة أو حيلة ، تخلصاً من إخوته الذين هم أشد خطراً وأعمق جرحاً من مصيبة بعده عن وطنه ، فالغربة مرة المذاق ، ولكن شر إخوته وكيدهم له أدهى وأمر ، والمثل يقول « سئل واحد ما الذي أحوجك إلى المر ؟ - فأجاب الذي هو أمرُّ منه » ، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل

محتى يقضي مُقامى وحالي يقتضي الرحيلا

هذا ما كان من شأن يوسف وأفكاره ، وأما ما كان من شأن إخوته وأفكارهم ، فإنهم فرحوا بعد ما اخذ لمصر فرحاً شديداً ، واعتقدوا ان قضيتهم ناجحة موفقة قد استجمعت كل عناصر الفوز والظفر

الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه

ورب معترض يقول إنه كان يمكن ليوسف أن يتملص من هذه القافلة لأنه كان من جهة ابن (١٧) سنة ، ومن جهة أخرى كان ولم يزل في وسط بلاده الفلسطينية ، بين معارفه ومعارف ابيه وجده واسرته ، ولكن الذى يظهر انه كان يخوف من عمله على الهروب لأبيه أن يلحق به إخوته ضرراً أعظم وكيداً أشد ، وان عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية ، فلما حصل هذا الحادث خضع له ولم يعمل أدنى مقاومة

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

والذي يظهر أيضاً أن يوسف كان حريصاً حد الحرص على انتهاز الفرص متى سنحت له ولنا على ذلك الشواهد الآتية

الشاهد الأول — هذه الحادثة التي نحن بصددها، فهو حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير، لم يأت من المقاومة شيئاً ، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه ، وفصل الجلاء عن فلسطين بلاد البـــداوة والتوحش إلى بلاد الحريه والتمـدن والأمن ، فاستحـدأ « للسيارة » ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (ع ١٩)

الشاهد الثاني — لما سأله الفتيان عن رؤياهما فقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوهما للتوحيد ، ويعظهما في الدين (ع ٣٧ — ٤٠)

الشاهد الثالث — بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامته وقرة عينه، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك «الريان» ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفعه وخدمه ، ولكن بعد حين (ع ٤٢ و ٤٥)

الشاهد الرابع — لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك ، وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترص الفرصة ، فأبى بما لم يسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة المكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (ع ٤٧ - ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى مليك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان

الشاهد الخامس — لما جاءه سفير الملك آمراً له بالخروج من معتقله وأحس

بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ، ووثق به ، افتكر أن توجه الملك عليه لا بد أن يكون قد حكى في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك ، كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجناب ، بحيث لا يتكلم فيه سوى الحقائق — فنظراً لهذا كله — انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق ، وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه بوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قد أمن عائلة هؤلاء النسوة ، فلا تتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين (ع ٥٠)

الشاهد السادس — حينما مثل بين يدى الملك ، ورمى الملك له تلك الاشارة ورمز له بذلك الرمز ، الذى يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما ليوسف في البلاط ، فاكتسب الفرصة وتوا تقدم إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (ع ٥٤ و ٥٥)

الشاهد السابع — لما جاءه اخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التى تقتضي رجوعهم لمصر بأخيه بنيامين (ع ٥٨—٦٢) الأمر الذى هو كل ما تمناه ، لا اقل ولا أكثر

الشاهد الثامن — لما رجعوا بأخيهم بنيمين ، اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضى بقاء بنيامين عنده (ع ٧٠ - ٧٣)

الشاهد التاسع — طلب إتيان إخوته وأهلهم اجمعين مصر منتهزاً الفرصة بذلك ، لكي يكونوا تحت نظره ، ويعيشوا تحت رعايته ، بعكس ما فعلوا معه سابقاً منذ ٢٣ سنة ، ولين يوجد ألذ للنفس وأشفى للقلب من ذلك العمل ، وأيضاً لكي نظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما اظهروا هم له من سوء أخلاقهم ، وثانيا احتساباً لوجه الله وصلة للرحم ، ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وبصدها تتميز الأشياء »

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هـذه الأمور التسعة ، إما مماشاة للطبيعة الاسرائيلية ، لأن الاسرائيليين ، عموماً منذ القدم إلى اليوم هم حريصون على انتهاز الفرص ، قال الشاعر

واتنهز الفرصة إنّ الفرصه تصير إنْ لم تنتهزها غصه

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة ، وبالاجمال إن يوسف كان قوي الإرادة فى كل شيء أراده ، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه ، وكان يوسف بعدما خرج من سجنه ، وجلس على أريكة وزارة المـال بمصر صار السعد خادماً له فكان يملي إرادته على الزمان ، والزمان يواتيه ويعمل ما يمليه عليه.

(وجاءت سيارة الخ)

وقال الاستاذ راشد المعلكي

يوسف بين يدي « السيارة »

بينا يوسف يفتكر في ضيقه ، وما أشكل من أمره ، إذا فرج الله له على طرف الثمام ، وأقرب إليه من ظله ، فقد وردت « سيارة » سخرها الله تعـــالى لتكون الواسطة الوحيده في إخراجه من الجب ، وكانت هذه القافلة قد جاءت من المشرق لأنه كان يوجد اتصال تجاري واقتصادي بين الأمم الشرقيـــة والمملكة المصرية المحروسة ، فمكثوا غير بعيد ، وللحال أرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء ، وبينما يوسف ساكت ساكن ، يفكر في حاله ، سمع وقع أقدام وصوت إنسان ، فوجـه انتباهه إليه ، وجعل قلبه يخفق بشدة وسرعة ، إذا تصدى ذلك الصوت يتعـــاظم شيئاً فسيئاً ، ويقترب نحـو الجب ، فتطاول يوسف لبـاب الجب ، فنظر وارداً يرد الماء

ليستقي لقومه ، أرسل رشاء فيه دلو ، فتعلق به يوسف قائلاً يا رجل اسلني رحمك الله ، فسله ، ورآى صبياً قد أبرقت أسارير وجهه ، وكان هذا الوارد كموسى ، (ع) ذهب ليأتي بقبس من النار ، فأتى بنور النبوة ، فاستبشر وارد القوم استبشاراً بمارجه استغراب وجود فتى جميل كهذا الفتى في وسط الجب الذي هو في صحراء قفراء ، لا يمر بها أحد إلا الرعيان والقوافل ، وصرخ صرخة الطائر يا بشرى وألف يا بشرى (هذا غلام) في ربيع العمر ومقتبل الشباب ، أنا سعيد به اليوم — ثم أخذه الوارد واسمه مالك بن دعر الخراعي ، ورجع به لقومه — ولما صار بين يدي هؤلاء « السيارة » التجار ، نظروه فأعجبوا به ، وكأني بهم قد أدنى بعضهم فمه من أذن الآخر قائلاً بصوت خافت لعل هذا الغلام من أبناء الملوك ، وقال آخر لعله من ابناء التجار المنغمسين في الترف والرفاهية ، وقال ثالث بل لعل هذا الفتى من المماليك الذين يجلبون من بلاد الكرج ، وقال البعض منهم كأن هذا المخلوق ملك على ملائكة السماء ، ولأمر ما نزل الى الأرض وأخذ صورة بشر ، ثم اتفقوا على أن يجعلوه من جملة العروض التي يريدون بيعها في مصر لشكل سرى خوفاً من عرقلة مرامهم من بيعه ، لو أظهروا أمره للناس الذين معهم في القافلة ، وكانت هذه الطريقة ، وهي جعل القوافل كل ما وقع تحت يدها من الغرباء الضعفاء سلعة بيع — بقول كانت طريقة مسلوكة لهم قديماً ، كما وقع « لسلمان الفارسي » رضي الله عنه

وكأني بيوسف قال لهم عند ذلك « كل ما قلتموه لم يكن ، ولكني من فلسطين ، جيء بي الى هذا الجب ، فأوقعتني الاقدار الإلهية في غياهبها ، فصبرت على قضاء الله وقدره ، حتى أتاح الله سبحانه مروركم ، واستقاءكم من الجب ، وأنتموني فشلتموني ، هذه حادثتي بصورة مختصرة ، وأما أنتم فما شئتم فافعلوا معي ، فإن الفعال هو الأ'ـوه شَدّاي »(١)، وقد رضيت بكل ما يأتي علي ،

(١) لفظه عبرانية معناها « الاله القوي »

بما أبرمه سبحانه في سابق علمه ، لا أعترضكم ولا أتعاصى عليكم ، فقد صرت بين أيديكم كأسير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد »

ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيان ترجمة حاله الشخصية والعائلية ، إذ رأى أن لا فائدة له من ذلك لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنعانيون ، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحق ، ولا يقدرون هذه الأسرة الاسرائيلية حق قدرها ، ولا يتعرفون اليها ، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لعامله إخوته بما هو أشد وأنكى ، وربما قضوا على حياته ، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمعه بإخوته ، وفضل الغربة على الاقامة في الوطن ، إذا كان فيه تخوف على النفس والحياة ، كالقائل

رُبَّ هجرٍ يكون من خوفِ هجرٍ وفراقٍ يكون خوفَ فراقِ

أو كالقائل

لا يصبون إلى وطنٍ فيه يضام ويمتهن
وارحل عن الدار التي تُغْلي الوهادَ على القُنَن
واربأ بنفسك أن تُقيمَ بحيث يجتاك الدرن
وحُبِّ البلاد فأيُّها أرضاك فاختره وطن

أو كالقائل

وإنْ نَبَتْ بك أوطانٌ نشأتَ بها
فارحلْ فكلُّ بلادِ اللهِ أوطانُ
وإن خفالَ أخٌ قد كنتَ تألفُهُ
فاطلب سواهُ فكم في الأرض إخوانُ

لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع «السيارة»

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتاً ساكناً واجماً ، سطق دموعه عما صمت عنه لسانه ، يعالج الداء بالداء ، ويفر من هم إلى هم ، ومن قضاء إلى قضاء ، فقاموا راحلين به للديار المصرية ، وكأني به حينما صار بين حدود فلسطين وحدود مصر قريباً من « رَفَح » التفت شمالاً فرأى فلسطين ماثلة أمامه ، فألقى عليها نظرة واجمة ، ثم قال

إن مجاورة الأعداء المتألبين ، ومخالطة الخصماء المناوئين ، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيباً والعيش نضراً ، فكيف والوطن بادية ، ومدار معيشتنا رعي الغنم ، وإن العاقل لهو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصّن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المحذور ، وإلى ما يدفع المخوف لاستجلاب المحبوب ، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم ، لهو كراكب البحر ، إن هو سلم من الغرق ، لم يسلم من المخاوف ، وإنا لنرى أن الدواب قد خُصّت في طبائعها بتوقي المكروه ، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكتها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها ، شحّاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه

ثم استقبل « دوثان » وقال

الوداع أيها الإخوة الذين طردوني وشردوني من بينهم ، وأبعدوني عن أبي الشيخ الخليل ، وعن أخي الوحيد اللطيم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أبلغ بها في طريقي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، وإنكم قد ألقيتموني هذه المرة في الجب ارتكاناً لأخف الضررين المناسب لِسِنّي ، وأخاف لو رجعت ونقيم على ما أنتم عليه من العداء والمناوأة أن تلجأوا لاستعمال أشد الضررين !

ثم استقبل « سيلون » وقال

الوداع أيها الوالد المحب المخلص ، الوداع أيها الشيخ الجليل ، فقد كنت محباً لي حدّ الحب ، ولكنك متعلّق عليك من أولادك المستبدين ، فالسكنى معك محفوفة بالخطر ، فالسباق السباق لمصر ، والالحاق الالحاق لدار الحرية والأُمنية ، والسلام عليك ورحمة الله

قال ذلك ، ثم سار مع الركب ، وقد أبغض فلسطين واحتواها وفارقها ناقماً على أهله وأهلها ،

وكأني بهذا الركب حينما دخلوا مصر إلى « سوق بيع الرقيق » أجلسوه مع ذكران العبيد من بيض وسود وحمر ، فعرف إذ ذاك أنهم أزمعوا على بيعه ، فضرع إلى ربه ، ودعاه أن يعينه على أمره هذا « الجديد » ويجعل نصيبه عند رجل أمين

وما فعلته « السيارة » من أخذ يوسف معهم كرقيق سنة قديمة عند جميع الأمم ، فقد كان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر ، فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم إلى الآفاق ليتجروا ببيعهم ، كما كانوا يتجرون ببيع الغلمان البيض ، من أهل اسبانيا وغيرها

المشابهون لحالة يوسف (ع) في الرق

ويسرني أيها السادة قبل أن أختم خطابي هذا أن أقول ما أشبه حال يوسف « بدانيال » عليهما السلام ، فيوسف أسر من فلسطين لمصر سنة ٢٣٢١ ق م ثم عبر رؤيا ملك مصر سنة ٢٣٣٤ ق م ، وكانت وفاته بمصر سنة ٢٤١٤ ق م ودانيال أسر من فلسطين لبابل سنة ١١٧٥ ق م وفسر رؤيا بنوخذ نصر سنة

١١٧٢ ق ن ثم كانت وفاته بالعراق ، وكما نتذكر بيوسف حادثة دانيال قبله ، فإنا نتذكر به أيضاً حادثة (ياقوت الحموي) بعده ، أعني صاحب «معجم البلدان» فإنه نشأ أسيراً ، أسر من الروم وبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بـ (عسكر الحموي) واليه نُسِب فقيل ياقوت الحموي ، قرأ شيئاً من النحو والصرف وولع بالأسفار في سبيل التجارة ، فبرز وسع في علم « تقويم البلدان » الذي يعبر عنه أهل اليوم بالجغرافية

ونتذكر بحادثة يوسف أيضاً ، حادثة (سلمان الفارسي) حيث ادعى بعض المسافرين معه استرقاقه ، فباعوه في المدينة المنورة ، ثم أسلم واشترى نفسه ممن يملكونه ، وصار من أفاضل الصحابة المحترمين

(وجاءت سيارة الخ)

— ٣ —

وقال الأديب الحلي [١]

ليسمح لي السادة أن أوضح معنى بعض مفردات هذه الآية الكريمة ·

معنى « السيارة »

١ — معنى « سيارة » ركب ، ويقال عنها « قافلة » ، ومعنى الألفاظ الثلاثة رفقة سائرون ، هذا هو المعنى المعروف قديماً وحديثاً لهذه اللفظة، وما زال معروفاً لم ينكره الحياة الحاضرة ولم يندثر بعـــد ، ولكن الذين يعرفون شيئاً عن الحياة

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق

الصوفية يعرفون « السيارة » بمعنى الطائفة من أهل طريقتهم تسير وأمامها علَمُها ـ وأما عند أهل اليوم المتمدنيين فيطلق لفظ « السيارة » على ما يدعى بالافرنجية « اوتوموبيل »

معنى «الوارد»

٢ ـ كان اسم هذا « الوارد » فيما قيل « مالك بن دعر الخراعي » ، قالوا هو رجل من العرب دميم الخلقة قـــذر الثوب ، تقذى به النواظر وتتقزز منه النفس ، فسبحانك اللهم ما أخفى حكمتك ، فرد نصيد غزالاً ؟!! ولعمري لو لم يفعل هـــذه الفعلة السوأى لم يعلم به أحد ، ولو لم يرد على هذا البئر ، لم يكن في ورود ولا صدر ، ولكن هذا العمل الخبيث هو الذي أتيح هـذه الشهرة ، فمثله كمثل رجل من عمار الناس ، ليس له اسم ، حجَّ فأحب أن يكون له شهرة وصيت ، فجاء وبال في بئر زمزم بمرأى من الواقفين ، وقال لهم أنا فلان ، فطار اسمه في الآفاق ، ولله في خلقه شؤون !

فاء السرعة في قوله «فأرسلوا» ، «فأدلى»

٣ ـ التعبير بالفاء في قوله « فأرسلوا » وقوله « فأدلى » يشير إلى السرعة في هذا الأمر ، بمعنى أنهم جاءوا وتوّاً أرسلوا واردهم ، ولم يتأخروا عن إرساله فواقاً ، وهو ذاهب توّاً إلى الجب وأدلى دلوه ، ولم يتأخر عن إدلائه فيه فُواقاً ، وهذا من لطف الله تعالى بيوسف ، إذ سخر له عبيده ، واستحثهم في سرعة إخراجه ، وإذا أراد الله بعبد لطفاً ، فسرعان ما يسخر له كل الأسباب التي تلطف ما حلّ به من المقدور ، رحمة منه تعالى

« يا بشرى »

٤ً ـ قوله « يابشرى » أسلوب من أساليب الكلام العربي والعبراني ، يعبر به الانسان عن شعوره واغتباطه بما رآه ، ولم يكن وارد القوم أكثر سروراً بيوسف ممن سواه من كل من رآه فيما بعد

ألقاب يوسف

٥ً ـ لفظة غلام في قوله « هذا غلام » هو أول لقب لُقِّب به يوسف في بدء غربته وهو في دوثان ، لقبه به مالك بن دعر الخزاعي وقد لقب بعده بألقاب عدة ، منها لقب «مُخْلَص» لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال ﴿ إنه من عبادنا المخلَصين ﴾ ومنها لقب « فتى » لقبه به النسوة المصريات إذ قلن «تراود فتاها عن نفسه » وذلك قبل أن يَرَيْنَه ، ومنها لقب « ملك كريم » لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينه

ومنها لقب « الصديق » لقبه به رئيس السقاة ، وهو في سجنه ومنها لقبا « مكين أمين » لقبه بهما ملك مصر الريان ، بعد براءته السجن

ومنها لقبا « حفيظ عليم » وقد لقب هو نفسه بهما ، ترجمة حال نفسه عند الحكومة

ومنها لقب « العزيز » لقبه به إخوته ، تبعاً للحكومة المصرية التي ـــ طبعاً ـــ لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب ، وكان « عزيز مصر » تحت سلطة مليكها الريان

فيكون اول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » ، وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر »

الدلو

٦ - لم يذكر لفظ « دلو » في كتاب الله تعالى إلا هنا ، كأن الله جل جلاله إنما أنزل « الدلو » في هذه السورة مساعدة ليوسف ، حتى يتعلق به ويخرج من جبه

الفصل الثاني

بيع يوسف (ع)

ا (٢٠) (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)

افتتحت الجلسة وتليت الآية العشرون فقام السيد جمال العكاري[1] وقال

(و) لما وصلوا مدينة « منف » وذلك سنة ٢٣٢١ ق ن (شروه) أي باعوه فيها لعزيز مصر (بثمن) اسمي (بخس) منجوس ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً ، أو زيف ناقص العيار (دراهم) لا دنانير (معدوده) قليلة تعد عداً ، ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الاوقية ، وهي الأربعون ، ويعدون ما دونها ، وقيل للقليله « معدودة » لأن الكثيره يمتنع من عدها لكثرتها ، ومن التعبير بالقله عن العدد الدعوه المأثوره على الكفره «اللهم أحصهم عدداً» ، وقيل كان عشرين درهماً (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن ، لأنهم التقطوه ، والملتقط للشيء متهاون به ، لا يبالي بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده ، فيبيعه من أول مساوم

(١) عكار احدى بلاد الشام (لسان)

مأوكس الثمن ، فإخوة يوسف وقعوا في الجريمة وتحت عصب أبيهم ، ويوسف داق من جراء ذلك الصاب والعلقم ، وعزيز مصر الأحمي أخذه لقمة سائغة أتته دون تعب ولا نصب

(وشروه بثمن بخس الخ)

وقال الشيخ اسماعيل الصيداوي [١]

ليسمح لي السادة الأفاضل أن أذكر نبذة عن أسواق الرقيق في تلك العصور قبل الكلام على الآية الكريمة فأقول

اسواق الرقيق

كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى « اسواق الرقيق » يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجوارى والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان ، يستجلبونهم من اقصى بلاد انكلترا والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسان والسند والعرب والبربر والحبش ، يأتي بهم النخاسون أولاً ، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهم أو بعض أقاربهم بثمن زهيد ، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق ، هؤلاء التجار يسوقونهم كالأنعام إلى « سوق الرقيق » متداولين الأيدي بعضهم بعض بالأمراس ليبيعوهم بدورهم أيضاً ، وهذه « السوق » هي سوق عموميه يجتمع اليها الناس من أقاصي البلاد ،

١) نسبة الى بلده صيدا من بلاد الشام (ناشر)

لشراء الرقيق أو اشترائه أو للمبادلة والمقايضة ، وحول هذه السوق سور ، بعضه من الخشب ، وبعضه من الأحجار ، فيدخل التجار السوق مع الرقيق ، ويقفلون بابه ، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس ، ويجعلون الذكور في جهة ، والاناث في جهة ، وربما أفردوا من يكونوا صغير السن جميلاً ، فيخصونهم بجهة على حدة ، فيأتي المشترون فينظرون اليهم ويفحصونهم ، يأمرونهم بفتح أفواههم ، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم ، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ووسومهم ، ومتى تمت صفقة البيع ، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون ، من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس ، أو خدمة في بيت ، إلى غير ذلك ، وكان تجار الرقيق قديماً ، إذا وقعوا على جارية جميلة ، أو غلام جميل ، أنفذوا بعض السماسرة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري ، يسعون في ترويج تلك السلع ، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الحاكم أو الأمير ، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل ، ولعل وقوع يوسف ليد « عزيز مصر » المدعو « فوطيفار » كان بعض هذه الوسائط

يوسف في سوق الرقيق

حينما أخذ «السيارة» يوسف من الجب وأسرّوه بضاعة ، ساروا به يطوون البيداء ، لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا مصر ، ولم يصبروا إلا قليلاً ، حتى دخلوا به « سوق الرقيق » وكان لابساً أسمالاً بالية ، ولا يخاله عند ذلك إلا قد « تكهرب » وتألم وحزن حزناً شديداً ، وحيث رأى نفسه بين الزنوج وكان جالساً بهيئة محزنة مؤثرة ، تستثير الأشجان ، وتستذرف الدموع ، ولو لا علمه بمواعيد الله له ، لقضى أسىً من وقوفه ذلك الموقف وقد كان ليوسف إذ ذاك

فكرتان تتصارعان ، فكرة حاله الظاهرة ووقوفه موقف الذل والهوان ، وفكرة حاله الباطنة ، ومواعيد الله له بالرقي إلى الأوج الأعلى ، فكان عند الفكرة الأولى يجيش صدره ، ويبكي بعينيه ، وعند الفكرة الثانية يضحك في قلبه ويطمئن

وبينما هو كذلك ، إذ بالقافلة تسلمه لسمار «عزيز مصر» الذي اشتراه منها ، فنزل حادث الشراء على نفسه ، نزول الجمرة على تامور القلب ، وتخيل عندئذ كأنما سهم رائش أصمى كبده ، إلا انه تماسك ريثما يختار الله له ما يشاء من الفرج ، فسلم أمره لله ، وذهب لبيت «عزيز مصر» يعالج داء بداء ، وينتقل من ذل إلى ذل !!

ايضاح مفردات الآية

وبعد ذكر ما تقدم سأبين لكم معنى قوله تعالى «شروه» ثم عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ثم معنى «ثمن بخس» وكم هو هذا الثمن

معنى «شروه»

١ ـ فمعنى قوله تعالى « شروه » باعوه ، وتنازلوا عنه وبذلوه ، ضد «اشتروه» التي تفيد معنى الأخذ ، قال تعالى ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢ ١٠٢) أي باعوها ، وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ (٢ ٢٠٧) اي يبيعها ويبذلها في الجهاد ، وقيل بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر حتى يقتل ، وقال تعالى ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (٤ ٧٣) أي يبيعون ، وقال الشاعر العربي

شريتُ بُرداً ولولا ما تكنّفني
من الحوادثِ ما فارقتُهُ أبدا

ومنه تسمية (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام عليّ كرم الله وجهه (الشُّراة) أي الذين باعوا أنفسهم — في زعمهم — لله ، ويقال في اللغة خدَعه وشراه ، بمعنى شق أذن عبده وباعه

عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف

٢ — الضمير في « شروه » هل هو عائد على إخوته ، أو عائد على السيارة ؟ في الأمر قولان الأول مروي عن ابن عباس (ض) ، ومعناه أن إخوة يوسف باعوه للسيارة ، وأصل ذلك في سفر التكوين (تك ٣٧ ٢٨) وليس من مصدر آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم ، ولا يوجد حديث صحيح في هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية

ا ـ إن الضمير في « شروه » عائد على السيارة ، لأنها أقرب مذكور ، وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً ، لأنها بمعنى الجمع أو القفل أو الرجال المسافرون ، ومما يؤيد رجوع ضمير « شروه » للسيارة ، رجوع الضمائر قبله إليها في قوله « فأرسلوا » وقوله « وأسَرّوه » فعود الضمائر مرة على السيارة ، ومرة على الإخوة ، يوجب تعقيداً في التركيب ، وبالنتيجة يجب المشي مع الظاهر ، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس ، والله أعلم

ب ـ إن الله تعالى يقول (شروه ، واشتروه) ، فإذن الصفقة واحدة لا ثاني لها

ج ـ إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود ، فيقولون إن الذين شروه هم إخوته شروه للسيارة ، وبالطبع اشتريه منهم السيارة وكانت صفقة هذه المقايضة في فلسطين ، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم ، أقحم الله تعالى لفظ (من مصر) ، ليدلنا على أن الحادثة واحدة ، لم يُشْرَ ولم يُشْتَرَ إلا مرة

واحدة ، فالشارون هم جماعة السيارة ، والمشتري هو عزيز مصر ، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية ، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة ، بل تعين ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون ، وإن عزوه لابن عباس

الثمن البخس وماهو وكم هو

٣ ـ ومعنى « ثمن بخس » أي ثمن زر ، تافه ، مألوف ناقص ، وإنما قنعوا بالثمن البخس لأنهم لم يدفعوا في مشتراه فلساً واحداً

ومن أخذ البلاد بغير حرب　　يهون عليه تسليم البلاد

ولخوفهم من هروبه وتملّصه منهم ، ولكونهم لا يعرفون قدره ومنزلته ولا أين من هو ، فكانوا كالرجل الجاهل الذي سرق ياقوته ، وكان لا يعرف ما هي ، وكان خائفاً من أصحابها ، فباعها بخرزة لا تساوي إلا دراهم يسيرة ، مع أن الياقوتة ثمينة ، لو وقعت في يد عارف بها لأصاب بثمنها غنى الدهر

٤ ـ ما هو هذا الثمن البخس وكم هو ؟ كان « دراهم معدودة » ونعم أنها كانت أقلّ من أربعين ، وذلك لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يتبايعون بالأواقي ، وكانت الوقية أربعين درهما ، فما قصر عن الوقية فهو بالعدد

او يقال « معدوده » كناية عن كونها قليله ، ومن استعير عن القلة بالعدد الدعوة المأثورة على المشركين « اللهم أحصهم عدداً » فالمدعوّ به وإن كان إحصاؤهم عداً في الظاهر ، إلا ان هذا ليس مراداً ، لان الله تعالى أحصَى كلّ شيء عدداً ، وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك ، وذلك المقصود هو لازم العدد وهو القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعا عليهم

بالقلة معبراً عنها بلازمها وهو الإحصاء، هذا ما قاله العلماء وقرره أحمد الاسكندري في حواشيه على الكشاف، وهو جيد، ولنا في ذلك وجه آخر، وهو أن هذه الدراهم كانت مقصوصة الأطراف، لأنهم كانوا قديماً (كما هو اليوم) يتعاملون بالدراهم عداً لا وزناً، وكان يوجد مجال كبير لقليلي الأمانة (وكثير ما هم) أن يأخذوا من أطراف الدراهم، كما أن أهل عصرنا الحاضر يسحبون «الدنانير» والناس عند ذلك يحرصون على المعاملة بالعد دون الوزن، لأنه أربح لهم، فيكون المعنى الذي يرمي إليه اللفظ، انه ياليت أن هذه الدراهم التي بيع بها يوسف، كانت صحيحة سليمة من النقصان حتى توزن وزناً، بل كان يغلب عليها النقصان، ولهذا عُدّت عداً

وقد كانت هذه الدراهم عشرين درهماً من الفضة، وكان الدرهم يساوي إذ ذاك (١٧) عرشاً، فكانت قيمة ذلك نحو (٣٤٠) عرشاً، وهي قيمة بخسة زهيدة جداً بالنسبة لأثمان العبيد والجواري الذين كانوا يباعون ويشترون بقيم تبلغ أضعاف أضعاف قيمة يوسف، سواء في تلك العصور أو فيما بعدها، ولو أردنا سرد أثمان العبيد والجواري في عهد الدولة العباسية والأموية لطال بنا الشرح والبيان، وقد كانت الفضة في تلك الأيام أثمن منها اليوم، ومع قلة هذه القيمة، فبائعوا يوسف رأوا أنهم بهذا البيع وهذا الثمن فازوا بصفقة رابحة، فواضيعتاه ! يا يوسف !

(وشروه بثمن بخس . الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ محمد أحمد علماء أم درمان (السودان)

الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام

قضي على البشر أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمان، فلم تخل أمة من

الاسترقاق ، حتى في شريعة موسى عليه السلام ، وليس هذا فقط ، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة، وكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استأسروه واسترقوه، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة، تقطر منها الانسانية، وهكذا قضت المسيحية البولصية ، بابقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل ، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق ، إنما الذي ورد فيها ، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة ، كما يطيعون المسيح عليه السلام (أف ٦ ٥) وأن يقوموا بحسن القيام بخدمة ساداتهم ، عبيداً لتعاليم المسيح ، كما يقوله القدس بولص في (كو ٣ ٢٢) وفي (تي ٢ ٩) وقد وافق على ذلك القديس بطرس الحواري، حيث أوصى العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشوهم (ابط ٢ ١٨) وهكذا بقي هذا الحال ، إلى أيام الإسلام ، فلما أتى الإسلام ، رق لحال الأرقاء ، كما كان شأنه لجميع الضعفاء ، فمنع الاسترقاق تاماً ، إلا أن يكون في حرب شرعية ، مع قوم من غير المسلمين ، لم يؤمن أذاهم ، أعني انه إنما أباح الأسر في الحرب الدينية فقط ، وعذر الإسلام في ذلك ، أنه قد وجد النوع الإنساني ، قد تأصلت فيه عادة الأسر ، فأباح أسر الأجانب فقط ، في مقابلة أنهم يأسرون اهل الاسلام ، إذ لو حرم أسرهم على المسلمين ، لا نقرض المسلمون جميعاً ، إذ كانوا في الحرب يأسرهم غيرهم إذا غلبهم ، وهم إذا غلبوا لا يأسرون أحداً ، وفي ذلك شر عظيم على اهل الإسلام ، وهلاك مبيد ، فلهذا أباح أخذ الأسرى ، وبهذه القاعدة ، سد تفشي الاسترقاق واستشاره ، وغلق أبواب الظلم والعدوان ، ثم أمر بالإحسان إلى الارقاء ، ومعاملتهم بالرفق واللين ، كما قال جل ثناؤه ﴿ وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى - إلى أن يقول - وما ملكت أيمانكم ﴾ (٤ ٣٥) ورغب في العتق ، وجعل من المعتق والعتيق ولاء وموده ، وإن شئتم اقرأوا قوله تعالى ، ﴿ فلا اقتحم العقبة وما أدراك

ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾ (٩٠ ١١ - ١٨) فالله تعالى ، أول ما قال في هذه الآية « فك رقبة » ، إذن فك الرقبة ، أهم ما تقتحم به العقبة ، وذكر بعدها الإيمان ، مع الصبر والمرحمة ونهى الإسلام عن لطم المملوك وضربه وجعل كفارة ذلك عتقه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام «من لطم مملوكه أو ضربه ، فكفارته عتقه » ، وليس هذا فقط ، بل قال « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » ، بل قال « لا يقل أحدكم عبدي ، أمتي - وليقل فتاي ، وفتاتي وغلامي » وحث على تهذيبهم وتعليمهم ، في مثل قوله ، « من كانت له جارية ، فعلمها وأحسن إليها وتزوجها ، كان له أجران » ، هذا وقد أمر الله تعالى بتزويجهم فقال ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ (٢٤ ٣٢) ، ثم إذا افترش السيد أمته ، فولدت له ، كان الأولاد أحراراً ، ويرثون من أبيهم ، وهي تعتق بذلك ، إلى غير ذلك ، من القواعد العادلة ، التي لم تأت بها شريعة قط وليس هذا هو كل ما جعله الإسلام ، مساعدة لأولئك الضعفاء ، بل جعل تحرير الرقاب ، كفارة لكثير مما يقع من الإنسان ، مخالفاً للدين ، حتى في أبسط المسائل كالحنث في الأيمان ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته - إلى أن قال - أو تحرير رقبة ﴾ (٢ ٢٢٥) ، وليس هذا فقط ، بل أمر بجمع الأموال - الزكاة - من الأغنياء وصرف جزء منها في تحرير الرقاب ﴿ إنما الصدقات للفقراء - إلى

قوله ـ وفي الرّقابِ ﴾ (٩ ٦١) وكرر حث دوي اليسار، على دلك، المرة بعد المرة ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، ولكنَّ البرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ ـ إلى أن قال ـ وآتَى المالَ على حُبِّهِ، ذَوِي القُربى ـ إلى أن قال ـ وفي الرِّقابِ ﴾ (٢ ١٧٧) إلى عير دلك مما يطول شرحه، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول أليس ما أتى به القرآن والدين الإسلامي منذ قرون، هو ما تفتخر به المدنية الحديثة وتتيه به إعجاباً؟!

استعادة الرقيق عند المسلمين

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبدالقادر المغربي قوله ليس الغرض من الاسترقاق عندنا، مجرد استغلال الأرقاء والانتفاع بخدمتهم، كما نتمتع بالدابة، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه، ونفع البشرية، بنشر تعاليم الإسلام بين أبنائها، فإننا نأخذ الأرقاء في الحرب أسرى وندخلهم في بيوتنا، ونمزجهم بعائلاتنا، كي يتخلقوا بأخلاقنا، فيدخلوا أخيراً في ديننا، ويكثر منهم سواد أمتنا، وربما كان ثلث المسلمين اليوم، هم من سلالة أولئك الأبناء، الذين دخلوا في الإِسلام من طريق الرق، فالرق في نظر العالم المسلم الاجتماعي، ضرب من ضروب الاستعمار، أو ما يسميه ساسة هذا العصر (التجنس بالتبعية)

استرقاق الشعوب في أوربا وأمريكا

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان ما نصه

وإذا قيل إن الرق قد وجد في الإسلام، فالجواب إنه لم يوجد فضيلة حث عليها الإسلام بصريح القرآن، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق، على أن النصرانية لم تنكر الرق، كما ظهر من كلام بولس الرسول

وإن كانوا في أوربا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه ، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها ، يبيعها مع الأهالي الذين فيهـا ، لا يملكون لأنفسهم أمراً ، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية ؛ هذا كان شأن الأمة الروسية ، منذ ١٥٠ سنة لا زيادة ؛ ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا ، استعبدوا البقيـــة التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم ، واستعملوهم خولاً وخدماً مدة طويلة ، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتنوسيت أصولهم ، ولا يجوز أن ننسى أن الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٦٦ م من أجل تحرير العبيد ، وأن الاميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة ، حاربوا سكان شماليها مـــدة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود »

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة فهو غير شرعي ، سواء ما كان منه في بلاد السود ، وما كان منه في بلاد البيض ، كبنات الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جهراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني ، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار ، ومع هذا كنت ترى العلماء يسكتون عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرّم إجماعاً وربما قال لك (وإن مستحل ذلك يكفر ، لأنه لا يعذر بالجهل) وعلل ذلك بما يعللون به مثله ، وهو أنه مجمع عليه ، معلوم في الدين علماً يشبه الضروري

وكما كان يوجد هذا في الاستانة ، فهو قد كان يوجد في الحجاز أيضاً ، أعني انه كما كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية ، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية ، والمسؤول عن هذه الفعْلة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك والحق إن الاسترقاق يحتوي على مفاسد كثيرة ، وإنه مناف لمحاسن الإسلام وحكمه العالية ، ولكنه قد كان مما عمت به البلوى بين الأمم ، فلذلك لم يمنعه الإسلام منعاً باتاً ، ولكنه خفف مصائبـــه ، ومهد السبيل لمنعه ، حتى إذا جاء وقت يقتضي فيه المصلحة العامة منْعَه ، مع عدم وجود مفسدة تعارض المنع وتُرجّح عليـــه ، كان لأولي الأمر مَنْعُه ، فإن المصلحة أصل في الأحكام السياسية والمدنية ، يُرجع إليه في غير تحليل المحرمات ، أو إبطال الواجبات

رعم دعاه المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه

رعم دعاه المسيحية ، بأن ما قام به الأوربيون في الزمن الأخير ، من « تحرير الرقيق » ، هو من آثار دينهم ، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجــة الاشارات الرمزية ، التي وردت في القرآن ، وثمره مكرره ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن ، في حقل حياة الإسلام ، وإلا فلماذا قضوا القرون العديدة ، في استعباد الناس ، على أشنع الأحوال ؟! وقد علمتَ فيما مرّ ، أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء ، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولِمَ لم يهتم الدين المسيحي بشأن العبيد ، ويعطف عليهم ، كما عطف عليهم الإسلام ؟ ثمَّ لم يأمر باستعمال الرفق بهم واللين معهم ولو بجمله واحدة ؟

سيقولون إنه لم يأت ليسن شرائع ، أو ينسخ ما كان موجوداً منها ـ ونقول

في تقييد حوائهم لِمَ حَرَّمَ الطلاقَ والتزوجَ بالمطلقة والتعــــدد في الزوجات ؟ أما كان يمكنه أن ينهى الناس من استعمال القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء ؟

هذا ، والحق يقال إن ما أتى به الاسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة ، وإن « تحرير الرقيق » الذي اتفق عليه ملوك أوربا ، كان الإسلام قرره قبلهم ، لأن الرقيق الموجود اليوم ، ليس هو مضروباً عليه الرق ، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الاسلام ، بل هو من قبيل الاختطاف ، كما وقع مــــع يوسف عليه السلام ، وهذا النوع لا يقول به الإسلام ، ولو كان المسلمون في درجة الأوربيين مدنية وعلماً وقوة ، لـكانوا أولى من ملوك أوربا ، في إظهار ما يعتقدون ، من تحريره ، ولأنه في عقيدتهم ، ليس رقيقاً شرعياً ، ولكن هكذا قضي أن يكون المسلمون حجة على دينهم

وما أن نزل الشيخ محمد عن منبر الخطابة حتى تعالت الهتافات والتكبيرات في المؤتمر استحساناً لما قال

الفصل الثالث

وصية عزيز مصر لامرأته بيوسف

آ (٢١) ﴿ وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ : « أَكْرِمِي مَثْواهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً » ، وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيوسُفَ في الأرضِ ، ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ والله غالبٌ على أمْرِهِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والعشرون فقام أمين الدين الجرشي [١] وقال

(وقال الذي اشتراه من مصر) المسمى « قوطيفار » ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، في عهد الريان بن الوليد العمليقي الهكسوسي ، قال (لامرأته) « زليخا » بلسان الالهاس (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله « إن ربي أحسن مثواي » والمراد تفقده بالاحسان وتعهده بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا (عسى أن ينفعنا) إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، (أو نتخذه ولداً) نتبناه ونقيمه

١) نسبة إلى جرش من بلاد الشام (شرقي الاردن)

مقام الولد ، لأنه قيل إن فوطيفار كان عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس في يوسف الرشد فقال ذلك (وكذلك) الذي تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه — والكاف في كذلك منصوب تقديره ومثلَ ذلك الإنجاء والعطف — (مكنا ليوسف في الأرض) أي كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، مكنا له في أرض مصر ، تمكيناً يليق بصلاحيته ما دام عند فوطيفار ، أي تمكيناً مقيداً بالتصرف في ممتلكات فوطيفار وأطيانه وعقاراته ، لأن يوسف صار وكيلاً مفوضاً عن فوطيفار في كل ماله ، أي وكيل دخل وخرج ، يتصرف في ذلك بأمره ونهيه ، فكان فوطيفار لا يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكله ، كان ذلك لفوائد كثيرة تعود بالخير على يوسف (ولنعلمه) بإقامته وسكنه بمصر (من تأويل) أي مرامي ونتائج (الأحاديث) عموماً ، لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنار قلبه ، وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين (والله غالب على أمره) على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي ، أو غالب على أمر يوسف ، يدبره ولا يكله إلى غيره ، فقد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كله بيد الله

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ١ —

وقام الشيخ الرَّمتي [1] وقال

دخول القارىء إلى المملكة المصرية الهكسوسية

فوطيفار عزيز مصر

ينقسم تاريخ يوسف في غربته إلى قسمين الأول تاريخ عبوديته ، والثاني

(١) نسبة إلى الرمثة في بلاد الشام (شرقي الاردن)

تاريخ حكمه على كل مصر . ونشرع الآن في القسم الأول

أنزل يوسف إلى مصر فاشتراه « فوطيفار » بواسطة بعض بطانته ، وكان من رجال البلاط

و « فوطيفار » هذا هو رئيس شرطة مملكة مصر ، وكان بالنسبة للملك كوزير الدولة ، أو كنائب الملك ، وكان يلقب بـ « عزيز مصر » (آ ٣٠) وهذا الاسم يدل على أن الرجل من المصريين الوطنيين الأصليين لأنه مركب من كلمتين قبطيتين بتغيير قليل ، والأصل (فوطي فارع) أي « مختص بالشمس » أو « موقوف للشمس » والشمس هي من معبودات المصريين ، ومع ذلك فقد نص قدماء المؤرخين على أنه كان مصرياً أي قبطياً ، لأنهما لفظان مترادفان ، والفلاحون ينطقون بهذه اللفظة بأصح مما نكتبها ، إذ يقولون « جبطي » أي (إجتى) او مصري ، ومن هذا الاسم اشتق الإفرنج كلمة (إيجبت) وهي لفظة يونانية في الأصل ، وعلى ذلك فقوله تعالى « من مصر » يظهر أنه نعت « للذي » أو حال منه ، وهو الأرجح ، لأن الجمل وما شابهها بعد المعارف أحوال

ومن ألقاب هذا الرجل أيضاً « خصيّ الملك » ولفظة خصيّ تدل على وظيفة لا على حالة شخصية ، لأنه كان متزوجاً وبعد في الخصي الحقيقي أن يتزوج ، وإنما هذا اللفظ يطلق على من يكون رئيساً في البلاط وناظراً للحرم ، لأن الذين كانوا يستخدمون لذلك جرت العادة أن يكونوا خصياناً حقيقة ، وقد كان عزيز مصر ناظراً للحرم أيضاً ، ومما لا يجب أن ينساه أن اصطلاح حكومة مصر قديماً تسمية جميع المأمورين فيها « عبيداً » لفرعون ، مع أنهم أحرار ، وكذا « خصياناً » مع أنهم ليسوا مخصيين ، فكما أن تسميتهم « عبيـداً » لا ينفي أنهم أحرار ، فكذا تسميتهم « خصياناً » لا ينفي أنهم كاملوا الخلقة فأفهموا

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ٢ —

وقال الحافظ الترمانيني [1]

حياة يوسف المادية

كان قوطيفار قد عرف بوجه الإجمال أن هـذا العبد عبراني ، من نزلاء فلسطين ، ولكن لم يعرف ابن من هو ؟ ولا السلالة التي ينتسب اليها ، وأيضاً هو لم يسأله عن ذلك ، لأن هذا الأمر لايهمه كثيراً ، لأن العبرانيين كانوا في فلسطين جماعة غرباء نزلاء ، وهم على دين التوحيد ، الذي يغاير دين الوثنيـة الذي كان إذ ذاك دين أهل مصر ، وأيضاً فقد كان يوسف في ذلكم الحين صغيراً ، وإذاً فلا مناسبة بين يوسف وبين قوطيفار لا في الوطنية ولا في العنصر ، ولا في الدين ولا في السن ، ولا في الجاه ولا في المركز الاجتماعي ، فلهذه العلل ونحوها لم يعتنِ قوطيفار في التعمق والبحث عن حاله

فلما اشتراه أدخله على عقيلته وكان اسمها « رليخا » على المشهور ، أو «راعيل» على ماقيل ، وكان والدها من أولاد ملوك القبط — قال لها قوطيفار « يا أمة الله» لقد عثرنا على ضالتنا المنشودة ، إذ اشترينا هذا الغلام العبراني الوديع الحدث السن ، وإني أقترح عليك شيئاً ، لي ولك فيه فائدة ، أكرمي مثواه ، واجعلي له امتيازاً خاصاً فوق ما لسائر العبيد الذين في خدمتنا ، وليكن عندك ضمن البيت تحت جناحك مرفهاً مسروراً ، ولا تخرجيه ، عسى أن ينفعنا غداً ، وإن غداً لناظره قريب ، أو نتخذه ولداً في مقتبل الأيام ، فهاهو عمره نحو (١٧) سنة ،

[1] نسبة الى بلدة ترمانين من البلاد السورية

وعما قرس ينتظم في سلك الشدّة فيصلح لتعصيدنا، فاعطي وتحدبي عليه ،وعامليه مالدماثة والىشاشة »

وإنما قال لها دلـكم ، لأنها هي صاحبة الحول والطول في البيت ، وهي الآمرة الناهية ، وقد قالوا إن عقيلة الرحل في البيت تعتبر كناطر داخلية ، ضمن دائرة الآداب والاحلاق الشرعية ، كما يعتبر هو كناظر حارجية بالنسبة لأشغاله البرانية، وعلى هـذا الوجه — من تقسيم الاعمـال — تتم الفائدة ، وتستتب الراحـة للزوجين معاً

لذلك هو يقول لها « انفعيه اليوم ينفعنا غداً ، لاتعمي عنه شيئاً من نوالك ، بل احعلي له في البيت المقام الأول بين عبيدنا ، وهيئيه وأهليه للقيام بمصالحنا في المستقبل ، وأدبيه وأرشديه ، لما يكمل له النوع والثقافة، نعم نحن ربنا باشترائه، ولا سيما بذلك الثمن الذي لا يذكر ولا يساوي حذاء نعله ، لكن الفوز الأكبر إنما يكون بتثقيفه وتأديبه وتأهيله أن يكون عضواً عامـلاً معنا ، وساعداً قوياً لنا في المستقبل ، فهذا هو الذي يضمن لنا الفوز بكل معنى الكلمة »

وأما هي فقالت في نفسها (نِعِمّا فعل ، وحبذا ما قال) لأنها لما رأت يوسف أحبته حباً لا مزيد عليه لما رأت فيه من جمال الخلق والخَلق وبذه الآية نفيد أن عزيز مصر ُعني به ، وقدم له كل مايلزم للصغير جسديا واديبا ، حتى وصل لسن الرشد ، وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (آ ٢٢) يفيد أن يوسف حينما بلغ مبلغ الرجال ، أرشده الله ووفقه لكل مافيه نموه روحيا، فمرمى مجموع الكلام أن الأرض والسماء ُعنيتا بيوسف ، عنيت الأرض بكفالته وتربيته وتثقيفه ونموه ، ماديا وأدبيا ، وهذه هي المدرسة الابتدائية التي تعلم فيهـا التعاليم الابتدائية منذ ما كان عمره (١٧) سنة الى ان بلغ أشده ، ولما بلغ أشده ُعنيت السماء بإرشاده وتوفيقه وتعليمه الحكمة والعلم ونموه روحيـاً ، وهذه هي

المدرسة الثانوية ، التي تعلم فيها العلوم العاليـة ، وأما مدرسته عند أبيه ، فكان عبارة عن « بستان أطفال »

مصر أيام يوسف

وأما مصر أيام يوسف ، فهي مدينة « صوعن » ويقال لها « تانيس » ، وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلائل الهكسوس الثلاث ، وهي في بحرية مصر الحالية ، وسميها اليونان « طانس » وتسمى اليوم « صان » وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقيها سهل متسع يسمى بلاد « صوعن » وهذا السهل هو البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » التي سكنها بنو اسرائيل ، (فصوعن) هي عاصمة مصر السفلى ، أيام الرعاة ، وبسط المقام إن كلمة « مصر » بحسب الأصل عبارة عن وادي النيل ، وقد تطلق هذه الكلمة ويراد بها خصوص العاصمة ، وعاصمة مصر السفلى في ذلك العصر عصر الهكسوس كانت (صوعن) فإذا أريد من كلمة « مصر » في هذه الآية خصوص تلك العاصمة ، كان اللفظ مجازاً ، من قبيل تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا كما يطلقون اليوم كلمة « مصر » على خصوص « القاهرة » عاصمة مصر اليوم ، وكلمة « الشام » على « دمشق » عاصمة الشام اليوم

ومما يجب أن نعلم أن « مصر القاهرة » إنما بنيت ووجدت أيام « معز الدين الفاطمي » (سنة ٣٥٠ ب هـ) بيد جوهر الرومي القائد

(حسن جداً)

(وقال الدي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

- ٣ -

وقال السيد الكلسي (١)

شيء حديد عن حياة يوسف

انتقل يوسف الآن إلى طور آحر من أطوار الحياه ، ولم يعد دلك الإنسان المهين المثوى ، دلك الانسان الحالس في « سوق الرقيق » دلك الانسان المزهود فيه ، لا لا بل صار دلك الانسان الكريم المثوى ، دلك الانسان المقيم في قصر « العزيز » مرغوباً فيه ، محساً مرحواً

وبهده المناسبة يخالج نفسي نصع مقولات لها علاقة بهدا البحث أرجو أن نلقى أدناً صاغية من حضراتكم

مصر مهبط الأنبياء والأولياء

المقولة الأولى — بمناسبة رحلة يوسف الصديق الى مصر نقول إن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى ، اليها قدم إبراهيم الخليل وزوجه سارة فى فجر التاريخ ، وفيها بلغ يوسف شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد ، وإليها هاجر أبوه يعقوب ومعه أسرته جميعاً ، وفيها تكاثر بنو اسرائيل ، وفيها ولد هرون وموسى ، وإليها قدم المسيح فى طفولته مع أمه ورحلها يوسف النجار — فيما يقولون — وفيها مراقد آل البيت النبوي الشريف — حسب الشهور —

(١) نسبه الى كلس وهى اليوم فى بلاد الاتراك

وفيها أثر النبي موسى في كنيس الاسرائيليين بعصر القديمة ، فان الاسرائيليين يعتقدون أن النبي موسى أدى فرائض الصلاة في هذا المكان ، وفيها الامام الليث ابن سعد ، والامام محمد بن إدريس الشافعي ، فأرضها غنية بتلك الذكريات الدينية والآثار المقدسة

منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين

المقولة الثانية — يظهر من الآية الكريمة أن المصريين في ذلك العصر — وهم شرقيون — كانوا يحترمون (المرأة) ، ويعتبرون أنها ذات الحول والطول ومصدر العمل البيتي ، وأنها ليست في بيتها متاعاً لا قيمة له، ولا أنها في البيت (أداة) غير عاملة ، ولا انها فيه تحت رحمة زوجها ، مسلوبة الحرية والإرادة ، بل إنها كانت عاملة آمرة ، ذات سلطان ، ولها قيمة معترف بها ، نعم نعم لقد كان للمرأة عند المصريين القدماء مقام ممتاز ، فكانت تعقد العقود ، وتقوم بالأعمال التجارية ، وتنهمك في الأمور السياسية ، ويقول بعض العلماء « إن الله عندما أراد أن يخلق حواء من آدم ، لم يخلقها من عظم رجله ، لئلا يدوسها ، ولا من عظم رأسه ، لئلا تسود عليه ، ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » ، وقال آخر « المرأه حلقة عظيمة فى سلسلة الحياه الوطنيـة ، وهي أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل المدرّب ، ومن مدير الأعمال العظيمة ، ومن الاستاد فى العلوم والفنون » وقال ثالث « المال كله من الرجال ، ولكن كله للمرأة »

وغني عن البيان أن فوطيفار شرقي ، وقد لفظ بالوصاه الآنفة الذكر إلى قرينته زليخا ، التى تنم عن اعتبار (المرأه) ، ومن ههنا نعلم أن الغربيين يظلمون الشرقيين فى زعمهم أن الشرقي كان ولا يزال ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإنا نرى هذه الآيه تفيد عكس ما يزعمون ، فهي تشير إلى أن(الشرقى)

كان يحترم المرأة ويراعي عواطفها ، وربما أكثر من العربي، فالعربي ، اليوم مهما بلغ من احترام المرأه ، ومهما حرص على مراعاة إحساساتها، لا تراه يتنازل لدرجة أنه إذا استأجر خادمة مثلاً يقول لامرأته « أكرمي مثواها » ولو فرض أنه تنازل وقال لها ذلك ، فهو يقوله قولاً جامداً جافاً خالياً من بيان العلة ، ولا يرى نفسه في حاجة أن يذكر لزوجته علة إكرام تلك الخادمة ، كما فعل هذا المصري فوطيفار

منزلة المرأة عند العرب

وهكذا كانت معاملة أكثر العرب للمرأه ، إذ أن من أسمائها عندهم (أم المثوى) ، وفي الحديث الشريف « المرأة سيدة بيتها » و « رفقاً بالقوارير » يعني النساء « والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها » ، وإذا إذا أردنا أن نستقي معاملة رجال العرب لنسائهم ، وجب علينا مراجعة اشعارهم التي هي ديوان أخبارهم ، فنرى أنهم كانوا ينظرون إلى المرأه نظراحترام ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما له في نظر العرب من المقام السامي ،ومن الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا (المرأة) التي إذا رقى فى نظرها، فقد رضي عنه كل الناس ، وترى ذلك واضحاً جلياً فى أشعار حاتم الطائي سيد الكرام ، وعنترة العبسي شيخ الشجعان، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلا محدثا امرأه من قومه بأنه المدافع عن الشرف ، الحامي للحقيقة ؟ ترى العربي إذا عذلته المراه على الشرف ، وأشارت عليه بالقصـــد ، يجيبها بأرق ما يجيب به مخالف فى الرأي فيقول

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني كريم على حين الكرام قليلُ

ويقول المفتخر بالشجاعة

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنة مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي ؟

أوَ لا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفتخرون بمحامد قومهم ، وعظيم أعمالهم ، لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا (المرأة) قسطها مما تحب من النسيب أو الغزل ، ويرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب ، فيقول أحدهم

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة .

ويقول الآخر لزوجه

سَلي الطارق المعتر ـ يا أمّ مالك ـ إذا ما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي وهو أول للقِرى وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وقال ابن المغيث

لا تعذليَ فيما ليسَ ينفَعُني إليكِ عني جرى المقدار بالـ

سأتلف المالَ في عُسْري وفي يُسْر إن الجواد الذي يعطي على العدم

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة بل بالعكس يجد فيها علائم التجلة والتشريف وتراهم يفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم ، كما يفخرون بنسبتهم إلى آبائهم ، وترى الواحد منهم يتكنى بأول مولود يرزقه ، لا يفرق بين ذكر وأنثى ، وقد عرفنا كثيراً في عرب « بئر السبع » ممن يتكنى باسم بنته ، فيقال له « أبو زينب » ، ويقال لآخر « أبو مبروكة » وكانت المرأة عند

العرب ، إدا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمّعت ، وإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونحجت ، وإن كانت وجهتها إراده الانتقام والشر ، أشعلت النار بين الأحياء

وإليكم هده الحكاية التاريخية التي هي عجيبة في بابها ، وعجيبة جداً

قال «الحارث بن عوف المُرّي» «لحارِثة بن سنان»في إبان الحرب بين عَبْس وذبيان «أتراني أخطب إلى أحد فيردني ؟ ـ قال نعم ، «أوسُ بن حارثة الطائي»ـ فقال الحارث لغلامه هيء لي مركباً،ثم ركب هو وغلام،ومعهما «خارجة»حتى أتيا «أوساً» ، فوجداه في داره ، فلما رآى (الحارثَ) رحب به ، وسأله عن مجيئه، فقال جئتك خاطباً ـــ فقال «أوس» لستَ هناك ، فانصرف الحارث ولم يكلمه ، ثم دخل أوس على امرأته مُغضَباً ، وكانت من «عبس» ، فقالت له من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم يكلمه ؟ ـــ قال ذاك سيد العرب «ابن عوف» ـــ قالت فما لكَ لم تستنزله ؟ ـــ قال إنه استحمق، جاءني خاطباً ـــ قالت أفتريد أن تزوج بناتك ؟ ـــ قال نعم ـــ قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ ـــ قال هكذا كان ، ـــ قالت «فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له إنك لقيتني ، وأنا مُغضَب ، وكلمتني بأمر لم تجعل له بساطاً قبل ذلك ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت ، فارجع إليّ ، ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيوافيك» ففعل ذلك «أوس» ، وردّ «الحارث» ، فلما وصلوا إلى بيت أوس ، قال أوس لزوجه ، ادعي لي فلانة ، لكبرى بناته ، فأتته ، فقال يا بنية ، هذا «الحارث بن عوف» ، سيد من سادات العرب ، وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، ـــ فقالت لا تفعل ، لأني امرأة في وجهي رده (١) ، وفي خلقي بعض العُهدة (٢) ، ولست بابنة عمه ، فيرعى رحمي ، وليس

الرده شوه بها قبح (٢) العهده ضعف في العقل

بحارك في البلد ، فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما فيه — قال قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، ثم دعى الثالثة ، وهي صغراهن ، فلما عرض عليها قالت « أنت وذاك » ، فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت « لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارثَ ، وهيئت إليه في بيت أبيها ، فلما خلا بها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت « مــــه » أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله مالا يكون ، فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق ، أراد قربانها ، فقالت أكما يفعل بالأمة الجليبة ، أو السّبيّة الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعدّ لها ما يعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها ؟ اخرج الى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك ، فلن يفوتك ، فخرج « الحارث » مع « خارجة بن سنان » ، فأصلحا بين القوم ، وحملا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، مقسطة على ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة (المرأة) في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وتبين كيف كان الرجل لا يروج بناته ، إلا بعد أن يستشيرهن ، ثم يقف عند إرادتهن ، نعم ، نحن لا يمكننا أن ندعي ان هذا كان أمراً عاماً عندهم ، بحيث تكون (المرأة) محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله هو إن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان حال الأمة من غير ان يقابلوا بالنكير ، يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل ، بل كان شيئاً معهوداً لا تنفر منه طباعهم

يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ، ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً ما ، فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتي ، واستشرت امرأتي في زواج بنتي ، فكان مني ومنها كيت وكيت ، ولا يجسر أحد أن يقول على صفحات الجرائد لا تلوميني يا امرأتي على بذلي الأموال لأني طبعت على الكرم ، أو يقول قومي ياسيدة بيتي مرحوه غير مأمورة ، هيئي لنا الطعام مثلاً — كما وقع كل هـــذا من الغرب ، فنحن نعلم يقيناً أن شخصاً لو قال شيئاً من هذا القبيل ، لقابلته النفوس بالاستنكار ، لأنه ليس من مألوفات عادات القوم ، ومن ذلكم يمكننا أن نقول إن المرأة الشرقية كان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الوافر

منزلة المرأة في الاسلام

والشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ،وساوت بينهن وبين أزواجهن في أكثر الاحكام بالمعروف ، إلا رئاسة المنزل ورعاية الأسرة ، وقد هتف القرآن بمجد المرأة قائـــلا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ، لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣٠ ٢١) وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك ، لأبلغ من كثير من الأسفار التي ألفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، الا وهي قوله عز وجل ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢ ٢٢٨) وأما قوله ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٢ ٢٢٨) فإنما هي درجة القوة ورياسة البيت التي أعطيت للرجل بحق ، لأنه أقدر على الكسب والحماية ، وهو المطالب بجميع النفقة ، وقال تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٤ ١٨) .

كما ذكر في آية أخرى ساوى بينها وبين الرجل في جميع الأوامر والنواهي الدينية ﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات ،والمؤمنينَ والمؤمنات ،والصادقينَ والصادقاتِ والصابرين والصابراتِ ، والخاشعين والخاشعاتِ ، والمتصدقـين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فُروجَهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ ـ أعدَّ اللهُ لهم مَغفِرَةً وأجراً عظيماً ﴾ (٣٣ ٣٥) ، وقال جل ثناؤه ﴿ إنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عاملٍ منكم مِنْ ذكَرٍ أو أنثى ﴾ (٣ ١٩٥) فعلَّمَ الرجل أنها مِثل له في الآخرة ، كما هي في الدنيا ، ولا امتياز بينهما في ذلك ، ويقول تعالى في الزوجين ﴿ فإنْ أرادا فِصالاً عن تراضٍ منهمـا وتشاوُرٍ ، فلا جُناحَ عليهما ﴾ (٢ ٢٣٣) إذ اعتبر في إرضاع الولد وفطامه تراضي الوالدين وتشاورهما ، ولم يكتف برأي الزوج فقط ، ولا يخفى ما في هذه الآيات الكريمة وغيرها من اعتبار المرأة واحترام حقها ، ومعاملتها بالاحسان والمعروف ، وقد اهتدى كثير من الأمم ، ببعض هدي هذه الشريعة ، في هذه المزية ، ولم يبلغ أحد منهم شأوها ، ولكن أهلها قصروا في إقامتها ، حتى صاروا ـ مع الأسف ـ حجة عليها عند من يجهلها

وفي الحديث الشريف « أكمل المؤمنين إيماناً ، أحسنهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهله »وفيه« خياركم خياركم لنسائكم»،وفيه أيضاً«استوصوا بالنساء خيراً»وفيه«المرأة راعية في بيت زوجها،وهي مسؤولة عن رعيتها » وفي لفظ « المرأة سيدة بيتها »

ومن أعجب المصادفات أن ينعقد مجمع « ماكون » في « فرنسة » في زمن النبي ﷺ أي في سنة ٥٨٦ لميلاد المسيح ، ويبحث هل المرأة إنسان ؟ هل لهـا نَفْس ؟ ثم قرر ان لها نفساً وانها إنسان ، لكنها خلقت لخدمة الرجل ، ولم يكد يصدر قرار المجمع هذا ، حتى بعثه النبي ﷺ في الحجاز ، ورفع صوته

قائلاً « إنما النساء شقائق الرجال » وقائلاً « يعلبن كريماً ويغلبهن لئيم » ثم لم يكن احترامه ﷺ للنساء والحض على احترامهن بالقول فقط ، بل دعم ذلك بالفعل ، إذ أنه كان ﷺ يضع ركبته على الأرض ، لتضعَ زوجته عليها رِجْلَها إذا أرادت أن تركب ، وهذا أبلغ ما يكون في الاحترام وحسن المعاملة

وحكى لنا المؤرخون ومنهم « ابن جرير » أنه استأذن رجل على « عمر » (ض) فدخل بيته وقت الغداء ، فقال عمر (يا أم كلثوم غداءنا) ، فأخرجت اليه خبزة بزيت ، في عرضها ملح لم يدق فقال يا أم كلثوم ، ألا تخرجين الينا ، تأكلين معنا من هذا ؟ – فقالت إني أسمع عندك حس رجل – قال نعم ولا أراه من أهل البلد – قالت لو أردتَ أن أخرج إلى الرجل لكسوتني ، كما كسا (ابن جعفر) امرأته ، وكما كسا (الزبير) امرأته ، وكما كسا (طلحة) امرأته – قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟ ثم قال للرجل « كُلْ ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا »

فهذه الحادثة تبين كيف كانت (المرأة) في صدر الإسلام ، فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين ، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها ، كما تتكلم أعظم الرجال نفساً ، ولي الشرف أن أقول ذلك كشرقي يدافع عن شرقه بأنه يحتقر المرأة والعياذ بالله

(تصفيق حاد من المقصورة التي فيها السيدات)

اخطاء فوطيمار

المقولة الثالثة – طلب فوطيمار من زليخا العناية بيوسف ، لان للمرأة في بيتها – الذي هو مملكة صغرى – إدارة وزارة الداخلية والمعارف ، كما ان للرجل

إدارة وزارة المالية والأشغال العامة والتجارة والحربية والخارجية ـ مع الرئاسة العامة ـ ، المرأة رقيقة وصابرة على التربية ، فلذلك يجب أن تكون هي مـــــدبرة المنزل ، ومع كون المرأة هي الكافلة للطفل أو العبد الصغير ، فالرجل هو الكافل للمرأة ، وهو سيد المنزل الأعلى ، لقوة بدنه وعقله ، وكونه أقدر على الكسب والدفاع ، ولذلك نراه الآن هو (الآمر) للمرأة

وبعد هذا كله ، واستدراكاً على ما مرّ ، فعندنا أن فوطيفار أخطأ فيما عمل من ثلاثة وجوه

أولاً ـ إحالة إكرام يوسف على تلك المرأة الناعمة حليلة زوج لا تأتي النساء، بحال أن هذا العبد العبراني ، كان أبدع سطر خطته يد القدرة الالـٰهية في لوح الوجود ، ولم ينعقد النطاق على مثل قوامه رشاقة واعتدالاً ، ولا اشرقت الشمس على مثل وجهه حسناً وبهاء ، فكان ينبغي لفوطيفار ، إحالة إكرام مثواه للخادمات والقهرمانات اللاتي في القصر، ففي وصية « علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه لابنه « محمد بن الحنفية » « لا تمكّنّ المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها ، فان المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة »

ثانياً ـ مسألة السفور والاختلاط الموجودين في القصر فيها أساسات كل بلاء.

ثالثاً ـ إباحة الخلوة ، فمجموع هذه الأمور الثلاث شكّل سبباً نشأ عنـــــه سهولة مراودتها له عليه السلام

وهنا أتذكر ما كان أنشد فيه صديقي السيد حسن العبيدي مفتي الموصل قال-

أُولو العلم خانوا ، واستبد أُولو الأمر

وطبت جميلاً ً جهلهـا ربـــة الخدر

ثلاث جرائـم عشــ بأمــــة

وقفن بها طبعاً على حافة القـدر

ولو أن أمراء المصريين ، ومنهم فوطيفار ، ولو أن علماء مصر ، ومنهم كهنتها رجال الدين ، ولو أن نساءها ومنهن زليخا امرأة العزيز ـ لو أن هؤلاء الحراثيم الثلاث ، التزموا طريق الهدى ، وقاموا بواجبهم فى مثل هـــذه الحادثة ، فمنعوا استرقاق الأحرار واستخدام الشبان داخل البيوت ، لما وقع هذا الحادث وأمثاله

المثوى

المقوله الرابعة ـ المثوى والثَّواءوالمحلّوالمأوىوالمغنى والمُسدىوالمتبوّأوالمباءة والمكان والمعرّس والمقام والنُزل والسَّكن والنادي والمَدِيّ ـ كلها تقريباً بمعنى واحد ، فمعنى « أكرمي مثواه » اجعلي منزله ومُقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله « إنه ربى أحسن مثواى » والمراد بمعدبه بالإحسان وتعهده بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، ويقال للنزيل كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ يُسأل بذلك أصحاب البيت الذى نزل فيه يريد هل طابت نفسك بثوائك عندهم ، وهل راعَوا حق نزولك بهم ؟

مرادفات كلمة مصر

المقوله الخامسة ـ يقال لمصر « أم خَنُور » والخنور الداهية والنعمة ضد ، و « الكنانة » ، و « مصرايم » أخذاً من مصرايم بن حام ، ويقال لها « أرض حام » و « رَهب المتكبر » ، وأما اسمها القبطي فهو « خمي » أي اسود ، أخذاً من لون تربتها

واما كلمة « ايجبت » اللاتينية ، فمأخوذه من لفظ « القبط » أو بالعكس

(مرجى مرجى)

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

قال حمدي باشا الانطاكي [١]

وصية فوطيفار لزوجته

تفرس فوطيفار في يوسف فوجد أن له غناء فيما يسند إليه ، وكفاية فيما يقلد إياه ، فكان يتنازعه عاملان ، قائمان عنده مقام الاحتمال ، فهو يتراوح بينهما ، وهما فكرة اتخاذ يوسف كخادم ممتاز ، وفكرة تبنيه ، فلذلك يوصي زوجته زليخا به قائلاً ما أحوجنا إلى خادم كهذا الغلام ، وما أحوج هذا الغلام إلى أناس مثلنا ، ليس لهم ولد ، يعيش عندهم بالراحة والرفاه ، ونعلمن إنه لا تتكون أخلاق الفتى في عهد طفولته أو في عهد شيخوخته ، بل في عهد شبابه ، فإذا ربيته تربيـــة حسنة ، وكملته كمالة صالحة ، وهذبته تهذيباً حسبما أريد منك ، بعد قليل من الزمن نجد فيه عبداً خادماً أميناً ، يقوم بمصالحنا ، ويحمل عنا شيئاً من أعباء هذه الحياة ، أو نجد فيه لنا ولداً مطيعاً ، نكون نحسبه كأب وأم ، ويكون لنا قرة عين في الحياة ووارثاً وذكراً بعد الممات ، بحيث يحسب من أسرتنا ، وله ما للولد من الإرث والنصر والمحبة ، وعلى أولاد الصلب السلام

ويلاحظ أن فوطيفار لم يكتف بتوصيته زوجه وصية مجرده عن الحكمة والعلة ، بل أردفها بأن بين لها السبب الدافع له على هذا الأمر ، وهو لطف منه

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سوريه)

شيء عن أن المصريين ـ ولا سيما كبراؤهم ـ كانوا أهل لطف مع أزواجهم ، أهل لين ورفق ، حتى إذا أرادوا منهن شيئاً ، لم يقتصروا على الأمر الجاف اليابس ، سواء أَوَضَحَتْ حكمته أم لا ، بل كانوا يبينون لهن علته وثمرته ، وهذا من الواجبات الأدبية الاجتماعية

يوسف وكيل فوطيفار

وقد تمّ ما توسمه فوطيفار في يوسف بأحلى مظاهره فإن يوسف نفع فوطيفار نفعاً عظيماً ، فصح في بيت سيده نجاحاً باهراً ، وكان الله معـــه فى كل ما يفعل بالتوفيق والسداد ، وكان علة بركة ونجاح لسيده ، فوكّله على جميع أمور بيته ، ودفع ليده كل ما كان له ، فحصلت من جراء ذلك البركات فى واردات فوطيفار ، وتدفقت لأجل يوسف الخيرات ، ثم نفعه وعقيلته بسلوكه معها بالأمانة والشرف والطهارة ، وعدم خيانته له في عقيلته ، ثم إنه قام بنفع عام حينما أسند لعهدتـــه « نظارة بيت المال » بمصر ، وصار « عزيزاً » فخدم بذلك مصر والمصريين ، وأخيراً نفع المصريين بما أجرى الله على يديه من هداية وإرشاد ، إذ أرسله الله إليهم نبياً ورسولاً (٤٠ ٣٤)

امرأة العزيز تفقد وصية زوجها بيوسف

وأما زليخا زوجة فوطيفار ، فقد عملت بوصاة سيدها ، وأكرمت يوسف أتمّ إكرام ، ورفهته أتمّ ترفيه ، ولكن ربما كان فى ذلك الإكرام والترفيه ، بذر خفية للغرام المنبعث فى أنحاء نفسها ، سيما لأنها حينما نظرت إلى يوسف ، وقع من نفسها ، وملك عليها جميع مشاعرها ، وحل من قلبها محلا لم يحله أحد من قبل ، نظرته فإذا هو حسن الصورة بحيث ما كانت تظن أن الأرض تنبت مثله ، نظرتـه

فإذا هو صبيح مع حاذب وحلاوة سدران في البيض ، ولهذا وقع كلام سيدها في ادنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، برداً وسلاماً ، وكأني بها قالت له لبيكَ لبيكَ أمرك مطاع ، ووصاتك نافذة .

وقد اغتبطت زليخا بتلك الصلة التي نشأت بينها وبين هـــذا الفتى العبراني ، بوجوده في قصرها كعبد وخادم لها ولسيدها ، وبودها لو استحالت تلك الصلة إلى صلة أخرى غيرها ، أدنى إلى نفسها وألصق بفؤادها ولكن لطهارة هـذا الفتى العبراني وعفته لم تتم لها ما أرادت

وهنا لا بد لي من الجهر قبل مغادرة هذا المنبر الحر بأن أخالف بعض إخواني الحاضرين في كلمة ، وهي أن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء ، وعندي أن المسئول عن حادثة « زليخا » المشئومة والمسبب لها ابتداء هو سيدها « العزيز » وهكذا يخطىء ذوي البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيما البيض بنسائهم فهو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة ، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا ، فرضاؤهم شرف وغضبهم شرف !

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ٢ —

وقام عبد الكريم الادلبي [1] وقال

سأقصر الكلام هنا على أمرين

المقصد من استعمال حرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً »

الأمر الأول ـ هو ان حرف (أو) في قوله « أو نتخذه ولداً » ليس لمنع

(١) نسبه الى ادلب من بلاد الشام (سوريه)

الجمع ، بل لمنع الخلو ، كما في قولك « جالس الحسن أو ابن سيرين » ، أي لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، فلا ينافي أنه يجوز اجتماعهما فيه في آن واحد ، فقد يعممهم مع اتخاذهم إياه ولداً .

الظهار والتبني عند المصريين وفي الاسلام

والأمر الثاني ـ هو ان عبارة « او نتخذه ولداً » ظاهرة في ان التبني كان مشروعاً عند المصريين ، كما كان عند العرب قبل الإسلام ، وفي صدر منه ، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه ، قال تعالى ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قلبَيْنِ في جَوْفِهِ ، وما جَعَلَ أزواجَكُمُ اللائي تُظاهِرُونَ منهُنَّ أُمَّهاتِكُم ، وما جَعَلَ أدعياءَكُم أبناءَكُم ، ذلِكُم قولُكُم بأفواهِكُم ، واللهُ يقولُ الحقَّ ، وهو يَهْدِي السبيلَ ، ادعُوهم لآبائِهِم هو أقْسَطُ عندَ اللهِ ، فإن لم تعْلَموا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدِّينِ ومواليكُم ، وليسَ عليكم جُناحٌ فيما أخْطأتُم بهِ ، ولكن ما تَعَمَّدت قُلوبُكُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٣٣ ٤ و٥)

فالآية نص على أنه كان يوجد عند العرب شيئآن الأول الظهار ، والثاني التبني ، فالكتاب يقول إن قلبا واحداً لا يمكن ان يتصور أن أنثى واحده هي في آن واحد زوجة وأم لشخص ما ، لأنه تناقض ، وكذا يستحيل ان يتصور القلب الواحد أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد ، لأنه تناقض ، وبناء عليه فهذا القول إنما هو قول لساني لا قلبي ، أي لا يمكن الانسان أن يعتقده بقلبه ، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين ، نعم ، لو كان للانسان قلبان ، لأمكن أن يعتقد كل قلب بعقيدة تضادّ العقيدة الأخرى ، فقوله تعالى ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قلبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ ليس معناه أن العرب كانوا يعتقدون هذه

العقيدة لا وإنما نؤتى بهذا القول في بدء الكلام ، إذا كان بعده شيء متناقض لا يمكن أن يدخل في العقل الواحد (حسن)

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

— ١ —

وقام فضل الله الاسكندري (١)

تمكين يوسف الأول

أولاً ـ تعليقاً على قوله « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » فيه اشارة إلى ما تقدم من إنجاء يوسف وعطف قلب العزيز عليـــه ، والكاف من (كذلك) منصوب تقديره ومثلَ ذلك الانجاء والعطف ، مكنا ليوسف في هذه الحياة الجديدة ، حياةوجوده كمملوك في بيت عزيز مصر ، لأنه أصبح أثيراً عندفوطيفار وزليخا ، مكث عندهما في مأمن من الغوائل والحسدة ، مرتاح الضمير ، وملك ثقة سيده ومحبة سيدته ، وهذا هو عصره الفضي ، وكان هـذا التمكين لأول مرة عشر سنين ، من حين أن كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ من السن (٢٧) سنة ، وأما عصره الذهبي ، فانما ابتدأ بعد جلوسه على كرسي « وزارة المـالية » وعهد مليك مصر له بالوكالة المطلقة

كان في عصره الأول ، وهو موضوع حديثنا الآن قرير العين، رفيع الجناب، قد دفع كل شيء ليده ، مع أنه وجد في بلاد غريبة ، ومملكة غير مملكته ، وعبـد قوم لا يعرف سُنَنهُم ولا شِيَمَهم، مع افتراق الأديان وتباين الأشكال ،ومنافرة المذاهب ، ومع كل هذا كان النجاح في أعماله ، ألصق به من ظله ، وأسرع إليه من الماء إلى منحدره

---

(١) نسبه الى الاسكندريه من البلاد المصريه

كان هذا التمكين الأول آخر عهد يوسف بحياته القديمة ، وأول عهده بحياته الجديدة ، وحياته القديمة هي حياته في حضن أبيه في بادية فلسطين ، مرؤوساً بين إخوته ، وحياته الجديدة هي حياته في قصر فوطيفار في حاضرة مصر ، رئيساً بالوكالة عنه في كل أشغاله

ثانياً — رب سائل يقول ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبداً في بيت فوطيفار ثم بلية محنة ، ثم بلاء السجن بضع سنين ؟ فالجواب هو رب محنة في وسطها منحة ، فلولا هذه العبودية لما كان محال للمحنة ، ولولا هذه المحنة لما كان هذا السجن ، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة ، ولولا رئيس السقاة ، ماعرفه ملك مصر ، ولولا ملك مصر ، ما صار يوسف على خزائن الأرض ، ولا صار (عزيز مصر) ولا وكيلاً مطلقاً عن مليكها الريان ، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكلت سلسلة نشأ عنها تمكين يوسف في الأرض

ثالثاً — يتعدى التمكين باللام وبنفسه ، فيقال « مكّن له في الأرض » جعل له فيها مكاناً ، ونحوه أرّض له ، جعل له أرضاً ، ويقال مكّنه في الأرض ، أي أثبته فيها ، والتحقيق ان معنى مكّنه في الأرض أو في الشيء ، جعله متمكناً من التصرف ، تامّ الاستقلال فيه ، وأما مكّن له ، كما في هنا وكما في قوله تعالى في ذي القرنين ﴿ إنّا مَكّنّا له في الأرض ﴾ ، (١٨ ٨٥) فهو على تقدير المفعول المحذوف ، كأن قال مكنا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف ، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُم الذي ارتضَى لهم ﴾ ، (٢٤ ٥٥) وقوله تعالى ﴿ أوَلَم نُمَكِّن لهم حَرَماً آمِناً ؟ ﴾ (٢٨ ٥٧) ومعناه انه مكن لهم جميع شعائر دينهم ، يتظاهرون بها كما يشاؤون ، ومكن لهم جميع جهات الحرم يمشون في أي جهة

أرادوا ، في هذا التعبير من المبالغة والاتساع ما لا يوجد في التعبير الأول ، وقيل إن مكنّه ومكن له كوهبه ووهب له ، وقال أبو علي اللام زائدة ، كردف له

رابعاً — وقعت جملة « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » في هذه السورة مرتين ، فقيلت فيه أولاً ، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله ومحبوباً منه حد الحب ، وقيلت فيه ثانياً ، باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية ، ومحبوباً حـــد الحب من الملك الريان ، فالتمكين الأول خاص ، وبطريق التبعية لعزيز مصر قوطيفار ، لأن نفس العبد من نفس سيده ، فكان يوسف يتجول في مستعمرات سيده ، ويأمر الزراع ويساهم ، ويحل ويربط ، على حساب سيده (العزيز) وبهمته ونفوذه

تمكين يوسف الثاني

وأما التمكين الثاني فقد كان عاماً في كل المملكة الهكسوسية ، وبطريق الاصالة ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى : « يتبوأ منها حيث يشاء » لأنه هو بذاته صار « العزيز في مصر » مع « وزارة المالية » ومع الوكالة المطلقة عن الريان ، وههنا نكتة يجب الانتباه إليها ، هي أن التمكين الأول ، كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « عزيز مصر » وأما التمكين الثاني ، فكان ناجماً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « مليك مصر » ، فالأول تمهيد للثاني ، والثاني أقوى وأمتن من الأول ، وأوسع حداً وأطلق حرية ، وإن شئت قلت إن التمكين الأول كان نواة لشجرة التمكين الثاني ، « وأول الغيث قطر ثم ينهمل »

(ولنعلمه من تأويل الاحاديث)

—١—

قال الشهاب الخفاوي(١)

تعليم يوسف

كأنّ العناية الالهيّة رأت أن يوسف بحسب السّن الجارية يحتاج في تعلمه علوم الاجتماع ، والعلوم الكونية ، والعلوم السياسية ، والعلوم المدنية ، ومبادلة الكلام ، والأخذ والرد ، والقبول والرفض ومصائر الكلام ومراميه وعواقبه و و الخ الخ ، فحضرّ سبحانه وتعالى الأسباب التي اقتضت ذهابه لأرقى مملكة في العالم إذ ذاك ليتعلم فيها ما ذكر وما إليه مما تتوقف معرفته على وجود الانسان في محيط راق

ومما لا مشاحة فيه ان كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة ينابيع الارث والمحيط والتجارب ، فعلم يعقوب وفرط ذكائه ووفرة مداركه قد انتقل شيء منه لولده يوسف بطريق الارث ، فاخذ منه نصيباً مفروضاً ، ووجود يوسف في محيط كمصر أكسبه مبلغاً عظيماً من الفهم والنبل والثقافة المصرية ، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها ، كالكلدان واليونان وأشور وآرام ونحوها ، وقد حكى لنا التاريخ ان اليونان تلاميذ مصر وعنه علمها في المدنية ، والرومان تلاميذ اليونان ثم صار العرب تلاميذاً للرومان واليونان والفرس ، وصارت اوربا تلميذة للعرب ، فاساس المدنية والرقي والمعارف هو مصر ، وتجارب يوسف واحتكاكه

(١) نسبة الى خفاجة من بلاد فلسطين

بذلك المجتمع الراقي زاده فضلاً على فضل ، وجعله يضم الى التالد طريفاً ، فقوله تعالى ﴿ ولنعلمه الخ ﴾ معناه لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع ، وما لبث سبحانه أن وفى بما وعد فعلّمه من تأويل الأحاديث ما تطرب اليه أكباد الابل ، كما قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ولولا هجرته لمصر لانحصر فضله في الحصة التي وصلت اليه من طريق الارث ، فالله القدير الذي لا يخرج فعله عن السُنَن الكونية ، ولا يتجاوز ربط المسببات بأسبابها ، أرسله لمصر ، ومكّن له فيها ليزيده من فضله ، بزيادة الأسباب التي هي أيضاً من وضعه سبحانه وتعالى

فوائد الارتحال والسفر

لا يسع أحداً أن ينكر أن الارتحال من إقليم لإقليم أكبر ، والانتقال من بلد لبلد أعظم — من شأنه زيادة العلم ونمو مادته، خصوصاً إذا كان الاقليم أو البلد الذي ذهب اليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ، ﴿ الأَعْرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً ، وأجْدَرُ أن لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما انزلَ اللهُ ﴾ (٩ ٩٨) ، وفي الحديث « ساكن الكفور كساكن القبور »

وقد سافر « ابن البيطار » إلى بلاد الأعارفة ، لجمع غرائب النبات وتدوينه ، وسافر الامام « البخاري » لجمع صحيحه ، وساح كل من « الأسد الافريقي » و « البيروني » و « الشريف الادريسي » في آسية وأفريقية والجزر ، واكتشفوا تلك البقاع ، ووصفوا لنا تلك المواطن، كما ساح « ابن بطوطة » وأخبرنا بالعجائب.

ولذلك سن الشارع لنا السياحة ، واستشراف أحوال الأمم ، وتعرف قواميس الخلقة والعمران ، والنظر في الكون ، وسبر أسرار الكائنات ، حتى قال عن

السياحة لأحل النطر في عواقب الأمم ﴿ قـــد حلَت مِن قَبْلِكم سُنَن ، وَسيروا في الأرض ، فانطروا كيف كان عاقِبَةُ المكذبين ﴾ (٣ ١٣٧) وقالعن السياحة لأحل النطر فى تبدلات الدول والشعوب والمواليد ﴿ قلْ سيروا في الأرض ، فانطروا كيف بَدأ الحلق ، ثم اللهُ يُنشِيء النشأةَ الآخِرة ﴾ (٢٩ ٢٠) ، وقال عن السياحة لأحل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون ﴾ (٩ ١١٢) وقال ﴿ تائبات عابدات سائحات ﴾ (٦٦ ٥) ولكن الرحال للقتال ، والنساء لخدمة الجيش وعونه ، وقال تعالى عن السياحة لأحل التعقـــل واستخراج النتائح من الأقيسة ﴿ أفلم يَسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يَعقِلون بها ، أو آذان يَسمعون بها ، فانها لا تَعْمَى الأبصار ، ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾ (٢٢ ٤٦) تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الانسان تعقلاً وفهماً وادراكاً ، أكثر وأكثر حداً مما لو بقي فى بيته وبلده ، فالسياحة تزيد في سعة المدارك ، وتُشْرِفُ بالانسان أسرار العالَم ، وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب ، وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة ، وهذا يعلو بالعقـــل والفكر ، ويسمو بها درجات متوالية على أقدار محسوسة ، فيحصل ما يسمونه « الترقى فى الهيئة الاجتماعية »

العلم الكسى والعلم الوهبى

وعي عن البيان أن العلم نوعان ، كسبي ووهبي فالكسبي يتوصل اليه بما يقرؤه الانسان فى الكتب السماوية ، وما يؤثر عن الأنبياء وما نسمعه من آثار أصحاب الأنبياء ، وكذا من علماء الأمصار وما نستفيده من دقائق اللغة وأساليبها ،ومن

علوم الكون ، وشؤون البشر ، وسنن الله في الخلق ، وأما العلم الوهبي فيكون زيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم

العطف على محذوف في القرآن

والواو في قوله « ولنعلمه » للعطف على محذوف تقديره « مكنا ليوسف في الأرض لأغراض شتى ولنعلمه الخ » ، وهذه طريقة قرآنية ، وأسلوب عربيّ لطيف ، ضابطه عطف مذكور على محذوف، للإيذان بأن المصلحة في إيجاد يوسف بمصر وتمكينه فيها ليست بواحدة ، بل المصالح في ذلك كثيرة ، منها ما لا تحويه العبارة ، ومنها تعليمه من تأويل الأحاديث ، ولهذا شواهد ومثل كثيرة في كتاب الله تعالى منها قول إبراهيم وإسماعيل (ع) ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (٢ ١٢٨) أي يا ربنا اجعلنا كذا وكذا واجعلنا مسلمين لك ،أو كأنهما يقولان وفي النفس حاجات وفيك نباهة ، وعلمك بها يغني عن ذكرها ، ولكننا نصرح الآن بواحدة منها ، وهي أن تجعلنا مسلمين لك ، ومنها قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ ١٨٥) ومنها قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ (٦ ١٠٥) ، ومنها قوله تعالى ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣ ١٤٠) ومنها قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ،وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ ١٥٤)

ومنها قوله تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني . ولتصنع على عيني ﴾ (٢٠ ٣٩).

ومنه حديث « أحوك البكري ولا تأمنه »

وقول الأبوصيري

يارب واجعل رجائي غير منعكس   لديك واجعل حسابي غير منخرم

وإنما أكثرنا من شواهد هذا النوع ، لأن بعض المفسرين تكلم ههنا بكلام غير صحيح ، وكان حقا علينا أن نذكر ما ذكرنا من الشواهد

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى   فؤادي ، ولكن للعتاب مواضع

هذا وأما الكلام في شرح « تأويل الأحاديث » بصورة مشبعة ، فقد كفانا فيه المؤونة أخونا الشيخ مصيوف الياقي في محاضرته على قوله تعالى ﴿ وليعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ (آ ٦) فليرجع إليه .   (أحسن)

(والله غالب على أمره)

— ١ —

قال السعيد الدوماني (١)

الله غالب على أمر نفسه أو على أمر يوسف

إن الله سبحانه وتعالى غالب على أمر نفسه ، لا يمنع عما يشاء ، ولا منازع فيما يريد ويقضي ، أو إن الله تعالى غالب على أمر يوسف ، يدبره ، لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره .

---

(١) نسبة الى قصبة دوما قرب دمشق (سوريه)

فالله تعالى غالب على أمره الذي يريده من سلامة يوسف وحياته، ورسوخ قدمه في أرض مصر، وتعليمه فيها من تأويل الأحاديث، معززاً مكرماً، فمحاولة إعدامه وزلزلته وإهانته وإذلاله عبث وضرب من المحال ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٥٨ ٢١)

والله غالب على أمره، غصباً عن الفلك، فلا بد من تمكين يوسف ولا بد من تعليمه وكل ما أراد الله له واقع لا محالة، ولا حيرة في الواقع، رغم حسد الحاسدين، وكيد الكائدين

والله غالب على أمره، فيوسف كان أصيب بموت أمه راحيل، ثم بحسد إخوته له ومناوأتهم إياه، ثم بالقائه في غيابة الجب، ثم بأخذ المديانيين له واسترقاقه كمملوك ثم بوجوده في بيت فوطيفار كخادم، ثم بالتهمة الباطلة في ذلك البيت، ثم بالاعتقال ظلماً، فكأن فضاء حياته معمل لنوازل الدهر وحوادثه، ولكن رغماً عن هذا كله، فقد كانت عاقبته الترقي لأوج العلا

وبعبارة أخرى إن الله غالب على أمره فيما غبر، وفيما حضر، وفيما يأتي من الزمان، لأنه فعال لما يريد، لا دافع لقضائه ولا مانع لحكمه في أرضه وسمائه، فاخوة يوسف أرادوا به كل سوء ومكروه، والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى، احتالت إخوته عليه، فأوقعوه في البلاء الشديد، فجعل تعالى وقوعه في ذلك البلاء سبباً في وصوله لمصر، اتهمته امرأة فوطيفار، وسعت في اعتقاله، فكان ذلك سبباً في تعرفه برئيس السقاة في السجن، الأمر الذي نجم عنه أن هذا الساقي أخبر بيوسف، حتى صار «عزيزاً» في مصر، صار عزيزاً بعد أن كان ذليلاً، صار مليكاً بعد أن كان مملوكاً، صار حراً بعد أن كان عبداً، صار فوق العرش، بعد أن كان تحت الأرض، فلهذا المعنى ونحوه قال تعالى ﴿والله غالب على أمره﴾

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قال عبدالمنعم السلطي (١)

جهل اكثر الناس ان الامر كله بيد الله

أولاً — أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون ان الأمر كله بيد الله تعالى وحده

ثانياً — أكثر الناس لا يعلمون ، أى لا يدركون حكمه في خلقه ، ولطفه وفعله لما يريد ، أو لا يعلمون ما الله به صانع

ثالثاً — وردت هذه الفقرة فى القرآن إحدى عشرة مره ، ووردت بصيغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ سبع مرات ، والجملة عشرون مرة ، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين

شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان

آ (٢٢) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والعشرون فقام الشيخ محسن الصيداوي (٢) وقال

يقول الله تعالى (ولما بلغ) يوسف (أشده) أى مبلغ الرجال (آتيناه حكماً)

(١) نسبه الى السلط من أعمال بلاد الشام (شرقي الاردن)
(٢) نسبه الى بلده صيدا من بلاد الشام (لبنان)

منعاً لنفســـه من المعاصي وإلزاماً لها على الطاعات (وعلماً) لدنياً ، قال تعالى ۰ ﴿ واتقوا اللهَ ويُعلمكُم اللهُ ﴾ (٢ ٢٨٢) وقال تعالى ﴿ ومَن يتقِ اللهَ يجعل لهُ مخرجاً ﴾ (٦٥ ٢) وإنما قال تعالى ﴿ وكـــذلكَ نجزي المحسنين ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً فى عنفوان شبابه ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه ، وعن الحسن (رض) « من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله ». والعلم علمان علم لدني يحصل بمحض فضل الله تعالى على العبد ، لكن بسبب إخلاصه وتقواه ، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسهر والتعب ، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً فندامة العقبى لمن يتكاسل

(ولما بلغ أشده)

— ١ —

وقام الشيخ عبدالحي الجولاني [1] وقال

بلوغ يوسف الأشد

قضي الأمر ، وعاش يوسف فى بيت قوطيفار ، عزيز مصر ، وهو ممتع بحياة طيبة ، محفوفة بالهناء والراحة ، لا يفتكر إلا فيما يعود عليه بالسرور ، كأن لسان حاله يقول أريد أن أنعم بالحاضر ، وأعد الماضي نسياً منسياً ، غير أنه كان فى وسط هذه المسرات يتذكر أباه الشيخ الجليل ، فتغيض نفسه، لبعده عنه ، وعدم

[1] نسبه الى الجولان احد أقضية بلاد الشام (سوريه)

تمتعه برؤيته ، رد على ذلك أنه كان يعتقد أن أباه في عمران من الأحزان لأجله ، ولعله كان يفتكر أن يكتب لأبيه كتاباً عن حياته ومكان وجوده وكافة أحواله الحاضرة والماضية ، ولكنه كان يخاف من إخوته العشرة أن يلحقوا به كيداً ، فيقعس عن العمل بهذه الفكرة لوقت مناسب

ومعنى « بلغ أشده » بلغ قوتـه ، وخرج من سن الصبوة ، قال « أبو نخيلة » يمدح « هشاماً »

طُوِّقتها مُجتمعَ الأشُدِّ　　فاهتَلَّ لما قُمتَ صوبُ الرعْد

أى بلت الخلافة ، وأنت مجتمع القوة مكتهل ، فانفتحت أبواب الخير

أو نقول « بلوغ الأشـد » عبارة عن بلوغ السن الذي يخرج به عن كونـه ضعيفاً ، وقد اختلف أهل اللغة في هل هو مفرد ، أو جمع لا واحـــد له ، أو له واحد ؟ قال فى اللسان (الأشـد) مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة، ونقل عن ابن سيده بلغ الرجل أشده إذا اكتهل ، وقال علماء اللغة اقوالا فى معناه كثيرة ، ولكن لها طرفان ، أدناهما الاحتلام الذى هو مبدأ سن القوة والرشد ، ونهايتها سن الأربعين،حين تجتمع للمرء حكمه وتمام عقله، فبلوغ الأشد ،محصور الأول ، محصور النهاية ، غير محصور ما بين ذلك

وقال الأزهري الأشد فى كتاب الله على ثلاث معان اما فى قصة يوسف فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا فى اليتم حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده ، وبلوغه أشده ان يؤنس منه الرشـــد ، مع أن يكون بالغاً ، وأما قوله تعالى في قصة موسى ﴿ولمَّا بَلغَ أشُدَّهُ واسْتَوى﴾ (٢٨ ١٤) فقرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن يجتمع قوتـــه ويكتهل ، وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى ﴿ حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سَنةً ﴾ (٤٦ ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد

ورأيت في خطبة الحجاج العراقية « أخو خمسين مُجتمعٌ أشُدّي »

الأَشُدّ والرُّشْد في القرآن

ونقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان « أشُدّ » و «رُشْد» فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى ﴿ولمّا بَلَغَ أشدهُ واستَوى آتيناهُ حُكماً وعِلْماً ﴾ (٢٨ ١٤) وقال تعالى ﴿ وابْتَلُوا اليتَامى حتى إذا بَلَغُوا النّكاحَ ، فإن آنَستُم منهم رُشداً فادفَعُوا إليهم أموالَهُم ﴾ (٤ ٥) ويمكن أن يكون قوله « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشد أوتي الرشد بإيتائه الحكم والعلم (أحسنت)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ١ —

قال العلامة المعري (١)

إيتاء يوسف الحكم العملي والحكم الفكري

أصل « الحكم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَة) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى معرة النعمان من بلاد الشام (سوريه)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكم » ملكة في النفس بها تقدر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث تلزمها الطاعات ، وتمنعها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ؛ ولهذا كثر ذكر إيتاء الحكم لهم في القرآن الكريم بهذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم اللدنية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم ههنا بعد الحكم

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء ، وبعبارة ثانية يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس ، والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح ، وبعبارة ثالثة أوتي حكم النفس بالنفس ، أي منعها عما لا ينبغي (وهذا المعنى يدخل فيه ما ندعوه بالعصمة والعفة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل اليه الانسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُم اللهُ ﴾ (٢ ٢٨٢) ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يجْعَل لكُم فُرقاناً ﴾ (٨ ٢٩) ، وفي الحديث الشريف « مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ورثه الله ما لم يعلم »

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر انه اعتماني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً يرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢١ ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى ﴿ وَلَمّا بلَغ أشُدَّهُ واستَوى ، آتيناه حُكماً وعلماً ﴾ (٢٨ ١٤)وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان ﴿ وكُلّاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ (٢١ ٧٩) قال فلماذا براه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟ فأفتيته بقولي إن الله تعالى علم أنـــه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون (إن الحكم فرع عن العلم، فمتى كان الانسان عليماً كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويمنعه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء« ابن رشد » من فلاسفةالاسلام فيما حكي عنه ، وقد قالوا « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أماالعلماء فهي غنى عنه بعلمهم » ، وقلت له فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى انه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له عـــلم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وهبي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمـة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي ، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « وكم من فقيه ، يبلع المأدبة في فيه »

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما، أبداً ، يقال « الصمتُ حُكم » أي حكمة ، على حد مافي قول النابي

إن بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضُـــه أحكامُ

وأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناه حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء إن لفظ (العلم) في القرآن أتى ما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) ﴿ قالَ إنَّما اوتِيتُهُ — أي المال — على علمٍ عندي ﴾ (٣٩ ٤٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله ﴿ ونُعلِّمُكَ مِن تأويلِ الأحاديثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير الرائي النامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً انه بعد ما عبر وهو فى السجن رؤيا (الملك) التى جاءه بها (الساقى) أسعفه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله « تزرعون الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية وبعد ، وأكثر ما يستعمل (العلم) فى المعرفة التى توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في اكثر آيات القرآن

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية

ايتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل

اوتي يوسف « الحكم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوى الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتساهون في ميولهم

الدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإنما يتفاضلون بقوة الإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع وتوجيه الضمير ، في مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقواهم إرادة ، فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فإذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، بذلك على ذلك أن الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء ﷺ ﴿ وقُل ربِّ زِدْني عِلماً ﴾ (٢٠ ١١٤) ، وقوله ﷺ ﴿ إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ﴾

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال

إذا لم يكن علم يزان به الفتى فمال الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك إن المال داعيةُ الهوى إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والخافضة له هي العلم أو الجهل ، وعلة العلل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم او الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامرأته ، ثم الترقي إلى البلاط الملكي ، ثم للانتصار على إخوته ، فعلمه وهو «فرد»

اسصر عليهم ، وهم « عصبة » هو فرع إلى القوة العلمية ، وهم فرعوا إلى القوة الحسمية ، والجاهل ولو قويا بالحسم ، مع العلم ولو صعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدحج بالسلاح

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف — وهو فى بدء سن الأشد — الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لسوبه المومعـــــة أن يصير ، فهو بإتيانه « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبإتيانه « العلم » يكون قد استقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء

إن الشباب والفراغ والجِدة مفسدة المرء أي مفسده

فالعادة ان الانسان في شرخ شبابه ، يكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفـــــه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما فى حديث « عجب ربكم من شاب ليس له صبوة » ، ولكن فى نحو هذا الوقت أوتي يوسف ما يؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والبعد الوهي ، فهذا القول « ولما بلغ اشده آتيناه حكماً وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين » كالتمهيد الاستدراكي أو كالاستدراك التمهيدي قبل قوله « وراودته التي الخ » فكأن الله تعالى يقول فلما راودته تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العلى ، وصار كأهل الملأ الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأجدر بمن آتاه الله (الحكم والعلم) ان يكون طاهر النفس ، ونقي الثوب

(حسن وحسن جداً)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الحاوي(١)

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، لِسِرٍّ دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبيرتان ، وقتدان عظيمتان ، ولكن ايهما أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فالخاطيء عن جهل ، أخف جرماً من الخاطيء بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذاً فالتقوى مع الجهل ، خير من السقوط مع العلم ، وبذلك صار الحكم اهم من العلم ، وان المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قررناه ، قال تعالى ﴿ ياداودُ إنّا جعلناكَ خليفةً

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا

في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٣٨ ـ ٢٦) ولم يرد وعيد كهذا للجاهل ، ولا تنس هنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المغضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الغواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات

(وكذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر الميلاني (١)

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسة تعاليق

الاجماع على احسان يوسف

التعليق الأول — نسمع هذه الآية في هذه السورة ترد على آذاننا كثيراً ، فنرى نسمع الله يقول في شأن يوسف ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين المسجونين يقولان له ﴿ نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له ﴿ فخذ احدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنغمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد

الجزاء على السبب لا على النسب

التعليق الثاني — لم يقل وكذلك نجزي اولاد الأنبياء ، او يقل وكذلك

(١) نسبة الى ميلان من بلاد الشام (سوريه)

يحري دوي البيوتات العريقة في المجد ، بل جعل هده المجاراة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته،لأن الله تعالى لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنه ينظر الى الأعمال والنوايا ، فالمرء بأعماله ، لا بآماله ، وبنسبه ، لا بنسبه ، وبطي لسانه ، لا بطيلسانه ، وبأصغريه ، قلبه ولسانه ، وبجَنانه ، لا بجنانه

اركان الاحسان

التعليق الثالث — رب سائل يسأل ما هوهدا الاحسان الذي كان يوسف متحلياً به ، حتى استحق المكافأة عليه ، وصار به حليقاً لايتاء الله إياه (الحكم) وجديراً أن يُسدي الله اليه مَوْهِبَةَ (العلم) اللدني ؟

فنجيب قائلين الاحسان يقوم بثلاثة أركان ، الركن الأول — العقيدة ، وهي الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والركن الثاني — الأعمال البدنية والمالية ، وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقـــة وما إلى دلك ، والركن الثالث — الآداب مع الله والناس،والأخلاق الفاضلة ، ودلك يقوم بسلامة القلب ، وحسن النية ، وطهارة الوجدان ، وصلة الرحم ، وبمع أهل الجوار ، والنصيحة والارشاد ، والصبر عن وعلى ، والوفاء بالوعد ، والثبات على العهد ، والصدق في القول والعمل ، والوداعة ومحبة الخلق ، والتفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته ، وآياته العجيبة ، وطاعة الوالدين ، والعفو عن المسيء ، والصفح عن الزلات والحلم والأناة ومقابلة السيئة بالحسنة وخدمة الإنسانية وخدمة المصالح العامة ، والكف عن الضرب والقتل والسرقة ، وزجر النفس عن الكبرياء والغضب ، والرجوع إلى الحق بعد ظهوره ، وتبرئة القلب عن الحقد والبغض ، وصون اللسان وسائر الأركان عن الكذب والبهتان ، وترك الغيبة والنميمة وكل أمر مكروه ، وعدم الطغيان على اي إنسان ، ومزايلة الأشرار

اركان الاحسان في القرآن وتحلي يوسف بها

قال تعالى وفيه صراحة بالأركان الثلاثة ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُولّوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمغرِبِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبِيِّينَ ، وآتَى المالَ ـ على حُبِّهِ ـ ذَوِي القُربَى واليتامى والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ ، والسائلينَ وفي الرقابِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ، والمُوفونَ بعَهدِهِم إذا عاهَدُوا ، والصَّابرِينَ في البأساءِ والضراءِ وَحِينَ البأسِ أولئكَ الذينَ صَدَقُوا ، وأولئكَ هُمُ المتَّقُونَ ﴾ (٢ ١٧٧) ، ولقد كان يوسف متحلياً بهذه الأركان الثلاثة التي منها إيتاؤه المال ذوي القربى ، إذ أنه أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم ، فهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، ومنها صبره في البأساء والضراء كصبره في غيابة الجب وصبره على اخذه لمصر وبيعه وخدمته في بيت العزيز كعبد وصبره عن السوء والفحشاء ، وفي غياهب الحبس وصبره عن شفاء غليله من إخوته

وقال تعالى وفيه عشرة أسهم من أسهم الدين ﴿ التَّائِبُونَ العابدونَ الحامدونَ السائحونَ الراكعونَ الساجدونَ ، الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عن المنكر ، والحافظونَ لحدود اللهِ وبَشِّرِ المؤمنين ﴾ (٩ ١١٣) ، ولقد كان يوسف (تائباً) راجعاً في كل حين إلى ربه ، (عابداً) له بأركانه وجنانه (حامداً) له أيام حزنه وأيام رفه (سائحاً) بهجرته من بلاد الهوان إلى بلاد الاطمئنان (راكعاً ساجداً) لمولاه (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) كما وقع منه مع الفتيين المسجونين ، إذ نهاهما عن الوثنية ، وأمرهما بالتوحيد ، (حافظاً لحدود الله) إذ لم ينزل على إرادة امرأة العزيز ولم يخن سيده في أهله وعرضه

وقال تعالى ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنونَ ، الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خاشِعونَ ، والذينَ هم عن اللَّغْوِ مُعْرِضون، والذين هم للزكاةِ فاعلون ، والذين هم لِفُرُوجِهِم حافِظُون ، ـ إلى أن يقول ـ والذين هُمْ لِأَمَاناتِهم وَعَهْدِهِم رَاعونَ ، والذين هُمْ على صَلَواتِهِم يُحافِظونَ ، أولئك هم الوارثون ، الذين يَرِثُون الفِردَوْسَ ، هُم فيها خالِدونَ ﴾ (٢٣ ١ ـ ١١) وبديهي ان يوسف كان (مؤمناً) بالله (خاشعاً في صلاته) لمولاه (معرضاً عن اللغو) كما ظهر ذلك جلياً فى إعراضه عن لغو إخوته حينما قالوا له ﴿ إن يَسْرِق فقَدْ سَرَقَ أخٌ له مِن قَبْلُ ، فأَسَرَّها يُوسفُ فى نفسِهِ ولم يُبْدِها لهم ﴾ (مزكياً) كما آنس منه إخوته ذلك إذ قالوا له ﴿ وتَصَدَّق علينا إنَّ اللهَ يجزى المتصدقين ﴾ ولا بد أن يكون قد صدّق عليهم فيه (حافظاً لفرجه) ، (مراعياً لأمانته) كما ظهر ذلك بأجلى مظاهره في حادثة سيدته معه

فما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الذى وصف به يوسف عليه السلام ، ولذا كان جليفاً بما أنعم الله عليه من الوسامين المرصعين ، وهما وساما (الحكم)و (العلم) مكافأة له على إحسانه وفي قوله تعالى ﴿ وكذلكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ ﴾ تقريظ ليوسف ، بأنه لم يؤت ما أوتيه محاباً أو محاباه ، لا لا بل لسابق إحسانه فى أقواله وأعماله ونواياه وسرائره ، أي أنه تعالى وجه عليه وسامي (الحكم والعلم) لأنه محسن ، فهو قمن بذلك ، وهكذا هو تعالى يجزي سائر المحسنين

الجزاء يكون فى الدنيا كما فى الآخرة

التعليق الرابع — قوله تعالى ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يريد به الجزاء الدنيوى ، لأن هذا الجزاء الذي عجل ليوسف هو كان في الدنيا ، كما سيأتي قوله

في موضع آخر ﴿ وكذلكَ مَكّنّا ليوسفَ في الأرضِ ، يَتَبَوّأُ منها حيثُ يشاءُ ، نُصيبُ برحمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنين ، ولأجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يَتّقُونَ ﴾ (آ ٥٦ و ٥٧)

فكثيراً ما يصيب الإنسان في الدنيا صنوف من الخير ، جزاء على أعماله الصالحة ، وصنوف من الشر ، عقاباً له بما اجترح من الأعمال السيئة ، كما يظهر لمن تدبر سنة الله في خلقه ، ودرس تواريخ الأمم الخالية والأمم الحاضرة ، فليس الجزاء على الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة مقصوراً على الآخرة فقط ، بل يكون في الدنيا كما في الآخرة ، ولكن لكل دار ما يناسبها من الجزاء

(فالحكم والعلم) الذي أوتيه يوسف هو من الجزاء الذي يستحقه على إحسانه ، جزاء معجلاً في الدنيا ، فهو من قبيل ﴿ واتقُوا اللهَ ويُعلّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ ٢٨٢) ، ومن قبيل ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا ، إن تتّقُوا اللهَ يجعَل لكم فُرقانا ﴾ (٨ ٢٩) ومن قبيل ﴿ ذلكَ مِمّا علّمَني ربّي ، إنّي تركتُ ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ ﴾ (آ ٣٧) الخ حيث جعل تعليم ربه له ثواباً على ترك الوثنية واتباع التوحيد

فيوسف أحسن أعماله وأقواله ونواياه ، فأحسن الله اليه ، لانه ﴿ هَل جزاءُ الإحسانِ إلا الاحسان ﴾ (٥٥ ٦٠) وهذه قاعده جارية في الدنيا والآخره ، لأن كلام الله تعالى فيها مطلق ، نعم هو في الدنيا مطرد في الامم ، وغير مطرد في الأفراد ، وأما في الآخره فهو مطرد للجميع

الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان

التعليق الخامس — نتعلم من هذه الآيه ان إيتاء الله (الحكم والعلم) ليس هو عطية شخصية ، ولكنها عطية وصفية ، وأريد أن أقول إنها ليست عطية خاصة

بشخص يوسف ، ولكنها عامة لكل من اتصف بالاحسان ، وهكذا العطية في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٥٦) فنتعلم منه ان كل من كان محسناً ، مكنه الله في الأرض ، وأصابه برحمته ، فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ، ولكنه منوط بالوصف ، يدور معه حيثما دار ، وهكذا نتعلم من قول يوسف الآتي ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ، فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠)، فمنّة الله على عباده بالنعم الوافرة ليست مرتبطة بأشخاص متشخصين ، ولكنها مرتبطة بوصفي التقوى والصبر ، فأينما وجدت التقوى والصبر ، وجدت نعم الله

الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم

نأخذ من المثل السابقة وأشباهها قاعدة ، هي الوعد لا يكون قاصراً على أشخاص وآحاد معينين ، بل إنه يتناول الناس بحسب أوصافهم ، واليكم بعض الأمثلة على ذلكم من غير سورة يوسف

(١) — ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ (٢٤ ٥٥) فالموعودون بالاستخلاف في الأرض ليسوا هم أشخاص الصحابة فقط ، بل كل من اتصف بالايمان والعمل الصالح

(٢) — ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٢٧ ٧) فهذا الوعد ليس خاصاً بشخص الصحابة ، بل هو عام لكل من اتصف بنصر الله

(٣) ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلا تُخْزِنَا

يَومَ القِيَمةِ ، إنكَ لا تُخلِفُ الميعادَ ، فاستجابَ لهم رَبهُم ﴾ الح (٣ ١٩٤ و ١٩٥) فهذه الاستجابة ليست خاصة باولئك الصحابة أولي الألباب ، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم يتلون هذا الدعاء ، وليست هـــذه الاستجابة منوطة بأفراد بحسب ذواتهم ومشخصاتهم ، بل هي عامة لكل من اتصف بتلك الأوصاف ، لأن فضل الله ليس قاصراً على شخص دون شخص ، ولكنه منوط بالأعمال والأوصاف ، فأينما وجدت الأعمال والأوصاف ، تحقق وعد الله تعالى ، فالله تعالى لا يراعي ولا يحابي الأشخاص ، ولا ينظر إلى الوجوه ، ولكنه ينظر إلى العمل التقي ، فينوط به الجزاء الآلهي

الله يؤتي كل محسن حكما وعلما على قدر احسانه

وعلى هذا فيمكننا أن نقتطف من قوله تعالى ﴿ وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾ قاعدة كلية مطردة ، وهي ان كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً ، على قدر إحسانه، ممن كان وممن هو كائن ، وممن سيكون وسوف يكون فليعتبر بذلك القارئون والسامعون

المراوده

آ (٢٣) ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ ، وقالتْ هَيْتَ لَكَ ! ـ قالَ مَعَاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والعشرون وما كاد المقرر ينتهي من تلاوتها حتى سمـــع جلبة من مقصورة النساء الموقرات كلا منهن تريد التكلم على هذه الآية فقامت أولاهن وهي السيدة انصاف الدمشقية وقالت

في يوم من الأيام دخل يوسف القصر ليقوم ببعض الخِدَم والملاحظات والترتيبات على حسب عادته ، فانتهزت امرأة سيده فرصة خلو المكان من كل أحد ما عداهما ، فاقتربت منه (وراودته)أي كلمته (التي هو في بيتها) وهي السيدة زليخا ـ والمراودة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته ـ (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهى عبارة عن التمحل لمواقعته إياها (و) لما لم تفد المراوده الكلامية وقام بها تهيج حسيٌّ شديد (غلقت الأبواب) أي كل ماللقصر من أبواب ، حذراً من هروبه، وخوفاً من مجيء إحدى الخادمات على غفلة ولئلا يسمع أحد كلامهما ، إذ الأبواب والنوافذ « آذان البيت » (وقالت) له بصريح العبارة وبلسان الغرام والحب (هيت) أى أقبل ، فسألها لمن تقولين هذا الكلام ؟ ـ فقالت (لك) ـ (قال) بلسان العظمة والنفور تَرَحَّى ، لا

نكون ذلك دون أن سيض الفار ويجتمع الليل والنهار ، أنا أخون مولاي العزيز في عرضه ؟!؟!؟! (معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً (إنه) أى الشأن والحديث (ربي) سيـــدي ومالـكي وهو قوطفار ﴿أحْسَنَ متوايَ﴾ حين قال لك ﴿أكرمي مثواه﴾ ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافـة واخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء

(وراودته التي هو في بيتها)

— ١ —

وقالت السيدة علية المكية (١)

المراودة من زليخا والترفع من يوسف

جعلت زليخا تفكر فيما مر بها من الأهوال منذ عرفت يوسف ، وما رأتـه من حوادث الحب وهواجسه ، وتذكرت حالها قبل قدوم يوسف إليها ، وأنهـا كانت خلية البال ، لا تعرف الهواجس ولا الأفكار ، وكان السبب فى ذلك كله الحب ، ذكرت يوسف وجماله فطارت عجباً ، ثم ذكرت انه فتاها ورهين إشارتها فرقص قلبها طرباً وسهل عليها ما نابها من الشواغل والحب ، ظنت أن في وجوده عندها بصفتـه عبداً لهـا مؤتمراً بأمرها تعزيه لها ، تنسيها الهموم وتخفف عنهـا الأحزان ، وتهون عليها أمر حبها له ، فانتعشت جوارحها وثاب إليها آمالها وانجلى صـدرها وانبسطت نفسهـا ، وكانت عادة فى مقتبل العمر ، وشرخ الفتوة ، جميلة الطلعة ، قد اشرق وجهها اشراق السماء ، وقد تعهدت له وسلمته قلبها لأن المرأة

(١) نسبه الى مكة المكرمة البلاد الحجازيه

تفوق الرجل في بعض القوى العاقلة ، كالإدراك عن طريق الحواس ، المعروف بالشعور ، وكسلامة البداهة والذوق العقلي ، فلذلك مالت إليه كثيراً ومع كل هذا لم تكن ترى منه ميلاً وانعطافاً فلبثت أياماً تتردد بين اليأس والرجاء تقبض صدرها تارة ، وتبسط أخرى ، فبالغت في تعزية نفسها عنه ، ولكنها لم تعز ، فغلب الحب على عواطفها، واستحوذ الضعف الطبيعي وسلطان الهوى على مشاعرها وعيل صبرها ، فخضعت لعواطفها ، ورضخت لأميالها ، فانتهزت فرصة دخوله البيت ليصلح بعض شأنه ، كما هو العادة كل حين ، فلم تَرِمْ مكانه حتى دنت منه ، وجعلت تنظر إليه نظرات الحب والشغف ، وتفضي إليه من طريق الصمت والسكون ، بما تخجل عن الإفضاء به من طريق الكلام ، ولما لم تجد معه ذلك ولم تطق هي صبراً استجمعت قواها فراودته ويا للخجل !!! فاقشعر بدنه ووقف شعره ، وقال مستهجناً مستغرباً ماذا تقولين يا إمرأة ؟! لقد ابتغيت بيض الأنوق ، وطلبت المستحيل ، إني ولدت شريفاً ، وعشت شريفاً ، هو ذا دم الشرف والأصالة جار في عروقي ، وهاهي ذي النعمة اليعقوبية سارية في كل جروحي ، فبعد ذلك هل أسمح للتاريخ أن يسجل عليَّ فعل الفحشاء ؟ لا والذي نفسي بيده وبعد فهل لهذا غلقت الأبواب ، وبارزت مني في الخطاب اللين ، فوالله ما أحسنت في القول ، ولا أجملت في الفعل

الكبرياء

إنه لأمر غريب أمر هذه المرأة ! فقد كانت تحسب مراودتها إياه منة وتكرماً عليه، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً ، لأن حاله الدنيوي منحط عن حالها كثيراً ، فهو فتاها وعبدها ، وعبراني غريب ، وهو في نظرها من السوقة ، ومن سائر الناس ، وهي سيدته وقرينة سيده ، وأميرة من أميرات

البلاط الملكي ، ومن سلائل الفراعنة فلم لكي كانت تتوقع منه قبول اقتراحها ، والنزول على إرادتها بما لها من دالة السادة والعمود

المرأه العتيقه الحديده

وغني عن البيان ، أن هذه المرأه من قدميات النساء المصريات وهو ظاهر ، لأن بينها وبين الإسلام ما يقرب من (٣٧٠٠) سنة قمرية فهي بحسب الزمان من نوع « المرأة القديمة » ولكنها بحسب مسلكها وأفكارها هي من نوع « المرأه الحديدة » ، إذ كانت لها السياده المطلقة في المنزل ، بدليل قول العزيز لها . « أكرمي مثواه » ، وكانت تنقض الحجاب نقض الشريفات للسفور ، بدليل انها راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت « هيت لك » وكانت متهتكة لا تبالي شيء ، بدليل انه لما هرب منها لحقته الى الباب ، وهي متعلمة نبيهة مدافعة كأكبر المحامين ، بدليل قولها للعزيز وهي في أحرج المواقف وأدهشها للألباب ﴿ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ ، وقولها للسيدات المصريات « هذا الذى لتمتني فيه » تقيم عليهن الحجة ، وكانت تعرف كل شيء ، إلا واجب عرضها وواجبات زوجها ، بدليل انها خانته فى نفسها أولاً ، ثم لم يمتثل أمره ثانياً ، وكان لها المهارة فى الخداع والتغلب على عقل الزوج ، بدليل انها نفذت وعيدها ليوسف بالسجن ، فاقنعت زوجها بذلك ، فسجنه حتى حين ، وأخيراً كانت ذات بيان واقتدار فصيحه وخطيبه بليغة ، بدليل النطق الذى فاهت به امام مندوب التحقيق من طرف الملك ، إذ قالت « الآن حصحص الحق » الى آخر الآيات الثلاث ، فهي بأوصافها هذه تعد من نوع « المرأه الحديده » بكل معنى الكلمة

المراه اعف من الرحل

وقبل الختام ليسمح لي السامعون الكرام أن أنتصر للمرأه ولهم عليّ أن لا أتكلم إلا بما يوافق العقل والمنطق وبما هو مدون في بطن كتب التاريخ

إن هذا النوع من بدء المرأه بمراودة الرجل نادر ، وقليل جداً ، ومن المسلم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشذوذاً ، وتزيد عليه فضلا وعفة ، انظر إلى أيّ بلد شئت من البلاد الكبيره ، وتطلع فيها الى « دور الفسق » تجد في كل بلد بعد أهله الخمسين الفاً من السكان ، الفاً من النساء من تلك الطبقة « الشاردة » وتجد من يرتادون هذه الدور من الرجال عشرة آلاف ، أي أن كل واحدة من « الشاردات » يقابلها عشرة من « الشاردين » وهذا تقدير تقريبي ، ولكنا نظن أنه صحيح في الأغلب ، بالنظر للبلاد الكبيرة ، التي دخلتها المدنية العوجاء ، وأما البلاد المتوسطة « فالساقطات » فيها ، هي واحدة في المئة ، وأما البلاد الصغيرة « فالساقطات » واحدة في الألف ، وربما شذ في بعض العائلات واحده بنهاأولا يشذ منها أحد مطلقاً من النساء ، ولكن يكون قد خرج عن قانون العفة فيها جمع من الرجال ، وهذا أمر مشهود يعرفه جميع الناس ، ويعترفون به سراً ، إذا لم يكن جهراً ، وها نحن أولاً نلاحظ ان المرأة في الشارع أكثر حشمة ووقاراً من الرجل ، ويندر أن تتحرش امرأه برجل ، حتى ولو كانت من « الشواذ » إلا قليلاً ، ولا نرى المصاينة تأتي إلا من قبل الرجال ، بما فيها من كلام لطيف او خشن

وظاهر ان المرأه رجحاناً في كفهالعفاف على الرجل ، وهذه ميزه لها ، يجب علينا الاعتداد بها والافتخار ، وترويض النفوس على الاقتداء بما فيها

وأما حادثة «امرأة العزيز» مع يوسف «فشاذة» بسبب أن تلك المرأة اندهشت بجماله العبقري ، فلم تعد تتمالك ، ومما سهلها كثرة اختلاطها به ، وأنه تحت أمرها ويوسف أبى عليها بما أوتي من عفة وطهاره ، فهذه حادثة نادرة في بابها ، فما كل النساء « زليخا » ولا كل الشبـاب « يوسف »

وما أريد من هـــذا البحث إلا رفع الغرور من رؤوس الذين يسحبون بفضائلهم ورذل المرأة واحتقارها لهفوتها ، وظني إن مراودة امرأة لرجل أندر من الكبريت الأحمر ، ولذلك ذكرت هذه المراودة في التاريـخ الذى لا يذكر فيه إلا الشيء النادر ، ولو كان يعتنى فى التاريخ بذكر فواحش الرجال ، لكانت صحفه مملوءة أكثر مما هي اليوم مرتين ، ولا أحسبكم إلا مسلمون لي في هـــذا الاعتقاد على طول الخط

مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب

وتابعت السيدة عليه المكية خطابها قائلة

والآن ليسمح لي السادة المؤتمرون أن اجري مقابله بين امرأه العزيز «زليخا» وبين بعض نساء العرب الفضليات اللواتي سطر التاريـخ فضلهن وعفتهن ورجاحة عقلهن عداد من الفخار والشرف فأقول

١ ــ أين هذه المرأه (زليخا) من السيده (خديجة بنت خويلد) ، زوج النبي وأم المؤمنين ، فانها لمـا رغبت فى النبى ﷺ أرسلت إليه نفورا تسوقه فى خطبتها من وليها ، فالنبى ﷺ بعد مشورة أعمـامه ، خطبها من أبيها ، فاقترن بها

٢ ــ بل أين هذه المراه (زليخا) من (هند بنت عتبة) التى أراد أبوها أن يزوجها من أحد رجلين ، رجل ذى ثروه وجمال رائع ورجل ليس عنـده

شيء من ذلك ، ولكنه منظور إليه في الحسب والنسب ، فعدلت عن صاحب الثروة والجمال ، واختارت الثاني فكان هو (أبا سفيان بن حرب) « فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني أمية ، وأحد دهاة العرب ودواهيهم

٣ — وأين هذه المرأة (زليخا) من الفتاة (بهية بنت أوس) الطائي التي لما زفت إلى (الحارث المري) وأراد أن يدخل إليها ، نسيت لذتها وشهوتها وقالت له « أتفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟؟ » تشير إلى حرب ظلت مستعرة نحواً من أربعين سنة ، بين بني عبس وبني ذُبيان ، ولم يتمكن أحد في إطفائها إلاّ هيه° ، فقال لها وهي بين ذراعيه « ماذا تقولين ؟ » قالت « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إليّ !!! » ، فقام من عندها وخرج ومشى بالصلح ودفع الديات ، ثم رجع إليها وحظي بها ، فلا ريب أن مسلك هؤلاء النسوة كان خيراً جداً وأشرف مما سلكته (امرأة العزيز) التي كان معظم اجتهادها النظر إلى شهوتها ولذتها

٤ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (معاذة الباهلية) التي نزل بها رجل من العرب ، وليس زوجها عندها ، فأكرمته وفرشت له ، فلما لم ير عندها أحداً ساومها نفسها ، فأخذت مدية فأخفتها ، ولما ثار إليها ، ضربته بها في نحره ، فسقط ميتاً (مصارع العشاق ج ٣)

٥ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (أسماء ابنة رويم) التي كانت من نساء العرب العاقلات الحكيمات الولودات والتي كانت تسمي أولادها بأسماء الوحوش الضاريه ، قيل إنـــه مرّ بها يوماً (وائل بن ساقط) فرآها منفردة في خبائها ، فراودها عن نفسها فقالت « والله إنْ قربت مني ، لأدعون أسعي » ـ فقال ما أرى سواك في الوادي ، فصاحت بنيها « يا كلب يا ذئب ، يا فهد ، ياسبع ، يا دب ، يا ضبع ، يا نمر » فجاءوا يتعادَون بالسيوف ، فقال وائل « ما هذا إلا

وادى السباع » فلزم هدا الإسم دلك الوادي ، وقالوا لها « ما شأنك ؟ » ـقالت « إنه نزل بنا ضيف فأحببت أن نكرموه » فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف وهو يتعجب من درتها ومن حصور سديهتها ، لتحمل المدر الدي أبدتـه لأولادها !!

هـدا قليل من كثير ايها الساده ولو أردت أنأسرد جميع ما كتب فىالتاريخ من أمثال دلك لاحتجت إلى مئات من الصحائف

« وما أن أتمت السيد علية حطابها حتى دوت فى قاعه المؤتمر عاصفة حاده من التصفيق وكلمات الاستحسان »

(وراودته التي هو في بيتها)

— ٢ —

وقالت الآنسة أسماء المقدسية ـ

المراوده من طرف واحد

كان زليخا أولاً فارغة من حب يوسف وسواه ، ولكن لما وجد يوسف عندها على ما هو عليه من الصحة ، ومع كل اسباب ، وشرخ الفتوه وتكررت (طبعا) رؤيتها له صباح مساء ، تعلقت به من حيث لا تشعر ، ومن عرف أمر الحب أنه يقع على الناس ووقوع اسباب من حيث لا يعلمون

احبت يوسف ، ولكنها اقتصرت على الحب معمقت وصبرت ، ستكون طاهراً ، بل ارادت يوسف ، فعلت ما يدفعه نفسها وشرفها ، واستحكم عليها الغرام ونازعتها الميول الجسـديه واستولى عليها سلطان الحب فأنساها سلطانها

وسلطان سيدها ، الذي كان رئيس الشُرَط ، وناظر الحَرَم ، وعزيز مصر ، والحب نافذ الكلمة ، ماضي القضاء ، غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ، ويحطّم سيوف القادة

علقت زليخا بيوسف ، وأرادت قضاء وطرها منه ، فجعلت تفتكر هل تطيع قلبها وتعصي زوجها ؟ وهل سيكون عند يوسف مثل ما عندها ؟ وهل يمكنها الوصول لذلك بدون أن يشعر بها أحد من خدمة قصرها ؟ وهل يمكن ليوسف ان يدوس إرادتها تحت أقدامه ولا يمتثل أمرها ، وهي سيدته النافذة ؟ وهل سيُخفي هذا الأمر أو يُفشيه

فقضت في ذلك أياماً وليالي ، وهي تطوف في عالم الخيال ، ثم تعود إلى حيث بدأت ، حتى لم تعد تستطيع الصبر ، ولم تتمالك السكوت ، فغلبت عواطفها على عقلها ، واستسلمت لسلطان شهوتها ، وانقادت لميولها الحيوانية ، وآثرت اللذة الفانية ، على لذة الشرف الباقية ونزلت عن عرش انفتها وعزة نفسها ، وتراءت له بالدوطات من لطيف الخطاب ولما لم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة ، افتكرت ان هذا الأمر يحتاج إلى رَوّية وتمهيد ، فابتدأت في مداعبة يوسف وملاعبته بالبسمة الخفية ، فلم تجد منه سوى الجد والإعراض والصلابة ، ولم تر في شيء من حركاته واقواله ما يفتح لها نافذة من الأمل ، ولكن الحب كان يعترض عوامل اليأس فيها ، وكانت أميالها وآمالها تقوى شيئا فشيئاً ، — والخلود — كما يقولون — رُقية الحسناء — ، كما ان — الجمال عزيمة الحب — فراودته جاثية داهية وداهمة جائية ، ولكن هو لم يراودها ، فالمفاعلة من واحد ، كمطالبة الدائن ، ومماطلة المدين ، ومداواة الطبيب ونظائرها ، مما يكون من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الجانب الآخر بسببه ، ومنه قوله تعالى ﴿ وقاسَمَهُمَا ﴾ (٧ ٢٠) اى حلف لهما ، ولم يحلفا له ، كما قاله البخاري ، ومنه كلمة قاطع كلامه

وإنما وقعت المراودة منها فقط لأن الغريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً ، فضلاً عن أن عواطفها تتغلب على عقلها بعكس الرجل الذي يغلب عقله على عواطفه ، فهي أحس بالجمال من الرجل وإن كانت أضعف له فهماً ، ولا نسبة ما ليوسف عليه السلام من عفة دينية ، لا يزعزعها جمال ولا جلال

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

— ٣ —

وقال الامام الظاهري لي على هذه الفقرة التعليقات التالية

الحكمة من ذكر حديث المراودة

١ — لا بد أن يسائل سائل عن الحكمة في ذكر حديث المراودة فنقول إن في ذكره هي العبرة للقارئين ، ليحتاطوا لأنفسهم ولا يغتروا بثقتهم بالعفيف والأمانة وإذا اتقوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم ، فإن فعلوا هكذا عرضوا أعراضهم لذمهم ، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، إن الناس كلهم ليسوا يوسف ، وليس كل مملوك كيوسف الملك الكريم ، ثم إن الحكمة في ذكر حديث المراودة صدورها من امرأة العزيز وذكر قصة النسوة الحاضرات وسجنهن يوسف واستعفافه في جماله وتقطيعهن أيديهن وتعرضهن في مجلسه ، هو العلم بأن العفة صورة [illegible] ، وبوجوب التنزه عما نهى الله عنه ، والعصمة [illegible] ، وتبيين سوء عاقبة أهله ثم بين عفة يوسف وصبره ، وحسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، هذا وقد قص الله علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والمتقين وقصص الفجار والكافرين ، لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين ونسلك سبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ، ونجتنب فعالهم

والحكمة أيضاً فى ذكر قصة المراودة هي تعليم الاناث ان عاقبة مراودة الشابات للشبان إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة وانها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله تعالى يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاء وإن الانثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرهما من أهلها من المقاومين لها ، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقاومين لها وكذا زوجها العزيز ، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات ، وان العاقبة للأعفاء الطاهرين ، وفيه ايضاً تعليم أن سقوط الإمرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب زوال محبة زوجها ، كما وقع لزوج زليخا فانه أزل عن وظيفة« عزيز مصر »بسبب أعمال زوجته ، فظهر أن فى قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبرى للرجال والنساء

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث « لا تعلموهن سورة يوسف ، علموهن سورة النور » فهو من الموضوعات ، وماذا تقول من روي مثل هذه الأخبار الموضوعة فى قوله تعالى ﴿ إنّا أنزلناهُ قرآناً عربياً لَعلكم تَعقِلون ﴾ (آ ٢) هل هذا التعقل خاص بالرجال ؟! وما تقول فى قوله تعالى ﴿ نحنُ نقصُ عليكَ أحسنَ القَصصِ ﴾ (آ ٣) فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال ؟! وماذا تقول في قوله تعالى ﴿ لقد كان في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ (آ ١١١) فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط ؟! وما القصد من قوله تعالى ﴿ ذلكَ مِن أنباء الغيبِ نوحيه إليك ﴾ (آ ١٠٢) فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه للرجال فقط وتكتمه عن النساء أو لتبلغه للجميع كما هو مقتضى عموم قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسولُ ، بَلّغ ما أنزلَ إليكَ مِن رَبّك ، وإن لم تَفعل فما بلّغتَ رسالته ﴾ (٥ ٧٠) وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أولهم وللنساء ؟ وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص

ناس دون ناس ، وشيء من القرآن دون شيء ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم ، وإذا كنا منهيين عن تعليم نسائنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز ، فلم لا ننهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق ، والختل والحقد والحسد

فالخلاصة ان رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة محضة وفرية على الله ورسوله والله أعلم

مواضع استعمال المراودة في القرآن

٢ـ لم تقع هذه المادة « المراودة » في القرآن الكريم إلا في موضوع الاحتيال والدهاء ، فحيناً استعملت في مراودة (امرأة العزيز) ليوسف الصديق ، كما هنا وحيناً استعملت لدى مراودة أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية ، وذلك في قولهم ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ (آ ٦١) وحيناً استعملت في مراودة السدوميين لنبي الله لوط (م) بشأن ضيوفه الملائكة ، وذلك في قوله تعالى ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾ (٥٤ ٣٧) فهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هذه المادة ، ولم ترد في غيرها ، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا

اختلاط الرجل بالمرأة

٣ـ نعم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) انما هو المخالطة والخلوة ، ولولا ذلك لما حصل شيء مما ذكر

قيل لأعرابية « لم ربيت بعبدك ، ولم تزل بحر ، وما أغراك به ؟ » — قالت « طول السواد ، وقرب الوساد » فما عرف السهم من الرمية كمروق السيدة للباطل ولهذا كرة عندها الذي تختلي به بلا رقيب ولا ملاحظ ، بخلاف ما إذا لم تكن هناك مخالطة ولا خلوة ، فان وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً

فاختلاط الرجل بالمرأة فيما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا لهوا اختلاط محفوف بالمخاوف

وبدعة الاختلاط ، وبالأحرى بدعة المفاوضات السريه الدنيئة ، موجودة (غالباً) في الطبقات العليا من الناس ، وإنما قلنا (غالباً) لأننا نعرف أنه يوجد فى الطبقةالعليانساء هن أعف وأشرف من كل من عداهن، وحكم الطبقات الدنيا كحكم العليا ، وأما الطبقات الوسطى ، فهي ابعد عن أمثال هذه البدعة من الطبقتين

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة فهو من سموم العصور الحاضرة الحمقاء ، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار، وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها — ان سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو اختلاط المرأة بالرجل فى البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرها من أبواب الحياة

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي ، وهو يتجلى فى كل مايمنع الفتنة ، قال تعالى ﴿ يا أيها النبي ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن ، فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما ﴾ (٣٣ ٥٩) وقال تعالى ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أباء بعولتهن او أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن او بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ،

ولا يضربن بأرجلهن ، ليُعلَمَ ما يُخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون ، لعلكم تُفلحون ﴿ (٢٤-٣١)، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكاً لامرأة العزيز ، بل لسيدها ، ولم يكن من غير أولى الاربة ، بل من أصحابها

هذا وإن الشرع الشريف ، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، وكذلك مكالمتها للأجنبي مع الخلوة دون الملأ ، وأما مكالمة المرأة الرجال فى الملأ ، فجائزة ، كما كان يقع ذلك من نساء النبي (ص) مع الأجانب ، وهن اللاتي أُمرن بالمبالغة فى الحجاب ، وقد ورد « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلم إحدى ازواجه « زينب » فى باب المسجد ، فمر رجلان ، فأسرعا فى المشي ، فقال لهما على رسلكما ، إنها فلانة » ففي هذا تنبيه للمسلمين ، الى انه لايجوز للرجال أن يخلو بامراة ، مهما كان صالحاً ، هذا في الشريعة الاسلامية ، ولعل الشريعة الابراهيمية — المعرانية — كانت تبيح كلا من الخلوة ، والمكالمة فى الخلوة ، كما وقع من يوسف ، أو لعل يوسف كان يرى نفسه مقهوراً على ذلك ، حيث انه عبد

وقد أباح علماء المسلمين رؤية الوجه واليدين ، فمنين إنهما ليسا بعورة ، ومن قال إنهما عورة أباح رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة ، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع النساء والتطبيب والخاطبة وما إلى ذلك ، ونحوه فالمدار عندهم على الحاجة كائنة ما كانت

وجه اضافة البيت الى رجلها

٤ـ كثيراً ما اضيف البيت إلى النساء باعتبار انهن اهله المتصاحبات و الملازمات له ، كما يقول الكتاب ﴿ وقَرن فى بيوتكُنَّ ﴾ (٣٣ ٣٣) و ﴿ هَل ادلُّكُمْ على أهل بيتٍ يكْفلُونه لكم ﴾ (٢٨ ١٢) و ﴿ إنَّما

يريـــدُ اللهُ ليُذْهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ﴾ (٣٣ ٣٣) ﴿ ولا تُخرِجُوهُنَّ مِنْ بُيوتِهِنَّ ﴾ (٦٥ ١) هذا وجه ، ووجه آخر، وهو انه قد يكون لنساء الحكام والأمراء ، وذوي البيوتات الرفيعة بيت خاص بهن ، لزيارة النساء ، كما يكون للرجال بيت خاص بهم ، لاستقبال الرجال ، ويكون بيت ثالث قريب من الباب يسمى بهواً

وكلمة « في بيتها » ، أريد بها أمران ، الأول الستر عليها ما أمكن ، بعـدم التصريـح باسمها ، والثاني الإشارة إلى استهجان هـــذه المراودة يكون (امرأة العزيز) إنما راودت عبداً ، هو من خدمة القصر ، وممن خوادم القصر للخدمة

وفي تبيان أن يوسف « في بيتها » ثم تغليق الأبواب ، واستعدادها له ـ إعلاء لشأن يوسف ، لأن كونـه في بيتها أدعى إلى موافقتها ، وتغليق الأبواب ، أدعى وادعى ، فإن المستتر لا سيما مع من يملك أمره ـ يفعل ما لا يفعله الذي يستبين فعله ويظهر حاله ، وقد راودته من تملك أمره، وتملك نفعه وضره ، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ما وصل إليه أهل العفة

لماذا عبر بكلمة « عن نفسه »

٥ـ وأما كلمة « عن نفسه » فمعناها خادعته عن نفسه ، فعدّى بـ « عن » لتضمينه معنى المخادعة ، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه ، عن شيء لا يريـد صاحبه إخراجه من يده ، وهو يحتال أن يأخذه منـه ، والكلمة عبارة عن التمحل في مخالطته إياها

عمر يوسف وزليخا حين المراودة

٦ ــ نعلم أن يوسف لما اشتراه (عزيز مصر) كان ابن ١٧ سنة وأما كم كان عمره وعمر زليخا حينما حدثت تلك الحوادث ، حوادث المراودة فذلك سؤال لا يمكننا الإجابة عنه ، غير ان الظاهر من التاريخ ، ان عمر يوسف حين المراودة كان يتراوح غالباً بين ٢٦ و٢٧ سنة ، كما أننا نقدر أن نستنتج من حال امرأة العزيز وشنقها وشغفها وحموتها انها كانت نصفاً أو إلى الشباب أقرب

(وغلقت الأبواب)

— ١ —

وقالت السيدة لطيفة العامرية

أبواب قصر العزيز

لما دخل يوسف يوماً على جاري عادته قصر سيده العزيز ، انتهزت زليخا فرصة تلك الخلوة ، فأرادته ، فأبى ، وهكذا ما زالت ثورة أرب وهو لا يزداد إلا ترفعاً ، حتى اضطرها إلى أن قامت مسرعة وغلقت الأبواب ، ومنعت كل دخول وخروج منها ، وقالت الآن احجز الحائط التي تريدها واخرج منها

والأبواب هذه ، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن تكون قصور الأمراء والكبراء عدة ابواب ونوافذ من الجهات الأربع ، أو أن تكون لكل قصر أبواب متتابعة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى ، وقد جرى «أبو حيان» في « البحر » على الاحتمال الأول إذ قال « هي ابواب سبعة على الترتيب ... بل هي في جهات مختلفة ، وكلها منافذ للبيت الذي كانا فيه » ، وقد جرت شأن بيوت الأمراء والكبراء أن تكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول

والخروج ، كما تكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور ، فلعل تلك المرأة أوصدت كل ذلك وقوله فيما يأتي ﴿ واستبقا الباب ﴾ بالإفراد يؤيد الاحتمال الأول

المراودة وتعليق الأبواب

وعندنا أن تعليقها الأبواب كان لأحد ثلاثة أسباب أو لجميعها

الأول — التقدم لتلك الفعلة الشنعاء التي تُرخى على مثلها الستور ، وتُسد النوافذ ، وتقام من حولها الدعائم والجدران

الثاني — خوف أن يدخل أحد من الخدم والجواري الذين اعتادوا الدخول فيه بلا إذن ، ليعملوا عملهم ، أو خوف أن يفتهم العزيز نفسه إذا جاء على حين غرة وفي غير وقت مجيئه المعتاد

الثالث — خوفها أن يأبى يوسف عليها ، ويركن إلى الهروب من بين يديها

ورب سائل يسأل لماذا لم تغلق الأبواب قبل المراودة مع أن فيه احتياطاً واحتياطاً أكثر ، ثم أليست حكاية المراودة تكفي عن ذكر أنها قالت له « هيت لك » ؟ لأنهما شيء واحد ؟ فالجواب هو أن هذا السؤال مبني على أن ما ذكر في كلام الله تعالى هو حادثة واحدة ، وهو ما درج عليه المفسرون ، وعندنا انه يحتمل أنهما حادثتان ، فالحادثـــة الأولى هي أن « امرأة العزيز » كانت رفعت عينيها إلى يوسف يوماً ما وراودته فأبى ، ثم كلمته يومـــاً آخر ولاحقتـه على أن يضطجع معها ، ولكنه لم يسمع وأبى إباء كلياً ، ثم حدث بعد ذلك أن دخل القصر ليقوم بما كان عليه من الأعمال والخدم ، باعتبار انه وكيل البيت ، وناظر حرمه، فكلمته أيضاً وأرادته على نفسها قائلة « هيت لك » تعال اضطجع معي في هـذه الكلّة ، فقال « معاذ الله » الخ ما حكاه الله تعالى عنـــه ، فطلبت امرأة العزيز

ليوسف تكرر مراراً ، كما صرح به فى (تك ٣٩ ٧ — ١٣) وقد أشار الله تعالى لذلك بكلمة « راودته » ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، لأن هذه الكلمة تشعر بالذهاب والإياب تكراراً ، كما نعلمه من كتب اللغة ، وبهذا التحقيق يظهر أنها حادثتان ، لا حادثة واحدة ، فقوله ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ يشير للحادثــة الأولى وقوله ﴿وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك﴾ الخ يشير للحادثة الثانية ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال بتمامه

ويجوز أن تكون راودته بلطف وإيماء ، ولما لم تر منه رولاً على إرادتها ، قامت وغلقت الأبواب ، وانتقلت من دور اللطف والايمــاء الى دور الصراحة والوضوح فقالت « هيت لك » وعلى هذا فالحادثة واحدة ، والله تعالى أعلم

ما معنى « غلقت »

و « غلقت » أغلقت وأوصدت دونه الابواب ، وأرتجتها « بالمزلاج » وهو ما يفتح باليد ، ويقال له فى عرف اهل الشام « الدّقر » ، حملا على اعوائد القديمة عند أهل العامة ، أو ارتجتها « بالمغلاق » ويقال له « الغلق » ، وفى العرف « ضبّة » وهذا لا يفتح إلا بالمفتاح ، او قفلها « بالاقطة» من حيث سهولة الحركة ، ويقال لها فى عرف أهل الريف اليوم « الضميطة »

وقد عبر « بغلّقت » دون « أغلقت » لانه أشعر او عدّة ردئية متروكه « ولا يقال لباب الدار مغلوق » فهي إلاّ غلّق وأغلق ، و لكن الاول أكثر استعمالاً ، وربما قالوا « أغلق » قليلا والافصح غلّق ولذلك جبرى فى كتاب الله هذا التعبير

(وقالت هيت لك — قال معاذ الله)

— ١ —

وقالت الفاحشة صفية المقدسية

طلب زليخا الفاحشة من يوسف وإباء يوسف

عملت زليخا أمام يوسف كل عزيمة سحرية ، وحرقت بين يديه البخور ، وقالت بلغة الحب والغرام ، قالت وهي ناشة متهللة قالت وهي ترقبه بعينين يشع منهما بريق الأمل ، قالت يا يوسف ، أمتع الله بك ، تعال لنقتص من اللذات الأرب ، ثم ليكن بعد ذلك الطوفان ، يا يوسف ، إني في خطر الموت من حبي لك ، وحياتي في يدك ، فهلمّ إليّ ، يا يوسف ، هذا صوتي ، فاسمعني صوتك ، وهذه رغبتي ، فأرني رغبتك ، وهذا حبي ، فأرني حبك ، وهذه إرادتي ، فأرني طاعتك وهكذا أقبلت به وأدبرت واجتهدت ، وفي لحن كلامها وملامحها ما يدل على شدة توافعها وتراميها ، بغية الوصول لهذا الأمر ، وكانت قد أخفت صوتها لئلا يسمعها أحد ، وجعلت تتطلع من النوافذ خوفاً من تحسس بعض الجواري أو القهرمانات

سمع يوسف خطابها فتمعّر وجهه ، حتى صار كالصّرف،وقال أي هنْتاه، لمن تقولين هذا القول ؟ — قالت لك وإياك أعني ، — قال هل عزلت ابني عند لكِ ؟ ، « وأنتِ مهما تأمرى الملك يفعل ؟ » حاشا لي من ذلك ،

فكررت عليه القول وكرر عليها الإباء مبيناً لها حرمة الطلب وشناعة اللمس ، ولما رأت منه ذلك أخذت تخطر في القصر وقلبها يخطر في صدرها ، ثم أعادت عليه الطلب مُلِحّة مُلحِمَة وأخذت تتبعه نظراتها ، لتفحص صورة نفسه

المرتسمة على وجهه ، فما رأت إلا أنه قد اربدّ ، وعلاه لون الكدر والكمد وقال لها بملء فيه برحىً برحىً ، معاذ الله ، وألف مرة معاذ الله حاشا لي أن اقدم على هذه العظيمة التي فيها العار والشنار ، وفي الآخرة النار

وما زالت امرأة العزيز تستعطفه بالاين تارة ، وتعده بالسعادة تارة أخرى كما انها لم تترك وسيلة من الوسائل إلا اتخذتها للوصول الى غرضها منه ولكن يوسف كافح كفاح الاسود وصبر عما أرادته صبر الرجال ، وثبت على قداسته وطهارته

وظهر لنا ان استنكاف يوسف عن مس تلك الأميرة يعد من قبيل الإرهاص لنبوته ، لأن تعفف شاب من الشبية ، عن قربان سيدة أميرة ، تطلب منه وترغب اليه أن يقربها ، حال كون هذا الطلب كان وهو في قصرها ، ليس عليها رقيب ولا ملاحظ ، ولا محلّ لخوف يوسف منها أو من زوجها ، لأنهــا هي المتزلفة المتهافتة . فهذا الامتنــاع فى مثل هذه الحال ، هو نادر في بابه جداً ، ويعد من الأولياء كرامة ، وممن سيكونون انبياء إرهاصاً

(انه ربي أحسن مثواي)

— ١ —

ووقف الشيخ أحمد من علماء « ليبيا » ليلقي خطاباً حررته يد السيدة عصمة بالنيابة عنها فقال

اعتراف يوسف بالجميل

يقول يوسف ان قوطيفار ربانى فى عهد افاقة نعمته ، وكلأني برعايته ، فتح لى صدره ومنزله ، فيجب عليّ ان أحفظ كرامته . اباح لي التصرف فى بيتـه ،

واني إذا لم أحسب له حساباً ، يجب عليّ أن أحسب لفضله وخيره ألف حساب

ألقى الي مقاليد أموره ، وهو صاحب نعماي ، وقد أمنني على عرضه ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عقل له ، فلا بدحة من أن أحتفظ بمعروفه ، لأن لي شرفاً أحب أن ابقي عليه أكثر ما أبقي على متاع الدنيا ولذاتها

إنني فقدت وطني وأهلي ، وخسرت أبويّ وإخوتي ، ولم يبق لي إلا شرفي ، فهو كل ما أصبحت أملكه ، من بعد ذلك كله ، فهل يسوغ لي أن أعدمه أيضاً ، وأُلحقه بتلك الخسائر ؟ حاشا لي من ذلك

نعم إنه ربي أحسن مثواي ، وجعل أحسن مثواي منازل من الأنام ، وبذل في سبيل راحتي كل مرتخص وغال ، وزودني وأفضل عليّ ، ولا يقدم على هذا الأمر ، إلا كل ناس أو متناس للاحسان ، ميت الضمير ، لا زمام له يزجره ، ولا عقل يعقله ، وإن لي بحمد الله ضميرا حياً يؤنبني ، وعقلاً عاقلاً يعقلني

هو جعل لي في قصره ، بل وفي قلبه ، المقام الأول ، وكلني على بيته ، وائتمنني على عقيلته وحرمه ، فيجب أن تكون حقوقه عندي مقدسة ، فإن كان مثلي يخون ، فرحمة الله على الوكلاء ، وسلام على الأمناء ، إن ماسألتني إياه محظور من وجهين وجه ديني ، ووجه أدبي ، فلو لم أدع هذا تأثماً ، لتركته تأدباً ، وإذا كانت الشرائع تقول « لا تخن من خانك » فكيف اخون أنا من امنني ؟ وإذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل صنائعه ومعروفه في أهل الحفاظ ، وإذا أراد به شراً ، جعل صنائعه ومعروفه في غير اهل الحفاظ ، كما نطقت بذلك الحكم السماوية ، فإن يريدن أن أكون من غير أهل الحفاظ ، هذا هو مرمى كلام يوسف (م) ومغزاه

وهنا فوائد .

الأسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة

الفائدة الأولى — إن ما يبعد الانسان عن الفحش والمخالطة المحرمة ، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل الكامن في هذا الفعل ، أو سبب ديني ، يدعو إلى الائتمار بأمر الله والانتهاء بنهيه والخوف من ناره وعقابه ، والرجاء في جنته ورضوانه أو سبب أدبي ، يدعو الى المحافظة على المروءة والشرف ، وحسن السمعة وكرم المحتد ، ومراعاة الامانة

وظاهر ان الذي منع يوسف الصديق (ع) هو السببان الأخيران ، الديني والادبي ، فلهذا عصم نفسه بعصمة الله تعالى إذ

توضيح موقف زليخا منها

الفائدة الثانية — كانت كلمة (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) أشد وقعاً على ز ليخا من الصاعقة ، ولما سمعتها اضطربت لها كل جارحة من جوارحها ، لأنها تذكرها بأن لها زوجاً ، وأن الرجل الذي تحبه ... مراودته سوء تمثل ذنب ، ولا ريب أنه عندما سمعت جوابه ... وجدت تلك الكلمة ... صمتة من التوبيخ والتعنيف وتكاد مع الأسف رغمه عن كل ذنب . ثم رأت مندفعة بنار العواطف ... حتى كررت عليه الطلب ، فأخذته إلى همه بها فالهرب كما سيأتي

تعريض يوسف بزليخا

الفائدة الثالثة — يريد بقوله « إن ربي أحسن مثواي » نفسه ، ثم هو أيضاً يعرض به لها ، كأنه يقول أنا أفتكر هذا الفكر ، وأحفظ لسيدي معروفه معي ، وأحافظ على شرفه ، وكان من الواجب عليك أنت أيضاً أن تحفظي لسيدك (الذي أحسن مثواك) حقه ، ولا تطلبيه في التعدى على شرفه ، بل إن هذا بك أولى مني ، فليس العبد أولى بحفظ معروف سيده وبالمحافظة على شرفه — من زوجته (شريكة حياته التي هي وهو إنسان واحد)

المراد بالرب في قوله إنه ربي

الفائدة الرابعة — نعلم من قوله « إنه ربي » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل — على غير الله تعالى كان جائزاً عند يوسف الصديق وفي عصره ، أو بعبارة أصح كان جائزاً في شريعة جده إبراهيم (م) بل إن مثل ذلك وارد في شريعتنا ، ففي صحيح البخاري ، في اشراط الساعة الصغرى « وأن تلد الأمة ربها » وفي رواية « ربتها » ، وربما جاء باللام عوضاً عن الاضافة إذا كان بمعنى السيد ، قال الحارث بن حلزه

فهو الرب والشهيد على يوم الحِيَارَيْنِ والبلاء بلاء

(مصباح) ومنه ما في صحيح البخاري أيضاً « إن تداول سلمان الفارسي بضعة عشر من ربّ إلى ربّ » ، أي تداولته الأيدي من مالك إلى مالك

وعليه فيكون المراد هنا « بالرب » — « عزيز مصر » والرب بمعنى السيد والمولى والمالك

ومنه فيما أبهم على احتمال ما في قوله تعالى ﴿ لولا أن رأى برهانَ ربّه ﴾ (آ ٢٤) إذ يحتمل عندنا أنه يعني سيده ومالكه وهو فوطيفار ، وبرهانه هو إحسانه لمثواه ومنه ﴿ فيَسْقي ربَّه خمْراً ﴾ (آ ٤١) أي سيده ومولاه وهو الريان مليك مصر

ومنه ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ (آ ٤٢) ، أي سيدك وهو الريان

ومنه ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربّهِ ﴾ (آ ٤٢) أي الريان

ومنه ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ (آ ٥٠) أي الملك الريان

ومن هذا القبيل — فيما نفهم — ما في قول يوسف ﴿ إنّ ربي بكيدِهِنّ عليمٌ ﴾ (آ ٥٠) فربه ههنا فيما نفهم هو سيده ومالكه عزيز مصر ، الذي كان علم بكيدهن ، إذ قال ﴿ إن كيدَكُنّ عظيمٌ ﴾ (آ ٢٨) ، ودليلنا على ذلك ان يوسف يريد الاحتجاج ، ولا تقوم له حجة ، إلا إذا كان المراد من لفظ « ربي » في هذه الآية هو ما فهمناه ، وأما علم الله فلا ينهض حجة عليهم ، لأنه غير مطّلع عليه ، بل هو غيب محض ومن اطلاق « الرب » على السيد ما في قول « أبي نُخَيْلَة » يمدح « هشاماً »

إلى أمير المؤمنين المُحتذى ربّ معدّ وسوى معد

تعاليم الاسلام في كلمة الرب

الفائدة الخامسة — إطلاق « الرب » على غير الله تعالى اصطلاح ديني ، كان جرى عليه الأشوريون والكلدان والسوريون والمصريون واليهود والنصارى — تبعاً لهم — والعرب في الجاهلية ، وبعض شعراء العرب في الاسلام ، الذين ما كانوا يتقيدون بالدين ، ولكن الاسلام نهانا عن أن نطلق كلمة « الرب » على غير

لله تعالى أدباً مع الله ، واحتياطاً في باب التوحيد ، ولهذا قال ﷺ « لا يقولن أحدكم عبدي ، أمتي ، ولا يقل المملوك ربي ، ليقل المالك فتاي وفتاتي ،وليقل المملوك سيدي وسيدتي ، فإنكم المملوكون ، والرب هو الله عز وجل » ، رواه الشيخان ، وهذا الأدب اللطيف أخذه النبي ﷺ من القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤ ٢٤) ، ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ (آ ٦٢) ، ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ (آ ٣٠) ، ﴿ ولا تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُم ﴾ (٢٤ ٣٣) ، والصواب أن يمنع في غير ما ورد النص به فيما إذا كان معرفاً بأل ، أو مضافاً لعاقل عام ، وهذا نظير السجود ، أعني سجود إنسان لإنسان على جهة الاحترام والترسم ، فإنه كان جائزاً في العصور السابقة ، ولكنه منع في شريعتنا المحمدية منعاً مطلقاً ، احتياطاً في باب التوحيد ، والله تعالى أعلم

هل كان العزيز خصياً حقيقة أو مجازاً

الفائدة السادسة — قيل : « كان العزيز خصياً ، وكانت امرأته ترسل الدمعة إثر الدمعة ، وتنتابها لوعة بعد لوعة ، كلما استعرضت حياة الزوجية الكاملة ، التي تكمل اللذة والولد ، ولكنها لم تزل خلواً من طفل محبوب تناغيه ، وطفلة جميلة تلاعبها ، لذلك فهي لا تفتأ تطلب الذرية ، وتسعى لها سعيها ، والآن قد سعت ذلك السعي المعلوم ، ترمي بذلك حجراً لتصيد به صيدين ، أي لتحصل على استكمال الشهوة البدنية واللذة الجسمانية ، ولتكون أماً وتصير « العزيز » أباً ، ولكن على حساب سيدنا يوسف ، حماه الله وعصمه »

ولكن الصحيح إن فوطيفار « عزيز مصر » لم يكن خصياً حقيقة لغوية ، بل

كان خصياً حقيقة عرفية ، جرى عليها عرف حكومات المصريين والأشوريين والكلدانيين ، وربما بل كثيراً ما يسمون المأمورين في التاريخ عبيداً ، والحقيقة أنهم أحرار وكاملو الخلقة ، ومن لم يقف على هذا الاصطلاح الذي جرى عليه قدماء المؤرخين تبعاً لاصطلاح تلك الحكومات دخل عليه من الغرور ما جرّأه أن يقول إن فوطيفار عزيز مصر كان خصياً حقيقة لغوية ، كما اغتر بنحو ذلك من المفسرين « ابن جرير » رحمه الله ، وأما قول عزيز مصر لامرأته « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (آ ٢١) فلا يقتضي أنه كان خصياً مقطوع عضو الرجال ، إذ يجوز أن يكون عدم وجود ولد له ناشئاً لمانع من جانب زوجته أو لمانع من جانبه غير قطع العضو كالعقم أو الارتخاء أو العنة أو نحو ذلك مما بسطه علماء الطب، فافهموا

(انه لا يفلح الظالمون)

— ١ —

صعد على المنبر الشيخ حسين العاملي [1] وقال

أيها الاخوان هذا خطاب السيده سلمى بنت الحاج حسين الصيداوي فأرجوكم ان تصغوا اليه

الظالم لا يفلح

يقول يوسف إن سيدي خلق لك ، وأنت خلقت له ، فبعد ذلك هل يجوز لي أن أظلم سيدي وأتعدى على ما خصه الشريعة به ؟ — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون

(١) نسبة الى جبل عامل في بلاد الشام (سابق)

أنا كما لي يد تناول إحسان سيدي ، فلي قلب يحس بواجب شكره ، ويشعر بحفظ معروفه ، وبُقَدْر إنسانيته معي حق قدرها،فهل يسوغ لي التعاصي عن ذلك الحس والشعور ؟ حتى أكون بذلك قد طمس قلبي وحسه وشعوره — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون

أنا لا أمتنع من هذا العمل خوفاً من القانون ، فالقانون في هـذا البلد مدني لا أدبي ، ولا خوفاً من الحكومة ، فالحكومة (بالنسبة الي) هي أنت ، وأنت هيه ، ولا خوفاً من أبيك وولي أمرك ، فانهما لا يعلمان من حالنا شيئاً ، ولكني أخاف من ضميري يوبخني ،فان ربي قوطيفار أحسن مثواي،وأخاف من (الأ'لُوه) أن يكتبني في ديوان الظلمة ، الذين لا يفلحون ، حيث يجازون الحسن بالسيء إن هذا العمل ،ظلم لسيدي العزيز ، ظلم لحقوقه وشرفه وعرضه،ظلم لنعمته وخيره وملحه ، ظلم لنفسي ، ظلم للشريعتين ،شريعة الطبع وشريعة السماء ، واني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم

بدء المعركة بين زليخا ويوسف

آ(٢٤) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّهِ ، كَذلِكَ ، لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والعشرون فتسابقت السيدات أيضاً الى الكلام على هذه الآية ، فقامت السيدة بزار الموصلية وقالت

(ولقد) كان انه لما لم ينجح مع « يوسف » الطلب باللين والرفق ، ولم ينجح مع

« زليخا » الرد بالعطة الحسنة ، ولم تجد هي عنده صدى عرامها به ، وقد أحـــــد الشبق منها مأخذاً قوياً ، كما أخذ التعيط منه مأخذاً قوياً أيضاً ، (همت به)ضرباً أو لكماً أو قتلاً (و) هو أيضاً (همّ بها) كذلك ، وكاد أن يقع ذلك منها ، لولا أن تراجعت هي عن تنفيذه ، بالنظر لما هو معلوم طبعاً من ضعف المرأة ، و (لولا أن رأى) هو ، اي استحضر أو تصور أو تخيل في نفسه (برهان ربه) وهو الدفع بالتي هي أحسن أو التملص متى أمكن (كذلك) ـ الكاف منصوب المحل ـ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه ـــ أو مرفوعة أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) وهو الزنا أو مقدماته ، بدليل قولها فيما بعد

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » ثم قول النسوة « ما علمنا عليه من سوء » ، (والفحشاء) القتل (إنه من عبادنا المخلصين) الذين قلنا فيهم إنهم ﴿ ولا يقتلون النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِ ولا يزنونَ ﴾ (٢٥ ٦٨) وقلنا فيهم ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سلطانٌ ﴾ (١٥ ٤٢) وورد فيهم ﴿ فبعزّتِكَ لأغوِيَنَّهُمْ أجمعينَ إلاّ عبادَكَ منهم المخلَصينَ ﴾ (٣٨ ٨٢ و ٨٣) ،

هذه كلمتي انتعشها الألم ، فسطرها القلم ، وهذا هو التفسير الذي يطير رؤوس غلطات المفسرين عن أبدانها لأن المعنى الذي قرروه شيء لا وجود له في الواقع وإنما هو من مخلوقات الخيال ، ليس إلا　　'' وإنه ليعز علينا أن ناقش المفسرين هذه المناقشة الشديدة ، ولكن دفاعاً عن مقام نبي الله ورسوله يوسف الصديق ، يحدو بنا لمثل ذلك والسلام

(ولقد همت به وهم بها)

— ١ —

وقالت السيدة ميمونة الحليه (١)

همت به حلماً وهم بها دفعاً

أعطمت زليخا إباء يوسف ، وهالها جفاء جوابه ، ورأت أنه لم ينفع فيه الكلام الهادىء الناعم المرن ، فأخذت تغلظ له في القول ثم قامت « فهمّت به » حلماً ، وتمادت طلماً ، واستماتت رغبة ، في سبيل الحصول على شهوتها والوصول إلى رغبتها ، واجتهدت على هذا بكل حواسها وعواطفها النفسية ، وأما هو (ع) « فهمّ بها » دفعاً ، واستمات منعاً في سبيل المحافظة على شرفه وطهارته ، والاحتفاظ بدينه ، واجتهد على ذلك بكل حواسه وعواطفه العقلية ، وهكذا قامت القيامة بينهما ، وشنت الغارة وأعلنت الحرب

برهان ربه هو حجة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن

أراد يوسف أن يدفعها بشده وعنف « لولا أن رأى برهان ربه » القاضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ، فاستدرك وشرع يحاول دفعها باللطف ، عملاً بالقانون السماوي المذكور ، ولئلا يعرض نفسه للخطر لأنه عندها وفتاها و « برهان ربه » هو حجة الله على العبد في تحريم الضرب أو القتل أو الدفع بقسوة وشده ، مع إمكان الدفع بيسر ولين

---

(١) نسبه الى بلده الحله من بلاد العراق

هذا هو المعنى الذي أعثرني الله عليه، وأطلعني على مكنونه ، فإن كنت مصيبة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وإن كنت مخطئة فما ذلك بأول قارورة كسرت (مرجى).

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى الخ)

— ٢ —

وقالت السيدة خديجة العروبة

همت بعمر وهم بعملها

إن رأيي في هذين الهمين هو أن يوسف رأى نفسه مع تلك المرأة في حالة أحد ورد ، ورغبة وإباء ، وأنه صار في موقف خطير ، فاحتدم الدم في وجهه ، فكررت الطلب بإلحاح وشدة ، وكرر هو الإباء بأشد ، فصارت هي في حالة غير اعتيادية ، وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل ، « فهمت » به أن تقتله أو تبطش به أو تضربه ، أي أنها لجأت إلى الطلب اليائس الجاف ، ولكن خوفها منه اعترض مجرى أفكارها ، فتوقفت ، ورأى هو نفسه أن موته أهون ، ولئن مات مات شهيد الطهر والعفاف ، ولكنه أخيراً لم يرد أن يستسلم لها ، بل أراد الدفاع ، فصار في حالة غير اعتيادية « وهمّ » بها أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها ، إذا لم يجد مخلصا سوى ذلك لسان حاله يقول « إن الموت في سبيل حياة الشرف ، خير من الحياة في سبيل موت الشرف ، وإنه لا محيص من الصدر أو القبر » ، ولكن برهان سيده منعه من إتمام ذلك وحوادث الغرام والحب مملوءة من ذكر القتل أو إرادة الإقدام عليه تارة من جانب المحب إذا استولى عليه الحب وملك عليه حواسه ، وطوراً من المحبوب إذا كان شريفاً ، وحيناً من الجانبين عند اختلافهما في الفكرة كما هنا .

وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري ، وله شواهد تقع دائماً والعبارة تدل عليه دون غيره ، فإن المقام مقام خلاف ومعاصة ، ولا يقال « همّ بالشخص » في هذا المقام إلا إذا أريد بالهمّ الضرب أو ما ماثله أو فوقه من الايذاء ، وأيضاً لا يقال : « إنّ المرأة همت بالرجل » بالمعنى الذي جرى عليه المفسرون ، لأن الهم إنما يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهي في المباشرة مؤاتية لا عمل لها

البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه »

وأما رأيي في هذا البرهان فهو أنه لما حمي الوطيس بين يوسف وزليخا وانتقل الكلام من الجدال الى الجلاد ، ومن المقال الى القتال ، أراد أن يتمادى هو على ذلك « لولا أن رآى برهان ربه » وهو شعوره بثقل فضل سيدته عليه ، وثقل فضل سيده فوطيفار ، ولكونه تربى في بيتها ونعمتها وكفالتها ، ورأى في هذا البيت عزاً وراحة

ويجوز أن يكون الرب هنا هو الله سبحانه ، وبرهانه هو أن الضرر لا يزال بالضرر ، كما ورث ذلك من أبيه يعقوب وجديه إسحاق وإبراهيم ، من أنه لا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنه يجب الدفاع بالتي هي أحسن ، قال الشاعر

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من كف طرفاً او ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

وجواب « لولا أن رآى برهان ربه » محذوف ، تقديره لولا أن رآى برهان ربه

لقتلها أو ضربها أو صفعها ، لأن قوله « هم بها » يدل عليه ، كقولك « هممت به أي بقتله ، لولا أني خفت الله » ، أي لولا أن خفت الله لقتلته

هذا هو المعنى الذي تشف عنه الألفاظ ، شفوف الكأس الصافية عن الشراب، وتفسير هذه الآية بغير نحو ما قدمنا، هو من قبيل تفسير الكلام بالمعنى المركوز في نفس السامع، لا من قبيل تفسيره بالمعنى الذي أراده القائل ، ولعمرى إن ما قالوه في تفسير هذه الآية لا نقبله إلا من نأخذ بروايته « مسيلمة » عن « فاختة » ويا ليت الأقلام التي كتبت تلك الروايات لم تنبت بعد ، ولعمري إني أول ما قرأته أصابتني نوبة ذهول شديدة ، صرعتني أكثر من عشر سنين ، ولم أفق منها إلا بعد ما رأيت الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي يقول « همت به » حلماً « وهم بها » دفعاً ، ثم رأيت العلامة ابن حزم يقول « همت به » قتلا« وهم بها » كذلك ، فسررت بذلك كثيراً والحمد لله

الرؤية في قوله (لولا أن رآى) هي رؤية علمية

والرؤية هنا علمية ، كما في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فإذا هو خَصِيمٌ مبين ﴾ (٣٦ ٧٧) ، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرين تؤزُّهُم أزّاً ﴾ (١٩ ٨٤) ، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ (٥٨ ٧) وقوله تعالى ﴿ وإنْ يَرَوا سبيلَ الرشْدِ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ (٧ ١٤٥) وقوله تعالى ﴿ إنهم يَرَوْنَهُ بعيداً ، ونراه قريباً ﴾ (٧٠ ٦ و ٧) وما إلى ذلك مما هو كثير فى كتاب الله وسنة رسوله ، وفى شعر العرب ، ولكن القافية ضاقت على فريق من المفسرين فحملوه على الرؤية البصرية ، وفهموا غلطاً أن ما رآه كان كتابة في حائط ، أو في صورة برزت منها ، إلى آخر ما فهموا

ولو كان المعنى على حسب ما ذكره هذا الفريق من المفسرين ، لم يكن في قوله سبحانه « همت به » فائدة جديدة ، لأن همها به — بالمعنى الذي يصورونه — قد عرف تماماً من سابق قوله « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » ، فلو قال قائل إن قوله ، ولقد همت به توكيد لما سبق من مراودتها وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، — قلنا إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد كما هو معلوم أن المؤكِّد يجب أن يكون من درجة المؤكَّد ، حال كون « الهم » هنا — بالمعنى الذي تخيلوه — ليس هو من درجة المراودة وتغليق الأبواب وطلبها إياه ، بل ليس من درجة « العزم » الذي هو أعلى من الهم ، كما قال الناظم اللغوي الفقيه

مراتب القصد

مراتب القصد خمس « هاجس » ذكروا
« فخاطر » « فحديث النفس » فاستمعا
يليـــه « همّ » « فعزم » كلهـا رُفِعَت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعـــا

هكذا كنت رأيته منذ القديم أو نحواً منه ، في كلام الفيلسوف الشيخ محي الدين ابن عربي ، وكلام العلامة ابن حزم (مرجى)

استعمال كلمة الهم فى كلام العرب والقرآن والحديث

وتفسيرنا هذا الهم ، وهذا الهم عما قلنا هو الذى يستدعيه الاسلوب العربي ، قال الشاعر

همت ولم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائله

وبقول حميل بثينة

فليت رجالاً فيكِ قد ندروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لَقُوني

وقال تعالى ﴿ وَهَمُّوا بإخراج الرسولِ ﴾ (٩ ١٤) وقال تعالى ﴿ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطوا إليكم أيْدِيَهُم ﴾ (٥ ١٢) وقال تعالى ﴿ وهمت كلُّ امَّةٍ برسولِهم ليأخذوه ﴾ (٤٠ ٥) فهذه النقول تفيد أنه كثيراً ما يستعمل الهم في الايقاع والاقدام على المكروه والقتل، وفي حديث ابن ماجة وغيره: «جاء رجل يطلب نبي الله ﷺ بدين، فتكلم ببعض الكلام «فهم» صحابة رسول الله به، فقال رسول الله «مَه، إن صاحب الدين له سلطان على صاحبه حتى يقضيه»، وفي ابن ماجة أيضاً «بعث رسول الله ﷺ أبا جهمة مُصَدِّقاً فلاحّه، رجل في صدقته، فضربه أبو جهم فشجه، فأتوا النبي ﷺ، فقالوا: القودَ يارسول الله، فقال النبي ﷺ لكم كذا وكذا، فلم يرضوا، فقال لكم كذا وكذا فرضوا فقال النبي ﷺ إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم قالوا نعم، فخطب النبي ﷺ فقال إن هؤلاء الليثيين أتوني يريدون القود، فعرضت عليهم كذا وكذا، أرضيتم؟ قالوا لا «فهمَّ» بهم المهاجرون، فأمر النبي أن يكفوا، فكفوا، ثم دعاهم فزادهم، فقال أرضيتم؟ قالوا نعم قال إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم قالوا نعم، فخطب النبي ثم قال أرضيتم؟ قالوا نعم» وفي البخاري عن ابن عباس «أن عُيَيْنة بن حِصْن، قال لعمر (ض) هِيْ[1] يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى «همَّ به»، فقال له الحُر بن أخي عُيَيْنة يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين ﴾ (٧ -

(١) كلمة تهديد، وقيل هي بمعنى هات خبره، أي هي داهية

١٩٨) ، وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ماجاوزها عمر ، حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله »

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه)

— ٣ —

وقالت الآنسة ربيحة المقدسية

الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه هم بمخالطة امرأة العزيز

هذه كلمة يجب التكلم عليها برفق وأناة ، وهي قبل التأمل فيها « شبهة » لمن طعن في عفاف يوسف ، وقوله ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ مع ملاحظة قوله ﴿ إنَّ عِبَادي ليسَ لَكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ « حجة » لمن قام يناضل عن يوسف، وقد فسرّ العلماء من قبلي « الهمّ » بما سمعتم ، فلا تكونوا ممن تتمسك « بالشبهة » وتغض نظره عن « الحجة » ، فإن قوماً من المفسرين ذكروا في هـــذا المحل ما يهوي برأس الحقيقه الى عقبها ، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف بما هو براء منــه ، وأرادوا أن يكسوا تاريخه ثوباً قاتمـاً ، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيد إخوته له ، فان من يسقطك عن درجة الأعفّاء الأطياب ، يسيء اليك أكثر ممن يلقيك في غيابة الجباب

وعندنا إن كلام هـــؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف (ع) متصل بالمعمل الذي خرجت منه تلك « الأسمار » التي لا تزال تنـــال من عفة الأنبياء الأطهار

أي أن بعض المفسرين نقلوه عن جملة اليهود الذين اعتنقوا دين الإسلام لأمر ما ، مع أن بعض تلك الأسفار اليهودية وإن تكن قد حشيت بالطعون الفاحشة في أنبياء الله ، لكنها خلت عن الطعن بيوسف (ع) .

وطالما دافعت بلساني وقلمي عن يوسف (ع) في هذا المقام ، وإني أود أن يكون لي لسان ثان ، وقلم آخر ، لأستخدمهما في سبيل الدفاع عن هـــذا النبي الصديق (ع)

فأنا الحقيرة أؤمن بأن يوسف نبي ورسول (٤٠ ٣٤) وصديق (١٢ ٤٦) وأنه لما بلغ أشده ، آتاه الله حكماً (١٢ ٢٢) يحكم به نفسه عن الهمّ بالمخالطة وعن كل سوء ، وأنه من عباد الله المخلَصين (١٢ ، ٢٤) الذين ليس لابليس عليهم سلطان بحكم قول القرآن ﴿ولأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المُخْلَصين قالَ هذا صِراطٌ عليّ مُستقيمٌ ، إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ﴾ (١٥ ٣٩ - ٤٢) وبالتالي والنتيجة أُؤمن بأن يوسف إنما « همّ » بدفعها بشدة أو بضربها او بقتلها ، لولا أن رأى برهـــان ربه ، الذي أرشده للدفع بالتي هي احسن ، وأما من صدق بهذه الآيات الكريمة مع قوله إن يوسف « همّ » بمخالطتها فقد آمن بشطر دون شطر ، أو نقول إنه آمن بالمقدمات دون النتيجة ، أو بالفاظ الكتاب دون معانيه

حقا إنه ليصعب علينا ان نعتقد ما قاله ، ءلئون عنهـا مما ينوب بشرف السيد الصديق ، مما يخالف ما أخذ على نفسه تجاهه ، وهـو حفظه معروف ربه ، وإن الظالم لا يفلح أبدا (مرحى مرحى)

(كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء)

— ١ —

قال الشيخ اسعد الدهاوي [١]

السوء والفحشاء

الكاف في كذلك منصوب المحل ، أي مثلَ ذلك التثبيت ثبتناه ، أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك (الكشاف)

« والسوء » هو كل ما يَغُم الانسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية ، من فوات مال وفقد حميم ، وفعل قبيح ، وهو اسم من ساءه ضد سره ، والسوء ضد الحسَن ، وهو في قوله تعالى ﴿ إنَّ الخِزيَ اليَوْمَ والسُّوءَ على الكافرينَ ﴾ (١٦ ٢٧) بمعنى الغم ، وفي قوله تعالى ﴿ مَنْ يَعمل سُوءاً يُجزَ بهِ ﴾ (٣ ١٢٢) بمعنى القبيح ، فالسوء كل عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس

« والفحشاء » هي والفحش والفاحشة ألفاظ ثلاثة معناها واحد ، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحُشَ الرجل صار فاحشاً ، قال الشاعر

أرى الموتَ يَعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به العظيم القبح في البخل ، وفي الحديث (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) ، فالفاحش ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمده ، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي يطلق عليه هذه الألفاظ

(١) نسبة الى دهاء من البلاد المصرية

ومنه الحديث (قال لعائشة لا تقولي ذلك ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفاحش) أراد بالفحش التعدي في القول والجواب ، والتفاحش تفاعل منه ، وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ، ومنه حديث بعضهم ، وقد سئل عن دم البراغيث ، فقال (إن لم يكن فاحشاً فلا بأس) وقوله تعالى ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطانِ ، إنَّه لكم عَدُوٌّ مُبِين ، إنما يأمُرُكم بالسوءِ والفَحْشاءِ وأن تقولوا على اللهِ مالا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢ ١٦٩) « فالسوء » القبيح ، « والفحشاء » ما تجاوز الحد في القبح (كشاف)

وكل واحد من القتل والزنى يقال له سوء وفحشاء ، قال تعالى ﴿ ولا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُم من النساء ، إلاّ ما قد سلَفَ ، إنَّه كانَ فاحشةً ومَقتاً وساءَ سبيلا ﴾ (٤ ٢١) وقال تعالى ﴿ ولا تقربُوا الزِّنى إنَّه كانَ فاحِشَةً وساء سبيلا ﴾ (١٧ ٣٢) وقال ﴿ ما كانَ أبوكِ امرَأَ سَوْء ﴾ (١٩ ٢٨) اى زنى ، وقال ﴿ ولا تَمَسُّوها بسُوء ﴾ (٧ ٧٢) أي قتل ، وقال ﴿ يسُومونَكم سُوءَ العذابِ ، يُذَبِّحُون أبناءَكم ﴾ (٢ ٤٩) وقال ﴿ فإن أتَيْنَ بفاحشةٍ فعليهنَّ نصفُ ما على المُحصَناتِ من العذاب ﴾ (٤ ٢٤)

فإذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما نهمه ونحزنه وكل امر قبيح وكل ما تجاوز الحد في القبح ، أو لنصرف عنه الصغيرة والكبيرة ، او لنصرف عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي ، فلعله اراد لنصرف عنه ماسوءه ، وهو خيانته لسيده ، والفحشاء وهو ولد لسيدته ، او السوء من أخذ فيه وهو قتله لسيدته دفاعاً عن عرضه ، والفحشاء ما فيه حد وهو الزنى ، و نصرف عنه السوء وهو مقدمات الفاحشة من التقبيل والضم ونحو ذلك والفحشاء وهي الزنى او القتل ، أو السوء هو الزنى والفحشاء هي القتل ، وهذا الاخير هو الاقرب عندنا بدليل قوله تعالى ﴿ من أرادَ بأهلِكَ سُوءاً ﴾ أي زنى ، و ﴿ ما علمنا عليه

من سوء﴾ أي ربى ، و ﴿ إنّ النّفْسَ لأمّارَةٌ بالسوء﴾ أي الربى ، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الربى ، فليكن لفظ «السوء» في قوله ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ مراداً منه الربى ، وإذا ثبت هذا « فالفحشاء » هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار ، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الربى والقتل سوأ وفاحشة هذا ما فهمته ذكرته لكم والله تعالى أعلم

(انه من عبادنا المخلصين)

— ١ —

قال العلامة الخيراوي (١)

(اخلاص يوسف لله واخلاص الله ليوسف)

هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته ، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم ﴿ وعبادُ الرحمن الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هوناً — الى أن يقول — ولا يقتُلونَ النفسَ التي حرّمَ اللهُ الا بالحقِ ، ولا يَزنُونَ ﴾ (٢٥ ٦٣ — ٦٨) ، كان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم ﴿ إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان﴾ (١٥ ٤٢) كان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم ﴿ قالَ فبعزّتِكَ لأغوِينّهُم أجمعينَ ، إلاّ عبادَكَ منهم المخلَصينَ ﴾ (٣٨ ٨٢و٨٣)

فيوسف بانصرافه عن الربى والقتل تم فيه قوله تعالى ﴿ ولا يقتلونَ النفسَ التى حرَمَ اللهُ إلاّ بالحقِ ولا يَزنون ﴾ (٢٥ ٦٨) وباعراضه عن

---

(١) نسبة الى الخيرة في البلاد المصرية

مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له « هيتَ لك » ثم فيه قوله تعالى ﴿ وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً ﴾ (٢٥ ٧٣) ورؤيته برهان ربه والعمل بمقتضى ذلك البرهان ثم فيه قوله تعالى ﴿ والذين إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً ﴾ (٢٥ ٧٣).

وهنا تتمة للكلام مهمة جداً، وهي أن كلمة « مخلَصين » في القرآن الكريم تقرأ بالفتح والكسر، بمعنى أن الانسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله لطاعته، ومن خواص الاخلاص انه لايعلمه ملك فيكتبه، ولاعدوّ فيفسده، ولا يعجب به صاحبه فيبطله فامرأة العزيز كانت مشركة، فوقعت مع زوجها فيما وقعت فيه من السوء، وأما يوسف (ع) فمع عزوبته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة، وتهديدها له بالحبس، فقد عصم نفسه، فعصمه الله باخلاصه لله

قميص الشهادة

١ (٢٥) ﴿ واستَبَقا الباب، وقَدّتْ قميصَه من دُبُرٍ، وألفَيا سيّدَها لدا الباب قالتْ ماجزاءُ من أرادَ بأهلكَ سُوءاً إلاّ أن يُسجَنَ أو عذابٌ أليمْ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والعشرون فقام الشيخ الدنوشري [١] وقال

(واستبقا الباب) أى تسابق يوسف وزليخا الى الباب البراني الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار لأنها صابقته وضغطت على حريته، وسددت عليه

(١) نسبة الى دنوسر فى السودان

وأحرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار، ولما كان الإحراج يؤدي إلى الاخراج، نفر منها فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق قميصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها فأخذته ملفوفاً في يدها (وألفيا سيدها) وصادفا بعلها قوطيفار (لدا الباب) مقبلاً يريد أن يدخل وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة، فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت اليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجاً أرادت أن تلهب به عليه سيدها (فقالت) بلسان المشتكي المظلوم الله أكبر، ما هذا؟ «إن الذئاب بأرضنا يستنسر»، الله أكبر «حاميها حراميها» جئنا بالعبيد لكي يحرسونا فاذا هم الخائنون! صدق من قال «من اشترى الدون بالدون، كان هو المغبون» قالت وجرسُ صوتها ينم عليها (ما) أي ليس (جزاء) عقاب كل (من أراد بأهلك) زوجك (سوءاً) زناً (إلا أن يسجن او عذاب أليم) كالضرب بالسياط مثلاً أو تشغيل بأشغال شاقة، ويجوز أن تكون «ما» استفهامية بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن، ولو كان حبها شريفاً، لم تفعل ذلك ولآثرته على نفسها، ولكن حبها إياه كان حباً شهوانياً، وأما يوسف، فطن انه لما سمع هذا السباب تأفف حد التأفف ولكنه صبر، وردد في نفسه معنى قول القائل

إذا ما كنت في قوم غريباً   فعاملهم بفعل مستطابُ

ولا تحزن إذا فاهوا بفحش   غريب الدار تنبحه الكلابُ

(واستبقا الباب)

— ١ —

قالت الآنسة معصومة النابلسية (١)

هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به

كانت زليخا لم تأل جهداً في استدراج يوسف على مرادها ، وهو لم يأل جهداً في ردها عما ترغب اليه فيه ، فنشأ كساوم كل بالآخر ، وبتعبير آخر لما حمي الوطيس بينهما ، أرادت ضربه أو لكمه أو قتله ، وأراد ضربها أو لكمها أو قتلها ، ثم رجع هو عن هذه الفكرة ، بحكم البرهان الذي رآه ، القاضي عليه أن يدفع بالتي هي أحسن ، وعندئذ رأى نفسه عاجزاً أمامها ، وأن ليس له سلاح يتسلح به سوى الفرار من بين يديها ، فولى وجهه شطر الباب ، ومر هارباً وللنجاة طالباً ، فلطمت بدأ بيد وضربت صدرها ، وما عتمت أن لحقته ، فدهما يتسابقان نحو الباب ، وهما بين هارب وطالب ، طريد هارب ، وصائد طالب ، سابقا سابقاً يعيي المصور أن يراه فيرسمه ، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك أسباب التشريف ، ويرسم صوره الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة

هو يستبق لباب الجنة ، وهي تستبق لباب جهنم ، هو يستبق لباب الطهارة ، وهي تستبق لباب الدنس ، هو يستبق لباب الشرف والعلو ، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط — كل منهما يريد الباب ، ولكن لأمرين مختلفين ، كل منهما يريد الباب ، وهو عمل في ظاهره واحـــد ، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف ، صورة هذا العمل واحدة ، ولكن الروح مختلفة ، هو استبق الباب ليخرج منه ،

(١) نسبة الى نابلس من بلاد فلسطين

وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج ، هو استبق الباب ليفتحه ، وهي استبقت الباب لتسده في وجهه ، هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته ، وهي استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها

هذا يا سادتي ما أردنا التعليق به على كلمة (استبقا) ، وأما تعليقنا على كلمة (الباب) فيظهر أن هذا الباب هو أحد أبواب القصر الداخلية التي تحوطه من جهاته، وكانت قد غلقتها كما تقدم ذكره ، وكان الباب في طريقه ، فقصده ليخرج منه ، وكان مغلقا (بالمزلاج) أي السقاطة ، على حسب العوائد القديمة ، وليس هو الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطريق المسلوكة ، إذ يبعد أن تعمل هي هـذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت الحركة حركة حب جنوني ، هذه كلمتي فى هذا الموضوع ، والله أعلم .

(وقدت قميصه من دُبُر)

—١—

وقالت السيدة فريدة الحمصية (١)

قد القميص

هرب منها يريد الخروج من باب القصر ، وعدت خلفه لتَجذبه إلى نفسها ، فتبادرا الى الباب ، يجتهد كل واحد منها أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف ، فتح باب القصر ونجا لأنه يصير بين جمهور من الخدم ، وإن سبقت هي أمسكت

(١) نسبة الى بلدة حمص من سورية

الباب لئلا يخرج ، ولكن يوسف سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج وهي تعدو خلفه ، فلم تصل إلاّ إلى دبر قميصه فأمسكت به وجذبته فانشق والغالب ان هذا كان طولاً ، لأن أكثر استعمال « القد » في الشق طولاً ، وأما عرضاً فيقال له « قط » وفي وصف سيدنا علي (رض) « إنه كان إذا اعتلى قدّ ، وإذا اعترض قطّ » ، ولم تزل الامرأة متمسكة بالقميص ، نزعه يوسف وتركه بيدها وبقي مثابراً على الهرب ، وهنا دقيقة قد أغفلها جميع أهل التفسير ، ولكن نحن لابد لنا من التنبيه عليها وهي

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قدّه

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده ، حتى ألفى « سيدها » لدى الباب ، أو هو لما رآها قد تمسكت به فانقدّ ، وكانت لا تزال متمسكة به ، تصابى منها فنزعه عن جسمه وتركه لها ، إمعاناً في سرعة التخلص منها كما أشرنا اليه سابقاً ؟

هذا هو السؤال الذي لم نجد من المفسرين والمؤرخين من يخيله فذكره في أثناء هذه القصة ، ونجوا بنا بطلان الشق الأول من هذين الاحتمالين ، لأنه لو بقي لابسه ، وهو واقف ماثل أمام تلك الهيئة المؤلفـــة من « عزيز مصر وامرأته والشاهد من أهلها » لكان الأمر ظاهراً ، وكان القدّ محسوساً منظوراً للجميع ، فلا يكون هناك مجال للشك والتردد وطريق الاحتمالات ، وثانياً لو كان لا يزال لابسه لجاز « لإمرأة العزيز » أن تدافع عن نفسها وترد كلام ذلك « الشاهد من أهلها » قائلة له « إنك متحيز لهذا العبـد لأمرٍ ما ، وإنك حاقد عليّ لسابقة بيني وبينك ، فأنت لما رأيت القميص غير مقدود من قُبُل ، اعتقدت بالضرورة أنه مقدود من دُبُر ، فلذلك تحيزت لهذا العبد ، وحكمت بهذا الحكم الجائر » .

ولكنها لما لم تحتج على « الشاهد من أهلها » ولم تنتقد على حكمه شيء بل سلمت له تسليماً ، تبين أن يوسف لم يكن لابس القميص ، كما هو الواقع ، بل كان القميص ملفوفاً بيدها ، فلما فتش وجد أن" قده" كان من دبر ، هذا هو الصواب الذي يجب أن يقال في هذا المقام ، والله تعالى أعلم

(وألفيا سيدها لدا الباب)

— ١ —

وقالت الحاجة صالحة الموصلية (١)

مفاجأة قوطيفار لزليخا و يوسف عند الباب

ولم يكن إلا كلمح البصر حتى وجدا عزيز مصر عند باب القصر ، وقد انقلب من دار الحكومة للغداء أو لبعض شؤونه ، وإذا هو بين ظهرانيهم ، وكأنما كان يسمع صدى عدوهما حينما قربا منه ، وكان كل من زليخا و يوسف متهيجاً ، يخرج منهما نَفَس مرتفع متواتر ، وعند ذلك تحتت الغمرات والاشارات في أفواه الجواري والعبيد وعيونهم ، وعَقَدت أنظارهم نطاقاً حول ذلك المنظر المدهش ويا لهول ذلك الموقف ! موقف يترك في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، موقف ندى له الجبين خجلاً ، وتشمئز منه النفوس الطاهره

ألفيا سيدها الذي الباب ، ويا شر" ما ألفيا ، وبعبارة أصح يا شر" ما ألفت هي فقط واما يوسف فكان ذلك له — بحسب النتيجة — فرجاً ومخرجا ، ألفيا سيدها لدى الباب ، فاعترت الأشخاص الثلاثة حالة غير اعتيادية ، فأما يوسف فبغت بهــــذا

(١) نسبه الى الموصل من بلاد العراق

الاتفاق ، ولكن سر فؤاده وفرح به قلبه ، لأنه رآى انه قد تخلص من شرها ، بحضور سيدها ووقوفه على واقعة الحال ، وقد تبدل حاله من وحل الى جحل ، وتخيل كأنما يد القدر كانت قد خبأت عزيز مصر خلف الباب ، ثم أبرزته حين اللزوم ، نعم ، لا يخلو ان يوسف في بدء ما رآى عزيز مصر ، تقرر في نفسهلأول وهلة ، قائلا « هنا المطرقة والسندان ، وأنا بينهما » ،ولكنه ثاب الى أمنه أخيراً ، لأنه يعتقد في نفسه البراءه ، وأن البريء لا يخاف ظلماً ولا رهقاً ، فلذلك اطمأن باله ، وسكت راجياً من الله الخلاص

وأما فوطيفار فبُهت وشُدِه ، وألقى عليهما نظرة التعجب ، ورابه منظرهما ، وخيل اليه أن ذلك العبد آبق ، أوسارق أو هارق ، فدارت به الأرضُ الفضاءَ دورة كاد يُصعق فيها ، وتمثل له أن صرح راحته ومسرته بذلك العبد الكنعاني قد خرّ بين يديه دفعة واحدة ، فثـــار لذلك ثائره ، واكفهر وجهه وازبد ، وتَقَصّد عرقاً

رآى فوطيفار من الأمور المدهشة المحزنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرابه أمرهما ، وقال ما لكما ؟ إني أراكما في أمر مريج ثم التفت لامرأته ، لفتة استفهام بسيط ومخوف واستغراب وأما زليخا فراعها ذلك ، فتضعضعت واستخذت ، واستُطير عقلها ، خوفا ورعباً ، فولولت وحَلّمت وصاحت ، وتبرّمت وصافت بذلك درعاً ، ودق قلبها دقات متسارعة ، وظهرت البغتة على وجهها ، وارتعدت فرائصها ، كأنها أمسكت بصيده (١) كهربائية قوية، وأوجست في نفسها خيفة ، وانتُقِع لونها وامتقع ولكنها ما لبثت ان عادت الى

(١) نطريه كهربائيه

نفسها واستجمعت قواها ، وحاطت سيدها بلهجة يائسة ونغمة جافة ، كأنها تريد بذلك « ستر السموات بالقنوات »(١)

هذا خطابي المختصر ، ألقيته على مسامعكم الشريفة ، ولا بد لي قبل الختام من أن أتكلم كلمتين

انصاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة

الكلمة الأولى . — إطلاق كلمة « سيد » على الزوج هي لغة المصريين ، وشائعة بينهم الى اليوم ، حكاها القرآن الكريم جرياً على اصطلاحهم ، وأما العرب فيسمون شريك الحياة «زوجاً» قال تعالى .﴿ قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجَادِلُكَ في زَوجِها ﴾ (٥٨ ١) وربما سموه « رجلاً » كما قال تعالى ﴿ الرجالُ قَوَّامُونَ على النساء ﴾ (٤ ٣٣)، « وبعلاً » كما قال تعالى ﴿ وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (٢ ٢٢٨) و « حليلاً » كما يستفاد بالمقابلة من قوله تعالى ﴿ وحلائلُ أبنائِكم ﴾ (٤ ٢٢) و « صاحباً » كما نتعلمه بالمقابلة من قوله تعالى ﴿ وصاحبتِهِ وبنيه ﴾ (٨٠ . ٣٦) وقد ورد . « المرأة سيدة بيتها ، والرجل سيد بيته »

الكلمة الثانية — لم يطلق لفظ « السيد » في كتاب الله تعالى إلا على شخصين مرة على نبيّ الله « يحيى » (م) في قوله جل من قائل ﴿ وسَيِّداً وحَصُوراً ونبياً مِنَ الصالحينَ ﴾ (٣ ٣٩) وثانية على « عزيز مصر » في هذه الآية ﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾ ، ومن غريب الصدف أن الأول (م) لم يتزوج قط ،

(١) القنوات احشاء الحيوانات من كرش ومصارين وهو مثل عامي يضرب لمن يريد ستر أمر مفضوح

والثاني كان عيياً على أشهر القولين ، وورد في الأسفـــار الالٰهية ، إطلاق لفظ « السيد » على عيسى المسيح (م) وهو أيضاً لم يتزوج ، فاطلاق لفظ « السيد » على هؤلاء الثلاثة خاصة، الذين ليس للنساء حظ منهم ، إن لم يكن له سر ، فهو من عجائب المصادفات وأخشى أن يكون من معاني «السيد» من لم يخضع لشهوة النكاح فهو من هذه الجهة سيد على الحقيقة، وأما من كان خاضعاً لتلك الشهوة، فهو من هذه الوجهة «عبد» على الحقيقة، قال الشاعر

صاحب الشهوة « عبد » فاذا ترك الشهوة أضحـــى ملكا

(قالت ما جزاء مـن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟)

— ١ —

قالت الآنسة سهير المصرية

المراقعة والاتهام

رمت زليخا بهذا الحجر ، لتصيد صيدين ، اي لتبرر نفسهـــا أمام زوجها ، ولتوغر صدره على عبده ، فتشتفي غليلهـــا منه بسجنه أو عذابه ، لأنه لم يقض لهـــا شهوتها

نطقت بهذا الحكم القضائي بكل عين قوية لما تعلم من دالتهـــا عليه ، ولتهيج من ثورته ، وتشعل من نار غضبه على عبده وفتاه العبراني وقالت وصوتهـــا يرتعش ، وركبتاها تصطكان ، ولسانها يتلعثم ، وكلامها يتقطع مما لحقها من التعب بسبب الجري، أو مما لحقها من الخزي والخجالة وحراجة الموقف

« ما جـ ـــزاء مـ ـــن ـ أراد بأ ـ هـ ـلـك

. وا فصـ.. يحد ..تـاه ! إلا" . أبـ .. يسـ. ـحى
أو ع ....داب آل ـيم . وا حجـ.. لة ..ـاه ! »

هكذا نطق ان نعمة كلامها كانت متقطعة ، كأنما قد أصيبت فى مخيلتها بمرض عصبي في دماغها تقول بماذا يحكم على من ربيناه كطفل ، فاذا هو غر ضاري ، يريد أن يلتهم فريسة القصر بين أنيابه ، ولا يخشى بأس الأسد حارس القصر وعزيز مصر ؟ إذ قد تزلف لي وغازلني، ثم أرادني وراودني ، فانتهك حرمة بيتك ، وعبث بشرفك

رأت أنها وقعت في الشراك ، فتسلحت بالكذب ، لتتخلص من الشرك الذي وقعت فيه وكان صوتها مترعرعاً مضطرباً ، مع أن المعهود فيه ان يكون رخيماً مطرباً

صرخت باكية ساكية ، لكي تدفع عنها التهمة ، كما قيل « وسيلة المرأة في هجومها دموعها ، ووسيلتها فى دفاعها صراخها » والسكنة الحقيقية تظهر جلد المرأه ، بينما الهموم الصغرى تظهر ضعفها ، فلهذا انقلبت من « غزالة » وديعة ، إلى « وحش » ضار مهاجم ، حاولت إخفاء عواطفها الشهوانية أمام سيدها وعكست الآية ، وشوهت الحادث ، وقلبت المسألة رأساًعلى عقب ، وكانت كما تقول العامة « ضربني وبكى وسبقني واشتكى »

تقول في تصاغر كله كبرياء ليس جزاء من حاول الفحشاء مع حرمك ، وهن في عقر دارهن ،واقتسرهن علىماأراد اقتساراً ، واعتسرهن عليه اعتساراً ، إلا السجن في المطبق ، أو أن يسام الخسف والجور والإذلال ، وكل ما فيه ألم وأذى ، فيجب أن يدان بأحد هذين الأمرين ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي ذلك على طول الخط ، لأن فعلته هذه خيانة وكفران بالنعمة ، وجرأة على «عزيز مصر » .

هدا ما رمت اليه في مقالتها التي استعْدت بها على يوسف البريء حبابرة الأرض وزبانية جهنم ، نطقت بذلك لا بلهجة الصاغرة المتدوهة ، بل بلهجة المستكبرة الآمرة ، وبلسان سليط

ولنا ههنا احدى عشرة ملحوظة

التناقض في حكم زليخا على يوسف

الملحوظة الأولى — رأساها تقول هنا « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وسيراها تقول «ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ، ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فجعلت الجزاء على جريمة الفحش (المزعومة) والجزاء عن النزاهة عن تلك الجريمة واحد !!! فما أبعد إنصاف الانسان !!! وما أشد مناقضة خدمة لأغراضه الشخصية !!!

ارتياب العزيز في أمر زوجه صدر من تكلمها

الملحوظة الثانية — أدرك سيدها من هيئتها ونغمة صوتها ، وتململ حالها أنها هي الطالبة وهي الراغبة وهي التي أرادت السوء ليوسف وان حالها نم عن مكنون صدرها ، إذ قد قرأ في صفرة وجهها وملامحها ان في الأمر دسيسة ، وانها مقترفه « ويكاد المريب يقول خذوني » ، ولذلك لم يجاوبها بشيء ، ولم يظهر له أقل عناية

وبعبارة أبسط من ذلك سمع سيدها كلامها ، فأدرك انه ليس فيه شيء من من الغيظ والحنق ، كما هو الواجب لو كانت صادقه ، وليس فيه شيء من الشدة والغلظة التي يجب ان يكون نتيجة للتعدي على شرفها ، بل بالعكس فيه ما يشف عن الرأفة بيوسف ، وذلك لأنها راعت في كلامها دقيقتين ، فأولاً بدأت بذكر

السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يبادر إلى السعي في إيلام المحبوب، ولطفت أمر السجن بقولها « إلاّ أن يسجن » لأن هذه العبارة تصدق بسجن أيّ مدة ولو قلّت ، فأما السجن الدائم ، فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال مثلاً « إلا ان يكون من المسجونين »

وثانياً لم تصرح باسم يوسف ، بل ذكرت ذلك ذكراً مرسلاً ، صوناً له عن الذكر بالسوء والألم

ادرك سيدها العزيز هاتين الدقيقتين في طي شكاتها ، فساء فيها ظنه ، واتخذ ذلك علامة انها هي الماكرة الخائنة ، وحفظ الأمر عليها

ما المراد بكلمة « الأهل »

الملحوظة الثالثة — المراد بكلمة « الأهل » هنا الزوجة ، كما في قوله تعالى ﴿ فلمّا قَضَى موسى الأجَلَ وَسَارَ بأهلِهِ ﴾ (٢٨ ٢٩) فأهله هنا هي زوجته « صَفُّورة » وقوله تعالى للنبي (ﷺ) ﴿ وإذ غَدَوْتَ مِن أهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنينَ مَقَاعِدَ للقتالِ ﴾ (٣ ١٢١) اراد من اهله عائشة (ض) لأن غدوه الى أُحُدٍ كان من حجرتها ، وقوله تعالى ﴿ فراغَ إلى أهلِهِ ﴾ (٥١ ٢٦) ، اراد من اهله هنا ساراى وهاجر خاصة ، لأن ولده اسماعيل كان اذ ذاك ابن ١٢ سنة ، وابن اخيه لوط كان ساكناً في شرقي الأردن ، بخلاف إبراهيم فهو في غربيه في فلسطين ، فالأهل هنا في هذه الآيات الأربع اعلام الزوجات

رابعاً نصف نفسها الى زوجها اعظاماً للخطب

الملحوظة الرابعة — في إضافة نفسها إلى العزيز في قولها « بأهلك » إعظاماً للخطب ، وإغراء على تحقيق ما تتوخاه ، بحكم الغضب والحمية

رليخا تبادر بالكلام خشية ان يسبقها فيه يوسف او زوجها

الملحوظة الخامسة — رأت نفسها قد وقعت في مأرق حرج ، فخافت ان يتكلم يوسف قبل ان تتكلم هي ، او خافت ان يبادرها « سيدها » بالسؤال عن هذا الحال ، فبادرت في التكلم وسبقت قبل ان تُسأل .

اطالة رليخا الكلام في الشكوى

الملحوظة السادسة — لم تعمد في كلامها الى الاختصار الذى فيه البلاغ إذ كان يكفيها أن تقول « هو راودني عن نفسي » ، كما اكتفى يوسف بمثل ذلك إذ قال: « هي راودتني عن نفسي » ، ولكن أبىّ هذا وقد قال العلماء « إن حذق فن الكلام والبراعة فيه ، مع طول وكثرة واطناب ، هو شيء تحتكره النساء من دون الناس أجمعين »

عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية

الملحوظة السابعة — قولها « ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن أو عذاب أليم » هو من مواد الشريعة المصرية ، وهذه المادة توافق شريعتنا المحمدية لان كلا شقي هذه المادة من انواع « التعزير » الذي هو عقاب من حاول فعل الفاحشة ، وبعبارة اخرى ، الذي يكون في المعصية التي لا حدّ فيها

اخفاء رليخا اسم يوسف عمداً للابهام

الملحوظة الثامنة — لو قال قائل « كيف لم تصرح في شكاتها بذكر يوسف ، وانه هو الذي اراد بها سوءاً » — قلنا قصدت العموم ، وان كل من اراد بأهلك سوءاً فحكمه ان يسجن او يعذب لأن ذلك ابلغ فيما قصدته من تخويف يوسف ، او يقال إنها اظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة ان تقول لبعلها امام ذي رحمها « هذا اراد بي سوءاً » ، ولذلك ايضاً كنّت بالسوء عما أضمرته من الهناة ، مبالغة في المكر والكيد ، وابعاداً للتهمة عنهـا ، تتوقى ما يشعر منها بالتبرج والفحة

القميص المقدود كان دثارا

الملحوظة التاسعة — نعلم من قوله « وقدت قميصه من دبر » مع ما روى التاريخ من انه خلع ثوبه في يدها ، أن هذا القميص كان دثاراً لا شعاراً ، وإلا للزم ان يوسف صار عرياناً لا شيء على جسده ، ونعلم ايضاً أن يوسف كقدماء المصريين المعاصرين له انه لم يكن يلبس البسة كثيرة ، على قبيل ماهو حاصل اليوم من تقطيع الثياب الى قطع كثيرة ، بل كان يلبس ثياباً طويلة بحيث تكون قطعة واحدة ، كما هو المعروف عند قدماء العرب والاسرائيليين

سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته

الملحوظة العاشرة — قالوا لم يصرح القرآن الكريم باسم «العزيز» وامرأته ستراً عليهما ، ولكننا نحن ذكرناهما باسمهما وهو العلم الشخصي ، لأننا نعتقد أنهما اليوم مجهولان جداً ، بحيث لا يمكن لأحد ما أن يعرفهما منهما ، ولأنهم قالوا يجوز التصريح في مقام التعليم ، على أن القرآن الكريم لم ينبه علينا بعدم ذكر اسمها اختصاراً حسب عادته ، فلذلك نحن في حل من التصريح باسمهما على هذا المنبر

الثأر هو الدافع للتهمة

الملحوظة الحادية عشرة — هي قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن أو عذاب أليم » ، ونراها بحسب الظاهر جواب العاطفة من القلب الى السجن ، أو الى العذاب الأليم ، أصحيح إنه يوجد حب يؤدي لمثل ذلك؟ والجواب نعم إن الحب إذا لم يكن طاهراً يؤدي لمثل ذلك ، ولأعظم من ذلك كالقتل ونحوه ، وثانياً يحيل إلينا أن المسألة مسألة كبرياء وأنفة ، وتحويل جريمة من شخص لشخص آخر ، وان الدافع لهذه التهمة إنما هو الثأر لعدم امتثال الأمر (مرحى)

المحاكم

آ (٢٦) ﴿ـ قالَ · « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » ، وَشَهِدَ ساهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ ، وَهوَ مِنَ الكاذِبينَ ﴾

آ (٢٧) ﴿ وإِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فكَذَبَتْ ، وَهُوَ مِنَ الصّادِقينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون فقام الشيخ عبد الغني الانطاكي وقال [1]

لما أغرت راعيل يوسف وعرضته للسجن والعذاب ، وجب عليه الدفع عن نفسه ، فقال بل (هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها (وشهد شاهد) أي وقال قائل من (أهلها) قيل كان ابن عم لها ، قال بلسان الحاكم العدل (إن كان قميصه قدّ من قبل) أي شق من أمام (ف) قد (صدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد هجم عليها فدفعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أقاربها ، لتكون أوجب للحجة عليها واوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه (وإن كان قميصه قد) شق (من دبر) اي من خلف (ف) قد

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية)

(كذبت) في رميها له (وهو من الصادقين) في أنها هي التي راودته ، لأن شق قميصه من خلفه يدل على أنه كان هارباً ، وهي لاحقة له

قيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأنطقه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق ، وسمي قوله شهادة ، وما هو بلفظ الشهادة ، لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ، وانه ليصدق على هذا « الشاهد » المثل السائر « رب أخ لك لم تلده أمك » .

(قال هي راودتني عن نفسي

— ١ —

وقالت الآنسة رحمة الناصرية (١) .

دفاع يوسف

تعلمون أيها السادة أن يوسف كان أولاً سمع من زليخا مراودتها إياه ، ثم رأى همها نصر به إن لم يؤاتهــا ، ثم تلحوقها إياه حينما هرب منهـا ، ثم الآن رآها تُسمّع (٢) به زوراً وبهتاناً وتتهمه وتلصق به العيب ، فشعر بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تماسك وتمالك ، ولم يكن يجرؤه عن المبادرة لاظهار الحقيقة إلا ما لبس العزيز عليه من الاحسان وإكرام المثوى ، فاقتصر عن الدفاع عن نفسه بأخصر عبارة وأوجز كلمة ، قائلاً « هي راودتــــي عن نفسي » مؤملاً أن الواقع ستتكلم عنه طويلاً ، وان ميزان العدل سيكون له القول الفصل بالبحث عن القرائن والاستشهاد بالامارات

(١) نسبه الى الناصره من بلدان فلسطين
(٢) سمع بالرجل اذاع عنه عيباً وندد به وأشهره وفضحه واسمع الناس اياه

قال كلمته الموجزة هذه معصلاً فيها نوع الاكتفاء ولم نطلق للسانه العنان في الدفاع عن نفسه بأن يقول مثلاً « هي راودتني عن نفسي ، وأرادتني على السوء ، فلم أنزل على إرادتها ، وهي غلقت الأبواب، لتحصرني وتكرهني على الأمر الشنيع، وهي همت بالايقاع بي ، حلماً وحملاً على مرغوبها ، وهي لحقتني إذ هربت منها ، وبالنتيجة هي شقت ثوبي من خلف ، عندما أرادت ان تمسكني » نعم ، لم نطلق للسانه العنان ببيان ذلك كله ، بل تجاهل عن أكثر ما حصل منها،واختصر الكلام في المحاماة عن نفسه اختصاراً ، لأن خير الكلام ما قل ودل

قال يوسف كلمه وأمارات العفة والطهارة ظاهرة على وجهه ، ودلائل الصدق لائحة على محياه ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، يقرأ الناظر في إشراق وجهه وملامحه آية النزاهة والشرف فكانت دعواه كما قال القائل

سَموحٌ لهــا منها عليها شواهدُ

وأما « العزيز » فكأني به كان مصغياً لجوابه ، وعيناه شاخصتان فيه ، يتفرس في حركاته وسكناته ، ليستطلع مقدار ما في كلامه ، فرأى الصدق ظاهراً على كل حرف من حروف جملته المختصرة

وأما « امرأة العزيز » فتخيل انها لما فرغت من كلامها التفتت لجهة يوسف وسمعت ما عسى أن يبدو منه ، وكانت تتوقع استياءه وكدره ، ليدفع بذيء الكلام ، فيشفي ما في نفسها ، ولكن يوسف لم يرد على كلمة « هي راودتني عن نفسي »،معرضاً عن اهانتها له بتلك الافتراءات والأبعادات،فزاد استياؤها وبلبالها، لأن من يتعمد إهانتك إذا لم ير قولته قد أغضبك يرى أن تلك الاهانة رجعت اليه ، وشين ذلك عليه　　(مرحى مرحى)

(وشهد شاهد من أهلها إن كان ..)

— ١ —

قالت الآنسة سميحة الدومانية (١)

الشاهد والتحقيقات

كان رجل من أهلها حاضراً ومشاهداً الحادث وكأني به قد افتتح جلسة المحاكمة في هذه « المحكمة المختلطة » بقوله ﴿ اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم ﴾ (٦ ١٩)، ﴿ وإذا قلتم فاعْدِلوا ولو كان ذا قُربى ﴾ (٦ ١٥٢) ، ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكم فاسقٌ بنَبَإٍ فتَبَيَّنُوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ ، فتُصبِحُوا على ما فعَلتم نادمين ﴾ (٤٩ ٦) ، ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، كونوا قوّامينَ لله ، شُهداءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ على أن لا تَعْدِلُوا ،اعْدِلوا هو أقربُ للتقوى،واتقوا اللهَ ، إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾ (٥ ٩) ، ثم قال مخاطباً يوسف وزليخا كلاكما يدعي وليس بيده سلطان ، وكلاً منكما يريد هدم ما عند خصمه من العفاف والطهر ، فهذه بهجومها تريدهدم عفاف هذا العبد وطهره ، بدون إثبات ولا برهان، وهو بدفاعه يقصد هدم عفاف هذه السيدة وشرفها ، بغير مستند ولا حجة وما هكذا يدلى بالتهم ، ولا سيما في باب الأعراض ، ولذلك وحيث لا يوجد مع كل شهود تثبت له صحة دعواه ، فما علينا إلا أن نلتجيء إلى الأمارات ، ونحكّم العلامات ، ونستطلع حقيقة الأمر من الدلائل المحسوسة،وأطلقوا لساني الحرية لأقول كلمة ـ فقال له صهره «العزيز» « اقضِ ما أنت قاضٍ » ـ فقال أيها العزيز « أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ تعالى كلمةُ حقٍ

(١) نسبة الى بلدة دوما من ضواحي دمشق الشام (سورية)

تقال لإمامٍ حائرٍ »[1] حاشاك ، أيها العزيز ، أنا أكميك أمر هذا المشكل ، وأكشف لك عنه النقاب

وعندما وصل إلى هنا اشرأبت أعناق كل من الحاضرين ، من عزيز وامرأته ويوسف ، وأصاخوا لما سيقوله هذا الرجل « الشاهد » وتولاهم جميعاً سكوت عميق

ثم قال « ايها العزيز ، أنت تعلم ان الدعاوى لا نصرها إلا الدليل ، وعليه فالدليل الممكن هنا الذي يصلح لكشف وجه هذه المعركة ، والبرهان الذي ينبغي التعويل عليه ، ولا ينبغي التعويل على غيره

والذي يقيمه مقام الشهود ، هو ان نتأمل في هذا القميص الملفوف المحمول بيدها ، الذي تقولان عنه إنه قُدّ — هل هو مقدود من أمام ، أم من خلف ؟ فان رأساه مقدوداً من قُبُل ، فهي صادقة في دعواها ، وانه كان تابعها وهاجماً عليها ، وانما هي دافعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه بالدفع ، وان رأساه مقدوداً من دُبُر ، فهي كاذبة ، بل تكون هي التي تبعته واجتذبت ثوبه اليها فقدّته »

هذا مرمى كلام ذلك « الشاهد » وكان هذا الشاهد رجلاً شيخاً عاقلاً فهماً ، مثالاً للعدالة والانصاف

فبعد ذلك صارت الهواجس تتقاذف المتداعيين وأخذت الخواطر تتضارب في نظر هذين المتداعيين ، بين يأس وأمل ، وخوف ورجاء

ولا بد انه قبلما سرد الشاهد حكمه ، كان الأمل والرجاء يغلبان على امرأة

(١) رواه احمد في مسنده من حديث ابي امامه

العزيز ، لكون « الشاهد » من أهلها ، وان حال يوسف كان بالعكس ، لأن عائلته ابه خادم وغريب ، ولكن بعدما أصدر « الشاهد » حكمه ، انعكست الآية ، وصار يوسف في عاية الأمن والرجاء ، ولا تسل عما خامر فؤاده من الامتنان لذلك « الشاهد » وحكمه عموماً ، خدمة للعقل والوجدان الطاهر ، وهو وان لم يشكره بلسانه ، اكتفى بتشكره بقلبه ، ومن القلب إلى القلب دليل ، أمّا امرأة العزيز فلا تسأل إلا انه قد وقع حكم « الشاهد » عليها وقوع الصاعقة على الخشبة اليابسة »

وقف هذا « الشاهد » وقد تمثلت في كلامه روح العدالة ، ولم يكن ليريد الدفاع عن واحد من هذين الخصمين بعينه ، وإنما يريد الانتصار للحق والحقيقة ، ولكنه ما كأنه إلا وقف وقفة مدافع عن يوسف ، كمحام قدير وقف للذب عن موكله ، فالله تعالى هو الذى سخر هذا « الشاهد » للانتصار للواقع وخدمة يوسف من حيث لا يشعر هو ولا يوسف

مثل هذا الرجل صاحب العبقرية البارزة الذي لا يخشى فى الحق لومة لائم ـ تتجلى العدالة فى أجلى مظاهرها ، ونعلم أنه كان يوجد فى مصر في ذلك التاريخ المظلم أفراد أفذاذ هم ذوو إنصاف وضمير حيّ

رجل وقف كحاكم وهو من ذوي قربى امرأة العزيز ، وبالتالي هو صهر لنفس العزيز ، وقف على منصة الحكم ، وتلا ذلك الحكم العادل ، الذي لم يراع فيه قرابته لتلك السيدة الأميرة ، ولم يخاف منه صهره الوجيه ، ولم يعذر فيه بذلك العبد العبراني الغريب ، ولكن نطق بالصدق ، ولم يشتطط عن جادة الصواب ، فعلينا نحن ان وسّد الينا أمر الحكم مهما كان نوعه ان لا نراعي الوجوه ولا نحابي ولا نعذر بالضعيف ، لكي نسطر لنا التاريخ صفحة بيضاء كعداد الفجر ، كما سطر لهذا الرجل المنصف

وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر ، به يمكن الكشف عما كان يخالج نفسَيْ يوسف « الصديق » وراعيها « المفترية » ، وهما واقفـــان بين يدي « العزيز » و « الشاهد » وما يحيط بالجميع من الجواري والقهرمانات والخدم ، لا شك انهما كانا فريسة الهواجس والمخاوف وكيف انهما لا يكونان كذلك و « امرأة العزيز » تعرف نفسها ، والخائن خائف ، ويوسف يعرف ان الانصاف في الدنيا قليل ، وانه غريب وحيد مملوك ، وان خصماءه هم حكامه ؟

ولكن كان هذا بالنسبة ليوسف في الابتداء ، وأما أخيراً فقد تجلت له أمانة هذا « الشاهد » وظهرت له عدالته وانصافه ، فصار من الأمر مكان هذا ما يسره الله لي من القول في هذا الموضوع،والله تعالى بالحقيقة اعلم

(وشهد شاهد من أهلها)

—٢—

وقالت السيدة مليحة اليافية —

لي على هذه الآية عدة فوائد

شهد شاهد بمعنى أحبر حاضر أو حكم حاكم

الفريدة الأولى — « شهد » بمعنى أخبر ، كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنا ﴾ (آ ٨١) ، و « شاهد » حاضر ، كما في ﴿ لِيَشْهَدُوا منافِعَ لهم ﴾ (٢٢ ٢٨) ، ﴿ وَلْيَشْهَدْ عذابَهُما ﴾ (٢٤ ٢) ، ﴿ وما شَهِدْنا مَهْلِكَ أهلِهِ ﴾ (٢٧ ٤٩) ، ويقولون « صَلّينا صلاةَ الشاهـــد » وهي صلاة المغرب ، لأنها لا تقصر ، بل يصليهـا الغائب كما يصليها الشاهد ، أي الحاضر (أساس)

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار ، فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف ، والانتصار لهذا العبد المظلوم

فكل من أخبر بشيء فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بلفظ « أشهد » فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد ، بل متى قال الشاهد رأيت كيت وكيت ، أو سمعت أو نحو ذلك ، كانت منه شهادة ، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لغة ولا شرعاً على قول « أشهد » قال تعالى ﴿ قُل هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الذينَ يَشهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هـذا ، فإن شَهِدُوا فلا تَشهَدْ مَعَهُم ﴾ (٦ ١٥٠) ، ويشهدون يخبرون ، فلاتشهد معهم فلا تخبر كاخبارهم ، أي لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لانه إذا سلّم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وقال تعالى ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشهَدُ بما أنزَلَ إليكَ ﴾ (٤ ١٦٥) ، ومعنى شهادة الله بما أنزل اليه ، إخباره باثبات صحته ، ولكن هذا الاخبار ليس كلامياً ، بل فعلياً باظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة ، وقال تعالى ﴿ ولا يَملِكُ الذينَ يَدعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفاعة ، إلا مَن شَهِدَ بالحقِ ﴾ (٤٣ ٨٦) أي أخبر بالحق وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يخبر به عن بصيرة

ويجوز أن يكون معنى « وشهد شاهد » وحكم حاكم ، والنكتة في العدول عن جملة « حكم حاكم » الى جملة « شهد شاهد » الاشارة الى أن هذه الأمارة هي قائمة مقام « الشاهد » فكأنها شهادة ، لأن معنى قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » ان عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فاذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له [1]

(١) الطرق الحكمية لابن القيم

موجبات الحكم

لم يوجب الله على الحكام أن لا يحكموا إلا بشاهدين ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، فقد حكم النبي ﷺ بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، ويجوز للحاكم أن يحكم بالنكول ، وباليمين المردودة ، وبالقرعة ، وبالقافة ، وبالقسامة ، ويجوز له أن يحكم بشاهد الحال ، إن تداعى الزوجان والصانعان متاع البيت والدكان ، ويجوز له أن يحكم بوجوه الآجر في الحائط ، فيجعله للمدعي إذا كانت الى جهته (١)

من هو الحاكم

فلو سأل سائل وقال هل كان هذا الرجل قاضياً حتى يحكم ؟ قلنا كل من حكم من ولاة الأمور ، أو من أهل الفهم والعلم فهو حاكم ، سواء سُمّوا قضاة ، أو ولاة الأحداث ، أو ولاة المظالم ، أو حكام صلح ، أو حاكماً منفرداً ، أو كانوا من أهل الفصل ، أو كانوا محكّمين ، أو حكاماً إداريين ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية ، والألقاب الاصطلاحية ، فإن كل واحد من هؤلاء يعتبر حاكماً ، ولو لم يسم عند الناس بهذا الاسم ، ويعتبر قاضياً ولو لم يستحق هذا اللقب في اصطلاح القوم ، ولكنه يستحقه بحسب اللغة ، لأن الحكم والقضاء ، والحاكم والقاضي واحد ، وأن الفلاحين أهل الأرياف ، والبدو أهل الخيام ، يسمون اليوم كل من حكم لهم من رؤسائهم « قاضياً » فالحكم ليس مختصاً بناس دون ناس

(١) الطرق الحكمية لابن القيم

ولا يتوقف على نصب من طرف الحكومة ، قال تعالى ﴿ لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنَات ، وأنزلنا مَعَهُمُ الكتابَ والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ (٥٧ ٢٥)، وقال جل جلاله ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تؤَدُّوا الأماناتِ الى أهْلِها ، وإذا حكمْتُم بين الناسِ أنْ تحكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ (٤ ٥٧) ، وقال جل من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد ، وأنتم حُرُمٌ ، ومَنْ قتَلَهُ منكم مُتَعَمِّداً ، فجزاءٌ مِثْلُ ما قتَلَ مِنَ النَّعمِ ، يحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكم ﴾ (٥ ٩٨).

مرادفات الشاهد

الفريدة الثانية ـــ الشاهد والضمين والعريف والنقيب واحد ، كما في القاموس في مادة « نقب » ، فلعل ذلك « الشاهد » كان من أهل العلوّ والرئاسة ، حتى أنه ليمكننا أن نفسر كلمة «شاهد» برئيس

في كون الشاهد كان طفلا

الفريدة الثالثة ـــ قيل كان هـذا الشاهد « طفلاً » وعندنا أن هذا القول بعيد جداً لوجوه

أولاً ـــ لو كان الحال كذلك لم يحسن التعبير بعبارة « شهد شاهد » التي تفيد أن ما قاله هو من قبيل الشهادة أي من قبيل الاخبار عن مشاهدة ، ولو كان «طفلاً» لحسن أن يقال « ونطق طفل في مهده »

ثانياً ـــ لو كان ذلك صحيحاً ، لم يحتج لتقوية هذه الشهادة بكونه من أهلها، لأن هذا « الطفل » لو كان من هنود أميركا أو من هندوس الهند لقبلت شهادته، قال الجبائي لو كان « طفلاً » لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه الى البيان

ثالثاً — لو كان ما روى صحيحاً لم يحتج الى التطويل ، والالتجاء الى تقرير هذه العلامة ذات الوجهين ، بل كان يكفي من هذا « الطفل » الرضيع أن يقول « يوسف صادق» أو « امرأة العزيز كاذبة » ، ثم يرجع لطبيعته ويسكت ، ويكون حينئذ قد ظهرت براءة يوسف ليس بعلامة فقط ، بل بأوضح دليل في العالم ، لأن نطق الطفل الرضيع في مهده ، يعد معجزه ، أو إرهاصاً خارقاً للعادة ، وهادماً لناموس الطبيعة

تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم

الفريدة الرابعة — نحن لا يسعنا إلا أن نقدم لهذا « الشاهد » كل شكر وثناء ، يليقان بعدالته وإنصافه ، حيث تكلم عما أوحته عليه ضميره ، ولم يراع قرابته لزليخا ، ولم يدلّس ، لأنه صهر للعزيز ، بل نطق عما أوحاه اليه الإنصاف قال تعالى ﴿ ولا تكنْ للخائنينَ خصيماً ﴾ (٤ ١٠٤) ، فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاصم البراء لأجل الخائنين ، وقال تعالى ﴿ ولا تجادِل عَن الذينَ يختانون أنفُسَهُم ، إنّ اللهَ لا يُحب مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً ﴾ (٤ ١٠٦) ، فلا يجوز للمحامي ولا للحاكم أن يدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية كما في حادثة زليخا ، فبهذا القول يحرم المحاماة عن المجرمين، والدفاع عن الخائنين

لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء

الفريدة الخامسة — لو سأل سائل « إن الرجل الذي يشهد ولم يُستشهد ، ويحلف ولم يُستحلف مذموم ، كما ورد في الحديث في سنن ابن ماجة وغيرها ، ومع ذلك فالشاهد الواحد لا يكفي ، بل لا بد من اثنين » والجواب هو أن شهادة هذا « الشاهد » ليس من قبيل الشهادة الواردة في الحديث والمصطلح

عليها عند الفقهاء ، ولكن معنى « شهد شاهد » قال حاضر ، وشهد مضمّن معنى قال ، ولذلك جاءت حكاية الجملة الشرطية بعد فعل الشهادة و « شاهد » بمعنى حاضر كما قال الشاعر

ما علموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنتُ أو غائباً

أو « شهد شاهد » بمعنى حكم حاكم ، أو أخبر مخبر ، كما تقدم آنفاً

تغلب الحق على القوة

الفريدة السادسة — كان هذا الرجل « الشاهد » من أهل امرأة العزيز ، ودمه من دمها ، ولكن الأخلاق والطباع متباعدة

أبوك أبي والأصل لا شك واحد ولكنما صنوان ورد وخروع

ولكونه من أهلها ، وبالتالي لكونه صهراً « لفوطيفار » كان له دالّة عليه ، فأطلق لسانه بين يديه ، وتكلم بحرية تامة ، ونطق بحكمه العادل وبفصل هذا الحكم غلبت يوسف على امرأة العزيز من قبيل تغلب الحق على القوة

مشابه الشاهد لبعض الحكام والحكماء

الفريده السابعة — ما أشبه هذا « الشاهد » في فراسته بالنبي سليمان (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) والقاضي أياس بن معاوية ، والقاضي شريح ، والقاضي أبي حازم ، وغيرهم من حكام العرب وحكمائهم ، فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختصوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال ، وهذا الذي فات كثيراً من الحكام الجامدين ، فأضاعوا كثيراً من الحقوق ، وأحيوا كثيراً من الباطل

جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات

الفريدة الثامنة — أخذوا مما فعله هـذا الرجل « الشاهد » أن للحاكم أو الوالي أن يحكم بالقرائن التي يظهر له فيها الحق ، وأن يستدل بالأمارات ، ولا يقف عند خصوص البينات والاقرارات

اختصم رجلان الى « أياس » قاضي البصرة ، في قطيفتين حمراء وخضراء ، فقال أحدهما « دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم جاء هـذا ووضع قطيفته تحت قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي فتبعته ، فزعم أنها قطيفته » — فقال أياس ألك بينة ؟ — قال لا — قال ائتوني بمشط فأتي به ، فسرح رأس هذا ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف احمر ومن راس الآخر صوف أخضر فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر.

ولا ننس في هذا الموضع حكاية نبي الله سليمان (ع) مع المرأتين اللتين ادعتا الولد ، فحكم به داود (ع) للكبرى ، فقـال سليمان « ائتوني بالسكين أشقه بينهما » فسمحت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى « لا تفعل رحمك الله ، هـو ابنها » فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك — على انها امه ، وان الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعها الله في قلب الأم ، فاتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارهـا ، فانه حكم به لها مع قولها هو ابنها

وهنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك « الشاهد » من اهـل امرأة العزيز توصل بقد القميص الى تمييز الصادق منها من الكاذب ، وهذا « لوث » في دعوى « العرض » وقد حكم به

وقد يكون « اللوث » في دعوى « المال » فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال ، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين ، في الوصية في السفر ، في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، شَهَادةُ بَيْنِكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ الوصيةِ اثنانِ ذوا عدلٍ منكم ، أو آخرانِ مِن غيركم ، إن أنتم ضَرَبْتُم في الأرضِ ، فأصابتكُم مُصيبةُ الموتِ ، تَحْبِسونَهُما مِنْ بعدِ الصلاةِ ، فَيُقْسِمانِ باللهِ إن ارتَبْتُم لا نشتَري به ثمناً ، ولو كان ذا قُربى ، ولا نَكْتُمُ شهادةَ اللهِ ، إنّا إذاً لَمِنَ الآثمين ﴾ (٥ ١٠٩)

وقد يكون « اللوث » في « الدماء » ، فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة ، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يميناً ويستحقوا دم القتيل

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ر ض) والصحابة معه برجم المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد رائحة الخمر من فم الرجل ، أو قيئه خمراً اعتمادا على القرينة ، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون « بالقطع » إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار

وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشحّط في دمه ، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله ؟ ولا سيما إذا عرف بعداوته ، وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس وليس ذلك عادته ، وآخر هارباً قدامه ، بيده عمامة ، وعلى رأسه عمامة ، حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً ، وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة ، بالقرينة الظاهرة ، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف

وهل القضاء « بالنكول » إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة ، التي علمنا بها

ظاهراً انه لولا صدق المدعي لرفع المدعى عليه دعواه باليمين ؟ فلما نكل عنها ، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي ، فتقدمت على اصل براءة الذمة (١)

وبالجملة فان ما قاله وما حكم به ذلك « الشاهد » هو من قبيل الاعتماد على « الأمارة » وانها تقوم مقام البينة ، وله نظائر كثيرة ، فمن ذلك ان النبي (ﷺ) أمر الملتقط أن يدفع اللقطة الى واصفها ، وأمره أن يعرف عفاصها ووعاءها ووكاءها كذلك ، فجعل وصفه لها قائماً مقام «البينة» ، وقد سئل الإمام احمد عن المستأجر ومالك الدار ، تنازعا « دفيناً » في الدار ، فكل واحد منهما يدعي انه له ، فقال . « من وصفه منهما فهو له »

وكذلك اللقيط إذا تداعاه اثنان ووصفه أحدهما بعلامة خفية في جسده حكم له به عند الجمهور ، ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل ، فقال النبي (ﷺ) « هل مسحتما سيفيكما ؟ — قالا لا — قال فأرياني سيفيكما ، فلما نظر فيها ، قال لأحدهما هذا قتله ، وقضى له بسلبه »

وعلى الاجمال « فالبينة » اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ، ومن خصّها بالشاهدين ، لم يوفّ مسماها حقه ، ولم تأت « البينة » قط في القرآن الكريم مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحجة والدليل والبرهان ، وكذلك قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » المراد به أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له، والشاهدان من البينة ، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منها كدلالة « الحال » على صدق المدعي ، فانها اقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمارة والسلطان والمستند

(١) ملخصاً من الطرق الحكمية لابن القيم

والقرينة – ألفاظ متقاربة المعنى ، فالشارع لم يلغ القرائن والأمارات ودلائل الأحوال ، بل من استقرى الشرع ، في مصادره وموارده ،وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام ، وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه ، فقال تعالى ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسِّمين ﴾ (١٥ · ٧٥) ، وهم المتفرسون الآخذون بالسيماء ، وهي العلامة ، يقال تفرست فيك كيت وكيت وتوسمته ، وقال تعالى · ﴿ولو نَشاءُ لأَرَيْناكَهُم فلَعَرَفْتَهُم بسيماهُم ﴾ (٤٧ · ٣٠) ، وقال تعالى . ﴿ يَحْسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تعْرِفُهُم بِسيماهُم ﴾ (٢ ٢٧٣) ، وفي جامع الترمذي مرفوعاً (اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمِنِ ، فإنَّهُ ينظرُ بنُورِ اللهِ) ثم قرأ ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِلْمُتَوسِّمينَ ﴾ [١]

وقد ذكر الفقهاء ان الدعوى إن كانت من قبيل تهمة ، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم ، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال ، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك وإلاَّ فالقول قول المدعى عليه بيمينه ، لما روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ﷺ) (لو يُعطَى الناسُ بدعواهم ، لادعى ناسٌ دِماءَ رجالٍ وأموالَهم ، ولكن اليمين على المُدعَى عليه) [٢]

ولهذا وحيث ان يوسف رفض الدعوى عليه رفضاً مجرداً عن اليمين ، وان المرأة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها ، احتيج الى الاستناد الى أمارة تؤيد واحداً من المدعي والمدعى عليه ، فقيل إن كان وإن كان

(١) الطرق الحكمية لابن القيم
(٢) الطرق الحكمية لابن القيم

وهذا من قبيل نصب العلامة على الحق المشروع ، وقد نصب الله سبحانه على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه ، قال تعالى ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦ ١٥ و ١٦) ، ونصب على القبلة علامات وأدلة ، ونصب على الإيمان والنفاق علامات وأدلة ، قال النبي (ﷺ) (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، فجعل اعتياد شهود المسجد من علامات الإيمان ، وجوز لنا أن نشهد بإيمان صاحبها ، مستندين الى تلك العلامة ، والشهادة إنما تكون على القطع ، فدل على أن الأمارة تفيد القطع ، وتسوغ الشهادة ، وقال (ﷺ) (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان)

وقد نصب تعالى الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته ، وكذلك هي دالة على عدله وأحكامه ، والآية مستلزمة لمدلولها ، لا تنفك عنه ، فحيث وجد الملزوم وجد لازمه ، فإذا وجدت آية الحق ثبت الحق ، ولم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته ، والحكم بغيره يكون حكما بالباطل ، وقد اعتبر النبي (ﷺ) وأصحابُهُ من بعده العلامات في الأحكام ، وجعلوها مبينة لها ، كما اعتبر العلامات في اللقطة ، وجعل صفة الواصف لها آية على صدقه وانها له ، وقال لجابر « خذ من وكيلي وسقاً ، فإن التمس منك آية ، فضع يدك على ترقوته » ، فنزل هذه العلامة منزلة البينة ، التي تشهد انه أذن له ان يدفع له ذلك ، كما نزّل الصفة للقطة منزلة البينة ، بل هذا نفسه بيّنة ، إذ البينة ما بين الحق ، من قول وفعل ووصف ، وجعل الصحابة رضي الله عنهم الحبَل علامة وآية على الزنا ، فحدّوا به المرأة ، وان لم تقر ولم يشهد عليها اربعة ، بل جعلوا الحبَل أصدق من الشهادة ، وجعلوا رائحة الخمر ، وقيئه لها آيةً وعلامة على شربها ، بمنزلة الإقرار والشاهدين ، وجعل النبي

(ﷺ) كثرة المال وقصر مدة إنفاقه آية وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنوائب ، في قصة « حيي بن أخطب » واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم ، بالسلب لأحد المتداعيين ، ونزل الأثر منزلة البينة، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل ، واعتبر العلامة في الدم الذى تراه المرأة ويشتبه عليها ، هل هو حيض أو استحاضة ، واعتبر العلامة فيه بوقته ولونه ، وحكم بكونه حيضاً بناءً على ذلك ، وهذا في الشريعة أكثر من أن يحصر وتستوفى شواهده ، فمن أهدر الأمارات والعلامات في الشرع بالكلية ، فقد عطّل كثيراً من الأحكام ، وضيّع كثيراً من الحقوق (١)

ولولا العلامة التي اتخذها « الشاهد » دليلًا على التمييز بين المحق والمبطل هنا لحكم على يوسف ، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكاً فيه .

مت قدم أمارة صدق يوسف على امارة صدق امرأة العزيز

الفريدة التاسعة — إن كان « الشاهد » بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له ، كما ذكره الزمخشرى احتمالاً، ونحن درجنا عليه في تفسيرنا — إن كان كذلك كان من حقه أن يصرح بما رآه ، فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقداد قميصه كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قده من قبل ، على علم منه بأنه لم يقدّ من قبل ، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أماره على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثمّ قدم أمارة صدقها

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم

على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها — والله أعلم — هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله ﴿ وإن يَكُ كاذِباً فعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُم بَعضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ (٤٠ ٢٨) ، فقدم احتمال الكذب على احتمال الصدق إزاحة للتهمة التي حتى أن يتطرق اليه في حق موسى (م) ووثوقاً بأن الاحتمال الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : « بعضُ الذي يَعِدُكُمْ » ، ولم يقل « كُلُّ ما يَعِدُكُمْ » ، تعريضاً بأنه متهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه

وبنحو هذا النحو تأخير يوسف (ع) لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم ، فقصد هذا « الشاهد » الأمارة الأخيرة فقط ، وأما الأمارات الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة وهي من قبيل الفرض والتقدير ، وكأنه قال إن كان قميصه قدّ من قبل فهي صادقة ، لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة ، فعلق صدقها على محال ، وهو ثبوت قدّه من قبل حالة عدمه .

هذا هو التقرير الصواب ، والحق اللباب وهنا قام السيد رئيس المؤتمر وقال حقاً ان هذه الفرائد هي فرائد درية وفريدة في بابها ، لأنها مفعمة بالابحاث الاجتماعية والدينية الدقيقة ، فبارك الله في الخطيبة

(وإن كان قميصه قدّ من دبر ... الخ)

— ١ —

وقالت السيدة صباح النابلسية

سأقتصر كلامي على هذه الآية بكلمات ثلاث

هل كان يوسف لابساً القميص المقدود حين التداعي

الكلمة الأولى — قوله في الآية السابقة « إن كان ... الخ » وقوله هنا « وإن كان ... الخ » ، هذا التشقيق والتشكيك يفيدنا أن يوسف لم يكن لابساً القميص إذ ذاك ، بل كان منزوعاً عنه ، كما قالته اختنا السيدة فريده الحمصية في محاضرتها ، على موضوع « قد القميص صحيفة ٥٤٨ » ،لأنه لو كان إذ ذاك لابساً القميص المقدود لكان القدّ ظاهراً ملموساً ، واقعاً تحت حس ونظر الجميع ، إذ كيف يعقل أن يخفى القد اين هو ، هل هو في جهة الأمام أو في جهة الخلف ،ويوسف لابسه وواقف قدام تلك الهيئة ، فلا ريب إذاً ان يوسف لم يكن لابساً القميص آنئذ ، بل كان ملفوفاً مستوراً ، بحيث لا يعلم قده في أي جهة كان ، أمن قبلٍ أو من دبرٍ ، والظاهر من كلام « الشاهد » ومن احتماليه اللذين حكاهما بقوله إن ... وإنْ ... ، أنّ القميص لم يكن ملبوساً حين التداعي ، هذا ما فهمته في هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ولا أظنه إلا الصواب الذي لا محيد عنه ، وعليه فالصحيح ان امرأة العزيز لما جذبت قميص يوسف انشق طولاً ، فسهل على يوسف ان ينزعه عن بدنه ويتملص منه ، فتركه لها في يدها ، ومضى في حال سبيله مستمراً في فراره ، حتى وصل الباب،وهذا الذي فهمناه من ان القميص كان منزوعاً وكان في يد امرأة العزيز هو المذكور صريحاً في (تك ٣٩ : ١٢ — ١٨)

احتقار الشاهد «لامرأة العزيز» رغم مقامها

الكلمة الثانية — قال ذلك «الشاهد» أمام تلك السيدة «امرأة العزيز» «فكذبت» ولم يحترم مقامها، لأن الرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم ثم ان ما ظنه في يوسف من الصدق قد أظهرت الحادثة تحققه، وسيأتي لرئيس السقاة أن يصفه بالصدق حيث يقول له «يوسف، أيها الصديق»، كما سوف سيأتي لنفس عدوته امرأة العزيز أن تصفه بالصدق، إذ تقول «وإنه لمن الصادقين» فهذا من قبيل توارد الخواطر الذي يفيد تحقيق موردة

قد القميص من قبل دليل الإقبال وقده من دبر دليل الإدبار

الكلمة الثالثة — لو كنت حاضرة محاكمة يوسف وزليخا او لو رفعت إلي دعوى تشبه دعواهما لكانت خلاصة حكمي الجملة المختصرة التالية «إن قدالقميص من دبر دليل على إدبار يوسف عن زليخا بظهره، وقد القميص من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه والسلام»، هذا ما احب أن يسجله التاريخ ويحفظه عني علماء الحقوق — ـح ـح —

وثيقة البراءة

آ(٢٨) ﴿ فلمّا رأى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، قالَ إنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظيمٌ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والعشرون فقام الشيخ عبدالجواد السلطي [١] وقال

فتش العزيز قميص يوسف الذي بقي في يد زوجته زليخا (فلما رأى) سيدها (قميصه) أي قميص يوسف الذي بيدها قد (قُدّ من دبر) علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ، ثم (قال) آسفاً بلسان العاجز الماقت كل هذا يجري تحت حاجبي وفي عقر داري ! (إنه) أي إنّ قولك « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الخ » ، أو إن هذا الأمر — وهو طمعها في يوسف ، أو إن هذا الالصاق والتحريم ، تعبير خبر (من كيدكن) يا بنات حواء (إن كيدكن عظيم) بالنسبة لكيد أبناء آدم ، لان النساء ألطف كيداً وأبعد حيلة ، ولهن في ذلك نيقة [٢] ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال

وفي هذه الآية الكريمة تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة ويعملوا بقضائهم ، كما فعل « العزيز » إذ نزل على حكم ذلك الحاكم «الشاهد »

(١) نسبة الى بلدة السلط من البلاد الاردنية

(٢) النيقة اسم من التنوق وهو الرفق والأناة

(فلما رأى قميصه . . الخ)

قال الحاج صالح الاسكندروني [١]

تبرئة يوسف وتحريم رليخا وتوبيخها

لما أتم « الشاهد » خطابه الذى به (قطعت جهيرة قولَ كل خطيب)استطابه « العزيز » ، ونزل على حكمه ، ثم طلب نشر القميص ليُفتش ، فلما رآه مقدوداً من دبر ، فهم الدسيسة ، فضرب يداً بيد ، وحوقل ونفث حظه ، وقرع سنه ، وأضمر بين جنبيه لوعة وأسى ، وكاد قلبــه يذوب بين أضالعه ، ذوب السبيكة في البوتقــة

نعم ، نعم ، انه دهش دهشة عظمى ، وعض على شفته السفلى ، وورد عليه ماطار بلبه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ثم التفت يمنة ويسرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يقول بصوت متخفض ، لئلا يسمعه أحـــــد من العبيد والخدم عقرَى حلقَى — إن آفة الحديث الكذب - إن طمعك في هذا العبد ،وقولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم — إن هذا العمل وهذا القول من كيدكن الذى تعدد به للناس ، وسوف يرند لسحوركن ، إنه من مصائدكن التي نصبها لمن تردن وقوعه فى الشَرَك ، إنــه من حتلكن نابات آدم الذي لا تعدوكن ، إنه من دهائكن الذي لا تجاوركن بإحبائـــــل الشيطان ، آه

(١) نسبة الى اسكندرونة من بلاد الشام (سورية)

إن من غره النسـاء بود بعد هـذا لجاهل مغرور

فالآن — وقد رأينا القميص — فقد دفع الحق الباطـل ، وظهر الصبح لذي عينين ، وزالت الرغوة وبدا الصريح ، عيباً لقد ظهرت الحقيقة ، ووثيقتها معها ، و (على نفسها جنت براقش) ، عيباً لقد تبين أن «السوء» الذي ألصقته بيوسف هو واقع منك ، ولا حيرة في الواقع ، وماله من دافع

« إن كيدكن » يا فصيلة (الجنس اللطيف) « عظيم » ، بخلاف فصيلة (الجنس القوي) فالغالب فيهم حقارة كيدهم

« إن كيدكن » الذي يبدو من جهتكن « عظيم » ، فقـد ظهر لي الآن أني ما كنت أعرفك إلا معرفة مُطَوَّسة [١] ، كنت لا أعرف منك إلا الدَّدَن ، ولكن اليوم عرفت منك الدماغ ، وماحوى من خبث وطيش

« إن كيد كن عظيم » ، فأنتن مُعَشِّش الشياطين ، ووكرُ الباطل ، ومرسى دعائم الفتنة ، ألاهم إلا قليلاً

« إن كيدكن عظيم » لاسيما فيما يتعلق بالناس والأزناء وأمر الاستمتاع بالشهوة والحب ، فهناك رحمة الله على الأمانة ، رحمة الله على العفاف والشرف

نعم انه « عظيم » من معاظم الشؤون المنكرة ، ومن عظائم الصفات المستقبحة وأي عظيمة أقبح من الختل ، وأي كبيرة أفحش من المِحَال [٢]

عجبت لك كيف تتهمين هذا العبد تهمة باطلة ؟! كبرت كلمة تخرج من فيك ، ان تقولين إلا كذباً

(١) مطوسة مصورة أو محسنة
(٢) المحال بكسر الميم الكيد والمكر

قال العزيز ذلك ، وعلى وجهه دلائل البغتة والاندهاش ، وفي ملامحه أمارات الخجل من هذه المرأة ، قال العزيز ذلك موجهاً الخطاب لزليخا ، وتفرس فيها سبر حالها ، فاذا لونها ممتقع ، وإذا الارتباك ظاهر على وجهها قال لها ذلك ، وهو نظر اليها بعين تتجلى فيها الحدّة

وأما هي ، فكانت واقفة وقوف الصنم ، وقد جمد الدم في عروقها ، واصطكت ركبتاها ، وانماث (١) قلبها ، كما ينماث الثلج في الحر ، وعقرت (٢) حتى كادت تقع الى الأرض ، بل كأنما خرت من السماء في مكان سحيق ، وأخيرا أطرقت برأسها إطراق من ترى ان بطن الأرض خير لها من ظهرها

وأما يوسف ، فلما سمع هذا القياس الذي أنتج هذه النتيجة ، أفرخ روعه ، وأمن جنانه ، وأحس كأنه قد ألقي عن ظهره حمل ثقيل ، وحمد الله تعالى ، وشكر في نفسه هذا الرجل ، وقال « رب أخ لك لم تلده أمك »

هذا ما اردت قوله على هذه الآية الكريمة ولا بد لي من إنهاء حديثي بترفيلات (٣) تسع

رب محنة في وسطها منحة

الترفيلة الاولى ـــ كان في مصيبة يوسف بقدّ قميصه فائدة له كبرى ، وهي براءته مما نسب اليه ، ورب محنة في وسطها منحة

من عرف الله أزال التهمه وقال كل فعله لحكمه

(١) انماث ذاب (٢) عقرت فجأها الروع فلم تقدر أن تتقدم أو تتأخر (٣) الترفيل التذييل

حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى

التوفيلة الثانية ـ لو كنت مكان يوسف لادخرت هذا القميص في « صوان[1] » وحده ، وأوصيت أن يكون أثراً من بعدي ، يحفظ في « دار الآثار » المصرية ، تذكاراً لهذه الحادثة التاريخية المؤلمة السارة ، ولأنه من الأزياء التاريخية

تبادل التهنئة والشكر

التوفيلة الثالثة ـ كأني « بالشاهد » بعد ما ظهرت براءة يوسف ، أخذ يهنئه ويمسحه ، وكأني بيوسف ، أخـــذ يجتّرِي « الشاهد » خيراً ، ويقدم له التحيات والتشكرات

مرادفات المكر

التوفيلة الرابعة ـ الكيد والمِحال والخداع والختل والغدر والتمحل والحِيَل والمكر والدهاء والخلابة ـ تفرساً واحد

الكيد والمكر من صفات الضعفاء واليهود

التوفيلة الخامسة ـ الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدابير الخفية والألغاز المجهولة ـ كل هذه هي من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة ، غير ان المرأة لمـــا كانت أضعف من الرجل ، رأت نفسها مضطرة الى الالتجاء لهذه الصفات أكثر من الرجل القوي الجبار القاهر، فلذلك اشتهرت النساء

(١) الصوان وعاء الثياب

بهده المعاني اكثر من الرحال ، ويوحد الختل والمكر في النساء عموماً ، وفي « اليهود » من الرحال وعيرهم ، وسببه الدل والمسكنة لان الرحال طلموا المرأة وأهانوها وأدلوها ، وكدا حال « اليهود » بين الناس ، من حين أن هاحروا من العراق إلى سورية وفلسطين ، فعاشوا عرباء بين تلك الأمم المتوشة ثم حين أن عاشوا بمصر بعد يوسف فأدلهم الفراعنة وسحروهم ودبحوا أبنائهم واستحيوا نسائهم ، ثم ـ بعد رحوعهم لسورية وفلسطين ـ من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فاليونان فالرومان ، فبعض قساة ملوك الاسلام .

كيد المرأة

الترفيلة السادسة ـ يريد بقوله « إنه من كيدكن » ، إنه من كيدكِ ، ولكنه عبر بصيغة الجماعة ليشير الى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء ، فحال النساء في الخدعة والمِحال كزليخا ، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لحال النساء

وبعبارة اخرى . هو لا يصف ما حال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط ، من ختل وخِب ، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ،ويخبر بالحال النفسية لكل أنثى ، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر ، فالكيد هو خلق لهن عريق فيهن

ولاتحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كلُّ غانيـــة هند

وبعبارة ثالثة لم يقع الكيد إلا من واحدة ، ولكن لما كان الكيد من نفسية « الجنس اللطيف » نسبه لذلك الجنس ، ونظيره قوله (ص) « إنكنّ لأنتنّ صواحب يوسف » ، يريد أن الإلحـــاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي ، قاله ﷺ لحفصة ، إذ كانت قالت عائشة (رض) (إن أبا بكر رجل أسيف ،

إذا قام مقامك ، لم يسمع الناس ، من البكاء ، مُر عمر فليصل بالناس) فلم يقبل ﷺ ، ثم قالت له ذلك حفصة ، فلم يقبل ، وإذ رآهن قد ألححن ، قال ذلك .

هذا وإن سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل هو انها لمـــا أضلت حريتها في ظلمات الأجيال الماضية ، وفقدت استقلالها وعزها، وادركها العجز عن تناول ما ترغب اليه بالطرق المسنونة ، بسبب ظلم الرجل لها ، اضطرت الى استعمال الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها ووليأمرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه ، ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها مرمى ، فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومتبحصة قادرة ، تظهر في المظاهر المتضادة ، والألوان المختلفة ، في كل حال بحسبها ، وذلك لا عن عقلوحكمة ، وإنما هي حيلالتغالب، وعذرها في ذلك انها ليست حرة مع ولي أمرها ، من أب أو زوج مثلاً

الكيد موجود في الرجال والنساء ، إلا انالنساء ألطف كيداً ، وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال ، ومنـه قوله تعالى ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ (١١٣ ٤) ، والقصريات من بينهن معين من الوثائق مالسن مع غيرهن

ولعل الحال في بلاد « التيبت»بالعكس ،لأن الأمروالنفوذ والإرادة والسيادة هي هناك — كما يقال — « للنساء » ، وأما الرجال عندهم خدمة مستعدون لهن في كل شيء بلا استثناء ، فالمرأة هناك أقوى جداً من الرجل ، فاذاً لا بدهة من ان رجالهم هم أصحاب الكيد والتقلب والرياء والختل

سئل الشاعر الانكليزي « ميلتون »، لماذا يسمحون « لولي العهـد » عندكم بأن يتولى الملك في الرابعة عشرة من عمره ، ولا يسمحون له بأن يتزوج قبل

الثامنة عشرة ؟ فقال « لأن سياسة البلاد على مافيها من رعايا كثيرين ، أسهل مراساً من سياسة الزوجة »

وقال بعضهم « إن النساء لو تدربن على السياسة ، لكنّ أعظم سائسي العالم ».

كتب أحـــد الأغنياء على بابه « يا باب ، لا يدخلك سوء » ، فلما قرأه « ديوجينس » قال « وامرأتك من أين تدخل ؟ »

إذا رأيـــت أموراً منهــــا الفؤاد يفتت
فتش عليهــا تجدهــا من النســـاء بأتت

قال نابليون « إن المرأة التى تهز المهد بيمينها ، تهز العالم بيسارها » ، وقال بعضهم « إني لا أخشى في الحياة سوى تلك التي ملكت قلبي ، إذ هي وحدهــا قادرة على أن تمحي السعادة والشقاء » ، وقال فولتير « إذا كانت المرأة هي التي أفقدتنا النعيم ، فهي وحدها تستطيع أن تعيده إلينا » ، وقال بلزاك « لقد درست طبائع النساء طويلاً ، وإني لأفاخر بأني لم أضع وقتي كله ، فقد عرفت الآن أني لا أعرفهن » ، وقال « سنت جوست » « لا يمكنك أن تتصور ما تتولد في قلب المرأة الضعيف من القوة والإقدام حال ما تحب » ، ومن الأمثال اليابانية «النساء يفهمن الرجال ، ولكن لا يفهم النساء إلا النساء » ويقولون أيضاً « الرجل يضحك بقلبه ، أما المرأة فتضحك بفمهـــا فقط » ، وقال الفيلسوف شوبنهور الألماني « يسألوني عن الأفعى اللينة الملمس ، وهي امامهم في كل وقت ، بل في كل لحظة ، وهي المرأة » ، وقال أيضاً « لتكن المرأة ملاكاً طاهراً . أو شيطاناً رجيماً ، فمالنا ولها ؟ أجارنا الله من شرها وأذاها » ، وقال سنت بوف « المرأة شيطان محسن »

فضل المرأة

الترفيلة السابعة — جرت المقادير ، وقضي الأمر على « المرأة » أن تكون أضعف من الرجل في الجسد والقوة والسيطرة ، فلذلك التجأت للتسلح « بالتدابير الخفية » والأفكار الباطنية ، لكي تقوى بذلك على الدفاع عن نفسها ، وتارة على الهجوم عند الاقتضاء غير أن هذا لا ينافي أن « المرأة » أحسن من «الرجل» في الفضل الأدبي ، والتهذب الفطري ، والعفة ، وعمل الخير ، وما إلى ذلك من أمثال وفضائل ، فهذه ما لا يقدر الرجل أن يجاري المرأة فيها ، وهي من هذه الوجهة أفضل من الرجل وأسمى منه ، في كل آن ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان

انظر إلى الرجل أولاً من جهة قوته الجسدية وشدته ، تجد أن قوته هذه أدت في جميع أدواره إلى ارتكابه الجرائم ، كبيرة وصغيرة ، من السرقات ، الى قطع الطرق على السابلة ، ونهب أموالها، إلى تأليف العصابات وإيقاد الثورات ، والانتقام من بعض إخوانه في الانسانية ، وربما في الدين والوطن ، هذا عدا ما في إثارة الحروب ، وتقتيل البشر — مزاحمة على حطام الدنيا — من نبذ لكل شريعة ومدنية

وكل ما جرى ويجري في هذه الدنيا من الفجائع والاستبداد والاستعباد واستعمار البلاد وإرهاق أهلها ، إنما يفعله الرجل ، نعم أن الرجل هو القائم بكل هذه البلايا ، ولم نعرف لا في عصرنا ، ولا في العصور الماضية أن النساء ألَّفْنَ من بينهن عصابات للسرقة والقتل والسلب ، ولا تَجَمَّعْنَ لجريمة ، أو أغَرْنَ عليها ،

ولا يقدح في هذا أنه وجد في التاريخ نساء دعون إلى مثل هذا ، وباشرنه بأنفسهن ، « كوقعة الجمل » ، وأعمال « جاندارك » و « عرالة » الخارجيـــة ، و « زنوبيا » ملكة تدمر ، و « الزباء » إلى غير ذلك من الشواذ ، فما كان الدافع إليهن إلا حب تأييد عقيدة ، رسخت في تلك النفوس ، لا حباً بسفك الدماء ، والتغلب على الأعداء ، ولا يدحض أيضاً ما هو معلوم عن مساعدة النساء لرجالهن في الحروب ، فهو إنما اضطرت اليه « المرأة » لتخفف من ويلات الحرب عن الرجال ، بدافع الكرامة القومية ، لا بقصد قتل الأعداء

ونعلم ان كثيراً من جرحى الحرب الذين يؤسرون ويدخلون مستشفيات أعدائهم — كانوا يلقون من عطف « المرأة » وحنانها مثل ما كان يلقى أهلها وقومها ، إذاً فما كان وجودهن في تلك الساحات قديماً وحديثاً إلا لتلطيف هـــذه المصائب . بحنانهن ورقة إحساسهن ، فهن محسنات بالطبيعة ، والروح الأدبية فهن أقوى وأسمى مما هي في الرجال

أراك تعلو صوتك ، وتندفع للرد عليّ قائلاً إن أكثر الحروب والعداوات الشخصية ، والجرائم المتعددة ، التي ذكرتها ، إذا دققت في أسبابها ، تجدها آتية من طريق « المرأة » ، وهو أمر مشهور وبرهانه ساطع ، لا تقبل الرد — إذا قلت هذا فإني أجيبك ان السبب ليس هو « المرأة » ، أي أن المرأة لم تدفع الرجال إلى هذه المجاري ، ولا حرّضتهم عليها ، ولكن الرجال بأنانيتهم ، وحبهـــم للاثرة ، ومزاحمة بعضهم لبعض ، وما في رؤوسهم من مطامع يندفعون إلى هذه الشرور ، تمهيداً لمآربهم ، فلا ذنب « للمرأة » في هذا

وهل شهدتَ او سمعتَ إلا نادراً ان امرأتين اقتتلتا ، أو قتلت إحداهما الثانية من أجل الوصول للرجل؟ — وهي أولى منه بذلك لما فيها من قوى ثائرة، وعواطف

متهيجة ـ أو أثارت حسها أو ناحيتها أو قومها من أجل الحصول على رجل ؟ هذا ما لا وجود له إلا في القليل النادر ، وخاصة فيمن كان في حياتهن العائلية شيء من الشرف

وهل تعتقد أن الزانيات في النســـــاء يبلغن عشر عشر الزانين من الرجال ؟ ـ كلا ـ ؛ وهل تعتقد ان شاربات الخمر من النساء يساوين جزأ من ألف من شاربي الخمر الرجال ؟ — كلا — ، وهل تعتقد ان المرابيات من النساء يساوين جزأ من ألف جزء من مرابي الرجال ؟ — كلا —

هذا ما عدا ما « للمرأة » من التأثير على الرجال بإبعادهم عن تلك المآزق الحرجة ، وما عدا ما لها من الفضل في نشر السلام ، فهي رسوله الصادق الأمين، وهذا ما يدعو كل منصف بصير أن يعترف « للمرأة » بهذه الحسنات الكبرى ، وبُعدِها عن الأعمال القاسية

ثم إذا استعرضت « الرجل والمرأة » في ملاعب الميسر نجد أن الرجل بأخذ من هذه البلية القسط الأوفر ، والبلاء الأعظم ، ولا نال « المرأة » منها إلا جزء صغير ، إذاً « فالمرأة » أبعد من الرجل عن المجاري الفتاكة بالهيئة الاجتماعيـة ، والمهلكة للأجساد والأرواح ، الدافعة للناس — بين يأسهم ورجائهم — إلى اقتراف السرقة والقتل

ولننظر إلى « الرجـل والمرأة » من حيث الدماثة واللطف ورقـة العواطف والشعور والحنان ، فهذه الأخلاق تفضل فيها « المرأةُ الرجلَ »

ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط . وفوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوّقها فيها ، فهي مخصصة للقيام بعبء عظيم، من أعباء هذه

الحياة ، إذا لم تقل أعظمها ، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال التربية الأولية .

نعم لا ننكر ان الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة كالعقل الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة ، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي والإنفاق في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك ، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك ، والثبات على المبدأ في مقابلة نقصها في أعمالها وأقوالها ، فهذه الأشياء وأمثالها فَضَّلَ الرجلُ المرأةَ

كيد النساء وكيد الشيطان

التزييلة الثامنة — قال بعض الناس إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنه ورد في النساء ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ (١٢ ٢٨) وورد في الشيطان . ﴿ إنّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾ (٤ ٧٥)

وفي كلام هذا البعض نظر ، لأن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفا بالنسبة اليه ، ألا ترى اول الآية ﴿ الذينَ آمنوا يُقَاتِلون في سبيلِ اللهِ ، والذين كَفَروا يقاتِلونَ في سبيل الطاغوتِ ، فقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ ، إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفا ﴾ (٤ ٧٥) فصدر الآية متضمن لكيد الله تعالى ، وعجزها متضمن لكيد الشيطان ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة لكيد الله تعالى ، وأما قوله « إن كيدكن عظيم » فهو بالنسبة لكيد الرجال ، أي ان كيد زليخا وأمثالها من النساء عظيم بالنسبة لكيد يوسف وأمثاله من الرجال

وأيضاً فان الكيد الذي تتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته،

وتسويله ، وشواهد الشرع قائمة على دلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده

قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

الترفيلة التاسعة — كأني بهذا « القميص » المقدود هو أشبه شيء « بالقميص » الذي وضع فيه « الحجر الأسود » حين ساء قريش الكعبة ، فهذا القميص المذكور هنا كان سبباً لوقع الخلاف بين يوسف وزليخا ، وذلك « الشاهد » بسبب حكمته كان الواسطة الكبرى لعمل طريقة أزال بها الخلاف ، كذلك كان « القميص » الذي أمر النبي ﷺ قريشاً أن يأتوا به ليضع ﷺ « الحجر الأسود » فيه ، كان هو الواسطة العظمى لإزالة الشقاق العظيم بين قبائل قريش وكان هذا بسبب حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا وإذ قد تم خطابي فإني أقدم أسمى احتراماتي لحضرات إخواني أعضاء المؤتمر المحترمين ، وأختم هذه الجلسة بإعراب عن تشكراتي وتقديم اسمى التحية لهم لحسن إصغائهم إليّ والسلام عليكم (مرجى)

نتيجة الحكم

(٢٩) « يُوسُفُ ، أَعْرِضْ عَنْ هذا ، واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والعشرون فقام الأستاذ العلامة البغدادي[1] وقال

قال العزيز بلسان الرجاء إلى يوسف يا (يوسف) لأجل خاطري (أعرض

(١) نسبة الى بغداد من القطر العراقي العربي

عن هذا) الأمر ، واكتمه ولا تحدث به ، (و) قال بلسان النصيحة لزوجته زليخا (استغفري) أنت (لذنبك) الذي ثبت عليك ، واسدلي الستار على هذه المأساة (إنك كنت من) جملة القوم (الخاطئين) المتعمدين للذنب

ولما سمعا هذا القول ، امتثل يوسف وعادت أمور إدارته في القصر لمجراها الطبيعي ، غير أنه كان فيما بطن بعيداً عن امرأة العزيز والخلوة بها ، وأما امرأة العزيز فجلست في كسر بيتها يحفها الخجل ويحوطها الذل والهوان

(يوسف أعرض عن هذا)

—١—

وتابع العلامة البغدادي قوله

طلب الإعراض من يوسف

جعل « العزيز » يتطلع حواليه ، ويلتفت يمنة ويسرة ، لئلا يسمعه احد من الخادمات والجواري ، وقال مخاطبا يوسف بصوت منخفض ، ونفس صغيرة

يوسف

لله أنت ، ولله أبوك ، لا فض فوك ، ولا عاش من يشنوك ، هنيئاً لبطن حواك ، وثدي سقاك وحجر آواك ، فقد نطقت بالحق ، وتكلمت بالصدق ،بورك فيك من عفيف شريف ، ومن شاب نشأ في طاعة ربه ، حقاً أنت ممن يستظلون بظل العرش يوم القيامة

يوسف

كن مطمئناً ، تهنأ بمروءتك وشرفك ، فقد ظهر لنا جلياً أنك أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية ،

يو.

كفاك افتخاراً انتصارك على العواطف البشرية ، وحسبك شرفاً ، انتصارك على هذه « المرأة » برحل من أهلها ، فلا تفتكر في هذا الشأن ، وافرض أن هذا الكائن لم يكن ، « أعرض عن هذا » الحادث ، وقدره كأنه ما كان ، ولا تخطره لك على بال ، اضرب عنه صفحاً ، وأعرض عنه إعراض الكرام ، واغض عنه إغضاء ذوي الستر والمروءة

وقد علمت وغيري علمَ تجربة أن الكياسة خبء السر في خيس (١)

فيا كم حديثك لا يشعر به أحد من رهط جبرئيل أو من رهط ابليس ، أعرض عنه ، ريثما يسكن هذه السيرة المنتنة ، وتتلاشى من نفسها ، بل أعرض عنه مطلقاً ، وانتزع رسمه من خيالك ، واجعله نسياً منسياً ، فلا تذكره لأحد ما ، حتى لا يفشو ويتشيع وينتشر بين الناس ، ولا تكترث بهذا الأمر ، ولا تهتم به ، فقد بان عذرك ، واتضحت براءتك

هذا معنى كلام « العزيز » ، وهذا هو معناه الروحي ، الذي يجب ان يكون قد أراده « عزيز مصر » في خطابه ليوسف

وأما يوسف فكأني به حينما سمع كلام « العزيز » قال له لبيك لبيك ، سمعت لك مأموراً مطاعاً ، لأن الذي يحب أن تشيع الفاحشة ملعون في الدنيا والآخرة

ثم ربض يوسف في مكانه في بيت العزيز على حاله ، وآثر الصمت ، واعتصم بالأناة ، واستمسك بتناسى كل ما وقع ، وهذا الحادث — والحمد لله — لم يقلل من شرف يوسف ، بل بالعكس زاده قيمة واعتباراً

(مرحى)

---

(١) الخيس بالكسر موضع الاسد

(واستغفري لذنبك)

— ١ —

وقالت السيدة رشيدة البيروتية

طلب الاستغفار من زليخا ووعظها

من انصاف « العزيز » أنه أعدى يوسف على زوجته ، وحكم له عليهـا ، نظر فيها نظرة كأنها وقع السهام ، نظر اليها نظرة ملؤها الكره والهوان وقال لهـا وأما أنتِ ، فلا إخالكِ إلا مفترية علىهذا البريء الطاهر ، وكأني بكِ قد سعيتِ الى حتفكِ بظلفكِ ، أقلعي عن كل ما تقدم ، وانفضيحالتك الأولى نفض الأرض للذم ، اقرأى سورة التوبة ، وعليكِ بسرعة الفيء والأوبة ، أسمعي السماء صوت توبتكِ ، قبل أن تسمعي منها صوتالعذاب الأليم ، الذي سيحيق بكِ إذا لم تؤوبي وتتوبي ، وتقرعي سن الندم ، على ما فرط منكِ في حق هـــذا العبد العبراني من الرغبة اليه ، ثم الفريةعليه ، فذنبكِ مردوج،ولذلك فأنتِ قد أصبحتِ محروطة في سلك الخـاطئين ، الذين إذا عـدوا فأنتِ ـــ واخجلتاه ـــ معدوده ، وإن حدوا كنتِ ـــ واأسفاه ـــ محدودة ، فليتكِ قبل هذا كنتِ موؤدة

« استغفري لذنبكِ » ، فليست العفة عفة الحذر والحياء ، ولكنها عفة النفس والضمير ، وأنتِ مسؤولة عن ذنوبكِ وآثامكِ أمام نفسكِ وضميركِ ، فضميركِ هو الذي يتولى بنفسه محاسبتكِ على جميع أعمالك ، وهـو المراقب على حركاتكِ وسكناتكِ ، لأنه أعظم سلطاناً وأقـوى يداً من جميع الوازعـين والمسيطرين ، فأصلحي ما بينكِ وبين من خلقكِ ، الذي يعـلم السر وأخفى ، أنا لا أريد أن أرهقكِ ، ولا أن أذنبكِ ، لأنكربما ترينَ أنكِ لستِ مسؤولة أمامرجلكِ ،

ولكنك مسؤولة فى الدنيا أمام ضميرك ، وفي العقبى تسألين أمام هيئة المحكمة العدلية الكبرى المؤلفة من الملائكة ، تحت رئاسة الديان العظيم

يسوءني أن أصرح باسمكِ ، وأناديك بلقبكِ الرسمي في هذا المقام ، مقام صدور الحكم عليك ، ولكني أكني عنك فقط ، فيا أمة الله ، يا هَنْتَاه ، بل يا عدوة نفسها ، يا قَرْن الفتنة ، قد هَبِلْتِ ، فاستغفري لذنبك ، وسبعين مرة استغفري لذنبك ، واشطبي جميع حسابات الحب الماضية ،

حليق بك أن تستغفري الله ، فقد أسأت وظلمت ، ﴿ ومَن يَعملْ سُوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثم يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفوراً رحيماً ﴾ (٤ ١٠٩)

ثم جعل « قوطيفار » ينظر الى يوسف ، نظر عناية واعجاب ، موصيه أن يتغاضى عن هذا الحادث الأليم ، راغباً اليه أن يجعله تحت طيّ الكتمان ، وجعل ينظر الى « زليخا » شذراً وتنفس نفساً وصل اليها حرّه ، وأمرها بالتوبة والاستغفار وطلب العفو من المولى الغفار عن « ذنبها » الذي هو مجموع المراودة باللسان ، وتعليق الأبواب باليد ، وهمها بالقلب أن تبطش به إذا لم يؤاتها ، فقد زنت بلسانها ويدها وقلبها ، لأن الزنا كما يكون بالفرج ، فكذا يكون بالجوارح ، وهو الزنا الأصغر ، وهو (طبعا) دون الأول ، وفي البخاري عن أبي هريرة « فزنى العين النظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنفس تَتمَنّى وتشتهي ، والفرج يُصَدّق ذلك كلّه و يكذبه »

ت « زليخا » خطاب سيدها لها ، فودّت لو تنفتح الأرض وتبتلعها ولا يراها أحد ، ولم تفه ببنت شفة في تبرير فعلها ، ورجعت لقصرها وهي كاسفة البال مسربلة بالخزي والعار قبعت في كسر بيتها ، تُصَعِّد الزفرة تلو الزفرة ، وترسل

العبرة فالعبرة ، وباتت محطمة من آثار معركة التحقيق ولكأني أراها حينئذ قالت بينها وبين نفسها تأمرني بالاستغفار !! أسأل الله العافية ، لقد أدخل يده في الجراب ، فأخرج أشدّ ما فيه وأصعبه ، وإلا . فمن ماذا استغفر ؟ أستغفر من حب يوسف ؟ أستغفر من حرصي على قربه ؟ ؟ أستغفر من تمتعي بمحاسنه ؟ أستغفر الله العظيم !!! ثم قالت متمثلة

ما ذا لقيتُ من الهوى وعدابه　　طلعَتْ عليّ بليــــةٌ من بابه

مرحى

(واستغفري لذنبك)

— ٢ —

وقالت الآنسة ثريا اللادقانية

سوف لا أتكلم في هذا المقام إلا عما تضمنته هذه الآية الكريمـــة من نكات دقيقة لا بدحة لي من التنبيه عليها

بعض فضليات النساء في التاريخ

النكته الأولى — لقد ذكر التاريخ كثيراً من السيدات الفضليات ، مثـــل السيده « مريم » بنت عمران ، من بنات إسرائيل ، ومثل « بلقيس » ملكه سبأ من بنات قحطان ، ومثل « زنوبيا » ملكه تدمر ، من صميم العرب ، ومثل « تماضر الخنساء » أفضل شاعره من شواعر العرب ، ومثل السيدة « خديجه » بنت خويلد ، زوج النبي ﷺ ، والسيده « عائشة » وأختهـا « اسماء » بنتي أبي بكر الصديق ، من بنات قريش ، ومثل « كليو بطره » ملكه مصر ، من بنات الرومان ، ومثـل « جاندارك » من بنات الفرنسيس ، وغيرهن وغيرهن وقد حفظ التاريخ

لهؤلاء وأشباههن ذكريات خالدة ، غير أن هذه « المرأة الفطية » زليخـــا ، مع الأسف ، لم يرو لنا التاريخ عنها إلا أسوأ الذكرى

لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة

النكتة الثانية — لا ريب أن « قوطيفار » كان اعتبر أن هـذه الحادثة نكبة من أعظم النكبات التي حلت به وبأسرته ، وبأسرة زوجتـه أيضاً ، ولكنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة ، حتى قيل عنه « إنه كان رجلاً قَسْلا [1] ، لا مروءة له ، وكان ضعيف الغيرة » ، وقيل عنـه « إن هذا الرجل ، جبـــان هيّابة ، رعْدِيد رعشيشة ، قـذع ، طبيع » [2] وقيل عنـه « إنه كان خوار العود ، رخو المكسر » ، وعندنا أن هذا الرجـل لم يقاص امرأته ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، ولم يطلقهـــا ، ولم ولم الخ لوجوه عديدة ، وكلهـا وجيهة إن شاء الله

بدا قوطيفار أوكتا وفوه نفخ

أ — لأنه هو الذي وضع هـذا « الحمام الوديع » يوسف ، بين مخالب هـذه « اللبوة الشرسة » زليخا ، هو الذي جمع بين هذا « الشاب » الفـــاتن وبين تلك الامرأة القوية الشعور ، هو الذي غرس بيده هذه الشجرة ، شجرة الحب في قلب امرأته ، وهو الذي « يداه أوكتا وفوه نفخ » ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم ﴾ (٤ ٧٠) ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمَنُوا ، قُوا

(١) القسل الضعيف المسترذل الذي لا مروءة له

(٢) الرعديد الجبان الكبير الارتعاد والرعشيشة الجبان الكبير الارتعاش والقذع الذي يغض ما يرى من زوجته والطبيع عديم الغيرة

أنفُسَكُم وأهْلِيكم ناراً ، وَقُودُها الناسُ والحِجَارةُ ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لا يَعصُون اللهَ ما أمَرَهُم ، ويَفعَلون ما يُؤمَرون ﴾ (٦٦ . ٦) .

فعندنا أن « العزيز » لم يعاقب امرأته بما يلزم من العقاب ، ولم يقاصها ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، لأنه افتكر ورأى أن الذنب كل الذنب عليه ، لأنه هو الذي جلب يوسف اليها ، وجعل لها عليه سلطاناً ودالّة ، إذ قال لها « أكرمي مثواه » وسوّغ له الدخول في أيّ وقت في بيتها الخاص بها ، كما يدل عليه قوله « في بيتها » ، فاذا كان هذا ، وكان يوسف من الجمال كما وصفه سفر التكوين والقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهل نستطيع أقدر « محام » في الأرض أن يدافع عن « العزيز » ؟ وهو السبب الوحيد في هذه الفتنة التي حدثت في قصره ، وهو الواسطة الكبرى في هذا الخطر الذى أحدق بامرأته ، وهل تستطيع ذو مُسكة أن تتصور خطراً على امرأة العزيز ، وعلى عفتها وطهرها أعظم من هذا الخطر ، الذي عرّضها له سيدها العزيز ؟ كلا

فاذاً الضرر كل الضرر إنما جاء من جانبه ، ولذلك ولكونه يوجد عنده شيء من الانصاف ، لم يقاص زوجته بما يجب من القصاص ، ولم يعاقبها بطلاق أو غيره

ثم العزيز انه أخطأ في التسبب في وجود يوسف عندها في القصر وفي بيتها ، وعرف أنه مخطىء ، وتبين له عاقبة خطئه ، ولم يتدارك الأمر ، بل بقي مصراً على خِطْئه ، إذ لم يبعدها عن يوسف ، أو يبعد يوسف عنها ، نعم لا شك أنه لما تفاقم الشر ، واتسع الخرق على الراقع ، بسبب حادثة النسوة ، وتقطيعهن أيديهن في قصره ، بدا له أن يعتقله وقد فعل ، ولكن بعد خراب البصرة

والخلاصة أن « العزيز » هو الذي هيأ الوقود لنار هذه الفتنة بيده ، إذ أتى بيوسف بين يدي زوجته ، وأطلق لها الحرية أن تجتمع به ، بلا رقيب ولا ملاحظ كما أطلق الحرية ليوسف في خدمة القصر ، والدخول والخلوة بلا مهمس ولا

مسيطر ، فيوسف قدّر الله أن يكون معصوماً بتوفيقه تعالى ، لكن تلك المرأة « زليخا » لم تقدر لها ذلك ، فوقعت في الشّرَك ، ولو أن « سيدها » أراد معاقبتها لكانت تقدر أن تقول له « بداك أوكتا ، وفوك نفخ »

فلذلك نحن نرى أنه لم يعاقبها ، مع أن عملهـــا جريمة ، لأنه باهماله وتفريطه شاركها في ارتكاب الجريمة ، فقد سهل لها الاجتماع والخلوة بفتاه ومملوكه الجميل فرّط في واجبـــات اعتزال زوجته عن الغير ، فحق عليـــه القول « المفرط أولى بالخسارة »

احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الاخلاق

٢ً ـــ ربما كان « عزيز مصر » من الأمراء الذين لم يترفعوا عن بعض أنواع الفحشاء ، فكان يحاسب نفسه بنفسه ، ويقرر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ويقول في نفسه ليس من العدل أن نغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، فلذلك لم يحاسبها على ما صدر منها بأكثر من العظة والنصيحة ، وقد روى الحاكم من حديث أبي هريرة « ولتردّك عن الناس ما تعلم من نفسك »

وحيث أن إيضاح المقام يحتاج إلى بسط فى الكلام نقول

إنه لأمر معلوم أن « عزيز مصر » كان تهاون فى صون امرأته وحجابها عن الخدَمة ، وساء عليه ، فيحتمل أن هذا الرجل كان عنده شيء من فساد الأخلاق والتطلع إلى الأجنبيات ، بمقدار ما كان عند زوجتـه من ذلك ، ولذلك لم ينَكّـل بها ، من قبيل « افتضحوا فأصلحوا » و « إن الطيور على أشكالهـا تقع » و « إن هذا الكعك من هذا العجين » و « الجنس للجنس يميل » ، قال تعالى ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ ، والخبيثون للخبيثاتِ ، والطيبـــاتُ للطيبين ، والطيبون للطيباتِ ﴾ (٢٤ ٢٦) ، وقال تعالى ﴿ الزاني لا يَنكِحُ إلاّ زانيـــةً أو مُشرِكةً ،

والزانيةُ لا يَنكِحُها إلا زانٍ أو مُشرِكٌ ﴾ (٢٤ ٣) ، ومعنى الآية الأولى أن الغالب أن الطيب لا يقترن إلا بالطيبة ، والطيبة لا تقترن إلا بالطيب ، ومعنى الآية الثانية أن الغالب في المائل إلى الزنا أنه لا يرغب في نكاح الصوالح ، والزانية لا يرغب فيها الصلحاء ، فالمشاكلة على الألفة ، والمجالسة من دواعي الانضمام ، والمراد « بالزاني » ولو بالنظر أو اللسان أو تمني القلب ، فإن تحول الأخلاق الاجتماعية في النساء ، ينشأ من تحول الأخلاق الاجتماعية في الرجال ، لأن الرجل مرآة المرأة ، كما ان المرأة مرآة الطفل ، ولذلك لما فسدت أخلاق أكثر شبابنا ، بدأ فساد أخلاق أكثر النساء ، بما يتناسب مع هوى الرجل

حقاً إن العوامل التي تفسد المرأة ، وتحول أخلاقها هذا التحول المشئوم ، ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل ، فإذا صار هو فاسقاً ، فلا ننتظر أن تكون هي العفيفة ، وإذا هو هدم المسجد ، فلا يعقل أن تبني هي المأذنة ، وإذا كان هو متهتكاً ، فلا يمكن أن تبقى هي حيّيةمصونة هذه هي القاعدةالاجتماعية (الغالبة) ، وما خرج عنها فهو شاذ ، وقليل ما هم

ولا نعلم هل هذا العزيز « فوطيفار » ممن قد انخرطوا في سلك هذه «القاعدة» أم هو من الأفراد الشاذة التي خرجت عنها ؟ ، ولذلك قلنا إن فساد أخلاق « فوطيفار » « من المحتمل » ، وليس من « الأمر المحق »

احتمال خوف العزيز من أسرة زوجته وضعفه تجاهها

٣ً — لعل «عزيزمصر» سكت عن تأدب زوجته بأكثر من التأنيب الكلامي لأنها كانت بنت رجل عظيم في البلاط ، فخاف « العزيز » من إفساده قلب مليك مصر عليه ، لو أهان أو فارق بنته ، والتزوج أو التزويج في سبيل التجارة ، عادة قديمة بين العظماء ، ومستمرة إلى اليوم ، فكم من رجل تزوج امرأة لمالها أو لأملاكها ، أو لجاه ونفوذ أبيها ، أو منصبه ومكانته في الحكومة ، عسى أن ينال الزوج من مالها شيئاً ، أو يعيش تحت ظل والدها

ويظهر لنا مما سبق من قول « سيدها » لها « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، ومن اقتراحها إذ قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم » ، ومن جرأتها فيما سيأتي إذ تقول أمام النسوة : « ولقد راودته عن نفسهِ فاستعصم » ، ومن استبدادها حين تقول « وَلَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ ، ليُسجَنَنَّ وَلَيكوناً من الصاغرين » ومن الإهمال والابهام ، وعدم تخصيصها بالكلام حينما يقول يوسف « ربِّ ، السجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدعونني اليه » ، ومن أنَّ يوسف أهمل التصريح باسمها ، مكتفياً بالتلويح اليها فيما تقول فاسألهُ ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيديَهُنَّ ، إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليمٌ » ، ومن صراحتها المدهشة وعدم خوفها من سيدها ، إذ تقول أمامَ مندوب التحقيق « الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ ، أنا راوَدْتُهُ عن نفسِهِ ، وإنه لَمِنَ الصادقين » — يظهر لنا من مجموع ذلك ان امرأة العزيز كانت (كما روى) من سلائل العائلة الفطية ، التي كانت مالكة ، أو على الأقل كانت من قوم مُدِلِّين بأنفسهم ونفوذهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، أو كانت شخصياً ، لمالها من مال أو جمال ، نافذة ، مستبدة ، جريئة ، محظوظة — الأمر الذي يكشف لنا سر ضعف « سيدها » الذي تجلى في قوله لها « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ، حيث جعل عقابها على خطئها مجرد الاستغفار

احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين

٤ً — قول بعضهم لماذا لم يطلقها ؟ — ونحن لا نعلم المانع له من طلاقها تماماً ، لأننا لم نقف على نظام « الأحوال الشخصية » عند هؤلاء المصريين القدماء ، ثم إني لقد رأيت في شرح سفر التكوين أنه كان للمرأة عند المصريين أن تستولي على كل ما يملكه الرجل إذا تركها ، كما علم مما نُشر من أحجارهم ، على ما قال الدكتور

« بين سميث » ومع ذلك فلعله لم يطلقها ، لأنه ليس في شريعتهم طلاق البتة ، كما هو عند « الكاثوليك » ، ويحتمل أن الطلاق لا يجوز عند المصريين إلا في صور وحوادث معلومة صعبة التطبيق والاثبات ، كما يقول بعض المؤرخين ، وكما هو مذهب « الأرثودكس » .

احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته

٥ — من المحتمل ان « فوطيفار » لم يكن سريع الانفعال ، متكهرب الأعصاب ، كان بعيداً عن خشونة الأخلاق ووعورتها ، فلذلك اكتفى بعظتها وتتويبها ، ولم يؤدبها بالسجن أو الضرب ونحوهما ، لأن المرأة التي لا تحافظ من تلقاء نفسها على شرفها ، فعبثاً أن يؤمل منها الخير بالضرب أو السجن ونحوهما ، كما انه من العبث أن تحاول صيانتها بوضعها تحت المراقبة ، والتضييق على حريتها ، ولهذا قيل إن هذه الطريقة التي جرى عليها فوطيفار هي منه عقل ، وحرص على ستر هذه الحادثة ، والعاقل من ستر إهانة نفسه

والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، إذ أن « الحجاج » في عتوّه ، لم يتعرض « لابن نمير » في تشببه « بزينب » أخته ؛ مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها ، فيزيد رائد ، ويكثر مكثر ، وكذلك « معاوية بن أبي سفيان » ، لم يتعرض « لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت » ، وكان يتشبب بابنته

ولدى التأمل العميق يرى القــــارىء ان ما فعله « عزيز مصر » خير مما فعله « هرون الرشيد » مع أخته « العباسة » ، فانه كان عقد عليها لوزيره « جعفر بن يحيى البرمكي » ، عقداً شرعياً صحيحاً ، وأذن لهذا الوزير بالدخول على كل أهل بيته وأخته ، وأمرها أن لا تمنعه من دخول البيت ، في أيّ وقت شاء ، ليلاً أو نهاراً

أخرى ذلك العقد مستوفياً لشروطه الشرعية ، لأحل أن يحل لوزيره «جعفر» النظر والاجتماع والخلوة والمكالمة ، وكل شيء ما عدا النكاح ، ولكن الوزير «جعفر» كان دخل عليها سراً ، ورزق منها ولدين ، سماهما الحسن والحسين ، ولما بلغ «الرشيد» ذلك ، حرّق أسنانه ، واشتد غضبه ، وقتل أخته «العباسة» والوزير «جعفر» ، مع انهما لم يفعلا إلا ماأحله الله ، وأذن فيه ، ثم قتل الغلامين الصغيرين المعصومين ، وقتل عشرات من الفَعَلة والحمالين والحفارين الفقراء ، الذين أطلعوا على هذا القتل ، ارتكب هذه الكبائر الفاحشة بداعي الكبرياء ، ودعوى أن «جعفر» البرمكي ليس كفواً «للعباسة» وأراد بقتل أخته وولديها ، ومن نقلهم وحفر لهم ودفنهم من الفَعَلة الفقراء إخفاء هذا الأمر ، وجعله في طي الكتمان ، مع انه قد تناقلته الألسنة ، وكتبه المؤرخون ، ولم يغادروا من هذه الحادثة صغيرة ولا كبيرة إلا سطروها ، فالذي عمله «فوطيفار» أفضل مما عمله «هرون الرشيد» ، ولو عمل «فوطيفار» كما عمل «الرشيد» لكان قتل «يوسف» وقتل زوجته «زليخا» و«الشاهد» الذي من أهلها ، وقتل جميع من اطلع في قصره على هذه الحادثة ، من الجواري والقهرمانات ونحوهم ، ولكان نئسما عمل ، ولكن أنّى للرجل ذي الأناة والرصانة راجح الحكم ، ثابت التؤدة أن يعمل ذلك ؟

معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير

٦ — المعاصي ثلاثة أنواع نوع فيه «الحدّ» وذلك كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، ونوع فيه «الكفارة» وذلك كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان ، والحِنث في اليمين ، ونوع لاحدّ فيه ولا كفارة ، بل فيه «التعزير» ، وذلك كسرقة مالا قطع فيه ، واليمين الغموس ، والنظر إلى الأجنبية بشهوة ، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من «امرأة العزيز» لما راودت يوسف ، ثم لما افترت عليه ، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط ، والتعزير أنواع منها التشهير وتغيير الهيأة وحلق اللحية ،

ومنها الضرب ، كما في حديث أبي بردة بن نيار في الصحيحين وغيرهما انه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » ، ومنها الحبس ، إذ حبس ﷺ رجلاً في تهمة ، يوماً وليلة ، ومنها الربط ، إذ ثبت أن عمر (ض) أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يربط خالد بن الوليد بعمامته ، لما عزله عن إمارة الجيش ، كما في كتب السير ، وسبب ذلك أنه استنكر منه إعطاء شيء من أموال الله ، ومنها إقامة الانسان من المجلس ، ومنها النفي كما فعله ﷺ بالثلاثة الذين تخلفوا ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ومنها السبّ الذي لا فحش فيه ، كقول موسى للاسرائيلي الذي استنصره أولاً ، واستصرخه ثانياً ﴿ إنكَ لَغَويٌّ مُبين ﴾ (٢٨ ١٨) وقول النبي ﷺ لأبي ذر ، لما سمعه سب امرأة « إنكَ امرؤ فيك جاهلية » كما رواه البخاري ، ومن هذا القبيل قول « العزيز » لامرأته « زليخا » « إنك كنتِ مِنَ الخاطئين » مع سابق قوله « إنه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم » تعتبر توبيخاً وزجراً « لزليخا » لأن تعزير كل إنسان بحسبه وعلى قدر منزلته ، ورب امرأة غير زليخا إذا اقترب اقترافها تستحق الضرب ، واخرى تستحق الحبس ، الى غير ذلك ، فكل واحد يُعَزر بما يليق بمقامه ومركزه بين الناس

عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير

لا يوجد في الشريعة في مثل حادثة « امرأة العزيز » مع يوسف ، أعني حادثة المراودة ، سوى الاستتابة مع التعزير ، والتعزير — كما سبق — يكون لكل شخص بحسبه ، وواحدة مثل امرأة العزيز يكفي في تعزيرها ما خاطبها به سيدها لا أكثر ، سيما أنه لم يثبت عليها عند زوجها انها راودته وطلبت اليه الفحشاء من طريق البرهان الجلي ، ولكن من طريق « اللوث » ، طريق الأمارة والعلامة ، وقد ذكر الفقهاء في باب « اللعان » أن الزوج إذا رمى زوجتــه بالفحشاء ،

وجبت عليه البينة ، وإلاّ أقيم عليه الحدّ ، فان لم تكن بينة ، وأراد الزوج تبرئة نفسه من الحد أتى بالايمان المؤكدّة ، وعند ذلك يثبت « اللوث » عليها ، فتحبس لأجله ، ويضيق عليها به ، فان دافعت عن نفسها بالأيمان المؤكدة ، سقط عنها الحدّ ، وفرّق الحاكم بينهما

هذا ما ذكروه في باب « اللعان » ، وهـــذا الباب مبني على أن الزوج رمى امرأته بالزنا ، ولكن ههنا لا يوجد رمي من الزوج بالزنا ، وإنما كل الموجود ينحصر في أن «إمرأة العزيز» تدعي أن يوسف راودها، وبالمقابلة يدعي يوسف أن المراودة وقعت منها لا منه ثم بالبحث وجدت قرينة تدل على أن المراوده والرغبة صدرت من امرأة العزيز، فاذا تقرر هذا فما هو الحكم يا ترى في هذه الحادثة ؟ والجواب، انه لا حكم سوى ما فعله «سيدها »، من استتابتها واستغفارها لا غير

نعم ، ينبغي طلاق المرأة التي يصـدر منها ما ينافي المروءة والشرف ، كما إذا ثبت عليها انها راودت رجـلاً أجنبياً عن نفسها ، لأن المرأة مأمورة ان تعاشر زوجها بالمعروف ، ومن يصدر منها ذلك ليست من هـــذا القبيل ، كما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله (ص) أنه قال عن زوجته « لو صدر منها نحو الوشم، ما جامَعَتْنا » ، أي ما إجتمعت معنا في بيت واحد ، بطريق العشـرة الزوجية ، ولا تنس ما تقدم من أن الفراق عند المصريين كان يوجد له مانـع كبير ، وهو استـــيلاء المطلقة على كل ما يملكه الزوج ، بل نهى بعضهم الطـــلاق عن المصـريين بالمره

هذا ما حضرني الآن في الجواب عن « عزيز مصر » ، والله تعالى أعلم

(إنك كنت من الخاطئين)

— ١ —

وقالت الآنسة سلمى المصرية

العزيز يخطيء زوجته ويوبخها

كأني بالعزيز بعد أن طلب من امرأته أن تستغفر لذنبها ، أخذ يوبخها ويعزرها قائلاً لها أنتها السافرة المتبرجة ، تقدمين على عمل هو من العار والدالة بمكان ! ، تقدمين على هذه المراودة مع عبد أنت سيدته ؟! ؟! هاه هاه

العوض على الله فى أخلاقك وآدابك ، حقاً (إنك كنت من الخاطئين) خطأً مزدوجاً ، إذ راودت يوسف الطهور ، ثم هممت بالايقاع به ، ثم رميته بإرادة السوء « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً » (٤ ١١١) ، وقد أخطأت في حق سيدك وأهلك ، وفي جانب الله تعالى ، وقد أخطأت للهيئة الاجتماعية بمصر ولكل بنات مصر ، فأنت إذاً من الخاطئين، حقاً أنتها المتحجرة للحلوة ، الجاحدة للواقع ، إن وجهك تتكلم، وعينيك تعترفان ، وحالك تنطق بما ينكره اللسان ، فتبصري وانظري فى أمر نفسك ، بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حولاء ،

حقاً لقد أوقعت ذاتك فى مهواة لا منقذ لك منها سوى الاستغفار ، وأوردت نفسك موارد لا مصدر لك منها غير التوبة الى الكريم الغفار

هذا هو مغزى كلام سيدها معها ، وهذا هو المعنى الروحي الذي اراده من خطابه لها

ولكن « رليحا » سكتت على مصص إد لم تنجح فيها هدهالعطة ، بل رادتهـا تأججاً وثوراناً ، وكان من الواحب المعقول على سيدها ، بـدلاً من هده العطة ، أو بعد هده العطة ، أن يعمل على التفرقـة بينها ، بأن يعتق يوسف ويطلقه من قصره ، ليدهب حيث شاء ، أو يرجعه الى وطنـــه فلسطين ، إد لا أنجع لزوال العرام من ابعاد المحب عن محبوبه ، أو إبعاد المحبوب عن محبه ، ولو فعل « العرير» دلك من أول الأمر ، لما حدثت حادثة « نسوة مصر » ، وتقطيع ايديهن ، ولما ثارترروجته ثانية ، راغبة الى يوسف بالبزول على حكمها (تكراراً) ، ولمااحتاجوا لاعتقاله طلماً ، ولكن هكدا صار ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

معنى الخطء

هدا وأحسم كلتي بملحوظة لعوية وهي نقال للمتعمد حطيء فهو حاطيء ، والمصدر الحطء ، قال تعالى ﴿ إنَّ قتلَهم كانَ خِطْأً كبيراً ﴾ (١٧ ٣١) والاسم منه الحطيئة ، ويقع على الصغيرة ، كما فى قول ابراهيم (م) « أن يعفرَ لي خطيئتي يومَ الدّينِ » (٢٦ ٨٢) ، وعلى الكبيرة كما في « وأحاطتْ به خطيئتُهُ » (٢ ٨١) ويقال فيمن لم يتعمد الفعل أحطأ وكدا لمن احتهد ولم يوافق الصواب ، لحديث « إدا احتهد الحاكم فأحطأ فـله أجر » وإنما أوجب له الأجر على احتهاده في إرادة إصابـة الحق ، لا على الحطأ الدي يكفي صاحبه أن نعدر فيه ، ويرفع عنه مأثمه ، والفاعل من أحطأ مُخطيء ، والاسم الحطأ ، قال تعـالى ﴿ وَمَا كانَ لمُؤمِنٍ أنْ يَقتُلَ مُؤمِناً إلاَّ خطأً ﴾ (٤ ٩١)
وقال الحريري

لا تخطونّ الى خِطء ولا خطاءٍ	من بعدماالشيب فيفودىك قدوحطا
فأيّ عدر لمن شابت مفارقـــه	إدا جرى في ميادين الهوى وحطا؟

كل سر حاور الاثنين شاع

آ(٣٠) « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثلاثون فقامت ست احوتها اللدية (١) وقالت

انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخدم والجواري ، ووقع هذا النبأ عندهن موقعاً سيئاً ، (وقال نسوه) جماعه من النساء ، وكن خمساً امراة رئيس السقاة ، وامرأة رئيس الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأةصاحب السجن ، وامرأة الحاجب ، (في المدينة) وهي منف عاصمة المملكة العمليقية الهكسوسية ، ـ قلن بلسان المكر (امرأة العزيز) فوطيفار ـ والعزيز فى اصطلاح المصريين من قديم وحديث هو نائب الملك (راود) تخادل (فتاها) عبدهاالعبراني يوسف (عن نفسه) ليقترب منها لأنه (قد شغفها حباً) خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جليدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، وقد اصطلح عليها اليوم بأنها جليده رقيقه تبطن جوف القلب ، فيمينا بآلهة مصر المقدسة (إنا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب ـ وقد وجهوا اليها هذا النقد مبطنا بالروابة ـ

(١) نسبة الى اللد ب بلاد فلسطين

(وقال نسوة في المدينة)

— ١ —

وقالت السيدة مديحة الديرية (١)

وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس

إن « حادثة » يوسف وزليخا ، لم تظل مكتومــــة في قصر « العزيز » بل ذاعت وشاعت ، حتى وصلت الى قصور الأمراء ، ودخلت في آذان سيدات تلك القصور ، وإن الداخل الى غرف الأميرات المصريات إذ ذاك ، يجد أحاديث الغيبة والانتقادات قد أخذت مأخذها فيها ، ويرجع السبب في ذلك اما الى « القيّمات اللاتي أطرن الحادثة الى بيوت الأميرات ، أو إلى « المواشط » صواحب النفوذ في بيوت الكبراء ، لأن الأميرات يفضين الى « الماشطة » بأسرارهن ، ويعتمدن عليها في المهام العظام ، فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ، ملكت زمام القصر ، ووقفت على جميع حوادثه فتصبح « خزانة أسرار » وجعبة حوادث ، أو يرجـــع الى بعض « القهرمانات » ، و« الجواري » لأنهن أكثر الناس رغبة في نقل الأحاديث ، وأنمّ من الصبح في إفشاء الســـر ، وأسرع من البرق في حكاية ما يسمعن ، وخصوصاً إذا كان من هذا القبيل

سئل « ديوجنيس » « أي فعل يعسر على الانسان ؟ — فقال أن يعرف نفسه ويخفي سره » ، وقال أبو العلاء المعري

يلقى الفتى كالزجــــاج إن أودعتَه
سراً ، أذيع ، فصار كالمزمار

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام (سوريا

والشمس أكتم للسريرة فى الضحى

من قهرمانة دميـــة وجواري

وربما يكون الحادث بلغهن بواسطة « الخادمات » ، بل ربما أن يكون بعض الخادمات مُقامة في قصر العزيز « رَصَداً » لبعض نساء الأمراء ، تأتيهن بالحوادث التي تحدث في قصر العزيز

وهذه عادة قديمة ومستمرة ومطردة في قصور الأمراء ، فقد كان « للأمين ابن الرشيد » ، جارية في بيت الوزير « جعفر » البرمكي ، أهداها له ، لتكون رَصَداً عليـــه ، تراقب حركاته ، وتنقلها للامين ، كما كان « لزبيدة » زوج الرشيد « جاسوس » عند « العباسة » أخت الرشيد ، يطلعها على ماجريات العباسة ، وهكذا نعلم أنه كان للسلطان عبد الحميد العثماني « جواسيس » من جواري ورجال في كل قصر من قصور الأمراء في « الأستانه »

وربما أن النبأ اتصل بسوت هؤلاء النسوة بواسطة اناس من أهل بيت العزيز ، فان امرأته كانت نادت اهل بيتها ، وكلمتهم قائلة « انظروا قد جاء سيدي العزيز الينا برجل عبراني ، ليداعبنا » (تك ٣٩ ١٤) ، وكل سر جاوز الاثنين شاع وبالجملة ساهى الخبر الى قصور الامراء ، وساقطت هـــده الحادثة الى بطانه السيدات المصريات ، واستطار ذلك النبأ الى سرب من عقيلات رجال البلاط ، واتصل بسحيرات زليخا ، وهن من بطانة الملكة وسَرَوات السيدات ، ومنهن امرأة صاحب الملك الذي كان رئيس التشريفات » ، فطرق آذانهن ، وحام حول قلوبهن ، وذلك رغماً عن أن يوسف أعرض عن ذكر هذا المصاب ، وبكتم امرأة العزيز فيه ، فصِرن يَصِمْنَ تلك « المرأة » بكل عيب حتى صارت مضغة في أفواههن ، ونبذها من نفوسهن نبذ النواة ، لأنهن استفظعن هذا الأمر ، وهالهن

هدا العمل الدنيء من سيدة شريفة من شريفات مصر وكبرياتهن، وبدأن يحاولن التوفيق بين نظرتي الشرف والدناءة، وكدن أن لا يصدقن الخبر، لولا تكرر الروايات المؤكدة لوقوعه، وليس بين الأحادث حدث أسيرَ ولا أدسعَ من حديث السوء

ولكن كم كنا نتمنى لهؤلاء «النسوة» — ويا للأسف — أن يبقين ثابتات على فكرة انتقادهن تلك «المرأة»، إذ سرعان ما رأيناهن قد غيرن فكرهن، حينما وقع نظرهن على يوسف وجماله، (كما سيأتي)، وهكذا شأن مخصوبات النساء، ليس لهن ثبات على حال، اللهم إلا على حال التقلب والدهاء

وتشعر كلمة «المدينة» أن «النسوة» كن «مدنيات» من سيدات مصر، من مدينة «صوعن» أو «منفيس» عاصمة المملكة الهكسوسية في ذلك العصر، ومثلهن يُصغَى لقولهن، لوقوفهن على الحوادث الاجتماعية، وهن من سجيرات وخليطات امرأة العزيز ونظيراتها، فلا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهن، ثم بانتقادهن، بخلاف مالو كنّ من «البادية» أو «الارياف» فقولهن لا يغيظ، ولا يجد آذانا صاغية

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب الكاملية (١)

انتشار حدث السوء

لما بلغ خبر المراودة إلى سيدات «صوعن» أخذن في لومها وتضليلها، قائلات ما هو في معناه

(وا أسفاه) امرأة العزيز «تراود فتاها عن نفسه»، مع أنها مقترنة بزوج،

(١) نسبة إلى كابل عاصمة الأفغانستان

وأيّ زوج ؟!؟! فلا عذر لها ، وكان يجب حسب العادة أن تكون المراودة منه فالشبان هم الذين يراودون النساء ولا عكس ، لمكان الحياء الشديد الذي يمنعهن من المراودة ، ويا للعار ! فإنها لو أرادت أميراً من أمراء البلاط من سحراء سيدها لكان لها بعض العذر ، ولكنها لم تراود إلا عبداً من العبدان !

امرأة العزيز — سليلة المجد ، ربة النعمة والنعمة ، مالكة الدور ، ساكنة القصور ، ذات المال الوفير والخير الكثير ، ربّة التاج والحَلْي الوهاج ، تراود عبدها عن نفسه ، لأنها علقت بحبه !!! امرأة العزيز — يغفر الله لها ، من البيوتات الشريفة ! وسيدها من علية القوم وجلتهم ، فانها أرادت خادمها لنفسها ، لتشبع لذتها الحيوانية ، فانا لله ، وإنا اليه راجعون ،

امرأه العزيز — تراود خادمها (العبراني) عن نفسه ، تريده على الفعل الشنيع عنوة وقسراً ، ومراغمة وقهراً ، لا يلفتها عن ذلك شيء ، ومن العجب العاجب أن تستبيح سيدة كزليخا مثل هذا الفعل ، الذي تتردد صداه في القصور ، وهي من اللاتي يؤاخذن بأعمالهن أمام ضميرهن ، وأمام الناس

نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واعمال اسمها

وهنا لا بد للمدقق في هذه الآية الكريمة أن يبحث في الدقائق التالية

أولاً — ان « النسوة » قد دعون زليخا « امرأة العزيز » للاشعار بأنها شريفة وماجدة ، إذ لو لم تكن كذلك ، ، لما اقترن بها ، كما أنهن قد دعون يوسف « فتى » لها ، للايذان بأنه عبد من عبيدها ، وخادم من خدامها ، وكل ذلك لاظهار ما بينها من التباين البين ، وأيضاً ليظهر أن « زليخا » هي امراه عزيز مصر ، أي امرأة رجل عظيم ومقتربة به بالفعل ، قصدن بذلك الاشناع في لومها ، فان من لا زوج لهـا من النساء ، أولها زوج دنيء قد تعذر نوعـاً في مراودة الأحداث ، لا سيما إذا كان فيهم شيء من علو الحساب ، وأما التي لها زوج ، وأيّ

زوج هو ؟ هو عزيز مصر ، فلعمري إن مراودتها لغيره ، لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلاً — بحكم الظاهر — وتماديها في ذلك ، لهي غاية الغيّ ، ونهاية الانحطاط .

هذا ، ويحتمل أنهن أردن من هذه الإضافة (امرأة العزيز) نسبة العار والعيب للعزيز ، بإضافة هذه المرأة الساقطة إليه ، نسبها له ، لا لأهلها ، لأنه هو السبب فيما حدث ، فهو الملوم دون سواه من أهلها ، ولذلك لا يجب نسبتها لواحد من أهلها ، ولكن لزوجها

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته ، قد يكون له سوء مغبة ، ليس في جانب الزوجة فقط ، أو في جانبها وأهلها فحسب ، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج ، لا سيما إذا كان هو المتسبب

انظر (يا رعاك الله) إلى هؤلاء النسوة المصريات ، عندما أردن ذكر زليخا بالإقذاع ، لم يسمينها باسمها الشخصي ، بأن يقلن « زليخا تراود فتاها عن نفسه » بل نسبنها إلى زوجها ، قائلات « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » وتناسين اسم أبيها وأسرتها ، كأنها « حواء » ثانية ، خلقت من ضلع من أضلاع زوجها اليسرى ، فهو أبوها وهو عصبتها

فلماذا يا ترى هذه النسبة ؟ قلنا إنها للإشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه ، بنسبة هذه الساقطة إليه ، ولماذا هذا يا ترى ؟ قلنا لأنه هو الذي تسبب ، فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار ،

نحن لا نلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاه في سائر أموره الاقتصادية وزؤنته الصادرمنها والوارد إليها ،وزؤنته سائرأحوال البيت ، ولكن ما هو عذره في السماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله ؟ وماهو عذره في

أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شاء لرؤية بعض اللوازم ؟ سواء أكانت العزيزة زليخا في القصر أم لا ، لا فرق في ذلك ، حتى ولو كان هناك خلوة ، فلا منع ولا خطر أصلاً ، وهل يجمع بين النار والحطب ؟

نعم ، صادف أن هذا العبد (من حيث لا يعلم العزيز) ، ذو دين وشرف وعصمة ، ولماذا ؟ لأنه يوسف وكفى ! ولكن ليس كل الفتيان يوسف ، فاذاً يجب علينا المحافظة على صواحبنا ونسائنا كل حين ، والله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين

تسمية العبد فتى

ثانياً — إن هذا الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد « فتى » ، هو نِعْمَ الأدب ، وفي الحديث الشريف « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي » والفتى من الناس الشاب ، ويستعار للمملوك أو التابع أو الخادم أو المستخدم للحكومة « قال تعالى ﴿ وإذ قال موسى لفتاهُ ﴾ (١٨ ٦١) لأن يوشع بن نون كان تابعاً لموسى عليهما السلام ، وقال تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِجْنَ فَتَيَانِ ﴾ (آ ٣٦) لأن رئيس السقاة المسمى « نَسُو » ورئيس الخبازين المدعو « مَحْلَثْ » ، كانا مستخدمين في حكومة الهكسوس ، وقال تعالى ﴿ وقالَ لِفِتْيانِهِ ﴾ (آ ٦٢) لأن هؤلاء أيضاً كانوا مستخدمين عند يوسف أيام عمالته بمصر

تسمية حاكم مصر عزيزاً

ثالثاً — إن تسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون «عزيزاً» هو اصطلاح للمصريين ، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقاً « خديوي » ما دام تحت نفوذ وإمرة السلطان العثماني بالآستانة ، بل إننا أدركنا العصر الذي كان يسمى

فيه الخديوي بكلمة « عزيز مصر » ، وأما مليك مصر الأكبر ، مليك القبط قديماً فكان اسمه الرسمي « فرعون » كما أن اسم ملك الفرس كسرى ، والروم قيصر ، والترك خاقان ، واليمن تُبّع ، والحبشة نجاشي ، وفلسطين أبي مالك ، فهذه كلها ألقاب حكومية رسمية ، يلقّب بها الملك من جانب الرعية يوم تتويجه ، وهي غير الأعلام الشخصية التي يسمى بها هؤلاء الملوك من جانب آبائهم يوم سابع ولادتهم ، وكما أن الرعية تعطي الملك لقباً خاصاً يوم إجلاسه على العرش ، فكذلك هو يعطي رجال دولته ألقاباً رسمية مثل عزيز ، خديوي ، وزير بلاط ،رئيس تشريفات ، صدر أعظم ، الخ الخ

(قد شغفها حباً)

— ١ —

وقالت السيدة سكينة العَدَنية (١)

شغف الحب

تقول سيدات «صوعن» إن امرأة العزيز تراود عبدها العبراني لأنه « شغفها حباً » بحيث لو بحث بين جوارحها ، وفتشت قلبها ، لما رأت فيه غير يوسف ، وغير جماله وحبه ودلاله « شغفها حباً » حتى قهرهـا سلطان الهوى وأحاط حبه بقلبها كإحاطة الشغاف بالفؤاد

وإنا لنعجب ، ويأخذنا الدهشة ، كيف أنه « شغفها حباً » مع أن العادة الغالبة ، أن الشبان هم الذين يشغفون بحب النساء ، وإن عشق الكواعب للشبان ، أندر من الكبريت الأحمر ،

ما هذا العشق الذى تمكن من قلبها ، واستبد بفؤادها ، واستقل عيونهـا

(١) نسبة الى عدن عاصمة مقاطعة عدن جنوب المملكة اليمنية

وعواطفها ، اللهم لا شك انه عشق ضال عن جادة الصواب ، وإلا فكيف يسوغ لأميرة مصرية ، قرينة أمير مصر الوحيد ، وأول رجل بعد الملك ، أن تتنازل لعبد من عبيدها !!!

وليسمح لي السادة والسيدات والآنسات أن أنهي خطابي هذا بالتعليقين التاليتين

امثلة من غرام النساء بالرجال

التعليقة الأولى — إن كتب التاريخ تذكر لنا عدة أمثلة من غرام « الجنس اللطيف » « بالجنس الخشن » منها

١ — حب الآنسة « فارعة » بنت ثابت ، « لعبد الرحمن » بن الحارث المخزومي حتى قالت فيه

يا خليـــلي نابـي سهـدي	لم تنم عيـــي ولم تكـدِ
فشرابي ما أُسيـغ ومـــا	أشتكي ما بي إلى أحـــد
كيف بلحوبي على نفَعَ	آ بِس ٍ تلتـده كبدي ؟
مثـل ضوء البدر طلعتـــه	ليس بالزُّميْلَـة النَّكِـدِ
نظرت عيـــي فلا نظرت	بعده عيـــي إلى أحـــد

٢ — حب « عُلَـيَّة بنت المهدي » لغلامها « طَلّ » ، وقد حرم عليها أخوها « هارون الرشيد » أن تتشبّب به ، فكان من نتيجة ذلك ، أن تشبت بجاريتها زينب ، وجعلتها كناية عن « طل »

٣ — احبت امرأة من الأوس شاباً من الخزرج ، كان نبياً باراً بأبيه ، قد كفاه جميع ما يعنيه ، فأرسلت اليه تشكو له حبها ، وتسأله الزيارة ، وتريده على نفسها ، وكانت ذات بعل ، فأرسل اليها

إن الحرام سبيل لست أسلكه ولا أمر به ما عشت في الناس
ألقى العتاب فإني غير متبع ما تشتهين وكوني منه في ياس

فكتبت اليه

دع عنك هذا الذي أصبحت تذكره
وصر الى حاجتي يا أيها القاسي
دع التنسك إني غير ناسكة وليس يدخل ماقد قلت في راسي

فأمسك عنها وأهملها ، فأرسلت اليه «إما أن تزورني واما أن أزورك» — فأرسل اليها «إربعي أيتها المرأة على نفسك ، ودعي عنك هذا الأمر ، واكتفي بعرسك» (مصارع العشاق ح ١٤)

٤ً — قيل إنه كانت جارية اسمها «سَلاّمة» اشتراها «يزيد بن عبد الملك» بثلاث مئة دينار ، وكان يوجد في زمنها فتى صالح تقي ، اسمه «عبد الرحمن» بن أبي عمار من عباد أهل مكة ، ولقب «بالقَسّ» لكثرة عبادته ، وكان شاباً جميلاً ، رأته تلك الجارية فأحبته ، وشغفت به ، كما هو بها ، وصار بينهما تخالل وتواد ، فقالت له يوماً على خلوة «أنا والله أحبك» — قال «وأنا كذلك» — قالت «أحب أن أقبلك» — قال «وأنا كذلك» — قالت «أحب أن أصادرك وأحاضرك» — قال «وأنا كذلك» — قالت «فما يمنعك» — قال قوله تعالى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ المُتَّقِينَ﴾ (٤٣ ٦٧) ، وانا أكره أن تؤول خلتنا إلى عداوة ، ولذلك اشتهرت هذه الجارية باسم «سَلاّمة القِسّ» (أخبار النساء لابن قيم الجوزية)

٥ً — روي أن جارية من الجواري القِيَان كانت على غاية العشق لشاب من أهل الأدب والظرف ، اسمه «العَلاَء التغلبي» فكانت تتودد اليه ، ولا ترى منه سوى الجفاء والاباء ، ولم يزالا على ذلك ، حتى مرضت الجارية من حبها له فماتت . (مصارع العشاق ح ٨)

العشق بين الرجل والمرأة وبالعكس

التعليقة الثانية — العشق بين الرجل والمرأة وضع سماوي ، فتارة يكون من الطرفين ، وطوراً يكون من أحدهما ، والغالب على الهندوس الوثنيين أن العشق يكون من جانب المرأة للرجل ، وسببه أن المرأة في دينهم ، لا تزوج إلا روحاً واحداً فقط فحظ عيشتها منوط بحياة الروح ، حتى انه إذا مات تحرق نفسها معه ، وتمام الحظ يكون بجمال الروح وصحته ونشاطه ، وهذا بخلاف العرب والهنود الموحدين ، فالأكثر أن العشق يكون فيهم من طرف الرجل للمرأة (حسن صديق).

(إنا لنراها في ضلال مبين)

—١—

قالت السيدة سعيدة الكويتية

اللوم المسدد الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف

لم يكتف النسوة الخمس ، بترداد حديث السوء ، حديث المراودة ، بل حكمن على « زليخا » بأن حبها هذا للعبد العبراني ، هو حب أحمق ، حب ضال عن محجة الصواب ، وها هن يقلن انه إذا كان لها نفس تحملها على انتهاز اللذات ، ألم يكن لها عقل يعقلها عما فيه سوء السمعة وسوء المغبة ، وإذا كان لها جسد حيواني يطالبها بارتكاب الشهوات ، ألم يكن لها روح شريفة نزيهة ، ترنأ بها عما فيه خسة ودناءة ، وإذا كان فتاها جميلاً ، ألم يكن لهـــا من المنصب والمركز والجاه ما هو أجمل وأجمل ، فاذاً ويحاً « بأبيس » المقدس إن فكرتها لفكرة حيوية ، بيماً ، ولسنا بالحاشات في بيننا ، إنها ذات ضمير ميت ، وحلق سيء ، وصاحبة وجدان غير طاهر .

مسكينة هذه المرأة ، فقد تتابعت في عماتها ، ولجّت في غلوائها ، وإن مراودة سيدة مثلها ، لعبد من عبدانها ، وشغف قرينة « عزيز مصر » بالإغرام بخادم من

حدامها ، أمران مستهجنان جداً وكل واحد منهما منفرداً ، حقيق أن يشين سمعتها ، فكيف وقد اجتمعا ؛ إن هذا ليس فعل الحرائر ، ولا أهل المروءة والدين ، فتباً له من عمل ، يورث العار والشنار ، ويخفض الرأس ، ويغمض الأبصار

إن هذه المرأة قتلت شرفها ، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس ، لأن قاتل النفس يحوّل احتقار الجمهور إلى ذاتــــه فقط أما قاتل الشرف ، فيحول ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها ، هي كانت سابقاً « فريسة العزيز » ولكنها اليوم (فريسة الذل والصغار) ، لتسقط ولتنزل إلى أسفل سافلين ؛ ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد ، بل عن علم ورأي ، وإننا بحمد الله متنزهات مترفعات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط ، « وإلى الملتقى إن كانت »

هذا مرمى كلامهن ، ومغزاه الروحي ، قلن هذا الـكلام بلهجة الانـكار والانتقاد والتلوم عليها ، ولكن في هـذا القول ماكرات أولاً ، ومعتابات ثانياً (مرحى مرحى)

تذييل — إن ما قاله هؤلاء المحاضرات الأربع هو الصحيح ، وما عداه لا يستحق النظر مما قاله بعض المفسرين

اقامة الحجة على النسوة الخمس

آ (٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ، وَقَالَتْ «اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ «حَاشَ لِلَّهِ ، مَا هَذَا بَشَراً ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقامت السيدة فاطمة اليوغوسلافية ورحبت أحد الأعضاء المؤتمرين لقراءة خطابها فقال

وأما زليخا (فلما سمعت بمكرهن) واغتيابهن وسوءقالتهن ، وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، فمقتها وأحمل منها أيما إحمال ـ وسمى الاغتياب مكراً ، لأنه في خيفة وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره ، وكثير من الألفاظ في هذه السورة استعملت في غير معناها الحقيقي وذلك مثل (وشهد شاهد) وقد مر الكلام عليه ، ومثل (قلن حاش لله) وسيأتي الكلام عنه ـ ، اقول لما سمعت زليخا ذلك قالت انا أعلم أن لكل حادث حدثاً ، وأن هؤلاء النسوه معذورات لأنهن لم يرين جمال يوسف ، ولذلك (أرسلت اليهن) تدعوهن ضيوفاً عندها لكي يرينه فيعذرنها ، فلبين الدعوة واتين ودخلن عندها في البهو (وأعتدت لهن متكأً) أي مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون عند الطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، وقيل المتكأ الطعام أو المائدة التي عليها الطعام ـ (وآتت) امرت بأن

نؤتي الحدم (كل واحدة منهن سكيناً) ليعالحن بها ماتأكلن من فواكه وغيرها، على حسب العادة الجارية عند المترفين في تلك الأزمنة من الأكل بالسكين ، (و) بعد ما انتظم الجمع وقدمت أنواع الأطعمة اليهن وشرعن بأكلن ، وبينما هنّ في ذلك قالت ماالذي يلمعي عنكن؟ـ قلن هو الذي بلغك ـ تحاشياً منهن عن الكذب فبعد ذلك أرادت أن تقيم عليهن الحجة ليعذرنها ، فرفعت رأسها و(قالت) بلسان الافتخار والابتهاج، لعبدها العبراني (اخرج عليهن) ، ولا بد انه لم يكن في البدء عندهن ، بل كان جالساً في مكتبه أو نحوه من الغرف ، وربما انه لم يكن شاعراً بشيء من هذه الترتيبات ولا سبق له بها علم ، لأن الحادثة ليست إلا حادثة صادفة يقصد بها التوصل لرؤيتهن يوسف وجماله فيعذرنها ، هذا كل ما كان ، لا أقل ولا أكثر ، وأما يوسف فلم يسعه إلا امتثال أمرها والنزول على إرادتها ، لأنه عبدها ورهين إشارتها ، فخرج ومثل بين أيدي هؤلاء السيدات الجالسات حول المتكأ ، (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق (وقطعن أيديهن) اي جرحنها وشطبنها ـ كما تقول « كنت أقطع اللحم فقطعت يدي » تريد جرحتها ، وقد يطلق تقطيع الأيدي على فصلها وإزالتها جملة ، كما في قوله تعالى ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقْطَعُوا ايدِيَهُمَا ﴾ (٥ ٤١) فلفظ التقطيع أو القطع مرن يمكن تضييقه وتوسيعه ، إنما قطعن أيديهن واشتغلن به عن الطعام، لأنهن في ذاك الوقت لم يكن مهمومات بمعدهن وأحشائهن ، بل بحواسهن وأذواقهن، وكان همهن النظر والذوق منهن ، أشد من همهن المعدة والأحشاء ـ (وقلن) بلسان الاندهاش والتنزيه (حاش لله) وهي كلمة تفيد معنى التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش لله براءة لله وتنزيه له ، وكأن هذه الكلمة من جملة الكلمات التي عرف معناها المراد من غير أن يدل عليه اللفظ ، لأن المقصود ههنا التعجب من جمال يوسف لا غير (ما هذا بشراً) نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

الصور (إنْ) أي ما (هذا إلا ملك كريم) نزل من السماء « سفيراً » ، ليمثل المملكة الملائكية السماوية ، في المملكة البشريـــة الأرضية ، فانثنى له المَلَكية وتَنَتَّنيَ بها الحكم ، لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من المَلَك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، وركز أن لا أجمع للخير من الملائكة ، كما ركز فيها أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، قامت عليهن الحجة لامرأة العزيز

(فلما سمعت بمكرهن)

— ١ —

وقالت السيدة وفائيه الدمنهورية [1]

بلوغ امرأة العزيز اغتياب النسوة لها

وصل النبأ الى امرأة العزيز بأن نساء رجال الدولة من الوزراء والعظماء قد بلغهن حادثتها مع يوسف وانهن أخذن في لومها واغتيابها ، شامتات ، منافسات ، حاسدات ، نعم « سمعت بمكرهن » بواسطة جواريها أو ماشطاتها أو قهرماناتها أو غيرهن ، وربما كان الذي نقل عنهن الخبر الى النسوة هو الذي نقل خبر لوم النسوة ومكرهن واغتيابهن اليها ، « سمعت بمكرهن » الذي منه قولهن « قد شغفها حبا » وانهن ارخصن وخصصن ، فثارت حفيظتها وبدأت تمغص ويجيش صدرها من الغيظ ، ويغلي دمها من الحنق ، ورأت أن معاملتهن لها كمعاملة « الجبان المترفع » ، لغريمه ، فافتكرت أن تحول دفتهن عن جهة لومهن إياهـــا ، إلى جهة معذرتهن لها ، « سمعت بمكرهن » وتألبهن عليها وعرفت أنهن تسحرن بهـــا في أعماق نفوسهن ، وبيان بلسانهن من شرفها ، « سمعت بمكرهن » وسقط اليها أن السيدات المصريات تآزرن وتكاتفن على تنقيصها ، وتضافرن على تضليلها ، وأصبحن

(١) نسبة الى دمنهور من البلاد المصرية

حرباً وألباً واحداً عليها ، فقالت في نفسها إن هؤلاء السيدات العاقلات ليس لهن سلاح ، إلا القيل والقال ، ثم حسبت لذلك ألف حساب ، وافتكرت فرأت أن تطلعهن على يوسف ليعذرنها ، أو لكي توقعهن في الشرك الذي وقعت هي فيه ، فيشاركنها في عواطفها وبلاياها ، حتى يصدق عليهن جميعاً المثل القائل « اصطبحوا وأصطلحوا » وتكون بذلك قد طوقت مكرهن ، وأجهزت عليه وهو في مهده

وجه تسمية الغيبة مكراً

ملحوظة ـ سميت الغيبة مكراً ، باعتبار أساسها ومنشأها ، لأن الغيبة التي هي من هذا القبيل المذكور هنا ، إنما تنشأ عن اختلاس أسرار الناس ، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز ونحوهن ، وهذا مكر ممن يبحث عنهم ، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم ، ولا ريب أن هذا أمر منكر ، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار ، وعدم الاغضاء عن استطلاعها وتجسسها ، عملاً بالآداب العامة ، ووجه ثان فيتسمية هذه الغيبة مكراً وهو أنهن كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن ، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء ، تقول بلسانها ما ليس في قلبها ، والله اعلم بما تكنّه ، ولذلك لم يُسمه غيبة بل مكراً ، فهنّ بقولهن « تراود فتاها عن نفسه » يتمنين أن تكون الأسباب قد سهّلت لهن مثل هذه المراودة ، وبقولهن « قد شغفها حباً » يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن ، ولما قلن « إنا لنراها في ضلال مبين » أردن انها فى هذه الظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد فى صباحته ، عديم النظير فى ملاحته ، فملاحظتهن على امرأة العزيز ، ملاحظة غبطة وغيرة ، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر ، تعرفه وتعرفه امرأة العزيز ، ويعلمه الله الخبير ، الذي سمى هذه الغيبة « مكراً »

ووجه ثالث كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة « المكر » بدليل إنهنّ لمها وهن غائبات عنها ، ولم ينصحنها وجهاً لوجه ، وإلاّ فهن لو أردن النصح لاجتمعن

بها وقدمن لها ما يعود عليها بالعناء ، فسماه « مكراً » ، لأنه من قبيل التحكك بشخصية تلك المرأة وتنقصها ، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة

ووجه رابع سميت هذه الغيبة « مكراً » ، لأنها طعن لم يرتكز على مستندات قوية ، لأن هذا الذي وقع منهن ، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز ، إلا أنه غير جائز ، إذ يجب أولاً التثبت والتبين ، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب ، وقد قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٤٩ ٦) ويجب على العاقل أن يظن بإخوانه وأخواته ظناً حسناً ، كما قال تعالى ﴿ لولا — إذ سمعتموه — ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾ (٢٤ ١٢) ، لأنه ليس من دليل يصدقه ، والأصل في الرجال والنساء العدالة ، والسلامة من الطعون ، وحيث لم تقم عند هؤلاء النسوة — على تلوث تلك المرأة — دليل مقنع ، كان الواجب عليهن حسن الظن بها ، ورد ذلك الإخبار السيء ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ﴾ (٤٩ ١٢) ، ويقول النبي (ﷺ) « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » ، والإنسان نهي عن تلقي مثل هذا ، كما قال تعالى ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم ، ولولا — إذ سمعتموه — قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ (٢٤ ١٥ و ١٦) وقال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (١٧ ٣٦)

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات ، أن يسكتن حين سمعن هذا الخبر السيء ، كما قال تعالى ﴿ إنَّ الذين يُحبُّونَ أن تَشيعَ الفاحشةَ في الذينَ آمَنُوا لهم عَذابٌ أليمٌ ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢٤ ١٩) ، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة ، أو يخبر بها حسداً أو بغضاً ، وكأن الذي هون على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات ، ان امرأة العزيز كانت من المشركات ، وأن مراودة أهل الوثنّ الناسَ عن أنفسهم ، أمر معهود وقريب جداً ، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك الوقوع في الفاحشة ، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان ، فلما يوجد شرك إلا ومعه زناً ، وقلما يوجد زنا إلا ومعه شرك ، كما نعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم العتيقة

هذا ما ظهر لنا في تعليل تسمية هذه الغيبة « مكراً » ، فان صادف قبولا عند أولي النظر ، فذاك من فضل الله علينا بصحة تعليلنا ، وعليهم لحسن ظنهم ، وسلامة طويتهم ، وأما الرافضون فعليهم أن يرجعوا الى ما قاله غيرنا في هذا المقام

(أرسلت اليهن)

— ١ —

وقالت الآنسة رؤوفة الحمصية

دعوة امرأة العزيز للنسوة

تضافرت الأخبار في قصور الأميرات المصريات ، عن هذه الحادثة الأليمة ، وانتشرت بينهن ، رغماً عن كل الاحتياطات والتحفظات وبالتالي طفقن ينتقدنها ويسلقنها بألسنة حداد ، فنمي الخبر باشاعة ذلك عند هؤلاء النسوة الى زليخا ،

فظنت انها تقدر أن تدرأ انتقادهن بما ستتخذه من التدابير الصامتة ، التي يرجى أن تكون ناجعة ، في سبيل تسكين غيظهن ومكرهن ، وتبرير نفسها عندهن ، في حبها إياه ، بما سيرين من جماله الفائق ، ومنظره الخادب ، فلذلك « أرسلت اليهن» وللمفسرين ههنا كلام غير هذا الكلام

« أرسلت اليهن » برسم الدعوة لقصرها ، على سبيل الضيافة ، مع الإعزاز والاكرام ، لتحتج عليهن بما سيشاهدن من جمال يوسف وكماله ، احتجاجاً صامتاً ، ولتقلّم ظفر انتقادهن ، وتنتدب من لومهن ، وقد هيأت لهن مظاهر الزينة والنعيم ، ومجالي السرور والتكريم ، وأما هن فصدعن بأمرها ، ولبين وحَضَرْن ، عملاً بسنة « مَن دُعي فليجب » أو امتثالاً لأمرها ، لما لها عليهن من الدّالة ، بكونها امرأة العزيز

ولنا ههنا كلمة — وهي بدلاً من هـذه الدعوة النسائية ، كان يجب على امرأة العزيز حينما سمعت بوصول النبأ لقصور الأميرات أن تتدارك خبره قبل شيوعه ، وتتلافى طيه قبل نشره ، بطريقة غير طريقة هذه الدعوة النسائية ، طريقة تكفل كتمانه عن غير هؤلاء السيدات ، وتضمن إخفاءه عما عداهن من قبل خبر النار قبل انتشارها في سائر البيوت ، لأن دعوة هؤلاء النساء توسع دائرة الفتنة ، ولكن أبى الحب إلا أن يترك في نفس المحب نوعاً من الجنون ، وابى الشموخ الذي في أنف امرأة العزيز ، وأبت العطرسة التي في رأسها ، إلا ان تعمل عملاً من شأنه توسيع الخرق على الراقع ، ومن طبيعته أن يزيد الطين بلة ، فرأت بحسب اجتهادها ان تعتذر لهن اعتذاراً صامتاً ، وبعبارة أصح أن تحتج عليهن احتجاجا أخرس وقد كان الأحرى بها اختصار هذه الحوادث ، وتكفي ما وقع سابقاً من المعارك ، بينها وبين يوسف ، ثم المحاكمة بمعرفة سيدها والشاهد من أهلها ، فهي بتلك الدعوة

السائية ، مع ما نجم عنها من تقطيع الأيدي والعرام ، وما صدر عنها من الاعتراف أمام السيدات ، ثم توعدها ليوسف توعداً مشتملاً على القحّة وقلة الحياء وعدم المروءة ، قد رادت الفتنة اشتعالا ، وبدلك انتقلت الحالة من رديء الى أردأ ، ومن سيء إلى أسوأ ، فيا للفصيحة ويا للعار ويا للجهالة . ويا للحب دُعمي و بصم

(وأعتدت لهن متكأ .)

— ١ —

وقالت السيدة رهراء المحمية

المطعم الصائد — المتكأ

لما أرسلت رليخا تدعو النسوة الى قصرها أعدت وهيأت لهن متكأ يكمل أنواع الأطعمة اللذيذة ، من لحوم أرضية وسماوية ومائية ، ومن فواكه وأثمار مختلفة الألوان والأجناس ، وأمرت بفرش الطنافس ، وترتيب المجالس ، واستحضرت مياه النيل المروّقه المروحة بماء الزهر ، والمطيبة بالبخور ، وقد أمرت بصب دلك في روضه من رياض القصر يجري من تحتها النيل ، قد عرست بالوان من الأشجار اليانعة الثمار واكتست أرضها بسندس النبات ، ومختلف الورود والرياحين ، فطاب هواؤها ، ورق ماؤها ، وتطايرت عصافيرها ، وانطلق نسيمها ، فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار

هنالك أسارت بترتيب المائدة ونصبها ، فكانت هده الروضة كالجنة ، وكان هؤلاء السيدات الصريات فيها كالحور العين ولم ينقص تلك الجنة الا الولدان، فلذا

أمرت يوسف بالبروز لهن (كما سيذكر) ليتم بهاء ذلك المنظر الجميل، وتكمل اللذات من جميع الوجوه

وهنا نذكر الملحوظات التالية

معنى أعتدت

الملحوظة الأولى — يقال عَتَد الشيءُ عَتَاداً حضر، عَتَدٌ وعَتِيد، وتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال أعتَدَه صاحبه وعتّده إذا أعدّه وهيأه، ويقال أخذ للأمر عَتَاده، أي ما أعدّه من السلاح والدواب وآلة الحرب، أعْتُدُ وأعتِدَة، مثال زمان وازْمُن وأزْمِنة، وفي حديث «إن خالداً جعل رقيقه وأعتُدَه حُبُساً في سبيل الله» (المصباح)، وفي البخاري «وأعْتَدَت» أعَدّت، «أعتَدنا» أعْددنا، أفعلنا من العتاد

معنى المتكأ

الملحوظة الثانية — يطلق المتكأ على نفس الطعام، وعلى نفس المائدة والخوان، وعلى نفس ذلك ومحلّه، وعلى النمارق والوسائد، كل ذلك جائز، وصحيح في اللغة والاصطلاح، وفي البخاري «المتكأ ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام» ولكن التعبير بالاعداد والتهيئة والتحضير، قرينة واضحة على أن المراد هنا نفس الطعام الذي يؤكل، لأن هذا الذي يحتاج عادة للاعداد والتهيئة، بحيث يجلب حيناً فحيناً، وشيئاً فشيئاً، واما نفس الخوان أو المكان أو النمارق، فتبعد إرادته هنا، لأنه موجود، متوفر في بيوت الأمراء والمترفين على الدوام

ومع ذلك فقد فسر بعضهم «المتكأ» هنا بالمجلس يجلسْنَ عليه أو الكراسي يقعدن عليها متكآت على ظهورها، وكلمة «متكأ» هي مثل كلمة «نُزُل»، قال

النزل يطلق على ما يعد للضيف من الطعام وعلى المحل الذي فيه الطعام ، ويقال للمتكأ بمعنى الطعام « سُؤْر » بلغة الفرس ، وفي الحديث « يا أهل الخندق ، إن جابراً صنع لكم سؤراً ، فحيّ هلاً بكم » رواه البخاري في صحيحه ، وقد فسره شراح البخاري بالضيافة أو الطعام ، ويسمى عند العرب « مأدبة » وهو طعام الدعوة

وقال بعض العلماء الاتكاء الجلوس مع التمكن والقعود مع تمايل معتمداً على أحد الجانبين ، وتوكأ على عصاه ، اعتمد عليها ، وقال تعالى « وسُرُراً عليها يَتَّكِئُون » يجلسون ، والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين ، ويقال اتكأ أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه ، وكل من اعتمد على شيء ، فقد اتكأ عليه ، ويقال أتْكأْتُه أعطيته ما يتكيء عليه ، أي ما يجلس عليه ، وضربته حتى أتْكأْتُه ، أي سقط على جانبه ، والاسم التُكأة مثل رُطَبَة وإعداد « المتكأ » للطعام هو عادة المترفين ضد إعداد « الحصيرة » للطعام الذي هو عادة للفقراء » ،

ويطلق « المتكأ » على مائدة مؤلفة من ثلاث قطع ، على طرفي الواحدة منها الاثنتان الأخريان ، على وضع قائم معها ، فتشبه الثلاث مربعاً رفعت إحدى أضلاعه ، فيكون بذلك فيها مدخل لموزعي الطعام ، وكانوا يضعون حول الجوانب الخارجة للمائدة أسرة ، تتكيء عليها الأكَلَة ، ورؤوسهم مسنده على أكفهم اليسرى ، متجهة الى المائده ، وأرجلهم منفرجة الى الوراء

هذه هي صورة « المتكأ » عند المصريين واليهود قديماً ، وكان « متكأ » صاحب الوليمة في الصدر ، مقابل مدخل المائدة ، ومحل الشرف عن يمينه ، وهو المقعد الأول ، لأعظم الضيوف وأوجههم « فالمتكأ » إذاً آلة حتمية للأكل ، بدرجة عالية يستعملها الأغنياء والأمراء في الولائم ، في عشائهم أو غدائهم

هذا وقد قرأ بعضهم « مُتْكاً » بضم الميم وسكون التاء ، وتنوين آخره بلا همز ، وذكر « المفصل » انه المائدة أو الخمر ، في لغة « كنده » ، وكان بعض أصحابنا تعجبه هذه القراءة مع تفسير « المُتْك » بالخمر ، ويقول « إنه يسهل حينئذ على من يكون اجنبياً عن الدين هضم القول بتقطيع الأيدي — فقلت له « أليس القصد وجود السكر ، حتى يهضم الأجنبي حادثة تقطيع الأيدي ؟ » — قال نعم — قلت له فالجمال نوع من السكر ، فقد ذكروا ان للسكر سبعة أنواع سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر الجمال ، وسكر المنصب ، وسكر القوة البدنية ، وأخيراً سكر الموت ، فالسكر على كل حال حاصل ، فالرجوع للقراءة المشهوره أولى ، لاسيما وقد حدثت حوادث كثيره للعشاق ، تشبه هذه الحادثة (١)

(وآتت كل واحدة منهن سكيناً)

— ١ —

وقالت السيدة تماضر الحضرموتية (٢)

سكين الطعام

بعد أن استقر المقام بعقيلات الأمراء والوزراء في قصر امرأة العزيز أمرت جواريها باعداد الطعام وأعطت هي بيدها كل واحده من هؤلاء المدعوات سكينا لتأكل بها ، مبالغة في الاحترام ، ويحتمل انها أمرت الجواري بذلك ، على جاري العادة ، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين (الجارن)

(١) راجع صارع العشاق ج ٢ و ٨ و ١ و ١٢ و ١٤ و ١٨

(٢) نسبه الى حضرموت ناحيه احدى مقاطعات الجزيره العربيه الجنوبيه

وكذا كان من عادة العرب أكل اللحم بها ، كما كان يفعل النبي (ﷺ) (١) ، بل وبالشوكة ، أعني شوكة النخل ، التي يقال لها مسلة النحل (٢) ، تكون طول شبر تقطع وتشدب وتغرز في اللحم ،أمام كل واحد سكين مربوطة بسلسلة في الخمسة وشوكة من سلاّئي النخل ، إذ لم يكونوا يستعملون الصابون ولا غيره ، مما يزيل الدهن

وأهل اليوم يأكلون بالسكين والشوكة والملعقة ، المصنوعة من المعدن

وامرأة العزيز لم تأمر بإعطاء كل سيدة سكيناً ، توصلاً لما لعله يقع ، وذريعة لما ربما يصير ، من قطع السكين ايد حاملتها ، لا لا . لأنها لم تكن تتوقع منهن ذلك ، ولم يقم عندها احتمال قط أنه ستنزل بهن تلك الفاجعة ولكن هي أمرت الخادمات وأشارت على مرتبات المتكأ أي المائدة ، بإعداد السكاكين ، جرياً على القاعدة عند الكبراء ، ومشياً مع العادة في بيوت الأمراء ، من وضع السكاكين على « الخوان » ، لأجل تقطيع ما عليه من خبز ولحم وفاكهة ، فتقطيعهن لأيديهن كان حصل بالعرض وعن طريق الصدفة ، لا أكثر ولا أقل

ويقال للسكين مدية ، حتى ان بعض العرب لا يعرف إلا الاسم الثاني ، وقد روى أن أبا هريرة ، لما قدم من دوس عام خيبر ، لقي النبي (ﷺ) وقد وقعت من يده السكين ، فقال له « ناولني السكين » ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال « آلمدية تريد ؟» وأشار إليها ، « فقيل له نعم » — فقال « أو تسمى عندكم السكين ؟ » — ثم قال « والله لم أكن سمعتها إلاّ يومئذ »

---

(١) شمائل الترمذي (٢) شعراني

(وقالت اخرج عليهن)

—١—

قالت السيدة إنصاف الدمشقية —

اجتماع المحب والحبيب والعوادل

إن طعن أولئك السيدات في شرف امرأة العزيز وعقلها ، ترك أثراً سيئاً في نفسها ، فأرادت أن تمحو انتقادهن باحتجاج صامت أخرس ، فقدمتهن للمائدة ، فشرعن بأكلن ، وأنشأن يتساقطن الأحاديث والأسمار ، في سرور وضحك ، وفيما هن في ذلك قالت لهن « ما الذي يلهي عنكن ؟ — قلن هو الذي يلعك» ، تحاشياً منهن عن الكذب ، فعند ذلك أرادت أن يرين ما كنّ سمعن من جمال يوسف وصباحته ، لأن الرؤية فوق السماع ، « وما راءٍ كمَنْ سَمِعا » ، أعني أرادت أن تقيم عليهن الحجة الصامتة ليعذرنها ، فوجهت وجهها شطر المكتب الذي هو فيه وقالت منادية أنت ، يوسف ، اخرج ، اخرج من مكتبك على ضيوفنا هؤلاء السيدات العوادل ، اخرج عليهن لأدلي لهن بأن رأيي في هواك هو عين الصواب ، وانني لم أكن في ضلال مبين كما قلن ، اخرج عليهن وعلى إحساسهن السلام ، وعلى عقولهن رحمة الله ،

فلما سمع يوسف هذا الطلب من سيدته ، تمرمر في داخله ، وكرب وضاق درعاً ، وأوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات ، لا يمكنه تنفيذها أو من أعمال لا يروق له أن يراها ، أو من سفور وإبداء زينة وتبرج جاهلي ، لا يمكنه أن يصبر على رؤيته ، بدون أن يتكدر و ينغص ، وأخيراً لما سمع إلحاحها ، لم يجد بداً

من الامتثال لأمرهـا ، لأنه لم يكن وهو في بيت العزيز ذا جاه وشوكة ، بحيث يسوغ لنفسه عصيان سيدته ، والاستبداد عليها فيما تأمر ، ولذلك تراه نزل على إرادتها ، وترك دفاتره ومحابره وخرج من مكتبه على السيدات وهو حائر النفس ، وقلبه يخفق ، لما يتوقع من مغازلة له منهن ، ومداعبة تصدر عنهن ؟

برز لهن كبدر التمام ، ويا له من موقف غرام ، ووله وهيام ، موقف دهشة وحيرة وارتباك ، موقف ذهول ، وسكر عقول ، وغيبة عن الإحساس !!! لا سيما وانه لما رأى نفسه وسطهن ، اعترته حمرة الخجل ، وأسبل جفنيه حياء وعفة ، فزاد بذلك بهاء وجمالاً ، وأنف أن ينتسع نظره اليهن ، فلم ترده الأنفة إلا حسناً وكمالا ورواء .

وأما السيدات فلما سمعن من امرأة العزيز كلمة اخرج عليهن ، أتلعن بأعناقهن ، وشخصن بأبصارهن ، ينتظرن طلوعه عليهن ، التي كن سمعنها ، والتي كن خضن فيها ، وهن يتطاولن لرؤية محيا يوسف الباهر ، ويستشرفن للقياه ، ويشتقن لمشاهدة طلعته ، فلما مثل بين أيديهن ، شرعن ينظرن اليه ، نظر المنجم إلى الكوكب ، الخافق في أفق السماء

وأما زليخا فانما اختارت خروجه عليهن وهن على المتكأ ، لأن هذه الحـال حالة صفاء وسرور ، فأرادت حضور فتاها الجميل ، لتكمل لهن اللذة بمشاهدته ، وبذلك يكون جمعت لهن بين تمتع البطن بالأكل من صنوف الطعام ، وتمتع العين والأذن بنظرهن لذلك الجمال الباهر ، وسماع كلامه الرخيم

(فلما رأينه أكبرنه)

—١—

قالت الآنسة أسماء من كلكتا (١)

انقلاب العوادل محبين

لما خرج يوسف عليهن (رأسه) كأنه آية الجمال المحكمة ، التي لا تقبل تبديلاً ولا تغييراً ، فظهرت على وجوههن الدهشة ، (رأسه) فرأين ما يبهر النظر ، ويستوقف البصر ، وقرأن في صحيفة محياه « سورة النور »، (رأسه) فانفتحت له قلوبهن ، وفرحت به أفئدتهن ، واختلط فرحهن بأمارات البغتة ، وبهتن كأن على رؤوسهن الطير ، (رأسه) لأول مرة ، فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة وحسرة، وسرعان ما ذهلن وغبن عن أنفسهن ، (رأسه) فبهتن ودهشن ، ودخل عليهن رعب شديد ، ولم يبق جارحة من جوارحهن لم يتصورن فيها « صورة أبي مسلم » ولا تسل عن حالهن في تلك الجلسة الرهيبة ، من الاضطراب والذعر الجارّين (رأسه) ودرسن صحيفة وجهه ، وقرأن فيها آيات الصفاء القلبي ، رأين مالا عين منهن رأت ، وسمعن مالا أذن منهن سمعت ، وظهر لهن ما لم يخطر على قلوبهن يوم اعتراضهن على « زليخا » ، (رأسه) فرأين بهجة النفس ، وربيع القلب ، وعددن يومهن هذا « يوم عيد كبير » ، ووددن لو أن هذا اليوم يكون « نشوع » ، يطول عن باقي الأيام بازدياد الشمس فيه بعد الغياب ، فلما رأينه (أكبرنه) — وأجللن جماله وأعظمن حسنه ، وكدن أن يقمن اليه ويحدثنه ، ولكنهن رأين في عينيه هيبة أوقفتهن عند حدهن ، فاكتفين بالكلام ، (أكبرنه) وصار موضوع

(١) كلكتا احدى مدن الهند

إكبارهن وإجلالهن ، ومركز دائرة إطرائهن وتقريظهن ، وأحلَّتْه المحل الأعظم من نفوسهن وألسنتهن ، (أكبرنه) وعدون مسوهات (داهشات) العقول ، مشردات الأفكار ، مبلبلات النفوس ، وامتلأت به قواهن ومشاعرهن ، وصرن به صرعى الهيام ، ومشت الرعدة في أجسامهن ، مشي المدام في أدمغة أهل الغرام (أكبرنه) ما أن رأينه ، فإذا هو في نواظرهن ، أكبر مما كان في خواطرهن ، أي أنهن وجدن مخبره ، أسمى جداً من خبره ، وأن « ليس الخبر كالعيان » (أكبرنه) لأنهن رأين عليه نور « النبوة » وسيما « الرسالة » وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى الطعام والنساء ، وعدم الاعتداد بكل ذلك ، فتعجبن من تلك الحالة ، فلا جرم إنهن أجللنه [1] .
وههنا تتمتان

عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً

التتمة الأولى — ظهر من قوله « فلما رأينه أكبرنه » مع قولها « هذا الذي لمتنني فيه » انهن لم تسنح لهن رؤيته ، رغماً عن انه كان مضى عليه في (قصر العزيز) نحو عشر سنين ، وان بيت العزيز كان في ذلك العصر كعبة الرائدات ، ومنتدى الصديقات النبيلات ، فلذلك نظن ان امرأة العزيز كانت تحرص على إخفاء يوسف ، وإبعاده عن هذا « الجنس اللطيف » غيرة منها عليه وأمثال ذلك كثير في التاريخ

احترام النسوة لا فضل ليوسف

التتمة الثانية — إن الذي صـــدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف هو

---

(١) الرازي

مجموعة مركبة من ثلاثة أركان ركن قلبي ، وهو اكبارهن له ، وركن عملي ، وهو تقطيعهن أيديهن ، وركن لساني ، وهو قولهن « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا ملك كريم » ، فقد ظهر احترامهن ليوسف في مظاهره الثلاث ، في الجنان والأركان واللسان ، على حد قول الشاعر

أفادتكم النعماء مني ثلاثة　　يدي ولساني والضمير المحجّبا

وهذا أقصى أنواع الاحترام ، هذا ما حضرني الآن فما قولكم فيه ؟

(مرحى وأحسنت)

(وقطعن أيديهن)

— ١ —

وقالت الآنسة وصفية الديرية

جرح النسوة المدعوات أيديهن

بينما النسوة المدعوات يأكلن ، وقد مسكت كل واحدة منهن سكيناً في يدها اليمنى وأهوت بها لتقطع الطعام ، من لحم أو فاكهة ، وهو مُمْسَك بيدها اليسرى إذ دخل عليهن يوسف ، تلبية لأمر امرأة العزيز ، فلما رأينه تأثرن بجماله تأثراً زائداً ودهشن اندهاشاً عظيماً ، وذهلن به عن شعورهن ، وأصبحن كأن قوى الاحساس المتنوعة المفرقة على أعصابهن ، قد توحدت واجتمعت كلها وانحصرت في عيونهن ، فلم يعد في أيديهن حس ولا إدراك ، أو كأن في اندهاشهن بجماله قوة التخدير الموضعي لأيديهن ، فبدلاً من أن يقطعن الطعام أو الفاكهة بالسكين قطعن ايديهن ، بأن جرحنها وحززنها من حيث لا يشعرن بألم ، ولا يعلمن أنهن يصنعن شيئاً ، لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول ، حتى يكاد الناظر اليهن في تلك الساعة

يعتقد أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنعث فيها الحواس في سبيلها ، ولكنها لا تعود الى الدماغ شيء مما تحس به ،

أو يحتمل أن يكون المعنى أنهن قارن ذلك ، كيف لا وقد ورد قوله تعالى ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغنَ أجلهنّ ﴾ (٢ ٢٣١) (ومثله في ٦٥ ٢) ، أي إذا شارفنه ، كما يقال بلغ البلد إذا شارفه وداناه ، ويقال وصلت ولم تصل وإنما شارفت (الكشاف)

وأما امرأة العزيز فلم تندهش ولم تذهل لرؤيته معهن ولم تقطع يدها ، لأنها قد تعودت رؤيته من قبل ، وتكرر لقائه ، إذ أنها أول ما رأته كان ابن ١٧ سنة ، أي صغير السن ليس محلاً لحمة الإناث إياه « فضلاً عن أنه « فتاها » وعبدها ، وتحت يدها ، وان مشاهدته مبذوله لها في كل حين ، بخلاف النسوة فإنهن لم يكن قد تعودن رؤيته من قبل ، وانهن حينما رأينه لأول مرة كان بالغاً مبلغ الرجال

ويمكن ان نقول وجهاً آخر في تفسير ذلك ، وهو أن زليخا قدمت للنسوة مع الطعام « مُتْكَأً » الذي هو « الخمر » في لغة « كنده » على مافسره « المفصل » رحمه الله ، فلما اكلن وشربن وسكرن ، ضاعت عقولهن ،وبطل إحساسهن،ولم يعدن يميزن بين الطعام وبين أيديهن ، وعند مباغتتهن بخروج يوسف عليهن ، واندهالهن بجماله وقده سكرن سكر الهوى ، فاهوين بالسكين على أيديهن بدل الطعام فجرحنها وشطبنها ، ولما صحون من سكر الخمر وسكر الهوى ، أدركن حالهن ، ورأين الدم يسيل من أيديهن ، فجعلن يمسحنه بمناديلهن ، ثم اتي لهن بمناديل أخرى ، عصبن بها جروحهن وضمدنها

ولنا هنا بضع ملحوظات

وقع حرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز

الملحوطة الأولى ـــ كأني بامرأة العرير وقد نطرت إلى هدا الحادث الأليم المدهش ، حادث نقطيـع النسوة أيديهن ، ووقفت أمامه وقفة المتحير ، ولسان حالها يقول « ما هدا الاتفاق العرب ؟ إني إنما أمرت بالسكاكين لهؤلاء السيدات لأحل أن نقطعن بها طعامهن الدي على المتكأ (طعاماً) ، لا ليقطعن بها أيديهن ، ولكن حقاً ، إن لي من هده الصدفة العجيبة حجة بينة على هؤلاء اللوامي ، بها يكون لي عندهن من العدر الواضح »

هي افتكرت أن ندعوهن في قصرها ضيوفا ، وقت عداء أو وقت عشاء ، درىعة لجمعهن بيوسف ، وروىتهن جماله الفائق ، حتى يعدرنها فى إعرامها به ، وسعيها في وصاله

هدا كل ما أرادت ، وهدا جميع ماقصدت لا أقل ولا أكثر ، وقد حصلت على ما أرادت وقصدت ، ولكن ليس العجب حصولها على هدا الدي قصدت اليه ، وسعت فيه ، فانه أمر عادي ، ليس فيـــه ما يقتضي العجب ، ولكن إنْ تعجب فعجبٌ كونه حصل شيء (عن عرض) هو فوق مرامها ، وهو تقطيعهن أيديهن ، لشدة دهشتهن ودهولهن وعيبتهن عن إحساسهن ، حتى بدلك تسنى لها بكل سهولة الاحتجاج على نثريهن عليها احتجاجاً صامتاً أخرس ، ولكنه أنطق من اللسان

احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع

الملحوطة الثانية ـــ من المحتمـــل أن التشديد في « قَطَّعْنَ » هـو لكون الأيدي متعددة كما قالوه ، ويحتمل عـندنا أن معنى التشديد ، هو أن كل واحـدة

جرحت يدها جروحاً عدة في مواضع من يدهــــا ، ويشير له ابن جرير بقوله · « جرزن بالسكين في أيديهن جزاً جزاً »

أمثلة النسوة اللائي جرحن أيديهن في التاريخ

الملحوظة الثالثة ـــ ليست حادثة تقطيع النسوة ايديهن بالحـــادثة الأولى في التاريخ ، بل هناك أمثالها كثير ومنها ، الحوادث التالية

١ ـــ دخلت « عَزّة » على « كُثَيّر » وهو يبري سهاماً ، فجعل ينظر اليها ، ويبري ساعده ! فدت منه ومسحت الدم بثوبها (١)

٢ ـــ روى ان « الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُري » أنشد معلقته بين يدي « عمرو بن هند » الملك ، وهو متوكيء على قوسه ، وقد زعموا انه حين إنشادها ، اقْتَطِم (٢) كفُّه من العصب ، وهو لا يشعر

وقال ابن السِيْد في « أدب الكاتب » كان متوكئاً على عنزَةٍ (٣) ، فارتزت (٤) في جسده ، وهو لا يشعر

٣ ـــ كان بالكوفة شاب حسن الوجه ، نظرت اليه فتاة ، ذات جمال وعقل ، فشغفت بحسنه ، ولم تأل جهداً في أن تحظى به ، وهو يأبى عليها ، ولم تجد لذلك سبيلاً ، فجعلت تبكي بكاء مراً ، وتحزن حزناً شديـــداً ، ولم تزل كذلك ، حتى مرضت ولم تلبث أن تلبث بلية في جسمها ، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالاً ، ولما كان قد عرف حديثها مع الفتى ، كان إذا أراد أن يقطع من لحمها ، يحدثها

(١) الدر المنثور
(٢) قطع
(٣) رمح صغير لاسنان له وفي أسفله زج أي حديدة
(٤) انغرزت

بحديث الفتى ، فما كانت تجد لقطع لحمها ألماً ، ولا كانت تتأوه ، فاذا سكت عن ذكره تأوهت ، ولم تزل كذلك حتى ماتت كمداً (١) .

٤ً — كان شاب يقال له « مسافر » يحب جارية من أهل مكة ، وكان غائباً بالحيرة ، فسأل عنها ، فقيل له تزوجت ، فشهق ومات في مكانه (٢)

وإذا كان خبر زوجها أثر على جميع جسمه وروحه ، فأسلم روحه تواً ، فهل من غير الممكن أن تؤثر رؤية يوسف فقدان الاحساس من أيدي هؤلاء السيدات اللاتي شغفن به ، وبوغتن برؤيته ؟ كلا

٥ً — حكي أن فتى علق بجارية من القيان ، فاشتراها بستة آلاف دينار ، فلما حصلت عنده وملكها ، قالت له « أيها الفتى لم اشتريتني ؟ وما في الأرض أبغض إليّ منك ، وإني أرى نظري اليك عقوبة ، فاسترد مالك ، فلا متعة لك بي ، مع بغضي إليك » ، ورأى منها بغضاً وإعراضاً شديدين ، فبذل لها كل ما يبذله الناس ، فما ازدادت إلا عتواً ، واعتزلت في بيت ، لا تأكل ولا تشرب ، وإنما كانت تبكي وتتضرع ، حتى ضعف صوتها ، وأحَسّ منها بالموت ، وكان كل يوم يجيء إليها ، ويبذل لها الرغائب ، ولا يسمع ذلك ، ولا تزداد إلا بغضاً له ، مكثت على ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ، ذهب إليها ، فرأى منها شيئاً من الاقبال ، فسألها عما تشتهيه ، فاشتهت عليه « جزرة » ، فحلف لا يعملها أحد سواه ، فأوقد النار ونصب القدر ، وبقي يحرس ما جعل فيها ، والنار تعمل وتتقد ، وقد اقبل عليه يشكو

---

(١) مصارع العشاق ج٢

(٢) مصارع العشاق ج٨

ما مرّ بها من الآلام ، في هذه الأيام ، وبينما هو يمرس الحريرة بيده على النار ، إذا يده قد انسمطت [١] بالحريرة ، فصارت مشلولة [٢] وهو لا يدري ، ولا يشعر ، لولا أن دايته جاءت ورأت ذلك ، فأخبرته ، فأخرج يده ونظرها ، وإذا هي مشلولة [٣]

٦ً — قال ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » حدثتني امرأة أثق بها ، أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يجد كل واحد منهما بصاحبه وصلاً وجداً ، قد اجتمعا في مكان على طرب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرها جراً زائداً ، فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ، ظهر فيـــه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب حرائنية ، لها قيمة ، فأخرجت منها فصلة شد بها إبهامه

حمل التقطيع على التحرير والتشطيب

الملحوظة الرابعة — لقد حمل تقطيع الأيدي على تشطيبها وتجريحها وتحريرها وهو أمر ظاهر ، وعليه درج ابن جرير وسواه من محققي علماء التفسير ، ومما مرّ بي في بعض كتب التاريخ أن « المبرد » دخل يوماً على « عبيد الله بن طاهر » ، وقد فصد ، فظن أن ذلك العلة ، فدعا له بالشفاء ، فقال عبيد الله « خفض عليك أبا العباس ، فليس ذلك لعلة ، وانظر ما تحت طرف البساط » ، فنظر ، وإذا رقعة فيها

حلف الظريف بقطعه بيده إذ مس من يهواه بالألم
حتى إذا صاب الفصاد به حمـــل الفصاد بحلة القسم

فقال المبرد « حسن أيها الأمير فما سببه ؟ » ، قال مددت البارحة يدي إلى بعض الجواري بالضرب فألمّ لما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدي ، فاستفصدت اليوم

(١) ذهب شعرها بيده ا آ
(٢) يابسة متكمشة
(٣) مصارع العشاق ج ١

فأُفتيتُ بالقصد ، فعلتُ ، قالوا لأن الله تعالى قال « قطعن أيديهن » مريداً التقطيع والتحرير

كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر

الملحوظة الخامسة — رب سائل يسأل ، لِمَ لم يظهر لتقطيع هذه الأيدي سيرة في البلاط ، بل طوي هـذا الحادث عن مليك مصر ، كأنه لم يحدث ، مع أنه عمل مهم ومعيط ، ولماذا حصل هذا التكتم يا ترى ؟ — فجيب أن المصريين القبط هم أصحاب البلاد ، وهم الوطنيون الأصليون ، فكانوا يكرهون هؤلاء العمالقة المستعمرين ، فلأجل كراهتهم لمليك مصر « الريان » المستولي على البلاد بالقهر والغصب ، — كانوا يطوون أخبارهم وحوادثهم عنه ما أمكن ، ولا يريدون أن يوقفوه على أحوالهم الداخلية، لا سيما حادث كهذا يمس شرف عزيز مصر وامرأته وهؤلاء السيدات المدعوات ، وبالجملة يمس شرف عموم القبط الوطنيين ، فلذلك طوت هذه الحادثة عنه كأن لم تكن ، بل طويت عن سمع التاريخ وبصره بالمرة، حتى أذن الله أن يقص علينا في كتابه الكريم

جمال يوسف

الملحوظة السادسة — ذكر البغوي بسنده المتصل ان النبي ﷺ قال «أعطي يوسف شطر الحسن » ، ويقال إنه ورث ذلك الجمال عن جدته « سارة » وكانت قد اعطيت سدس الحسن ، وقال محمد بن إسحاق « ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن » (١) ، وقال عكرمة « كان فضل يوسف على الناس في الحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ،وروى أبو سعيد الخدري (ض) قال قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة اُسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ، وورد في سفر التكوين أنه قد« كان يوسف حسن الصوره وحسن المنظر »(تك٣٩ ٦)

١) خازن

وتحرير المقام أن يقال

يوسف هو ابن يعقوب من زوجته راحيل، ويعقوب هو ابن اسحاق من زوجته رفقـة ، واسحق هو ابن ابراهيم من زوجته ساراي ، فابراهيم كان جميلاً وكذا زوجته ساراي فقد جاء في سفر التكوين «أنها حسنة جداً» (تك ١٢، ١٤)فهذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما إسحق ، وهو تزوج برفقـة التي جاء في سفر التكوين انها « كانت حسنة المنظر » (تك ٢٦ ٧) ، وهذان الزوجان أيضاً ورثا الجمال لولدهما يعقوب ، وهو تزوج براحيل التي جاء في سفر التكوين أنهـا « كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر » (تك ٢٩ ١٧) ثم هذان الزوجان ورثا الجمال لولدهمـا يوسف ، الذي وردت في جماله النقول الكثيرة ، فهو ورث الجمال من أبيه يعقوب وأمه راحيل ، وأما يعقوب فكان ورث الجمال من أبيه إسحق وأمه رفقة ، وأما اسحق فـكان ورث الجمال من أبيه إبراهيم وأمه ساراي ، فيصدق على يوسف أنه الجميل بن الجميل بن الجميل بن الجميل ، من زوجات أربعة جميلات ، فلذلك وردت في حسنه الروايات المتعددة ، ونظمت في ذلك الأشعار ، وضربت الأمثـال ، وهذا المقدار من حسن يوسف ، كاف لأن تدهش هؤلاء السيدات المصريات ، وتأخذ بأفئدتهن ، بل وتذهب بإحساسهن ، لاسيما وانهن ما خرجن عن كونهن من سلالة حام ، وغني عن البيان ان كل أفراد هذه السلالة الحامية سواء أكانوا رجالاً أم نساء ، هم (كما ذكر المؤرخون وعلماء الجغرافية) فطس الأنوف ، مجعدو الشعر ، طوال القفا ، ذوو رؤوس مفلطحة ، ووجنات بارزات العظـام ، وأفواه واسعة كبيرة ، وشفاه غليظة ، وألوان سوداء ، لأنهم من « العرق الأسود » أحد عروق البشر الأربعة ، وأما يوسف فكان كغيره من العبرانيين من سلالة سام أي من « العرق الأبيض » الذي من مميزاته انه أبيض الجلد ناصعه ، دقيق الانف ، رقيق الشفة ، سبط الشعر ناعمه فالقـارئ الفهيم إذا لاحظ هذا وهذا ، ولاحظ ثالثاً ان النساء عموما ، والأفريقيات منهن خصوصاً ، رقيقات الشعور ، شديدات الحس ، سريعات التأثر بالجمال والمحاسن، — إذا استحضر ما ذكرناه كله سهل عليه اعتقاد ان هؤلاء السود الدنيات قد قطعن أيديهن

هذا ما فتح به الوهّاب ، في هذا الخطاب ، وهو تعالى أعلم ، واتباع الحق أولى وأسلم . (حسناً حسناً)

(وقلن حاش لله !)

— ١ —

قالت الآنسة ست إخوتها الكوفية (العراق) ـ

النسوة المدعوات نزهن يوسف عن الشر

من المعلوم ان النسوة المدعوات كن في ذهول عميق ، أو في سكر متغلب على العقل ، ولكن لما أفقن من ذلك ، وتحولن من غلابه ، ورجعن لأنفسهن شرعن يهتفن بجمال يوسف ، ويفحصن من محاسنه ، نعم ، كن ساكتن سكتة استغراق في في محاسنه ، ثم رأين أن يتكلمن كلمة يخرجن بها من هذا الذهول والاستغراق ، فقلن « حاش لله » أي براءة لله ، وتنزيهاً لله ، — أصله حرف جر وضع موضع التنزيه والبراءة ، فهو مفعول مطلق ، كقولك « سقياً لك » والمعنى تنزيه لله تعالى — أن يكون هذا الشاب من العالم الأرضي ، بل هو من العالم السماوي ، وكلمة « حاش » يختص استعمالها بالله تعالى ، فلا تقل « حاش لك ، بل حاشاك ، وحاشى لك » والمقصود من كلمة « حاش لله » تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً ، فهذه الكلمة من قبل الكلمات التي استعملت في غير معناها ، ومنه قول النبي ﷺ في ابي بكر (ض) «والله يغفر له» ، وقوله (ﷺ) في عتبة بن أسيد «ويل أمه» ، وقوله ﷺ لأم سلمة «تربت يداك» ، وقولهم «لا أم لك» ، وقول الكتاب ﴿أرأيتك هذا﴾ (١٧ ٦٢) ، وقوله ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ (١٠٧ ١) ونحو ذلك

والغرض ان كلمة « حاش لله » لم ترد في القرآن المجيد إلا في هذه السورة ، ثم

لم تحك هذه الكلمة في هذه السورة إلا عن فم هؤلاء النسوة المصريات ، في مقام تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً مره ، وفي تنزيهه عن السوء مرة أخرى (آ ٥١)

(ما هذا بشراً)

وقالت الآنسة ربيدة العربية

المغالاة طبيعة في المرأة

جعل النسوة تتأمل في وجه يوسف ، وتتفرس في ملامحه ، تارة يستغرقن في النظر لوجهه ، وطوراً يطرقن متأملات، يبحثن في ذاكرتهن هل سبق لهن رأين إنساناً يشبهه في الحسن ؟ أجهدن فكرتهن في تذكر أهل المحاسن والجمال ، فلم يهتدين على أحد يشبهه ، أو يقاربه في صباحته وملاحته ، فعند ذلك قررن انه ليس من عالم البشر ، بل هو من عالم أرقى جمالاً ، وأعلى بهاء ، وأسمى نوراً ، نعم إن الصورة وإن تكن صوره إنسان أرضي ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه ، هي نفس مَلك سماوي

هن كن ظنن قبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط ، حسب العادة المألوفة، أي انه ليس فيه إلا جمال الجسم ، وقسامة الوجه ، ونحو ذلك

أما الآن ، وقد رأينه ، وتأملن وتفرسن فيه ، وعلمن ما عنده من طهر ونزاهة وجمال نفس ، ونورانية روح — فقد عرفن شيئاً كن يجهلنه من قبل ، فقد امتزج في نظرهن جمال صورته بجمال نفسه ، فاستحالتا الى صورة واحدة ، هي يوسف ! حتى انه لو نزلت به كارثة ، من كوارث الدهر أفقدته جمال صورته ، لبقي معشوقاً للقلوب ، تسربه النفوس ، وتهفو له الأحلام،

عما فيه من الجمال المعساني ، الذي هو أعلى قيمة حداً من الجمال الجثماني ، فكيف وقد احتمع فيه الجمالان ، فادا هو نور على نور .

إن هؤلاء النسوه ، ولا ريب ، كن يعتقدن أنه بشر ، ولكن المغالاة طبيعة نسائية ، قال « عونكور » « أظهر أخلاق المرأة حب المغالاة في كل شيء »لاسيما إذا لاحظنا أن أفكارهن هذه شعرية بحتة

عجب لهؤلاء النسوة ، لا تشغلهن شأن عن شأن ، ولا يمشين على طريقة من قال « حال الجريض دون القريض » ، فهن مع ما أصابهن من الجراح تراهن يتلاهين بتقريظ يوسف ، وإطراء ما له من جمال وجلال ، وطبع النساء معاداة الصمت في حالي الحزن والفرح ، ومحبة الكلام ، وهن بين الحسرة والغبطة

(إن هذا إلا مَلَكٌ كريم)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب السحابية

النسوه اللائمات يقلن الى متعزلات مادحات

عجيب وايم الله ذلك الذي أحدثه هذا الانقلاب الغريب الأطوار !! فالنساء اللاتي كن لائمات أصبحن متعزلات مادحات عاشقات ، ووقعن في شرك الحب كما وقع غيرهن ، وصار لسان كل واحدة منهن ينشد

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقته　فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبي ... عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

انهن نظرن شاباً في ريعان الشباب ، جميل الصورة ، له منظر جذاب يغري الرائين ويعجب الناظرين ، يدل على الجلال والعظمة ، فهمن بهذه الجملة الامتداحية

وهي « إن هذا إلا ملك كريم » بجماله ذاته وكمال نفسه ، وطهارة ضميره ، بحيث لم يبق فيه من صفات البشر إلا الاسم واللقب ، بأن نقول عنه ؛ « يوسف فتى امرأة العزيز » ، فهو بشر ، بحسب ذلك اللفظ فقط ، وأما فيما عدا ذلك ، فهو من نوع سكان السموات ، المنشأين من النور

ورغماً عما أصابنا من هذه الكارثة ، فإننا اليوم سعيدات ، برؤية هذا الفتى مثلوجات الصدر ، بمشاهدة وجهه الصبيح،الله أكبر ! إنه لجميل ! وجميل جداً ! إنه زهرة سماوية ، ونفس ملكية كلامهن هذا هو من قبيل الغزل بجمال يوسف، المبني على استحسانهن له ، واستكبارهن لطرفه،ومن قبيل المدح بالنزاهةوالطهارة، والدليل على أن تشبيهن له «بالملك»غزل ومدح ، استعملهن الشعراء قديماً وحديثاً ذلك التشبيه في مقام الغزل بمحاسن المحبوب ومدح كماله ، وشواهد ذلك أكثرمن أن تحصر ، وأشهر من أن تسطر

نفين عنه البشرية ، لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن ولا أكمل من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح ولا أنقص من الشيطان

فهذا بدء التغير الفكري الذى حدّ لهن ، وأعظم دليل على تغير فكرهن عن ذي قبل ، هو اندهاشهن وغيبوبتهن عن الحس ، حتى قطّعن أيديهن ، من حيث لا يشعرن، ولا يُحسسن ، فهذا هو دليلنا على انهن اندهشن بجماله وجلاله

ذاب فكرهن الأول الانتقادي فيما صرن إليه من هذا الفكر الجديد ،فانقلبن عما كن فيه ، فكنّ من قبيل من قيل فيهم « يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً » ، أو « الحرام ما حُرموه ، والحلال ما حلّ بأيديهم » وكأن « الشّغف حباً » ،إنما عد « ضلالاً مبيناً » لغيرهن ، وأما لهن فهو الهدى الساطع !!!

كن سرقن لحما وأكلنه ميتاً ، فقطعت أيديهن وهن في قيد الحياة ، مكرن بها قولاً ، فمكرت بهن فعلاً ، حكمن عليها بالضلال ، فضللن عن تقطيع طعامهن إلى تقطيع أيديهن ، دعون يوسف قبل أن يرينه « فتى امرأة » ، فلما رأينه دعونه « ملكاً كريماً »

هذه الانقلابات والتطورات هي نتيجة من نتائج الاندهاش بالجمال ، فسبحان مقلب قلوب النسوة ، قبل قلوب الرجال ، وبهذا صرن من « مريدات » امرأة العزيز ، المجندات لغرامها وحبها ، بعـــد ما كن سابقاً من اللوامي المنتقدات ، والعواذل المنكرات ، فانقلبت حالهن ،وتغير فكرهن ، وشاطرنها في شغفها ،وهذا كل ما أرادت وسعت إليه

كان جمال يوسف من أكبر المؤثرات على دقائق قلوبهن ، وكان كماله من أقوى السلطات النافذة لأفئدتهن ، فقلن ذلك القول مع اعتقادهن أنه بشر ، فهن يعبرن بذلك عن شعورهن ، وشدة سرورهن وإعجابهن بيوسف ، نظير قول القائل

محمد بشر ما كان كالبشر بل كان ياقوتة والناس كالحجر

والنساء يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكثر ممـــا يحكمن بمقتضى العقل والبرهان ، أو انهن قلن ذلك على الطريقة الشعرية ، أو على وجه المبالغة في الوصف وعلى كل ، فلعمري ما أبعدن المثل ، ولا تجاوزن القياس

قال بعض الحكماء « الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والانسان يجمع صفات الملائكة وصفات البهائم،فان غلبت روح الانسان وعقله على نفسه وهواه، كان أفضل من الملائكة ، وإن غلبت نفسه وهواه على روحه وعقله ، كانت البهائم أفضل منه »

لوم واعتراف ووعيد

آ (٣٢) ﴿ قالتْ فَذلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فيهِ ، ولَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نفسِهِ فاسْتَعْصَمَ ،ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والثلاثون فقامت السيدة هدى اليابية وقالت

رأت « امرأة العزيز » أن النسوة بما صدر منهن من فعل وقول قد قامت عليهن الحجة ، فعند ذلك (قالت) لهن بلسان الاحتجاج (فذلكن) الفتى الرائع في الجمال الفاتن في الحسن ، أو فذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم (لمتنني فيه) ولم يخطرن على بالكن قول بعض الحكماء · « لعل لها عذراً وأنت تلوم » و « ليس من العدل سرعة العذل » ، يعني انكن لم تصورنه حق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به،ولذلك وبما صار لكن أحتج عليكن في انتقادكن علي ، ثم قالت بلسان الاعتراف (و) السر عندكن اني (لقد راودته عن نفسه فاستعصم) — والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها،ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الراى واستفحل الخطب ، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو الذين لا يفقهون — ثم قالت بلسان الابعاد والارهاب (و) قسماً بأنس وتماسيح النيل (لئن لم يفعل ما آمره) به (ليسجنن) في المطبق (وليكوناً من الصاغرين) الأذلاء

(قالت فذلكن الذي لمتنني فيه)

— ١ —

قامت الآنسة زينب العدنية وقالت

لوم زليخا للنسوة

بعد ما احتجت امرأة العزيز عليهن احتجاجاً صامتاً قالت لهن بلسان اللوم والعتاب « ذلكن » الشاب الفتى الذي برؤيتكن لم تتبين لكن حقيقة معذرتي-هو « الذي لمتنني فيه » ، وهل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد رأيت ما حل بكنّ ، مما لم يكن في الحسبان ؟ هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد صرتن به مغرمات ، بعد ما كنتن فيه عواذل ؟ هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد جُنّ جنونكنّ في حبه ، وزدتنّ فيه عليّ أضعافاً مضاعفة ؟

« ذلكن الذي لمتنني فيه » ، وماذا عساي أن اعمل ؟ وأنا قد وُلِدت«امرأة» ضعيفة الارادة ، ودست « امرأة » لطيفة الشعور ، ونشأت « امرأة » رقيقة الاحساس ، ونشأت « امرأة » تتغلب عليها العواطف، ثم الدم النسائي اللطيف حار في عروقي ، والميول النسائية المتغلبة سارية في كل جوارحي ، وهذا الفتى قطعة من الجمال ، حلو من معمل اللطف والحسن ، حلو فتنة للعباد ، وهو عندي وتحت يدي ، أفمن العجب بعد هذا كله ان أستسلم لجماله ، وأسلم له عقلي ؟!؟

« ذلكن » الفتى الأديب الذي أكبرتنّه وقطعتن بمجرد النظر اليه أيديكن ، هو « الذي لمتنني فيه » . والآن مع ان من حبه آسفة جداً ، لا أصابكن من هذه النازلة . لاسيما وانتن في بيتي وضيافتي، لكني من الجهة الثانية أحمد الله ، إذ شعرتن بفعل الحب وشدة سلطانه ، وإني لأرجو ان كل ما صدر مني وسيصدر لا يقلل من قيمتي شيئاً

عند من رأت جمال الفتى ، وكانت ذات إنصاف ، فأنا لست من غير طينتكن ، بل أنا مثلكن من لحم ودم

أنتن كنتن لمتني فيه ، سامحكنّ الله ، فابحثن الآن في ذات أنفسكن ، هل ترنَ ضميركنّ يشهد ان حبي إياه عبث ، أوانه في غير محلّه ؟

أنتن كنتن لمتني فيه ، وأراكن هذه الساعة قد شغفتنّه حباً ، فهل ألومكن أنا الآن فيه ؟ كلا . لأن من جرب الحب لا يلوم فيه أحداً

يالائمي في الحب ذق طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

فاذن نحن الآن قد ذقناهما جميعاً ، فلا تنكرن بي ولا تنتقدني

ملحوظة — لقد تقدم انها كانت سمعت بلومهن لها ، وانتقادهن عليها ، فتنازعتها العوامل التي تنازع عادة كل محب انصب عليه لوم اللائمين ، ونيل من شرفه وعرضه ، فتارة كان يدفعها « عامل الكبرياء والعطرسة » لرد لومهن بحمو وشدة ، زاعمة انه ليس من شأنهن البحث والسؤال عما في قصر العزيز ، وان كل تدخل من فريق ثالث في الشؤون التي بينها وبين عبدها تدخلٌ غير ودّي

وحيناً يدفعها « عامل الذل » — ذل المحبين المغرمين — للاعتذار بهدوء وسكينة ، ومرة يدفعها « عامل الاعتدال » للجواب عما يخالج ضميرهن ، عما يكفل عزتها ويرفع بلطف لومهن ، كانت تتجاذبها هذه العوامل ، وتنتابها هذه الأفكار المختلفة ، ثم حسن في عينيها أن تعمل عملاً أهم من هذه كلها ، وهو أن تبعث اليهن على سبيل الضيافة في قصرها ، حتى يرين يوسف ، فيشاطرنها في حبه ، ويقعن في الشرك الذي ارتطمت هي فيه ، او على الأقل يرين جماله فيعذرنها ، وبذلك تكون قدمت لهن معذرة محسوسة ، بارزة ، صامتة ، ذلك كل ما قصدته من الارسال اليهن ، وأما ما حصل في تلك الجلسة ، من تقطيع النسوة ايديهن ، واعترافها الصحيح امامهن ، وتوعدها ليوسف إن لم تؤاتها ، فلم يكن شيء من ذلك مقصوداً

لها ، ولم يخطر على بالهـــا ان هؤلاء السيدات ، سيستغرقن في حبه ، ويندهش بجماله ، لدرجة أن يغبن عن أنفسهن وإحساسهن ، فيقطعن ايديهن ، وأما هي فلما حصل منهن ، ولما قيل « حبك الشيء يعمي ويصم » ، سوغت لنفسهـا أن تبوح لهن بكل صراحة انها (نعم) مشغوفة به حباً ، وانها كانت أرادته فأبى ، وانهـا حتى اليوم والى الغـد باقية على هذا الحب ، وعلى هذا الشغف ، وعلى هذا الشيء الذي سميه (ضلالاً) ، لا يهدأ لها بال ، ولا تروق لها معيشة ، الا بالحصول على غرضها ، أحب يوسف أم كره ، وبقين هن على لومهن ، أم أقلعن عنه

هذا ما سمح به الوقت أن ألقيه على مسامعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله

(مرحى)

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

قالت السيدة لطيفة المراكشية

— ١ —

اعتراف زليخا للنسوة

لقد أرادت امرأة العزيز أن تبرهن للنسوة ثقتها بهن فقالت لهن أريد أن أدلي اليكن بحدث خطير ، ارجو أن يكون سراً ، تحت طي الكتمان ، فأنتن لستن ممن ساحر بالاسرار السائدة ، نعم سأعلمكن بحلية الواقع ، مما كان مني ومنه ، وأما ما كان مني ، فهو انى كنت سلمت أمري لعواطفي فراودته عن نفسه ، وأما ما كان منه ، فانه سلم أمره لعقله لذا فقد استعصم ، متعللاً بأن سيدي « العزيز » أحسن مثواه ، مع ان إحسان سيدي العزيز لمثواه كان بواسطتي ومباشرتي ، ونحن

إنا أحسنا له وأكرمنا مثواه ، ليكون طوع إرادتنا ، فما تصورناه نحن (سيداً) ، تصوره هو (مانعاً) ! فيا للعجب من هذا العبد المتمرد ! ولا بد أن أصحي كل افكاري وتدابيري وقواي في سبيل الوصول الى رغبتي منه الخ مالها من قول هراء كما سيأتي .

ولنا هنا ملحوظات أربع

زيادة قحة زليخا

الملحوظة الاولى — جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه، ولكن مقتصراً على ما يجوز ذكره شرعاً ومروءة، امتثالاً لقول القائل

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق

إنما هذه المرأة زادت في القحة ، فنقضت لهن جملة حالها ، فذكرت ما الأفضل عدم التصريح به ، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله ، كما ورد في الحديث الشريف

عدم صبر النساء على حفظ الاسرار

الملحوظة الثانية — كانت سمعت ان النسوة المصريات وقفن على حادثتها ، ثم دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمهن على يوسف بأنه ليس من نوع البشر ، بل من نوع الملائكة ، فعلمت من هذا انهن صرن شريكات لها في حبه ، ولا بد أن يكن قد عذرنها في شغفها به وأخيراً رأت ان تلك الجلسة السرية انتقلت من جلسة صافية الى جلسة غرامية ، وهي قديماً تعرف ان المصدور يرتاح لبث شكواه لمن يخفف عنه لذا رأت ان سلسلة هذه الاشياء ، تصلح ان تشكل سبباً لبوح « اعترافها » بالحب أمام هؤلاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين « الاعتراف»

بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكتم ، وأخيراً فضلت أن تبوح لهن بما كان ، وقد اعترفت لهن بذلك،لأن النساء أقل صبراً على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال ، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه ، ولعل أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة ، والانسان إذا أعجزه أمر أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه به ، فامرأة العزيز لما أعياها أمر يوسف ، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات ، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه

اعتراف فاسقة لفواسق

الملحوظة الثالثة — إن قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) هو « اعتراف » منها بالخطيئة ، ولكنه ليس « اعترافا » أمام رجال دين مسلم ، توصلاً للتوبة عن ذنبه إلى الله ، ولكي يحرر ذلك الرجلُ الديني المعترف بالكفارة التي تحب لهذه الخطيئة ، كما أنه ليس « اعترافاً » لرجل دين مسيحي ، توصلاً لمغفرته تلك الخطيئة ، وإنما هو « اعتراف » فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً

الاعتراف السري

الملحوظة الرابعة — لا شك في أن اعتراف زليخا للنسوة بمراودتها ليوسف وباستعصامه كان ضمن دائرة الأسرار ، وتحت طي الخفاء ، عن كل ما عدا هؤلاء النسوة المدعوات ، لأنه سيأتي اعترافها جهراً بهذه الحوادث في جلسة التحقيق ، على ذ مندوب الملك ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في الكلام على الآية (٥٢)

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)

— ١ —

قالت الخاتون ماهتاب الشيرازية (١)

انذار يوسف ووعيده

تعلمون أن امرأة العزيز كانت أولاً راودته ، ورأت منه كل الاباء والامتناع فتركته وتناست هذه الفكرة ، ولكن شهوة النفس وعواطف أمثال هذه المرأة ، وعزة المنصب وعبودية يوسف في بيتها — أمور دفعتها لتعليل نفسها بالأمل، وسهولة حصولها على رغبتها ، لا سيما إذا اسمعته إرعاداً وإبراقاً ، والحب يهون على صاحبه كل عسير ، حتى يريه القصور مبنية في الهواء ، فلذلك هي تقول الآن موجهة خطابها للنسوة ، وعلامات الاهتمام ظاهرة على وجهها يمازجها شيء قليل من الحياء لئن لم يفعل ما آمره به ، ولم ينزل على حكمي وارادتي عاجلاً أو آجلاً ، ليكونن عرضة للجزاء الصارم بالاعتقال في (المطبق) والاهانة والذل، حتى ولو كان هذا الجزاء مخالفاً لقانون الجزاء المصري ،الذي هو بالعكس يتفل ويهين من يفعل ذلك، وآخر الدواء الكي ، وإني لقديرة أن أرغم هذا الفتى بالقوة ، وأصل إلى ما أريد منه بالقسر بدون احتياج إلى ترغيب وتشويق ، كما قال الشاعر

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً ، لم يغتنمه سؤالا

وكم مرمر معيشتي بعدم انصياعه لميولي ، فإن هو بقي مصراً على إبائه ، ولم يختم رواية حبي له بما أريد ، فإني سأعامله بالمثل ، وأمرمر معيشته ، بسجنه وصغاره ثم قالت وصوتها يرجف ، وجوارحها ترتعش ، أنا والله لست مغلوبة لمن هو

---

(١) نسبة الى شيراز احدى مدن ايران

في يدي ، وتحت أمري ، وضمن قصري ، وقد اشتري بدراهما ، وعُدي بخراسا فهو أصغر من أن يثار على محالفتي ، وأنا أكبر من أكون مقهورة باستبداده

وإني سوف لا أستصعب أمراً في سبيل الحصول على عرضي من هـذا الفتى العبراني ، بخلاصه من دخول الحبس ، وشموله بالصغار معقود بتنفيذ ما أريد منه وإلا عوقب بيد مبسطة ، ولسان منطلق

هذا مرمى كلامها الروحي مع هؤلاء النسوة ، وهكذا قضين سحابة ذلك اليوم وهن في أحوال متناقضة ، في أفراح وحراح ، في عتاب وتراض ، في اندهاش وانتعاش ، في إرعاد وإبراق ، ووعيد وتهديد ، في أمل ويأس ، ثم ختمت تلك الجلسة النسائية ، وحضرن للقيام ، وودعن امرأة العزيز ، وهن يُحسِسن بألم سهم الفراق وقبل أن أنهي خطابي أذكر الدقيقتين التاليتين

وعيد زليخا ليوسف دون وعده

الدقيقة الأولى — ترى أن زليخا أوعدت يوسف بشقاوة مستقبلة إن لم يخضع لأمرها ، بقولها « وإن لم يفعل الخ » ، ولكنها لم تعده بسعادة مستقبلة ، إن أطاعها وطاعها ، لأنه من جهة حاصل في بيت « العزيز » على كل سعادة ، تليق بواحد مثله ، ومن جهة ثانية ، هي تعلم ترفعه عما عساه أن يصل اليه من السعادة على يدها ، فرأت انه لا يجدي معه وعدها ، بل وعيدها ، وانه لا يؤثر عليه بشائرها ، بل انذاراتها

دلائل عود زليخا وشموخها

الدقيقة الثانية — كانت « امرأة العزيز » سيدة بذه الذهاب نفسها ، مُدلّة بجاهها وبعودها ، مستبدة في آرائها وأفكارها ، معلقة على سيدها ، ألا ترى الى

صراعته لها بقوله « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ؟

ألا ترى الى شدة وطأة انتقادها على سيدها كما ورد في سفر التكوين من قولها « قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا » ؟ (تك ٣٩ ١٤)

ألا ترى الى أنها لحقته لما هرب ولم تبال برؤية الجواري وبحوهن لها وافتضاح أمرها عندهن ؟

ألا ترى الى نقل اقتراحها واستبدادها أمام سيدها ، إذ قالت له كمحتكم مستبد « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ؟

ألا ترى الى سيدها ، حينما بت عليها « الجرم » لم يقاصصها إلا بقوله « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » وقوله « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ؟

ألا ترى الى وقاحتها إذ قالت بمسمع ومرأى من السيدات المصريات ، وربما كان واقفاً عندئذ بعض الجواري « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ؟

ألا ترى الى استهانتها بوصاة سيدها واستبدادها في الحكم إذ قالت « وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين » ؟ تتوعده بما كان هي حقيقة به ؟

واخيراً الا ترى الى صراحتها واعترافها أمام مأمور التحقيق ، المندوب من جانب الملك ، إذ قالت « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ، ثم قالت « وما ابرئ نفسي » ؟

فهذه المواضع ناطقة بأن هذه المرأة كانت شامخة مستبدة .

« مرحى »

المناجاة

(٣٣) ﴿ قالَ رَبِّ السِّجن إلىَّ مما يَدْعُونَنى إليه ، وإنْ لا تَصْرِفْ عني كَيْدَهُنَّ أصْبُ إلَيْهِنَّ ، وأكُنْ من الجاهلينَ ﴾

ت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثلاثون فقامت الآنسة سليمة العلمكية وقالت

سمع يوسف كلام « امرأة العزيز » وتهديدها له ، فالتجأ إلى ربه ، و (قال) يا (رب) الذي إليه التجئ وبه اعتصم (السجن احب إلي مما يدعونني إليه) أي أحب إلي من ركوب المعصية — لأنه وإن يكن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه فيه لذة عظيمة ، لكن تلك المشقة آثر عنده نظراً لحسن الصبر على احتمالها في وجه الله ، ونظر القبح معصيته ، وعبر بكلمة « يدعونني » على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن سكتن على كلام امرأة العزيز ، والسكوت رضاً ، بل كن بحالة من يدعو إلى الفحشاء ، ورب حال افصح من مقال ، ومن استحسن عملاً قبيحاً فكأنما عمله — ثم قال يوسف ادعو لي يا مولاي أن تصرف عني كيدهن صرفاً مستأصلاً دائمياً ، حيث إذا قصر اليوم لا يعث غداً ، (وإلا تصرف عني كيدهن) بألطاف الإلهية ، وعصمة الربانية (اصب) اي أمل (اليهن) — والصبوة الميل إلى الهوى — فإني لا املك من القوة إلا معونتك (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه ، هو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء ، والحكم لا يفعل القبيح

(قال رب ، السجن أحب الي مما يدعونني اليه)

— ١ —

قالت الآنسة جهينة الحمصية

مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه

رأى يوسف تلك الحملة النسائية الخطيرة ، وسمع فيها كلام « امرأة العزيز » وتهديدها وإنذارها الشديد ، وممالأة « النسوة » لها عليه بسكوتهن على ما قالته ، فعلم أنها تريد أن تبعث مسألة « المراودة » من قبرها ، رغماً عن نهي « العزيز » لها فرأى نفسه انه على شفا حفرة من التهمة ، وأنه ليس بينه وبين وقوع « الكيد » عليه ، من هؤلاء الكواعب إلا كلفتة الجيد ، فقال في نفسه ليت شعري أُراجع مَن مِنْ أهل البلاط في شأنها ، واقتراحاتها الساقطة ؟ فهل أراجع سيدها عزيز مصر ، وأخبره بأنها لم تسمع صوت أمره لها ، ولم ترضخ لنصحه ؟ أو يا ترى أراجع مليك مصر « الريان بن الوليد » ، وأحيطه علماً بسلسلة هذه الحوادث ،التي جرت وتجري في مملكته ، بغير علم له بها ؟ ومَنْ لي بأن أقف ماثلاً بين يديه ، حتى أنفض له جميع ما في صدري ؟ لا لا لا لزوم لمراجعة عزيز مصر ، ولا ملك مصر ، ولكني أراجع العزيز الحقيقي المطلق ، عزيز كل الأمصار ، وملك الملوك الحقيقي الأكبر ، ملك الأرض والسموات ، وهو « الله » سبحانه وتعالى ، فيارب ، يا الله ، إليك أتوجه بعرض حالي ، وإليك أضرع بمقالي ، يا رب ، أبعد عني هذه الفتنة العمياء ، وغير قلوب هؤلاء النسوة،ليرجعن إلى طاعتك ،ويشعرن بفظاعة الأمر ، الذي هنّ عازمات على ارتكابه

يا رب ، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه الأشراك، واحفظ عبدك يوسف

من دهائهن وحيلهن ، نجّنِ يا رب على هذا المسكين الغريب ، هذا المسكين الذي ليس له ملجأ إلاّ ك ، أنت ملجأ اليائسين الضعفاء فاحفظني من كل سوء وتجربة ، وحقاً إني أفضل المعتقل المظلم على القصور المتلألئة بالأنوار ، فإن كان لا بد من الإعتقال ، فلهو خير لي مما يرغبن إليّ فيه ، ولو قضيت فيه سحابة عمري ، ولا يهمني مفارقة القصر المنير ، إلى سجن مظلم،فقد عافت نفسي القصور ،ومايحف بها من أسباب الفتن والفجور

هذا ما حُدِّثتُ به أيها السادة، ان هذه المعاني حاكت في صدر يوسف (ع) فجعل يناجي بها ربه سبحانه وتعالى

(قال رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه)

— ٢ —

وقالت الآنسة خيرية الريحاوية (١)

سبب سكوت يوسف في حفل النسوة المدعوات

نتعلم من كتاب الله تعالى أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة ، كان ساكتاً ، لم يبادل الحديث ، لا مع النسوة المدعوات ، ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة ، ونعلم أن ذلكم السكوت زاده رفعة في أعينهن ، وزاده هيبة في قلوبهن ، فالصمت يرفع منزلة صاحبه ، وكثرة اللغط تقلل من مهابته ، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل ، فكيف والجليسات في تلك الحفلة اناث لا يليق بذي المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن ، ولكن يصمت عن محادثتهن، فلذلك وحيث ان العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة ، بقي يوسف ساكتاً ،

١) نسبة الى اريحا من بلاد فلسطين

حتى سمع إنذار « امرأة العزيز » إياه ، فأوجس منها خيفة ، وخشي أن تصيبه من حتلها دائرة ، لأنها تقول وتفعل ، وكابد في نفسه ألماً ممضاً ، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه ، غير عين واحدة ، وهي عين الله تعالى ، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء ، وشخص لجهة العلو ، وقال وفي صوته غنة الضراعة ، والذل يا رباه ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه

(قال رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

— ٣ —

وقالت السيدة سعدى العكية (١)

كيف كانت مشقة نزول السجن أحب إلى يوسف مما يدعوه النسوة إليه

لي هنا كلمة مختصرة في هذا الموضوع، يقول يوسف الصديق (م) «السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » وقد استشكلوه بأن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه النسوة إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ وأجابوا عنه بأنه كانت المشقة أحب إليه وآثر عنده ، نظراً فى حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفى عاقبة كل واحدة منها ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها

وهو جواب حسن جداً ، ونحن نزيد على ذلك بأن هذا أسلوب عربي مألوف ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أقول عليه ما لم يقل » ، مع أن كلاً من الخرور من السماء والكذب على النبي ﷺ مبغوض للنفس والشاعر العربي يقول

---

(١) أي بلدة عكا من بلاد فلسطين

لنقلُ الصخر من قلل الجبالِ　　أحب إليّ من مِنَن الرجالِ

على أن أصحاب النفوس الملكية العالية ، يرون ان الفاحشة مرة الطعم جدا ، وعليه فالمعنى خامص السجن ، أحب عليّ من مرّ الفاحشة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، على أنّ أحد المحاضرين قد بين فى خطابه ان في السجن فوائد جمة ، لا يستهان بها ، وقد سمعتموه آنفاً ، « وما بالعهد من قِدَم »

(قال رب ، السجن أحب إلي مما يدعونه اليه)

— ٤ —

ثم قامت السيدة علية الحجية وقالت

لماذا نسب يوسف الدعوة لجميع النسوة

نسمع يوسف يقول « يدعوني » بصيغة الجمع ، مع أننا نعلم أن التى دعته إنما هي واحدة ، وهي مولاته « زليخا » ، ونرى انه كثر فى هذه السورة كغيرها إطلاق الجمع على المفرد ، لعلة من العلل المناسبة لكل موضع ، وفي بيان ذلك أربع احتمالات

الاحتمال الأول ان المراد من قوله تعالى « يدعونني » هو امرأة العزيز خاصة، لأنها هي التى دعته للفحشاء، كما حكاه القرآن الكريم عنها، ولم يحك ذلك عن غيرها من النسوة وأما ما حكي من انهن قلن ليوسف «أطع مولاتك» أوأنهن طلبن منه كما طلبت، أو ان الطلب كان منها خاصة، وهن مالأنها على طلبها، فهو افتراء على هؤلاء النسوة، وهتك سترهن، بما لم يثبت عنهن، وعندنا ان من نسب إليهن ذلك القول، قد أتولهن ما لم يقلن، ونسب إليهن مالا يجوز نسبته إلا بحجة وبينة وقوله تعالى ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ (آ ٣٥) وما رأوا سوى آية واحدة ، وهى القميص ، وقوله تعالى ﴿أضغاث أحلام﴾ (آ ٤٤) وما هو إلا حلم واحد ، وقوله تعالى ﴿فأرسلون﴾

(آ ٤٥) خطاباً للملك الريان ، وقوله تعالى ﴿ لعلي أرجع الى الناس ، لعلهم يعلمون ﴾ (آ ٤٦) والمراد من الناس الملك الريان أيضاً وقوله تعالى ﴿ إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه ﴾ (آ ٥١) والتي راودته هي امرأة العزيز خاصة ، فهي التي راودته في بيتها وهي قالت « أنا راودته عن نفسه » ، ولكن اتى هنا بصيغة الجمع ستراً عليها ، وقوله تعالى ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ (آ ٥٥) أي ناظر خزينة ، وهو وزير المالية ، وفي غير هذه السورة قال تعالى ﴿ وَنحْنُ الوارثونَ ﴾ (١٥ ٥٣) وإنما هو إلـه واحد ، وقال تعالى ﴿ رَبِّ ارجعُون ﴾ (٢٣ ١٠٠) قال (في فقه اللغة) « من سنن العرب الاتيان بالجمع مراداً به الواحد» ، كما قال تعالى شأنه ﴿ ما كانَ للمُشْركينَ أنْ يَعْمُروا مساجدَ اللهِ ﴾ (٩ ١٨) ، وإنما أراد المسجد الحرام ، وقال عز سلطانه ﴿ وإذ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارَأْتُم فيها ﴾ (٢ ٧٢) ، وكان القاتل واحداً وهكذا قال في (العقد الفريد) ومثّل له بقوله جل جلاله ﴿ نادَتْهُ الملائكةُ ، وهو قائمٌ يُصلّي في المحرابِ ﴾ (٣ ٣٩) ، والمراد بالملائكة جبريل فقط وقوله سبحانه ﴿ إنَّ الذينَ يُنادونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ أكثَرُهُم لا يَعقِلونَ ﴾ (٤٩ ٤) وإنما هو رجل واحد من بني تميم

وفي القاموس إن « المدائن » هي مدينة كسرى قرب بغداد ، وسميت بذلك لكبرها والخلاصة ان هؤلاء النسوة المرسل إليهن باسم الضيافة ، لم يطلبن من يوسف شيئاً ، مما يقال عنه « سوء وفحشاء » ، كما طلبت امرأة العزيز ، نعم إنهن يلاقين معها في نقطة واحدة ، هي الانتهاج بحسن يوسف ، والاعجاب بجماله وجلاله ، وإنما قال « يدعونني » بصيغة الجمع ، ستراً على سيدته زليخا ، فهو لم يرد أن يطعن سيدته في صدرها ، ولكنه لمس حاشيتها فقط ، وذلك لأنه لم يذكر شخصها في دعائه ، بل لفّها في مجموعة النساء وجنسهن ، والسامع أدرى بمراد المتكلم

الأحتمال الثاني – وهو انه حينما قال « يدعونني » ، لا يصف امرأة العزيز فقط ، ولا يحكي عنها فحسب ، ولا يتكلم عن شخصية هذه المرأة ، وطبيعتهـــا الخاصة بها ، ولا ينعت واحدة مخصوصة ، لأن الأشخاص تفنى وتزول ، وإنما نصف « نوع الإناث » الذي نبقى ويدوم ، نصفه ان هذا شأنه نصف الحيـاة النفسية لـكل شابة ،ويحكي عن الحالة الغرامية لـكل ذات هوى ، هو نتكلم عن النوع بأن شأنه ما ذكر ، وهو دعوتهن للشبـان ، شنشنة أخذمية ، وعادة كالطبيعة الثانية ، فـكل امرأة لا بد أن يملكها الهوى ، وتؤثر عليها عاطفة الغرام ، نقول « كل » ومرادنا الـكل المجموعي لا الجميعي ، والا فيوجد في هذا النوع أفراد ، هن كملائكة الرحمة ، طهارة وقداسة ، وما من عام ّ إلا وخُصّص ، فأرجو من السيدات عدم مؤاخذتي

الاحتمال الثالث – وهو انامرأةالعزيز دعته بلفظهاالمسموع بالآذان ،وأما النسوة المصريات ، فدعونه بسكوتهن على طلبتها نعم كنّ صامتـات ، ولكن نفوسهن الصامتة ، كانت تنطق بلسان الحال ، لسانِ الموافقة ، فهو سَمِع نفوسهن الصامتة تتطلب سراً ، ما تطلبه زليخا جهراً ، ولـكن حلّ السكوت محل الـكلام ، « ولسان حالي بالشكاية أنطق » ، « ورب حال أفصح من مقال » امرأة العزيز نطقت بدعوته صريحاً علناً بمرآى ومسمع من النسوة المصريات ، فلم ينكرن عليها ، ولم يلمنها ، ولم يصلنها ، كما سبق انهن حزن على ذلك في عيبتهـا قبل دعوتهن عندها ،وقبلما يرين يوسف وجماله ، فسكوتهن على كلامها ، بعد موافقة لها ، فصار ذلك من قبيل الاجماع السكوتي ، فلهذا نسب يوسف الدعوة اليهن ، وعندي ان إنكار نسبة الدعوة للجميع ، مع سكوت النسوة على كلام زليخا ، فهو من قبيل الانكار للاجماع السكوتي ، وإلا فما الفرق ؟ امرأة العزيز تكلمت وزعمت وتوعدت ، والنسوة سمعن هذا المنكروسكتن عليه وقررنه ، فهن لم تؤيدن شرعة

العفاف ، ولم ينكرن الباطل ، فجُعِلن بسكوتهن وإقرارهن مشاركات لها في الدعوة للفحشاء ، وصارت هذه الدعوة مجمعاً عليها إجماعاً سكوتياً من هؤلاء النسوة ، جميعاً ، المتكلمة منهن والسامعات

وعلى هذا المذهب قوله تعالى ﴿إذ قالوا لَيوسُفُ وأخوهُ أحبُّ الى أبينا منّا ونحنُ عُصبة الخ﴾ وظاهر ان هذا القول لم يصدر من كل فرد من إخوته العشرة ، ولكنه صدر من البعض ، وأقره البعض الآخر ، فنسب لجميعهم ، وكذا نرى الله تعالى ينقل عنهم انهم قالوا ﴿اقتلوا يُوسفَ أو اطرحوهُ أرضاً﴾ ، ولم يصدر هذا القول إلا من البعض ، قيل إن هذا البعض هو « شمعون » ، قاله وأقره آخرون من إخوته ، ولم يقله جميعهم ، إذ قال يهوذا « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب إن كنتم فاعلين » ، وسبق النقل عنهم انهم قالوا « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف »وانهم قالوا « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق » وظاهر ان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وسبق ان « نسوة المدينة » لما رأين يوسف « قلن حاش لله ، ما هذا بشراً » وطبعاً لا بد أن يكون هذا القول إنما صدر من البعض ، لا من الكل ، وهكذا يقال فيما سيأتي من قوله « قالوا أضغاث احلام الخ » وقوله « سنُراوِدُ عنه أباه الخ » وقوله « قالوا يا أبانا مُنِعَ منّا الكيل » الى ما لا نهاية له في كلام الله تعالى من هذا القبيل ، فغنيّ عن البيان ان هذه الأقوال عادة وعرفاً إنما تصدر من البعض ويقرها الباقون ، ويصح هذا الاقرار نسب القول للجميع ، لأن السكوت موافقة واعتراف ، فكيف وقد زاد هؤلاء النسوة على المشاركة السكوتية المشاركة الفعلية ، بالحث والغزل ، فلذلك اعتبر يوسف انهن دعونه جميعاً ، فقال « يدعونني » ذاكراً انهن دعونه ، ونسب اليهن كيدهن إياه ، لأنه يجب على من سمع او رأى منكراً أن ينكره وينهى عنه ، فاذا قصر في العظة والإنكار ، كان شريك الفاعل فيما هو بصدده

الاحتمال الرابع — جرت العادة منذ القديم الى اليوم ان كل عمل وقع من فرد من أفراد «أمة» أن ينسب ذلك العمل للأمة ، وكل فعل صدر من فرد من أفراد «نوع» مثلا أن ينسب ذلك الفعل لكل النوع ، وهكذا ، جريا على قاعدة التضامن والتكافل ، فما حصل من شخص من بلد نسب ذلك الحاصل لأهل تلك البلد ، وما صدر من انسان من قبيلة ، نسب ذلك الصادر لتلك القبيلة ، وهلم جرا ، وعليه تتخرج آيات كثيرة فى كتاب الله تعالى ، وذلك كقوله تعالى ﴿ وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارأتُم فيها ﴾ (٢ ٧٢) وقوله تعالى « وَظَلَّلْنا عليكُمُ الغَمامَ ، وأنزلنا عليكُمُ المنّ والسّلوَى ﴾ (٢ ٥٧) ، وقوله تعالى ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لَن نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ ٦١) وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ اتَّخذتُم العِجْلَ مِن بعدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ (٢ ٥١) ، وقوله تعالى ﴿ وإذ قلتم يا موسى ، لَن نُؤمن لَكَ حتى نرى الله جَهْرةً فأخَذَتْكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظُرونَ ، ثم بَعَثْناكُم مِن بَعدِ موتِكُم، لعلكم تَشكُرونَ ﴾ (٢ ٥٥ و ٥٦) ، الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، مما نسبه ليهود المدينة المنورة، المعاصرين لحضرة صاحب الرسالة (ﷺ) ، مع ان هؤلاء اليهود اليثربيين المعاصرين للنبي (ﷺ) المخاطبين بهذه الخطابات لم يفعلوا شيئاً من ذلك وانما الذين فعلوه آباؤهم ونسبة للذرية لأنهم «امة» متكافلة متضامنة ، مرتبط بعضهم ببعض فالهاوما عليها ؤلاء اليهود فى المدينة لما كانوا عربا أو متعربين، وكانوا يفهمون الأساليب العربية التى نزل بها القرآن الكريم لم ينكروا على النبى (ﷺ) شيئاً مما سمعوه ، فهذا لما دعت زليخا يوسف ، نسب الدعاء لعموم هؤلاء النسوة ، اللاتى كن حاضرات إذ ذاك ، والله تعالى اعلم.

ولم تكد السيده علية المحجمة تنتهى من مقالها حتى قامت السيدة لمياء الدمشقية وقالت

انى لا انتقد الاحتمالات الأربع التى جادت بها اختي المحترمة السيده علية ، بل

أسلم بها تسليماً ، ولكن عندي احتمال خامس ، جرى عليه المفسرون قبلنا ، وذلك انه يظهر من قوله « رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن » ، ومن قوله « فصرف عنه كيدهن » ، وقوله « فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » — يظهر من هذه الأقوال الثلاثة ، ان النسوة المصريات كنّ دعونه لإطاعة مولاته زليخا ، والنزول على إرادتها ، على ما قاله علماء التفسير ، والقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة ومن المعروف ان المعنى يلتقط من مجموع الجمل ، المساندة بعضها لبعض ، أقول هذا ، راجية من اختي السيدة علية أن لا تؤاخذني ، والعلم مائدة مباركة ، تقتضي المشاركة ، وكلنا يصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء

(وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن ، واكن من الجاهلين)

— ١ —

وقالت الآنسة أميمة الحلبية

استغاثة يوسف ربه لحمايته من الانعطاف للنسوة

يقول الصديق (ع) ها أنذا ، سأدافع عن ديني وشرفي ومروءتي جهد طاقتي إلى آخر نسمة من حياتي ، ولكن واحسرة من اعتمد على قواه ، تاركاً مولاه ، فلذلك أسألك يارب أن تمدني بالتوفيق، وتصرف عني بألطافك مكر هؤلاء النسوة نعم ، إني لا أبالي بهن ، ولا بجمالهن وزينتهن ، ولا أحسب لهن حساباً ، ولا أقضي لواحدة منهن وطراً ، ولا أشعر بانعطاف نحوهن ، وميل اليهن ، ومع كل هذا ، فلست اعتمد في السلامة من فتنتهن على نفسي ، بل عليك يا رب أعتمد ، وبك أتحصن ، وإليك التجيء ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله

فلا تتركني لنفسي فواقاً ، ولا لفتة جيد ، بل ولا طرفة عين ، وإنما ساعدني بألطافك الخفية ، وإلا فأنا في خطر من الوقوع في براثن هؤلاء الثعالب

حل بيني وبين حتلهن ، وأوزعني كيدهن ، وإلا ذهبت عفتي أدراج الرياح ، وقلت قيمتي التاريخية المعنوية ، كما كانت قلت قيمتي الذاتية ، حينما اشتريت في هذه الديار المصرية

أنا الآن أسحر من كل القلوب التي تميل مع الهوى ، وأضحك على كل فتى شاب ، يستسلم لفتاة شابة ، ولكني أخشى على قلبي ، إن لم يكن محفوفاً بألطافك الربانية ، وأتخوف على نفسي إن لم تكن محوطة بعصمتك الصمدانية ، وفي الحقيقة أنت عصمتي التي اعتصم بها ، وأنت حماي من غوائل الصبوة وشرورها

يا رب ، إن لم تدركني بالعفة أذق وأمل نحوهن ، وأنعطف عليهن ، وإن لم تسعفني بحمايتك أدن فيهن ، وتحن حوبي بهن ، وإن لم تحمني بالعناية ، أقع في فخوخهن ، وأعلق بشباكهن ، ويصرن عثرة في سبيل طهارتي ونزاهتي ، وتتسلط على قلبي ، فإنهن الخطر العظيم ، الذي يحيط بالمرء من كل جانب ، ولا يعرف له سبيلاً إلى الخلاص منه إلا بعونك ، وهن المغناطيس الجذاب ، الذي يستهوي قلب الناظر إليهن ، وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، إلا إذا أدركته مساعدتك ، فاصرف عني حتلهن ، ، وردّه في نحورهن ، وإلا أمل نحوهن ، وأكن من المأفونين ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن دائرة الضعف (بالحس اللطيف) مرنة ، تسع كل من لم يلطف به ربه ، ولم يصرف عنه أسباب الهوى والغرام

يا رب ، أنا إنسان ، لا ملَك ، حساس ، لا جامد ، في شرخ الشباب ، لا هرم ولا شيخ ، مركب من مادة وروح ، لا روحاني فحسب ، قابل للاقتران والتناسل ، لا حصيّ ولا عقيم ، والحاصل أنا بشر كسائر الناس ، وغاية الأمر أني

معصوم ، ولكن هذه العصمة ليست لي ، ولكنها بك يا الله ، فاحفظها عليّ ، بلطفك الخفي ، فأنت الحفيظ اللطيف

فهذا الالتجاء ، وهذه الضراعة ، هو كل ما أملك اليوم ، فاستجب لي يا رب ولا تردني خائباً ، فوالله لوددت أن أكون تراباً ، ولا أسمع من هذه المرأة ماسمعت من كلام الفحشاء والمنكر

هذا مرمى دعاء يوسف واستعاذته بربه سبحانه وتعالى، دعاه مخلصاً له ،لاجئاً إليه ، بعد أن عمل بما أمر الله به عباده على قدر الطاقة ، وبعد ما استعمل ما يصل اليه كسبه من الوسائل والذرائع ، التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة ، فهو في الحقيقة دعا ربه بلسان مقاله ولسان حاله معاً ، قال الشاعر

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

الدعاء الى الله تضرعا وخفية

تذييل اول — كأني بيوسف (ع) نطق بدعائه وهو يخفض صوته ،احتراما لمقام الربوبية وعملاً بالسراية السماوية، كما قال تعالى ﴿ أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٧ ٥٤) وفي بعض وجوه التفسير أن المعتدي هو من يرفع صوته في الدعاء ، وقال ﷺ « أيها الناس اربعوا على انفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »

الجاهلون هم العاملون بعمل الجهالة

تذييل ثان — « الجاهلين » هنا العاملين بعمل الجهالة ، لأن من عمل ما يؤدي

إلى الصرر في العاقبة ، وهو عالم بدلك ، أو طان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة والعلم ، ومنه قول الشاعر

على أنها قالت عشية زرتها　　　جهلتَ على عمد ولم تك جاهلا

وفي الحديث « ابن آدم ، أطع ربك تسمى عاقلا ، ولا تعصه ، فتسمى جاهلاً »

استجابة الدعاء

آ (٣٤) ﴿ فاستَجابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عنهُ كَيْدَهُنَّ إنّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام الحاج أحمد اللادقاني وقال

(و) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كسرور النار ، وحرقت الحجب ، حتى (استجاب له ربه) — وإنما عبر بالاستجابة التي تقتضي تقدم الدعاء عليها لأن قوله وإن لا تصرف عني كيدهن الخ) فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف — (فصرف عنه كيدهن ، وإنه) سبحانه (هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم

وهنا انتهى السادة ارمغما على ذلك الكلام المتعلق بهؤلاء النسوة ، وسيأتي على ممه عند قول يوسف ، ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة الخ »

(فاستجاب له ربه .)

— ١ —

وقال الميرزا حسين الأصفهاني [1].

أشكال الدعاء

دعا يوسف مولاه ، باستكانة وضراعة ، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر ، تتطاير إلى الأجواء العليا ، حتى قرعت صفحة السماء ، فسمعت الملائكة رنينها ، وعرضتها على ربه (وهو أعلم بها) فاستجاب له ربه دعاءه

والدعاء قد يكون صريحاً ، مثل « اصرف » و « لتصرف » ، وقد يكون بالثناء والمدح ، كما هنا ، لأن قوله « وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن وأكن من الجاهلين » ثناء يتضمن الدعاء ، وعلى ذلك قول الفقهاء « دعاء الثناء » وهو « سبحانك اللهمَّ وبحمدِك ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالى جدُّكَ ، ولا إلٰه غيرُكَ » و « دعاء الافتتاح » وهو - « وجَّهتُ وجهِيَ للذي فطرَ السمواتِ والأرضَ ، حنيفاً مسلِماً ، وما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي ونُسكِي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِ العالمينَ ، لا شريكَ له ، وبذلكَ أُمِرتُ وأنا مِنَ المسلمين » ، ومنه حديث « أفضلُ دعاءٍ قلتُه أنا والنبيونَ مِنْ قبْلي ، لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمد ، يُحيي ويُميتُ ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ » ، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء ان الثناء على الكريم يحمله على الاحسان كما قال الشاعر في عبد الله بن جدعان

(١) نسبة الى بلده أصفهان من البلاد الا

أأذكر حاجتي أم قد كفاني　　حاؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً　　كفاه من تعرضه الثناء

وقال تعالى حكاية عن يونس (ع) « فنادى في الظلمات أن لا إلهَ إلاّ أنتَ ، سبحانك إني كنتُ من الظالمين ، فاستجبنا له ، ونجيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين » (٢١ ٨٨،٨٧) وقد سماه النبي ﷺ دعاء ، حيث قال « من دعا بدعاء يونس استجيب له » ، وفي حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، وقال تعالى ﴿ وأيوبَ إذ نادى ربَّهُ أني مَسَّنِيَ الضُر ، وأنتَ أرحَمُ الراحمين ، فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضُرٍّ ، وآتيناهُ أهلَهُ ومثلهُم معَهُم ، رحمةً من عندِنا وذِكرى للعابدينَ ﴾ (٢١ ٨٤،٨٣)

(فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم)

— ١ —

وتابع المرزا حسين الأصفهاني قوله

استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه

دعا يوسف ربه ، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة ، حتى استجاب له ربه فوراً ، وفي أسرع ما يكون بدون أدنى تأخير ، وسرعان ما يستجيب الله للمخلصين من عباده !

فقال الله له لبيك ، فنعماً دعوت ، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب ، وحجر بينه وبين جنهن على ما رغب واطفأ الله نارهن التي كن أوقدنها ، لاستمالة هذا

الصديق الكريم ، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً ، ومن ذلك الحين صار يستهزىء بكل حيلهن ، ولقد قيل «من يهرب من أمام الحب هو الظافر»

دعا يوسف ربه ، فأحس بانبساط نفسه ، وارتياح ضميره ، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه ، (وقد ألقى اتكاله على الله) ، ومثل هذه الراحة لا تشعر بها غير أهل الإيمان الوطيد ، فإن أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، كما كان نبينا ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ، كما رواه البخاري في صحيحه

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف ، وخروجه من تلك التجربة ، شريفاً طاهراً ناصع الجبين ، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً ، وقال في نفسه (أحمد الله على ما حمني بلطفه ، فإن ما تَشْرَه اليه نفوس الناس ، لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته) ، وأخذ بعد ذلك يخدم في البيت كجاري عادته ، لكن مع التحفظ التام من زليخا ،

كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع أنه سجن بعد ذلك

ورب سائل يسأل ويقول كيف يمكن أن ندعي بأن الله تعالى صرف عنه كيدهن ، مع أنه سجن وصار من الصاغرين، كما سيأتي على الأثر ، تحقيقاً لإيعادها له بقولها «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين» ؟ فالجواب عنه ان سجنه لم يكن نتيجة انه لم يفعل ما أرادت منه،إذ هي ليس لها دخل في سجنه، كما سيأتي توضيحه وتدليله ، وإنما كان سجنه رأي «العزيز» وآله ، ورأى آل «زليخا» بدون حضورها ولا أخذ رأيها في هذا الشأن ، لأن سجنه كان لأجل إبعاده عنها ، ولأجل إلصاق التهمة به عند الجمهور ، فهم عملوا هذا العمل لأمرين،

كمن رمى حجراً ، فصاد صيدين ، وهدا سيأتي بيانه بما لا مريد عليه،وأماتوعدها له بأن يكون من الصاغرين ، فلم يقع ، لأن العبرة بالخواتيم ، وهو في الخاتمة كان من الكبراء المحترمين ، والأعزاء المعظمين ، ولا أدل على ذلك من كونه صار « عزيزاً لمصر » بدلاً من فوطيفار ، ووزير ماليتها ، ووكيلاً عن مليكها الأمر الذي به سقط « فوطيفار » ، فسقطت زوجه « زليخا » بسقوطه

— مرحى

الفصل الرابع

يوسف في السجن

(٣٥) ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ حتى حين ﴾

افتتحت الخامسة وتليت الآية الخامسة والثلاثون فقام العلامة الصعدي وقال

(ثم) بعد حين من الزمن ، بطن ان مقداره نحو ثلاث سنين ، أعني لما صار عمر يوسف نحو ٢٨ سنة، بفكروا فيهذاالحادث المشؤوم الذي حدث فيالقصر، وخافوا سوء مغبته ، وأن يفهم الجمهور أن المراوده كانت من طرف زليخا ، لا من جانب يوسف ، فأرادوا بعمـــية الأبصار ، وقلب الحقيقة ، و (بدا) أي ظهر (لهم) أي للعزيز وأهله وأقارب امرأتـــه وفي مقدمتهم ذلك

الشاهد الذي هو من أهلها ومع الأسف ان دلك الذي بدا لهم كان(من بعدما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته ، وما كان دلك إلا رعاية لمصلحتهم ،وستراً لما حدث من زليخا ، وقلباً للحقيقة (ليسجنه حتى حين)أي سجناً موقتاً روعيت فيه مصلحتهم الشخصية ، بينما تسكت عن زليخا الحب والغرام ، أو لبينما تموت تلك السيرة السيئة ، او حتى تثبت عند الناس ان الجاني هو يوسف لا غير ، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم طلبهم واستبدادهم ، لأن السياسة لبس لهـــا قلب ، وليس فيها شيء من الانصاف

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ١ —

وقال الشيخ منصور السوداني

لماذا سجن يوسف

لندع نساء مصر وقصتهن ، ونشرع في الافصاح عن الفكرة الجديـدة التي طرأت « للعزيز » ودونه

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر ، وتتطور تطوراً مدهشاً ، لأن « العزيز » قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وكان هو وقرينته زوجته من أنصار هذا « الصديق » الكريم، وكان مقتضى دلك أن لا تمس كرامته بشيء ،ولعمري إن هذا العمل الجديد من « العزيز » بعد أن انضحت له الحقيقة لهو منكر جداً ، غير أنه افتكر ان المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لـكي يقول من سمع بالحادث ، أنه سجن لأن المراودة كانت منه ، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى ، وبهذا يستريح « فوطيفار » فلا تشتغل

أفكاره فيها وفيه ، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه ، فأقدم على سجنه

نعم أيها السادة لم يكد يوسف يتوسم الراحة ، ويحيي الأمل ، بالخلاص من المكاره ، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى نعب بادخاله في السجن ، وكان أمر الله مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه ،ثم خلص من فتنة النسوةالمصريات ودعا ربه أن يصرف عنه كيد النساء فلبى طلبه ، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قدذللت كل عقبة في سبيل راحته ، ولم يكن يخطر له على بال انه سيدعى يوماً إلى السجن بعد ما تبرأت ساحته ، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف ، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها ، وما هو إلا أن يلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تسعر النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم ، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً



سُجن يوسف سجناً إدارياً ، عداءً وزوراً،بحجة أنه الذي تقتضيه مصلحتهم وتستدعيه السياسة ، وكثيراً ما ساقت هذه الفكرة الادارية الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم بالاعتقال في « الحرور » تارة ، وتحت بطن الأرض أخرى ، كما قضت على يوسف اليوم ، فسجنوه ليبرءوا ساحتهم ،ويطهروا شرفهم ، على حسابه ، وعلى حساب ظلمه والاساءة اليه

سجن يوسف حينما رأى « العزيز » نفسه كحجر بين مطرقتين ، فهو من جهة يريد أن يستر ، ويخفي قباحة زوجته بحبسه يوسف ، ليقال انه هو المجرم دونها ، ومن جهة أخرى ، هو ما زال يعتقد في يوسف البراءة الكاملة ، كما يعتقد ذلك

فيه صهره الرجل الذي هو من « أهلها » ولكنه لم يعدم حلاً لهذا المشكل ، فرأى أن سجن يوسف ، ولكن ليس فى سجن العامة، بل في سجن الأمراء والأشراف وليس سجناً مؤبداً ، ولكن سجناً مؤقتاً إلى حين من الزمن ، ثم يعاد إلى القصر أو يفعل الله ما يشاء

حالة يوسف عند دخوله السجن

كانت حالة يوسف عند دخوله السجن ، مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن فلكونه سجن ظلماً محضاً ، ولأنه سينجم عن سجنه سمعة سيئة ، عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وهم الجمهور من الناس وأما فرحه ، فلخروجه من بيت « فوطيفار » بيت الفتنة والأتعاب ، إلى بيت العزلة والراحة ، قائلاً في نفسه « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، فهو لذلك كان مسروراً (نوعاً) ، لا سيما وان سجنه كان على نوعٍ ما بسبب دعائه وطلبه إذ كان قال « رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه »(آ ٣٣) دخل السجن وهو ساكت صامت ، مع ان سجنه كان بدون إقامة دعوى ، ولا إثبات ريبة ما عليه ، ولكنه ماذا يصنع ، وخصمه حاكمه ؟!

★ ★ ★

قُضي الأمر وسُجن يوسف ! وصبر على هذه المصيبة التي نزلت به ظلماً وعدواناً ، صبر مترقباً من الله فرجاً قريباً ، وخلاصاً عاجلاً ، فلا بد من تغير الأحوال ، وان للدهر لدورة ، ولئن سكت الانسان ، فالدهر لا يسكت ، قال الشاعر

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبه
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن كل عجيبه

نتائج سجن يوسف

قضي الأمر وسُجن يوسف ! ولقد كانوا ظالمين له بسجنه ، ولذلك وقعت عاقبة ظلمهم على رؤوسهم ، فأما « العزيز فوطيفار » فانه نُحّي عن منصبه ، لحلوس يوسف الصديق محله ، بدليل ما نقرؤه في هذه السورة الشريفة،من أخذ يوسف لقب « العزيز » بعد ما كان لقباً لفوطيفار ، حتى أنه بعد ما أعطي يوسف «وزارة المالية » بمصر ، لم يرد ذكر لفوطيفار البتة ، بل أميت اسمه تماماً ، وأما « امرأة العزيز زليخا » فانها اضطرت أخيراً للاعتراف صريحاً أمام « مندوب » التحقيق ، فأعلنت أنها هي التي راودته عن نفسه، فكان في ذلك انكشاف سرها ، وانتشاره لدى الجمهور

★ ★ ★

قضي الأمر وسجن يوسف ! وكان سجنه هذا هو « الحلقة الأخيرة » من سلسلة ما انتابه من خطوب ، فمن فقد أم رؤوم ، إلى عنتة بين إخوة حسده ،إلى إلقاء في غيابة جب ، إلى تشريد واسترقاق ، إلى بيع في سوق الرقيق ، إلى خدمة وعبودية ، إلى تلويث عرض بلا حق إلى غياهب السجن

ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف هذا هو « الحلقة الأولى » من سلسلة أسباب رقيه لوزارة المال بمصر ، وانه « النواة » التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم ، ثم جاءت « ثمرة » رقيه العظيم

★ ★ ★

قضي الأمر وسجن يوسف ، ولكن كان هذا الاعتقال بحسب النتيجةمفيداً له ، وذلك بسبب تعرفه في معتقله برئيس السقاة الذي افاده الفائدة العظمى ،والذي كان خروجه من « معتقله » بسببه ، كما كان بواسطته قد وقف مليك مصر «الريان»

على ترجمة حال يوسف وفصله ، وأنه سجن عدواناً وهذا بخلاف ما لو بقي يوسف في قصر العزيز « فوطيفار » منعماً مرفهاً ، فان ذلك لا يفيده شيئاً ، ولا بقي في القصر ضعف ما لبث في السجن ، ولقد صدق من قال « رب محنة ، صمهامنحة » فعزيز مصر ، وإن يكن باقتصاره على قوله « يوسف أعرض عن هذا » بدون أن يبعده عن القصر لقصر آخر — يكون قد أساء ليوسف ، لأنه لم يبعده عن مواقف التعب كما انه بالعكس بفكرة سجنه إياه يكون قد أحسن اليه ، بحسب العاقبة ، وعليه فهو ما أساء إلا حيث ظن الاحسان ، وما أحسن إلا حيث ظن الاساءه

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ٢ —

وقال السيد عبد المحسن الصيداوي

لي ههنا ملاحظات تسع

متى سجن يوسف

الملاحظة الأولى التعبير بكلمة « ثم » يفيد أنه كان مضى زمن بعد تلك الحادثة المشئومة ، وكان هذا الزمن ليس بالقصير ، أي بعد ما مضى ما شاء الله أن يمضي من زمن فيه شيء من الطول ، فبدت لهم فكرة الحبس

مرادفات لفظ « بدا »

الملاحظة الثانية — من مرادفات « بدا » عرض ، ظهر ، خطر ، لاح ، بان حدث ، عنّ ، طرأ ، فمن التعبير « بثم » ومن هذه المفردات جميعها التى هي مرادفة

« لبدا » نعلم أن فكرة سجنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث ، ولكن بعدما مضى زمن من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه

من هم الذين « بدا لهم » سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك

الملاحظة الثالثة — نتعلم من كلمة « لهم » ان الذين استحسنوا سجنه كانوا جماعة ولعلهم فوطيفار وذووه ، ونظن أن فوطيفار جمع ذوي قرابته وقرابة زوجته وذاكرهم في شأن يوسف وسجنه ، فرأوا جميعاً ان المصلحة تقضي ذلك

ولسائل أن يسأل هل لامرأة العزيز دخل في سجن يوسف وانها اشتركت معهم في المؤآمرة ? والجواب ان جمهور المفسرين أو جميعهم فهموا أن لهـا ضلعاً ورأيا في سجنه ، بل هي التي كانت مهيجة وحاملة عليه ، بقرينة قولها سابقاً « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين »

وأما نحن فيظهر لنا أن لا دخل ولا رأي لامرأة العزيز فى سجن يوسف ، وأما توعدها إياه سابقاً بالحبس ، فانما هو من قبيل أقوال العشاق ،الذين هم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون

ولكن هذا الرأي حدث جديداً لنفس فوطيفار عزيز مصر ، ومن اليه من ذوي قرباه ، وذوي قربى زوجته ، ولنا على هذا عدة أدلة

١ً — قوله تعالى « بدا » لأن فكرة سجنه إنمـا بدأت في ذهن فوطيفار وذويه دون امرأته ، وأما امرأته فان فكرة سجنه لم تكن بدأت جديداً فى ذهنها ، بل هي بالنسبة اليها فكرة بعيده العهد قديمة ، اختلجت فى ذهنها مرة ، إذ قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ، أو عـــذاب اليم » ، وثانية إذ قالت « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » فهذه كانت فكرة شخصية فردية ترددت في ذهن زليخا قبل الوقت الذي ظهر لهم فيه استحسان سجنه

٢ً — إن الله تعالى قال « فصرف عنه كيدهن » ، فحيث أنه أبعد عنه مكر الماكرات ، لاجرم ان امرأة العزيز لادخل لها في سجنه ، بل هي بهذا الصرف السماوى ، تحولت هي وغيرها من مفسدات على يوسف ، لمسعدات له ، ولذلك سيأتي أنهن لم يتكلمن في شأنه إلا بالجميل الطيب ، حيث قلن ، « حاش لله ، ماعلمنا عليه من سوء » وتقول امرأة العزيز ، « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

٣ً — إن امرأة العزيز بظهور خيانتها سقطت من نفس العزيز ومن اليه ، فكيف فيما بعد يستأمنها ويشاركها في مدى كرة حبس يوسف، ولاسيما وأن سجنه كان لأغراض منها إبعاده عنها ؟

فيظهر من هذه الأدلة أن ليس لامرأة العزيز ضلع في سجن يوسف ، خلافاً لما ذكره المفسرون

هذا ، ومع كل ماذكر ، يحتمل أن يكون لزليخا دخل في سجن يوسف ، وأن صرف « كيدهن » عنه إنما هو من جهة ما يمس العرض لا مطلقاً

سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن

الملاحظة الرابعة — نرى أن العزيز ودونه لم « يبد » لهم أن يسجنوا يوسف بعد الحادثة الأولى التي جرت بين يوسف النزيه وزليخا الطموحة ، وذلك لأنها حصلت فى دائرة السكون وتحت طيّ الخفاء تقريباً ، وقد « بدا » لهم سجنه في الحادثة الثانية بسبب ماوقع للنسوة ثم لتصميم زليخا بكل شدة على فكرة المراودة — تكراراً — مهما كلف الأمر إذ بعـــد المفاوضة ظهر لهم ان المصلحة العمياء والسياسة الخرقاء تقتضي سجن يوسف ، فسجنوه ، وعلى العدالة السلام ، و « إن من الحسن لشقوة »

الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية فى عهد مليكها الريان

الملاحظة الخامسة — يظهر من قرائن الأحوال ، ومن أمثال هذا المقال ، أن الأمراء ووكلاء الدولة في مصر ، في ذلك العهد ، كانوا متمتعين بما يشبه «الاستقلال الإداري» ، فكان كل مأمور في الحكومة يحبس ويطلق ، حسبما تسول له نفسه ، ولذلك حبس يوسف بمجرد إرادة فوطيفار عزيز مصر ، فهو فاه بكلمة «ليسجن» فكان مسجوناً ، بدون علم مليك مصر الريان ، وبلا إقامة دعوى وثبوت جرم .

دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم

الملاحظة السادسة — نعلم أن دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ، ونعلم أن المدعى عليه في هذا النوع ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فان المتهم إما أن يكون «برّاً» ليس من أهل أمثال تلك التهمة ، أو «فاجراً» من أهلها ، أو «مجهول» الحال ، لا يعرف الوالي أو الحاكم حاله

فان كان «برّاً» لم يجز عقوبته اتفاقاً ، ولكن بالعكس ان الذي يعاقب هو المُتَّهِم فيعاقب صيانة لتسلط أهل الشر والعدوان ، على أعراض ذوي البراءة ، وإن كان المتهم معروفاً بالفجور ، كالسرقة وقطع الطريق والقتل نحو ذلك ، حُبِسَ ، وكذلك اذا كان المتهم مجهول الحال ، لا يعرف ببر ولا فجور ، فانه يحبس حتى ينكشف حاله ، ويتبين للحاكم أمره[1]

وغني عن البيان ان المدعى عليه هنا وهو يوسف هو من القسم الأول ، أي أهل «البر» الذين لم يعرف لهم عدوان ، فقد مكث في بيت العزيز نحو العقد من

(١) الطرق الحكمية

السنين لم يجترم فيها جريمة قط ، ولم يتهم بخيانة ، فيكون حبسهم اياه — على حسب هذه الشريعة — ظلماً محضاً ، وكان يجب اجراء العكس ، وهو حبس تلك المرأة التي اتهمته زوراً تأديباً لها ولأمثالها الشريرات أن يجسرن على أهل الفضل والدين، ولكن العزيز وما اليه اعتبروا يوسف من القسم الثالث وهو من كان « مجهول الحال » فسجنوه

بعض الانبياء والصلحاء الذين سجنوا

الملاحظة السابعة — هذا السجن الذي صار على يوسف يذكرنا سجن « يحيى الحصور » (ع) لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا ، وكذلك كان سجن « يحيى » بسبب اعتراضه على « هيرودس » لأنه لم يترك خطيئة الزنا مع « هيروديا » ، ويذكرنا بحبس « أبي حنيفة » أيام « المنصور » وحبس « الامام أحمد » أيام « المعتصم والواثق » وبحبس شيخنا « الشيخ عليش » وشيخنا « الشيخ حسن العدوي » في الحادثة العرابية و الخ والخ

تحسر يوسف وهو في السجن

الملاحظة الثامنة — كأني بيوسف الماسجن أمسى يقول أوهِ أوْهِ أوهِ ! اليوم يشاع عني مالا ينبغي ذكره ، ولا يليق بسمعتي ، فإنا لله ، كانت إخوتي تريد القضاء على « حياتي الجسمانية » والآن وقعت فيما ربما يقضي على « حياتي الأدبيـــة والأخلاقية » ، فما من يوم يمضي الا والذي بعده شرّ منه ، سلمت من الرماد فوقعت في ذات الجمر ، فان موت الجسوم ، أهون جداً من موت الشرف

أوهِ اوْهِ أوهِ ، إخوتي في بُلَهْنِية وترف عند أبيهم ، وأنا أتنقل من جب ، لبلاد غربة ، لسوق بيع الرقيق ، لبيت الخدمة والاستعباد ، واخيراً لأعماق السجون !!!

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

مكان سجن يوسف

الملاحظة التاسعة — قيل كان سجنه في « بوصير » من أرض مصر ، وأعمال « الجيزة » في أول « الصعيد » من ناحية مصر(١) وأما العاصمة في ذلك العصر ، فهي « صوعن » ويقال لها « تانيس » وهي في بحرية مصر الحالية ، وكانت على فرع النيل الطاني ، والى شرقها البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان »

السجن في زمن النبي والصحابة

الملاحظة العاشرة — على ذكر « السجن » — والشيء بالشيء يذكر — نتذكر أنه لم يكن الحبس في زمن النبي ﷺ هو الحبس في مكان ضيق مجعول لذلك خصيصاً ، كما هو الحال اليوم ، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء أكان في بيت أو مسجد ، أو كان بتوكيل الخصم أو وكيله عليه وملازمته إياه ، ولهذا سماه النبي ﷺ « أسيراً » أو باقامة حافظ عليه ، وهو الذي يسمى « الترسيم » ، وهكذا كان الحال في زمن ابي بكر (رض) فلم يكن له محبس معد لحبس الخصوم ، ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب (رض) ابتاع بمكة داراً ، وجعلها سجناً يحبس فيها ، وهي دار صفوان بن أمية ، اشتراها عمر بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً (٢) ، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان السجن سنة (٥٠) هـ ، وأما سجن يوسف فاسمه في العبرانية « السهَر » ومعنى هذه الكلمة برج مستدير كان يسجن فيه ، وكان جزءاً من « القلعة » التي كان فيها

(١) معجم البلدان

(٢) ابن القيم

« فوطيفار » بالنظر الى كونه « رئيس الشرط » ، هذا مافتح الله به على عبده الحقير ، وفوق كل ذي بصارة بصير

مرحى

ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين

— ٣ —

قال العلامة البيروتي

ما هي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

رب سائل يسأل ماهي هذه الآيات التي رأوها ؟ وكيف رأوها ؟ فنقول انهم رأوا بعضها رأي العين وبعضها رأي الأذن وبعضها رأى العقل والتجربة ، فمما رأوه رأي العين كون القميص قدّ من دبر ، ومما رأوه رأي الأذن اعترافها أمام النسوة يوم أن دعتهن بانها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، ومما رأوه ، رأي العقل والتجربة هو ماجربوه على يوسف من حسن السلوك وكرم الاخلاق والأمانة في العمل ، حينما كان فى القصر وكيلاً عن العزيز في وارداته ، ومصروفاته، فهذه ثلاث آيات ، والآية الرابعة انها لم تدافع حين قال « الشاهد » « وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » بان تقول مثلاً « هذا لا يدل دلالة قطعية على كذبي وصدقه ، وعلى أني كنت تابعة له من ورائه ، لاحتمال أنه عثر في مقادم قميصه حين إسراعه فانقد » أو تقول « إنه قصدني وطلبني فعصيت عليه ، فهرب ، فعدوت خلفه وجذبته لكي أضربه ضرباً موجعاً . فتمزق قميصه من دبر ، وأنا البريئة وهو المجرم» ، فلما لم تقل ذلك ، تبين أنها هي الطالبة للفحشاء

والآية الخامسة سكوتها حينما سمعت قول العزيز « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » وقوله « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، فسكوتها

وعدم دفاعها عن نفسها حينما سمعت هذا القول هو آية باهرة على براءة يوسف كما قيل « السكوت إقرار »

والآية السادسة هي ما كان يلوح على وجه امرأة العزيز نحو يوسف من الحب في بحر هذه المدة ، ثم ما كان يلوح على وجه يوسف نحوهـــا من العفة ، قال «لاروشفوكو» «ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لا يكون »

والآيةالسابعة قوة شكيمتها بقولها « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فقد قالوا « إن المبطل صولة وللكاذب دولة » وفي الحديث من آيات المنافق «وإذا خاصم فجر » ، فهي صالت بهذا القول وفجرت، ولكن يوسف اقتصرعلى مجرد قوله « هي راودتني عن نفسي » ،فتلك الاستطالة وترويق الطبع مع هذه المدافعة البسيطة الموجزة لهي من الآيات التي تميز المحق من المبطل

الآية الثامنة شكل عيونها وهيئتها وقت التكلم ، على حدما قال عبد الله بن المعتز

تفقّد مساقط لحـــظ المريب　　فان العيون وجوه القلوب
وطالـــع بوادره في الكلام　　فانك تجنـى ثمـــار الغُيوب

وقول مجنون ليلى

وكيف يفوت هذا الناسَ شيء　　وما في النـاس تظهره العيون

وكثيراً ما كشف العينان ماحاول صاحبها ستره من الأسرار النفسية ، والقضاة اليوم يستعينون بها على كشف الجرائم وقد قيل « قلب الانسان في عينيه ، فما عليك إلا ان ترى وتقرأ » وقال بعض الحكماء ، « متى كلمتك المرأة ، فاسمع ما تقوله عيناها »

حكي أنه تقدم للقاضي أياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال أياس « أما إحداهن فحامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى ثيب ، والأخرى بكر » فنظروا فوجدوا الأمر كما قال ، قالوا كيف عرفت ؟ — قال « أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلمت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثدييها ، فعلمت أنها مرضع ، وأما الثيب ، فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلمت أنها ثيب وأما البكر ، فكانت تكلمني وعينها في الأرض ، فعلمت أنها بكر »[1]

الآية التاسعة اصفرار وجهها دون احمراره كما حكاه بعض المؤرخين ، ومعنى هذا أن المرأة اذا خافت اصفر وجهها ، وهذا يكون حينما تكون مقهورة ، وإذا لم يكن لها دخل فيما يستحى منه خجلت وهذا فيما اذا لم تكن مقهورة

الآية العاشرة · حالتها النفسية ، ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة فى الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضح والمفسر لما عساه أن يبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتوية أفكاره ، ولا يمكن أن يعبر عنه تمام التعبير ألفاظه ، والحاذق لا يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانتــــه ـ على شيء غير ماتفرس في أسارير وجهه وغمرات طرفه وحركات أعصابه

فجملة الآيات هذه ، على حسب مافهمناه واستخرجناه ، عشرة ، ولهـذا أتى بصيغة الجمع فقال « من بعد مارأوا الآيات »

ذلك ان نقول إنها آية واحدة فقط ، هي آية القميص ، وإنما جمعا على طريقة

(١) الطرق الحكمية

العرب وسنتهم من الإتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما تقدم مبسوطاً ممثلاً موضحاً في خطاب أختنا السيدة علية النجفية حفظها الله،في خطابها على قوله تعالى «يدعونني اليه » فانظره إن شئت

فالقوم من بعد ما رأوا تلك الآيات ، ومن بعد ما تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وانفضحت لهم براءة يوسف تماماً ، وارتاح ضميرهم من هذا القبيل — من بعد ذلك كله سجنوه ، ظلماً وعدواناً ،فصدق عليهم أنهم صرعوا البرهان بالسلطان ، وصادموا الحق بالقوة ، وقابلوا الآيات النيرات ، بالسجن في أعمـــــاق الظلمات ، كان هذا كله وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون ، ولكن هل تظنهم بعد ذلك أصغوا لنداء ضميرهم؟ كلا فانهم لو صغوا لما ثاروا على اعتقاله ساعة واحدة على أنك لو سبرت غور قلوبهم لرأيتهم ناجين أنفسهم بسببه أنهم عمدوا إلى ذلك، ليقال ان المراودة كانت منه لا منها ، ولإخماد ثورة الحب بالتفريق بـــين المحب والمحبوب ناجين أنفسهم بذلك ، ليدفعوا تبكيت ضمائرهم فهذا الاعتقال هو أشبه بما يسمونه اليوم « اعتقالاً إدارياً سياسياً » يرتكز على القوة ، لا على الحق

وهم لم ينووا أن يسجن مؤبداً ، ولكن « حتى حين » اي الى زمان انقطاع القالة ، أو إلى ان تزول حرارة الحب ودواعيه ، او إلى مدة يرون فيها رأيهم ، أو إلى مدة يفعل الله فيها ما يشاء ، وعلى كل فليس هذا من قبيل ما يسمونه اليوم « التوقيف المؤقت » الذي يكون عند ما يكون الحاكم مشغولاً عن تحقيق الفصل بين المتخاصمين ، أو يكون عنده حكومات سابقة ، فيسجن المتهم من حين يُطلب إلى ان يفصل بينه وبين خصمه ، ولكن هو كان للأسباب أو لبعض الأسباب التي قدمناها ، والله تعالى أعلم

سجن الفتيين ورؤياهما

ا (٣٦) ﴿ودخل معه السجن فتيان ، قال احدهما . إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثلاثون فقام السيد الطنطاوي (١) وقال

لقد تقدم أنهم سجنوا يوسف (و) صادف أنه (دخل معه السجن فتيان) عبدان للملك الريان مستخدمان عنده ، وهما رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين « ملخب (٢) » رقى اليه أنهما يسمانه أو أنهما دخلا فى المؤآمرة على خلعه ، فحبسا ساعة حبس يوسف عليه السلام ، ثم بعد زمن رأى كل منهما رؤيا ، فأرادا أن يقصا ما رأيا على يوسف و (قال أحدهما) وهو (نبو) رئيس السقاة ، بلسان المستفهم المستفتي (إني أراني) فى المنام (أعصر خمراً) أي عنباً ، سميه بالعنب بما يؤول اليه — وقال الزجاج وابن الأنباري « العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول اليه إذا وضح المعنى ولم يلتبس ، يقولون فلان يطبخ الآجر ويطبخ الدبس » وإنما يطبخ اللبن والعصير ، وقال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خمراً ، لقي بعضهم اعرابياً معه عنب ، فقال له « ما معك ، قال خمر » ، وفى قراءة عبد الله

(١) نسبة الى طنطا من البلاد المصرية
(٢) وفى رواية اسمه « مجلث »

« إني رأيتني أعصر عنباً » — (وقال) الفتى (الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منـــــه) ، فرجاءً ولطفاً (نبئنا بتأويله)، أي بعاقبة ما قصصناه عليك (إنا نراك من المحسنين)الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي يجيدونهـــا ، كأنهما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له ، فقالا له ذلك ، أو رأياه من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم ، أو رأياه من المحسنين لأهل السجن ، فقالا له أحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأيناه إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا

وقد قيل كان يوسف يُطرفهم في السجن بالحكايات النادرة المثال ، ويتحف آدابهم بالعظات ، وإن أصاب بعضهم انحراف صحي عالجـــــه ، فكان عوناً لهم في السجن على المصائب ، ومجناً يدفعون به أحزانهم ، وبالجملة كان يحتفي بالمسجونين ، احتفاء يليق بهم ، ويخفف من وطأة سجنهم ، وشدة عنائهم

إن وجوده في السجن وكدره من الحيف والظلم الذي وقع عليه ، لم يمنعه من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعه عن اغتنام جليل الشكر ، ولا حال بينه وبين استعمال الاحسان إلى أهل السجن ، لا سيما هذان الفتيان اللذان عهد إليه بهما

وهاتان الرؤيبان هما من قبيل الرؤى الصادقة المعبرة التي لها تأويل ، لأن الرؤيا الصادقة المعتبرة لا تتوقف على دين، بل تقع لمن يكون نبياً وجاحداًوفاسقاً، ولذلك اعتبرها يوسف وأولها لهما

(ودخل معه السجن فتيان)

— ١ —

قال الامام الدمشقي

من هما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما

كان « عزيز مصر » صمم على سجن يوسف ، ولكنه — مع ما في الحكومة من الاستبداد والفوضى — كان يتخوف من الملك « الريان » أن يسأله عن سبب سجنه إياه ، فاتفق أن الملك أصدر إرادته بسجن شخصين من مستخدميه أحدهما ساقيه وصاحب شرابه واسمه « نبو » ويقال له « رئيس السقاة » والآخر خبازه وصاحب طعامه واسمه « ملحب » ويقال له « رئيس الخبازين » ، فانتهز « العزيز » الفرصة ، وحبس يوسف معهما ، وأقامه عندهما ليخدمهما،وليقوم بمصالحهما في السجن، فقام بما أسند اليه أحسن قيام ، وعمل كل ما نيط به على أتم الوجوه

والسبب في سجن الفتيين ، الساقي والخباز ، هو أنه ظن أن زمن الملك « الريان »الذي هو من الهكسوس، كان زمن اضطراب وضعف في السلالةالخامسة عشرة ، وظن أن « الملك الريان » كان هو الأخير أو قبل الأخير منها ، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض اشراف مصر الوطنيين ، وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من الغرباء إلى الوطنيين ، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من بيت إلى آخر ، أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة

وقيل ان « نبو » رئيس السقاة ، اتهم بدس السم في شراب الملك ، وان « ملحب » رئيس الخبازين ، اتهم بدس السم في خبزه ، لذا أمر بسجنهما

وههنا بدا لي الملحوظتان التاليتان في هذا الصدد

غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيين

الملحوظة الأولى — كأني بعزيز مصر رمى حجراً فصاد طيرين ، قصد سجن يوسف أن يظهر للناس انه سجنه تأديباً له ، لأن المراودة كانت من جانبه لا غير ، كما قصد أن يقوم في السجن بخدمة رئيس السقاة ورئيس الخبازين ،لأنهما وطنيان وعزيز مصر وطني أيضاً ، وهو إذا سئل من قبل الملك « الريان » عن ذلك لا يعدم جواباً مرضياً أن يقول له إني أرسلته للسجن لأجل أن يكون عيناً على هذين الرجلين اللذين هما ضد الملك

كما أنه أرسل سهماً فأصاب صيدين ، حينما أمر يوسف بخدمتهما في الحبس ،لأنه قصد إذلال يوسف ، وقصد إكرام الفتيين ،لأنهما مثله وطنيان ، ولما ذكر كله كان دخول يوسف في المعتقل في الساعة التي دخله فيها هذان الرئيسان ، من بطانة الملك وحاشيته

« الفتى » « والرب » في اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الاسلامي

الملحوظة الثانية — نعلم من قوله « ودخل معه السجن فتيان » ومما سيأتي من قوله « أما أحدكما فيسقي ربه خمراً » ان اصطلاح المصريين الذي كان أيام يوسف ، وجرى هو عليه — هو انهم كانوا يطلقون كلمة « فتى » على المستخدم في الحكومة كما يطلق على « العبد » كأن المستخدم في نظر الملك عبد من عبيده ، وأنهم كانوا يطلقون كلمة « رب » على « الملك » كما يطلق على « المالك » ، كأن

الملك في نظر الرعية بمنزلة « الرب » أو هو الرب بمعنى المالك أو المربي لرعيته بنعمه وجدوده

هذا هو عرف المصريين القدماء في عصر يوسف أما تسميتهم المستخدم في الحكومة أو تسميتهم العبد « فتى » فهو أدب حسن، أقره الشرع الاسلامي وحسنه، وأما تسميتهم الملك أو المالك « رباً » فهي عنه الإسلام في آخر الأمر ، وأرشدنا أن نسمي الملك كالمالك « سيداً »

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة « لا يقولن أحـــدكم عبدي ، فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقل فتاي ، ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» وفيه أيضاً من حديث أبي هريره « لا يقل أحدكم اسق ربك ، أطعم ربك ، وضيء ربك ، ولا يقل أحدكم ربي ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم عبدي ، أمتي ، وليقل فتاي ، غلامي »

(قال احدهما إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ السامرائي (١)

رؤيا السجين

بعد ما دخل يوسف السجن مع الفتيين ، لم يلبث الفتيان أن رأى كل منهما حلماً في ليلة واحدة ، فدخل يوسف اليهما في الصباح على جاري عادته ، لأنه كان يخدمهما بأمر سيده فوطيفار ، فاذا هما مغمومان ، فسألهما ما بالهما ، ولماذا وجهاهما مكمدان ؟ — فقالا له « حلمنا حلماً وليس من يعبره » ، قالا ذلك ، لأنه كان في

---

(١) نسبة الى سامرا في بلاد العراق

ذلك العصر رجال، يعلمون بفسر الأحلام، ويتحدثون ذلك عملاً خاصاً، وكانوا يسمون سحرة وحكماء، ولم يكن أحد منهم في السجن، ليفسر لهما حلميهما، ولكن يوسف نفى حصر القدرة على تفسير الأحلام في أشخاص مخصوصين، وأثبت أن ذلك فضل الله يهبه لمن يشاء، من أهل الذكاء وأصحاب القياس، فقال لهما أليست التعابير لله؟، قصّا عليّ ما رأيتما — فقص رئيس السقاة «نبو» حلمه على يوسف وقال له «بأبي أنت وأمي، نمت الليلة، فشعرت براحة وسرور، وهدوء في نومي، ورأيت أمامي كرمة، وفي الكرمة ثلاثة أغصان، وهي مفرحة، قد طلع زهرها، وأصبحت عنا قيدها عنباً، وكانت كأس الملك الريان في يدي، فأخذت العنب، وعصرته في كأس الملك، وسلمته الكأس في يده، فأفدني بأويله أمتع الله بك، وحلاك دم»

ثم قص رئيس الخبازين «ملحب» حُلمه قائلاً «نمت الليلة فشعرت بقلق واضطراب وتشتت فكر، ولم أذق في ليلتي رقاداً هنيئاً، وبينما كنت نائماً، رأيتني أحمل على رأسي ثلاثة سلال مملوءة خبزاً حَوّاري، وفي السل الأعلى أنواع من الخبز مما يصنع للملك الريان، والطيور تأكله من السل عن رأسي»

هذا منام الساقي والخباز وهذا كلامهما، ثم قال أحدهما ليوسف«هذا ما رأيناه قصصناه على سمعك، فما قولك؟ فمن فضلك تنبئنا بأويل ما رأينا حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فيزول أخيرنا بسريرته، وعرفنا ما يصير اليه حلمنا، فقد غمت علينا حاله، واستغلق مآله، ان نفوسنا تعسيره، وأنفسنا تعبأربه، هذا وقت الحاجة اليك، وإنا نرى أنه الاحسان على وجهك، فانك لا تخل من فضلك، وتعلم ما لا علمه غيرك، وتسحو تعلمك ولا تبخل به، فأصب مثل هذه الى سائر مننك وصل نعمتك علينا بطائرها من نِعَمك»

وهنا أبحاث مهمة

ملوك مصر الاقدمين والخمر

(١ً) يظهر ان ملوك مصر الأقدمين ، ما كانوا يشترون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات ، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائيين لعملها خصيصاً لهم ، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبه ، ويحملون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن

اقوال فى الخمر ومضارها

(٢ً) قالوا « الخمر كالمرابي ، يأخذ من العقل أكثر مما تعطي » ، ولما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الى الاندلس ، أتوه بخمر ، فقال « اني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه » ، وكان العباس بن علي المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول « ها ، أما المال فتتلفين ، وأما المروءة فتخلعين ، واما الدين فتفسدين » ، وسقى قوم أعرابية مسكراً ، فقالت « أتشرب نساؤكم مثل هذا ؟ » قالوا « نعم » قالت « فما يدري أحدكم من أبوه » وقيل لعدي ابن حاتم « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال « لا أشرب ما يشرب عقلي » ، وترك رجل النبيذ ، فقيل له « لم تركته ، وهو رسول السرور الى القلب ! » — فقال « ولكنه بئس الرسول ، يُبعث الى الجوف ، فيذهب الى الراس » ، وقيل للعباس ابن مرداس . « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال « لا أرضى أن أصبح سيد القوم ، وأمسي سفيههم »

هذا قطرة من بحر ، ودرة من عقد نحر ، مما أثر في الخمر عن عقلاء العرب وغيرهم

واما الأطباء فقد اجمعوا على أن الخمر تضر بأجهزة الجسم المختلفة ، إذ تض

المعدة وتحدث فيها الالتهاب والتقرح والسرطان ، كما أنها تضر بالكبد فتحدث فيها ضخامة أو ضموراً وتلفاً وتوقفاً عن العمل ، وتضر بالرئتين فينجم منها السُلال ، وقد قالوا في ذلك « الغول (١) يؤدي الى فراش السل » ، كما أنهـــا تؤدي القلب وعروق الدم فتحدث فيها أمراضاً شتى تودي بصاحبها الى الهلاك البطيء أو السريع وتضر بالكلى وينشأ عنها أمراض مدنفة شتى « وتؤدي الخصيين بحصول الضمور وقلة أو فقد الحيوسات المنوية في النطفة ، كما انها تحدث في الجلد حكاك وأكال ودمامل وبثور وغيرها من الامراض الجلدية ، وأخيراً تضر بالمخ والمخيخ والنخاع الشوكي والأعصاب وتتجلى ذلك بالصداع والأرق والرجفة في الرأس واليدين وركاكة اللسان والتلعثم وفقد الذاكرة ونقص الحاكمـــة والتمييز ، ثم تصبح الشخص مستعداً للاصابة بداء الصرع والهذيان والعته الذاكر وتغير طباعه فيغدو أنانياً ، مهملاً لواجباتـه ميالاً لمعاشرة الأدنياء والسفهاء ، قليل التحسس بصفات الشرف والمروءة

الخمر عند الامم العربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث

(٣) وأما عند الأمم الغربية ، فقد انشئت في أنحـاء العالم المتمدين جمعيات متعددة ، لتحريم الشراب ، وأخذ الشاربين بالعقوبة ، تفادياً من المضار التي تنجم عن الغول ، وما يجلبه قانون الوراثة ، من خروج نسل ضعيف ، والجنون والسل الرئوي وزيادة معدل الجرائم ،

حقـاً إن من آيات العبرة ، ومن الرجوع الى دين الاسلام أن الأوربيين الذين يستبيحون شرب الخمر ديناً ، ويستحسنونه أدباً ومدنية ، ويصنعون منه أنواعاً

(١) ويسميه البعض بالكحول وهو الشراب المسكر

كثيرة ، يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام — قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمور ، والسعي لابطالها

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا في الجاهلية يعدون من منافع الخمر الحماسة في الحرب ، وقوة الاقدام فيها ، ولكن ثبت عن الطب أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب ، واحتمال أثقالها ، فقررت بعض الدول إبطال الخمور الوطنية ، الشديدة الرواج في بلادها ، مدة الحرب ، مع ان أكثر انتفاعها المالي منها ، قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (٤١ ٥٣) ومع هذا كله لا يزال بعض المسلمين (جغرافياً) يتململون من تحريم الاسلام للخمر !!!

ومن إحدى العجائب أن كتب المسيحيين الدينية تقول إن أول معجزة جرت على يد المسيح (ع) حدثت في قرية « قانا الجليل » ، وهي تحويله الماء خمراً ، وذلك ان المسيح (ع) دُعِيَ هو ووالدته وإخوته وتلاميذه لعرس في «قانا الجليل» وهي قرية على بعد نحو ساعتين على الماشي من بلده « الناصره » ، لجهة الشمال الشرقي عنها ، فذهب وجلس مع الناس ، وصار أهل العرس يصبون للمدعوين خمراً ، وكان ان الخمر التي عندهم فرغت ، قبل أن يشرب كثير من المدعوين ، فوقع اهل العرس في حيرة وخجالة من الناس فقالت له امه « ليس لهم خمر » ، وكان في دار أهل العرس ستة أجران حجر ، يسع كل منها نحو ثمان جرار ماء اعتيادية ، فأمر المسيح الخدام أن يملأوا هذه الاجران ماء ، فملأوها حسب أمره الى فوق ، ثم أمر أن يستقوا منها و يقدموا لرئيس المتكأ فامتثلوا ، ولما ذاقها الرئيس ، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمرة المقدسة ، وادّى شهادته جهاراً بعد أن نادى العريس وشكره ، لتقدمه خمراً أجود مما شربوا أولاً ،

وقد نهى نبينا عنها ، إذ ورد عن عثمة بن الحارث انه قال « جيء بالنعمان او

ابن النعمان شارباً ، فأمر رسول الله (ﷺ) من كان في البيت أن يضربوا ، قال فكنت انا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد » رواه البخاري ، وفيه « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وفيه « كل مسكر حرام » ، وروى الحاكم من حديث ابن عباس « اجتنبوا الخمر ، فانها مفتاح كل شر »

وقد نهى القرآن عن الخمر ، لأن العرب كانوا في الجاهلية وصدر الاسلام يشربونها ، فنزل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تقربوا الصلاة ، وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (٤ ٤٢) فحرمها بذلك في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، لأنه نهى عنه قرب الصلاة في حال السكر فلم يبق للمصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء ، وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر ، لمن لا عمل له ، ولا يخشى أن يمتد سكره الى وقت الظهر ، ثم نزل قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٢ ٢١٩) ، فشربها قوم لقوله ﴿ ومنافع للناس ﴾ ، وتركها آخرون لقوله ﴿ إثم كبير ﴾ ، ثم نزل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ ، واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ (٥ ٩٣ — ٩٥) نزلت هذه الآيات ، فقال عمر (رض) « اقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً

لك وسُحقاً » ، فتركها الناس جميعاً ، وروي أن عمر لما سمع « فهل انتم منتهون »
قال « انتهينا، انتهينا »

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفتونين بها ، حتى أنها لو حرمت في اول الاسلام ، لكان تحريمها صارفاً لكثير من المدمنين لها عن الاسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي الى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون اليه بعين السخط ، فيرونه بغير صورته الجميلة ، فكان من لطف الله تعالى ، وبالغ حكمته أن ذكرها أولاً في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة وإباحتها فيما عدا ذلك ، ثم ثانياً ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها مطلقاً ، لكن دلالة ظنية ، فيها مجال للاجتهاد ، ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه ، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمناً قوي فيه الدين ، ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها ، فنزلت آية سورة المائدة بما يدل على تحريمها صريحاً في كل حين

والخلاصة إن الله تعالى حرم الخمر تحريماً قطعياً في معظم الأوقات ، ثم حرمها تحريماً ظنياً في باقي الأوقات ، ثم تحريماً قطعياً مستغرقاً لكل زمن

هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في زمن يوسف

(٤ً) إن قال قائل هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة ، حتى كان الملك يشربها علنــــاً بلا نكير ؛ قلنا إن الخمر محرمة بألسنة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على جميع الشعوب والأمم ، فالمصريون والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها في حال انها محرمـة عليهم ، ويحتمل ان المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط ، وان ما دون القــدر المسكر حلال ، وهو ظاهر كتب العهدين الموجوده اليوم عند اليهود والنصارى ، فلما كان من حكمة الله تعالى سير أمور البشر كلها

على سنن الترقي التدريجي ، الذي من مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله ، أكمل الله دينه العام بإنزال القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً ، لما فيها من الضرر الذاتي

الخمر عامة هو ما يعصر او يسد

(٥ً) قول رئيس السقاة « إني أراني أعصر خمراً » لا يدل على أن الخمر هي مما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون مما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً ، فاتخاذ المصريين الخمر من العصير ، لا ينافي اتخاذها من غيره ، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر ، دع ما يمكن ان يقال « إن هذا القول محكي عن أعجمي في بيان ما رآه في نومه ، مما هو معهود في بلاده ، فليس بحجة في لغة العرب ولا في صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر ، وبالأولى لا يكون حجة في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً ، أعم مما يتخذ من العصير »

الرؤى الصريحة

(٦ً) نعلم من صحيحي الشيخين وغيرهما من الأسفار الصحيحة أن النبي ﷺ كان في بدء الوحي ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أي تجيء كما يراها صريحة ظاهرة لا يحتاج إلى تفسير ، قالوا وهذا هو الغالب في رؤى أهل الخير والصلاح ، ولذلك ولما كان « رئيس السقاه » مسجوناً ظلماً ، وكان بريء الساحة مما اتهم به ، كانت رؤياه صريحة ، ليست من قبيل الاستعارات والتمثيل ، وهذا بخلاف رؤيا « رئيس الخبازين » التي هي من نوع المجاز والمثال ، لأن الظاهر من الحكم عليه بالموت ، أنه كان غير سليم الساحة ، وإنما قلنا إن رؤياه مجاز ، لأن الخبز الذي رآى أن الطير تأكله هو حياته ، لأن بالخبز حياة

الانسان ، وقوام الأجسام ، ولذلك ناسب تأويله بالرأس، الذي به حياة سائر البدن لأنه العضو الرئيسي

اطلاق ضمير المفرد على المثنى والجمع فى لغة العرب

(٧ً) إنما قيل « بتأويله » ولم يقل بتأويلهما ، لأن من سنن العرب ، أن تجمع بين شيئين اثنين ، ثم تذكر في الضمير أحدهما دون الآخر ، وتريد بالضمير كليهما معاً ، يقولون « رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه » أي عليهما ،قال الله عز وجل ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّةَ ، ولا يُنفِقونها في سبيل الله ﴾(٩ ٣٥) وتقدير الكلام ولا ينفقونهما في سبيل الله ، وقال تعالى ﴿ وإذا رَأَوْا تِجارةً أولَهْوًا انْفَضّوا اليها ﴾ (٦٢ ١١) وتقديره انفضوا اليهما ، وقال تعالى ﴿ واللهُ ورسولُه أحَقّ أن يُرضُوه ﴾ (٩ ٦٣) والمراد ان يرضوهما[1] ومنه قوله تعالى فيما يأتي ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان ﴾ (آ ٤١) ، تقديره قضي الأمران اللذان فيهما تستفتيان ، وقوله ﴿ افتوني فى رُؤْيايَ ﴾ (آ ٤٣) أي فى رؤيَيّ ، ويوجد من مثل ذلكم فى كلامهم الشيء الكثير

احسان يوسف لاهل السجن

(٨ً) إنما قالا له « إنّا نراك مِنَ المحسنينَ » لأنه كان إذا احتاج من اهل السجن إنسان جمع له ، وإذا مرض إنسان فى السجن عاده وقام عليه ، وتعاهده وداواه ، وإذا انقطع رجاء إنسان في سجنه ، واشتد عليه فيه بلاؤه جعل يقول له « أبشر واصبر تؤجر ، فان لهذا اجراً ، ولهذا ثواباً » ، وكان إذا ضاق على احد المكان أوسع له ، وكان يعزي حزينهم ، ويجتهد لربه فى عبادته ، ويعبر لهم أحلامهم (٢) وكأنه جعل من السجن مدرسة ومستشفى ومعبدا وجمعية خيرية ومجالس وعظ وتذكير

(١) فقه اللغة
(٢) جامع البيان

الاعتراف باحسان يوسف

(٩) كل من كان من أهل الاصالة يُسر بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ، ويعترف بالاحسان لأهل الاحسان ، كما وقع من هذين الرئيسين فيظهر أنهما كانا كبيري النفس ، أصيلي المحتد ، وهذا بخلاف طائفة من الناس ساءت سريرتهم ، وسفلت طباعهم ، وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء ، ويجحدون إحسان المحسنين ، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن اليهم ، لاسيما إذا كان هؤلاء المحسَن اليهم ممن ولدوا فى الفاقه وخفض العيش ، وساعدتهم الأقدار على الارتقاء ، فربما حدثتهم أنفسهم الأماره بإنكار إحسان المحسنين بل بايذائهم بل بإهلاكهم

نهاية الجزء الأول



فهرس الجزء الأول من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع

٥ اهداء الكتاب ٧ كلمة سماحة المفتي العام الدكتور ابو اليسر عابدين ٨ هـذا التفسير لابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي ١٣ تقديم الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد بهجة البيطار ١٧ رسالة الاستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا لمؤلف الكتاب ١٨ التعريف بمؤلف الكتاب لفضيلة الاستاذ محمد علي عمار ٢٦ إيضاح الرموز الواردة في التفسير

٣ الباب الأول

٣ الفصل الأول — في دفع شبهة المجاردة على سورة يوسف ٣٢ بيان بالمناسبة بين سيدنا محمد (ﷺ) مع قريش وبين يوسف الصديق مع إخوته ٣٦ اتفاق النبي (ﷺ) على طمائع يهود المدينة ٣٧ بيان بالمناسبة بين نبينا (ﷺ) مع اليهود وبين يوسف الصديق مع إخوته

٤ الفصل الثاني — في هل اخوة يوسف أنبياء

٥١ الفصل الثالث — في شيء عن حياة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ٥٢ حياة إبراهيم (ع) ٥٥ حياة إسحاق (ع) ٥٧ حياة يعقوب (ع)

٦١ الفصل الرابع — في زوجات يعقوب (ع) ٦٧ التشاؤم والتفاؤل من اسم يوسف ٦٨ التشاؤم والتفاؤل من الأسماء

٧١ الفصل السادس — في تقليد المفسرين بعضهم لبعض

٧٣ الفصل السابع — في أبطال قصة يوسف وأن القصة صورة طبق الأصل لحياة الشعب الاسرائيلي

الصحيفة والموضوع

٧٥ الباب الثاني

٧٥ الفصل الأول — في متعلق البسملة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

٧٧ مقدمة الشيء المقصود الذي انعقدت له سورة يوسف آ (١) ﴿ آلر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ — (آلر) كلمات القرآن مؤلفة من حروف الهجاء المعروفة لدى العرب ٧٨ نظائر لفظة آلر في التوراة والانجيل ٧٩ الأساليب المتكررة في القرآن ٨٢ (آيات) معنى آيات القرآن ٨٣ (الكتاب) أسماء القرآن ٨٧ (المبين) بيان القرآن وسهولته ٨٨ الناسخ والمنسوخ في القرآن ٨٩ المتشابهات في القرآن

٩١ نزول القرآن آ (٢) ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ٩١ (انزلناه) ـ نزول القرآن ٩٣ ما معنى إنزال القرآن الكريم ٩٤ ما معنى الإنزال ٩٥ زمن بدء نزول القرآن ٩٧ جمع القرآن ٩٨ (قرآناً عربياً) ـ لغات كلام القرآن ٩٩ لزوم تعلم المسلمين اللغة العربية ١٠١ بعث محمد ﷺ العربي للأمم كافة ١٠٢ كلمة الحواريين في القرآن ١٠٣ ترجمة القرآن ١٠٤ اللغة العربية لغة العلاقات بين الدول الاسلامية ١٠٥ المسمة لغة القرآن ١٠٦ (لعلكم تعقلون) ـ تعقل القرآن وفهمه ١٠٨ تعقل القرآن وفهمه من صفات المؤمنين ١٠٩ مزية الانسان بالعقل والادراك ١١٠ استعمال اكثر المسلمين القرآن في غير ما هو له ١١١ القرآن يمدح المتعقلين بآياته ويذم الغافلين عنها ١١٣ تعقل القرآن هو التفقه فيه بالوقوف على مراميه ١١٤ الحكمة من انزال القرآن

١١٦ الفصل الثاني ـ القرآن وعلم التاريخ آ (٣) ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ، بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين

الصحيفة والموضوع

١١٨ (نقص) ـ سور القرآن التي سميت باسماء حوادث تاريخيـــه ١١٩ الحكمة من سرد الوقائع التاريخية في القرآن ١٢٠ جبريل (ع) هو واسطة نقل كلام الله الى النبي ﷺ ١٢١ (أحسن القصص) ـ لماذا عبر بأن قصص القرآن هو احسن القصص ١٢٢ مقابلة ما بين آيات قصة يوسف في القرآن وفي التوراه ١٣٨ قصص التوراة ١٣٩ غلط التوراة في قولهـا إنه يوجد ليل ونهار قبل ما كانت الشمس ١٤٠ مخالفة التوراه لعـلم النشوء والترقي ١٤١ قول التوراة بان الله نهى عن العلم واسبابه ١٤٢ غلط التوراة بقوله إن الحية تغتذي بالتراب ١٤٣ نسبة التوراة السكر لنوح وأنه لعن من لم يسيء (حاشاه) ـ نسبة التوراه الدياثة لابراهيم (حاشاه) والرد على ذلك ١٤٦ نسبة التوراة السكر لابراهيم (حا شاه) ١٤٧ غلط التوراة بقولها ان الملائكة يأكلون ١٤٨ نسبة التوراة السكر والزنى الى لوط (حاشاه) ١٤٩ دعوى التوراه ان إسحاق ديوث كأبيه (حاشاهما) ١٥٠ تعليم التوراة الكذب والمكر ومحبة الخمره وحب الذات والحسد ١٥٣ تعليم التوراه الخداع وخلف الوعد والزنا ١٥٤ تعليم التوراه ان الانسان قد يكون أقوى من الملاك ١٥٥ غلطه تاريخية في التوراة ـ تعليم التوراه الزنا والمحاباة ١٥٧ تعليم التوراه اغتصاب الأموال ١٥٨ تعليم التوراه تقديم القربان للشيطان وتسييب السوائب ١٥٩ تعليم التوراه استئصال الشيوخ والاطفال والنساء في الحرب ١٦٠ تعليم التوراه قتل غير المسيء ١٦١ تعليم التوراه اللهو واللعب ـ التوراه تنسب الزنا لداود (حاشاه) ١٦٦ التوراة تنسب الفساد والذريه الى داود (حاشاه) ـ التوراة تجاري على الزنا بالزنا ١٦٨ التوراه تقص أقاصيص الزنا ١٦٩ التوراه تنسب الشرك لسليمان وانه تزوج بالوثنيات (حاشـــاه) ١٧١ التوراه تنسب لبعض الأنبياء الكذب في البلاغ ١٧٢ التوراة تثبت

الصحيفة والموصوع

أں الوحي يىرل ىسں آلات الطرب ١٧٣ التوراة تثبت لله التعب
١٧٤ التوراة تثبت حياة أخروية — التوراة تعلل القصاص بالموت — التوراة
تثبت أن الأصل في الإنسان الشر ١٧٥ غلط التوراة في التاريخ —
تكرار دكر حوادث الربا في التوراة ١٧٦ التوراة تقول بحراء خارج
عن المعقول — التوراة تقول بتضييع المال بلا فائدة ١٧٧ مميزات قصة
يوسف عن القصص الاخرى ١٧٨ (أوحينا) — الوحي الاصطلاحي ١٧٩
الفرق بين الوحي والالهام — الوحي نوع من التعبير عن الكلام الرباني
١٨٠ (هذا القرآن) — سبب إيحاء القرآن ١٨١ (لمن الغافلين) محمد
(ﷺ) في طفولته وشبابه ١٨٢ القرآن معلم النبي (ﷺ) ١٨٣ غفلة
النبي (ﷺ) ليست عيباً يذم به

١٨٤ الفصل الثالث — بدء الأمر المقصود الذي انعقدت له السورة آ(٤)
﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس
والقمر ، رأيتهم لي ساجدين ﴾ ١٨٥ (يا أبت) — استعطاف الابوة
والفرق بين خطاب يوسف (ع) لأبيه وخطاب إبراهيم (ع) لأبيه
١٨٦ إعراب يا أبت ١٨٧ أدب الخطاب ١٨٨ (رأيت) — يوسف في
رؤياه ، ١٨٩ يوسف يقص رؤياه على أبيه ١٩١ الرؤيا والشرع ١٩٢ رؤيا
الأنبياء ورؤيا الناس ١٩٤ الرؤيا عند النصارى ١٩٥ الرؤيا المنامية لاتحرم
حلالا ولا تحل حراماً ١٩٦ لماذا لم ير يوسف رؤيا تدل على ماسيصيبه من شر
١٩٧ رؤيا يوسف الحرم الأحد عشر ١٩٨ (أحد عشر كوكباً) — علو
الرؤيا بعلو النفس ١٩٩ قداسة عدد (١٢) ٢٠٤ (كوكباً) — لماذا
عبر عن إخوة يوسف بالكواكب ٢٠٥ (والشمس والقمر) — التعبير
عن الرجل بالشمس وعن المرأة بالقمر في رؤيا يوسف ٢٠٩ هل سجد

الصحيفة والموضوع

أبوا يوسف له ٢١١ (رأيتهم لي ساجدين) — التطرية في القرآن
٢١٣ اعتراض ثم تسليم — معنى السجود

٢١٤ لاتقص الرؤيا على العدو آ(٥) ﴿قال يابني، لاتقصص رؤياك على اخوتك، فيكيدوا لك كيدا، إن الشيطان للانسان عدو مبين﴾ ٢١٥ (قال يابني) — نصح يعقوب لابنه يوسف بأن لايقص رؤياه على إخوته ٢١٧ التصغير في اللغة وأنواعه ٢١٨ حكم المقتبسة من الآية ٢١٩ خطاب الاستعطاف بين الأقرباء ٢٢٠ (لاتقصص) بعض العداءات التاريخية التي تشبه عداء إخوة يوسف له ٢٢٢ وجوب إطاعة الابن للأب الوصايا العشر في التوراة والقرآن ٢٢٤ (اخوتك) المناوؤن ليوسف من إخوته والتنافس بينهم ٢٢٥ (فيكيدوا) تعريف الكيد ٢٢٧ (إن الشيطان) الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان ٢٢٨ إطلاق لفظ الشيطان على العدو وبعض الأشخاص والجن والإنس ٢٣٠ الشيطان قوة عصبية أو قوة دميمة في الإنسان ٢٣١ ليس للشيطان سبيل على الانسان إلا بالاغراء والوسوسة ٢٣٤ معاهدة سيلان ٢٣٥ سلطان الشيطان على إخوة يوسف ٢٣٦ سعادة الدين تكون باقامته ٢٣٨ انتقاد معاهدة سيلان والرد عليه

٢٤٠ آمال يعقوب في يوسف آ(٦) ﴿وكذلك يجتبيك ربك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم﴾ ٢٤٢ (وكذلك) بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ٢٤٣ فرح يوسف ببشارة ابيه له ووقوعها حرفاً بحرف ٢٤٤ (يجتبيك) الاجتباء في اللغة واجتباء الله ليوسف والأنبياء وللاسلام ٢٤٦ نبوة يوسف والانبياء

الصحيفة والموضوع

والمرسلين قبله وبعده ٢٤٨ (ويعلمك .) تعليم يوسف ٢٤٩ (تأويل الأحاديث) مقومات الحدث وتأويله ٢٥٣ (الأحاديث) الحديث لغة واصطلاحاً ٢٥٥ (ويتم نعمته)اتمام النعمة على يوسف ٢٥٦ (آل يعقوب) – من هم آل يعقوب ٢٥٧ آل إبراهيم ٢٥٨ النعم التي أتمها الله على آل يعقوب ٢٦٢ (كما أتمها) — النعم التي أتمها الله على إبراهيم وإسحاق ٢٦٣ (إن ربك عليم حكيم) علم الله وحكمته

٢٦٤ الفصل الرابع — الحكم والعبر في قصة يوسف آ(٧) ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ ٢٦٧ (لقد كان) — التفكر والاعتبار حال قراءة القرآن ٢٦٨ (وإخوته)— القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية ٢٧١ سلامة قلب الآباء وبعدهن عن حسد أقاربهن ٢٧٢ (آيات)— العبر المتضمنة قصة يوسف ٢٧٤ العبر بعاقبة يوسف وإخوته ٢٧٦ (للسائلين) — تخصيص الفائدة عن

٢٧٧ مقدمة المؤامرة آ(٨) ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ ٢٧٨ (إذ قالوا) مفاوضة الإخوة في شأن يوسف ٢٧٩ سبب عداء إخوة يوسف له ولأخيه بنيامين ٢٨١ أسباب عداء الإخوة الخاصة ليوسف ٢٨٣ تمهيد عداء إخوة يوسف له ٢٨٤ ضرر تعدد الزوجات ١٨٦ لم يسند الحسد لجماعة معينين إلا لليهود ٢٨٦ الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن ٢٨٩ الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين ٢٩٠ إسناد القول إلى الإخوة العشرة جميعاً ٢٩١ الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الإثم لفاعله ٢٩٢ (ونحن

الصحيفة والموضوع
عصبة) ـ وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه ٢٩٣ العصبة في اللغة ٢٩٤ (إن أبانا لفي ضلال مبين) ـ تضليل الاخوة لأبيهم جهلا وسفاهة
٢٩٨ الدخول الجدي في المؤامرة آ(٩) ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ ٢٩٩ (اقتلوا يوسف) ـ الاقتراح بقتل يوسف أو إبعاده ٣٠٠ مؤامرة قريش على قتل أو إبعاد أو حبس النبي ﷺ ٣٠١ الطرح أرضاً كالقتل ٣٠٢ الفوائد المستنبطة من الآية ٣٠٣ لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامراتهم ٣٠٤ من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف أو ابعاده ٣٠٥ الحسد هو الدافع الحقيقي لإخوة يوسف على إرادة قتله ـ أنواع الامرجة البدنية وتطبيقها على إخوة يوسف ٣٠٦ غرابة مشابعة دان ونفتالي لاخوتهم في المؤامرة ٣٠٧ نظائر أعمال أبناء يعقوب العشرة في التاريخ ٣١٣ التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية ٣١٥ الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر ٣١٦ السيخة عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطة ٣١٧ إن أكرمكم عندالله أتقاكم ـ بعض طبائع الاسرائيليين ـ ماهي أفكار الصهيونيين اليوم مع أبناء اسماعيل ٣١٨ الطرح أرضاً في اللغة ـ كلمة « اطرحوه » في القرآن ـ الصلاح وأقسامه ٣١٩ الحسد والغبطة والمنافسة ٣٢٠ عمل الاخوه مع يوسف هو من الحسد الممقوت المشؤوم ٣٢١ سبب اقتصار الاخوه الحكم على يوسف وحده ـ ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين ٣٢٢ شواهد من التوراه على صلابة اليهود وقساوتهم ووحشيتهم ٣٢٤ يهود اليهود متخرجون على مدرسة اليهود القدماء ـ عبري حي وأنا المعذب فيكم

الصحيحة والموضوع
٣٢٥ تعديل الحكم آ (١٠) ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم فاعلين﴾ ٣٢٦ (قال قائل منهم) طلب تعديل الحكم على يوسف ٣٢٨ من هو « القائل » تعديل الحكم على يوسف ٣٣٠ القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة ٣٣١ ابتعاد يهودا عن الانتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة إخوته ٣٣٢ غيابة البئر — الجب وهل هو جب معهود ٣٣٤ التحقيق فى تفسير الغيابة — إخوة يوسف لم يبيعوا يوسف ٣٣٥ لماذا لم يذكر « القائل » برأيه ٣٣٦ صلح القائل مع يوسف
٣٣٦ تدبير الحيلة لتمهيد المؤامرة آ (١١) ﴿قالوا يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون !!﴾ ٣٣٧ (قالوا يا أبانا) — التمهيد لتمهيد المؤامرة على يوسف ٣٣٩ إخوة يوسف بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من أبيهم — طريقة طلب الاخوة ليوسف من أبيهم تدل على سوء نيتهم — دفع ودفع — وثيقة الاعتماد ٣٤٠ النصح لغة ومعنى — لسان حال إخوة يوسف هو ترجمان أهوائهم ٣٤١ المتكلم بطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة
٣٤١ السم في الدسم آ (١٢) ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون﴾ ٣٤٢ (يرتع ويلعب) الاخوة يضربون على الوتر الذي يحبه ابوهم لأخيهم يوسف ٣٤٣ معنى الرتع واللعب ٣٤٤ فوائد اللعب ٣٤٥ اللعب عند العرب وأنواعه ولعب النبي (ﷺ) والصحابة ٣٤٦ جواز اللعب للكبار كما للصغار ٣٤٧ (لحافظون) — خديعة اخوة يوسف لأبيهم ٣٤٩ خلف الوعد والوفاء به
٣٥٠ تخوف يعقوب من طلب أولاده آ (١٣) ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا

الصحيفة والموضوع

به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون ﴾ ٣٥٣ (ليحزنني) عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات ٣٥٤ (وأخاف) خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب ٣٥٦ التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف ٣٥٧ خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري ٣٥٨ حوار عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده ينافي خوفه عليه ٣٥٩ حوار عدم قطع يعقوب بأن رؤيا يوسف هي ليوسف بل لغيره من ذوي قرباه ٣٥٩ حوار قصد يعقوب بالذئب وأكله إصرار شمعون بيوسف ٣٦٠ (وانتم عنه غافلون) — يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم ماذا يجيبون ٣٦١ يعقوب يصف غفلة أبنائه عن حفظ يوسف بأنها أمر ثابت لهم في نفسه

٣٦٢ جواب المخاتلة والمكر آ (١٤) ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ، ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ ٣٦٣ (قالوا لئن أكله) — إصرار أبناء يعقوب على أخذ يوسف من أبيه ٣٦٥ تهرب الاخوة من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدليه له ٣٦٥ القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف ٣٦٦ اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية ٣٦٦ حال التاريخ قبل الاسلام وبعده ٣٦٧ عناية المسلمين في أول الاسلام بالروايه والرواة ٣٦٧ غلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزياده والنقصان في التوراه

٣٦٩ الفصل الخامس — تنفيذ المؤامرة آ (١٥) ﴿ فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ﴾ ٣٧٠ (فلما ذهبوا به) — الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب ٣٧٢ يوسف مع إخوته في طريقهم الى دوثان

الصحيفة والموضوع

٣٧٣ كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاخوته رغم تخوفه عليه منهم
٣٧٤ حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه ٣٧٧ يوسف في الجب ٣٧٨ كيف اتفق إخوة يوسف على إلقائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم ٣٧٩ خيبة آمال إخوة يوسف ٣٨٠ « سيلون » و « دوثان » و « الجب » ٣٨١ (وأوحينا اليه) — الايحاء ليوسف وهو في الجب ٣٨٣ الوحي لغة واصطلاحاً

٣٨٦ دموع التماسيح آ(١٦) ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ ٣٨٧ (وجاءو أباهم) — حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع إخوته وحال إخوته بعد القائه في الجب

٣٩١ عذر أقبح من ذنب آ(١٧) ﴿قالوا ياأبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ ٣٩١ (قالوا ياأبانا) إخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف ٣٩٣ المعذرة المصطنعة — الاستباق ٣٩٤ المتاع ٣٩٥ ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه ٣٩٤ إطلاق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً — تعدي الايمان بالباء وباللام وبعلى ٣٩٦ الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة ٣٩٧ الخير مؤجل والشر معجل ٣٩٨ (فأكله الذئب) — التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤيي يوسف وبشائره ٣٩٩ استعمال الذئب والأكل في المجاز ٤٠٠ الذئب مجاز عن شمعون ٤٠١ الأكل مجاز عن النهش والعض والإضرار ٤٠٢ تفسير كلمة بأكله بكلمة بتولى أمره وبتصرف فيه ٤٠٢ تسييك القول بأن الأكل هو الاستيلاء والإضرار، وبأن الذئب هو شمعون

الصحيفة والموضوع

في المحار ٤٠٣ رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مدأبة ٤٠٥ من أنكر على مصر رأياً وكأنه أنكر على جميع المفسرين نفاسيرهم ٤٠٥ جواز كون الذئب دئماً معهوداً عائباً أو حاضراً ٤٠٧ كيف فات المفسرين الدهاب للمعنى المجاري في الأكل والذئب وشواهد على دلك

٤٠٩ قميص العلامة آ (١٨) ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً " فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون﴾ ٤١٠ (وجاءوا على قميصه) القميص والدم ٤١١ القميص ـ دم القميص ٤١٢ لسان حال يعقوب عند مارأى قميص يوسف ملطخاً بالدم ٤١٢ حجة القميص التي لهم صارت عليهم ٤١٣ البرهان الباطل ـــ مباحاة يعقوب الذئب الحمقي والمجاري ٤١٤ الدم نفس أو جسد ٤١٥ السجع والترسل في القرآن ٤١٧ القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف ٤١٨ انتقاد دعاة النصرانية ،اعتقادنا نبوة يعقوب (ع) والرد عليهم ٤١٩ مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم ٤٢٠ لفظ القمص في القرآن ـــ هل حقق يعقوب صحة افتراس الذئب ليوسف ٤٢١ (قال بل سولت) ـــ حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف ٤٢٢ عدم انطلاء الكذبة على يعقوب ـــ صبر يعقوب الجميل ٤٢٣ يعقوب يعمر من قساه أولاده فيما دكروه عن يوسف ٤٢٤ مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه ٤٢٤ انتقاد يعقوب على تفريطه بيوسف والرد عليـــه ٤٢٥ حال اخوة يوسف عندما عرض أبوهم بهم بأنهم كاذبون ٤٢٦ العمر من فتاة شمعون ، انتقـاد يعقوب على عدم بحثه عن يوسف والرد عليه ٤٢٨ المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف ٤٢٩ معنى السول

الصحيفة والموضوع

٤٣٠ إحساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالا — السكير في لفظة (أمراً)
٤٣١ معنى الصبر والصبر الجميل
٤٣٢ الباب الثالث
الفصل الأول ، خروج يوسف من الجب آ (١٩) ﴿ وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة، والله عليم بما يعملون ﴾ ٤٣٣ (وجاءت سيارة) القافلة تخرج يوسف من الجب وعوده معها الى مصر ٤٣٥ الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه ٤٣٦ حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه ٤٣٨ يوسف بين يدي « السيارة » ٤٤١ لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع السيارة ٤٤٢ المتشابهون لحالة يوسف (ع) في الرق ٤٤٣ معنى « السياره » ٤٤٤ معنى « الوارد » ، فاء السرعة في قوله فأرسلوا ، فأدلى ٤٤٥ يابشرى — ألقاب يوسف ٤٤٦ الدلو
٤٤٦ الفصل الثاني — بيع يوسف (ع) آ (٢٠) ﴿ وشروه بثمن بخس ، دراهم معدوده ، وكانوا فيه من الزاهدين ، ﴾ ٤٤٧ (وشروه بثمن) اسواق الرقيق ٤٤٨ يوسف في سوق الرقيق ٤٤٩ معنى « شروه » ٤٥٠ عود الضمير في « شروه » والتحقيق عمن باع واشترى يوسف ٤٥١ الثمن البخس وماهو وكم هو ٤٥٢ الاسترقاق قبـــل الاسلام وفي الاسلام ٤٥٥ استفادة الرقيق عند المسلمين — استرقاق الشعوب في أوربا وامريكا ٤٥٦ حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع ٤٥٧ زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه
٤٥٩ الفصل الثالث — وصية عزيز مصر لامرأته بيوسف آ (٢١) ﴿ وقال

الصحيفة والموضوع

الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ٤٦٠ (وقال الذي اشتراه) دخول بالقارىء الى المملكة المصرية الهيكسوسية ، فوطيفار عزيز مصر ٤٦٢ حياة يوسف المادية ٤٦٤ مصر أيام يوسف (ع) ٤٦٥ شيء جديد عن حياة يوسف — مصر مهبط الأنبياء والأولياء ٤٦٦ منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين ٤٦٧ منزلة المرأة عند العرب ٤٧١ منزلة المرأة في الاسلام ٤٧٣ أخطاء فوطيفار ٤٧٥ المثوى ، مرادفات كلمة مصر ٤٧٦ (عسى أن ينفعنا .) وصية فوطيفار لزوجه ٤٧٧ يوسف وكيل فوطيفار امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف ٤٧٨ المقصد من استعمال حرف « أو » فى قوله « أو نتخذه ولداً » ٤٧٩ الظهار والتبني عند المصريين وفي الاسلام ٤٨٠ (وكذلك مكنا) تمكين يوسف الأول ٤٨٢ تمكين يوسف الثاني ٤٨٣ (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) تعليم يوسف ٤٨٤ فوائد الارتحال والسفر ٤٨٥ العلم الكسبى والعلم الوهبي ٤٨٦ العطف على محذوف فى القرآن ٤٨٧ (والله غالب على أمره) الله غالب على أمر نفسه أو على أمر يوسف ٤٨٩ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) جهل أكثر الناس أن الأمر كله بيد الله

٤٨٩ شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والإحسان آ (٢٢) ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ٤٩٠ (ولما بلغ اشده) بلوغ يوسف الأشد ٤٩٢ الأشد والرشد في القرآن ٤٩٢ (آتيناه حكماً وعلماً) إيتاء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية ٤٩٣ لا ينشأ الحكم

الصحيفة والموضوع

عن العلم بل عن الدين ٤٩٥ تفسير العلم بالمعرفة ٤٩٥ إنشاء يوسف قوة الارادة ونور العقل ٤٩٨ سبب تقديم الحكم على العلم ٤٩٩ (وكذلك نجزي المحسنين) الاجماع على إحسان يوسف ٤٩٩ الجزاء على السبب لا على النسب ٥٠٠ أركان الإحسان ٥٠١ أركان الإحسان في القرآن وتحلي يوسف بها ٥٠٢ الجزاء يكون في الدنيا كما في الآخرة ٥٠٣ الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالإحسان ٥٠٤ الوعد يتناول الناس بحسب أوصافهم ٥٠٥ الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر إحسانه

٥٠٦ المراودة آ (٢٣) ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك ! قال معاذ الله ! إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ٥٠٧ (وراودته) المراودة من زليخا والترفع من يوسف ٥٠٨ الكبرياء ٥٠٩ المرأة العفيفة الحديدة ٥١٠ المرأة أعف من الرجل ٥١١ مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب ٥١٣ المراودة من طرف واحد ٥١٥ الحكمة من ذكر حديث المراودة ٥١٧ مواضع استعمال لفظة المراودة في القرآن ٥١٧ اختلاط الرجل بالمرأة ٥١٩ وجه اضافة البيت الى زليخا في قوله « التي هو في بيتها » ٥٢٠ لماذا عبر بكلمة « عن نفسه » ٥٢١ عمر يوسف وزليخا حين المراودة ٥٢١ (وغلقت الأبواب) ابواب قصر العزيز ٥٢٢ المراودة وتغليق الابواب ٥٢٣ ما معنى « غلقت » ٥٢٤ (وقالت هيت لك) طلب زليخا الفاحشة من يوسف وإباء يوسف ٥٢٥ (إنه ربي أحسن مثواي) اعتراف يوسف بالجميل ٥٢٧ الأسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة ، توبيخ يوسف لزليخا ضمناً ٥٢٨ تعريض يوسف بزليخا ، المراد بالرب في قوله « إنه ربي » ٥٢٩ (إنه لا يفلح الظالمون) الظالم لا يفلح

الصحيفة والموضوع

٥٣٣ بدء المعركة بين زليخا ويوسف آ (٢٤) ﴿ ولقد همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه كذلك، لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ٥٣٤ (ولقد همت به وهم بها) همت به حلماً وهم بها دفعاً ٥٣٤ برهان ربه هو محبة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ٥٣٥ همت بقتله وهم بقتلها ٥٣٦ البرهان فى قوله «لولا أن رآى برهان ربه» ٥٣٧ الرؤية في قوله (لولا أن رآى) هي رؤيه علمية ٥٣٨ مراب القصد ٥٤٠ الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله إنه هم بمخالطة امرأة العزيز ٥٤٢ (كذلك لنصرف) السوء والفحشاء ٥٤٤ (إنه من عبادنا المخلصين) إخلاص يوسف لله وإخلاص الله ليوسف

٥٤٥ قميص الشهادة آ (٢٥) ﴿ واستبقا الباب، وقدت قميصه من دبر، وألفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ٥٤٧ (واستبقا الباب) هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به ٥٤٨ (وقدت قميصه من دبر) قد القميص ٥٤٩ هل بقى يوسف لابساً قميصه بعد قده ٥٥٠ (وألفيا سيدها لدى الباب) مفاجأة فوطيفار لزليخا ويوسف عند الباب ٥٥٢ انصاح لفظالسيدفىاللغةوالقرآن والتوراه ٥٥٣ (قالت ماجزاء من أراد الخ) المرافعة والاتهام ٥٥٥ السافض في حكم زليخا على يوسف، ارتياب العزيز فى زوجه منذ بدء بكلمها ٥٥٦ماالمراد بكلمة «الأهل»، ٥٥٦ زليخا تضيف نفسها الى زوجها إعظاماً للخطب ٥٥٧ زليخا بادر بالكلام خشيه أن يسبقها فيه يوسف او زوجها، إطاله زليخا الكلام فى الشكوى، عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية، إخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام

الصحيفة والموضوع

٥٥٨ القميص المقدود كان دثاراً ، سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز
واسم امرأته ، الثأر هو الدافع للتهمة .

٥٥٩ المحاكمة آ (٢٦ و ٢٧) ﴿ — قال هي راودتني عن نفسي ، وشهد
شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين
وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ ٥٦٠ (قال
هي راودتني عن نفسي) دفاع يوسف ٥٦٢ (وشهد شاهد من أهلها)
الشاهد والتحقيقات ٥٦٥ شهد شاهد بمعنى آخر حاضر أو حكم حاكم
٥٦٧ موجبات الحكم ، من هو الحاكم ٥٦٨ مرادفات الشاهد ، نفي
كون الشاهد كان طفلا ٥٦٩ تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم ، لم يكن
الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء ٥٧٠ تغلب الحق على القوة
مشابهة الشاهد لبعض الحكام والحكماء ٥٧١ جواز الحكم بالقرائن والاستدلال
بالامارات ٥٧٦ سبب تأخير أمارة صدق يوسف على أماره صدق امرأة
العزيز ٥٧٨ (وإن كان قميصه قدّ من دبر الخ) هل كان يوسف لابسا
القميص المقدود حين التداعي ٥٧٩ احتقار الشاهد لامرأة العزيز رغم
مقامها ، قدّ القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار

٥٨٠ وثيقة البراءة آ (٢٨) ﴿ فلما رأى قميصه قدّ من دبر ، قال إنه من
كيدكن ، إن كيدكن عظيم ﴾ ٥٨١ (فلما رأى قميصه الخ) تبرئة
يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها ٥٨٣ رب مجة في وسطها منحة ٥٨٤ حفظ
القميص المقدود للعبرة والذكرى ، تبادل التهنئة والشكر ، مرادفات الكيد ،
الكيد والمكر من صفات الضعفاء واليهود ٥٨٥ كيد المرأة ٥٨٨ فضل المرأة

الصحيفه والموضوع

٥٩١ كيد النساء وكيد الشيطان ٥٩٢ قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

٥٩٢ نتيجة الحكم آ (٢٩) ﴿ يوسف ، أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ ٥٩٣ طلب الاعراض عن يوسف ٥٩٥ (واستغفري لذنبك) طلب الاستغفار من زليخا ووعظها ٥٩٧ بعض فضليات النساء في التاريخ ٥٩٨ لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة، بدا فوطيفار أو كتنا ووه نفح ٦٠٠ احتمال انصاف العزيز بشيء من فساد الاخلاق ٦٠١ احتمال خوف العزيز من اسرة زوجته وضعفه تجاهها ٦٠٢ احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين ٦٠٣ احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته ٦٠٤ معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير ٦٠٥ عقاب المراودة فى الشريعة هو الاستتابة مع التعزير ٦٠٧ (إنك كنت من الخاطئين) العزيز يخطىء زوجته ويوبخها ٦٠٨ معنى الخطأ

٦٠٩ كل سر جاوز الاثنين شاع آ (٣٠) ﴿ وقال نسوه في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ا قد شغفها حباً ، إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾ ٦١٠ وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس ٦١٢ (امرأه العزيز تراود فتاها عن نفسه) انتشار حديث السوء ٦١٣ نسبة زليخا الى زوجها فى حديث السوء واغفال اسمها ٦١٥ تسمية العبد فتى ، تسمية حاكم مصر عزيزاً ٦١٦ (قد شغفها حباً) شغف الحب ٦١٧ أمثله من غرام النساء بالرجال ٦١٩ العشق بين الرجل والمرأه وبالعكس ٦١٩ (إنا لنراها فى ضلال مبين) تلوم السيدات الخمس على امرأه العزيز حبها ليوسف

الصحيفة والموضوع

٦٢١ إقامة الحجة على النسوة الخمس آ (٣١) ﴿ فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت اليهن . وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ! ماهذا بشراً ! إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ٦٢٣ بلوغ امرأة العزيز اغتياب النسوة لها ٦٢٤ وجه تسمية الغيبة مكراً ٦٢٦ (أرسلت اليهن) دعوة امرأة العزيز للنسوة ٦٢٨ (وأعتدت لهن متكأ) المطعم الصائد ، المتكأ ٦٢٩ معنى أعتدت معنى المتكأ ٦٣١ (وآتت كل واحدة منهن سكيناً) سكين الطعام ٦٣٣ (وقالت اخرج عليهن) اجتماع المحب والحبيب والعوادل ٦٣٥ (فلما رأينه أكبرنه) انقلاب العوادل محبين ٦٣٦ عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً ، احترام النسوة الاقصى ليوسف ٦٣٧ (وقطعن أيديهن) ٦٣٩ وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز ، احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع ٦٤ أمثلة للنسوة اللائي جرحن أيديهن في التاريخ ٦٤٢ حمل التقطيع على التحرير والتشطيب ٦٤٣ كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن ملك مصر ، جمال يوسف ٦٤٥ (وقلن حاش لله) النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر ٦٤٦ (ما هذا بشراً) المغالاة طبيعة في المرأة ٦٤٧ (إن هذا إلا ملك كريم) النسوة اللائمات ينقلن الى متغزلات مادحات

٦٥ لوم واعتراف ووعيد آ (٣٢) ﴿ قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ ٦٥١ لوم زليخا للنسوة ٦٥٣ (ولقد راودته) اعتراف زليخا للنسوة ٦٥٤ زيادة وقاحة زليخا ، عدم صبر النساء على حفظ الاسرار ٦٥٥ اعتراف

الصحيفة والموضوع

فاسقة لهواتس ، الاعتراف السري ٦٥٦ (ولئن لم يفعل الخ) انذار زليخا ليوسف ٦٥٧ وعيد زليخا ليوسف دون وعده ، دلائل نفوذ زليخا وشموخها

٦٥٩ المناجاة آ (٣٣) ﴿قال رب ، السجن أحب اليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن أصب اليهن ، وأكن من الجاهلين﴾ ٦٦ (قال رب السجن الخ) مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه ٦٦١ سبب سكوت يوسف في حملة النسوة المدعوات ٦٦٢ كيف كانت مشقة دخول السجن أحب الى يوسف مما تدعوه النسوة اليه ٦٦٣ لماذا نسب يوسف الدعوة لجميع النسوة ٦٦٨ (وإن لا تصرف عني كيدهن (الخ استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة ٦٧٠ الدعاء الى الله تضرعاً وخفية ، الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة

٦٧١ استجابة الدعاء آ (٣٤) ﴿فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم﴾ ٦٧٢ (فاستجاب له ربه) أشكال الدعاء ٦٧٣ استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه ٦٧٤ كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع أنه سجن بعد ذلك

٦٧٥ يوسف في السجن آ (٣٥) ﴿ثم بدا لهم ، من بعد ما راوا الآيات ، ليسجننه حتى حين﴾ ٦٧٦ لماذا سجن يوسف ٦٧٨ حالة يوسف عند دخوله السجن ٦٧٩ سائح سجن يوسف ٦٨ متى سجن يوسف ، مرادفات لفظة « بدا » ٦٨١ من هم الذين بدا لهم سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك ٦٨٢ سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن ٦٨٣ الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليكها الرئان ، دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى مهم

الصحيفة والموضوع

٦٨٤ بعض الأنبياء والصلحاء الذين سجنوا ، تحسر يوسف ، وهو في
السجن ٦٨٥ مكان سجن يوسف السجن في زمن النبي ﷺ والصحابة
(رض) ٦٨٦ ماهي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

٦٩٠ سجن الفتيين ورؤياهما آ (٣٦) ﴿ ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما
إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً
تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ﴾ ٦٩٢ (ودخل معه
السجن فتيان) من هما الفتيان السجناء مع يوسف وما سبب سجنهما
٦٩٣ عناية عزيز مصر من سجن يوسف مع الفتيين ، الفتى والرب في
اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الاسلامي ٦٩٤ قال أحدهما
إني أراني الخ) رؤيا الفتيين ٦٩٦ ملوك مصر الأقدمين والخمر ، أقوال
في الخمر ومصارها ٦٩٧ الخمر عند الامم العربية وفي كتب الدين المسيحي
وفي القرآن والحديث ٧ هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في
في زمن يوسف ١ ٧ الخمر عامة هو ماتعصر او نبذ ، الرؤى الصريحة
٧٠٢ اطلاق ضمير المفرد على المثنى والجمع في لغة العرب ، احسان
لأهل السجن ٧٠٣ الاعتراف باحسان يوسف

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الاول

الصحيفة والموضوع

٣٠ فى دفع شبهة المحاردة على سورة يوسف (ع) ٣٦ إنقاف النبي (ص) على طائع يهود المدينة ٤٠ في هل اخوة يوسف (ع) أنبياء ؟ ٧١ في تقليد المفسرين بعضهم لبعض ٧٨ بطائر لفظة « الر » في التوراة والانجيل ١٢١ لماذا عبر بأن قصص القرآن هو أحسن القصص ١٣٨—١٧٧ قصص التوراة ٣٢٨—٣٣٦ قال قائل منهم الخ ٣٧٢ فلما ذهبوا به الخ ٣٧٤ فلما ذهبوا به الخ ٣٨٦ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ٣٩٨ فأكله الذئب الخ ٤٤٧ وشروه بثمن بخس الخ ٤٦٠ وقال الذي اشتراه من مصر الخ ٥٢٥ إنه ربي أحسن مثواي الخ ٥٣٤ ولقد همت به وهم بها الخ ٥٤٢ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء الخ ٥٧٨ وإن كان قميصه قدّ من دبر الخ ٥٩٧ واستغفري لذنبك الخ ٦٢٣ فلما سمعت بمكرهن الخ ٦٢٦ أرسلت اليهن ٦٣٧ وقطعن أيديهن ٦٨٠ و٦٨٦ ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات

حدول الاحطاء المطبعية وتصويبها في الحرء الاول

صحيفة	سطر	الخطأ	التصوب
١٢	١٣	سىة وىيف، لم يكں	سىة وىيف ، وتركه مسوداً بحط ىده في ىصع وستيں كراساً قمت ىتبييصهـا ىعد ما سقت مواصيعها ورتبتها وصبطت الآيات القرآنية ثم وصعت للمواصيـع عناوين تناسبها وشرحت ىعص الكلمات في الهـامش ووصعت فهرس الكماب وفهرس الواصيـع التي انفرد المؤلف في فهمها وقسمت الكتاب الى حرئين الحرء الأول من مقدمة السورة الى الآىه ٣٦ والحرء الثاني من الآىة ٣٧ الى آحر السوره ، فاں طهر في الكـاب هفوات أو أحطاء فما دلك إلا من ىقصيري وعحري، اداالعصمة للّه وحده، هدا ولم ىكں
١٧	١٠	السيد رشد رصا	السيد محمد رشيد رصا
٢٣	١٥	العرلية	العرىة
٢٥	١٣	ىطبيقها	ىطبيىها
٣٠	١	عَحَرَ	عحر د
٣١	٩	العرىر	العر ر
٣٦	١٩	ويمثلوا	يمثلون
٦٧	١٢	ىعور	ىعود
٧١	٧	يحصره	يحصروه
٧٩	٦	كثىره	كثىر

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٥	٤	مكاس	مكاتيب
٨٥	١٤	كتيراً	كثيراً
٩١	١٥	مرول	رول
٩٢	٣	عسَد	عِنْسَد
٩٩	١١	ىلاعتها	ىلاعتها
١٠	١٣	وويهم	وفهم
١٠٤	١١	املعه	اللعة
١١٢	١	آ(١)	آ(٢)
١١٨	١٥	العرافيين	العراقيين
١٢٣	٣	أحلامه ومں أحل	ومں أحل
١٣٧	٨	ىلاث	ثلاثا
١٤٣	١٦	إد	إدا
١٤٧	٥	وإعـّا	اـّعا
١٤٧	٩	ان	إنّ
١٤٧	٢١	ومال الرب	فقال ملاك الرب لموح
١٤٩	١٤	ص (٢٢٠)	(ص ٢٠ ٢)
١٥٢	١١	عَعدَد	عمْدَ
١٥٥	١	اسرائيل، لا ىصلح أن	اسرائيل (ىاك ٣٦ ٣١) وقوله وملها ملك ملك لبى إسرائيل، لا ىصح أن
١٥٨	١٣	(٣ ٢٨)	(٤ ٢٨)
١٥٩	٢	الحطيئة	الحطية
١٧٠	١٣	رىعام	يرىعام
١٧١	٦	للكدب	الكدب

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
١٧١	٨	وأمر الرب	وأن الرب
١٧٣	٦	طاردتك	طاردك
١٧٣	١٨	التواة	التوراة
١٧٤	١٨	فطُرَ الناسَ	فَطَرَ الناسَ
١٧٧	١	آ (٢)	آ (٣)
١٨١	١١	وهو تربية	الا وهو تربية
١٩٥	٢	يحل	تحل
١٩٦	٦	يحساً	بحساً
٢٠٣	١٤	(ص)	(رص)
٢١٩	١٥	يا ُسَيّ إن اللهَ	يا نبيّ إن الله
٢٢١	١٦	ماحدا	ما حدا
٢٢٢	١٤	بين وأبيه	بين يوسف وأبيه
٢٣٧	١٢	شتَرَوا	اشتَرَوا
٢٣٨	٨	توفير	توقير
٢٤٥	١	والاعلام	وللاسلام
٢٤٧	٩	أن نمايلَ	ان لا تقابلَ
٢٤٨	٨	ان تُصه	ن نفقّة
٢٦١	١٧	لكم حكم مقتدس	لكم مقتدس
٢٦٢	٧	سحص	شخصي
٢٦٣	٣	ووثي	ووتدي
٢٧٥	١	نعقبة	نعاقبة
٢٨١	١	المهمة	الهامة
٢٨١	٤	فمّا	فتدّا
٢٨١	٩	المهمه	الهامة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٢٨٢	١	اسباب عواءالاحوة الهامة	اسباب عداء الاحوة المهمة
٢٨٢	١١	تتحيلون إن	يتحيلون أن
٢٨٢	١١	يطوون إنه	يطوون أنه
٢٨٢	١٥	واد دادو	واردادوا
٢٨٣	١١	لحرُمته	لحُـْرمته
٢٨٤	٤	وإن	وأن
٢٨٥	١٨	فا استطارت	فاستطارت
٢٨٧	١٤	فيسعي	فيسعي
٢٨٨	٨	َقَيات	قهات
٢٨٨	٩	سلمانُ	سليمانَ
٢٩٢	١٠	أولوا	ألُو
٢٩٥	٤	َتَروك محبّاً	يَرَوكَ ُمحباً
٣٠٤	١٣	ُثمَ اتحدتم	ُثمَّ اّتحدْتُم
٣٠٥	١٣	المدنية	المدبية
٣١	٧	قيل أنه	قيل إنه
٣١٦	١٦	صيرت	صيدت
٣١٦	١٧	فيها	منها
٣١٨	٢	مع أساءَ	مع أساءِ
٣١٨	٦	الكلمة السابقة	الكلمة السابعة
٣٢٠	١٥	ورواد	ويرداد
٣٢٠	١٨	يوسف من الحسد	يوسف هو من الحسد
٣٢٣	٣	فالصيهوبيين	فالصيهوبيون
٣٢٥	١١	﴿ قال قائل ﴾ منهم	﴿ قال قائل منهم ﴾

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٣٢٧	١٩	فإن قلتم أنه	فإن قلتم إنه
٣٣٢	١٧	الحب على	الحب من
١٣٤	١٥	بدل	بدل
٣٣٥	٧	الكلمة السابعة وهي الأخيرة	الكلمة السابقة
٣٣٧	١	آ (١٠)	آ (١١)
٣٣٧	٤	أحس	أحسّ
٣٤٦	١٣	والصّر	والقرّ
٣٤٧	٢	إن الكثير	أنّ الكثير
٣٤٧	١٦	لاسمح إلله	لاسمح الله
٣٥٠	٨	حدا الوعد	حُد الوعد
٣٥٢	٢	عليكم إنكم	عليكم أنكم
٣٥٣	١٧	إداً لدَهبَ	إذاً لَذَهَبَ
٣٥٨	٣	كأنها حانٌ	كأنها حانٌ
٣٦١	١٤	ومعناها إن	ومعناها أن
٣٦١	١٧	معناها ، إن	معناها ، انّ
٣٦٣	١٢	دومان	دوثان
٣٦٣	١٩	ليس لماقطّ	ليس لما قطّ
٣٦٨	٤	(بالعرر)	(بالعرير)
٣٨٠	١٨	في والدهم	والدهم في
٤٠١	١	والأصرار	والإصرار
٤ ٣	١٣	وافترّا	وافتَرّا
٤٠٨	٥	(ص)	(رص)
٤١٠	١٤	والملا	والملاء

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٤١٨	٢٠	الصليبيين	الصليبين
٤٢٢	١٧	حشويوا	حشويو
٤٥٠	٥	عود الصمر	عود الصمر
٤٥	١٨	(شروه،واشتروه)	(شروه ، اشتراه)
٤٥٤	١٣	وقد أمرا	وقد أمر
٤٦٦	٢	فان	وإنّ
٤٦٨	١٧	سأتلف الحال	سأتلف المال
٤٦٨	٢٢	باسم بنه	بنته
٤٧٨	١٣	فهو أمر	وهو أمر
٤٨١	٢٢	حيات	جهات
٤٨٢	١١	الثالي	الثاني
٤٨٤	٢٠	فوامس	نوامس
٤٩١	١	آ (٢٠)	آ (٢٢)
٤٩١	٥	فمعاس	ويقعنسس
٤٩٣	٢	نقرر	نقدر
٤٩٩	٩	حمسةَ	حمسةُ
٥٠٧	٢	الغار	الفار
٥١٢	٥	بهة	بهسة
٥١٣	٨	السيد	السيدة
٥١٨	٢٣	يحمُرِهِنّ ولا ننديَ	يحمُرِهِنّ على حُيُورِهِنّ ولا يبدين
٥١٩	٢٢	تَكهُلونهُ	تَكهُلونَهُ
٥٢١	٧	وحموتها	وصوتها
٥٢٥	١	في الجميل	بالجميل
٥٢٦	١	في الجمل	بالجميل

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٥٣٤	١	همت به حلياً وهم بها وقعاً	همت به حلماً وهم بها دوماً
٥٣٥	١٦	لسان	ولسان
٥٤١	١١	المُخلِصِينَ	المُخلَصِينَ
٥٤٢	٥	كذلك	(كذلك)
٥٤٤	١٦	المُخلِصِينَ	المُخلَصِينَ
٥٧٧	١٢	عقار	عقاب
٥٦١	٢	معصلا	معضلا
٥٩٢	١٦	لِدَنْيَاكَ	لِدَيْنِكَ
٦٠٠	١٩	فأصلحوا	فاصطلحوا
٦٣٥	١٦	يكون « يتبوع »	يكون يوم « يشوع »
٦٤٣	١	التحرير	التحرر
٦٦٥	٧	أحدمية	أحزمية
٦٦٧	١٧	وسمة	وسمه
٦٩٥	١٤	حَوّاري	حَوّارى
٦٩٧	٧	حكال واكال	حكا كاً واكالا
٦٩٧	٨	وشور	وسوراً
٧٠٢	٤	لمى	المنى

وهناك اخطاء اخرى لاتخفى على القارىء